جامعة الجزائر -2- أبو القاسم سعد الله
كلية العلوم الإنسانية
قسم التاريخ

البعد الديني للفكر الاستعماري الفرنسي خلال القرن 19م

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالبة:
بوجناح دليلة

إشراف الأستاذ الدكتور:
لزهر بديدة

لجنة المناقشة:

الأستاذ	الدرجة العلمية	الجامعة	الصفة
أ. د. مولود عويمر	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	رئيسا
أ. د. لزهر بديدة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	مشرفا ومقررا
أ. د. نادية طرشون	أستاذ التعليم العالي	جامعة المدية	مقررا
د. نورالدين إيلال	أستاذ محاضر	جامعة البليدة 2	مقررا
د. علال بيتور	أستاذ محاضر	جامعة الجزائر 2	مقررا
أ. د. سعدي بن أزواو	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	مقررا

السنة الجامعية : 1439 – 1440هـ / 2018 – 2019م

جامعة الجزائر -2- أبو القاسم سعد الله
كلية العلوم الإنسانية
قسم التاريخ

البعد الديني للفكر الاستعماري الفرنسي خلال القرن 19م

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالبة:
بوجناح دليلة

إشراف الأستاذ الدكتور:
لزهر بديدة

السنة الجامعية : 1439 – 1440هـ / 2018 – 2019م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى من يستحقا الإهداء والوفاء والتقدير، إلى من زرعا البذرة وسقاياها، **أمي الغالية**، منية نفسي وسندي في الحياة، حكمتي، علمي، أدبي، حلمي، طريقي المستقيم، ينبوع الحنان والصبر والتفاؤل والأمل، إلى أهم من في الوجود بعد الله ورسوله، أطال الله في عمرها. وإلى من كلّله الله بالهيبة والوقار، إلى من علمني العطاء دون انتظار، إلى من أحمل اسمه بكل فخر وأفتقده، ويرتعش قلبي لذكره، إلى من استودعني الله، **والدي رحمه الله.**

إلى سندي في الحياة وقوتي وملاذي بعد الله، إلى من آثروني على أنفسهم، إلى من علّموني الحياة، إلى من أظهروا لي ما هو أجمل من الحياة نفسها، إخواني وعائلاتهم كلّ باسمه حفظهم الله ورعاهم.

إلى الروح التي لا مست روحي، وفارقت الدنيا دون أن تُفارقني.

شكر وعرفان

"من لم يشكر الناس لا يشكر الله"

ومهما شكرت فأنا متأكدة أني لن أوفي الناس حقهم، فبعد الحمد لله سبحانه وتعالى على توفيقه لإكمال هذا البحث، أرى أن الواجب يدعوني إلى الإعراب عن شكري الجزيل وتقديري العميق لكل من مدّ لي يد المساعدة بالتوجيه والنصح، سائلةً المولى عزّ وجلّ أن يجازيهم عني خير الجزاء وأن يوفقني وإياهم إلى ما يحبه ويرضاه.

أحرص أولاً على تقديم شكري وامتناني لأستاذي المشرف على هذا العمل، الأستاذ الدكتور **"لزهر بديدة"** لقبوله عناء الإشراف والتأطير والتوجيه.

وكلمة شكر وعرفان لأستاذي الدكتور **"محمد العربي الزبيري"** الذي كان لي شرف التتلمذ على يديه، جزاه الله عني خير الجزاء وأجزل له الأجر والمثوبة.

كل عرفاني وشكري لكل الأصدقاء والصديقات والأساتذة في مسار الدراسة والعمل الذين ساعدوني بشكل أو بآخر، وأخص بالذكر الأستاذة الدكتورة **"سامية بوعمران"** التي جمعتني بها عدة جلسات علمية، ناقشتني موضوعي، خاصة في مجال تخصصها، والأستاذة **"سميرة لحمر"** وتلك الساعات الطويلة في المكتبة، أين كنا نناقش كل كبيرة وصغيرة في مواضيعنا، وشكر خاص وعرفان إلى الأستاذة **"شهرزاد لمجد"** و **"فايزة بوشيبة"** و **"ليلى غويني"** و **"فاطمة الزهراء يعيش"** على كل كلمة طيبة دفعتني إلى الأمام لأواصل.

مقدِّمـــــــة

يكتسي البُعد الديني في الفكر الاستعماري عمومًا، والفرنسي خصوصًا أهمية بالغة تجلّت بوضوح في قرون متأخرة، وتحديدًا ما يُعرف بمرحلة الحديث والمعاصر، وهي أبرز وأهم النتائج التي توصلت إليها عند إنجازي لمذكرة الماجستير بقسم التاريخ جامعة الجزائر الموسومة "تطور الفكر الاستعماري الفرنسي من خلال النظريات والممارسات خلال القرن 19م"، حيث بدا لي أن المشاريع الغربية ومنها الفرنسية والموجهة إلى قارتي إفريقيا وآسيا على وجه الخصوص، وبدرجة أقل القارة الأمريكية، وبحسب ما استخلصته من دراستي السابقة، لها علاقة أكيدة بالكنائس المسيحية، باعتبار الأخيرة المعبّرة والقائدة بلا منازع للديانة المسيحية بمختلف مذاهبها وتوجهاتها، فهي تحمل بين طياتها في الظاهر والعلن فكرًا ومنهجًا، الهدف منه العمل والسعي الدؤوب إلى الهيمنة والسيطرة على الشعوب والدول غير المسيحية، وعلى وجه التحديد الشعوب والدول الإسلامية.

وانطلاقًا من هذا الفكر الساعي إلى الهيمنة والسيطرة، تعرّض العالم الإسلامي لهجمات عديدة ومتميّزة، وبطرق وأشكال متعدّدة طيلة قرون، وكل هذه الهجمات كانت مشبّعة بفكر كنسي مشحون بالحقد والكراهية للإسلام نشره رجال الدين والرهبان، وتأججت الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامي والتي كانت تهدف في الظاهر إلى استرجاع المناطق المقدسة، بالنسبة لهم، مع العلم أنه رغم الانهزام الذي مني به هؤلاء في حروبهم، إلاّ أنهم لم يتوقفوا، بل اتخذوا وسائل جديدة من أجل السيطرة، وهو ما ظهر في العصور الحديثة، حيث تبلورت مفاهيم في الفكر الاستعماري الحديث ولكن بصيغ جديدة.

وكان من بين هذه الصيغ، اعتماد حركة الكشوفات التي أوهم من خلالها أصحاب الفكر الريادي للعالم الاستعماري وبقية الشعوب على أن مهمتهم تتجسّد في جلب الحضارة وتطوير العالم المتخلّف (الإسلامي أنموذجا) وأظهروا أنهم مستعدون لتقديم التضحيات اللاّزمة لإتمام وإنجاز هذه المهمة النبيلة (تمدين العالم).

فكان عصر النهضة بمثابة الخطوات الأولى للتعدي على العالم الإسلامي بشتى الطرق، حيث ساعد على انتشار المراكب الاستكشافية بحثًا عن طرق جديدة اقتصادية، غايتها عادةً ما تكون دينية وسياسية.

فالتنافس الاسباني البرتغالي على مناطق النفوذ، تطلّب تدخل الكنيسة، كما كان خروج السفن يتطلب في كل مرة مباركة الكنيسة والبابا، وإن لم تكن هي من موّلتهم مباشرة، أو تطلب من أحد الملوك الأوروبية تمويلهم، وكل هذا من أجل نشر المسيحية في العالم، وابتدءا من هذه المرحلة سيحتدم الصراع بين دول العالم أو القوى العالمية المسيحية على العالم الإسلامي.

بتتبع تطور الفكر الاستعماري ونظرياته ومدارسه ومفكريه، الذين نظّروا لهذا الفكر وأسسوا مراميه وأهدافه، تبين أن للدين أهمية كبيرة وأساسية في هذا البناء، بل هو أساسه. فرغم علمانية القوى الاستعمارية منذ بداية حركة الأفكار والتنوير فيها، والذين حاولوا التخلص من التسلط الكنسي، ولكن في كل مرة تواجد الكنيسة أهم وأكبر، حتى وإن لم يكن واضحًا، فهذه الشعوب التي تنادي بالعلمانية تنتظر مباركة البابا والكنيسة في حملاتها (عسكرية، استعمارية، دينية أم فكرية)، مهما كانت تسميتهم لهذه الحملة، أخذت من الدين – عن طريق المنصرين – عنصرًا أساسيًا لبسط نفوذها والتوسع وحل مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية.

فالحملة الفرنسية على مصر (1798م) والعدوان على الجزائر (1830م) لم يكن إلاّ بمباركة الكنيسة والبابا، ومنه فإن سيطرة القوي على الضعيف ليس بالأمر الجديد على الغرب المسيحي. فمهما كانت ذريعتهم، فإن الغاية واحدة، وهي تتحجج بتطوير العالم وإخراجه من الجهل والمناداة بالمهمة التحضرية، الإنسانية، التنصيرية، كلها تصبّ في مجال واحد وهو السيطرة على العالم.

تيقّن الغرب المسيحي من أهمية رجال الدين ونشاطهم من أجل تعبيد الطريق للمستعمر، وفتح الأبواب له، وأعلنوا أن الدين ضروري في المستعمرات الآهلة بالعبيد، الذين لا يمكن أن يأملوا في حياة أفضل إلاّ بعد الموت، فبذلك أصبح الدين أو المعتقد يستعمل من طرف السياسيين والإداريين عن طريق رجال الدين لتخدير الشعوب، وهو وسيلة ناجحة لتضييق الخناق على الشعوب.

كما كان عمل الكنيسة يهدف إلى اختراق المجتمعات الإسلامية، ومحاولة زعزعة الدين بداخل الفرد، وحتى وإن لم يتمكنوا فيكتفون بإبعاده عن دينه، وكان من أجل تحقيق

ذلك القيام بدراسات مختلفة ومتنوعة ومؤتمرات وجلسات أفضت كلها إلى الخروج بنظريات وخريطة طريق تم تطبيقها على المجتمعات الإسلامية من أجل تحقيق السيطرة.

لقد كانت هناك دراسات قائمة على إحصائيات وأرقام وتقارير، جلبها المنصّرون والتي مثلت مادة هامة للدراسة، موهمين العالم برغبتهم في العمل على تطوير الشعوب المتخلفة، إلاّ أن تدخلهم في المنطقة كان سببًا – بعد خروجه – في الفقر والجهل والانشقاق بكل أنواعه، عرقي، ديني، فكري، سياسي، فوضى عارمة من الصعب إصلاحها، بل غادروا المناطق وهم متأكدون ببقاء الشعوب رهينة لثقافتهم وحضارتهم.

عملت الكنيسة منذ البداية على رسم صورة قائمة للمسلم في نظر الفرد المسيحي، تهدف من خلالها إلى تخويف المسيحي، مما يدفعه إلى محاربة كل ما هو مسلم، على اعتبار أن هذا الأخير سفاح كاذب، ومتوحش ولا يفهم سوى لغة السلاح والاضطهاد. لكن الكنيسة عملت كذلك على تطوير هذا المفهوم بإضافة صفة الفوضى والجهل والتخلف للمسلم، وفي نفس الوقت إظهار التفوق الغربي المسيحي، بحيث يمنحه الحق في السيطرة على المسلم والمناطق الإسلامية، بحجة أن هذا الأخير غير قادر على تسيير شؤونه، مما يتطلب الوصاية أو الحماية من طرف القوى المتطورة والمتقدمة التي حملت على عاتقها مهمة تحضير وتخليص العالم.

هذا التفكير – وهو واجب تخليص العالم من الدرن – ينبثق من الفكر والقناعة الكنسية، على أن المسيح أُنزل إلى الأرض من أجل التغيير، بل ضحّى بنفسه من أجل الخلاص ونجاة العالم. على هذا الأساس تبنّت الكنيسة الفكرة وطورتها، إلى أن تبنّاها السياسيون والإداريون لتحقيق الأهداف، التنصيرية من جهة، والاستعمارية من جهة ثانية للوصول إلى السيطرة وريادة العالم.

إن تخليص العالم – في النظر الكنسي – لن يتحقق إلاّ بالسيطرة على المناطق المقدسة، التي مثّلت ولا تزال غاية المسيحيين بمختلف طوائفهم، ولهذا أبدعوا بنظريات وخطط لتحقيق ذلك، فبعد استنفاذ لغة السلاح، لجأ الكنسيون إلى عمق الفرد والمجتمع الإسلامي للسيطرة على فكره وروحه، والانتقال بذلك من الاستحواذ على الفرد إلى السيطرة على المجتمع، فالأمة ككل.

وكانت أهم وسيلة في ذلك القيام بإرساليات مستمرة ومتعدّدة، محمية بقوانين كنسية محلية ودولية، ومدعمة ماديًا ومعنويا، خدمة لهذا التوجه والهدف.

أهمية الموضوع:

ربما تكمن أهمية الموضوع في هذا البحث عن البعد الديني في السيطرة الاستعمارية، وكيف كان عنصرًا أساسيًا في التوسع، ومحاولة إظهار الامتداد بين هذه الحركة الاستعمارية المعاصرة والحروب الصليبية، والاهتمام التاريخي والاستفادة منه الآن فيما يحدث في العالم الإسلامي، وهذا من خلال نظرتهم وكتاباتهم.

سبب اختيار الموضوع:

يعود سبب اختياري لهذا للموضوع أنني بتتبع نظريات الفكر الاستعماري بأنواعها وأبعادها الاقتصادية والسياسية والثقافية منها، لاحظت أن كل هذه النظريات باختلاف أبعادها يحركها بُعد ديني واضح، وذلك أن الكنيسة تحوّلت عبر العصور من الهيئة الدينية الروحية إلى هيئة أو مؤسسة سياسية وذلك بتشبهها بالإمبراطورية، إداريًا وماليًا وعسكريًا.

ثم نلاحظ محاربة هذا المستعمر للدين الإسلامي، العمل على هدم الإرث الحضاري العربي الإسلامي وبكل الطرق والوسائل، وأهمها إحياء الحضارات القديمة وإعطائها الأولوية والأهمية على التواجد الإسلامي في المناطق الإسلامية.

إشكالية البحث:

من خلال ما سبق، ومما توفّر لي من معطيات ومعلومات حول الموضوع، ظهر لي أن الانشغال الأساسي والمهم هو البحث في جوهر العلاقة بين البُعد الديني الكنسي وطبيعة الفكر الاستعماري، وهو الأمر الذي دفعني إلى البحث أيضًا في العلاقة بينهما، هل هي أصلية، وبالتالي هي علاقة إستراتيجية لها أسبابها ومراميها المتنوعة والمتجددة عبر الزمن والمكان؟ أم هي تحالف تكتيكي يهدف إلى تحقيق مصالح آنية لكليهما، ومن ثمة فهي علاقة تتحكّم فيها وفي استمرارها طبيعة المصالح والأهداف للطرفين؟

وقد ترتب عن هذه الإشكالية تساؤلات عن استفادة كل طرف من الآخر، وإن كان رجال الدين استخدموا الساسة والجيوش وأصحاب رؤوس الأموال لتحقيق أهدافهم الدينية

التنصيرية؟ أم أن الساسة والعسكر ورجال المال هم الذين أقحمموا رجال الدين – الكنيسة – لتحقيق مصالحهم المادية والاقتصادية؟

ويبحث الموضوع في مدى مساهمة الفكر الديني الكنسي ورجالته في ترسيخ الفكرة الاستعمارية ومدى أهمية هذا الدور على مستويات متعددة، خاصة خلال الفترة المعاصرة والتي شهدت اندفاعة مسيحية غربية تجاه الشعوب والدول المسلمة، كما تتوقف الدراسة في كيفية توظيف هذا التوجه – الفكر التنصيري – في خدمة الحركة الاستعمارية، وكيف ساهمت الكنيسة بمختلف مذاهبها في الدفع بالسياسيين والعسكريين وأصحاب رؤوس الأموال إلى السيطرة وبسط النفوذ على العالم الإسلامي والاستحواذ على خيراتها ومقدراته؟

إن هذا التداخل بين الكنيسة والفكر الاستعماري برز جليًا على الرغم من علمانية الدولة الأوروبية والقوى الاستعمارية، مما دفع إلى البحث والتساؤل حول البُعد الديني للحركة الاستعمارية وتجليات ذلك في الحركة الاستعمارية المعاصرية؟ وأن الحملات الاستعمارية التي ميّزت القرن 19م ما هي إلاّ تواصل للحروب الصليبية بصيغة جديدة متطورة وذكية؟

أهداف الموضوع:

يسعى هذا الموضوع إلى الوقوف عند البُعد الديني الاستعماري المسيحي على وجه الخصوص، وفهم منطلقاته وأهدافه، إضافة إلى إبراز دور الكنيسة في التوسع الاستعماري، ومحاولة فهم وتوضيح الصلة والروابط بين أحداث وقعت في الماضي البعيد أو القريب، وعلاقتها بما يحدث اليوم في البلاد الإسلامية من محاولة لتشكيك هذه الأمة في دينها وقيمها، وتقديم النصرانية، والقيم الغربية بديلاً عنها، خاصة نخبها وشبابها، كلّها تعتنق هذه القيم والمبادئ المسيحية الغربية.

الخطة المقترحة:

جاءت هذه الدراسة بمقدمة وخمسة فصول أساسية وخاتمة ومجموعة من الملاحق ذات صلة بالدراسة.

وقد عالج الفصل الأول والمعنون بـ: **أصول العلاقة بين المسيحية والفكر التنصيري**، وهو عبارة عن فصل تمهيدي لأهم المفاهيم التي تدخل في دراسة الموضوع،

والتي تتطلب تحديد مفهومها حسب الموضوع، حيث عرّفت المعتقد وأهميته في المجتمعات، وذلك اعتمادًا على أهم المنظرين في هذا المجال، وكذا الكنيسة كهيئة دينية ثم كمؤسسة، وأخيرًا حاولت ضبط مفهوم الفكر الاستعماري بفروعه، أي الاستعمار، التنصير وأخيرًا الاستشراق.

أما الفصل الثاني والموسوم بـ: **تطور الدعم الكنسي للفكر الاستعماري الفرنسي،** فقد حاولت فيه تسليط الضوء على الهيئات الدينية الكنسية وأهدافها والدور الفكري لرجال الدين في خلق الصورة النمطية للمسلم والإسلام.

وانطلاقا من معطيات الفصل الثاني، واستكمالاً للصورة، خصصت الفصل الثالث والذي حمل عنوان: **تنصر النخبة وخدمة المخططات الاستعمارية،** للوقوف عند ثلاث محطات مهمة وهي: الكتابات والأعمال الأكاديمية الموجهة والتي مثلت أهم حلقة في تنصير المجتمعات الإسلامية على وجه الخصوص، ثم نماذج عن المؤتمرات، وأخيرًا البعثات الدراسية إلى أوروبا ومهمة تنصير النخبة.

ليليه فصلا رابعًا بعنوان: **الإرساليات بين استهداف العامة والمؤامرة السياسية،** والذي قسم إلى مبحثين هامين وهما: الإرساليات وتنصير العامة، والذي حاولت الوقوف من خلاله عند أهم آليات تنصير المجتمع، والمؤامرات السياسية، والذي يمكن اعتباره محور هذه الدراسة، حاولت التركيز فيه على الوسائل المستعملة من أجل القضاء على كل ما يمكن أن يجمع أو يوحّد هذه الأمة الإسلامية، بتبني كل المشاريع الهدامة لروح الأمة الإسلامية.

أما الفصل الخامس والأخير، فقد خصصته لشرح وتوضيح البُعد الديني والفكر الاستعماري، من خلال دراسة نماذج في مناطق مختلفة من العالم وعنونته بـ: **التنصير في المستعمرات الفرنسية،** واتخذت ثلاث نماذج: إفريقيا الوسطى وجنوبها، باعتبارها مناطق كانت ذات معتقدات لا علاقة لها بالديانات التوحيدية، والمشرق الإسلامي، وهو منطقة متعدد الطوائف والمذاهب، والجزائر كنموذج لشمال إفريقيا الإسلامي منذ العصور الوسطى.

توجت هذه الدراسة بخاتمة، عالجت إشكالية الموضوع، وفيها جملة من الاستنتاجات الشافية والوافية، وأخرى ما تزال تحتاج إلى مزيد من التمحيص والتحليل، ومن ثمة قد

تكون منطلق لدارسين وباحثين آخرين لإنجاز دراسات علمية تستكمل الصورة في مناحي أخرى، ومن مصادر أخرى.

أما بالنسبة للمنهج المتبع في هذه الدراسة هو أساسًا التحليلي الاستنتاجي وحتى المنهج الجدلي في بعض الأحيان، فالأول من أجل تحليل الأصول لتحديد دلالاتها وأبعادها وتحليل الوقائع والمواقف لمعرفة اتجاهها، أما الجدلي من أجل تحليل الأحداث وتطوراتها، حيث قمنا برصد المادة الوصفية الواردة في المصادر وتصنيفها وحاولنا تحليلها على ضوء معطيات كتب المفكرين والمنظرين وأهم الدراسات التاريخية المتعلقة بالموضوع، لنصل في النهاية إلى جملة من الاستنتاجات.

وحتى يتم لي ذلك استعنت في هذه الدراسة بمجموعة من المصادر ذات علاقة مباشرة بالموضوع، تنوعت بين مؤلفات المنصرين ورجال الدين والمفكرين والفلاسفة الأوروبيين عامة والفرنسيين خاصة على مختلف تياراتهم الفكرية، فضلاً عن دراسات أجنبية وعربية تناولت جوانب هامة من الموضوع، من مؤلفات ومقالات منشورة في دوريات ورسائل جامعية، أفادتني المصادر الأجنبية عامة والفرنسية خاصة المتخصصة في الفكر الاستعماري والتنصيري في تسليط الضوء على جوانب مهمة في البعد الديني للفكر الاستعماري، وتواصله وامتداده عبر الزمن، وكانت النقطة الانطلاقة من الفكر الاستشراقي والدراسات الاستشراقية، وربما الخطابات الدينية وأهمها **خطاب البابا أوربان II وتحليله** وكذا كتاب **الغارة على العالم الإسلامي** لـ: أ. ل. لوشاتلي، والذي فتح لي أبواب من التساؤلات، وكذلك **تقارير المؤتمرات التي نظمها المستشرقين والمنصرين** كل على حدة، وفي بعض الأحيان معًا، جعلتني أتساءل ما الذي يمكن أن يجمع المفكر والمنصر وفي بعض الأحيان السياسي في نفس القاعة للبحث؟ وتمكّنت من إيجاد الإجابات من خلال ما كتبه رجال الدين، كالأب دان، وبودي وغيرهم كثيرون، ثم من خلال كتابات المستشرقين والمستغربين فيما بعد، موريس بوكاي في **مقارنته للأديان** وتحليله الموضوعي لها وغيرهم.

وكذلك مجموعة من المراجع وربما من أهمها، كتاب مصطفى خالدي وعمر فروخ، **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**، وهو عرض لجهود المنصرين، والتي كانت تهدف لإخضاع العالم الإسلامي، وطلال العترسي وكتابه **الإرساليات ومهمة تنصير النخبة**، والذي وضح لي أهم المخططات التنصيرية والاستعمارية، والمرتبطة بتنصير

النخبة، من أجل خلق طبقة جديدة في المجتمعات الإسلامية لا علاقة لها بمجتمعاتها الأصلية، وكتاب محمد زقزوق **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**، ويركز من خلاله المؤلف على أهداف ومشاريع المستشرقين من خلال كتاباتهم، وكتاب **معركة التبشير والإسلام** لعبد الجليل شلبي، والذي يبحث في جوهر الصراع بين النصرانية والإسلام وحقيقتها، وكتاب أحمد عبد الوهاب، **حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر**، والذي يهتم ويوضح التواصل في التنصير عبر التاريخ ولكن بطرق مختلفة، ما مكنني من الوصول الى العديد من التساؤلات، للوصول الى استنتاجات من خلال الرجوع إلى المصادر، فضلا عن العديد من الكتب المتخصصة في شرح وتوضيح إما مفاهيم أو شخصيات أو مصطلحات مختلفة، وكذا العديد من الكتب المترجمة ك: جاك فريمو **فرنسا والإسلام**، والذي تتبع من خلاله المؤلف أهم المحطات التي تربط فرنسا بالإسلام، ولعلّ أهمها الحروب الصليبية والحركة الاستعمارية الكبرى خلال القرن 19م، وكتاب **الإسلام والغرب** للأستاد مولود عويمر، يحلّل من خلاله الترسبات التاريخية وآثارها على مستقبل هده العلاقة الغريبة بين الإسلام كعقيدة والغرب، والذي يمثل العقيدة الأخرى أو كما سماها هو المعادلة الصعبة.

كما ساعدني في هده الدراسة مجموعة من الرسائل والدراسات الجامعية والتي تخصصت في دراسة التنصير في مناطق معينة في العالم، والتي أفادتني في التعرف على طريقة التنصير والحصول على إحصائيات دقيقة، ولكن تكون دائما محصورة في مناطق محدودة، ولكن هناك دراسة مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه في علم النفس للطالبة سجية مخلوف والتي أعطتني توضيح للجانب النفسي الذي يوضع فيه الأشخاص المراد تنصيرهم وخاصة الأطفال، لأنها تخصصت في الطفل، مكنتني من ربط نتائجها بالمخططات والمشاريع التنصيرية، وتمكنت من خلالها فهم ذهنية المنصر، وأهداف نشاطه، ودراسة أخرى في علم الاجتماع أعطت للموضوع زاوية اجتماعية، ودراسة أخرى في التاريخ، اللغة في المقاومة، للطالب بوخاوش سعيد، التي تناولت أهمية هدم اللغة العربية عند المستعمر والتي لها علاقة وطيدة بمشاريع المنصرين. أضف الى دلك العديد من القواميس والموسوعات المتخصصة، ومجموعة من المقالات الأكاديمية والصحفية التي استعنت بها لشرح ظاهرة أو فكرة معيّنة في وضع أو حدث معين.

إنّ هذه الدراسة ما هي إلاّ محاولة للإلمام قدر الإمكان بأهم جوانب الموضوع، بإعطاء صورة عن هذا الصراع المتواصل بين الكنيسة والإسلام، والذي اتخذت طابع استعماري، والتي كان لها أثر كبير على الفكر الاستعماري وكيفية أو آليات تطبيقه. وأرجوا أن يكون هذا المجهود المتواضع قد أضاء ولو بالقليل على الموضوع.

وفي الأخير لا يفوتني أن أوجه الشكر الجزيل إلى أستاذي، الأستاذ الدكتور **لزهر بديدة** الذي أفادني بخبرته العلمية، ولم يبخل عليّ بتوجيهاته السديدة طيلة مراحل البحث، ليخرج هذا العمل إلى النور.

الفصل الأول:

أصول العلاقة بين المسيحية والفكر التنصيري

- المبحث الأول: مفهوم مصطلح الدين أو المعتقد
- المبحث الثاني: الهيئة الكنسية وتنظيمها
- المبحث الثالث: مفهوم الفكر الاستعماري بفروعه

للمعتقدات عبر العصور أهمية كبيرة غيّرت في معظم الأحيان سير الحياة الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية، ولعبت في كل مرة منعطف حاسم في حياة الإنسانية، وكان المعتقد الديني يسير بالتوازي مع الحياة اليومية للفرد غني أو فقير كان، وذلك عبر العصور، وباختلاف المعتقدات التي عرفها العالم، من الوثنية إلى الإسلام، مرورًا بالمسيحية واليهودية.

المبحث الأول: مفهوم مصطلح الدين أو المعتقد

لغة، بمعنى العادة ويطلق عليها بمعنى أوسع: الحق والباطل(1).

المعتقدات الدينية هي كثيرة ومتنوعة ومختلفة، ولذلك فإن من الصعب وضع تعريف شامل وكامل من طرف الباحثين، وعادة أتباع كل دين يعرّفون معتقداتهم بأنه الإيمان بقوة عظيمة قوية وهي التي تسيّر الناس فتأمرهم بقيم أخلاقية، وتبشرهم بحياة أخرى، لكن مثل هذا التعريف قد لا يصدق على كل المعتقدات في العالم(2).

ولذلك يجب حين نحدّد معنى الدين أن نستثني بعض الخصائص التي لا تنطبق على كل الديانات ونبتعد عن الوحدانية، لأن هناك معتقدات تؤمن بالتثليث وأخرى ليس لها مفهوم الإله، وبذلك يمكن تعريفه أنه مجموعة من الأفكار والتي تبين الغاية من الحياة والكون، وهو عادة مرتبط بكل ما وراء الطبيعة والإلهيات والأخلاق، وهو ما يربط البشر بالكون، وهي منظومة من المعتقدات يعتنقها أعضاء المجتمع وتشترك فيها جميع الديانات، وهي تتضمن مجموعة من "الرموز" ينظر إليها بنوع من الهيبة والإجلال والاحترام، وهي تجسّد على شكل مجموعة من الطقوس والشعائر أو الممارسات، والتي يقوم بها من يؤمن بأحد المذاهب، كما تمثل العقيدة الدينية جانبًا مهمًا من حياة الإنسانية، وإذا درسنا التاريخ فإننا نكاد لا نجد تجمعًا بشريًا إلاّ ونجد للعقيدة أهمية كبيرة في حياته اليومية(3).

وهناك عدة دراسات لعلماء مختصين في تاريخ الأديان، في محاولة منهم لتفسير هذه الظاهرة، فمنهم من أرجعها إلى الفطرة أو الشعور الغريزي بالخوف، ومنهم من رأى أن الإنسان بطبعه يبحث دائمًا لإيجاد سبب ومبدأ لوجوده وإيجاد تفسير للظواهر الطبيعية،

---

(1) عبد المنعم حفنة: **المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة**، مكتبة المذبولي، مصر 2003.

(2) سعيد مراد: **المدخل في تاريخ الأديان**، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2000، ص ص31-39.

(3) أنتوني غدنز: **علم الاجتماع**، ترجمة الدكتور فايز ضياع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ص569.

وهناك مع ربط بين الدين والخيال، غير أن الدين عند آخرين يعتبر فطرة في نفس الإنسان(1)، والفطرة وُلِد عليها كل الناس، والمؤكد والمتفق عليه عند المختصون في علم الأديان أنه لم تمر على الإنسانية جماعة بشرية أو تجمع ظهر، عاش ومضى دون أن يهتم بمبدأ الإنسان ومصيره، ومحاولة إيجاد تفسير لمظاهر الكون، وتجعل لنفسها جوابًا معين تجعل منه عقيدتها، حقًا أو باطلاً، وتكون هي الحل الذي تفسر به هذه القوة التي تُسيّر العالم، والتي تُخْضَع لها وتحدّد مصيرها(2). فيضع له صورة في مخيلته، اسمًا وشكلاً، هذه الفطرة ارتكزت داخل وجدان الإنسان، فالإنسان حيوان متديّن، فهو الوحيد الذي يمكن أن يكون له دين، وأن الحيوانات تفتقد إلى الدين كما تفتقد إلى قوانين والأخلاق(3). ذلك لأن التديّن عنصر أساسي في تكوين الإنسان(4).

ففي كل المراحل بحث الإنسان مهتديًا بما عن داخله من فطرة، لإيجاد سر لهذه الحقائق، والقوى العظمى التي تتحكم وتسيّر العالم بأسره وأعطى لها عدّة تصورات على مدى مرور الزمن، والذي دفع بالإنسان لاحترام كل القوى التي تؤثر في حياته، وهذا ما أدّى إلى نشأة الديانة والتي كانت عبارة عن اعتقاد الإنسان يسيطر على ذهنه بأن هناك قوى تتحكم في الكون، رغم أن الإنسان لم يرى هذه القوى، إلاّ أنه يعتقد في وجودها، وهذا فيما يخص الجماعات البدائية. ومع تطور الزمن عبرت رؤيتهم لطبيعتها والقوى التي تتحكم فيها، واكتسبت أهدافهم الدينية أهمية أكثر فأكثر، أصبح لا يكتفي بالقوة التي تحمد، بل أصبح يبحث عن معبودًا إذا ما فكر فيه يتخلص من الخوف والاضطرابات التي تنتابه وكان بطريقة لا إرادية(5).

وكانت الصدفة وحدها هي التي شكلت هذه الآلهة؛ ففي بعض الأحيان يكون يمثل إله واحد وأحيانًا أخرى أنه عدة آلهة وكانوا في أشكال مجسمة، بينما البعض الآخر رأى أنها أشياء روحانية غير مجسدة. وبذلك أصبح عامل الخوف هو الدافع والباعث على تقديس الأشياء والأشخاص وبالتالي يصبح أحد أهم المصادر في نشأة الأديان(6).

---

(1) محمد عبد الله دراز: **الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان**، مطبعة السعادة، القاهرة، 1929، ص33.

(2) نفسه، ص34.

(3) هيجل: **موسوعة العلوم الفلسفية**، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت، 1983، ص47-48.

(4) سعيد مراد: **المدخل في تاريخ الأديان**، مرجع سابق، ص29.

(5) جميل صليبا: **المعجم الفلسفي**، ج1، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، 1993م، ص ص572-573.

(6) المجموعة العربية العالمية: ج10، ط2، مؤسسة أعمال النشر والتوزيع، الرياض، 1999م، ص ص584-585.

ونظرًا للحياة المعاشة في القديم من أمراض معدية والتي اعتبرتها الأجناس أنها لعنات من قوى خارجية والتي هي مرتبطة ببعض السلوكيات التي كانت ممنوعة في مختلف المجتمعات، والتي بمرور الزمن أصبحت من المحرّمات، كعدم الاقتراب من بعض الحيوانات أو العكس التبرك ببعضها الآخر، وكل هذه السلوكات ستصبح فيما بعد من أصول الديانات، مثل فكرة النجاسة والتطهير، اللعنات والتي تشبه فكرة العقاب وأصبحت كل هذه السلوكيات تنتقل عبر الاتصال وأصبح للناس تقاليد مشتركة، وكان على المجتمع التخلص من اللعنات، فيرجعون إلى الحكماء من القوم، فبدأت بذور الكهنة تتأسس لرفع اللعنات وإزالة الشرور[1].

وبذلك وصلنا إلى العديد من الأفكار والتي لها علاقة وطيدة بنشأة الأديان ورسم صورة للعقيدة ما بين المحرّمات، النجاسة والتطهير، النواهي، نشأة الكهنة؛ فشكلت هذه الأفكار أصول الديانات في نشأتها الأولى. ثم توارثت هذه الأفكار وتطورت عبر العصور وأضيفت إليها الأساطير التي توارثت كذلك والتي أصبحت لها دور هام وخطير، لتتطور في مرحلة نزول الكتب السماوية والأنبياء والرسل. وهم كذلك انعزلوا في الصحاري بحثًا عن أجوبة لتساؤلاتهم حول عظمة الكون والقوى المحرّكة له. فقد كان للدين وما زال الأثر الكبير على الإنسانية، حيث كان له الأثر في تكوين ثقافة الشعوب[2].

وهناك تنوع كبير في الممارسات، والطقوس والشعائر المرتبطة بطبيعة الدين، وتكون هذه الممارسات والطقوس على عدة أشكال، مثل الصلاة والقراءة والترتيل أو الغناء، وحركة الجسم (الرقص)، والأكل أو الامتناع عنه في أوقات محدّدة، كما يمكن أن تجسد بسلوكات فردية[3].

وعلماء الاجتماع يرون أن الاحتفالات هي التي تعبّر عن أبرز أو أهم خصائص المعتقدات الدينية، ولعب الدين في المجتمعات التقليدية دورًا مركزيًا أو محوريًا في حياة الناس، وعادةً ما تختلط الطقوس والشعائر الدينية بالحياة اليومية للفرد، أي العـــادات والتقاليد[4].

---

(1) عبد المنعم حفنة: **المعجم الشامل...**، مرجع سابق، ص355.

(2) سعيد مراد: **المدخل في تاريخ الأديان**، مرجع سابق، ص ص34-35.

(3) أنتوني غدنز: **علم الاجتماع**، مرجع سابق، ص874.

(4) نفسه، ص575.

أما فيما يخص الديانات التوحّدية؛ أي التي تؤمن بإله واحد، وهي اليهودية، المسيحية والإسلام، ورغم اختلاف انتشارها في العالم إلاّ أنّ بدايتها أو منشؤها في منطقة الشرق الأوسط، كما أنها تتميز بالتداخل والتقارب في النشأة ومنطلقاتها[1].

فالعبرانيون عاشوا في مصر القديمة في حدود القرن العاشر واقتبسوا بعض معتقداتهم الدينية من ما كان شائعًا في محيطهم آنذاك، كما كانوا يؤمنون بإله واحد[2]، أما المسيحية فكان مهبطها في فلسطين وانتشرت في ظل الاضطهاد الروماني إلى أن تبنّاها الإمبراطور قسطنطين في حوالي القرن الخامس لتنتشر في العالم وتتعدد فيها الطوائف[3].

بينما كانت بداية الإسلام في شبه الجزيرة العربية ويقوم في جوهره على خمسة أركان وأولهما التوحيد بالله والشهادة بأن محمداً رسوله ﷺ، يعترف الإسلام بالديانتين اللتان سبقته وبكل الأنبياء والرسل والكتب السماوية[4].

يوجد ديانات أخرى في العالم كالهندوسية والتي تؤمن بتناسخ الأرواح، وتتميز بتعداد الآلهة، ويضم الشرق الأقصى مئات الملايين من أتباع ما يسمى بالديانات الأخلاقية مثل البوذية والكنفوشية والطاوية[5]، وهي ديانات لا تؤمن بإله واحد، وتقوم على عدّة نماذج أخلاقية تربط المؤمنين بالتكامل والوحدة في الوجود.

1 – أهم النظريات حول الدين:

تأثرت إشكاليات الدين تأثيراً كبيراً بالنظريات والآراء التي طرحها أكبر المنظّرين للدين من بينهم: ابن خلدون، كارل ماركس (Karle Marx)، دوركايم (Durkheim)[6] وفيبر (Weber)[7]، ما عدا ابن خلدون، فالباقون كانوا يظنّون أن الدين واقعًا مهمومًا

---

(1) Henri-Charles Puech (direc): **Histoire des Religions**, ed. Gallimard, Paris, 1976, p369.

(2) Roger Luc Mary: **Les grandes Religions, Mystères, Magie, Philosophie, Histoire**, éd. Vecchnie, Paris, 1996, pp25-26.

(3) شارل جنيبر: **المسيحية: نشأتها وتطورها**، تحقيق عبد الحليم عبد الله، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1988، ص33.

(4) جميل مدبك: **موسوعة الأديان في العالم**، ج. الإسلام، ص54.

(5) سليمان مظهر: **قصة الديانات**، مكتبة المدبولي، القاهرة، 1995، ص ص287-290.

(6) إميل دوركايم: عالم مختص في علم الاجتماع، فرنسي الأصل (1858-1917م)، وهو من وضع أسس علم الاجتماع الفرنسي، وأهم نظرياته هي الخاصة بمفهوم الانتماء، للمزيد انظر:
Raymond Boudon, Philippe Besnard: **Dictionnaire de la Sociologie**, 2ème éd La Rousse, 2012, pp70-71.

(7) ماكس ويبير: مختص في علم الاجتماع، ألماني (1864-1920م). أهم دراسته البروتستانتية والرأسمالية، وأنه لا يمكن أن نفهم تصرفات الأشخاص إلاّ بفهمنا لمعتقداتهم، انظر:
Raymond Boudon: **Dictionnaire de la Sociologie**, op.cit, p247.

ومظلّلاً ولكنه عظيم الأثر في الحياة البشرية، رغم أن أتباع الديانات مقتنعين بمعتقداتهم وصحتها، إلاّ أن اختلاف الديانات يرمي نوع من الشك – على حدّ تعبيرهم – على هذه المعتقدات؛ أي أن البيئة تؤثر على القناعات الداخلية.

ويرى ابن خلدون، أنه كلما كان هناك تجمّع سكاني وعمراني أو مدني، يصبح سكان هذا التجمع يحتاجون إلى وازع يحميهم من بعضهم البعض، وذلك لما في طبع الإنسان من العدوان والظلم، (وهو هنا لا يقصد السلاح، إنما كما ذكر هو الآلهة، وإنما لا بدّ من شيء أو بالأحرى شخصية تمنع هذا العدوان)، ويجب أن تكون ممثلة في شخص، يكون له القوة والسلطة حتى لا يتعدى الواحد على الآخر. وهذا هو المعنى الحقيقي للملك، وما يمكن ملاحظته في الطبيعة في مملكة الحيوانات والحشرات كالنحل والنمل، أنهم ينقادون ويتبعون حاكمهم ويكون مميز عنهم في خلقه وجسمه، هو عند الحيوان بمقتضى الفطرة والهداية، وليس بمقتضى الفكر والسياسة، كما عند البشر الذين يكون لهم دوافع أخرى، وبذلك حاول ابن خلدون إثبات النبوة بدليل عقلي، وأنها خاصة طبيعية في إنسان معين ويكون بشرع مفروض من عند الله، ويختار له واحد من البشر يكون متميز عن الباقي، بما يضع فيه الله من خواص لهدايته حتى يقتنع به مجتمعه ويسلم له ويتمكن من حكمهم من دون تزوير، وتزييف[1].

أما باعث الفكر الشيوعي المعاصر، كارل ماركس، فلم يكن له دراسة مفصّلة في الدين، وإنما تأثر بكتابات مفكّرين وفلاسفة القرن 19م وخاصة لودفيغ فيورباخ[2]، ومؤلفه جوهر المسيحية 1957[3]، ويرى أن الدين هو نتاج لتطور ثقافي لمجموعة من الأفكار والآراء وأعطوها صبغة سماوية، إلهية، وبما أن البشر لا يعلمون مصيرهم فينسبون أفكارهم وعاداتهم إلى الآلهة، ومن ثم حسب رأيهم فإن قصة الوصايا العشرة (Les dix commandements) التي أنزلها الله على موسى هي أسطورة، وذلك راجع لأصول المبادئ

(1) أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن خلدون: **مقدمة بن خلدون**، كتاب العبر لديوان المبتدأ والخبر، أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق الجويدي، ط2، المكتبة العصرية، بيروت، 1995، ص ص47-48.

(2) أنتوني غدنز: **علم الاجتماع**، مرجع سابق، ص579.

(3) كارل ماركس، فريديريك أنجل: **حول الدين**، ترجمة ياسين حافظ، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1984، ص ص112-113.

الأخلاقية لليهود والمسيحيين فيما بعد، كما أنه يرى بأنه طالما بقيت الأمم عاجزة عن تحليل رموز الديانة التي ابتدعوها، فسيبقون أسرى لقوى التاريخ ولن يتمكنوا من التحكم فيها، فبمجرد أن يعلم الإنسان أن هذا الدين نابع من أفكار الإنسان أو أن هذه القيم التي كانت تنتسب للآلهة، ما هي إلاّ نسيج لأذهان بشر ويمكن تحقيقها في الواقع، فيُمكن للإنسان من اكتساب قوة كانت تنسب للربّ، فيرى ماركس أن الدين هو حالة من الاغتراب الإنساني أو الاستلاب[1].

فماركس كان يدعو إلى نبذ الدين واستئصاله، ويرى أن الدين هو "قلب في عالم لا قلب له"[2]، وأن الدين بهذا الشكل التقليدي لابد أن يختفي لأنه لن يساعد على تحسين أوضاع العالم، لا يعود هذا إلى القيم التي يدعو إليها ماركس، الذي يرى أنه لا يجب أن نخشى الآلهة الذين صنُعِوا من طرف الأشخاص، فإن المثل والقيم التي ننسبها لربّ يمكن للأفراد أن يحققونها، فيقول ماركس "الدين أفيون الشعوب"[3]، فهو يسمّم الشعوب ويساعدهم على الشفاء في نفس الوقت، فهو يؤخر السعادة والحياة إلى وقت آخر على حد تعبيره ويطلب من الناس الرضى عن أوضاعهم الحالية في انتظار التحسين في وقت لاحق، وبذلك يتخلى الفرد عن نصيبه في الحياة، فلا يهتم باللاّمساواة والظلم، فيرى ماركس أن المعتقدات والقيم الدينية تستخدم غالبًا لتبرير اللاّمساواة من جهة الثورة والسلطة، وهذا ما ينطبق على العبارة المعروفة عند المسيحيين "الضعفاء سيرثون الأرض" وتعني عدم التصدي للقمع[4].

ونلاحظ من خلال نظرة ماركس، أنه يقصد المسيحية وتجبّرها في المجتمعات الأوروبية وكل ما أتت به الكنيسة من لا مساواة والطبقية، وأن ماركس لم يكن له أي دراسة للأديان الباقية[5]، وإنما ناقش المسيحية وآثارها على الفرد والمجتمع.

---

(1) يستخدم هذا المصطلح لتبيين أن قوة الإنسان مسلوبة من طرف قوة خارقة هي التي تسيطر عليه، للمزيد انظر: كارل ماركس: **حول الدين**، مرجع سابق، ص114.

(2) Karle Marx: **Pour une critique de la philosophie du droit de Hegel**, trd, de Jules Molitor, éd., Allia, Paris 1998, p37.

(3) نفسه، ص52.

(4) أنتوني غدنز: **علم الاجتماع**، مرجع سابق، ص581.

(5) هنري لوفافر: **كارل ماركس**، ترجمة محمد عياش، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1972، ص130.

أما عالم الاجتماع دوركايم (Durkheim) وعلى عكس ماركس، فقد درس وتطلع على الدين في المجتمعات التقليدية[1]، فهو لا يربط الدين بالتفاعل الاجتماعي أو بالسلطة، بل علاقته بطبيعة المؤسسات، فهو يعرف الدين عن طريق الفصل بين ما هو مقدّس وما هو مدنّس وكل الرموز والطقوس هي المقدّسة وللناس معاملة خاصة معهم، بينما الروتين اليومي هو المدنس، فتظهر مثلاً أكلات خاصة بالمناسبات وتصبغ هذه المناسبات والطقوس والرموز بصبغة ألوهية خاصة وتمثل رمزًا لهذه الجماعة، والاحترام والإجلال لهذه الرموز والطقوس هو في حقيقة الأمر تمثيل للاحترام الموجود بينهم، فالعبادة في رأي دوركايم هي محاولة المجتمع فرض ذاته ويؤكد شرعيته، ومنها فهذا الإله يصبح صورة لمجتمعه، ليس المجتمع هو الصورة للإله ويتحقق التضامن الاجتماعي من خلال التجمعات والاحتفالات لهذا المجتمع، وخلالها يترك الشخص كل الروتين اليومي ليهتم بشيء أرقى وهو الدين، هذا الدين بحسب دوركايم سينحصر مع تطور المجتمعات، وأنه كما يقول في مقولته الشهيرة "لقد ماتت الآلهة القديمة"[2].

أما ويبر أو فيبر (Max Weber)، فهو يختلف في طرحه عن دوركايم، لأنه قام بعمل موسوعي وقد يعتبر الأول من نوعه واسمه "أديان العالم" ودرس الهندوسية، والبوذية والطاوية واليهودية القديمة، كما درس المسيحية ولكنه لم يتم دراسته عن الإسلام، وهو لا يربط الدين بالتغيير الاجتماعي، فشده في دراسته على الصلة الوطيدة بين الدين والسلوك اليومي الهادف بمضمونه الاقتصادي[3].

ويربط فيبر الدين بالاقتصاد[4]، حيث يرى أن الآلهة والشياطين تأثروا ومباشرة وبالدرجة الأولى بالأوضاع الاقتصادية، والمصير التاريخي لشعوب مختلفة وأن الإله قد يكتسب مكانة خاصة في النفوس لكونه موقع اهتمام طبيعي في الحياة الاقتصادية، أما بالنسبة للإسلام فهو يرى أن دعوة الرسول اكتسبت أهمية اجتماعية بعد أن اجتمعت معه

---

(1) أنتوني غدنز: **علم الاجتماع**، مرجع سابق، ص581.

(2) علي عبد المعطي محمد: **الفكر السياسي العربي**، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1992، ص ص287-288.

(3) أنتوني غدنز: المرجع السابق، ص582.

(4) مهدي محفوظ: **اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث**، ط1، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، لبنان، 1990، ص204.

شيوخ القبائل البدوية وعدلوا دعوته[1]، على حسب نمط معيشتهم، ومصالحهم الاقتصادية، فهو يعتبر أن الإسلام هو مزج بين القيم التجارية والقيم الفروسية والبدوية والقيم الصوفية المعبّرة عن عواطف الجماهير وحاجاتها، ولذلك حسب رأيه، وجهت الطبقة المحاربة للإسلام باتجاه الجهاد – وبقصد هنا الفتوحات – والأخلاقية العسكرية، أما الطبقة التجارية فوجهته في المدن باتجاه التشريع والتعاقد، أما الطبقة الضعيفة فأخذت الاتجاه الصوفي والهرب الضبابي[2].

وكل هذه القيم، عملت على تعزيز نزعة الولاء القبلي لشخص السلطان؛ أي ما أسماه الولاء والطاعة للسلطان والذي يحصر قراراته بشخصه مدعيًا أنه ظِل الله في الأرض، وهذا ما يتعارض على حسب رأيه مع العقل والقوانين، فيرى فيبر أن الإسلام يتعارض مع المبادئ الرأسمالية وذلك بسبب تأثره بالقيم البدوية ونشوء التحالف بين السلطان وعلماء الدين[3]، كان لبراين تيرنر شرح يرتكز على عاملين:

وهو يرى أن الفراغ السياسي الذي ساد في المنطقة بعد الصراع بين الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية، والضعف الذي عم تلك المنطقة، ساعد على ظهور الإسلام وانتشاره.

ومن جهة أخرى، ظهور دور مكة كمركز تجاري على ملتقى الطرق التجارية العالمية. وهذا ما أنشأ تطورات أساسية، ساعدت على انحلال القيم التقليدية وانتشار قيم الكسب، وخلال هذا الوضع الانتقالي انتشرت فكرة البحث عن الخلاص والاستعداد النفسي لتقبل البديل وهذا ما قدّمه الإسلام – على حد تعبيره – فملأ الفراغ حسب فيبر بالنسبة للمسيحية فهي دينًا للخلاص يتضمن الاعتقاد بأنه يمكن للبشر أن يحققوا الخلاص عن طريق تبني المبادئ الدينية الأخلاقية، وأن العناية الإلهية ستنقذهم، كما أن المسيحية ديانة ثورية تدعوا إلى التمرد على الأوضاع الراهنة وتطالب بالتغير، بينما على حسبه الديانات الشرقية، عند إتباعها مواقف سلبية يميل إلى تقبّل النظام القائم[4].

---

(1) أنتوني غدنز: المرجع السابق، ص582.

(2) مهدي محفوظ: **اتجاهات الفكر السياسي...**، مرجع سابق، ص206.

(3) نفسه، ص21.

(4) عبد المعطي محمد: **الفكر السياسي العربي...**، مرجع سابق، ص257.

يمكن اعتبار أن كل من ماركس ودوركايم وفيبر متكاملين فيما بينهم، ولكن ماركس لم يصب عندما رأى أن الدين له أبعاد إيديولوجية تخدم مصالح الطبقة الحاكمة ويبرّر سلوكهم على حساب الآخرين، وهناك عدة أمثلة في التاريخ وربما أهمها: أثر المسيحية في الحملات الاستعمارية الأوربية على العالم ومحاولة إخضاع الثقافات والحضارات الأخرى، والسيطرة عليها، فلم يكن لها ذلك، وكل نشاطهم ظهر في تدمير الثقافات القائمة وأكدت هيمنة الرجل الأبيض عليها، كما أن المذاهب والطوائف المسيحية كانت تساهم بل تصادق على تجارة العبيد، بل وأن بعض المذاهب كانت تبرّر العبودية وأن عصيانهم لأسيادهم هو خطأ في حق إله.

بينما يرى دوركايم أن للدين أهمية كبيرة في حل الصراعات والنزاعات وسط الجماعات ولكن في نفس الوقت يمكن أن يكون له دور فعّال في خلق الفتن والنزاعات بين الجماعات[1].

2 – أثر المعتقد على المجتمعات:

بما أن الدين هو عقيدة وعمل، ولا يتم إيمان الفرد إلاّ باجتماع الجزئين في الإنسان بشكل متناسق ومتوافق[2]، والسلوك الفردي هو المعبّر عن مدى أثر الإيمان في حياة الشخص فيجب بذلك أن يكون تصرّف الفرد الإنساني موافقًا للعقل[3].

إن الدين موجود في جميع المجتمعات المعروفة اليوم، رغم تعدد العقائد والممارسات الدينية وتنوعها، وللدين أو المعتقد أهمية كبيرة في المجتمعات، حيث يرى ابن خلدون أنه ضروري لكل تجمع بشري، لا بدّ أن يكون لهم قوة يلتفّون حولها ويعتقدون بها من أجل الوحدة والقوة. فإنّ التديّن إذًا فطرة عند الإنسان، كبقية الغرائز الفطرية التي تتكون منها النفس البشرية، كالحاجة إلى الطعام والشراب وحب البقاء، وفطرة الإنسان تجعله يبحث عن التدين وإيجاد عقيدة يتمسك بها ويجعلها القوى التي يطيعها ويلجأ إليها في كل مرة لحل مشاكله، والتدين يترك آثار على الفرد في تصرفاته اليومية[4].

---

(1) حليم بركات: **المجتمع في القرن 20، بحث في تغيير الأحوال والعلاقات**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000، ص426.

(2) نفسه، ص428.

(3) أنتوني غدنز: **علم الاجتماع**، مرجع سابق، ص585.

(4) أبو زيد عبد الرحمن محمد بن خلدون: **مقدمة بن خلدون**، دار يعرب للنشر، بغداد، ص48.

وكان المعتقد الديني يسير بالتوازي مع الحياة اليومية للفرد، غنيًا كان أو فقيرًا، وذلك عبر العصور، وباختلاف المعتقدات، التي عرفها العالم، من الوثنية إلى الإسلام، مرورًا بالمسيحية واليهودية والتي كان لكل منها تأثيراتها على العالم والمجتمعات، بما أن المعتقد كان ومازال يُستعمل من أجل الهيمنة والسيطرة على الشعوب، وأصبحت مصالح الكهنة فوق السكان والمجتمع وحتى الحكام في بعض الأحيان، وهذا ما زاد من الصراع بين المعتقدات الدينية، وبذلك كل ما ظهر دين أو معتقد جديد يحارب ويضطهد أتباعه من طرف رجال الدين القائم، فالوثنيون حاربوا المسيحيون، والمسيحيين حاربوا المسلمين كما حارب اليهود المسيحيين فيما سبق، وبذلك فإن المؤسسة الكهنوتية عبر العصور ومهما اختلفت الديانات كانت ولا تزال مؤسسة اقتصادية، تحارب من أجل تحقيق مصالحها ومحاولة إبقاء المعتقد عامة قائمًا وصالحًا حتى وإن ابتعد عن مقوماته وأسسه الأولى، وحتّى إن توجّب ذلك القضاء على ما يمكن أن ينافسه أو يشكل خطر على وجوده في العالم من علم أو معرفة أو حكام أو معتقد آخر، وهذه المؤسسة الكهنوتية حاولت طويلاً احتكار العلم والعلماء من أجل السيطرة على المجتمعات التي كانت قائمة فيها وكذلك حاولوا السيطرة على الحكم والحكام عامة[1].

فالكاهن عند الوثنيين هو صاحب المعرفة والعلم يقرّر في كل شؤون المجتمع والقضايا الخاصة بالفرد، وله دور كبير في الحكم، وهو يمثل عن الحكام القوة الإلهية.

عند اليهودية فإن ديانتهم يعتبرونها دستور لهم كما يمثل الكاهن الهيئة العليا في المجتمع اليهودي، وكل القرارات تعود له فيما يخص المجتمع والفرد، كذلك هو الحال بالنسبة للمسيحية والتي أصبحت المؤسسة الكنسية تلعب دور مهم في المجتمع، كما أن الكنيسة في العصور الوسطى احتكرت العلم والعلماء وأصبح ينحصر في الطبقة من رجال الدين، وهذا ما أبعد المجتمع عن الكنيسة.

(1) أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون: **مقدمة...**، المصدر السابق، ص49.

المبحث الثاني: الهيئة الكنسية وتنظيمها

1 – المسيحية:

هي إحدى الديانات الثلاث الكبرى؛ أي المسيحية، اليهودية والإسلام، وتأتي في كرونولوجية النزول في المرتبة الثانية، وأطلقت على أتباع عيسى بن مريم في أنطاكيا كما ورد في الإصحاح الحادي عشر الفقرة 62[1]، وكان المسيحيين من اليهود والذين اعتبروا امتدادًا لليهودية، وذلك أنهم عندهم قناعة بأن المسيح يظهر من نسل داود ويهودي الأصل وربما هذا ما جعل عندهم فكرة الاستيلاء على سائر الشعوب.

ظهرت المسيحية[2] الأولى في فلسطين في مجتمع يدين باليهودية والوثنية في معظم المناطق التابعة إلى روما، واستطاعت أن تكتسب شعبية وعرفت انتشارًا، ذلك أن الحضارة الرومانية افتقدت إلى إلهام روحي، خاصة أن عبادة الآلهة الوثنية لم تكن مقنعة رغم أنهم كانوا يقيمون الشعائر، كتقديم القرابين لكن دون ارتياح كامل[3]، بذلك يمكن القول أن المجتمع الروماني كان لديه عقيدتين: الوثنية واليهودية، التي كان يدين بها البعض ، وبذلك فإن المسيح لم يأتِ بدين جديد، وإنما جاء لتصحيح – إن صحّ التعبير – ما ابتعد عنه اليهود[4]، فالمسيحية تنبع من اليهودية، فعيسى عليه السلام من أصل يهودي[5].

جاءت المسيحية إذن لتصحيح الكثير من الأخلاق الأنانية عند اليهود ولأنها دين جديد، لا بدّ أن يحمل في طياته للإنسانية رؤية جديدة أكثر فعالية في حياة الإنسانية[6]. كما أن أمة إسرائيل منعزلة عن العالم الخارجي ولكن لم تنج من تأثيرات الشعوب السريانية والكادانية التي عاشت بجوارها، دون أن ننسى تأثرها بالإغريق، ما جعل بني إسرائيل

---

(1) Etienne Chastel: **Histoire du Christianisme depuis son origine à nos jours**, édition G. Eischbacker, T1, Paris, 1881, p27.

(2) جميل مدبك: **موسوعة الأديان**، مرجع سابق، ص15-20.

(3) محمود شاكر: **موسوعة الحضارات القديمة والحديثة وتاريخ الأمم**، دار السلامة للنشر والتوزيع، ج1، ط2، عمان، الأردن، 2011، ص5.

(4) محمد ضياء الرحمن الأعظمي: **اليهودية والمسيحية وأديان الهند**، مكتبة الرشد، الرياض، 2001، ص225.

(5) المسيحية منبثقة من العقيدة اليهودية، مَشيحوث، ويعني الماسحنية أو الخلاص، أنظر المرجع نفسه، ص75

(6) منى ناظم: **المسيح واليهودية**، الاتحاد للصحافة والنشر، أبو ظبي، 1986، ص18.

متشبعة بالكثير من الأفكار الخارجية عبر ثلاثة قرون سابقة للتاريخ المسيحي، فالبيئة اليهودية كانت مصدر لمستقبل المسيحية[1] في القرآن الكريم، حيث يذكر الله سبحانه وتعالى مولد عيسى ولا يتطرق في أية حال من الأحوال إلى نسبه أو متى ولد[2]. بينما إنجيل متى، يذكر ولادة عيسى بن مريم التي كانت مخطوبة ليوسف الذي أراد أن يتركها بمجرد ما علم بحملها، ولكن جاءه الملك من الرب وأمره أن يبقى معها[3]، ومريم هي من وسط يهودي بما أن زكريا هو أحد أنبياء بني إسرائيل، وهي أم عيسى عليه السلام، ورغم المعجزة إلا أن اليهود رفضوه[4] وكانت ولادته من غير أب هي إعلان للعالم عن وجود الروح بين قوم زعموا أن الإنسان جسم دون روح[5].

ولد عيسى بن مريم عليه السلام، يهوديًا، ونشأ في بيئة يهودية، فتشبع منها ثقافيًا، فكريًا ودينيًا[6]، وكان مولده بإقليم الجليل[7]، اختلفت الكتب النصرانية كثيرًا في نسبه الشريف وحياته ونشأته، فحسب الأناجيل الأربعة ولد في بيت لحم في إقليم الجليل ما بين 7 و 5 ق.م تحت حكم هيرود Hirode، أين نشأ وترعرع[8]، وفي الثلاثين من عمره بدأ يدعوا للمسيحية ولازمهُ 12 حواريًا[9]، وهنا بدأ النزاع بين اليهودية القديمة والكتاب الجديد؛ أي المسيحية إلى أن أصدر قانون بمحاكمته بمساعدة الحاكم الروماني بطليموس[10].

---

(1) شارل جنيبر: **المسيحية...**، مرجع سابق، ص30-34.

(2) القرآن الكريم: أنظر الآيات: البقرة 87-253، آل عمران 33-99، 52/42-57/59-61، النساء 155-159/171-172، المائدة 17/46-47/72-75/109-117، مريم 16-35، الأنبياء 91.

(3) جميل مدبك: **موسوعة الأديان**، جزء الكنائس الشرقية، مرجع سابق، ص8-10.

(4) الإمام محمد أبو زهرة: **محاضرات في النصرانية**، شركة الشهاب، الجزائر، 1989، ص53.

(5) نفسه، ص90.

(6) شارل جنيبر: المرجع السابق، ص26.

(7) هي منطقة تقع في شمال فلسطين تقع في شرق البحر المتوسط وأكبر مدنها الناصرة وعكا وضم أكثر المدن قداسة لدى المسيحيين. للمزيد انظر: محمد شاكر: **موسوعة الحضارات**، مرجع سابق، ص102.

(8) Googan Michael D.: **Les grandes religions**, la Rousse, Bordas, Paris 1999. p58.

(9) الحواريين هم أتباع نبي الله عيسى عليه السلام، الذين آمنوا به، وهم 12 فردًا حسب ما رواه الأناجيل الأربعة وحسب القرآن الكريم ومعنى الحواري هو التلميذ وفي اليونانية أبوستولوس Apostolos أي رسل، للمزيد أنظر: محمد ضياء الرحمن: **اليهودية والمسيحية**، مرجع سابق، ص ص205-207.

(10) جميل مدبك: المرجع السابق، ص25.

لم يترك المسيح أي شيء مكتوب، بل كل ما تركه كان شفهيا عند الحواريين، وهم الذين واصلوا رسالته من بعده وكتبوا الأناجيل وانطلقوا من المشرق إلى أوروبا لنشر ديانتهم[1]، لتبدأ رحلة المسيحية الطويلة والتي التف حولها العديد من الأتباع، ونظرًا للفوضى والاضطرابات التي عايشتها الإمبراطورية الرومانية آنذاك، فشلت الاضطهادات التي دامت حوالي ثلاث قرون، إلاّ أن الإمبراطورية أرغمت على التعايش مع هذه الديانة التي انتشرت واتسع نطاقها والتي أصبحت تمثل خمس المجتمع الروماني في القرن الرابع الميلادي[2]، وبمجيء قسطنطين الكبير الذي أسس العاصمة الرومانية الشرقية القسطنطينية والذي كان يتصف بالواقعية، رأى أن هذا الاضطهاد للمسيحيين ليس منه جدوى بل سيقوم بتشتيت المجتمع الروماني أكثر، فأصدر مرسوم ميلانو 313م، يعترف من خلاله بالمسيحية كالديانة الرسمية للإمبراطورية، ويعتبر هذا الحدث منعطف هام في التاريخ[3]، هذه المسيحية لعبت دورًا مهمًا وكبيرًا في الحياة الأوربية خاصة خلال العصور الوسطى، فمن الكنيسة الأولى إلى الفاتيكان حدث تطور وتغير كبير في العالم.

2 - الكنيسة (L'église):

الكنيسة كمفهوم، هي مؤسسة للخلاص والتي تركز على توزيع إمبراطوريتها على المجتمع كله، أو هي مجموعة من المواطنين الأوفياء[4]، وبما أن استمرت المسيحية بعد المسيح على يد تلاميذه بالتنصير، رغم أنهم عاشوا أشد أنواع الاضطهادات إلى غاية الاعتراف بالمسيحية.

إن الكتب المقدسة عند المسيحيين تشمل التوراة والأناجيل ورسائل الرسل، فالتوراة هي كتب العهد القديم، أما الأناجيل والرسائل تعتبر كتب العهد الجديد، وهي أربعة أناجيل، متى، مرقس، لوقا، يوحنا؛ وهذه المعترف بها من طرف الكنيسة والتي فرضتها على

(1) طارق سويدان: مرجع سابق، ص63.

(2) ط. ب. مقرج وآخرون: **موسوعة عالم الأديان والمذاهب والبدع في العالم**، الجزء 3، الكنيسة البيزنطية، الأرثوذكسية، نوبليسا، بيروت، ط3، 2005، ص91.

(3) سيد أحمد علي الناصري: **تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري**، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1991، ص432.

(4) محمد أبو زهرة: **محاضرات...**، مرجع سابق، ص ص113-114.

الناس ورفضت غيرها[1]. وهذه الأناجيل لم يملها المسيح ولم تنزل عليه وإنما كتبت بعده، أما الرسائل فهي اثنتان عشرون رسالة[2].

والمسيح عيسى عليه السلام لم ينشىء كنيسة[3]، ولم يستطع رجال اللاهوت الوصول إلى أي شيء يؤكد هذه الحقيقة التي يؤمن بها كل المسيحيين[4]، وبما أن عيسى عليه السلام كان يؤمن بالحياة الأبدية، لم يفكر بوجوب مؤسسة دنيوية لأتباعه[5]، كما أنه لم يمنح أتباعه الحواريين أية سلطة بل طلب منهم نشر تعاليم دينه، ولم يصنع منهم قساوسة، حتى عند دراسة أعمال الحواريين أنفسهم، لم يفكّروا أو يضعوا مخطط لأي تنظيم إداري ديني يمثلهم أو لأتباعهم فيما بعد إذ بقوا مخلصين لدينهم يؤمنون أن المستقبل في المملكة وليس الكنيسة[6]، كما أن النصوص الإنجليزية لم تذكر في أي حال من الأحوال تعبيرًا ينسب إلى عيسى يذكر فيه كنيستي أو كنيسة الأب، إلاّ في إنجيل متى، في الحديث المشهور: "يا بطرس بك سأبني كنيستي" وهذا الكلام استغل استغلالاً كبيرًا من طرف علماء اللاهوت ورجال الدين، إلاّ أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحا إلاّ إذا اعتبرنا أن عيسى عليه السلام تخلّى في وقتٍ من الأوقات عن معتقداته، أما الأتباع الذين التفوا حول بطرس، ذلك أنهم رجال شرف لا غير[7].

وبالرغم من كل هذا، يمكن اعتبار الحواريين هم الذين وضعوا الأسس الأولى للكنيسة دون علمهم؛ أي بطريقة غير مباشرة وذلك بانتقال الأمل المسيحي من فلسطين إلى مصر ثم اليونان، روما فالعالم، ورغم احتقارهم لحياة الدنيا، إلاّ أنهم كانوا يحتاجون لشيء يشعرهم بالوحدة، فالتف الجميع حول عبادة واحدة تمجد عيسى عليه السلام وكانت عبادة بدائية، إلاّ أنها انطوت منذ ذلك الوقت حول فكرة الاجتماع الأخوي، وأصبح الأتباع يطلقون على أنفسهم كلمة الإخوة (Frères)، أو في بعض الأحيان يسمون أنفسهم القديسين[8]،

(1) محمد أبو زهرة: **محاضرات...**، المرجع السابق، ص ص116.

(2) شارل جنيبر: **المسيحية**...، مرجع سابق، ص122.

(3) نفسه، ص128.

(4) جميل مدبك: **موسوعة الأديان**، مرجع سابق، ص27.

(5) ط. ب. مقرج وآخرون: **موسوعة عالم الأديان...**، مرجع سابق، ص31.

(6) Musset H.: **Histoire du Christianisme spécialement en Orient**, Harissa, Liban, imp. S. Paul, 1948-1949, vol 3, pp56-62.

(7) Joseph Kelly: **Dictionnaire Christianisme ancien**, Tr: Jean Denis Berger, ed. originale, The concise dictionary of early Christianity the liturgical press, 1993, p258.

(8) جميل مدبك: المرجع السابق، ص ص12-15.

هؤلاء المسيحيين عاشوا في بيئة، إما يهودية أو وثنية وفي كلتا الحالتين فإن تأثير الجماعات الوثنية وتأثير النظم اليهودية وقع عليه في أنٍ واحد، مع ترجيح اتجاه أحدهما علـــى الآخر حسب ظروف الزمان والمكان، كما فرض هذا الوضع أنواع الوظائف، وأخذت أسماء الوظائف من اللغة الشائعة، البريسبيتيروس أي الشيخ، الإبيسكوبوس أي المشرف والدياكانوس أي خادم، لتتطور فيما بعد هذه الكلمات إلى قس أسقف، شماسا[1]، وبذلك تغلّبت الجماعة على المشاكل الخاصة بنشر تعاليم الدين الجديد، وتعليم كل من يلتحق بالجماعة والمحافظة على النظام والاهتمام بالشعائر، وضمان قوت المعوزين، ونلاحظ مدى الإسراع في التنظيم منذ البداية؛ ففي القرن الأول في بعض الكنائس كان على الأقل، أسقفًا واحدًا ومشرفًا عامًا على الجماعة كلّها – وهو نفس الشخص الذي سيسيطر فيما بعد على الوظائف كلها – واهتم مجموعة من الشيوخ بالوظائف الروحية، والخدم أوكلت إليهم الوظائف المادية[2].

تكوّنت الكنيسة الأولى والتي تعتبر الكنيسة الأم من طرف الرسل أنفسهم[3] بأرشاليم[4] والتي حاول أساقفها نشر الديانة الجديدة، وهذه الكنيسة الناشئة مرت بعدة اضطرابات واضطهادات عنيفة من طرف السلطات الرومانية إلى غاية عهد قسطنطين 313م، والذي جعل من المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، لتنعم كنيسة القدس بالأمن والسلام[5].

أما بالنسبة للغة، فكان سكان المنطقة يستعملون السريانية بالتوازي مع اليونانية، التي كانت تعتبر لغة العلوم والثقافة والحضارة، بينما الإدارة الرومانية كانت تستعمل اللغة اللاتينية[6]، لتظهر اللغة العربية وتبدأ في التوسع، حتى حسرت القوميات المختلفة بلغتها ابتداءً من القرن السابع الميلادي[7].

---

(1) محمد ضياء الرحمن الأعظمي: **اليهودية والمسيحية...**، مرجع سابق، ص230.

(2) سعيد مراد: **المدخل في تاريخ الأديان**، مرجع سابق، ص ص35-41.

(3) Janin R.: **Les Eglises Orientales et les rites Orientaux**, Letouzey et Ané, Paris 1970, pp25-30.

(4) اسم كنعاني مأخوذ من برو– شالم وشالم هواسم الرب الكنعاني بمعنى السلام، إلى جانب إله آشوري هو شلمانو، انظر: محمود شاكر: **موسوعة الحضارات القديمة...**، مرجع سابق، ص75.

(5) سعيد مراد: المرجع السابق، ص52-55.

(6) جميل مدبك: **موسوعة الأديان**، مرجع سابق، ص21.

(7) محمد أبو زهرة: **محاضرات...**، مرجع سابق، ص ص31-33.

يطلق اسم اللاتين على المسيحيين الكاثوليك الذين يستعملون اللغة اللاتينية، وما زالت إلى يومنا اللغة اللاتينية هي لغة الطقوس الكنسية[1].

وفي الوقت الذي حارب اليهود المسيحية، انفتح أمام المسيحيين المجال داخل الشعوب الوثنية المجتمعة تحت السيطرة الرومانية[2]، وربما هو الأمر الذي جعل كنيسة روما الوريثة الشرعية لبطرس (Paul) والذي يعتبر البابا الأول، والذي قتل بروما التي تعتبر أم الكنائس الكاثوليكية، التي أسماها المسيح – على حد تعبيرهم – ورتّبها تحت سلطة الرسل والأساقفة برئاسة القديس بطرس[3]، والكاثوليك هو اسم شامل للمسيحيين تحت سلطة البابا وهو خليفة بطرس الرسول[4].

وبدخول المسيحية إلى روما مهدت لزوال الديانات القديمة للدولة الرومانية[5]، ووصلت السلطة البابوية أن تمثل السلطة العليا في الغرب كله، وفي القرن الحادي عشر ظهرت شخصية البابا غريغوريوس[6] والذي استطاع تحرير البابوية من الحمايات، وذلك أن في القرن العاشر كانت الكنيسة تتخبط في الفوضى والاضطرابات تمزقها الأطماع الدنيوية وذلك بسبب سيطرة الأشراف والأمراء في روما وصارت الأرض ملك للذي يحميها ويدافع عنها، وهو بدوره يحتمي بمولى أقوى منه ويعترف له بامتلاكه إقطاع أو امتياز وإدارة شؤونه، فتحولت الروابط الاجتماعية إلى هرم بين المحاربين والملاك[7]، وكان للكنيسة هي الأخرى أملاك واسعة فدخلها النظام الإقطاعي، فكان لكل صاحب وظيفة كنيسة أرضه وامتيازه ومصدر رزقه، وهكذا ابتعدت المناصب الكنسية من صفتها الروحية إلى صفتها الدونية وطغت المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، وأصبح رجل الدين يهتم بما يمكنه اكتسابه.

---

(1) ط. ب. مقرج وآخرون: **موسوعة عالم الأديان، كنيسة روما**، ج10، دار النشر نوبيليسا، بيروت، لبنان، 1995، ص9.

(2) Etienne Chastel: **Histoire du Christianisme depuis son origine à nos jours**, op.cit, p27

(3) بطرس Paul من الحواريين واستشهد في روما حيث صلب في عهد نيرون (54-65م). للمزيد انظر: ط. ب. مقرج وآخرون: المرجع السابق، ص10.

(4) جميل مدبك: **موسوعة الأديان**، الكنائس الشرقية، مرجع سابق، ص12.

(5) Etienne Chastel, op.cit, p28.

(6) البابا القديس غريغوريوس السابع (1073-1085م) وهو خليفة بطرس 156، **موسوعة الأديان**، ص45.

(7) Jean Delumeau: **Histoire du Christianisme**, éd. Universalis, Alben Michel, Paris, 2000, p57.

3 – التنظيم الإداري الداخلي للكنيسة:

هذا المكان الذي يعتبر المجمع للمسيحيين – رغم أن مصطلح المسيحيين Chrétiens لم يكن موجود[1]، وإنما كانوا يسمون أتباع عيسى أو اليسوعيين Les Nazaréens[2]، تقام فيه الشعائر أو العبادات والذي يسمى الكنيسة، والذي تلقى عدة تغيرات من مكان يربط الإنسان بربّه أي العلاقة الروحية التي أتت بها الديانة الأولى إلى مؤسسة بين العبادة والاهتمام بحياة الدنيا؛ أي تتساير مع الحياة اليومية للمسيحي منذ ولادته بالتعميد إلى يوم وفاته والعودة إلى مولاه[3].

وبذلك أصبح للكنيسة أهمية كبيرة ومهمة، ليعرف العالم ولأول مرة تعايش الديانات الثلاث التوحيدية، الإسلام، المسيحية واليهودية، وانتشرت بصفة واسعة ومتصارعة، حيث بعد الاعتراف بالمسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية بموجب مرسوم ميلانو، الذي أعطى حرية الديانة 381م[4]، فانتشرت بين المماليك الإفرنجة والأنجلوسكسنية، وهكذا أخذت المسيحية أهمية كبيرة في أوروبا، كما أصبحت وراء بلورة أفكار هذه الفترة وذلك بسبب انتشار قوة الكنيسة الكاثوليكية ورجال الدين في روما[5].

وهذه المؤسسة، تعدّ سلّمًا إداريًا محكمًا، وهو مأخوذ من المثال الإمبراطوري؛ فتأتي البابوية على رأس السلم، والتي تمثل أهم القوى في الغرب ثم في العالم، فسلطة أسقف روما تعود إلى أهمية، وقداسة كرسي الحواري بطرس حبر أعظم Pontife[6].

فالبابوية هي نظام حكم رئيسي للكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وهو البنية الأساسية لمعتقداتها الدينية، كما اتخذت مدينة روما مقراً أساسياً لها[7]، والمتمثلة في شخص البابا. وكلمة البابا مشتقة من اليونانية Pappas وتعني الأب والذي يعتبر لقب كنسي يطلق على الرئيس الأعلى للكنيسة الكاثوليكية[8].

---

(1) شارل جنيبر: **المسيحية**...، مرجع سابق، ص ص45--49.

(2) نسبة إلى بلده اليسوع الناصرية، للمزيد انظر: نفس المرجع السابق، ص42.

(3) Jean Delumeau: **Histoire du Christianisme**, op.cit, p59.

(4) Roger Luc Mary: **Les grandes Religions**, op.cit, p32-35.

(5) شارل جنيبر: المرجع السابق، ص50.

(6) Jean Detumeau, op.cit, p63.

(7) Ibid, p64.

(8) Idem.

كما أطلقت كلمة البابا في الكنيسة مبكرًا، وعلى كل أسقف ثم اقتصرت ابتداءً من القرن السادس على أسقف روما وفي الشرق على كرسي البطريكية[1]، وهو اسمي مناصب التي تطلق على سلك الكهنوتي، وهو بمثابة الرئيس الظاهر كخليفة للقديس بطرس[2]، ينتخب البابا مدى الحياة، يمكنه أن يستقيل ولكن لا يمكن لأحد أن يقيله، فيمنحه بذلك العصمة في الأمور الدنيوية والمجتمع الديني. وهذه السلطة مرتبطة بوظيفته، والتي يتقيد من خلالها بالمراقبة، وبالحق الإلهي، وبالنظم الأساسية للكنيسة[3].

لكن هذا التطور كان بطيء واصطدم بالعديد من الصراعات خاصة الداخلية، كانت بداية المسيحيين في الصحاري والمقابر والمغارات المهجورة وذلك خوفًا من الاضطهادات الأولى والعذاب[4]، كانوا يجتمعون من أجل ممارسة تعاليم الدين الجديد في الخفاء، لتنتشر عبادة المسيحية تحت الأرض، فكانوا يقومون بالتدريس والتنصير في المناطق النائية المعزولة وبقيت تنتشر سرًا طيلة ثلاثة قرون[5].

وبدأت هذه العزلة أو الهروب أفرادًا ثم جماعات ليأخذ شكل ظاهرة متكررة، لتتحول مع مرور الزمن إلى طريقة العبادة[6]، لتقام الأديرة التي كانت مراكز لإشعاع ومقر للعبادة لتبدأ فكرة الرهبنة بدائية[7]، لتتحول إلى مدارس لتلقين الدروس للمسيحيين الجدد. وكانت هذه الحلقات تحفّها الخوف والريبة والرعب والفزع، وهذا الخطر جعل الجمعيات المسيحية تتحد وبدأ سلك الكهنوت بالظهور، وجعل الكنائس تتحد فيما بينها وتلتزم بنظام دقيق[8]، حين كان يقود شعب الكنيسة شيوخها أو القس، وهؤلاء القساوسة كانوا يخضعون بدورهم إلى سلطة الأسقف، والأساقفة الذين كانوا تحت سلطة كرسي المطران، والذي بدوره كان يشرف على منطقة جغرافية معينة وتعتبر مقر المطرانية الإقليمية[9].

---

(1) Jean Delumeau: **Histoire du Christianisme**, op.cit, p67.

(2) Janin. R.: **Les Eglises**, op.cit, p33.

(3) Jean Detumeau, op.cit, p68.

(4) Janin. R., op.cit, p34.

(5) Ibid, p38.

(6) Ibid, p43..

(7) Jean Detumeau, op.cit, p70.

(8) Ibid, p74.

(9) Idem.

وكانت أول نشأة في مصر على شكل حركة توحدية، لينتقل نظام الرهبنة إلى الحياة الاجتماعية، فأصبح الرهبان يعيشون بين الجدران الواحدة يدرسون ويعلمون معًا[1].

وبدخول العديد من الأغنياء إلى المسيحية، أصبحت تشيّد الكنائس الفخمة والكبيرة، كما تبنّوا تقليد اجتماع أساقفة كل إقليم أو ولاية بصورة منتظمة، فأصبحت الكنيسة تنظم نفسها على الطريقة المدنية، فتحوّل المعبد من مكان عبادة إلى مكان إقامة وعيش وعبادة وتعلم[2].

وبتطور البعثات التنصيرية في 610م، وربط العلاقات مع حكام القبائل الجرمانية، استطاعت روما من توحيد تقاليد الكنيسة وتأكيد سلطانها الشبه الكلي – ما عاد السلاف الذين بقوا متأثرين ببيزنطة أو الكنيسة الشرقية – وبذلك وتبعًا لما كان يمثله الحواريين في الأناجيل تأسست الكنيسة كمجمع لإتباع الذين لهم نفس العقيدة[3].

وبما أن المسيحية تأثرت كثيرًا بالإمبراطورية الرومانية، فإنّنا نجد اقتراب كبير بين الهيكل الإداري للكنيسة والإمبراطورية، كما أنه أصبح يتدخل في كل مجالات حياة المسيحي، لتأخذ الكنيسة قالب الإمبراطورية الرومانية، ذلك أن أسقف روما وصل تدريجياً بمضي الزمن إلى مركز رئاسي واعترف به[4]، وذلك أن الكنيسة اتخذت الإمبراطورية كمثال في تنظيمها إلى أن وصل الأساقفة يهتمون بالتنظيم الإداري وظهر على رأس الكنيسة عندئذ خمسة بطارقة في روما، القسطنطينية، أنطاكية، وبيت المقدس والإسكندرية، والذين يمكن تشبيههم بكبار رؤساء الإدارة الرومانية، وكل واحد منهم يتبعه مجموعة من الأبرشيات[5]، أخيراً يأتي قس الأبرشية.

ومن هنا ظهر سلك الكهنوتي والذي يشبه في تدرّجه إلى حد كبير سلم الوظائف الإدارية في الإمبراطورية الرومانية[6]، وبذلك توجب وجود شخصية عظيمة على رأس هذا السلم والتي بإمكانها أن توازي قوة الإمبراطور، فوجدت الكنيسة الغربية ضالتها في

---

(1) Janin. R.: **Les Eglises**, op.cit, p83.

(2) Ibid, p54.

(3) Roger Luc Mary: **Les grandes Religions**, op.cit, p29.

(4) سيد أحمد علي الناصري: **تاريخ الإمبراطورية الرومانية...**، مرجع سابق، ص44.

(5) نفسه، ص32.

(6) نفسه.

أسقف روما، وذلك لعظمة هذا الكرسي بالنسبة للمسيحيين لأنه يمثل القداسة نسبةً إلى بطرس وبولس اللذان وصلا إليها وعذبا وقتلا هناك، وكان يمثلان خليفتا المسيح وحاملين لما تركه المسيح، فارتبطت ارتباطًا أبديًا بذكرى القديس بطرس الذي أسس أول كنيسة مسيحية في روما، كما أنهم يعتقدون أن المسيح قد فوّض إلى بطرس لتأسيس الكنيسة وخوّله سلطة العقد والحل، وبذلك ومنذ العصور الوسطى ساد هذا الاعتقاد في كنائس أوروبا الغربية أن أسقف روما هو خليفة القديس بطرس وبالتالي خليفة المسيح[1]، ومعصوم من الخطأ، وآمنوا بصدق السر الإلهي وانتقاله من المسيح إلى القديس بطرس وإلى أسقف روما من بعده[2]، أضف إلى هذا أهمية روما والتي كانت أكبر المدن في العالم بالنسبة لتاريخها العريق، ومكانتها لدى الإمبراطور[3].

دون أن ننسى أن بعض الأساقفة كانوا يلجئون إلى أسقف روما من أجل استئناف أحكام أصدرت ضدهم من طرف المجامع الدينية[4].

كلّ هذا ساعد على منح أسقف روما مرتبة – عن غير قصد – الحاكم الأكبر والسيد الأعلى.

كما استفادت الكنيسة المسيحية من الهبات والأموال التي منحتها العديد من العائلات الثرية، كما تبرع بعض رجال الدين بأموالهم وثرواتهم للكنيسة، مقابل اعتماد الحياة البسيطة والتحقوا بالأديرة[5]، فبدأت تختفي تدريجيا روح البساطة والأخوة والمساواة، أين لم يكن فرق بين رجال الدين وعامة الناس، وحلّت مكانها الأبهة والتعالي وتشبّه الأساقفة بالأمراء وأحاطوا نفسهم بالخدم والحشم، وسكنوا القصور، عوض المساكن والمنازل البسيطة التي كانوا يسكنونها.

إذا حاولنا الدراسة أو التعمق في تاريخ البابوية، نلاحظ أنه كان للبابوية سلطة واسعة في الغرب منذ القرن الرابع، خاصة منذ أن تلاشت سلطة وقوة الأباطرة بعد الغزوات الجرمانية، أين أصبحت قرارات البابا تأخذ صفة أحكام ومصدر تشريع، خاصة

---

(1) Joseph Kelly: **Dictionnaire Christianisme ancien**, op.cit, p258.

(2) Etienne Chastel: **Histoire du Christianisme depuis son origine à nos jours**, op.cit, p27.

(3) سيد أحمد علي الناصري: **تاريخ الإمبراطورية الرومانية...**، مرجع سابق، ص45.

(4) Etienne Chastel, op.cit, p30.

(5) سليمان مظهر: **قصة الديانات**، مرجع سابق، ص ص108-115.

وأن المعتقد السائد أن البابا يستمدّ قوته وسلطته من السلطة الإلهية ومن بعد الربّ سلطة بطرس كبير الرسل وخاصة عندما برز القديس لاون الكبير (440 - 461م)[1]، حيث دافع عن العقيدة المسيحية أثناء الخلافات التي جاءت حول عقيدتي التثليث والتجسيد[2].

كما نلاحظ مدّ وجزر واختلاف في طريقة تعامل كل بابا مع الحكم السائد، سواء مع الإمبراطورية الرومانية ثم ملوك وإمارات ورؤساء الدول فيما بعد، ربما يمكن تصنيفها أو تقييمها إلى مرحلة التنافر والصراعات مع الإمبراطورية الرومانية والتي كانت تمثل الحكم الدنيوي، بليون الأشوري الذي حارب الإيقونات والذي اقتطع مناطق من البلقان والتي كانت تابعة مباشرة لروما وضمها للبطريركية القسطنطنية[3]، وفيما بعد عند تهديد اللمبارديون لروما ولم يتمكن البيزنطيون حمايتها، فاستنجد البابا استفانوس بملك الإفرنجة الذي حرر المنطقة ولكن لم يردها لبيزنطة بل وهبها للبابا[4].

وما زاد تنافر البابوية والإمبراطورية، تتويج البابا ليون شارلمان إمبراطورًا على الغرب في 800م، لتكتمل القطيعة السياسية بين الشرق والغرب، بينما بقيت الوحدة الدينية بين الكنيسة الشرقية وكرسي روما، لكن تدخلات البابا في الشرق كانت نادرة، إلى غاية المجمع الرسمي للقسطنطينية عام (879 - 880م)[5] ، أين تصالحا بطريرك القسطنطينية مع الكرسي الروماني، واعترف من خلاله برئاسته العليا مع الإقرار في حق البطريركيات الشرقية في إتباع تقليدها الخاص، ومن ثم بدأت العلاقات تتناقص حتى انقطعت في القرن الحادي عشر الميلادي مع البطريق كرولاريوس 1045م[6].

ليأتي العصر المظلم والذي عرف بعصر الحديدي[7]، في أواخر القرن التاسع وبداية العاشر، أين أصبح الكرسي البابوي ألعوبة في يد العائلات الإقطاعية الإيطالية، ثم وقع تحت سيطرة الأباطرة الألمان، وفي عهد غريغوريوس السابع (1073 - 1085م)،

---

(1) سليمان مظهر: **قصة الديانات**، المرجع السابق، ص98.

(2) نفسه، ص102.

(3) Janin. R.: **Les Eglises**, op.cit, p58.

(4) سيد أحمد علي الناصري: **تاريخ الإمبراطورية الرومانية...**، مرجع سابق، ص73.

(5) سليمان مظهر: المرجع السابق، ص37.

(6) Henri-Charles Puech (direc): **Histoire des Religions**, op.cit, p.152.

(7) ط. ب. مقرج وآخرون: **موسوعة عالم الأديان...**، مرجع سابق، ص14.

توحدت معه المركزية البابوية، جاء العديد من الإصلاحات وتدخلت في إقالة الملوك وإقامة آخرون، ويحل العصيان، ليتحول البابا الرئيس الحقيقي للمجتمع الغربي.

أما في عهد البابا أنوسنت الثالث[1]، والذي جاءت في عهده الحملة الصليبية الرابعة بغزو القسطنطينية 1204م[2]، أين أنشأت الدولة اللاتينية على الأراضي البيزنطية، ثم تعيين بطاركة اللاتين على الكرسي القسطنطينية ليزداد تباعد الشرق والغرب ليتحول إلى عداء[3].

والذي يتلو هذه الحادثة الأسر البابلي أين اضطر الباباوات الإقامة في فرنسا بعيدًا عن روما وهذا ما يعرف بالانشقاق الكنسي (1378 - 1417م)[4]، شهدت خلاله الكنيسة صراعًا داخليًا بين الكرادلة حول منصب البابوية، والذي حسم في مجمع كونستانس 1417م والذي خرجت منه البابوية ضعيفة معنويًا، ما ساعد في تهيئة الجو لتفجير ثورة ضد البابوية من طرف لوثر وأتباعه[5]، محاولاً الخروج عن طوع البابا مع أتباعه الذين كانوا يمثلون جزءً كبيرًا من الشعوب الأوربية وشهدت أوروبا انقسامات عدة، فانقسمت ألمانيا مثلاً إلى شمالي بروتيستانتي وجنوبي كاثوليكي ولم يحل هذا المشكل إلى غاية 1648م بموجب معاهدة واستفالية Westphalie [6]. وبمجمع ترنت Trent [1535 - 1563م] والذي قام بإصلاح الكنيسة من الداخل، وتم تنظيم البابوية إلى هيئات على شكل وزارات عرفت بالمجامع الرومانية لمساعدة البابا في إشرافه الدقيق على شؤون الكنيسة وإخماد النزاعات القومية والتي كانت تعمل للحد من سلطة البابا لمصلحة الملوك، والأساقفة المحليين[7].

استطاعت الكنيسة من تعويض ما خسرته في أوروبا الغربية، عن أمريكا ومناطق من الشرق الأقصى، وإفريقيا السوداء فزادت سلطة البابا[8].

---

(1) سليمان مظهر: **قصة الديانات**، مرجع سابق، ص41.

(2) محمود شاكر: **موسوعة الحضارات القديمة**، مرجع سابق، ص123.

(3) نفسه، ص127.

(4) ط. ب. مقرج وآخرون: **موسوعة عالم الأديان...**، مرجع سابق، ص56.

(5) نفسه، ص ص57-57.

(6) نفسه، ص62.

(7) سليمان مظهر: المرجع السابق، ص42.

(8) محمود شاكر: المرجع السابق، ص63.

وخلال كل هذه الصراعات والمواجهات بقيت البابوية أو الكنيسة تحتفظ بميزة العلم والكتابة وسيطرت عليه، ووجهت الثقافة لمصلحة الكنيسة البابوية وأصبحت صاحبة الصدارة الفكرية وعملت على نشر التعليم الذي اتخذ طابع ديني.

إتباعها للبرنامج الذي وضعه غريغوري الأول والذي سارت عليه البابوية لمدة قرنين والذي يؤكد على اتحاد كنيسة روما مع الأديرة، والذين بفضلهم استطاعوا نشر المسيحية في كل أوروبا، وما رسخ قوة الكنيسة والبابا هي الأموال التي استطاعت الكنيسة من جمعها، والتي شكلت قوة فعلية، مكنت الكنيسة من الوقوف في وجه الحكام والقوى الخارجية، وتكوين جيش للدفاع عن سلطتها وممتلكاتها، وبذلك تتحول هذه الديانة والعلاقة الروحية من علاقة الفرد بربّه إلى مؤسسة سياسية عسكرية دنيوية لها مصالحها وتعمل من أجل حمايتها.

المبحث الثالث: مفهوم الفكر الاستعماري بفروعه

ركب البرتغاليين البحر هم والإسبان بحثًا عن مناطق جديدة بمباركة الكنيسة، كما أن كل خروج كانت الدولة تصطحب معها جماعة من رجال الدين والرهبان، وذلك مقابل التمويل، لتتدخل الكنيسة في كل مرة لحل النزاع الذي كان قائمًا بين هاتين القوتين وتقسيم مناطق النفوذ بينهما.

تكوّن رجال الدين أو الرهبان الذين اصطحبوا هذه الخرجات على أيدي علماء في علم اللاهوت، وكان لهم تكوين كذلك على يد كل من اهتم بالمناطق غير الإسلامية في الشرق. وتتطور هذه الحركة التي تبحث على مناطق نفوذ أو مناطق جديدة ولتتحول ريادتها إلى قوتين جديدتين: فرنسا وبريطانيا أساسًا، وهنا نشاهد حملات من نوع جديد لأسباب وغايات جديدة، ولكن في كل مرة لا تغفل هذه القوى اصطحاب رجال الدين معها وربما أحسن دليل على ذلك هو الحملة الفرنسية على مصر، أين حملت فرنسا معها إضافةً إلى جيوشها، جماعات من رجال الدين، رغم وجود أصلاً أديرة وإرساليات من مختلف التيارات الدينية، وكذا المطبعة فإن الاستعمار الجديد أصبح له ثلاث فروع، الجيش العسكري، وجنود التنصير، وجيش التعليم والتحضير. وهنا لا محال سنجد علاقة بين كل هذه الفروع.

1 – مفهوم الفكر الاستعماري:

الاستعمار حركة انتشرت وتطورت وتحولت، أو تغيرت أشكاله وكان دائمًا مصحوبًا بحروب ومجازر كبيرة، سجل التاريخ عبر العصور الرغبة في التوسع على حساب الآخر، ابتداء من الفرد في مجتمعه الصغير لتصل إلى الأمم والشعوب، فيمكن القول أن غزو الأراضي من طرف الشعوب والسيطرة على ممتلكاته نزعة بشرية قديمة[1].

فأصبح الإنسان يبحث في الأفكار والحضارات القديمة لتبرير الحركة الاستعمارية الحديثة، وبالضبط خلال النهضة الأوروبية أين شهدت أوروبا تطور فكري وحضاري واقتصادي جعلها تتطلع إلى ما وراء البحار، من أجل استخدامها كحقول تجارب،

(1) آنيا لومبا: **نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار**، ترجمة محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، 2007، ص ص80-90.

لأفكارها ونظرياتها الجديدة، وربما يمكن وضع تاريخ 1798م كمعلم لانطلاق التطلعات الخارجية من طرف القوى الاستعمارية المعاصرة: فرنسا وبريطانيا. وهذا التاريخ بالضبط شهدت خلاله أوروبا أهم الثورات والتغيرات الاجتماعية والتحررية ضد الاستبداد وتسلط الحكومات الأوروبية، كما أنه عرف العالم الإسلامي موجة من الاستعمارات لم يشهدها منذ الحروب الصليبية[1]؛ أين حاولت أوروبا من خلالها إقناع الرأي العام بأنها تحاول تطوير وتحضير العالم المتخلف فعملت على إظهار تفوّقها على العالم الإسلامي، عسكريًا وفكريًا، من خلال حملاتها كالتي قامت بها على مصر سنة 1789م[2]، فمطبعة نابليون كانت من الوسائل التي استعملت لهذا الغرض، كما وصفها الجبرتي في يومياته، أين تكلم مطولاً على هذه المطبعة، ولكنّه لم يذكر في أي حال من الأحوال تفوّق الأوروبيين، وتخلّف المسلمين، بل عكس ذلك، حيث يظهر ويؤكد أن المسلمين يملكون ما هو أرقى يوصلهم للتطور لا محال[3].

كما أن المفكرين المسلمين لا يرون ضرورة الاتصال أو الاحتكاك بالأوروبيين أو كما وصفوهم بالغرب المسيحيين من أجل الوصول إلى التطور[4]، حيث كانت نخبة منهم، أمثال محمد عبده، والكواكبي وغيرهم، تحارب هذا التجديد وترى فيه ألغام تهدد مستقبل الأمة الإسلامية[5].

تطورت الأوضاع في أوروبا، حيث فقدت فرنسا الصدارة التي كانت تحتلها منذ 1815م في قائمة الدولة المتطورة في أوروبا، مقارنة بإنجلترا وروسيا، اللتان تعملان من أجل تحقيق مصالحها في كل الحالات من تكتل أوربي آخر ضدها[6]، فاهتمت انجلترا بالطريق التجاري للهند، فحاولت السيطرة على البحر الأبيض المتوسط من خلال قصف اللورد اكس مونت لشمال إفريقيا (طرابلس، تونس، الجزائر).

---

(1) Jacque Frémeaux : **La France et l'Islam depuis 1789**, éd. PUF, Paris 1991, pp79-82.

(2) Olivier le cour grand maison: **La République impérial, politique et racisme d'état**, éd. Fayard, Paris 2009, pp36-37.

(3) عبد الرحمان الجبرني: **ظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، تحقيق عبد الرزاق عيسى وآخرون، ج1، ط1، العربي للنشر، القاهرة، 1988، ص73.

(4) نفسه، ص74.

(5) نفسه، ص75.

(6) Raoul Girardet: **La Société Militaire de 1815 à nos jour**, éd. Perrin, 1998, p250.

الجزائر مرتين، وفي نفس الوقت، اكتسبت روسيا قوة في البحر الأسود أين وصلت حتى الدانوب، واتخذت على عاتقها مهمة حماية الأرثوذكسية في المنطقة، وبالتالي حتى التدخل في عدة مناطق من البلقان وغيرها[1].

ومن أجل إرجاع فرنسا الصورة القديمة لها؛ أي مكانتها في أوروبا كما كانت عليه في عصر حروبها الكبرى، وسيطرتها على أوروبا من خلال إصلاحات جويلية أين أكد الجنرال ديغول، "هذه العظمة أصبحت ثراث ووسيلة من أجل التكتل، وضرورية للأنظمة الجديدة"[2].

وبحكمة تتخلّى فرنسا عن الانتقام والتوسع في أوروبا، لتأكدها أن ما وراء البحار يمكن أن يمنحها فرصة احتلال مراتب القوة في أوروبا؛ أي استرجاع مكانتها، خاصة وأنها تملك حصة الأسد في هذا الجزء من العالم. وكل هذه الأحداث الأوربية لم يكن لهم أثر على الحركة الفكرية.

لما توقفت الحركة التوسعية في أوروبا، حاول العديد من المفكرين والسياسيين تحقيق أفكارهم وطموحاتهم فيما وراء البحار، فالتجار والمستثمرين أرادوا استرجاع مصالحهم التي ضاعت بسبب حروب الإمبراطورية، حيث أصبحت مسألة حياة أو موت، بالنسبة لسكان مرسيليا، الذين وضعوا آمالهم في الإصلاحات الحكومية الجديدة من أجل استرجاع ثرواتهم التي ضاعت، وزاد الاهتمام الفكري بالمشرق[3].

فتميزت سنوات 1830 و 1870 باهتمام المفكرين والعلماء الغربيين بالمشرق، وخاصة الطريقة الأنسب للسيطرة عليه، فاهتموا بكل الحضارات القديمة عن طريق العلوم، والمحاولة في كل مرة تبرير طموحاتهم، عن طريق اكتساب الحكمة القديمة[4].

ومن ثم أصبح الغرض من استرجاع مجد فرنسا المسيحية البنت البكر للكنيسة لا بد منه، فبعد كل الصراعات التي عاشتها أوروبا في هذا الشرق، والذي يعتبر خليط من الأفكار

---

(1) Olivier le cour grand maison: **La République impérial,** op.cit, p42.

(2) Raoul Gerardet, **La Société**, op.cit, pp33-35.

(3) Henri Wesseling: **Les empires coloniaux européens (1815-1919),** Collection Folio Histoire, éd. Gallimard, Paris 2004, p89.

(4) Jacque Frémeaux : **La France et l’Islam depuis 1789**, op.cit, pp83-84.

والمعتقدات، والحضارات، من عبرية، عربية، إغريقية، فارسية، تركية، إسبانية، فهذه الرغبة للوصول إليها ستولّد أسوء الحروب، الصراعات، وأبشع الإبادات، من أجل تحقيق ذلك، ولكن كانت نظرة العلماء والمفكّرين وراء هذه الإرادة حيث تبعد كل الصراعات التي عاشتها أوروبا وفرنسا خاصة من الصراعات الدينية وانقسامات، فالحكومات التي جاءت منذ 1815م، أعطت أهمية كبيرة للدين في الدولة، خاصة الكاثوليكية، وجاءت معها حملة نشر المسيحية خارج فرنسا، إعادة فتح مؤتمر البعثات الخارجية في باريس، ومؤسسة للعمل على نشر الدين في ليون 1828م، فمهّدت هذه الفكرة قصد إعادة تأسيس البعثات التنصيرية، فالتوسع على أراضي ما وراء البحار أصبح من أجل نشر الديانات، واتخذته فرنسا كسبب من أجل السيطرة في الخارج[1].

وبذلك إذا حاولنا تحديد مفهوم للفكر الاستعماري وعلى الرغم من أن المصطلح شائع ومتداول، إلاّ أنه من الصعب تحديد مفهوم الاستعمار وذلك لاختلاف المنظور بين المستعمِر والمستعمَر.

فإذا نظرنا إلى خطاب ليوبول II (Léopold II)[2] ملك بلجيكا الذي ألقاه عندما حصل الكونغو على استقلاله، أين وصف الوضع الذي وصل إليه الكونغو، عند حصوله على الاستقلال ناتج عن المهمة التحضيرية التي اتخذتها على عاتقها بلجيكا والمتمثلة في شخص الملك ليوبول الثاني والتي أتمتها بلجيكا من بعده، والتي بعثت وعلى الأرض الكونغولية طيلة 80 سنة، خيرة شبابها، وأمام هذا التاريخ أو الحدث التاريخي المهم يجب أن نتذكر الأوائل الذين قاموا بتحضير هذه المنطقة، والذين أوصلوا الكونغو إلى ما هو عليه اليوم، فهم يستحقون اليوم تقديراتنا واعترافاتنا بالجميل نحوهم، فهم الذين منحوا قوتهم وحياتهم من أجل أن تمنحوا اليوم هذه الحياة التطورية والرفاهية وتتمكنوا من إثراء إرثكم المادي والمعنوي[3].

---

(1) Jacque Frémeaux : **La France et l'Islam depuis 1789**, op.cit, pp85-86.

(2) ليوبول II ملك بلجيكا، أو ليوبول لويس، فيليب ماري فيكتور– 9 أفريل 1835م – 17 ديسمبر 1909م، هو الملك الثاني لبلجيكا، للمزيد انظر:

Adam Hochschild: **Les Fantômes du roi Léopold : La terreur dans l'Etat du Congo (1884-1908),** éd. Taillandier

(3) J. Gerard- Libois et Benoit Kerhaegen: **Congo 1960**, Bruxelles, centre de recherche et d'information socio-politique. C.R.T.S.P 1961, T1. p318.

لتأتي الرؤية أو المنظور الآخر والتي سنسلمها من خلال خطاب الوزير الأول للكونغو باتريس لومونبا (Patrice Lumunba)، ولنفس المناسبة، استقلال الكونغو، أين قال بصريح العبارة: "عرفنا أن القانون لم يكن نفسه بين البيض والسود، متساهل مع الأول وشنيع مع الثاني، ودون إنسانية، كما تعلّمنا أنه يوجد في المدينة، منازل جميلة للبيض، وأكواخ رشه للسود، لا يمكن أن ننسى الرصاص الذي قتل العديد من إخواننا، والزنازين التي عرفت العديد من لم يتقبلوا الرضوخ إلى نظام القمع والنهب[1].

من خلال الخطابين واللذان ألقيا لنفس المناسبة وهي استرجاع الكونغو استقلاله، هنا يتضح الفرق بالنظرة إلى تحديد مفهوم الاستعمار بغض النظر على كل النظريات العالمية.

فمن خلال الخطاب الأول للمستعمر ترى في حركته الاستعمارية، يد مساعدة قدمتها بلجيكا من أجل إنقاذ هذا الشعب من الهلاك، وكأن بلجيكا تحمل على عاتقها مهمة تطوير وتحضير العالم، إن العناية الإلهية ساعده من اختيار هذا الشعب ليحظى بمساعداتها من أجل الوصول إلى مستوى وركب الدول المتحضرة، عندما قال: "أن بلجيكا ضحت بخيرة شبابها الذين كانوا ينزلون الكونغو لتحضيرها"، نحس من خلال العبارات في هذا النص، التضحية والمساعدة من أجل التحضير وتطوير المنطقة، وأن هذه الدولة وجب عليها الاعتراف بكل ما عملته بلجيكا لها حتى تجعلها متطورة.

وفي نفس الوقت نتمعّن في خطاب باتريس لومونبا فيركّز على المعاناة والاستبداد والفوارق الطبقية وكل ما عاشه شعب الكونغو من استبداد.

من خلال هذين الخطابين يتضح لنا الاختلاف في تحديد مفهوم المصطلح.

ففي المطلق يمكن شرحه أنه مجموعة من الناس يستقرّون في بلد جديد، يشكّلون كياناً تابعًا لدولتهم الأم[2]؛ أي بتعبير آخر هو تعمير منطقة. وحتى يتم التعمير يجب أن تكون خالية من السكان، فإذا حاولنا تطبيق هذه النظرية على المناطق المستعمرة، نلاحظ أن كلها كان لها سكانها الأصليين ولكن حتى تتمكن هذه القوى من الاستقرار، فقد استعملت عامل الإبادة للقضاء على السكان الأصليين والاستقرار مكانهم.

---

(1) J. Gerard- Libois et Benoit Kerhaegen: **Congo 1960**, op.cit, p323.

(2) معجم اللغة العربية، **معجم الوسيط**، مكتبة السرور الدولة، 2004، ص502.

إذا تمعّنا في التعريفات التي تضعها الدول المستعمرة كتحديد لمفهوم الاستعمار، فهي ترى أنه ظاهرة تهدف إلى سيطرة دولة قوية على دولة ضعيفة وبسط نفوذها، من أجل استغلال خيراتها في كل المجالات؛ أي هو نهب وسلب منظم لثروات البلاد المستعمرة، ولا تكتفي بمجال الثروات ولكن تحاول ضِمْن التبعية الدائمة والمستمرة لهذه الشعوب، وذلك عن طريق فرض ثقافة الاستعمار على أنها الثقافة الوحيدة القادرة على نقل البلاد المستعمرة والتي تظهرها على أنها متخلفة، ويجب رفعها إلى مستوى الدول المتطورة والمتحضّرة، وأن هذه الدول المستعمرة حاملة لراية تطوير الشعوب المتخلفة: "إن مهام المستعمر هو تطوير الشعوب المتخلفة... فرنسا لا تريد أن تكون بلدًا حرًّا فحسب، وإنما وطنًا كبيرًا وله تأثير على مصير العالم فتنشر دينها، عادتها، وتقاليدها ولغتها وأسلحتها وألوان علمها وثقافتها[1].

حافظت هذه القوة الاستعمارية على النزعة التوسعية، التي عرفها العالم منذ القديم وطورتها في الفترة الحديثة، وظهور أفكار ونظريات اقتصادية جديدة جعلت أوروبا تطبق أنواعًا جديدة من الممارسات للسيطرة وجعل حلول لظروفها الداخلية، فتغيّرت من خلال خططها، الخريطة الجيوسياسية بأكملها، مستعملة في ذلك وفي كل مرة، ذرائع وأسباب وأهداف مختلفة، وتمسّكت بكل ما يمكن أن يطبق أطماعها في ما وراء البحار، فأصبح التساؤل هو أن هذا الاستعمار هو عقيدة أم إيديولوجية، تبرّر المفهوم الاستعماري الشائع، توسع دولة عن طريق الاستيلاء على أرضٍ خارج حدودها السياسية، كما أنه استغلال اقتصادي للأراضي، فهو يشرح مفهوم لحركة شهدها العالم، ظهرت تدريجيًا في أوضاع خاصة مرتبطة بالتطور والتغير الذي شهدته أوروبا، وهكذا ظهر استعمار جديد والذي يتميز بإخضاع شعوبٍ متخلفة تقنيًا، وما زالت مجتمعات حرفية أو زراعية على الأكثر من طرف أمم تملك تطور تقني، ومن هذا المنظور فإن الاستعمار هو صراع بين الحضارة الصناعية الحديثة، وأنواع أخرى من الحضارات والثقافات أقل تقنية أو تصنيع وزراعية بالدرجة الأولى[2].

---

(1) خطاب جول فيري الرسمي الذي ألقاه بتاريخ 28 جويلية 1885م أمام أعضاء الغرفة التجارية. للمزيد انظر:
Discour de Jul Fery sur la colonisation, chambre du commerce 28-07-1885, archives parlementaire cité par: Charle Robert Ageron: **France colonial ou partie colonial**, éd. PUF, Paris, p75.

(2) Jacque Frémeaux : **La France et l'Islam depuis 1789**, op.cit, pp.108-109.

أكملت أوروبا مهمتها التوسعية موهمة العالم بمهمتها التحضرية، وأخفت واقعًا مؤلمًا أنه عند تحضير هذه الشعوب التي كانت تراها متخلّفة أوهمتهم بتخلّفها، كانت تتفنن في تفجير مجتمعاتها أو التركيبة الاجتماعية والثقافية والتي لا يمكن إصلاحها[1].

2 – مفهوم التبشير أو التنصير:

منذ أن خرجت جيوش التوحيد – المسلمين – في وجه جيوش التثليث – النصارى – على أرض الشام والصراع قائم ومحتدم بين المسلمين والنصارى ولا يزال إلى حد اليوم[2]، ويمكن إرجاع مصدر هذا الصراع حسب بعض المؤرخين إلى نشأة الدولة الإسلامية أول ظهور الإسلام، وأول لقاء بين الرسول صلى الله عليه وسلم ونصارى نجران. وهناك من يرجعه إلى أول لقاء بين النجاشي في الحبشة والمسلمين[3]، ثم إلى الصراع بين العالمين الإسلامي والمسيحي في الأندلس وصقلية وكل الحروب الصليبية التي جاءت بصفة عامة للاشتغال بالأبحاث حول علوم العرب[4].

ولكن هذا التنصير في تطور مستمر من أجل تحقيق أهدافه وتطبيق نشاطاته على أرض الواقع، وذلك عن طريق التأثير على أبنائها بكل الوسائل، ولا يمكن لهذه الحركة أن تستمر في الزمن إن لم يكن لها من يغذيها ماديًا، وفكريًا عبر العصور.

كلمة التنصير في معناها اللغوي، هي الدعوة لاعتناق النصرانية، أو إدخال غير النصراني في المسيحية[5]؛ أي تطلق على كل من اتّبع ملّة عيسى عليه السلام أو الذين ينتسبون لعيسى عليه السلام والذي ينتسب بدوره إلى قرية الناصرة أو نصران من قرى إكليل بفلسطين وبالتحديد حسب بعض المعاجم العربية: نصران على وزن نجران قرية بالشام تنسب إليها النصارى ويقال اسمها الناصرة[6].

---

(1) Jacque Frémeaux : **La France et l'Islam depuis 1789**, op.cit, pp.11.

(2) زقزوق محمود حمدي: **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**، كتاب الأمة، قطر، 1984م، ص49.

(3) نفسه، ص52.

(4) مصطفى السباعي: **الاستشراق والمستشرقون**، الطبعة 2، مكتب الإسلاميين، القاهرة، 1979م، ص14.

(5) أحمد علي بن حجر العسقلاني: **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مج 13، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه، محمود فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار المعارف، ص1205.

(6) الفيروز أبادي، مجد محمد بن يعقوب: **القاموس المحيط**، ط1، مكتبة تحقيق التراث، بيروت، 1987، ص446.

أما التنصير عند النصارى يُقَال على كل من يدعو للمسيحية في الأوساط غير المسيحية وإدخالهم في المسيحية[1].

كما أن بعض المصادر الأجنبية تورد احتمال أن مصدر كلمة نصراني أو ناصري من ناذر Nazirite ناذرايت أو ناصرايت وتعني الناذر نفسه لله أو المنذور للإله[2].

كما جاء في بعض المصادر النصرانية المعاصرة أن كلمة الناصري Nazarene تدل على الشخص الذي ينتسب إلى مدينة الناصرة بفلسطين[3]، إن إطلاق اسم الناصري على عيسى عليه السلام وإطلاق اسم الناصريين على أتباعه كان أمرًا عاديًا شائعًا لدى معاصريه، كما جاء في الأناجيل، بل ربما كان أشهر وصف أطلق على عيسى عليه السلام في العهد الجديد لأنه استخدم من قبل العامة ومن عيسى عليه السلام وكذا من أتباعه ومن لم يتبعوه[4].

ولكن ما يجب الإشارة إليه أن حاليًا شاعت تسمية أتباع عيسى بالتلاميذ (الحواريين) وكذلك الإخوة وهي نفس التسمية التي سنراها فيما بعد في التجمعات الأولى والأديرة أين ستطلق على الأشخاص فيما بينهم الإخوة (Frères).

وبالتالي فمفهوم العالم لكلمة التنصير والتي تعد مصدرًا للفعل نصّر وهو مشتق من النصرانية، نصره تنصيرًا جعله نصرانيًا[5]؛ أما المعنى الاصطلاحي لكلمة التنصير في المفهوم الحالي هو الدعوة إلى دين النصرانية، ومحاولة نشر عقيدته في أنحاء العالم بكل الوسائل والأساليب.

أما كلمة التبشير في اللغة العربية هي مصدر للفعل بشّر، يبشّر واسم المصدر منه البشارة أو البشرى، وهو ما يعني في الأصل استخدامه اللغوي إيصال رسالة أو خبر ما يؤثر في بشرة الوجه تغيرًا ملحوظًا، سواءً كان إيجابيًا أو سلبيًا، وبذلك فإن كلمة التبشير في معناها اللغوي تعني الشيء وضدّه[6].

---

(1) Le grand Larousse Universel. T6, éd. I.N.C, Paris 1997, p4032.

(2) دائرة المعارف الكاثوليكية الحديثة، ج1، ص ص285-287.

(3) نفسه، ص288.

(4) محمد عثمان صالح: **النصرانية والتنصير أم المسيحية والتبشير**، دراسة مقارنة حول المصطلحات والدلالات، ط1، مكتبة القيم للنشر، المدينة المنورة، 1989م، ص70.

(5) نفسه، ص72.

(6) الفيروز أبادي، مجد محمد بن يعقوب: **القاموس المحيط**، مرجع سابق، ص447.

وتطور مدلول كلمة التبشير عند النصارى حسب العصور وكذلك حسب مخططات الكنيسة من أجل تطبيقها[1].

ولكي نتمكن من وضع مفهوم شامل لهذه المصطلحات وجب علينا العودة إلى بعض المصطلحات التي تحيط بهذا المفهوم.

تكريز (Proclamation) وهي كلمة قديمة الاستعمال وجاءت من فعل أكرز وهي وردت في الإنجيل مرقص ونسبت للمسيح عليه السلام حيث حسبت إنجيلهم للحواريين "اذهبوا إلى العالم أجمع، وأكرزوا بالإنجيل للخلق أجمع". وأصل هذا الفعل السرياني ويعني الوعظ؛ أي Prêche ولكن يقصد به التبليغ[2].

هناك كذلك كلمة البعثة (Mission) فمعناها لغويًا التكليف بأداء مهمة أو رسالة خاصة، إرسال وفد مبعوث من رجال ونساء أفراد أو جماعة، من أجل القيام بمهمة تنصيرية لنشر الإنجيل وذلك حسب الكلمة المأخوذة من اللاتينية القديمة (Mittère)[3]، أو تمهيد الطريق لنشره، وأصبح الأفراد أنفسهم يطلقون كلمة Missionnaires مبشرين أي منصّرين[4].

أما بالنسبة للتنصير (Evangélisation)، فمعناها إذاعة الخبر السار، ومن هنا يمكن تحديد معنى التنصير والذي مرّ بعدّة مراحل: ففي العصور القديمة كانت تعني إرسال مبعوثين لتبليغ ما جاء به اليسوع لغير المؤمنين بالإنجيل عن طريق الوعظ[5]، ليتطور خلال العصور الوسطى ويصبح يعني محاولة إيصال تعاليم العهد الجديد لغير المؤمنين وباستعمال كل الطرق حتى يتخذوا النصرانية دينًا لهم وإرجاع المرتدّين (المهرطقين)[6] إلى الكنيسة بما فيهم المسلمين إذ اعتبر رجال الدين أن الإسلام هرطقة[7]. ثم أصبح المعنى لهذه الكلمة ليس تبليغ دعوة المسيح وإنما في حالة رفض الإتباع، يقوم المنصرين

---

(1) الفيروز أبادي، مجد محمد بن يعقوب: **القاموس المحيط**، المرجع السابق، ص447.

(2) إبراهيم عكاشة: **ملامح عن النشاط التبشيري في الوطن العربي**، جامعة بن سعود،الرياض، 1987، ص12.

(3) محمد عثمان صالح: **النصرانية والتنصير...**، مرجع سابق، ص31.

(4) نفسه، ص33.

(5) إبراهيم عكاشة، المرجع السابق، ص13.

(6) أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي: **دعوة التقريب بين الأديان، دراسة نقدية في ضوء العقيدة**، دار ين الجوزي، الرياض، 1421هـ/2008م، ص784.

(7) نفسه

بتقريب المجتمعات المراد تنصيرها بالمجتمع المسيحي والاحتكاك بهم بنية إبعادهم عن دياناتهم بكل الوسائل[1]. وربما هذا هو الذي يتفق مع أحدث تصورات النصرانية.

3 – مفهوم الاستشراق:

لقد أسالت ظاهرة الاستشراق الكثير من الحبر من أجل محاولة حصر ودراسة وفهم هذه الحركة وأهدافها، ولكن ذلك كان صعبًا بسبب تعدّد هؤلاء المستشرقين عددًا ونوعًا، رغم ذلك، فإن من خلال كل ما كُتِب يمكن القول أنه ذلك الكل الذي يجمع المكان والزمان، والإنسان والثقافة، ولكي نتمكن من فهم هذا اللفظ يجب التعرف على هذه الأسس الأربعة التي تكوّنه.

فبالنسبة لمكان الدراسة هي الاتجاه نحو الشرق، لهذا جاء معنى الاستشراق – في اللغات العربية – بهذه الدلالة؛ ففي اللاتينية تعني كلمة Orient: يتعلم أو يبحث عن شيء ما، وبالفرنسية تعني كلمة Orienter، وجِه أو هدي أو أرشد، وبالإنجليزية Orientation، و Orientate تعني توجيه الحواس ناحية اتجاه أو علاقة ما، في مجال الأخلاق أو الاجتماع، أو الفكر[2].

فالمكان أو الإطار المكاني هو الشرق والذي يعتبر من أجزاء العالم القديم، وله قيمة وأثر على الإنسانية والعالم بأكمله، حيث كانت منبع الحضارات الأولى ومهد كل الديانات السماوية، ولكن عند تحديد هذا الشرق جغرافيًا هو الواقع في شرق البحر الأبيض المتوسط؛ أي هو المنطقة الواقعة من أطراف الصين شرقًا إلى موريتانيا غربًا ومن تركيا والعراق شمالاً إلى إندونيسيا جنوبًا، فهو شرق جغرافي في الجهة الشرقية مواجهًا ومقابلاً للغرب المتمثل في أوروبا[3].

ولكن هذا الوصف الجغرافي للشرق لا يتماشى والدراسات الاستشراقية، فالهند والصين واليابان جزء من الشرق نظرياً – جغرافيًا – ولكن قليلاً ما يهتم المستشرقين بدراسته، بل وأنّ أهم الدراسات الاستشراقية تدور حول مناطق العالم الإسلامي، حيث أن

---

(1) دون ماكري: **الإنجيل والإسلام**.

(2) السيد محمد الشاهد: **الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين في مجال الاجتهاد**، العدد 22، السنة السادسة، 1994م، ص197.

(3) سعيد عبد الرحمن العظمي وآخرون: **الإسلام والمستشرقين**، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جــدّة، 1985، ص125.

البلدان التي لا تنتمي للشرق هي مسلمة تدخل حيز الدراسات الاستشراقية، نلاحظ التحاق غرب شبه الجزيرة العربية ومصر وشمال غرب إفريقيا بالشرق[1].

فمثلاً إذا قسّمنا العالم إلى شرق وغرب، فنجد مثلاً غرب شمال إفريقيا تقع في الغرب المقابل مباشرةً لأوروبا من الجنوب، نفس الشيء بالنسبة لبريطانيا الواقعة على خط غرينتش، وهي في أقصى غرب أوروبا، فنجد بلداناً إسلامية تقع معها على نفس الخط، كالجزائر، ولكن لا تحسب على الغرب بل على الشرق، وكذلك موريتانيا التي يمكن اعتبارها البلد الأكثر غربية من كل دول الغرب، فهي تحسب كذلك على الشرق؛ أي أن عالم الاستشراق عنده الانتماء الديني أكثر من الانتماء الجغرافي[2]، إذًا فالشرق عند المستشرقين يجمع بين موقع جغرافي واعتقاده الديني – الإسلام – فهو تعبير يطلق على كل من يبحث في أمور الشرق الإسلامي، والتي تشمل حضارته، وأديانه ولغاته وثقافته، لقد ساهم هذا التيار في صياغة التصورات العربية عن الشرق عامة وعن العالم الإسلامي خصوصًا، معبرًا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما[3].

وهو علم يختص بفقه اللغة خاصة، وأقرب شيء إليه هو التفكير في الاسم الذي أطلق على كلمة الاستشراق والتي مشتقة من كلمة "شرق" وتعني شروق الشمس؛ أي هو يضم علوم العالم الشرقي[4].

ويعرف كذلك، أن المستشرق هو تبحر في لغات الشرق وآدابه[5].

ظهر مدلول هذا الأصل لهذا المصطلح في اللغة الفرنسية سنة 1799م عند مكسيم رودنسون (Maxime Rodinson) ولم يظهر في اللغة الإنجليزية حتى سنة 1838م، والحاجة لإيجاد فرع يتخصص في دراسة الشرق هي التي ساعدت على ظهور هذا المصطلح، وكذلك الحاجة إلى المجلات والجمعيات والأقسام العلمية.

---

(1) الطيب بن براهيم: **الاستشراق الفرنسي، وتعدد مهامه (خاصة في الجزائر)**، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2009م، ص ص20-21.

(2) نفسه، ص24.

(3) عامر عبد زيد الوائلي: **تأصيل مفهوم "الاستشراق"**، موسوعة الاستشراق، إشراف عامر عبد زيد الوائلي وطالب محيبس الوائلي، دار الروافد الثقافية، ابن نديم للنشر والتوزيع، لبنان، 2015، ص14.

(4) أ. ج. أريري: **المستشرقون البريطانيون**، تعريب محمد دسوقي النويهي، وليام كولينز، لندن، 1946، ص8.

(5) مكسيم رودنسون: **الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية في تراث الإسلام**، ترجمة محمد زهير السمهوري، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص ص27-30.

وهذه الأقسام اهتمت بكل ما يمثل الشرق من حضارة، علم، ثقافة، اقتصاد، اجتماع ومجتمع، وحاولوا الاهتمام حتى بالجانب النفسي لهذه الشعوب، فتحوّل الهدف من دراسة موقع جغرافي إلى دراسات من أجل تسهيل السيطرة عليه واستغلاله. هذا الشرق المتنوع الشعوب، والحضارات واللغات والثقافات والأجناس والتي انصهرت كلها تحت راية واحدة ولمدة عدة قرون الإسلام، وما الذي جعله يحقّق ذلك، وما يمكن أن يفيدنا، حيث أصبح الاستشراق يمثل رؤية الأنا (الشرق) من خلال الآخر (الغرب)؛ أي نظرة الخصم، المنافس، الغامض، حيث أن المستشرقون في الشرق أصبحوا لا يرون إلاّ ما يريدون رؤيته[1].

فمثّل العرب والإسلام ولمدة ألف سنة الشرق، والخصم للغرب والقريب منه جغرافيًا ودينيًا وسياسيًا ولم يستطع القضاء عليه[2]، واستطاع هذا الإسلام وفي مدة قصيرة التوسّع والانتشار بصورة واسعة النطاق أقلقت الغرب المسيحي، فخلال عشر سنوات استطاع عمر بن الخطاب، التوسع، فتجاوز روما إشعاعًا، واستطاع إخضاع ستة وثلاثين مدينة وقلعة، ودمروا أربعة آلاف كنيسة ومعبد، وبنو ألف وأربعمائة جامع لممارسة دين محمد (صلى الله عليه وسلم)[3].

كما شهده العالم انتصارات وفتوحات إسلامية، كفتح الأندلس وصقلية، فتح القسطنطينية، وصوله إلى أوروبا بمحاصرة جيوش سليمان القانوني لفيينا[4].

ومن خلال دراستهم إظهار الشرق المفترض لديهم؛ أي نسج خيوطه الفكر الاستشراقي، الذي خلق هذا الشرق، فصوّر هذا الشعب على أنه يهدد العالم المسيحي، فوصفهم الغرب في مطلع القرون الوسطى، أنه يوجد شعبًا هائجًا اسمه العرب أو السراسنة نسبةً إلى سارة زوجة النبي إبراهيم وأنهم برابرة يغزون إسبانيا وإيطاليا[5].

حيث وجّهت الأفكار والقراءات عبر كتاباتهم وأدبياتها وأعطت أفكار ومفاهيم وتصوّرات خاطئة للشرق العربي الإسلامي، وهي تراكمات لقرون من التنافس والصراع، هذه الصورة المشوهة لم تكن من ابتداع وسائل الدعاية للعرب فقط، بقدر ما كانت تعكس

---

(1) نجيب العقيقي: **المستشرقون**، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص ص51-52.

(2) إدوارد سعيد: **الاستشراق**، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 2009، ص55.

(3) Malek Bennabi: **L'œuvre des orientalistes son influence sur la pensée islamique modernes**, conférence donnée à la Mosquée des étudiants de l'université d'Alger, 1968.

(4) نجيب العقيقي: المرجع السابق، ص56.

(5) علي عبد الهادي المرهج: **العلاقة بين الشرق والغرب... حوار أم صراع**، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1999.

كذلك توصيلاً للملامح الأساسية لهذه الصورة، وهي الملامح التي ساهم في رسمها وتشكلها كُتَّاب ومفكّرون أمريكان خلال القرن 19م، وأسّسوا أفكارهم على ما كُتِبَ وصُوِّرَ لمدة قرون من طرف الأوربيين[1].

أصبح هذا المستشرق من خلال بحوثه أداة استعملتها أوروبا لتطبيق أهدافها، حيث وقفت الحكومات الاستعمارية إلى جانبهم ومساندتهم في أبحاثهم، فوضعت بين أيديهم كل الإمكانيات المادية، والإعلامية، ففتحوا لهم المكتبات، ودور الأرشيف، فظهر عمالقة في علم الاستشراق ليسوا أوربيون فحسب، بل على المستوى العالمي، وقد أشادت حكوماتهم بأعمالهم الفكرية والعلمية، ولكن الملفت للانتباه هو ولائهم وخدمتهم لمشاريع دولهم وحكوماتهم السياسية، والعسكرية والثقافية والتنصيرية؛ أي الاستعمارية[2] بأنواعه وباختلافه عبر العصور، ومحاولة ضربه من الداخل وذلك عن طريق الحط من ثقافته وكيانه وحضاراته، وهذا الذي يمثل الأساس الرابع في علم الاستشراق، حيث بمعرفة مقومات الثقافة الإسلامية وذلك عن طريق معرفة اللغة من أجل فهم القرآن واستعماله كسلاح لضرب المسلمين، والذي كان بمثابة السلاح الثقافي الفكري والذي سبق السلاح العسكري. ويقول جيمس بلغور: "يعرف الشرق أكثر من أي إنسان آخر"، ويقول أيضا: "إن الاحتلال البريطاني لمصر كان عن طريق سلاح المعرفة لا السلاح العسكري"[3]، حيث يعتبر الاستشراق من أهم الوسائل التي مهّدت للاستعمار العسكري وغزو الشرق ثقافيًا، واعتمد الاستعمار الجديد والمعاصر على المستشرقين بصفة فعّالة في دراسة نفسية الشعوب، عاداتهم وتقاليدهم، وهذا الاستشراق كان بداية بعد الحروب الصليبية خاصة، هذا لا يعني أنه لم يكن موجود ولكن الحروب الصليبية كانت له بمثابة القفزة حيث دفعت الغرب بصفة عامة، وبما أن في هذه المرحلة العلم والعلماء كان محصورًا في الكنيسة ورجال الدين، إذًا فأول من سيبدأ الاهتمام بهذه الدراسات هم رجال الدين واللاهوت، والكنيسة كانت مقر إنتاجه، فهذا الاستشراق الذي له صلة قوية مع الاستعمار منبته الكنيسة وغذائه العداء الذي كان بين المسيحية والإسلام[4].

---

(1) محمد الدعيمي: **بواكير الوعي الأمريكي بالعرب والإسلام.**

(2) سعيد عبد الرحمن العظمي وآخرون: **الإسلام والمستشرقين**، مرجع سابق، ص129.

(3) Edward W. Said, **L'orientalisme, l'orient crée par l'oxident**, éd., de Seuil, Paris, 1980, p62.

(4) مصطفى السباعي: **الاستشراق والمستشرقون**، مرجع سابق، ص14.

الفصل الثاني:

تطور الدعم الكنسي للفكر الاستعماري

- المبحث الأول: الهيئات الدينية وأهدافها السياسية
- المبحث الثاني: الدور الفكري للكنيسة قبل القرن 19م

تكوّنت الكنيسة الأولى؛ أي الكنيسة الأم من الرسل أنفسهم "ارجعوا إلى أرشليم من الجبل الذي يقال له جبل الزيتون وهو قريب من أرشليم"[1]، ويقصد بهم بطرس، يوحنا، يعقوب وأندراوس، فليبس وتوما وبتليموس، ومتى، لتنشأ الكنيسة الأولى، والتي من خلالها يحاول أساقفتها نشر الديانة المسيحية، وهنا تبدأ فكرة التنصير ولن تتوقف إلى يومنا هذا.

وبعد أن أصبحت المسيحية هي الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية منذ 313م، عرفت كنيسة القدس الأمن والسلام[2].

إن الاعتراف بالمسيحية كان إيجابيًا حيث جعلهم آمنين يمارسون ديانتهم، ويعرفون بها ويدعون لإتباعها، كما تغير رجال الدين في علاقتهم مع الحكام وحتى مع رعاياهم، منذ القرن الأول كان هناك مجموعة صغيرة من الكنائس وبطارقة يجمعهم رابط روحي، وكانت علاقتهم برعاياهم الوعظ والإرشاد، ولما وصل "غريغوري" كرسي البابوية وأعلن ترأسه على جميع الكنائس وعظّم نفوذه[3].

كانت الكنيسة قائمة على نظام هرمي والذي ما زال قائمًا وإن تغيرت بعض صوره وأوضاعه، فالبطريق هو رئيس الكنائس الأعلى في محيطه، ويتبعه أساقفة لكل أسقف مجموعة خاصة من الكنائس وكل أسقفية تتكون من أبروشيات، وكل بطريق في ناحيته منفصل عن الآخر، وكانت مراكزها لا تتجاوز الخمسة سابقة الذكر، ولما أصبح لها رئيس عام في روما وأصبح لها رابط يوجهها ولا بد أن تخضع له[4]،أصبحت الكنيسة تشارك الحكام في نفوذهم، وذلك لأن لها رعايا يخضعون لها.

وطبعًا بازدياد عدد المسيحيين، ارتفع نفوذ الكنيسة واضطر الأباطرة إلى معاملة رجال الدين معاملة مميزة حتى يضمنوا الولاء وإخضاع الشعب للحكام، وبذلك حصلت

---

(1) سلوى بلحاج صالح: **المسيحية العربية وتطوراتها من نشأتها إلى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي**، ط2، دار الطليعة، بيروت، 1998، ص13.

(2) شارل جنيبر: **المسيحية...**، مرجع سابق، ص33.

(3) جميل مدبك، المشرف العام: **موسوعة الأديان في العالم، المسيحية، الكنائس الشرقية**، ج1، ط أصلية "Grepoint"، بيروت، 2001-2001، ص18.

(4) محمود شاكر: **موسوعة الحضارات القديمة وتاريخ الأمم**، مرجع سابق، ص ص31-32.

الكنيسة أو رجال الدين على وجه الخصوص امتيازات خاصة، فأصبحت لها؛ أي الكنيسة حق في كل التبرعات وحتى قبول الهدايا، وفي هذا التيار الديني والعاطفة الساذجة، كثرت العطايا والتبرعات من أموال ومزارع، وخدم[1]، فازدادت ثروتهم، أضف إلى ذلك أعفتهم الدولة من دفع الضرائب[2]، وكل هذه الثروة دفعت بالكنيسة كمؤسسة إلى الانزلاق في تيار الشهوات، والأخطاء الخلقية، والتجبر والتسلط، وبدأ اختراع طرق متعددة للحصول على الأموال، وتدخلهم في السياسة لم يكن من أجل الإصلاح وإنما لرعاية أموالهم ومصالحهم، وممتلكاتهم[3]، كما أصبح الحج إلى بعض الكنائس مصدر أموال وصكوك الغفران وكل الأراضي التي كسبتها بسبب تبرع الفلاحين الذين لم يتمكنوا من تسديد ديونهم، ففضلوا التبرع بها للكنيسة، فأصبحت الكنيسة تنافس الإمبراطورية في نفوذها وقوتها[4].

وما يمكن ملاحظته، هو الأموال والثروة التي جمعتها الكنيسة من كل هذه الأحداث، والتي جعلتها تكسب قوة تضاهي قوة الحكومات القائمة آنذاك وفتحت المجال أمامها، لتحسين أحوال رجال الدين والكنائس وتدعيمهم بالأموال عند الحاجة، ومن بين المجالات التي كانت من أولويات الكنيسة هي التنصير والذي بطريقة مباشرة كل ما زاد عدد أتباع الكنيسة زاد نفوذها، وبالتالي، أصبح التنصير من المجالات التي منحتها الكنيسة أهمية كبيرة من مال وعباد.

---

(1) جميل مدبك: **موسوعة الأديان**، مرجع سابق، ص21.

(2) محمود شاكر: **موسوعة الحضارات القديمة**، مرجع سابق، ص35.

(3) محمد أبو زهرة: **محاضرات...**، مرجع سابق، ص45.

(4) محمود شاكر: المرجع السابق، ص37.

المبحث الأول: الهيئات الدينية وأهدافها السياسية

كانت بداية الحياة الكنسية أو بالأحرى عند المسيحيين الأوائل في نوع من منـــازل أو المعابد معزولين عن الناس يعيشون مع بعض يقومون بشعائرهم الدينية ولم تختف هذه الظاهرة بل تواصلت حتى بعد ظهور المؤسسة الكنسية كما هي موجودة الآن، العيش مع بعضهم لم يتوقف.

وإلى جانب الكنيسة الأم في روما والمستحدثة في القسطنطينية كانت هناك أديرة[1]، والتي نشأت عنها الجمعيات التنصيرية والتي عملت على نشر المسيحية، وبت تعاليمها، ومع ذلك فإن سيرها في أوروبا كان بطيء، ولكن الشائع بين المؤرخين التنصير أنه في بداية القرن السادس وصلت المسيحية إلى كل أنحاء أوروبا رغم أنها لم تتمكن من القضاء على الوثنية، وبالتالي استغرقت المسيحية عشرة قرون للانتشار في أوروبا بأكملها، بينما الإسلام ابتداءً من قرنه الأول شمل مساحات تزيد على ما شملته الدولة الرومانية وهي في أقصى اتساعها[2].

ومنذ القرن السابع ميلادي، أصبحت المسيحية والإسلام، يتنافسان على أقطار العالم، فأوروبا آنذاك لم تشمل كل أقطار العالم، بينما اقتطع الإسلام مناطق من سواحل البحر الأبيض المتوسط وحاول الوصول إلى القسطنطينية. وهذا الصراع حوّل مناطق النفوذ خاصة من طرف المسيحيين والعداء الذي كانت تكنّه الكنيسة للإسلام وانتشاره بهذه السرعة وعلى حساب المسيحية، ظهر هذا الصراع.

فمنذ هذا الصراع الذي تولّد، أصبح من الضروري مجابهة أو تطويق الإسلام وانتشاره ولن يتم ذلك إلاّ عن طريق نشر المسيحية وتعاليمها[3].

فحاول المسيحيين استغلال كل أنواع الوسائل الممكنة لنشر دينهم، فحاولوا فرض النصرانية بالقوة؛ أي بالسلاح والحروب المباشرة كالغزو والاستعمار، وغير المباشرة كمخاطبة الفكر والاحتكاك بالمجتمع الإسلامي، لنشر الأفكار الأوربية المسيحية فيه، فأصبح

---

(1) الدير: هو مبنى للعبادة لا يخص المسيحية فقط، فيه رهبان وراهبات، وهي كلمة أرامية تعني بيت الفلاح أو المزارع نسبة للطبيعة التي كان يعيش عليها الرهبان، انظر: **موسوعة.**

(2) فيليب حتى: **تاريخ العرب المطول**، ص268.

(3) سلوى بلحاج صالح: **المسيحية العربية...**، مرجع سابق، ص15.

لرجال الدين أهمية كبيرة، ولهذا اهتمت الكنيسة بإعانتهم ماديًا وتكوينهم علميًا، ليستطيعوا القيام بمهامهم التنصيري، فأعطت أهمية للحياة الديرية والرهبنة[1].

1 – نشأتها:

إن نظام الرهبنة وحياة الديرية له علاقة وطيدة بتعاليم المسيحية وأعمال التنصير، فإن بداية المسيحية هي التي مهّدت للحياة في الجماعة، فتمجيدهم للمسيح عيسى عليه السلام، جعلهم يلتفّون حول هذا الاعتقاد وكان عندهم فكرة الاجتماع الأخوي (Frères)[2]، كما سمّوا أنفسهم القديسين[3]، وتأثّروا ببيئتهم الوثنية، واليهودية.

إن بداية المسيحيين كانت في الصحاري والمقابر هروبًا أو ابتعادا عن الاضطهادات؛ أي كانوا يجتمعون لممارسة شعائر الدين الجديد بعيدًا عن أنظار الرومانيون، وخلال هذه الاجتماعات السرية، يقومون بتعليم أولاً تعاليم المسيحية وكان ذلك لمدة ثلاثة قرون، تحول فيها هذا الهروب إلى طريقة عبادة؛ أي ابتعاد الفرد أو الجماعة عن الأعين للقيام بشعائره، وأقيمت بذلك الأديرة التي أصبحت بمرور الوقت، مراكز للإشعاع ومقر للعبادة، لتبدأ بذلك الرهبنة البدائية، وتحولت فيما بعد إلى مدارس لتلقين الدروس المسيحية، وعلم وبحث، أصبحت الكنيسة؛ أي رجال الدين فيها يهتمون بنقل العلم إلى التلاميذ[4].

وبالتالي فإن نظام الرهبنة والحياة الديرية له علاقة وطيدة بتعاليم المسيحية وأعمال التنصير، فإذا حاولنا تعريف كلا النظامين واللذين يختلفان عن بعضهما.

فالراهب ينقطع عن حياة الناس العامة ويخصص نفسه للعبادة والتأمل، فيبتعد عن ملذات ومتاع الحياة، فهو لا يتزوج.

أما حياة الدير، فتختلف حيث فيها عمل ونشاط، فهم يحاولون الوصول إلى الاكتفاء الذاتي، يتعلّمون ويتثقفون ويرجع الفضل في هذا إلى القديس بندكتين (Benediqutiene)[5].

---

(1) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام، حركات التبشير في آسيا وإفريقيا وأوربا**، مؤسسة الخليل العربي للنشر والإشهار، القاهرة، 1989م، ص90.

(2) نفسه، ص35.

(3) محمود شاكر: **موسوعة الحضارات...**، مرجع سابق، ص31.

(4) سلوى بلحاج صالح: **المسيحية العربية...**، مرجع سابق، ص32.

(5) جميل مدبك: **موسوعة الأديان**، مرجع سابق، ص25.

وهذه الحياة ليست وليدة الديانة المسيحية، بل هي قديمة، فأنبياء بنوا إسرائيل كانوا ينعزلون في الجبال، وهناك من المؤرخين من يؤكد أن القديس بندكت قد استفاد من نظمهم(1).

كما أن نشأة الرهبنة ليس مربوطًا أساسًا بفكرة الهروب من الظلم ولكن غالبًا ما ظلم الحكام، وسوء الأحوال سبب في زيادتها والإقبال عليها. ما هو مؤكد أن الرهبنة تسبق المسيحية(2).

الرهبنة هو الانقطاع عن كل شيء واختيار البتولية والعفّة من أجل الملكوت؛ أي يترك كل شيء بما في ذلك ملذات الحياة، يكرّسوا حياتهم لخدمة اليسوع ونشر تعاليمه وأسس المسيحية وكانوا يقومون بعدة أعمال خاصة أعمال خيرية، زيارة الفقراء والمرضى علمًا أنه عندما يهدي نفسه للكنيسة حتى الموت، في سبيل إعلاء المسيحية، وكلمة الكنيسة(3)، وتتواصل هذه الحياة بنفس المنطق في وهب الحياة للمسيح. ويقوم الراهب بكل شيء لتحقيق ذلك، حتى العصور الحالية، هؤلاء الرهبان سيكونون وراء خلق العديد من المؤسسات والحركات والتي ستشارك بكل الطرق في تنصير العالم، من حروب بالسلاح إلى الحروب بالفكر والكتابة، وبما أن هذه الأديرة هي مركز إشعاع أي علم(4)، فبمجرد ظهور الإسلام والعداوة التي ستكنه الكنيسة برجالها له، سيعمل رجال الدين على البحث والكتابة في هذا المجال؛ أي من أجل تطويف انتشار الإسلام، ومحاربته في البداية، ثم نشر أفكارهم في المجتمعات(5).

كانت الحياة الرهبانية في أوروبا تشدّد على الاستقرار، ما جعل الراهب مجبور على البقاء في ديره. وكان رئيس الدير أهم عنصر في الحياة الديرية، لأن دوره مزدوج معلم روحي، ورئيس جماعة، وكان الرهبان ينتخبونه مدى الحياة ويخضعون له خضوعًا تامًا(6).

(1) Jean-Delumeau: **Histoire du christianisme**, op.cit, p207.

(2) جميل مدبك: **موسوعة الأديان**، مرجع سابق، ص29.

(3) نفسه، ص32.

(4) محمد أبو زهرة: **محاضرات...**، مرجع سابق، ص50.

(5) نفسه، ص53.

(6) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص44.

ومن أهم الرهبان الكرمليون في جبل كارمل من الرهبانيات اللاتينية القديمة في فلسطين والكرمل هم نُسّاك أقاموا بجبل الكرمل في حيفا منذ القرون البعيدة، وتنظّم في القرن 12م بموجب قانون رهباني وصفه لهم البطريك ألبرتس، فبالإضافة إلى استقبال حجاج الأرض المقدسة، فإنهم اهتموا بشؤون اللاّتين في حيفا منذ العصور القديمة إلى يومنا هذا.

الرهبان الفرنسسكان: منحوا من طرف الكرسي الرسولي مهمة العناية بالأقلية الباقية في فلسطين وإشرافهم على الأماكن المقدسة[1].

تكوين رهبنة حراسة الأراضي المقدّسة بعد الحروب الصليبية في جو من العداء بين الشرق المسلم والغرب المسيحي، وساعدهم في ذلك المماليك المسيحية إما بالإعانات المالية أو بتوسط لصالحهم في الحكومات الفلسطينية.

وهذه الحاجة في وضع رهبان لحماية المناطق أو الأراضي المقدسة هي طريقة لمحاولة البقاء والاستقرار في المنطقة غير مباشرة[2].

مرّ تاريخ جديد لحراسة الأرض المقدسة بأربع فترات متباينة:

أ- العصر الصليبي من 1219م إلى عهد المماليك 1291م.

ب- العصر العربي من فترة المماليك إلى فتح القدس من طرف الدولة العثمانية [1291م-1512م].

جـ- العثمانيين [1514م - 1918م] الإنجليز.

د- من الحرب العالمية الأولى حتى يومنا هذا[3].

تكونت الرعاية من خلال جهود الرهبان، جميع اللاتين المحليين المقيمين حالياً في بيت لحم والقدس وعين كارم ويافا، وفي ثلاثين موقع آخر موزع على سوريا، قبرص، فلسطين، مصر، انضموا إلى الكاتوليك هم أو أجدادهم على يد الرهبان الفرنسسكان[4].

---

(1) جميل مدبك: **موسوعة الأديان في العالم**، مرجع سابق، ص35.

(2) نفسه، ص55.

(3) Janin R.: **Les Eglises orientales**, op.cit, p72.

(4) Jean Delumeau: **Histoire du Christianisme**, op.cit, pp61-63.

في المجمع الرهباني سنة 1633م أوصى الرهبان بتعليم اللغة العربية وتاريخ الكنائس الشرقية، في أربعة من كلياتها في الغرب، وذلك لكي يتمكن الرهبان من القيام بعملهم في أراضي الحراسة، لنجد خلال القرن 17م افتتحت الحراسة مثل هذه الكليات؛ أي لتعليم اللغة العربية، في بيت لحم وحلب ودمشق والرملة[1].

ومنح نظام الملة[2] الكنيسة صلاحيات مدنية واسعة على رعاياها.

وهذا النظام أجبر في نفس الوقت تأمين الخدمات التي لا تقدمها الدولة، من هذا أصبح رهبان حراسة الأراضي المقدسة تهتم بتأمين السكن لرعاياها، كما أنشأت المدارس ابتداءً من القرن 16م[3].

كما أوصى البابا بيوس التاسع في 1846م على المحافظة على المدارس الموجودة في حراسة الأراضي المقدسة، وعينت راهبات مار يوسف مسؤولية الإشراف على مدارس البنات، التي وصلت إحصاءاتها في الفترة [1892-1895م] إلى 54 مدرسة منها 32 للذكور والباقي للإناث، وتضم 4224 طالباً و 60 أستاذ، كما اهتموا بالأيتام[4].

وهنا نلاحظ كيف هذا الدير ورهبانه يُطِورون سياستهم من حماية مناطقه المقدسة إلى عمل من أجل حماية المسيحيين، والمسيحية ونشرها إن سمحت لهم الفرصة، فنلاحظ من خلال ما سبق، الاهتمام باللغة العربية وتاريخ المنطقة، فتح المدارس للإناث والذكور والاهتمام بملاجئ الأيتام ووضع اليتامى في عائلات تقدم لهم السلع والأموال من أجل تربية هؤلاء اليتامى، حيث وصل عدد الأيتام من 250 إلى 300 طفل سنوياً، ثم نلاحظ أنه بمجيء الراهبات إلى فلسطين في نصف الثاني من القرن 19م، فُتحت ملاجئ للأيتام تحت إشرافها، حيث فتح أول ميتم للأولاد وآخر للبنات في 1889م. وهناك نلمس النوايا الخفية للكنيسة أنها ليست مجرد حماية الرعاية وتأمين لهم الأكل والمبيت وإنما الاهتمام بالأيتام وبالتعليم وتاريخ المنطقة ولغتها هو طريقة غير مباشرة للاحتكاك والدخول في المجتمعات غير مسيحية[5].

---

(1) Googan Michael. D.: **Les grandes religions**, op.cit, p62.

(2) نظام الملة هو اختيار الديانة وممارستها، للمزيد انظر: **موسوعة أديان العالم**، مرجع سابق، ص53.

(3) نفسه، ص ص52-54.

(4) Jean Delumeau: **Histoire du Christianisme**, op.cit, p66.

(5) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص35.

ومن الطرق كذلك محاولة مساعدة العائلات بتوفير لهم مدخول وذلك عن إدخال الحرف، وحث الناس على تعلم الحرف فأدخل الدير المخلص سنة 1700م المعامل اليدوية، كما أدخل في القرن 16م الفرنسيسكان صناعة الخشب والخزف إلى بيت لحم، ووصلت دورتها في عهد رئيس الدير برناردينو أمبشي (Bernardino Amici)[1].

بينما نلاحظ أن الطباعة لم تدخل المنطقة لأنه لم يستطيعوا الحصول على الموافقة من الأستانة حتى منتصف القرن 19م[2]؛ أي ضعف الفعلي للكيان العثماني، الذي جعل الكنيسة أو الدين بشكل خاص يدخل فن الطباعة، وأول ما أنتجته مئة نسخة من العهد الجديد 1847م، وفي نفس السنة طبع أول كتاب لتعليم المسيحية باللغة العربية ألفه الكاردينال روبيرتو بيلرمينيو (Roberto Bellarmino) وعنوانه التعليم المسيحي، وهذه المطبعة موجودة إلى يومنا هذا. وكل مطبوعاتها ومنشوراتها حول الكتاب الإنجيل وعلم الآثار الحضارات الأرض المقدسة والبلدان المجاورة، وهنا نلمس نظراً لأهمية الكتابة والنشر والآثار الخطيرة التي تكون لها على المجتمعات لم تحصل الكنيسة على موافقة لإدخال الطباعة المنطقة طيلة فترة قوتها، وذلك من أجل حصر نشاطهم في المنطقة[3].

لتتطور مؤسسات رهبان حراسة الأماكن المقدسة خلال القرنين 19م و 20م حيث تمكنوا من تأسيس كلية برّاسانطة الشهيرة في عمان؛ أي بمجرد فتح مجال الاهتمام بالأطفال ثم بتعليم الصغار وأخيراً دخول الطباعة والنشر إلى المنظمة أصبحت السيطرة على المجتمع شبه كلية[4].

الواضح أن هناك عدة أنواع من الرهبان ولعلّ أهمهم هم الديريون؛ أي الذين يعيشون في الدير Monaster، حاولت الأديرة الجمع بين تقاليد الرهبنة والحياة الدنياوية، فكان الرهبان منعزلون ويجتمعون في أوقات معينة لأعمال خاصة، بينما الديريون يعيشون عيشة مشتركة، يعملون ويجاهدون خاضعين لقوانين ولرئيس الدير، والذي ينتخب مدى الحياة، ما يكسبه نوع من القداسة، تجعلهم يطبقون مطالبه ويكنون له كل الاحترام[5].

---

(1) منصر إيطالي [1421-1503م]، للمزيد أنظر: عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير...**، المرجع السابق، ص ص55-57.

(2) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر**، ط1، مكتبة الوهبة، القاهرة 1981م، ص13.

(3) نفسه، ص ص21-22.

(4) نفسه، ص24.

(5) ط. ب. مقرج وآخرون: **موسوعة عالم الأديان...**، مرجع سابق، ص75.

ومن أهم الأديرة التي عرفها التاريخ هي:

• **الأديرة الباسلية:** وهي نسبة للقديس باسيل (Passel) [329-397]، والذي تكون في الرهبنة المصرية، ثم قام بتأسيس دير جديد حمل اسمه، فأنشأ في منتصف القرن الرابع أول دير له، و ما كان رافضه خلال تكوينه في مصر هو فكرة العزلة، فبمجرد تأسس ديره ألغى فكرة العزلة والانفراد داخل الدير، حيث جعل الرهبان داخل الدير يشتركون في كل أعمالهم، كما ابتعد عن فكرة إقامة الأديرة في الصحاري، وإنما تكون على ضفاف المدن وفي بعض الأحيان في مدخلها، كما تخلّى عن فكرة تعذيب الأجسام، وأعطى أهمية للنظافة والعمل الجماعي، من زراعة وحياكة وصناعة الجلود، ولهم منها – أي هذه الحرف – ما يعيشون به، وما يمكنهم من مساعدة المحتاجين المسيحيين طبعًا[1]، فباسل يبدو أنه اقتبس من حياة الرهبنة التي كانت قائمة خلال العهد القديم حول ضفاف البحر الميت، أما أخته أسست دير للراهبات في آسيا الصغرى، والذي امتلأ بالبنات، تقمن بالنشاط التنصيري.

انتشر النظام الباسيلي انتشارًا واسعًا في أنحاء الإمبراطورية، ورغم أن باخوم هو منشئ فكرة الدير إلاّ أن باسيل هو واضع نظمه وأسسه[2].

• **دير جبل صهيون:** حسب الراويات تأسس هذا الدير في حوالي 1219م، كان ملكًا للرهبان وما زال، يشترك فيه حاليًا الديانات الثلاث، المسيحية، اليهودية والإسلام.

• **دير مخلص:** اشترى الرهبان الفرنسيسكان من الرهبان الجورجيين في 1559م، وبني في جوار الكنيسة الراعوية في 1882م. كما يوجد بداخله مدرسة وميتم ومطبعة وأرشيف تاريخي هام ومعامل حرفية ومكتبة.

• **دير القبر المقدس (دير كنيسة القيامة):** ويقع هذا الدير بالقرب من كنيسة القيامة وسكنه الرهبان من 1240م.

• **دير القديسة كاترينا:** والذي يقع في بيت لحم بجوار كنيسة المهد واستقر فيها الرهبان في القرن 13م.

(1) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص ص93-41.

(2) نفسه، ص63.

• **دير البشارة:** لا يعرف بالضبط متى استمر فيه الرهبان في الناصرة ولكن حسب أحد الرحالة تعود إلى نهاية القرن 14م[1].

إضافةً إلى هذه الأديرة الخمسة المشهورة هناك 12 أديرة تزامنت مع هذه الأديرة، دير جلد المسيح، دير القديس يوحنا في عين كرم ودير القديس كلوبا في عمّاوس ودير ناقودمس في رملة، ودير القديس بطرس، ودير يسوع المسيح بالقرب من الناصرة على جبل طابور، ودير قانا الجليل، ودير القديس بطرس، في طبريا، ودير كفر ناحوم، ودير الورديه في حيفا، ودير القديس فرانسيس، في عكا[2].

أما في أوروبا فانتشرت الأديرة في القرن الرابع الميلادي وكان رائدها كاسيان، ثم خلفه مارتن ولي يليهم بندكت [480م – 543م] وله الفضل في وضع الأسس والنظم لكاسيان، وكان هذا النظام محبوب جدًا، أقبل عليه العديد ورغم تعدد الأديرة لم يكن بينهم رابط[3].

2 – أهم المؤسسات التنصيرية "Ordres":

هي هيئات مسيحية تكونت في سنوات وظروف مختلفة، وكانت مهمتها نشر الدعوة المسيحية وإعداد المنصرين، وأهم سبب لقيامها هو الانحطاط التي عاشته أوروبا في تلك الفترة بسبب جور حكامها.

والجماعات الكاثوليكية على عكس الجماعات البروتستانتية، لم تأت بتعاليم جديدة تختلف على ما جاء في الكنيسة، حيث كانت في البداية مجرد انعزال ورهبنة، وإخلاص ديني، ومحاولة بث لأفكارهم بين الآخرين، لتتطور وتتعدد وسائلها وتكثر مدارسها في الشرق، رغم الصراعات والتضاربات التي كانت قائمة بين الجماعات والمذاهب المختلفة، إلاّ أنها تمكنت في الأخير وضع هدفها فوق كل اعتبار وتمكنت من الاتحاد وضم نشاطها، عند إنشاء المذاهب البروتستانتية، وانتقلت إلى أمريكا، أين استطاع أن يكون لها نشاط أوسع وأهم من الآخرين، وذلك عائد لثراء أمريكا ماديًا.

---

(1) ط. ب. مقرج وآخرون: **موسوعة عالم الأديان...**، مرجع سابق، ص73.

(2) جميل مدبك: **موسوعة الأديان في العالم**، مرجع سابق، ص ص47-50.

(3) Googan Michael. D.: **Les grandes Religions**, op.cit, pp98-102.

ولعلّ أعظم باعث للإرساليات التنصيرية بعد بولس هو جريجوري العظيم، والذي لعب دور مهم في إعطاء الصبغة للسياسية الأوروبية وتوجيه الدعوة المسيحية في العصر الوسيط، وهو في الأصل راهب بندكتي مخلصًا جدًا لمذهبه.

ومن أهم الجماعات:

- **البندكتيون**: "**Les Bénédictins**": وهي تعتبر أقدم جماعة تنصيرية نسبةً إلى بندكت (Benedicte) القديس، ويسمى أيضًا ببندكت النورسي (Benedicte de Norsia) لأنه من بلدة نورسيا الإيطالية، ويلقب كذلك أبو الرهبان الغرب، وعندما تم ترجمة أعمال الأب جريجور الأعظم من البندكتيين وجد في الجزء الثاني ترجمة لحياة وأعمال بندكت والذي ولد في 477م وتوفي في 534م، وكانت حياته زاخرة بالنشاط العلمي، إلاّ أنه أحيطت حياته بالمبالغات[1]. اعتزل في حوالي سنة 500م كراهب ليستقر في كهف بعيدًا عن قصر الإمبراطور بـ 40 ميل[*]؛ أي حوالي بالتقويم الكيلومتري 80 كلم في Suluaco وذلك للابتعاد عن الحكام، وبطشهم وتسلطهم، وأنه في تلك الفترة كانت فكرة الابتعاد عن المدينة ما زالت سائدة[2].

كما كان حوله العديد من الأديرة، ثم بدأت شهرته تكبر وتتسع، وذلك لأنه انتقد الحياة السيئة والاستياء الكبير في روما، فاعتزل ليعيش بعيدًا عن فسادها[3].

اختير رئيسًا لبعض الأديرة التي كانت حوله وأبدى حماسًا كبيرًا، ما أزعج باقي الرهبان، فحاربوه، بل وحاولوا قتله، فوجد له طلبته مكان على معبد قديم، فانتقل إليه وأسس عليه أول دير له، والذي كان يعمل فيه وفقًا للتعاليم التي وضعها، حيث أعدّ قطعة أرضٍ لزراعتها من حوله، طبقًا لقواعده، وتمكن فيما بعد من تأسيس 12 ديرًا وجعل في كل دير 12 راهبًا، وكلها تحت إشرافه، ما زاد في اشتهار أمره أكثر، حيث اتصل به كبار القوم من روما، وأحضروا أبناءهم ليتدربوا على الرهبنة، تحت إشرافه، حيث قدِم له الملك القوطي وغيره من الرجال المهمين، ما أغضب رجال الأديرة الأخرى منه، فقاموا

(1) René Guennou: **Les missions catholiques**, in histoire des religions, éd., Gallimard, Paris 1972, p7.

* ميل = 1 كيلومتر و 800 متر.

(2) ط. ب. مقرج وآخرون: **موسوعة عالم الأديان...**، مرجع سابق، ص52.

(3) نفسه، ص53.

بمهاجمته، فحطموا معبده، فرحل إلى الجنوب، ولكن بقي نشاط الأديرة الإثنى عشر مستمرًا[1].

وهو استقر في منطقة ما زالت على وثنيتها، بين روما ونابولي وبدأ بنشر المسيحية بينهم ويعظهم، فاستطاع جلب العديد منهم إلى المسيحية[2].

ومن أهم الأحداث هو قدوم أخته سكولاسيتيكا للتدرب على الرهبنة وتكون راعية، نجحت في رسالتها لولا أنّ الموت سبقها، ثم قام ملك القوط بزيارة ثانية له في 547م[3].

عاش حوالي 77 سنة، وتوفي في حوالي 11 جويلية 547م، حسب تقويم الكنيسة الرومانية[4].

ما يمكن ملاحظته في حياة هذا القديس، تأثره الشديد بحياة الرهبنة، التي كانت شائعة في عصر المسيح وكشفت على تعاليمها وطقوسها بضفاف البحر الميت ووادي القمر، ولعلّ هي التي وجهته هذه الوجهة التي خالف بها ما كان سائدًا بين الأوروبيين، كما كان للأحداث السياسية والاجتماعية التي سادت العصر دور كبير على توجهاته، فهي التي جعلته يهتم بالتقشف والعزلى وابتعاده عن الفساد[5].

كما أدخل بعض القوانين على نظام الرهبنة والذي يتضح أنه استمدّها أو استوحاها من ما كان موجودًا آنذاك، وتمثلت التحديدات في السماح للرهبان لبس وأكل ما يريدون والنوم من 7 إلى 8 ساعات وقسم أوقاتهم من 5 إلى 6 ساعات للأعمال الدينية من صلاة، ترتيل، الاستماع إلى الوعظ أو إلقاءه، 5 ساعات للأعمال اليدوية، إما في المنزل أو الزراعة، و 4 ساعات لقراءة الكتب المقدسة والكتب الدينية[6].

تقوم المبادئ العامة للبندكتيين على 3 أمور أساسية:

- إنكار الذات؛ أي يعمل البندكتي من أجل الغير، حتى لو آذوه؛ أي يتصفون بالفقر، وكل ما يهمهم الحياة بعد هذه الدنيا.

---

(1) M. S. Delacroix. D.,: **Histoire Universelle des missions catholiques**, **des origines au 18ème siècle**, T1, éd., librairie grund, Paris 1956. p23.

(2) جميل مدبك: **موسوعة الأديان في العالم**، مرجع سابق، ص51.

(3) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص64.

(4) نفسه.

(5) Les ordres bénédictins, toute l'histoire des bénédictins, éd., MSM, Paris 2007, pp23-27.

(6) Dictionnaire du moyen âge, Histoire et société, Encyclopedia Universalis, 2015, pp122-124.

- الطاعة العمياء والكاملة لرئيس الدير ولقوانينه مهما كلفهم الأمر، ولو على راحة أنفسهم.
- العمل؛ أي يجب على كل راهب العمل حتى لا يكون عالة على غيره، بل حتى أنّ الآخرون يستفيدون من أعمالهم.

كان البندكتيون يؤسسون مدرسة أمام كل دير لتعليم المسيحية أولاً، ثم المعارف الأخرى، ويعتبر الرهبان البندكتيون أول من اهتموا باللغات القديمة[1].

يركز الدير البندكتي على عزوبية الراهب وتحقيق المساواة بينهم، كما كان نموذجًا للنظافة والجد والعمل، وأول من اهتموا باللغة العربية ونقلوا عنها، كما اهتموا باللغات الشرقية الأخرى، في الوقت الذي كانت أوروبا والفاتيكان لم يهتموا بعد باللغات القديمة[2]، ونظامهم الداخلي قامت عليه حركة الإصلاح الكولونية، ودخلت المسيحية انكلترا، وقامت فيها أديرة نشاط تنصيري على نظامها، وإليه ينتمي البابا غريغوري الأول، حيث كان من الرهبان البندكتيين، ثم اختير بابا للكنيسة كلها، وهو من أرسل أغسطين الصغير بعثة مكوّنة من تسعة وثلاثين شخصًا إلى انجلترا لنشر المسيحية ومبادئ البندكتية، وهو من أسس دير كانتبري (Counter Berry) وشيدا مكانه كتيدرالية الشهيرة التي ما زالت حتى الآن مركزًا لتخرج الدعاة والمنصرين الأنجليكان[3]. ثم منح الملك كانت (Kent) رجال الكنيسة أراضي وأموال، ولهذه الجماعة الآن إرساليات ومراكز تنصير مهمة وواسعة في الشرق.

بعد وفاة القديس بونوا (Saint Benoit) وبمساعدة البابا جريجوار الكبير (Saint Gregoire le grand) في القرن السابع، جعل من مبادئ دستور كل الأديرة الغربية، وستعطي أوروبا شبكة من الأديرة البندكتية، وستتطور، وسيستعمل مبادئه الحاكم لويس (Louis le Pieux) من أجل الوحدة الرومانية الجرمانية في 817م[4].

---

(1) Guillaume Jedrzczak : **Règle de Saint Benoit**, éd., Petite bibliothèque monastique, 2016, pp63-67.

(2) Ivan, Gobry: **Les Moines en occident, du Saint Benoit, d'Aniane à Saint Bruno (750-1100)**, éd., Guibert, 2005, p52.

(3) Ibid, p56.

(4) Dictionnaire du Moyen âge, op.cit, pp125-130.

• **الفرنسيسكان: "Les Franciscains"**: ووهي جماعة تمثل أشهر مدارس التنصير في الشرق الأوسط، وهي واسعة النشاط في أنحاء العالم كله، وينتمي إليها رجال بارزون في الدراسات الشرقية والفكر الديني[1].

تأسست جماعة الفرنسيسكان Franciscains أو كذلك Ordre des frères mineurs (O.F.A)؛ أي الإخوة الصغار، هي جماعة كاثوليكية تأسست في ايطاليا نسبةً إلى القديس فرانسيس الأسيزي (Saint Françoi d'Assise) (1181 – 1226) وكان ذلك في 1210م، امتثالاً لحياة اليسوع، يعيشون حياة الفقر الكبير والبساطة والأخوة، حيث يستعملون عبارة إخوة أو أخ (Frères)، رغم أن معظمهم كهنة[2].

كانت تعيش هذه الجماعة على التبرعات، أسس القديس فرانسيس في عام 1209م جماعة بدائية على مبدأ الفقر، وتلقى بسرعة صدى وانضم إليه عدد من الأتباع وكان له قانون، يدعى القانون المبسط وسماه القانون الأول وذلك لأنه مرّ بعدة تغيرات، كما حصلوا على مباركة البابا في عام 1210م، ولكن كانت شفوية، ونظراً للأوضاع المتذبذبة والمضطربة التي كانت سائدة في ايطاليا آنذاك، والانحرافات التي كانت في الوسط الكنسي، استطاع فرانسيس من الحصول على صدى كبير وشعبية ما أجبر البابا على تعيين قساوسة منصرين من هذه الجماعة، كما أن فرانسيس لم يكن يعترف بالبابا، اكتسبت الجماعة رسمية في 1223م وفي 1226م كتب فرانسيس وصية ظلت دستورًا للجماعة إلى يومنا هذا[3].

وما يمكن ذكره أن فرانسيس لم يكن هدفه تأسيس جماعة دينية، وإنما إصلاح ديني وكان يرى الإصلاح في إهمال حياة البذخ وتبذير الأموال، وكسب اللباس والمنازل الفخمة[4]، كبرت هذه الجماعة وتعددت مدارسها وفروعها. يكمن اختلاف هذه الجماعة أو فكر هذه الجماعة في كون أن الجماعات الأخرى لا تؤمن بأحقية الحياة للمسلمين،

---

(1) Gaston Duchet-Suchaux: **Les ordres religieux**, éd., Flammarion , Paris, 1993, pp13-20.

(2) M.S. Delacroix: **Les missions…**, T1, op.cit, p52.

(3) Ibid., p62

(4) Dictionnaire du Moyen Age, op.cit, pp140-142.

بل يجب إبادتهم كلهم، بينما فرانسيس يرى أن هؤلاء الكفار – ويقصد بهم المسلمين – لم يصلهم الإنجيل ولم يقدم لهم بأحسن ما فيه ليجذبهم، ولذلك هذا هو الطريق الواجب انتهاجه للوصول للمسلمين وجلبهم وإقناعهم بالمسيحية، وهذا ما حاول الوصول إليه من خلال رحلاته العديدة إلى مناطق المشرق والمغرب، حيث ذهب إلى مراكش في سنة 1212م وإلى اسبانيا في سنة 1214م، ولكن كلتا الرحلتين لم تأتِ بنتيجة مع المسلمين، شارك في الحرب الصليبية الخامسة على مصر، وخلالها طالب مقابلة السلطان المملوكي، واعتبر هذه المقابلة نجاحًا لأن السلطان لم يرفض مقابلته ولم يتطاول عليه[1].

منذ ذلك الوقت ولمدة قرنين متتاليين كانت قيادة التنصير بيد الفرنسيسكان والدومينيكان إلى أن ظهرت جماعة اليسوعيين (الجزويت) في أواخر القرن 16م، وبداية القرن 17م[2].

أما بالنسبة لنظام الجماعة الفرنسيسكان لم يكن لهم نظام خاص بهم، بعد وفاة فرانسيس ونظرًا لعدم وجود نظامًا، أو قانون محدد حدثت عدة مشاداة بين أفراد الجماعة، بين الذين كانوا يريدون التحول من جماعة روحية إلى هيئة منظمة ذات قانون، وآخرون يريدون البقاء على ما كانوا عليه، وظل هذا الصراع دائمًا أو قائمًا لمدة أكثر من 20 سنة، أعاق الجماعة في نشاطها التنصيري [3].

إلى أن التحقت بهم فوضعوا لهم قانون مستمد من جماعات الدومينيكان بحوالي 50% خاصة في مجال التعليم والتكوين وأخذوا من الوصية التي تركها فرانسيس، فأصبح القساوسة يشرفون على المقاطعات وفرقهم ويشرفون على الأقاليم، وجعل اجتماعاتهم تنعقد ثلاث مرات في السنة[4].

ليحدث تغير في آخر القرن وذو أهمية كبيرة، وهو انضمام إلى الجماعة أساتذة جامعيين وتلاميذ ناضجين، فانشقت هذه الجماعة الساذجة إلى جماعة مثقفة لهم نظام وقوانين وآخرون بقوا على ما كانوا عليه، وكبرت الهوة بينهم وخلق عدة مشاكل وتذمر

---

(1) René Guennou: **Les missions étrangères**, Paris 1963, pp22-27.

(2) René Guennou: **Les missions catholiques**, op.cit, p19.

(3) René Guennou: **Les missions étrangères**, op.cit, p22.

(4) Dictionnaire du Moyen Age, op.cit, p30.

أتباع الجماعة من هذا الوضع، حتى جاء القديس بونا فنتورا (Bona Ventora) الذي يعتبر المؤسس الثاني للجماعة، حيث وضع قانون أو نظام يجمع بين الشقين وكان هذا النظام قريب من وصايا فرانسيس[1].

فانتشرت جماعة الإخوة الصغار في أنحاء أوروبا، بينما الجماعات المثقفة رحلت إلى الشرق في إفريقيا وسوريا، أما العواصم التي كانت فيها جامعات مثل باريس وأكسفورد، فقد تحولت بيوت الإخوة فيها إلى مدارس لاهوتية، ودرست فيها فلسفة الأديان، وضمت الجماعة عددًا من كبار الجامعيين رجالاً ونساءً، فاقتربوا بذلك من الدومينيكان الذين يهتمون كثيرًا بالثقافة والعلوم والبحث والكتابة أكثر من العبادة[2].

وربما أهم ما ميز هذه الجماعة أنها كونت تيارًا علميًا نشيطًا في الشرق، وامتدت مدارسها ومكاتبها في معظم المناطق، وإذا تكلمنا عن المدرسة والمكتبة يعني أنها الطريق المعبّد المار للفرد أو بتعبير أدق العقل ومن وصل العقل سيطر، فإذا تمكنت هذه الجماعة من الإشراف على عدة مدارس وجامعات ومكتبات في المشرق، هذا يعني أنها من السهل عليها الوصول إلى الفكر المشرقي، فالمجتمع المشرقي.

هذه الجماعة كان عملها التنصيري كثير وغزير وناجح، وما زالت تشرف على عدة مدارس في عدة مناطق من مصر مثلاً.

والمهام الأساسية لهذه المدارس تكوين يقوم به الرهبان والراهبات بالدرجة الأولى وأساتذة كبار، وهي تمتاز بالجد وحسن النظام وتهتم بتدريس ودراسة اللغة الفرنسية واللغة العربية وكل اللغات الشرقية القديمة، وذلك في الجامعات الأوربية التابعة لهذه الجماعة تنشط الأعمال الاستشراقية، كما لهم منذ 1939م كلية لاهوتية بالقاهرة ولها الآن فروع كثيرة، ونشاطهم استشراقي مقسّم إلى مجموعات وكل منها لها تخصص من تاريخ التراجم، أعمال المكتبات، كما ألّفوا مصنفات عن الشرق بلغات مختلفة واستعانوا بعلماء ذوي مقدرة، وكل هذه المؤلفات أفادت المنصرين والمستشرقين والسياسيين والباحثين، وطلاب المعرفة، ونشروا وحققوا مخطوطات[3].

---

(1) Ivan, Gobry: **Les Moines en occident,** op.cit, p71.

(2) Gaston Duchet, Suchaux: **Les ordres religieux**, op.cit, pp32-39.

(3) A. M. Henry, A. Yannoulatos, J. Bauberot: **Histoire des missions**, in Encyclopedia Universalis, 2001, p12.

وفي سنة 1846م أسس جماعة الفرنسيسكان أول مطبعة عربية في القدس، كما يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن رعاية البلاد المقدسة سنة 1850م، أسست بالقدس مركزًا لدراسة الكتاب المقدس – الإنجيل – ثم أنشئوا مكتبة ملحقة به وهي تحتوي الآن ما يقرب ألف مجلد، وأصدروا مجلة تحت عنوان "الأرض المقدسة"، ودراستهم تتركز حول تعليم المسيحية وطرق التنصير بها[1]. كما أنشئوا بالقاهرة مكتبة كبيرة تحتوي على كتب إسلامية ومخطوطات نادرة، ونصوص باللغات الشرقية الأخرى، والذي ساعدهم على تطوير هذه المكتبة هو تصوير المخططات من مختلف المكتبات، كما جهزوه بأجهزة حديثة مقارنة بما كان سائد هناك[2].

هذا المركز كان على علاقة وصلة خاصة ووطيدة بالسفارات الأوربية جميعًا، وخاصة السفارة الأمريكية والمكاتب الثقافية التابعة للسفارات.

أصدرت هذه الجماعة في القدس وبيروت وغيرها من المناطق الشرقية كتب حول اللاهوت، تقوم على الفكر الإسلامي وأعمال وآراء الفلاسفة المسلمين والمقالات الإسلاميين في التوحيد[3].

وأصدر الأب رُوهمر (Rohmer)[4] كتابًا عن العقيدة الفرنسيسكانية وفيه نص لابن رشد، وأخرج نظرية التجريد في المذهب الفرنسيسكاني[5]، وتهتم هذه الجماعة ككل رجال الدين المسيحيين واليهود بالجوانب التاريخية الشرقية خاصةً الأرض المقدسة، وتاريخ الهلال الخصيب القديم، كما اهتموا بتاريخ الكنائس وأعمالها ورجالها وكان لهم عدة كتب من بينها ذكريات موسى فوق جبل موءب، النصرانية والإسلام، كما كتبوا على الشخصيات والبلدان والقبائل، وهذا ما سهل الأمر للباحثين وكتاب الرسائل والمؤلفين[6]، وهي دراسات نعتمد عليها نحن كباحثين مسلمين، لأنها مليئة بالآثار الإسلامية المتنوعة،

---

(1) Gérard Pelissié du Rausas: **Le régime des capitulations dans l'empire Ottoman**, éd., Rousseau, Paris 1928, pp82-83.

(2) Idem, p92.

(3) François Rousseau: **Moines Bénédictins, Martyrs et confesseurs de la foi pendant la révolution**, éd., Desclée de Brouwer, 1926, p59.

(4) الأب Rohmer هو

(5) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص73.

(6) Jacques Dubois: **Les ordres monastiques**, éd., PUT, Coll., que sais-je? 1985, p32.

ورغم أنها مكتوبة من طرف مسيحيين منصرين ومستشرقين، إلاّ أننا نجد أنفسنا مجبرين للإطلاع عليهم وفي بعض الأحيان الاستعانة بهم، وذلك نظرًا لغياب البديل عند المسلمين[1].

استطاع أن يكون التنسيق بين الدومينيكان والفرنسيسكان في الأعمال التنصيرية، وإرشاد الحجاج القادمين للأراضي المقدسة، فاختص الفرنسيسكان بالأراضي المقدسة واهتم الدومينيكان بسوريا ومصر، حيث نشروا دليل الحجاج وفيه أبجدية عربية كاملة وطريقة النطق بها بحروف لاتينية، وكان هذا أول طباعة عربية تعرفها أوروبا سنة 1426م، وكان لها إرساليات عديدة[2].

ويبدوا اتحاد التنصير والاستشراق، وهذا الجانب الثقافي، كما يظهر الفلسفة الإسلامية، في كلتا الجماعتين خاصة فلسفة ابن رشد، وقد كان توما الإكوني[3] مع معارضة ابن رشد إلاّ أنه استفاد منه وتبنّى الكثير من أفكاره[4].

الآباء أو جماعة الدومينيكان "Les Dominicains":

• **جماعة الوعظ "Ordre des prêcheurs":** هي جماعة كاثوليكية تأسست من طرف القديس دومينيكوس (Saint Dominique)[5] في سنة 1215م، وكانت تحمل اسم الإخوة الوعاظ (Ordre des prêcheurs)، وكانت مهمتهم الأولى محاربة البدع والخرافات عن طريق العلم والاستنارة العلمية، فاستطاعت أن تقدم لأوروبا قواعد ثقافية هامة والتي كان لها أثر في بناء نهضتها الحديثة.

الدومينيكان هم رجال دين وليس رهبان، وبدأوا يؤسسون منذ القرن 17م فروع في الشرق وأنشئوا مكتبات ومعاهد وفي أواخر القرن 19م، أنشئوا مكتبة الكتاب المقدس ومجلة الكتاب المقدس بالقدس، ثم معهد الدراسات الشرقية بالقاهرة، خلال الحرب العالمية الثانية 1944م. وكان له مكتبه في 1945، كما أصدر عدة مجلات باللغة الفرنسية، مجلة المعهد الدومينيكاي للدراسات الشرقيين (Dominican d'études Oriental) منوعات المعهد

---

(1) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص82.

(2) François Rousseau: **Moines…**, op.cit, p65.

(3) توما الإيكوني

(4) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص102.

(5) Dominique, Nunèz de Guzman بالإسبانية [1170 - 1221] هو رجل دين ومؤسس جماعة الإخوة لوعظ الدومينيكان (l'ordre des frères prêcheurs)، للمزيد انظر:
R. Amerio, Lota Unum: **Etude des variations de l'Eglise catholique au XX siècle**, éd., 1987, p452.

الدومينيكاني للدراسات الشرقية، ومكتبة المهد بالقاهرة كانت كبيرة ومنظمة على الطريقة الحديثة، ومملوءة بالعديد من الكتب العربية، وجميع المجلات الإسلامية من مختلف العالم تقريبًا[1].

وكانت مهمة هذه الجماعة، محاربة البدع والهرطقيات أو كل ظلالة التي تشوه – على حد تعبيرهم – المسيحية، ويدخل ضمنها طبعًا محاربة الإسلام الذي يعتبره معظم رجال الدين المسيحيين منذ البداية عبارة عن هرطقة، خاصة أن الإسلام ينفي ألوهية المسيح ويعتبره بشرًا، وهذا ما دفع بهذه الجماعة للمشاركة في الحروب الصليبية.

في الشؤون السياسية، حين حاول الملك لويس التاسع عن طريق الدومينيكان، تمسيح التتار حيث أرسل في 1649م هدايا إلى ملك التتار حملها وفد يترأسه رجل دين دومينيكي أندريه لونجيمو (André Longimo)، وقد علق لويس التاسع آماله على التتار للقضاء على المسلمين[2].

كما نشطت هذه الجماعة في الهند والصين وإفريقيا، وانتمى إليها من العلماء عدة، من بينهم الأب جاك جومية (Jacque Joumé) الفرنسي[3]، وهو مستشرق ومنصّر معروف وله عدد من الكتب الإسلامية أو الخاصة بالإسلام، مثلاً "تعليق المنار على الإسلام" وهي بحوث تتعلق بتفسير المنار الذي كان يصدره الشيخ رشيد رضا، كما له "الاتجاه الحديث لتفسير القرآن بمصر" و "المجمل وقافلة الحج المصرية إلى مكة من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين" كما له "ورق بردي مسيحي باللغة العربية"، كما ترجم للغة الفرنسية مقالاً للمرحوم مصطفى صادق الرافعي بعنوان "قرآن الفجر" وله عدة مقالات إسلامية، كما ترجم ثلاثية نجيب محفوظ، واهتم اهتمامًا كبيرًا بالإسلام عامة ومصر خاصة. كذلك الأب دي موركاي فرنسيًا تكوّن في جامعة السربون، تخصص في دراسة توما الإكويني، وكان عضوا بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة في 1952م[4]، شرح ونقل عدد من الكتب الصوفية، مؤلفاته كثيرة وعديدة ولها أثر على العالم.

---

(1) J. Hayjar: **L'Europe et les destinées du Proche-Orient [1815-1848]**, éd., Bloud et Gay, Belgique, 1970, pp198-199.

(2) Philippe Maury: **Evangélisation et politique**, éd., Labor et Fides, Genève 1957, p101.

(3) نفسه، ص102.

(4) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص ص102-107.

ما يجدر بالذكر أن لأتباع هذه الجماعة مؤلفات غزيرة ومتنوعة، موجودة في مكتبة الدير في مصر إلى يومنا هذا، فهذه الجماعة كوّنت وأخرجت للعالم العديد من المستشرقين قاموا بعدة دراسات إسلامية، وما ميّز هذه الجماعة عن البقية، اعتماد نشاطها التنصيري على منهج علمي تجريبي قائم على الحجة الصعب مناقشتها.

لكن بالموازاة ورغم تبنّيها العلم، إلاّ أنها نقشت تاريخ حركتها التنصيرية بالإبادة والوحشية ضدّ مسلمي الأندلس، بضرورة قطع رقاب المسلمين جميعًا، سواءً تنصروا أم لم يتنصروا، لأن بالنسبة له في كلتا الحالتين يعتبرهم منافقين ولا يمكن ائتمانهم ويجب قتلهم بالسيف، وقد أيده في ذلك رجال الإكليروس، فقاموا بقتل العديد من المسلمين، ورموا بجماعات أخرى في البحر[1].

هل بقيت هذه النزعة الوحشية في رجال الدومينيكان؟ لكن المؤكد أنه بوجه عام، يمتازون بكراهية الإسلام والمسلمون، وبما أنهم يعتبرون المسلم التارك لدينه ليتنصر منافق، هذا يعني أن غايتهم ليست تنصير المسلمين وإنما إبادة المسلمين والقضاء على الإسلام[2].

• **اليسوعيين الجزوييت** "**Jésuites**": هي جماعة تنصيرية نشيطة إلى يومنا هذا، ولا يكاد يخلو إقليم في العالم من إرسالياتها، وهي متكونة من رجال كاتوليكيين ذوي ثقافة متنوعة وتكوين مختلف، أساتذة في الجامعة ومعاهد عليا، ومعلمين ومرسلين ، ولهم مستوى عالي من العلم والثقافة، تأسست على يد شباب وطلبة من جامعة باريس أرادوا نشر المسيحية، وتعاليمها ولم يكونوا على شكل هيئة مسيحية رسمية، ولم يكونوا خاضعين لقوانين الكنيسة، ولكن كانت الكنيسة تبارك قراراتهم وأعمالهم ونشاطهم، فتطورت وأصبحت لها كيان كبير فكري، فاعترفت بها الكنيسة[3].

تأسست هذه الجماعة على يد القديس إجناتياس دو لويولا (Ignace de Loyola)، وفرنسوا في 1539[4]، وباركها البابا بولس III في 1540، ثم انحلت في 1773م وتأسست من جديد في 1814م بمساعدة البابا Pie VII، وصل أعضاؤها في سنة 2013م إلى 17000 عضو[5].

(1) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص104.

(2) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص104.

(3) عبد الجليل شلبي: المرجع السابق، ص107.

(4) André Ravier: **Ignace de Loyola, fon de la compagnie de Jésus**, Paris, DDB - Bellarmin, 1974, pp82-99.

(5) Alexandre Brou, **Les jésuites de la légende**, éd., Retoux, 1906, pp53-72.

كان مؤسسها إجناتياس دو لويولا [1491م – 1595م] الذي كان يلقب بـ: أنجو Ingo من عائلة ثرية، وإصابته في الجيش جعلته يفكر في أحسن طريقة يخدم بها المسيحية، فاتجه إلى الجهاد الروحي، فابتعد عن ملذات الجسم وبدأ يدعوا الآخرين لها، وكان له شخصية قوية، ما سمح له من الرجوع لمقاعد الدراسة وأمضى في الجامعة إحدى عشر سنة، وكان له شخصية قوية جعلت جماعة من زملائه يلتفون حوله في الجامعة، وانضم إليهم جمع ممن كانوا ينتسبون إلى زافيرا Xzavier، فاتسعت الجماعة بسرعة كبيرة، ووضعت نفسها تحت شعار ديني خاص عرف بالدستور (الجزويني) اليسوعي، وواصلت تطورها[1].

فوضع للجماعة قانون وكتاب روحي "كتاب التدريبات الروحية" وما زال يستعمل في مدارس الجزويت، ما جعل الشباب يلتف حوله هو والنظام والثقافة التي اتصفت به هذه الجماعة والتقشف وترك المال والملكيات[2].

بعد مباركة البابا لهم، أرادوا زيارة بيت المقدس ولكن لم يتمكنوا نظرًا للحروب القائمة هناك في الشرق، وبعد إعلان طاعتهم للبابا والكنيسة، وأقسموا ثانيةً وأصبحوا قساوسة وسموا أنفسهم جماعة المسيح.

كانت مبادئ هذه الجماعة كغيرها من الجماعات الأخرى، الفقر، العفة والطاعة، إلاّ أن الجزويت كان لهم مبدأ رابع خاص بهم، ويبدوا أنه مبدأ أكثر منه سياسي بعيد عن الجانب الروحي، وهو الولاء والطاعة للبابا، وهذا ما قد يضمن لهم بطريقة غير مباشرة مساعدة البابا[3].

هذه الجماعة لم تتبع مذهبًا معين، وإنما كان هدفها تكوين الرهبان والقساوسة ليكونوا أعوانًا للبابا في روما، وهم وهبوا أنفسهم نهائيًا لخدمة البابا. كان لهذه الجماعة في التكوين جانب نظري وجانب تطبيقي، أعطوا أهمية كبيرة للتعليم والقراءة والكتابة، ويدعو إلى التفكير، والتأمل والتدريب على الدراسة والتكوين[4].

---

(1) André Ravier: **Ignace de Loyola**, op.cit, p103.

(2) Alexandre Brou: **Cent ans de missions [1815-1934], les jésuites Missionnaire au XIX et XX Siècle**, éd., Spes, 1935, pp83-87.

(3) E. Dufourcq: **Les congrégations religieuses Hor d'Europe**, **de Richelieu à nos jour**, éd., l'Inde éditeur, 1994, p23.

(4) Alexandre Brou, **Les jésuites**…, op.cit, p63.

* **تكوين الجزويت:** ما زالت هذه الجماعة إلى يومنا هذا قائمة على نفس النظام، الذي وضعه مؤسسها، فإن الجمعية تختار رئيسًا يبقى مدى حياته وهو الذي يسير الجماعة، داخل وخارج الدير وفقاً لإرادته، هو الذي يستطيع إما أن يرفع من شأن الجماعة أو العكس[1].

ويختار الرئيس مجلس من الرهبان، يمثلون الأقاليم، ويجتمعون للنظر في شؤونهم، ولكن الرئيس ليس ملزم بإتباع آرائهم، وكانت تطبق سلطة الرئيس عن التذكير والتخويف من الحساب، كما يوجد حول الرئيس مساعدين من أهم الأقطار الكاثوليكية في العالم[2].

إن مؤسس هذه الجماعة اقتبس مبادئه ونظامه من جماعات أخرى، كالفرنسيسكان والبنديكت والدومينيكان.

وأهم الأعمال التي قامت وما زالت تقوم بها هذه الجماعة هي تكوين إرساليات في أماكن مختلفة من العالم لنشر الديانة المسيحية، تعمل على تعليم وتكوين الشباب، استعمال كل الوسائل حتى يكتسب الشباب مبادئها وطباعها[3].

فأنشأت كليات بنظام تدريس وتكوين دقيق، تنقسم من خلاله مراكز التكوين إلى ثلاث مستويات، وهي: التلميذ، مساعد، ورئيس أو أستاذ[4].

كما أن مراحل المرور والرقي في المستويات والتدريب والترقي شاقة وطويلة، حيث تكون بعد عدة امتحانات أولية يتمكن الطالب (الراهب) الذي يرغب في الالتحاق بالتكوين الجزويتي، وعند قبوله بعد هذه الامتحانات يقضي تسعة سنوات في الدراسة والتكوين كتلميذ يتلقى فيها تكوين في مجالات الفلسفة وأصول الدين المسيحي "اللاهوت"، وبنهاية هذه المرحلة ونجاحه يعمل سنتين مدرسًا، ثم ثلاث سنوات رقابة ومتابعة المشرف، ثم عام آخر لدراسة أو تكوين متقطع، ليمر أمام لجنة، التي تسمح له بالمرور للقسم الثاني والذي سيوضع خلاله لمدة شهر كاملاً في العزلة من أجل التدريب الروحي والتقرب من المسيح[5]، وبعد كل هذا التكوين والدراسة والعناء إذا ثبتت لياقتهم، يقبل ويرقى إلى منصب

---

(1) Jacque, Certineau-Joly: **Histoire religieuse politique et littéraire de la compagnie de Jésus [1845-1846]**, T3, pp24-31.

(2) Ibid, p53.

(3) Dufourcq : **Les congrégation**…, op.cit, p31.

(4) André Ravier: **Ignac de Loyola, fon de la compagnie de Jésus**, op.cit, pp102-125.

(5) Ibid, pp102-125.

الأستاذية، ليكرسوا حياتهم للتنصير والإرساليات[1]، أقل ما يمكن ملاحظته هو طول المدة، وصعوبتها، وخاصة نوعية التكوين في البداية، وكأنهم يريدون التأكد من أن المقبل على هذا التكوين أهل لتحمل وقبول كل العوائق من أجل خدمة الكنيسة، والبابا لإعلاء كلمة المسيح، التأكد من حقيقة الولاء قبل تكوينه، ثم تسليمه مهمة التنصير في العالم، وكل هذا من أجل تعويد الروح على قبول كل القرارات دون نقاش أو جدل وذلك للابتعاد عن التفرقة، وكبح الغرائز، ويصبح الفرد آلة مبرمجة في يد الكنيسة في تطبيق مخططاتها. ويمكن أن نرى نوع من التشابه بين المؤسسة الكنسية والعسكرية من هذا الجانب.

هذا المنهج أو البرنامج وطول مدته يجعل من الطالب مرتبط ارتباطًا كاملاً ووطيدًا بالكنيسة وبرئيسهم، وبالتالي تطبيق منهجهم، وبما أن هذه الجماعة من بين مبادئها هو الولاء والطاعة العمياء للكنيسة والبابا، فإن متخرجيها سيكونون لا محال جيوشا للكنيسة في حروبها الفكرية والنفسية عبر العالم، وخاصة في قلب المجتمع غير المسيحي والمسلم خاصة، فكان لهؤلاء المتخرجين من هذه البرامج قدرة هائلة في تعليم الشباب وزرع فيهم كل الأفكار التي يرغبون، وطبعهم بطابع صليبي، كما أنهم على استعداد تام للتضحية بالأنفس من أجل قضيتهم وهي التنصير. وربما هذا ما ساعدهم على الانتشار ونمو مدارسهم، في مختلف المناطق والأجناس.

مرت هذه الجماعة بثلاث مراحل وهي من التكوين أو التأسيس أي من 1540م إلى 1773م، ثم حلّها من طرف البابا Pie VII والبابا كليمنت 14 الذي رفض هذه الجماعة وقوانينها ومبادئها وحتى تكوينها من سنة 1773م إلى غاية 1814م، والتي تعتبر المرحلة الثانية والتي دامت أربعون سنة، ورغم ذلك احتفظت الجماعة بكيانها في وسط المجتمعات، رغم أنه كان لها عدة اشتباكات ومشاداة مع جماعات أخرى، وحاولت الكنيسة إجبارهم عدة مرات على تغيير دستورها[2].

المهم هو إن كان لهذه الجماعة بالنسبة للكنيسة الفضل في نشر تعاليم المسيح، وذلك بفضل تكوينها العلمي والمسيحي[3].

---

(1) جورج مينوا: **الكنيسة والعلم**، ط1، ترجمة موسى جلال، دار الأهالي، دمشق، 2005، ص ص421-430.

(2) Dufourcq : **Les congrégation**…, op.cit, p120.

(3) André Ravier: **Ignac de Loyola**, op.cit, p93.

وكان نشاطهم موجه للمرضى والمساجين ومرتكبي الذنوب، وذلك أنه من السهل التأثير على نفسية الشخص الذي يعاني من الذنب، والذي يكون له عادة الرغبة في مسح ما مضى، بكل الطرق، فكانت هذه الجماعة تستعمل الوعظ من أجل إقناعهم أن الكنيسة تفتح له أبواب التوبة، وجعلهم مواطنين صالحين، ما يجعل هذا الشخص يدين لمن فتح له باب التوبة، من أجل التكفير عن ذنوبه وجرائمه، أما بالنسبة للكنيسة فقد كسبت نفرًا في جيشها التنصيري.

أما المرضى فبسيكولوجيًا يعانون ضعف في الشخصية بسبب المرض، إنه من السهل على رجل الكنيسة بعث أفكاره من خلال الشفاء الذي يعده به عن طريق التطبيب الذي يقوم به[1]، وقدرتهم على التعليم والتكوين وذلك بسبب نوعية البرنامج التكويني الذي خضعوا له، يجعلهم يكوّنون الشباب، ويستطيعون زرع في أنفسهم أفكارهم عن طريق التحصيل العلمي للتلميذ.

ومن أهم أعمالهم ما قام به فرانسيس زافير، والذي أسس العديد من كليات التنصير، في الهند في 1540م، ووصل إلى الكونغو، ومراكش في 1548م والبرازيل في 1549م[2].

من خلال هذا نلاحظ أن الجماعة منذ بدايتها الأولى؛ أي مباشرة بعد مباركة البابا في 1540م، تنطلق في تطبيق برنامج تنصير من أوروبا للوصول إلى الهند؛ أي القارة الآسيوية لتجعل هناك مدارس ومراكز وكليات للتنصير، عندما نتكلم عن معاهد ومدارس يعني سيكون هناك تكوين بالدرجة الأولى؛ أي من سكان المنطقة نفسها، لأن الجماعة المرسلة تكون لها تكوينها، ثم كذلك هذه الجماعة هي تتحرك للوصول إلى الهند من أوروبا، أي أنها طيلة رحلتها تقوم بزرع تعاليم المسيحية ونشرها على الأقوام، رغم أن هذه المرحلة بالذات مع مرحلة الكشوفات في أوروبا وقمة قوة الخلافة العثمانية، ونلاحظ أن أول حركة لجماعة تكون عبر آسيا، أي معقل العثمانيين. وبذلك تؤكد فكرة أن هدفها هو تطويق على الإسلام، ثم الوصول إلى مراكش والكونغو، أي إلى شمال إفريقيا وأواسط إفريقيا، وهي مناطق كانت مجال صراع كبير بين البرتغال واسبانيا، وتدخلات الكنيسة في كل مرة لحل النزاع، يجب الإبقاء صوب أعيننا في هذا التحليل ولاء الجزويت الكلي

(1) Alexandre Brou: **Cent ans**, op.cit, p62.

(2) André Ravier: **Ignac de Loyola**, op.cit, p95.

للكنيسة، والديانة المتواجدة آنذاك في شمال إفريقيا بما في ذلك مراكش الإسلام، وكانت المنطقة قد بدأت تعلن ولاءها للدولة العثمانية، ومن غير إفريقيا نرى أنها وصلت البرازيل؛ أي أمريكا، إذا المناطق المكتشفة خلال الكشوفات، وهي تظهر نية الكنيسة في السيطرة والوصول إلى المناطق قبل الإسلام، أضف إلى ذلك إذا لاحظنا فإنهم يحاولون السيطرة على العالم وإقناع الرأي العام أن المسيحية تنتشر في كل أنحاء العالم، آسيا، إفريقيا، أمريكا، وأوروبا طبعًا، أي أنه يضاهي الإسلام الذي في هذه المرحلة كانت الدولة العثمانية مترامية الأطراف.

ترك زفيير بعد موته ما يقارب 1000 من الأساتذة المنصرين، وما يقارب مئة دير للدعوة، كما قسم مراكز الدعوة إلى 12 قطرًا، لكل قطر دعاته، ولهذه الجماعة حاليًا مراكز في كل من إيطاليا، اسبانيا، البرتغال، وتعمل كلها في اتحاد وتنسيق كلي لنشر المسيحية على طريقتها، خاصة في الشرق، وظلت اليابان حتى نهاية القرن 16م في قبضة اليسوعيين.

كما كان لها مدارس لاهوتية تعتبر نماذج للمدرسة اللاهوتية، وكان لها عدة ممثلين في كل أنحاء العالم تقريبًا، كما وفدت على الشرق الأوسط في أوائل القرن 17م، وحاولت التمركز في الأراضي الشامية، لبنان وفلسطين، وعندما رجعت إلى نشاطها بعد توقفها اتخذت مقرًا في بيروت في 1831م، ولا يزال فيها مركز رئيسي في الشرق الأوسط إلى الآن.

• **جماعة الميتوديزم** "**Les Méthodistes**": هي حركة دينية تأسست في القرن 18م على يد رجل الدين جورج وايتفلد الانجليزي (George Whitefield)[1]، ولكن الواضع لأسس هذه الجماعة هو جون ويسلي، تعود تسمياتها للتنظيمات التي جعلتها منهاجًا في أعمالها، وتتميز بالإخلاص والتفاني في ذات المسبح والكتب المقدسة وهذا ما قامت عليه، كان لهم شعبية كبيرة بين الطبقات الشعبية، وربما هذا ما جعلها تنمو بسرعة، كما تحررت من قسوة وشدة الكنيسة، وهذا ما سيساعدها على إقامة كنيستها، كان مؤسسها ذو ثقافة لاهوتية، وأبوه كان رئيس كنيسة؛ أي أنه كبر في هذا الجو، درس في أكسفورد ومنحته الكنيسة الإنجليزية وسام اللاهوتية[2].

(1) Alexandre Brou: **Les jésuites de la légende**, op.cit, pp121-125.

(2) Dufourcq: **Les congrégation**…, op.cit, pp52-61.

كان جون ويسلي له فصاحة اللسان وكان يحسن مخاطبة الناس أو مخاطبة القلب، وهذا ما جعل المثقفين والسياسيين يهتمون بهذه الجماعة، كما استطاع من خلال خطاباته بث نوع من الأخلاق في الأوساط العامة[1].

كما كان لِويسلي أعمال سياسية، وقد سبق معاصريه في المطالبة بالإصلاح بحيث رفض التفاوض في التمثيل النيابي في البرلمان، وفساد السياسة، ولم يطالب بنزع الفوارق الطبقية، لأنه يرى لا بدّ منه في كل أمة. واستراح الحكام للدعوة الميتودية لأنها شغلت العامة عنهم.

وعندما مات ويسلي سنة 1877م كان أتباعه تعدى 180 ألف و 40 شخص؛ حوالي 1000 في أمريكا، وبقي العدد يتزايد حتى وصل في 1957م إلى 22 مليون في أوروبا و 12 مليون في الولايات المتحدة الأمريكية[2].

• **جماعة الأدفنتس "Adventists"**[3]**:** لم يكن لهؤلاء شهرة كبيرة، تعود تسميتهم إلى كلمة Advents والتي تعني العودة إلى عقيدة المسيح؛ أي عودة المسيح إلى الأرض وإقامة فيها مملكة تدوم ألف سنة، سيقضي على الناس غير الصالحين ويبقى فيها الأشقياء وتسمى كذلك أدفنتس اليوم السابع، واليوم السابع هو السبت وهذه الجماعة تقدس السبت لا الأحد، ويسمى أتباعها بسبتيين[4].

ظهرت جماعة الأدفنتس في القرن 19م وجاءت كردة فعل لتنبؤات من المرمون والشيكرز (Shakers)، وكان ذلك على يد وليم ميللر William Miller [1782-1849م][5].

ووصل عدد أعضائها 18 مليون عضوًا، كان مؤسسها في الجيش الأمريكي أثناء حرب 1812م، فأثرت عليه ظروف الحرب، فاتجه إلى قراءة الكتاب المقدس، فتوصل إلى فكرة أن المسيح سيعود إلى الأرض وحدّد لها موعد 21 مارس 1844م، ولما وصل التاريخ

(1) René Guenou: **Les missions catholiques**, op.cit, pp82-89.

(2) Ibid., p104.

(3) Roger Gerber: **Le mouvement adventiste**, éd., signes des temps, Paris 1950, pp10-20.

(4) M. S. Delacroix Dix: **Les missions…**, T3, op.cit, pp91-95.

(5) Roger Gerber, op.cit, p33.

المحدّد ولم يحدث شيء أجله إلى تاريخ لاحق وهو 22 أكتوبر من نفس السنة، ولما وصل هذا التاريخ كذلك ولم يحدث شيء، ابتعد عنه الأعضاء والأتباع[1].

لكن رغم ذلك بقيت جماعة على عقيدته سميت بالمليرين؛ أي أتباع ميلر والذين رأوا أنه على حق وأن التاريخ الذي حدّده هو تاريخ الإنذار، لا العودة، كما كان لهم مجلة في 1850م، بعنوان الأدفنتس ونداء السبت، وهي مجموعة إلى يومنا هذا. وأصبحت تسمى "مجلة النداء" وكان مقرها في الميتشيقان، 1855م، واتخذوا لنفسهم اسم جديد هو الأدفنتست السبتيون.

ومن بين الذين بقوا على عهد ميلر، إيلان وايت (Ellen White)، والتي أعلنت في 1863م أنها منحت النبوة، وبدأت تلقي محاضراتها في الولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا فأكسبت المذهب رواجًا وهي كانت في البداية من مذهب النظاميين[2].

لتظهر هيئات أخرى من هذا المذهب ولعل أهمها:

الأدفنتست الإنجيليين في 1845م، واتحاد الأدفنتس والحياة في 1862م، إلى غاية 1920م حيث ظهرت جماعة "الأدفنتست المسيحيون" ويمكن اعتبارها أهم هيئات الأدفنتست التي تأسست على يد جوناتان كيومنجس (Y. Cumnges)[3]، وكانت تقوم فلسفة هذه الجماعة على مبدأ الخلود، كما أنه يرفض أن يوم الراحة السبت، بل الأحد ككل المسيحيين، ويرفض فكرة منع بعض المأكولات، كما تسود بينهم فكرة المساواة في السياسة والأعمال، وتم الاتحاد مع العديد من الهيئات للتقليل من الكنائس الفرعية، ومن التغيرات أنه تم الانضمام للمجموعة فيلسوف ديني معروف شارل تيزراسل (Charles Teze Russel) [1852 – 1912] والذي أعجب بأفكار هذه الجماعة، ويسمون أنفسهم ميلر دونست من كلمة Dawn؛ أي الفجر؛ اعتبروا أنفسهم فجرًا جديدًا لدعوة ميلر[4]، وأهم ما ميز تفكيرهم أن الحياة الدنيا هي مملكة الشيطان وهي متعارضة مع قانون الإله، وأنها ستصلح يوم يعود المسيح، استفادة الكنيسة الأدفنتست من هذه الجماعة أنها اهتمت كثيرًا بمجال التنصير، والذي هو

---

(1) Roger Gerber: **Le mouvement adventiste**, op.cit, p43.

(2) Ibid., p45.

(3) Ibid., p92-94.

(4) E. Dufourcq: **Les congrégations**, op.cit, p73.

مرتبط ارتباطًا وطيدًا بكنيسة الأدفنتست اليوم السابع منذ تأسيسها رسميًا في سنة 1860م. وكان مبدأها إعلام العالم بأن اليسوع سيعود لتخليص العالم، ونشر عظمة حب الله وخدمة الإنسانية كسبب رئيسي لتواجدهم على وجه الأرض[1]، وتبليغ العالم بمملكة المسيح الثانية، والتي يعتبرونها الموقعة أين سينهزم فيها الشيطان أرمجدون (Armageddon).

إن التنصير عند الأدفنتست مرتبط بالتنصير عند البروتستانت في القرن 19م، دوايت موودي (Dwight Moody)، وجون موت (John Mott)، استطاعوا من جمع الملايين من الشباب لنشر دعوتهم تحت شعار "العالم كله في هذه الشبيبة"، ونلاحظ في كل مرة مراهنة الرهبان والمنصرين والكنيسة بكل مذاهبها عامةً على الشباب والأطفال في برامجهم وخططهم التنصيرية[2].

ومن أجل التأقلم مع التطور المتزايد لإرساليات الأدفنتست، قرّر مسؤوليهم من إعادة تنظيمهم، لتتحول في سنة 1889م إلى لجنة إرساليات الخارجية (comité des missions étrangères)، ثم في سنة 1901 سلمت مهام هذه اللجنة التنفيذية للمؤتمر العام وكان ذلك خلال مرحلة إعادة التنظيم الكبرى داخل الكنيسة الأدفنتست، حتى تضع حدًّا للالتباسات التي حدثت بسبب العمل بثلاث إرساليات مختلفة تقوم ببعث المنصرين[3].

وبذلك فإن الفترة ما بين [1900-1930م]، كان يعتبر العصر الذهبي لهذه الإرساليات والتي بذل فيها رئيس المؤتمر العام أرتور دانيال (Arthur Danielle) من [1901م-1920م]، وبعده وليام سبايسر (William Spiecer) [1922-1930م] من أجل إرسال أكبر عدد ممكن من المنصرين في كل أنحاء العالم.

قرر دانيال إرسال المنصرين يدعو برسالة عودة المسيح، في كل المناطق التي لم تصلها المسيحية، وفي سنة 1900م، وصلت نسبة المنصرين الساكنون في أمريكا الشمالية 68%، وبعد 30 سنة تغير الوضع كليةً وأصبح 77% منهم خارج أمريكا، وانتشروا عبر أقطار العالم في أكثر من 270 إرسالية[4].

---

(1) Roger Gerber: **Le mouvement**, op.cit, p73.

(2) Ibid., p82.

(3) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص53.

(4) Roger Gerber, op.cit, p90.

وحاول دانيال إقناع الرأي العام العالمي أن الدول والإمبراطوريات الاستعمارية القوية في أوروبا، يجب أن تكون بمثابة قاعدة لمساندة وتمويل الإرساليات، ماديًا ومعنويًا، وتتكفل ببعث الإرساليات، ومع مرور السنوات أصبح تقسيم المنصرين الأدفنتست يمثل الوضع الجيوسياسي واللغوي للإمبراطوريات؛ أي أصبح التنصير مرتبط بالاستعمار؛ كلّ دولة استعمارية تستعمل إرساليتها ومنصريها، في إفريقيا الشمالية مثلا المنصرين يتكلمون الفرنسية، لكن رغم ذلك ونظرًا للاصطدامات التي تلقوها باللغات واللهجات في المناطق المراد تنصيرها، اضطر المنصرين ومنذ البداية الاهتمام بلغات هذه المناطق ولهجاتها، حيث سكان المستعمرات لا يتكلمون بالضرورة لغة المستعمر، إلاّ في حالات قليلة، ففي جنوب إفريقيا، في غينيا مثلاً يتكلمون أكثر من لهجة، فأصبح المنصر مجبر الاستقرار في المنطقة والاحتكاك بالمجتمعات لتعلم اللغة واللهجات الأخرى إن وجدت من أجل تسهيل التواصل مع السكان وتسهيل نقل ونشر أفكارهم إليهم[1].

تعددت إرساليات الأدفنتست، فهناك من اهتموا بإفريقيا والتي كان التنصير فيها صعب، نظرًا لتوسع الرقعة ووسائل نقل بدائية، وصعوبة المناخ واختلافه، تعدد اللهجات، الأمية والأمراض، كل هذه العوامل جعلت من التنصير صعب، وكان أول المنصرين هناك من الإنجليز، وهذا لا يعني أن الأدفنتست اكتفوا بإفريقيا، بل كان لديهم عمل في أمريكا اللاتينية وغيرها من مناطق العالم، ورغم مجهودات المنصرين إلاّ أن عدد المناصرين قليل جداً، خاصة في المناطق الإسلامية الرافضة لتواجد المسيحية في مناطقها، وخاصة في شمال إفريقيا والمشرق، ما عدا عدد من الأقباط في مصر. هذا بالنسبة لتنصير الأدفنتست وعقيدة رجوع المسيح للخلاص، بينما في المناطق الأخرى يرفضون المسيحية شكلاً وتفصيلاً، يربطونه بالاستعمار والردّة[2].

وفي مؤتمر 1926م، تقرر مهمة التنصير للسكان الأصليين المنصرين عبر العالم، ولكن لم يرَ الأدفنتست إمكانية تحقيق ذلك إلاّ بعد الحرب العالمية الثانية [1939-1945م]؛ أي ابتداءً من سنة 1946م[3].

(1) Roger Gerber: **Le mouvement**, op.cit, pp85-87.

(2) M. S. Delacroix: **Les missions…**, T3, op.cit, pp107-110.

(3) E. Dufourcq: **Les congrégations**, op.cit, p93.

وابتداءً من النصف الثاني من القرن العشرين شهد الأدفنتست نقص عدد الإرساليات، وحاولوا التنصير بطرق أخرى، لاسيما عن طريق منح الطلبة حقوق في التكوين التنصيري خلال العطل الرسمية، خاصة في عطلة الصيف، أو إعطاءهم فرصة العمل لمدة سنة في إحدى المؤسسات التنصيرية، المدارس، المستشفيات أو المنظمات الإنسانية، وكل ذلك من أجل أن يكون لهم تكوين تنصيري[1].

ما يمكن ملاحظته أنه ما بين سنة 1851م و 1900م الأدفنتست كانوا يقدمون رسالتهم شفهيًا أو كتابيًا في 824 لغة ولهجة مختلفة وفي حوالي 412 دولة وشبه الجزيرة، ثم من سنة 1901م إلى 1960م بُعِثُوا عبر العالم إلى غاية النصف الأول من القرن العشرين وأصبحت المنشورات والإصدارات الطريقة الوحيدة للتواصل، وكنيسة الأدفنتست تساند حوالي 1000 إرسالية تنصيرية، ولكن التنصير تطور مضموناً وحتى من ناحية الزمن الذي تستغرقه الإرسالية، وذلك بسبب تطور وسائل النقل، وحتى نوع المنصرين[2].

* **الجماعة البريسبيتارية "Les presbytériens"**[3]: هذه الجماعة لها نشاط تنصيري كبير ومهم ولكن أقل شهرة من كل ما سبق وكان لها إرساليات في الشرق، ذات نشاط تنصيري كبير.

ظهرت هذه الجماعة في القرن 16م ويعتبر عصر النشاط الفكري والديني والتطور السريع، واسمها منسوب إلى منطقة في بريطانية[4].

بريبسيتاريا تعود إلى الصراع الذي قام بين هنري الثامن والبابوية، وكانت لها عدة كنائس وأغلب عليها اسم الكنائس المصلحة، كما أنها تأثرت بكالفن وأخذت الكثير من مذهبه حتى أصبحت تسمى بالكنائس الكالفنية، وانتشر هذا المذهب انتشارًا واسعًا بعد الحرب، وما ساعده في الانتشار هو تأييد ومساعدة الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أرادت أن يكون لها الشرف، ما كان للإنجليز من قبل، خاصة وأن الشيوعية كانت تشنّ طريقها في الشرق، فقامت بمساعدة الكنيسة البريسبتيرية، بما أن هذه الجماعة لعبت دورًا كبيرًا لنشر دعوتها في الشرق ومن قبل في الحرب العالمية II، وازداد امتدادها بعد الحرب العالمية II، لأنها

---

(1) Roger Gerber, op.cit, p84.

(2) E. Dufourcq: **Les Congrégations**, op.cit, pp93-102.

(3) M. S. Delacroix: **Les missions…**, T3, op.cit, pp107-115.

(4) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص63-64.

استطاعت الحصول على تمويلات مالية ومساعدات مادية وبشرية من شباب وأساتذة، فاستطاعت رغم كل الصعوبات الخارجية أن تكون مستقلة ولم يؤثر هذا على الإعانات المتدفقة، والخطورة الجديدة هي أنها اتحدت مع المذهب البروتستانتي في أعداد من أقطار الشرق الأدنى والأقصى(1).

وهذه الجماعة متشبعة بمعظم أفكار كالفن، وكانت لها عدة إرساليات في المستعمرات الإنجليزية، وكانت تحصل على مساعدات كبيرة ولها رعاية الحكام الإنجليز لأنها انجليزية المنشأ، وفي المقابل كانت مهمة هذه الجماعة الجوسسة وإرسال التقارير الخفية وفيها معلومات دقيقة على هذه الشعوب التي تعيش بينها(2).

وهذه الكنيسة الإنجليزية كان لها فيما بعد عدة إرساليات من أهمها الهيئة الإنجيلية، الكنيسة الإنجيلية، اتحاد الفانجيليكان، الإنجيليين والكنيسة المجدّدة، اتحاد الإخوة الإنجيليين، الإخوة بلايموث(3).

يمكن اعتبارها أهم الجماعات التنصيرية التي تملك إرساليات في العالم الشرقي وكان لهذه الإرساليات عمل سياسي مباشر وغير مباشر، حيث كانت تقاوم التيار الشيوعي، رغم أن الإسلام رافض ومحارب للأفكار الشيوعية، إلاّ أن هذه الإرساليات وحكوماتها لا تستريح للإسلام الذي يعتبرها محاربة ومقاومة للاستعمار والإمبريالية، أضف إلى ذلك العقيدتين مختلفتين، والمسيحية ترى في الإسلام عائقًا لامتدادها وانتشارها وبذلك تنظم الصهيونية إلى أعداء الإسلام، لا حبًا منها في المسيحية وإنما لمواجهة العدو المشترك وهو الإسلام(4).

- **جيش الخلاص** "**Sabvatin Army**": هي ليست جماعة مستقلة وإنما فرع من فروع المذهب الإنجيلي، وهي قائمة على الإحسان وعمل الخير للإنسانية. تأسست على يد وليام بوث (William Booth) في 1865، كانت بدايتها هادئة ولكن تطورت وكبرت عبر السنوات حتى أصبحت لها فروع في جميع أنحاء العالم(5).

---

(1) E. Dufourcq: **Les Congrégations**, op.cit, p.102.

(2) M. S. Delacroix: **Les missions…**, T3, op.cit, p104.

(3) E. Dufourcq, op.cit, p-83.

(4) M. S. Delacroix: **Les missions…**, T3, op.cit, p104.

(5) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص70.

بدأ مؤسسها دعوته، بعقد لقاءات تنصيرية في الساحات العامة في لندن، واختار اسم جيش الخلاص، لأنهم يخلصون الإنسانية من الأخطاء والسيئات التي وقعت فيها، وكان لها نظام أقرب من النظام العسكري، يقوم على الطاعة العمياء الكلية، ودون مناقشة، وكان متكون من الرئيس الأعلى، ونائب ولي العهد وكان له سكرتيرين ووزير عام للشؤون الخارجية وسفراء ورؤساء[1] للجماعات الفرعية، يوكل لهم تبليغ القرارات التي يتلقاها من الهيئة العليا، كما قسموا البلاد إلى مناطق كبيرة وكل منطقة بها عدد من المراكز الفرعية، ولكل مركز رئيس، ويخضعون كل هؤلاء الرؤساء لرئيس الإقليم، والذين يتصلون بسكرتير الشؤون الخارجية لتلقي القرارات والتعاليم، وبكل كنيسة جنود يختارون من جميع الطبقات، وكانت تهتم بالعلاج، وإيواء المحتاجين، واهتمت بالأيتام والمتشردين، ودعوتها للبشرية قامت عن طريق هذه الخدمات الاجتماعية، وأصبح لها إرساليات، وانتشرت في أنحاء العالم، استطاعت إدخال إلى المسيحية عددًا كبيرًا من اللقطاء والمتشردين والفقراء[2].

- **الروحانيون والإسلام:** هي جماعة فلسفية تحولت بعد نشأتها إلى جماعة مسيحية تنصيرية وكونت عدة كنائس وإرساليات. أول ما يجب ملاحظته أنها فرقة ذات علم وثقافة؛ أي تملك الحجة العلمية لمواصلة عملها التنصيري وأنها لها القدرة على الإقناع بواسطة علمها، وبما أنها متخصصة في الفلسفة؛ أي أنهم ذهبوا إلى تلك القضايا والأمور التي يتساءل عليها الفرد البسيط أولاً ثم المتعلم فبإمكانهم الإقناع[3].

ظهرت وتأسست في القرن العشرين، ولكن تعود في الحقيقة إلى جمعية البحوث النفسية، التي أسسها عالمان بارزان في الأعمال والبحوث الروحية والنفسية في سنة 1886م، فريدريك مايرز (Frederique Mayers) وإدموند جيرني (Edmund Gurney)، وكان دعاة منصرين بالإنجيل، كما أن اهتمامهم بالبحث بالروح والروحانيات جعلت منهم يتحولوا إلى فرقة دينية، وأنشأ لها إرساليات وكنائس، وانتشرت في أنحاء العالم بسرعة جدًا، كانت بدايتها بـ 600 كنيسة في أمريكا كلها، ثم 400 في العالم القديم لتصل إلى 2000 كنيسة حاليا[4].

---

(1) جميل مدبك: **موسوعة الأديان في العالم، المسيحية**، مرجع سابق، ص53.

(2) M. S. Delacroix: **Les missions…**, T3, op.cit, p82.

(3) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص106.

(4) نفسه، ص145.

3 – نشاطها:

«حين ننشر في هذا البلد بواسطة اللغة الفرنسية، التعليم والأخلاق والفنون المفيدة والزراعة، فإننا سنسيطر على الشعب، وسيكون لفرنسا هنا في كل وقت جيش متفانٍ»[1].

علمت الدول الممولة للمنصرين ولحركة التنصير وفرنسا خاصة أنه يجب أن يكون نشاطها في الأقطار الإسلامية مبني أساسًا على التربية العقلية والنفسية؛ أي التأثير والسيطرة على عقول وقلوب الأقطار الإسلامية، وحتى تتمكن من القيام أو تحقيق ذلك فعليًا يجب أن لا تعتمد على محاولات الرهبان المنصرين، لأن مشروعاتهم خاصة وليست على المدى الواسع والبعيد، إضافة إلى أن هؤلاء الرهبان لا يمتلكون إلى تمويل مهم وكبير وكافي لتحقيق أغراض ومخططات القوى الاستعمارية، ولا يمكن أن يكون لها نتائج فعالة إلاّ إذا كانت واسعة المجال وتحت رعاية الجامعات الأوروبية والفرنسية بشكل خاص، وذلك لما تتميز به برامجها من وسائل من أجل السيطرة على العقول، ومن خلاله يمكن الدخول لهذا النوع من التعليم على الدين الإسلامي، تعاليم وأفكار مستمدة من المدرسة الفرنسية. وبذلك أصبح نشاط الإرساليات التنصيرية مهم في العالم الإسلامي، ولكن هذه الإرساليات يجب أن يكون لها تكوين ديني لاهوتي وخاصة تنصيري، ولهذا اهتم الغرب بنشاطات والهيئات الدينية في مجال التنصير وتكوين المنصرين[2].

- **مدارس التكوين ومناهج الدراسة:** وهي تلك التي تؤسسها إما الكنيسة أو الأديرة أو الجماعات الدينية والتي تعمل على تكوين رجل الدين، الرهبان والمنصر. وهي دُور علم وكانت من أجل وضع مناهج وبرامج من أجل تكوين المنصر علميًا، لدراسة الكتاب المقدس والتاريخ القديم وتحضيره للقيام بمهمته.

فنلاحظ الاهتمام بالكتاب المقدس – الإنجيل – ثم مباشرة التاريخ القديم[3].

(1) جون دي بريتون (1841م)، انظر: طلال عترسي: **البعثات اليسوعية، مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان**، ط1، الوكالة العالمية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987م، ص35.

(2) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص98.

(3) جميل مدبك: **موسوعة الأديان**، مرجع سابق، ص95.

ما يمكن الإشارة إليه أن دراسة الاستشراقية أو تكوين المستشرق يقترب من تكوين المنصر، لأن العديد من المنصرين مستشرقين، فمواد الدراسة التنصيرية، تقوم أساسًا على دراسة الكتاب المقدس لديهم؛ أي الإنجيل، إضافة إلى بعض الدراسات التثقيفية، غير متخصصة، ويستعينون كثيرًا بكتب المستشرقين خاصة في التعرف على الإسلام والمسلمين واللذان يعتبران خطين مهمين، واجب التعرف عليهم من أجل السيطرة النفسية والسيكولوجية على الفرد، فالمنصر الذي سيقوم بمهامه في بلاد عربية إسلامية، أو إسلامية عامة وجب عليه أن يكون لديه معرفة تامة للمسلمين والإسلام وتاريخ الديانات التي وجدت في المنطقة، حتى يتسنى له التنصير هناك والنجاح في دعوته، وبحصول على هذا النوع من المعلومات يمكنه من ضرب الإسلام.

يتمثل البرنامج(1) الذي يتبعه الطالب خلال تكونه في المدرسة:

- دراسة الكتاب المقدس كله.
- دراسة تاريخ الأحداث التي جاءت في العهدين القديم والجديد، وهي ستة عشر مادة يبدأها الطالب كما يلي:

• اللغة الإنجليزية أو الفرنسية حسب جنسية الرهبان أو الدولة التي تمول المدرسة. (أدبيات اللغة، القواعد، القراءات في أمهات الكتب).
• اللغة العربية (دراسة القرآن الكريم – الأحاديث النبوية – الآراء المذهبيـــة في الإسلام – العقيدة الإسلامية – الردود على الإسلام وذلك عن طريق دراسة كتب المستشرقين).
• اللغة اليونانية: دراسة الأناجيل، ومدة دراستها 3 سنوات متتالية.
• اللغة العبرية: لدراسة التورات ومدتها 3 سنوات.
• تفسير الإنجيل.
• مقارنة الأديان.
• مقدمات الكتاب المقدس (دراسة معمقة عن أسفار الكتب المقدسة وحوادث تنزيلها).

(1) Georges Jehel: **Questions d’Histoire, orient et occident du IXème au XVème siècle**, éd., du temps, Paris 2000, p53.

- تاريخ الكنيسة: وهي دراسة للعالم المعروف وقتئذ؛ أي من القرن الأول الميلادي إلى القرن الخامس عشر ميلادي.
- التاريخ القديم وهي دراسة عميقة للعصور المعاصرة لأنبياء العهد القديم.
- علم الوعظ والدعوة.
- علم الرعوية (تكوين الراهب من أجل أن يكون قسيس).
- علم المنطق وذلك من أجل أن يكون دراية عن الحجة المنطقية.
- علم النفس.
- علم الخطابة.
- الفلسفة: وتتضمن الجوانب الإلهية للتفكير الإنساني منذ فجر التاريخ إلى بـــزوغ المسيحية.
- سياسة الكنيسة كمؤسسة دينية، هي دراسة فقهية عن الشريعة والعلاقات بين الأفراد بعضهم مع بعض ومع المجتمع.
- كما يتعلمون إضافة إلى اللغة الرسمية للأقوام، يتطلعون على اللهجات المتواجدة في المناطق غير مسيحية[1].

هذا هو البرنامج الذي يبدأ به الطالب حياته حتى يتمكن أن يكون قسًا وراعيًا للكنيسة، وإن شروط الالتحاق بهذه المدارس أن يكون الطالب منتظمًا، ولهذا الغرض يراقب الطالب للتعرف على أخلاقه ومدى صلاحيته للائتمان على أسرار الكنيسة وشعبها؛ أي أن اختيار المنصر يكون بدقة وليس كل من يتقدم لهذه المهمة مقبول، يؤكدون على أمانته والتي تعتبرها الكنيسة كمقياس مهم للاختيار وذلك حتى تتمكن الكنيسة من ائتمانهم على أسرارها.

ولكن هذا منصر؛ أي عمله خارج الكنيسة عادة في المناطق المراد تنصيرها، فما دخل أسرار المؤسسة الكنسية، بل ربما السياسة التي تخفيها هي التي تخص الأقطار المراد تنصيرها؛ أي مخططات الكنيسة والحكومات القوية.

لنحاول تحليل هذا البرنامج على أرض الواقع، أولاً المدة لدراسة طويلة وهي ثلاث سنوات على الأقل.

(1) J. Guennou: **Les missions étrangères**, oip.cit, p13.

أول ما يركزون عليه هو الكتاب المقدس لديهم؛ أي الإنجيل وذلك حتى يكون المنصر على دراية كاملة وعميقة بهذا الكتاب، لأنه سيكون في أرض العدو وسيتعامل مع عدوه أي المسلم، لا يجب أن يترك لهذا الخصم ثغرة يدخل منها لتحطيم خطابه ودعوته التنصيرية، بعد دراسة الكتاب وتمكنه منه.

يقوم بدراسة أولاً الأحداث التي جاء فيها العهدين القديم والجديد من أجل الإلمام والسيطرة الكلية على هذه الديانة، ثم نلاحظ اهتمام المدرسة باللغات، أولاً اللغة الأصلية إما انجليزية أو فرنسية أو ألمانية حسب الدولة الممولة لهذه المدرسة، لا يكتفون بدراسة اللغة وقواعدها بل يهتمون بأدبيتها، والتطلع على الكتب الأساسية فيها، حتى لا تستعمل جهله لها، كسلاح ضده يمكن تحطيم دعوته من خلال ذلك.

وحسب الإحصائيات، فإن المدارس المكونة للمنصرين اهتمت بتعليم اللغة العربية، والتي اعتبرتها ثاني لغة يجب الاهتمام بها، لأنها تمثل حوالي 70% من الأقاليم التي يتعامل معها المنصرون والمستشرقون ورجال الدين، وما يجب الإشارة إليه أن هذا الاهتمــام يعود إلى القرن العاشر ونهاية الحادي عشر؛ أي أنها الرغبة في معرفة الآخر من أجل محاصرته فكريًا ودينيًا، لها أصول وجذور، عميقة وقديمة لدى المسيحي، ربما أول من اهتم بهذه اللغة هو جربر دي أولياك [938 – 1003م]، الذي اهتم بدراسة الشرق، فأنشأ مدارس(1)، وهذا يدل عن أهمية دراسة هذه اللغة أولاً كلغة بقواعدها وأسسها ونحوها، هذا ما جعل أهم قرارات المجمع الكنسي في مؤتمر فيينا، إنشاء كراس لدراسة اللغة العربية في أهم الجامعات الأوربية، في روما على نفقة الفاتيكان، في فرنسا تكفل نفقته الملك، وكذا بالنسبة لملك إنجلترا، ثم من خلال اللغة العربية يصلون إلى دراسة معمقة للقرآن كديانة، حتى يكون سلاح لمحاربة المسلمين والإسلام، لا يكتفي بالقرآن؛ أي الكتاب، بل يهتمون بالأحاديث النبوية – وكذا المذاهب وآرائها وخاصة أوجه الاختلاف فيها حتى يتمكنوا من استعمال أسباب نزاعها، لتضخمه وجعل منه مجالاً للتنصير، وإن لم يتمكنوا سيكون مجال شكوك تجعل المسلمين يتناطحون فيها بينهم بسببها.

كما يخصصون دراسة كاملة للعقيدة، وأخيرًا كتب المستشرقين الذين يردون عن الإسلام. ثم يهتمون باللغات القديمة حتى يتمكنوا من دراسة الديانات القديمة وتاريخها، في

(1) Dictionnaire du moyen âge, op.cit, pp93-96.

لغتها الأصلية، دون أن ننسى التكوين لشخص المنصر؛ أي تلقينه الآليات التي تمكنه من أن يكون قادر على تقديم خطاباته ويكون لها صدى وسيطرة على المجتمعات.

وبذلك إذا تمعنا في البرنامج فهو كامل من أجل أن يكون الراهب في قدرة على القيام بمهمته، دون أن يترك المجال لثغرات تجعله يفقد سيطرته على الوضع.

- **الإرساليات:** بينما الإرساليات فهي بعثات من طرف هيئات مسيحية لتنصير الناس بالإنجيل ويكون تكوين هؤلاء في المدارس التنصيرية؛ أي بمجرد أن يصبح الراهب جاهز فكريًا ومعنويًا، يرسل أو يختار الرحلة إلى أقطار غير مسيحية من أجل القيام لما هو متكون لأجله التنصير؛ أي أن أعضاء هذه البعثات من المثقفين الذين تخرّجوا من مدارس التنصير، والذين إذا وصلوا منطقة ما أول ما يقومون به هو تأسيس كنيسة هناك، ولا يكتفون بالكنيسة بل غالبًا ما يؤسسون مدارس هناك، ومستشفى، حتى يسهل عليهم أولاً الاستقرار وثانية وهذا الأهم الدخول عن طريقها إلى سكان المنطقة تدريجيًا[1].

كل هذه الإرساليات نشأت ونمت بعد الحروب الصليبية والتي اهتدى إليها الملك التاسع مالك فرنسا، والذي كان يدعى القديس لويس "Saint Louis" في حملته الصليبية وخلوته في المعتقل في المنصورة، منحته فرصة ليفكر في الطريقة الأنسب التي يجب أن يتبعها الغرب ضد المسلمين، فتوصل إلى أنه أصبح لا يمكن للكنيسة وفرنسا خاصة مواجهة المسلمين، إلاّ إذا اتحدت أوروبا بأكملها أو رغم ذلك فمن الصعب تطبيق الخناق على الإسلام، والاستيلاء على إفريقيا وآسيا، بالسلاح والقوة حاليا[2].

يعتبر الملك لويس التاسع (Saint Louis)[3] من أكبر سياسيي عصره، وهو من وضع الخطوط الرئيسية لسياسة جديدة تتمكن من خلالها أوروبا والكنيسة خاصة، محاصرة من الإسلام والسيطرة على مستقبل آسيا وإفريقيا، وذلك عن طريق تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سليمة ويكون لها نفس الغرض والأهداف، ولكن بأسلحة

---

(1) Maurier H.: **Les missions, religions et civilisation confrontées à l'universalisme**, éd., du Serf, Paris, 1955, pp23-31.

(2) J. Comby: **Deux mille ans d'évangélisation**, éd., Desclée, Paris 1992, pp31-39.

(3) ملك فرنسا ولد في (25 أفريل 1214م – 25 أوت 1270م) وهو معروف الملك القديس لويس (Saint Louis) حكم فرنسا خلال القرن 13م ولمدة 43 سنة، للمزيد انظر:

Jacque le Gofb: **Saint Louis, collec follio histoire**, éd., Gallimand, 2013, p42.

مختلفة؛ أي التخلي عن الأسلحة المادية، والاهتمام بل والأولوية للأسلحة المعنوية[1]، والتي تستهدف شخصية وعقلية الفرد، وبدلاً من تجنيد الجيوش، ستجند المنصرين والرهبان في هذه المعركة السليمة، والتي ستعمل على محاربة تعاليم الإسلام، وإيقاف انتشاره، ومحاولة القضاء عليه معنويًا، ليتحول المنصرين إلى جنود الغرب الجدد[2].

وهذه الحرب الصليبية من نوع جديد التي أعلنها الغرب على المسلمين عن طريق المنصرين خلال القرن 17م، من خلال الإرساليات التنصيرية والتي لا تزال مستمرة، احتفظت فرنسا من خلالها على الروح الصليبية التي تميزها، حيث ركزت فرنسا من خلال امتيازاتها، حفظ دور الرهبان في مناطق الامتيازات، كما أنها كثيرًا ما اختارت قناصلها وسفراءها من رجال الدين وذلك من أجل حماية النصارى[3].

كما يعلن اليسوعيين خلال عرض لنشاطهم التنصيري: «ألم نكن نحن ورثة الصليبيين... ورجعنا تحت راية الصليب حتى نتمكن من نشر المسيحية والتسرب التنصيري، وسنتمكن من تحقيق ذلك في ظل العَلَمْ وباسم الكنيسة مملكة المسيح....»[4].

وبذلك ظهر أن التنصير المسيحي في العالم الإسلامي هو في حقيقته، حرب صليبية أو امتداد لها، هذه الحرب التي شنّها الغرب على العالم الإسلامي، والتي انتقدها فيما بعد المسيحيين أنفسهم، لأنهم رأوا فيها خسارة مادية ومعنوية كبيرة للعالم الغربي المسيحي، ماديًا نظرًا للتكاليف المادية، من أموال، سلع، جيوش وأسلحة التي كلفتهم هذه الحروب. أما معنويًا فهي تعود إلى المعنى الاصطلاحي لكلمة أو مصطلح حرب هو مواجهة مسلّحة بين طرفين أو أكثر، من أجل أن يتغلب طرف على الآخر وبالتالي السيطرة عليه، وهزيمة العالم أو الجيوش المسيحية أمام الجيوش الإسلامية، وكأنها تأكيد على عدم تمكن المسيحيين من السيطرة على قوة المسلمين والتي كان لها واقع في نفوس المسيحيين المشاركين وغير المشاركين في الحرب الصليبية، وبالتالي عدم الوصول لخيرات هذه الأقاليم الإسلامية، وهذا ما أجبرهم على تغيير الطريقة من العنف إلى سلمية، خفية، وأهم هذه الطرق هي

(1) فيصل الشيخ محمد: **وصية لويس التاسع لأتباعه بعد افتكاكه من الأسر ووصوله إلى فرنسا**، رابطة أدباء الشام، دمشق 2009م، ص ص3-10.

(2) نفسه، ص ص7-10.

(3) J. Comby: **Deux mille…**, op.cit, p42.

(4) نفسه.

التنصير وهو بمثابة استعمار أو غزو صامت، مختفي وراء أقنعة وشعارات راقية، من تطوير وتحضير وأعمال خيرية، والتعليم بالدرجة الأولى[1].

ومن خلال التجربة التي اكتسبها الغرب المسيحي عبر كل الحروب مع العالم الإسلامي، ما سمح لهم بالاحتكاك بالمجتمعات الإسلامية، ومن خلال أبحاث وكتابات المستشرقين، تيقنوا أن الوسيلة الوحيدة لتحقيق أهدافهم هو هدم الإسلام من الداخل وكسر تلك الصلة القوية التي تربطه بدينه[2]، وذلك عن طريق الإرساليات.

وأول من التحق بهذه الإرساليات أو البعثات هم رجال الدين والرهبان، وكان ذلك من أجل دراسة الفكر والمجتمعات الإسلامية، وكانوا يهتمون برسالة المنصر وحاجته لهذه الدراسة، فأقيمت من أجل ذلك الجامعات والكليات، كما خصصت الدول العربية المسيحية أموالاً كبيرة من أجل هذه البعثات، واتبعت خطواتها وتطور الأوضاع حولها بحذرٍ وحكمةٍ، والهدف منها تثبيت الأفكار الأوربية المسيحية، لتحقيق أهداف أخرى، والوصول إلى أطماعها[3]، ورغم أنه من الصعب تحريك العقيدة الإسلامية لدى المسلم، إلاّ أنهم أي المنصرين يعملون على بث أو بعث أفكار غربية، تجعل المسلم الذي يتعلّم في مدارس الإرساليات أن يحتك بكل الإصدارات والمنشورات والكتابات الغربية المسيحية عن طريق اللغة، فربما يخلق نوع من الإسلام المتحضر – إن صح التعبير – وتيقنوا أن الإسلام لن يتمكن من الاحتفاظ بكيانه وقوته إلاّ بالعزلة عن ما يمكن أن يصل من الغرب المسيحي، ولكن إذا تمكن المنصرين من نشر أفكارهم، فإن المجتمع الإسلامي يمشي أو يسير نحو انحلال أفكاره الدينية وزوالها وهو أمر ممكن التحقيق، كما يطلب من هذه الإرساليات التركيز على هدم الشخصية الإسلامية وذلك عن طريق نزع الاعتقادات الإسلامية أو التشكيك، فإن مجرد الشك يكفي ليصبح الفرد المسلم يتقبل أفكار جديدة، وهنا يقوم المنصر بزرع تربية نصرانية، كما أن الوضع السياسي آنذاك كان مساعدًا من أجل تحقيق أهدافهم، وسوف يمضي وقت قصير لتتمكن الدول الغربية من إحاطة الإسلام بأسلاك مسيحية غربية على يد الإرساليات التنصيرية[4].

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص ص31-33.

(2) Fréderic Manns: **Qu’est ce que la nouvelle évangélisation**? Montrouge, Bayard 2012, p83.

(3) René Guennou: **Les missions catholiques**, op.cit, p35.

(4) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، المرجع السابق، ص ص35-52.

ولهذا الغرض اهتمت الإرساليات التنصيرية بالوضع الجديد الذي ظهر به العالم الإسلامي، من صراع وزحام، الذي نشأ بين الدول، من أجل الوصول إلى الأراضي والسيطرة عليها(1).

فإذا حاولت تلخيص الأهداف الرئيسية التي عمل على تطبيقها منصري الإرساليات، ربما يمكن حصرها في نقطتين مهمتين:

- هدم الإسلام؛ أي العقيدة في قلب المسلم، وبالتالي قطع صلته بالله، فيصبح الفرد دون أخلاق، والفرد هو أساس المجتمع.
- وهذا ما يجعل الفرد عديم الشخصية، فيكون له قابلية لتقبل كل الأفكار التي تكون غريبة عن مجتمعه وتجعله يتقبل حتى الاستعمار(2).

فالسياسة والأطماع الاستعمارية، ظلت بحاجة لتطبيق خططها إلى نشاط المنصرين؛ مما جعل الدول الاستعمارية تمنح المساعدات المالية والمادية، والتسهيلات لهؤلاء الإرساليات التنصيرية(3).

يمكن اعتبار جذور الإرساليات التنصيرية هي مرحلة الكشوفات الجغرافيا، خاصة وأن العديد من المؤرخين يرون في الكشوفات الخطوات الأولى للحركة الاستعمارية، وبما أن البعثات أو الخروج البحري يكون دائمًا مصحوباً بإرساليات تنصيرية، أو منصرين، والتي كانت مكلفة بمهمة تنصير المنطقة وتأسيس الكنائس والمدارس، والوعظ من أجل نشر تعاليم المسيحية(4).

فاعتبرت أوروبا مرحلة الكشوفات الجغرافية بابًا جديدًا سيفتح لانتشار المسيحية في العالم، وبما أن الإسبان والبرتغال دولتان كاثوليكيتان متعصبتين وتمثل القوة في العالم، فكان لهما دورًا كبيرًا في تمويل وتأسيس الإرساليات وبعثها عبر المناطق المكتشفة والمسيطر عليها من طرفهم، خاصة وأن في 1492م حين اكتشف كريستوف كولومبس

---

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار في البلاد العربية عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار العربي**، دار النشر، المكتبة العصرية، بيروت، 1986م، ص15.

(2) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص ص61-70.

(3) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**، المرجع السابق، ص ص25-27.

(4) Ferro Marc: **Histoire des colonisations, des conquêtes au indépendances XII-XX**, éd., du Seuil, Paris 1994, pp43-45.

أمريكا وكانت غرناطة في حوزة المسيحيين، إلاّ أنهم لم يتمكنوا من صد انتشار الإسلام وتوسعه، بينما المسيحية بقيت محصورة في جنوب البحر الأبيض المتوسط[1].

ولهذا السبب علقت الكنيسة والغرب عامةً آمالهم على حركة الكشوفات لعلها تفتح المجال أمام المسيحية عبر العالم، وتغير الوضع القائم[2]، خاصة أنه لما بدء الصراع بين البرتغال وإسبانيا حول مناطق النفوذ، لم يتمكنوا من حل النزاع إلاّ بتدخل الكنيسة المتمثلة في شخص ألكسندر 6 (Alexandre VI)، وذلك عن طريق إمضاء اتفاقية توردیسلا (Tordesillas) في 7 جوان 1494م، والتي قسمت المناطق المكتشفة حسب أول من وضع رجله فيها، وبالتالي تم تقسيم مناطق النفوذ، ليستعمل نفس هذا التقسيم للإرسالية التتنصيرية، حيث تحصل إسبانيا عام 1508م على حرية التنصير في المناطق التابعة لها، شريطة إرسال أكبر عدد ممكن من المنصرين، وبناء الكنائس والقيام بالشعائر المسيحية والوعظ[3].

ونفس الحقوق تحصلت عليها البرتغال في 1514م وهي لم تكن سوى تسوية وضعية كانت قائمة منذ إمضاء معاهدة توردیسلا، وبما أنهما يمثلان القوة آنذاك، تفاوضت معهم الكنيسة لتفتح مجال جديد للحركة التنصيرية[4]، وعليه انقسمت الإرساليات في هذه الفترة بين هاتين القوتين، فكان تواجد المنصرين يتماشى مع التواجد الاستعماري، وبالتالي التوسع المسيحي (انتشارها)[5].

وذلك أنه كلما أرسلت قوة عسكرية، تكون مصحوبة بجيش من المنصرين. ففي المناطق التابعة لإسبانيا بدأ وصول واستقرار المنصرين بمجرد وصول الإسبان، فمثلاً وصل الدومينيكان سنة 1502م والفرنسيسكان سنة 1510م، واليسوعيين عام 1568م.

في المكسيك أول منصر وصل إلى هناك هو كورتي (Cortes) سنة 1521م، ولتتبعه فرقة من 12 منصرًا من الفرنسيسكان في 1523م، ليصل المنصرون الإسبان سنة 1524م، لتتأسس أسقفية مكسيكو سنة 1548م، ولتتخذ قرار إدخال التعليم الديني في البرامج التدريبية، كما وضعوا نظام لتأطير المنطقة، حيث خصصوا قس واحد لكل مئة شخص،

---

(1) Wesseling Henri: **Les empires coloniaux européens [1815-1919]**, éd., Gallimard, Paris 2009, p15.

(2) جيفري براون: **تاريخ أوروبا الحديث**، ترجمة علي المرزوقي، الأردن، 2006، ص ص212-240.

(3) M. S. Delacroix: **Les missions des origines**, T1, op.cit, pp24-25.

(4) Idem, pp24-25.

(5) جيفري براون: **تاريخ أوروبا**، مرجع سابق، ص222.

كما تجاهل المنصرين كل المعتقدات التي كانت قائمة قبل وصولهم، وفي بعض الأحيان منعوا السكان الأصليين ممارسة طقوسهم الوثنية[1]. وهناك عدة أمثلة في أمريكا ومناطق أخرى من العالم.

وكذلك البرتغال خلال القرن 16؛ ففي البرازيل وصل اليسوعيين سنة 1549م، وحتى عام 1560م لم يتجاوز عددهم 63 منصرًا، ولكن كان لهم صدى واسع تمكنوا من تكوين أشخاص من السكان الأصلين ليقوموا بتنصير أبناء جلدتهم، وأسسوا قوى للسكان المترحلون تحت إشرافهم، ولكن لم يتمكنوا من تجاوز صعوبة اللهجات، ولعل من أشهرهم مانويل دى نوبريقا (Manuel da Nobrega)، جوزي دي أنشيتيا (José de Anchieta)، وإنياك دازفيد (Ignac d'Azevida)[2]. وكان للبرتغال عدة إرساليات أخرى في آسيا، فوصلوا الهند سنة 1542م واليابان عام 1549م[3].

إن نشاط وعمل هاتين القوتين في تنصير العالم كان جبارًا أكسب الكنيسة امتيازات، ولكن بدأت قوة البرتغال وإسبانيا تتلاشى وظهور قوى جديدة، كفرنسا وإنجلترا وهولندا.

وبالتالي تلاشى النظام الذي كان قائمًا في تقسيم الممتلكات بين القوى القديمة والذي كان يدعى Padroado بمعنى الأرباب، ليأتي بعده أي بعد انعقاد المجمع المسكوني، أسس البابا غريغوار (Gregoire XV) جهاز مركزي، أبرشية للدعوة ولكن لم يكن لها أعمال، إلى غاية عودة أحد اليسوعيين الفرنسيين ونادى بضرورة إرسال بطريك لتكوين رجال الدين في هذه المناطق من العالم حتى يقوم هؤلاء السكان الأصليين المتكونين من نشر المسيحية بين أواسطهم[4].

وعن طريق تأسيس الإرساليات الخارجية لباريس، استطاع البابا إرسال العديد من البطريركين، باسم قس نائب، ولكن ما نلاحظه في هذه الفترة هو تغلب وانتشار اليسوعيين أكثر من غيرهم، والذين أصبح عنصر مهم في الكنيسة الكاثوليكية في الفترة الممتدة من القرن 17م إلى 18م، حيث كان عددهم حوالي ألف سنة 1556م، ليصل من بعد وفاة

---

(1) Henri Wesseling: **Les empires**, op.cit, pp22-29.

(2) Ibid., p32.

(3) Ibid.

(4) Ferro Marc: **Histoire des colonisations**, op.cit, pp52-63.

مؤسس الجماعة إلى 13000 عضو ومنتشرين على كل أنحاء العالم، يشتركون في أعمال مختلفة ومتنوعة[1].

وهنا يبدأ عمل الجهاز الذي أسسته الكنيسة الأبرشية الدعوة والمتكونة من 16 كاردينال وأمين عام والتي استطاعت جمع 300 منصر، أضف إلى ذلك كل ما يتبرع به الكرادلة 500 قطع ذهبية لكل واحد، أما البابا يتبرع بـ 10.000 قطعة، وأهم تبرع كان للكردينال فيفي (Vivés)[2]، الذي منح الأبرشية قصره لتحويله إلى مدرسة وركز على التعليم وخاصة اللغات، ومشاكل الإرساليات هي الأموال حيث كان رجال الدين في المناطق البعيدة يعملون من أجل جمع الأموال، وعلى عكس الإرساليات الإسبانية والبرتغالية، والتي كانت تعتبر إرساليات استعمارية، لارتباطها بالمستعمر مباشرة، هذه الأبرشية كانت تعمل من أجل تنصير أهل المنطقة وتكوين منصرين من أهلها[3].

وعلى حسب منطق الكنيسة كان من المفروض أن تكون هذه الكنائس الجديدة تتكون إدارتها من الإكليروس من السكان الأصليين ما عاد البطريرك، ولكن الواقع كان يختلف، فكان الملاحظ غياب السكان الأصليين، وهل كان ذلك لقلة المتنصرين؟ أم أن الكنيسة الكاثوليكية أبعدتهم عمدًا، لقلة ثقتها فيهم؟[4].

لم يتم مجيء أو وصول الإرساليات إلى إفريقيا فعليًا حتى حوالي سنة 1658م، أين أرسل إليها أساقفة (نوَّبَ قساوسة برتبة أساقفة إلى المنطقة)[5].

كما تأسست إرسالية الخارجية لباريس (Mission étrangère de Paris)، ومن الطبيعي أن تكون في فرنسا البنت البكر للكنيسة[6]، لنصل إلى إرساليات الفترة ما بين القرنين 19م و 20م أو الإرساليات البابوية والتي تأسست في فرنسا في القرن 19م، لتنتشر في كل الدول الكاثوليكية المجاورة، خاصة بعد المحاصرة التي شهدها القرن 18م للمسيحية وانتشارها، كما شهدت المرحلة نشأة البروتستانتية وبدأ التنافس بينها وشهدت قارتي آسيا وإفريقيا نتائج هذا التنافس[7].

---

(1) J. Guennou: **Les missions étrangères**, oip.cit, pp31-32.

(2) M. S. Delacroix: **Les missions des origines**, T2, op.cit, pp93-96.

(3) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص45.

(4) نفسه، ص47.

(5) J. Hayjar: **L’Europe et les destinées du Proche-Orient [1815-1848]**, op.cit, pp201-203.

(6) J. Guennou: **Les missions étrangères**, oip.cit, p 57.

(7) M. S. Delacroix: **Les missions des origines**, T3, op.cit, pp73-82.

بعد الهدنة التي كانت بين فرنسوا الأول وسليمان القانوني، أصبحت فرنسا الحامية الرسمية لرعايا المسيحيين عبر العالم، وفي الأقطار الإسلامية خاصة التابعة أو تحت حكم العثمانيين، عادة ما كانت فرنسا تختار قناصلها في المناطق الإسلامية من رجال الدين المسيحيين، من رهبان وقساوسة حتى يتمكنوا من حماية الكاثوليك في تلك المناطق، وبما أن التنصير كان ممنوعا علناً، فوجب على الكنيسة إيجاد طرق أخرى تضمن لها مواصلة نشاطها التنصيري سرا وخفية[1].

بعد الثورة الفرنسية تشهد الكنيسة الفرنسية هزة داخلية، فعم الخوف خاصة في أوساط رجال الدين، وستحتاج فرنسا عدة سنوات حتى يستقر الوضع ويعود نشاط الإرساليات، حيث فرّ العديد من رجال الدين من بداية [1791 – 1792م] إلى أمريكا، أما إرسالية الخارجية لباريس بقي العديد من ينشط فيها في الهند، كما أسسوا لهم مركز في لندن ومنحت لهم ملكة روسيا كاترينا الأمان وخاصة للجزويت، لتتحول سانتبيترزبورغ ملجأ لرجال الدين المهاجرين[2].

ثم بعد معاهدة 1801م أسس الأب دلبوت (Delpuits)[3]، في باريس منظمة دينية، والتي اهتمت بإعادة تنظيم والاتصال بكل رجال الدين المهاجرين لإعادة بعث تنظيم النشاط التنصيري، ليصبح العديد منهم أساقفة في الولايات المتحدة الأمريكية والبعض سينتقلون إلى المشرق لمواصلة نشاطهم التنصيري[4].

الأهم أن انطلاق عمل الإرساليات من جديد سيكون صعب وبطيء، خلال بداية القرن 19م، رغم الاهتمام الكبير الذي منحته الحكومات الغربية للنشاط التنصيري خاصة فرنسا، التي ستصبح أهم ممول للإرساليات الكاثوليكية[5]، كذلك نشهد عودة اليسوعيين في 1814م[6]. ولكن لم يكن لهم نفس الصدى في فرنسا وأوروبا عامة. ولكن تعتبر ربما إعادة انطلاقة للحركة التنصيرية (الإرساليات)، ولكن كانت قليلة إلا من بعض النساء الراهبات اللواتي ركزن على المساعدات الاجتماعية الطبية والتعليمية[7]. وهذه هي الطرق الحقيقية

---

(1) M. S. Delacroix: **Les missions des origines**, T2, op.cit, pp105-109.

(2) Ibid., T3, pp83-87.

(3) الأب دلبوت (Delpuits): هو رجل دين. للمزيد انظر: Brio. I, Dictionnaire, op.cit, p92.

(4) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص ص75-76.

(5) A. M. Henry, A. Yannoulatos, J. Bauberot: **Histoire des missions**, op.cit, p22.

(6) Gaston Duchet-Suchaux: **Les ordres religieux**, op.cit, p83.

(7) E. Dufourcq: **Les Aventurières de Dieu**, éd., J. C. Taltes, 1994, pp52-67.

للتنصير، فكان رجال الدين يستعملون الجانب الاجتماعي للوصول إلى المجتمع والاحتكاك به وتوصيل له تعاليم المسيحية؛ أي أن قيام الراهبات أو الرهبان بالأعمال الخيرية والمساعدات الاجتماعية لم تكن من أجل المساعدة وإنما من أجل الدخول إلى المجتمع غير المنصر، وكانت هذه الأعمال يقام بها تحت شعار تطوير وتحضير العالم؛ أي إيصال رسالة الحضارة التي تحملها أوروبا على عاتقها كما أوهمت بها العالم.

وكان لهذه الراهبات عمل ومساهمة فعالة في مجال التنصير عن طريق بعض الأبرشيات، Sacret cœur، Saint Joseph de Cluny، Saint Paul de Chartre[1].

ورغم التمويل والتشجيع إلا أن عودة نشاط الرهبان الرجال سيكون بطيء، فحاولوا في هذه المرحلة الاهتمام بالطبقة المثقفة لتنصيرها، والتي تلعب دور مهم في مجتمعنا، وبعث فيها الأفكار الأوروبية والمسيحية، فيمكن أن تمرر هذه الطبقة الأفكار الغربية بسهولة لأنها تنتمي للمجتمع المراد تنصيره.

أما بالنسبة للتمويل، ففي القرن 17م كانت تعتمد الكنيسة على التبرعات والهبات التي كان يمنحها الأغنياء الكاثوليك[2].

لنصل إلى مرحلة أين أصبحت التبرعات مقسمة إلى تبرعات صغيرة تكون من طرف الأشخاص البسطاء، وهذا بغض النظر عن تبرعات الأغنياء، وأصبحت هذه التبرعات صغيرة تحت شعار "فلس واحد لكل شخص" وهذه الفكرة جاءت بها بولين جاريكو (Pauline Jaricot) والتي أسست في 1822م إرسالية تنصيرية، وبفضل فكرتها هذه تضاعفت التبرعات، خاصة عندما أضافت لفكرتها شطر آخر وهو كل شخص يأتي بعشرة أشخاص وهكذا؛ أي على كل متبرع أن يجد عشر متبرعين بفلس واحد، فأصبحت شبكة كبيرة معقدة من المتبرعين، لتصبح من منطقة ليون الفرنسية في القرن 19 العاصمة المالية للبعثات الإرسالية وأكبر مركز معلومات يخص الإرساليات[3].

---

(1) E. Dufourcq: **Les Aventurières de Dieu**, op.cit, p103.

(2) بورولات دوسيلي (Brulart de Silley) وهو مؤسس العديد من الإرساليات نحو كندا بداية القرن، والسيدة دايقون (d'Aiguillon) وهي ابنة أخ الكاردينال ريشاليو (Richelieu)، والتي أسست أكبر مستشفى في كندا وتونس، كذلك دور السيدة ريكو (Ricoalt) والتي تبرعت بكل ثروتها لتأسيس أسقفية في بابل العراق حالياً، كذلك السيدة ميراميون (Miramion) والتي كانت وراء تأسيس إرساليات إلى تيلاندا، أنظر:
Gaston Duchet-Suchaux: **Les ordres religieux**, op.cit, p93.

(3) Idem.

وأصدرت كشف (L'œuvre) للدعاية الدينية والذي انتشر بسرعة كبيرة ويتناول قصص وحكايات حول الإرساليات ورجال الدين والمنصرين ونشاطهم ويضخمون أعمالهم، جاعلين منها جبارة وأنهم منقذون العالم من التخلف، وعن طريق هذا المنشور الصغير، سيُصبح التنصير مهمة كل واحد، وصل إصدار هذا المنشور حوالي 10.000 نسخة في سنة 1825م، ليصل 40.000 فيما بعد، ثم يصبح عام في كل مناطق العالم كل أبرشية تصدر الكشف الخاص بالمنظمة[1].

أما بالنسبة مثلاً لجمعية التنصير للكنيسة الإنجليزية، والتي تعتبر من أهم وأكبر الجمعيات والتي يدير أعمالها أكثر من 200 أسقفاً، وصلت إرادتها في سنة 1899م، 25 ألف فرنك لتصل حوالي 10 ملايين فرنك سنة 1910م، وهذا ما هو مصرح به رسميًا، وحسب تقاريرها الخاصة اتضح أن الإعانات التي وصلتها من انجلترا فقط في سنة 1902م تعادل 668.569 جنيه، وغير الإنجليزية أي من مصادر أخرى وصلت 100 ألف جنيه وهذا كل ما يصل الجمعية من أموال وما يجمعه المنصرين ورجال الدين، خاصة وأنّ لها عدة فروع لجمع النقود لا يمكن أن تقع تحت الحصر[2].

لتصل إيرادات هذه الجمعية في 1910م حوالي 403.615 جنيه، وبلغ ما أنفقته على أعمال التنصير حوالي 325.000 جنيه، وما أنفقته على المنصرين 35.000، ليصل مجموع ما تنفقه للاحتكاك بالإسلام والمسلمين حوالي 7.500.000 من الفرنكات، كما أنها ذكرت في أحد تقاريرها أن العمل في المنطقة الإسلامية ما زال صعبًا ويتطلب أموال كبيرة[3].

كانت أعمال المنصرين تهتم بالتعليم في الأرياف في مصر مثلاً، وذلك أن سكان الأرياف في العالم الإسلامي فقراء ومقطوعين عن الحضارة في نظر كنيسة إرساليات التنصير الأمريكية، والتي تعود تأسيسها إلى سنة 1810م ووصل عدد لجانها 567، وينتمي لها 73 ألف عضو، يدفعون لها حوالي 1600.000 فرنك، ويبلغ عدد التلاميذ الذين يدرسون 70.000[4].

---

(1) E. Dufourcq: **Les Aventurières de Dieu**, op.cit, pp104-115.

(2) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، تلخيص وترجمة مساعد اليافي، ومحب الدين الخطيب، منشورات العصر الحديث، ط2، جدة 1387هـ، ص30.

(3) نفسه، ص31.

(4) نفسه، ص32.

ولما أعجب أكبر أغنياء أمريكا بالعمل الذي يقوم به شبان التنصير، في سنة 1906م بدعوة من أحد الأغنياء، وقرروا تأسيس لجنة مع رؤساء كل الإرساليات ووضعوا اتفاق يحتوي على هذه البنود[1]:

- بذل المجهودات لأجل تكوين المنصرين العلمانيين.
- البحث من أجل وضع خطة لتنصير العالم في مدة 25 سنة.
- تشكيل لجنة هامة مؤلفة من 20 عضو أو أكثر للقيام بزيارة مراكز الإرساليات وتقديم تقارير عنها.

أما إرساليات التنصير الألمانية، فأسست إرساليات التنصير في المشرق عقب مذابح الأرمن في 1895م[2]، أسسها القسيس ليسيوس[3] وليكون لها دور علمي، فنشر مؤسسها منشورًا حماسيًا:

«إن الشرق يدعو الغرب لشد أزره، فجل ما نريده، أن نخلص الشرق بواسطة المسيح لتحرير هذه الكنائس المسيحية من ظلم الإسلام والمسلمين، ونفتح طريقًا للسيد المسيح لإرجاع هذه الكنائس لصورتها الأولى، هلموا إلى قلب العالم الإسلامي لتحرير فورًا الصليب من الهلال»[4].

وعملت هذه الإرسالية على البحث حول شؤون الإسلام والمسلمين، وجاء في أحد تقاريرها «إنّ نار الكفاح بين الصليب والهلال لا تتأجج في البلاد النائية ولا في مستعمراتنا في آسيا وإفريقيا، بل ستكون في المراكز التي تستمد الإسلام منها قوته وينتشر، وبما أن الشعوب الإسلامية تولي وجوهها نحو الأستانة عاصمة الخلافة، فإن كل المجهودات التي نبذلها لا تأتي بالفائدة إذ لم نتوصل إلى القضاء على العاصمة التي تعتبر قلب الإسلام»[5].

ومن ثم ظهور عدة جماعات والتي ساعدت الإرساليات في عملها التنصيري، فأصبحت تمثل في نهاية القرن 19م شبكة كبيرة ومهمة من المستشفيات والمدارس والمعامل تستعمل

---

(1) Fréderic Manns: **Qu'est ce que la nouvelle évangélisation**? op.cit, pp52-55.

(2) Ibid., p56.

(3) هو رجل دين متعصب، متطرف، مدير البعثة الألمانية الشرقية. للمزيد انظر: محمد الرشيدي بك، آل الحجازي: **بعثة تنصير المحمديين، برنامجها، كبدها للإسلام والمسلمين،** مجلة المنار، المجلد25، ص735.

(4) أ. ل. لوشاتلي: مصدر سابق، ص35.

(5) Gérard Pelissié du Rausas: **Le régime des capitulations**, op.cit, pp32-40.

يومياً للاحتكاك من خلالها بالمسلمين عن طريق إما التطبيب، أو التعليم أو منحهم عمل داخل المعامل، وبتطور وسائل النقل البرية، سكك الحديد التي أصبحت لا تنتشر في أوروبا فحسب، بل حتى مستعمراتها وكذا بوسائل النقل البحرية من سفن وبواخر وفتح طرق بحرية جديدة تسهل التنقل عبر القارات، كقناة السويس وباناما، فهنا تصبح بغداد والهلال الخصيب مناطق إستراتيجية في بداية القرن 20م[1].

احتلت فرنسا الريادة في مجال الإرساليات التنصيرية لمدة أكثر من قرن ونصف، ولكن هذا العمل التنصيري انتشر في كل الدول الكاثوليكية، وابتداءً من منتصف القرن 19م شهد العالم عدد هائل من الإرساليات والجمعيات النسائية والرجال كذلك، ومن حوالي 200 جمعية في العالم، 95 منها فرنسية، 69 من الولايات المتحدة الأمريكية، 18 إيطالية، 17 ألمانية، 16 من كندا، 15 هولندية، 11 بلجيكية.

كما شهدت الكنيسة ولأول مرة اعتلاء كرسي البابوية من طرف أحد رؤساء الإرساليات هو غريغوار (Grégoire XVI)، والذي كان عمله يتركز على ضرورة إنشاء أبرشية في كل منطقة موجود فيها إرسالية، يعني نظام كنسي؛ أي مسيحي في كل هذه المناطق يسهل عملية التنصير. كما يجب أن نذكر بأن أهم ما ميز إرساليات القرن 19م هو الصراع القائم بين الكاثوليك والبروتيستان، والذي كان له آثار حتى على النشاط التنصيري[2].

كما أن هذه الإرساليات أصبح من المستحيل خلال القرن 19م أن لا تربطها ارتباطًا وطيدًا بالحركة الاستعمارية، وذلك لعدة أسباب حيث تقاسم العالم قوتين استعماريتين من خلال معاهدات بعد مؤتمر فيينا والصلح بين فرنسا وبريطانيا، وتطورهما في المجال العلمي والتقني، ساعد على نشاط المنصرين، كما منحهم الأمن والتمويل المناسب حتى يتحركون إلى المناطق التي لم يصلها أحد، وأن كل قوة تعتمد على منصريها في مناطق نفوذها.

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**، مرجع سابق، ص ص30-35.

(2) M. S. Delacroix: **Les missions des origines**, T4, op.cit, pp27-35.

المبحث الثاني: الدور الفكري للكنيسة قبل القرن 19م

ربما منبت التنصير هو الكنيسة، حيث بدأ العمل التنصيري مع انطلاق النصرانية، ويعُدّ بولس هو المنصر الأول، وذلك بعد أن تنصر، عندما أعلن أنه رأى المسيح في المنام وطلب منه أن يهتم بالدعوة إلى تعاليم المسيحية، علمًا أنه قبل هذه الدعوة كان من أشد المضطهدين للنصارى وخاصة ببيت المقدس منهم[1].

رغم كل هذا يمكن اعتبار بولس هو المنصر الأول، ويمكن اعتباره الواضع للأسس الأولى للتنصير العالمي، قبل ظهر الإسلام، ومازال المنصرون يمشون على خططه، وإذا اعتبرنا التنصير علمًا قائما بحد ذاته فيكون هو من أسسه[2]، وكان في بداياته من أجل نشر تعاليم المسيحية، ولكن بتطور الأحداث وظهور الإسلام، والذي استطاع أن يفرض قوته ووجوده في العالم، ظهرت المواجهات والمناظرات بين النصرانيين والمسلمين، وذلك من أول لقاء بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع وفد من نجران، حيث جلس معهم وتحدثوا طويلا حول عيسى ومريم (عليهما السلام)، وهما القضيتين اللتين ما زالتا محل نقاش بين المسيحيين والمسلمين إلى يومنا هذا[3]، وأسلم بعدها أبي أيوب الناصري[4]. لتتطور العلاقة في عصر الخلافة الراشدة خاصة خلال فترة امتداد الفتح الإسلامي، في الشام ومصر وما وراءهما، كما حاول النصارى تنصير المغول لمحاصرة الإسلام والمسلمين، ولكن المغول أسلموا وانضموا إلى صفوف المسلمين[5].

ما يجب التركيز عليه أنه بمجرد وفاة الرسول تحولت هذه القوة إلى صراع ومواجهة إلى يومنا هذا، بين العالمين الإسلامي والمسيحي، واتخذ عدّة أشكال وصور عبر العصور[6].

---

(1) تعريف مفصل على كيفية تحريف بولس للمسيحية، انظر: هايم ماكيي: **بولس وتحريفه للمسيحية**، ترجمة سمير عزمي الزين، المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، القاهرة، 1991م، ص103، سلسلة من أجل الحقيقة/3.

(2) نفسه

(3) للمزيد انظر: ابن علي بن محمد الجزري عز الدين أبي الحسن: **أسس الغابة في معرفة الصحابة**، مجIII، دار الفكر، ص67.

(4) نفس المصدر السابق، ص71.

(5) علي بن إبراهيم الحمد النملة: **التنصير، مفهومه، أهدافه، وسائله وسبل مواجهاته**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1419هـ، ص14.

(6) Simon Jargy: **Islam et chrétienté, Labor Fide**, publication orientalistes de France, 1981, p103.

كما تحولت المؤسسة الكنسية من مؤسسة روحية إلى دنياوية، ذات نفوذ، وأموال وجيوش، واكتسبت حق التدخل في الأمور السياسية، وأصبحت تخاف على ممتلكاتها ومناطق نفوذها، أي كل المناطق المسيحية[1].

1 – إرهاصات الدعم الفكري الكنسي:

انزعجت الكنيسة من النجاح الكبير الذي حققه الفاتحون المسلمون والجهاد الإسلامي الذي أصبح يهدد توسعها في الشرق والغرب، خاصة أنه في مدة قصيرة استطاع الإسلام أن ينتشر ويتوسع على حساب أراضي المسيحية، كما استطاع انتزاع أحسن الأقاليم لبيزنطة كسوريا فلسطين، مصر وكذا شمال إفريقيا، ولن يتوقف الإسلام عن الانتشار لمدة عدة قرون، فوقف كسد في وجه المسيحية وانتشارها، بل وحاصرها، إلى غاية فتح القسطنطينية في 1453هـ[2]، وصل الإسلام إلى أوروبا، استقر المسلمون في شبه جزيرة إيبيريا ابتداءً من 711م أين اكتسح الإسلام إسبانيا إلى حدود البريني، وصولاً إلى بلاد الغال، وفتحوا صقلية في 827م فيصبح الإسلام في قلب أوروبا، إلى غاية سقوط غرناطة في يد المسيحيين أين سيحاولون أن يثأروا عسكريًا من خلال حروب الاسترداد والحروب الصليبية، ولكن دون جدوى لأنه ابتداء من القرن 14م سيعود المسلمون وبقوة تحت لواء العثمانيين ليصلوا مشارف فيينا أي قلب أوروبا[3].

وهنا يشتد الضغط العسكري والذي هو الضغط الديني وذلك بسبب الارتباط الكلي بين الكنيسة والسياسة في أوروبا، وتساند الكنيسة الحركة العسكرية، بل وتموّلها ماليًا، وهنا تتكون نظرة المسيحية للإسلام، والتي تكونت في ذهن المسيحي في العصور الوسطى عن طريق أدبيات رجال الدين واللاهوت، وذلك أن في تلك الفترة كانت المعرفة والعلم منحصرة في الكنيسة ورجال الدين الذين اهتموا بتكوين وتربية المسيحيين عن طريق كتاباتهم، لتخوفهم من تلك القوة الموجودة في ذلك الدين أي الإسلام أين كان[4]، إن في اتحاد المسلمين في إمبراطورية، سيكونون لعنة على العالم، أما إذا بقوا متفرقين يظلّون بلا

---

(1) ممدوح حسين: **مدخل إلى تاريخ حركة التنصير**، دار عمان للنشر، عمان، 1995، ص ص21-30.

(2) Simon Jargy: **Islam et chrétienté…**, op.cit, p105.

(3) Idem.

(4) Carl Hernrich Becker: **L'Islam et la colonisation de l'Afrique**, conférence faite sous le patronage de l'union colonial Française, 22 janvier 1910, éd., Hachette livre, B.N.F, Paris, 2003, p22.

وزن ولا تأثير[1]، كما أن الإسلام يجمع آمال الشعوب السمراء ويساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية، ولهذا أصبحت نشاطات التنصيرية مهمة وضرورية لكسر قوة الوحدة[2].

بينما حماية المسيحية في أوروبا لن تعرف لها وجود إلى غاية 1100م، الشرق في المقابل كانت له ردة فعل سريعة من أجل حماية المسيحية والمسيحيين، في الوقت الذي كانت نظرة المسيحي للمسلم في أوروبا كلها حقد وغل وكراهية، ورفض، كانت في الشرق الرغبة في حماية المسيحية متشبعة بالكتابات الصادرة عن رجال الدين اللاهوت، تمثل في رغبة المسيحيين الوقوف في وجه انتشار الإسلام السريع في العالم، والذي اعتبرته المسيحية كأكبر تحدي لها[3].

لنصل إلى أهم مرحلة والتي تعتبر عند العديد نهاية منطلق العمل التنصيري الفعلي، وهي مرحلة الحروب الصليبية، أين أظهرت العداء الحقيقي للمسلمين، فتخوف المسيحيين من السرعة التي امتاز بها المسلمون في نشر عقيدتهم وتوسعهم على المناطق المجاورة لهم، ومن ثم بدأت ذرة الحقد في نفوس المسيحيين، واستمرت على مرّ السنين، فهم يرون أن الإسلام ظهر في القرن السابع الميلادي وظهر معه العدو الجديد[4]، إن هذا الإسلام منذ أن ظهر في مكة لم يضعف عدديًا، بل ظل دائما في ازدياد واتساع وأن من أركان هذا الدين الجهاد – على حد تعبيرهم – ولم يحدث قط أن شعبًا دخل الإسلام ثم تنصر[5].

إن الوضع الذي كان سائدًا في أوروبا خلال العصور الذهبية للعالم الإسلامي هو الذي جعل الإسلام يشكل خطرًا على المسيحية والغرب، لأنه كان يتعارض مع البربرية والكفر والظلم والاستعباد، وقيام الدولة الإسلامية والقضاء على أركان الدولة الفارسية، وتجريد بيزنطة من مصر والشام، وشمال إفريقيا ووصوله إلى أعماق آسيا وإفريقيا، كما أنه ضرب الغرب في عقر داره في إسبانيا وفرنسا، فهزيمة مسيحيي الغرب في الحروب الصليبية التي جاءت للقضاء على الإسلام والمسلمين، حددت موقف أوروبا لما هي عليه

---

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار...**، مرجع سابق، ص41.

(2) قول القس سيمون، انظر المرجع نفسه، ص45.

(3) مصطفى خالدي وعمر فروخ، المرجع نفسه، ص53.

(4) محمود عبد الرحمان: **التنصير والاستغلال السياسي**، دار النفائس، لبنان، 2009، ص220.

(5) مجلة العالم الإسلامي التنصيرية، عدد جوان، 1930م.

من الإسلام، الذي تولد من روح الحروب الصليبية[1]. وهذا التعصب الذي ورثه الغرب مع مرور الزمن تحول إلى جزء لا يتجزأ من طبيعة الغربي المسيحي[2].

تيقن المسيحيون أن المحرك الحقيقي للمسلمين هو إسلامهم الذي يساعدهم في كل مرة للنهوض والوقوف في وجه الخطر الخارجي، وهذا ما يتبين كذلك عندما استولى الغرب المسيحي على أقطار العالم الإسلامي، تحركت ضده الشعوب باسم الإسلام، ورفض التواجد المسيحي في أراضيه في كل مرة، وأن هذا الدين هو الذي كان يحرك المقاومة من التواجد الاستعماري، وبذلك فإن هذه العقيدة – الإسلام – مثّل ومازال يمثّل العدو الحقيقي الذي وقف في وجه التوسع المسيحي والأوروبي[3].

انطلقت مرحلة الحروب الصليبية من 1098م وانتهت في 1291م[4] والتي تعتبر نوع من أنواع التنصير واستعملت فيها الجيوش، يرتدون صليبًا من القماش، قد تمت حياكته على صدور ثيابهم وجاءت من أجل تحرير الأراضي المقدسة من أيادي المسلمين على حدّ تعبيرهم[5]، حيث دعا البابا أوربان الثاني إلى تحرير الأراضي المقدسة من الكفار – المسلمين طبعًا –[6]، ورغم كل الانحرافات التي شهدتها هذه الحروب إلاّ أنهم وصفها بالحج الجماعي "Pèlerinage"[7]، حيث يروها صلة بين عادة الحج إلى الأماكن المقدسة والتي نجمت عنها فكرة الحروب الصليبية، وكان البابا أوربان الثاني، هو أول من أعلنها عقب مجمع كليرمونت عام 1095م[8]، وكانت هناك محاولات سابقة للإعداد لها، في 1063م حاول البابا اسكندر الثاني بمنح جنود المسيحيين الذين كانوا يحاربون المسلمين في إسبانيا لمغفرة من الذنوب، وكذا مع البابا غريغوار السابع وعبارة "جنود المسيح"، أصبحت الحرب المقدسة موضوعًا رئيسيًا في السياسة البابوية[9].

---

(1) محمد أسد: **الإسلام على مفترق الطرق**، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 1976م، ص45.

(2) نفسه، ص46.

(3) علي بن إبراهيم الحمد النملة: **التنصير**، مرجع سابق، ص25.

(4) سعيد عبد الفتاح عشور: **الحركة الصليبية**، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1976م، ص53.

(5) Les trésors de la langue Française, livre 6, p524.

(6) François le Brun Dic, **Les grandes dates du christianisme**, éd., Larousse, 1989, p….

(7) Jean-Ive Lacoste Divc: **Dictionnaire Théologie**, éd., PUF, 1998, p…..

(8) Leburn François: **Les grandes dates du christianisme**, éd., Larousse, Paris, 1989, p19.

(9) نفسه، ص22.

ثم خلال القرن 12م ستعمل الكنيسة على وضع قاعدة قانونية لاهوتية للحرب الصليبية، ويعد الخطاب البابوي الصادر في أول ديسمبر 1145م بعنوان "كم من سابق لنا" من البابا أوجين III يصبح من حيث الشكل والمضمون النموذج المثالي لكل القرارات البابوية المتعلقة بالحروب الصليبية[1]، ولأول مرة بدأت الكنيسة تضع رسميًا امتيازات للمحاربين الصليبيين، حيث فرضت الكنيسة حمايتها على ممتلكات وأسر المحاربين، كما أمرت بتأجيل دفع ديونهم، وإلغاء الفوائد المتراكمة، وعلى المستوى الروحي نلاحظ كيف البابا أوجين III أعلن تطبيق نظام "أموال الاستحقاق" وعدًا لإلغاء على العقوبات الدنياوية المفروضة على المحاربين، وكل الذين يتطوعون في جيوش لمشاركة في الحروب الصليبية [2]، وحوله آخرون مثل القديس برنار – (الحروب الصليبية) – إلى مشروع من أجل تحقيق الخلاص[3].

هذا التعصب والتطرف الكنسي هو الذي كان وراء الحروب الصليبية، بل وشجعها، وأوجد أو خلق دوافع لها، كما أن رجال الدين هم الذين تولوا قيادتها والإعداد لها[4]، وما يهمّنا من هذه الحروب الصليبية هو جانبها الديني، والذي يعتبر أهم محرك لها، علمًا أن الأساس لهذه الحروب هو العداء المرير بين المسيحية والإسلام، منذ أن ظهر الإسلام واحتك بالدولة الرومانية، وتوسع المسلمين في آسيا الصغرى شرقًا حتى جبال البرانس غربًا، ما زاد تخوف المسيحيين منه لأنه أصبح يهدّد الأقطار المسيحية[5]، لتنقلب الموازين، فابتداءً من القرن 11م تبدأ تضعف الأقطار الإسلامية، وما يفتح الأبواب أمام القوى الغربية المسيحية لمحاربتها[6]. بدأت الكنيسة تدفع بالنبلاء لمحاربة المسلمين في إسبانيا وهي كانت في نفس الوقت وسيلة استعملتها الكنيسة من أجل إشغال أمراء أوروبا بقضية جديدة، محاولة منها إبعادهم عن الحروب التي كانت قائمة فيما بينهم من جهة، ومحاربة انتشار الإسلام والمسلمين في أوروبا من جهة أخرى، ويمكن اعتبارها الإرهاصات الأولى للحروب الصليبية[7].

---

(1) نفس المرجع السابق.

(2) Philipe Le Vilaine, Direc: **Dictionnaire historique de la papauté**, éd., Vaiare, Paris, 1994, p…..

(3) زينب عبد العزيز: **الحرب الصليبية بكل المقاييس**، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، 2009م، ص37.

(4) ميخائيل زابوروف: **الصليبيون في الشرق**، دار التقدم، موسكو، 1986، ص ص14-17.

(5) زينب عبد العزيز: **الحرب الصليبية...**، المرجع السابق، ص.

(6) علي إبراهيم الحمد النملة: **التنصير**، مرجع سابق، ص37.

(7) نفسه.

وكلّما تقدمنا في التاريخ نلاحظ أن عبارة الحروب الصليبية جزء لا يتجزأ من التاريخ الكنسي، وترتبط ارتباطًا وطيدًا بفكرها، وأهم موضوعات السياسة البابوية، حتى قبل أن يعلنها البابا أوربان (Urban II)[1] في عام 1095م[2]، من خلال خطابه الشهير[3] والذي اعتبره المؤرخون منطلق للحرب الصليبية، ولكن إذا حاولنا تحليل هذا الخطاب لا من باب الدافع، وإنما من الألفاظ المستعملة والتعبير المختار.

فهو يخاطب المسيحيين ويستعمل لفظ الجند وكأنه اعتبر جميع المسلمين دون استثناء جنود الله، وأعطاهم صفة الوحدة العسكرية من أجل الحماية، كما أننا نلاحظ من خلال ما كتب، أنه يؤكد أن هذا النداء من أجل تحويل نظرة الأمراء الأوروبيين من الصراعات والفتن التي كانت بينهم، ويستعملون قوتهم من أجل قضية على حسبه أنبل وأرقى، وهي تحرير المناطق المقدسة، فيطلب منهم توحيد قواتهم التي كانت مشتتة بسبب الحروب التي كانت قائمة بين إمارات الغرب المسيحي، وتوجيه هذه القوة نحو الشرق موحّدة من أجل الوصول إلى الانتصار، والذي سيعطيهم حق امتلاك المناطق المقدسة، وإذا لم ينتصروا فعليًا فهم منتصرين عند الموت، وذلك أنهم سيموتون في سبيل الرّب المسيح ويدفنون في المناطق المقدسة، أي أن هؤلاء المجندين منتصرين في كلتا الحالتين، إما بامتلاك الأماكن المقدسة، وهذا يعتبر إنجاز عظيم، حتى عندما لا ينتصرون على المسلمين، فإنه يحوله لهم انتصار، وهو أنهم سيظفرون بالموت والدفن حيث مات المسيح، والذي هو انتصار بحدّ ذاته بالنسبة للمسيحيين.

يخبرهم أنه حان وقت إظهار القوة والشجاعة والبطش من أجل إحياء كلمة الرب، ثم يفتح لهم فرصة تنقية أنفسهم، وغسل أيديهم بدماء المسلمين من أجل تطهير نفوسهم من الخطايا وهنا يستعمل كلمة الكفار للدلالة على المسلمين.

يعتبر هذا النداء دعوة نجدة أو مساعدة من طرف المسيح أو الرّب، وهو يحرك نفوس المسيحيين بإعلان أن المسيح أو أرضه المقدسة في خطر ويجب تخليصها، ثم يؤكد

---

(1) البابا أوربان (Urban II) أو أوربانوس وهو أتوده لاجري (1035م – 1099م) ولد بفرنسا وتوفي في روما، انتخب بابا في 1088م، متعصبًا ومتشددًا وكان وراء انعقاد مجمعًا كنسيًا في جنوب فرنسا، للمزيد انظر:
Dulimeau, Jean: **Histoire du christianisme**, éd., universalis/Albin Michel, 2000, p423.

(2) نفسه.

(3) أمام مجلس عقده في مدينة كليرمونت بفرنسا، انظر الملحق رقم 01، نص الخطاب مترجم.

على ضرورة الالتحاق بالجيش وذلك لحب المسيح، ولا يوجد أو يقبل أي حبّ قبل حبّ الربّ من خلال هذا الخطاب استطاع أوربانوس II من تعبئة الجيوش وتحميسهم وبعث فيهم روح القتال وتخليص الأراضي المقدسة[1].

كانت لهذه الفقرات أثر وواقع كبيرين على المجتمع الغربي المسيحي، وكانت نتائجه هائلة، كما اعتبرها الكل الإعلان الرسمي للحروب الصليبية، وذلك لأن البابا أوربان خلال هذا الخطاب طلب من كل من يشارك في هذه الحرب أن يخيط صليب ضخم على أقمصتهم الحربية، من الأمام ومن الخلف[2].

وما يجب الإشارة إليه أن الحروب الصليبية في كتابات الكنيسة تعود إلى القرن التاسع، أين رفع رجال الدين فكرة مقاتلة الكفرة (المسلمين) من أجل الدفاع عن المسيحيين المقهورين، وهذا الصراع يعتبر إحدى أهم الوقفات التاريخية، احتك فيها الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي، ونتج عن هذا الاحتكاك عدة نتائج[3].

وهذه الحروب هي شكل من أشكال التنصير، استعملت فيها الجيوش، ولكن خلال هذه الفترة كان هناك احتكاك بين علماء الطرفين وعدة مناظرات بين العلماء المسلمين ورجال اللاهوت المسيحيين، ونتج عن هذا الاحتكاك العلمي عدة مؤلفات عند المسلمين تناقش حقيقة النصرانية والتنصير[4].

---

(1) زينب عبد العزيز: **الحرب الصليبية...**، مرجع سابق، ص ص35-43.

(2) François Lebrum: **Les grande dates du christianisme**, éd., Larousse, Paris, 1989, pp280-283.

(3) M. Ghizot: **Des mémoires à l'histoire de France**, éd., chez J-L-J Brière, Paris, 1825, pp13-15.

(4) انظر العديد من المؤلفات منها:

- أبو الفضل الملكي المسعودي، **المنتخب الجليل من تبجيل من حرف الإنجيل.**
- أبو الوليد سليمان بن خلف القاضي الباجي، **جواب القاضي على رسالة الراهب من فرنسا إلى المقتدر بالله صاحب سرقسطة،** تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي، القاهرة، دار الصحوة، 1929.
- أحمد عبد الحليم بن تيمية، **درء التعارض العقل والنقل،** تحقيق محمد راشد سالم، الرياض، جامعة بن سعود الإسلامية، وله كذلك **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح،** تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي، القاهرة، مكتبة المدني.
- عمر بن بحر الجاحظ، **المختار في الرد على النصارى،** تحقيق محمد فنكل، القاهرة، المكتبة السلفية، 1382هـ.
- أبو المعالي الجويني، **شفاء الغليل في الرد على من بدّل التوراة والإنجيل،** الرياض، 1403هـ/ الشهرستاني، الملل والنحل.
- أبو محمد عبد الله بن حزم، **الفصل في الملل والنحل.**

وما نلاحظه ظاهرًا أن كل المؤلفات التي ظهرت في تلك الفترة مرتبطة بالملّة والدين والعقيدة، والردّة وتحريف الإنجيل، وكأنها حملة من طرف العلماء المسلمين ضد التنصير في المنطقة، أي أنهم تفطنوا لخطط المنصرين في المنطقة.

ولكن رغم كل المحاولات النصرانية لم تنجح جيوشهم عسكريًا، ولم يتمكنوا من تشكيك المسلم في رسالته بل عكس ذلك تمامًا، لبّ دعوة قتال المسلمين من كل الأراضي المسلمة مهما بعدت، واتحد تحت راية محاربة المسيحيين ومنعهم من الاستيلاء على المناطق المقدسة، ولكن وصول الجيوش المسيحية ورجال الدين إلى المنطقة لم يكن لها أثر مباشر، بل آثار بعيدة المدى، بكثرة بناء الكنائس وتأسيس بعض الجمعيات مثل فرسان تيودور[1].

وقد أدرك العلماء والرحالة المسلمين آنذاك البعد التنصيري للحملات الصليبية ومحاولة المسيحيين تغيير هوية المنطقة وإبعادها عن الإسلام، فبعد خضوع عكا لسيطرة الصليبيين وتحويل مساجدها إلى كنائس، مثلاً مسجد الخضراء، والذي حول في 1099م إلى كنيسة حتى عام 1187م بعد فتح المسلمين المنطقة عاد وحول إلى مسجد، كذلك مسجد الصلاحي الكبير، وكذا جامع النصر، وجامع البيك، وغيرها من المساجد[2]، وحوّلت صوامعها إلى نواقيس وهنا تكشف بوضوح نية تغيير الهوية الإسلامية في المنطقة، وذلك عن طريق القضاء على أهم مراكز العبادة، حتى أصبح هناك بقعة صغيرة في مسجد عكا يجتمع فيها الغرباء للصلاة[3]. ولكن رغم كل هذه الجهود لم يتمكن المسيحيين من تغيير عقيدة المسلم، بل عكس ذلك أصبح يحارب بل يستميت من أجل دينه وعقيدته، حيث عندما دخل المسيحيون الصليبيون القدس قضوا على ما يقارب 7 ألف مسلم ومسيحي على

---

(1) وهي جماعة تكونت بواسطة التجار في نهاية القرن 12 أي خلال الحروب الصليبية (1198م/6ه) وكانت ظاهرًا لخدمة الجرحى ومرضى بيت المقدس، وسموا بفرسان المستشفى (Les hospitaliers)، وقديسية مريم (Saint Marie)، لكن في الحقيقة هم رهبان كرسوا أنفسهم لخدمة الكنيسة والعمل التنصيري وتوسيع أملاك الكنيسة، للمزيد انظر: وليام الصوري: **الحروب الصليبية، تاريخ وقائع حدثت وراء البحر**، الجزء 2، ترجمة حسين حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م، ص ص45-60.

(2) محمد مؤنس عوض: **الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1995م، ص ص288-289.

(3) نفسه.

حدّ السواء، ففي مسجد عمر وحده قتل عشرات الآلاف من المسلمين، وأنهم أشهروا سيوفهم في حق النساء والأطفال والرجال دون تمييز، حتى شوهدت أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل في شوارع المدينة، وحسب الروايات وصلت الدماء من شدة التدفق أن خاض الصليبيون بخيولهم فيها، وفي الليل أقبل الصليبيون إلى مدينتهم ورفعوا أيديهم للسماء من شدة فرحهم وهي مخضبة بالدماء[1]، وعندما احتمى بعض الأهالي في جامع بالمدينة لاحقهم الصليبيون وذبحوهم داخل جامع المدينة وحولوهم إلى بركة من الدماء[2]، ومن خلال هذه المشاهد والأحداث الدموية نلاحظ مدى حقد وغلّ المسيحي على المسلم، فأحرقوا وقتلوا وهتكوا الأعراض، واستباحوا المحرمات حيث قال ابن العديم «إن القائمين على هذه الحرب نبشوا القبور وأخذوا التوابيت وسلبوا الأكفان، وربطوا الموتى من أرجلهم وسحبوهم صارخين هذا هو محمدكم، هذا هو عليكم»[3].

لنتقدم قليلا في الزمن ونرى ما شهده المسلمون في الأندلس، من كل أنواع التعذيب، حيث قتل وحرق ما يقارب ثلاث ملايين من المسلمين حيث ذهب الكاردينال كمنيس إلى غرناطة وحث مطرانها، الدوق تالافيرا على اتخاذ كل الوسائل الفعالة لتنصير المسلمين، مستعملاً الوعد والوعيد والإرغام، فأمر هذا الأخير بجمع ما يمكن جمعه من كتب الفلسفة والعلوم، والمصاحف والتي وصلت حوالي مليون إصدار وأحرقه، كما استعملوا كل الطرق المتصورة في التعذيب، أسياخ المحماة، والقوالب المحماة الثقيلة على البطن، وسحق العظام بالآلات الضاغطة وتمزيق الأرجل، وفك الفم، وغير ذلك من الوسائل الهمجية، فكان الإعدام والقتل والحرق بالجملة وأغرقوا بعضهم جماعات، صادروا الأموال، وغيرها من أنواع التعذيب للتخلي عن الإسلام[4]، وإذا تمعنا في أنواع العذاب سنلاحظ أنه بتطور العصور وفي كل مرّة عندما تكون مواجهة مباشرة أو غير مباشرة بين المسلمين والمسيحين، فإنها نفس أنواع التعذيب وربما في بعض الأحيان أكثر تطورًا، فيما بعد خلال الكشوفات الجغرافية نال السكان الأصليين للمناطق التي دخلتها

---

(1) غوستاف لويون: **حضارة العرب**، ص326.

(2) سعيد عبد الفتاح عشور: **الحركة الصليبية**، ص294.

(3) نفسه، ص254.

(4) محمد عبد الله عنان: **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين**، ط1، مطبعة مصر، القاهرة، 1949م، ص202.

إحدى القوى الاستعمارية آنذاك مع منصريها نفس التعذيب، حيث قام الغرب بإبادة المسلمين، وأقاموا إمبراطوريات على أشلائهم، ففي إحدى رسائل ألبوكيرك التي أرسلها للملك إمنويل عن سير العمليات قال: «إن جنوده وبحارته أبادوا جميع المسلمين حيثما كانوا، فالذين لم تقطع رؤوسهم، ساقوهم إلى مساجد وأحرقوهم»[1].

وهذا ما سنلاحظه خلال الحملة الاستعمارية للقرن 19م، وما شهده المسلمون من عنف وإبادة من طرف الحكومات المستعمرة لأراضيهم.

2– أهمية معرفة المسلم والإسلام:

بعد أن هزم المسيحيين في الحروب الصليبية ورغم كل أنواع القتل والتعذيب التي شنوها على المسلمين، إلا أن المسلمين زادوا قوة وشجاعة للتغلب على الصليبيين الدخلاء على أراضيهم المقدسة، وهذا الإسلام زادهم قوة ضد الصليبيين، فتأكد الصليبيون بعد أن هزموا أن للقضاء أو بالأحرى لتضييق الخناق على الإسلام والمسلمين، يجب أن يتحول الصراع إلى قضية تخص أوروبا عامة، ليتمكنوا من تجاوز كل الصعوبات، خاصة أن هذه الحروب الصليبية كلفت العالم الغربي المسيحي أموالاً ضخمة، وقوة بشرية كبيرة، أنهكت وأثقلت وأتعبت كاهل الغرب المسيحي ماديًا ومعنويًا، ورغم خطابات رجال الدين وحماسهم ووعود الكنيسة بالنجاة ومحو الأخطاء وكل الامتيازات التي منحتها لكل من يتطوع في الجيش، إلاّ أن كل هذا أصبح غير كافي، لتعبئة الجيوش وتحميس النفوس، وتيقن الغرب أنه إذا أراد إيجاد طريقة للاستيلاء على الشرق والسيطرة عليه يجب أن تكون بعيدة عن دفع الأرواح من أجل تحقيق ذلك، وأن تكون هذه الطريقة غير مكلفة لا معنويًا ولا ماديًا[2]، ويمكن اعتبار الملك الفرنسي لويس التاسع (Saint Louis) هو صاحب فكرة تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سلمية ولكن بنفس الفرص والأهداف، وتكون أسلحتها مختلفة، أي تغيير نوع السلاح، التخلي عن الأسلحة المادية والتي تتحول إلى أسلحة معنوية، والتخلي عن الجيوش العسكرية وتمويل الجيوش الفكرية، التي تهدم بالفكر، في هذه المعركة التي تستهدف الفرد والمجتمع للوصول إلى الأرض،

(1) دليلة بوجناح: **الفكر الاستعماري الفرنسي وتطوره خلال القرن التاسع عشر من خلال النظريات والممارسات،** مذكرة لنيل شهادة الماجستير، 2011-2012م، جامعة الجزائر، ص ص22-23.

(2) محمود عبد الرحمان: **التنصير والاستغلال السياسي،** مرجع سابق، ص ص33-38.

عكس الأولى أين كانوا يستهدفون الأرض دون الاهتمام بالفرد لأنه في كل الحالات يتم القضاء عليه، وبالتالي بدلاً من الجنود يهتم بالمنصرين، في صراع سلمي ظاهريًا ولكنه فتاك باطنيًا لأنه يحارب روح المسلم عن طريق محاربة تعاليم الإسلام وإيقاف انتشاره والقضاء عليه معنويًا، فراهنت الحكومات الغربية من أجل تحقيق أهدافها التوسعية، على المنصرين ويصبحون هم بمثابة جنود الغرب(1).

إذن من خلال هذا نرى أن الهزيمة التي تلقاها المسيحيين على يد صلاح الدين الأيوبي، ولم تمكنهم هذه الحروب من تحقيق طموحاتهم، أي الاستيلاء على المناطق المقدسة، عن طريق هذه الهجمات المتكررة ضد العالم الإسلامي، رافعين فيها شعار الصليب، معلنين للعالم بأسره أنها حروب دينية من حيث الأسباب والأهداف، فأصبح من الضروري إيجاد البديل، ورغم أن هذا البديل عبارة عن طريق طويل وأن نتائجه بعيدة المدى، إلا أنها أكيدة، وتمكن الغرب من السيطرة على العالم الإسلامي فكريًا واقتصاديًا(2).

وأول خطوة وجبت على هذه الحرب الروحية هي استعمال الفكر والعلم والمعرفة للوصول إلى شخصية الفرد التي ستقوده لا محال إلى المجتمع، وبذلك معرفة الآخر ودراسته أصبحت أهم خطوة وبما أن علم الاستشراف كان موجودا، رغم أنه لم يكن رسمياً، ولكن الاهتمام بدراسة الآخر والشرق وعاداته وتقاليده ودينه وعقيدته أصبحت ضرورية، فاستعانت الكنيسة بكل ما كتب في هذا المجال قبل الحروب الصليبية أولاً، وهنا علم الاهتمام بالشرق أي الاستشراق أصبح له أهمية كبيرة عند الكنيسة ورجال الدين.

وأصبحت الدراسات الاستشراقية كلها واضعة صوب أعينها هدف السيطرة على العالم الإسلامي(3).

وبذلك استبدلت الأسلحة بالكلمة والحوار والمنهج العلمي في دراسة نفسية وسوسيولوجية الشرق لإيجاد الطريقة الأمثل للسيطرة عليه ومواجهته، فاهتموا بدراسة دينه ولغته وحضارته وتاريخيه وفلسفته وعلومه وعقيدته وأصوله، وضعت مناهج لدراسته، وفهم

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص ص25-27.

(2) ستيفنس رنسيمان: **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة السيد العريني، دار الثقافة، بيروت، سنة......، ص ص44-48.

(3) الطيب بن براهيم: **الاستشراق الفرنسي**، مرجع سابق، ص39.

هذه القوة المتماسكة التي انهزم ضدها، حتى تكون المواجهة بطريقة مختلفة ولكن أكيدة. أي أن الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية للصراع بين الشرق والغرب، والذي كان موجودًا قبل انطلاق الحروب الصليبية[1].

صحيح أن الحروب الصليبية حروب عسكرية ولكن ألهمها الجانب الروحي، فإن تعبئة الجيوش كانت عن طريق الخطاب الكنسي وما بعثه في روح الأشخاص من حماس وما أخرج من داخلهم من حقد وغل ضد المسلمين، أي أن حتى الجيوش يلزمها خطابات تحركها، يقول أوربانوس في خطابه: «عار علينا إذا تمكّن هذا الجنس الكافر – المسلمين – عديمي الكرامة والشرف، عبيد حقيرين تابعين للشيطان، ينتصر على الشعب المختار من طرف الرب القوي»[2].

إذا تمعنا في نوعية الألفاظ المستعملة والتي يريد من خلالها إنزال من شخصية المسلم، فهو يستعمل لفظ "الحقير" عديم الشرف والكرامة، عبيد الشيطان وفي المقابل يصف المسيحيين أنهم شعب الله المختار وأن الله اختارهم من أجل تخليص المناطق المقدسة.

وبالفعل هذا الخطاب الذي يعتبر سياسي سيكون له أثر على نفوس المسيحيين عبر العصور، حيث مازالوا ينادون بفكرة أن أعداءهم هم المسلمين وأن محمد عليه الصلاة والسلام شيطان على حد تعبيرهم[3].

ومن خلال ذلك أصبح الفرد المسيحي ينظر إلى المسلم على أنه خارج عن الصفوف أي كافر، وأن الإسلام عبارة عن هرطقة، ولعلّ أقدم من هاجم الإسلام وعقيدة محمد (صلى الله عليه وسلم) هو يوحنا الدمشقي (Saint Jean Damascène)[4]، واسمه العربي منصور ابن سرجون، ومن أهم كتبه الهرطقة (Les hérésies)، وآخر فصل من

---

(1) الطيب بن براهيم: **الاستشراق الفرنسي...**، المرجع السابق، ص41.

(2) «Quelle honte neserait ce pas pour nous si cette race infidèle si justement me priée de la générée de la dignité d'homme et vil esclave du démon, l'emportait sur le peuples élu de dieu tous puissant ».

انظر:

Dominique Carnoy: **Représentation de l'Islam dans la France du 17ème XVII siècle**, éd., l'Hamatton, 1998, p21.

(3) Ibid, p18.

(4) ولد في دمشق، يوحنا الدمشقي، اسمه العربي ابن سرجون في 676م وتوفي في 749م وهو مختص في علم اللاهوت، وكاتب مسيحي ذو أصول سريانية وباللغة الإغريقية وهو كان قسيسًا. للمزيد انظر:

J. Nasrllah: **Saint Jean de Damas, Son époque d'orient, son œuvre**, offdes éd., univ., Paris, 1950, p43.

هذا العمل أي الفصل 101، يتحدث فيه مطولا حول الإسلام والذي يعتبره هرطقـة[1]، وما يمكن ملاحظته أن كتابه عن الإسلام أو هرطقة الإسلام كانت مطولة اتخذت فصلاً كاملاً، بينما لم يعطِ لكل الهرطقات السابقة نفس الأهمية[2]، وهذا يدل على مدى اهتمامه بهذه الديانة، كذلك إذا تمعنا فيما كتبه نلاحظ أنه حاول من خلاله تحطيم وانتقاد الدين الإسلامي والعقيدة والرسول، وخلال كل هذا الفصل لم يعط حجة مقنعة لكلامه، إلاّ أنه ركّز على إصدار أحكام وانتقاء الألفاظ عند وصفه لها كقوله: «هذه الثقة المفرطة بالنفس والمتغطرسة»[3]، هي ألفاظ غير لائقة بعالم لاهوت يناقش فكرة معينة، كذلك عندما يتكلم ويقول: «هرطقة الإسلاميين العرب، الذين يغلبون الشعوب بقوتهم والتي تبشر بمجيء المسيح الدجال»، وربما أهم أحكامه عندما حاول إرجاع الإسلام إلى هرطقة رجل الدين أريوس»[4].

أما كتابه عرض للعقيدة الأرثوذكسية (Exposer de la foi Orthodoxe)[5] والذي يعتبر عرض لحوار دار بين مسيحي ومسلم، ومن خلاله حاول إرشاد المسيحيين عن الطريقة الأنسب لمجادلة المسلمين[6].

استعملت أفكاره من بعده من طرف المجمع نيسي (Nicée) في 787م[7]، وكان لهذه الكتب أثر كبير شأنهم شأن كتاب Chronographia de Théophane، القديس ثيوفان والذي حارب الإسلام من خلال كتبه والتي أعيدت نشرها في أوروبا في منتصف القرن 9م[8].

ومن بعدهم المسيحي الشرقي عبد المسيح ابن إسحاق الكندي والذي عاش في البلاط العباسي للخليفة المأمون (813 – 833م)، وهو صاحب رسالة ذات أهمية كبيرة

---

(1) الهرطقة هي كل عقيدة تتعارض مع الإيمان الحقيقي لديهم في ذاتها، ما يسميه اللاهوت كفرا، للمزيد انظر: ج. ويلر: **الهرطقة في المسيحية، تاريخ البدع والفرق الدينية المسيحية**، ترجمة جمال سالم، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 2007، ص25-30.

(2) Simon Jargy: **Islam et Chrétienté**, op.cit, p104.

(3) نفسه، ص105.

(4) A.T. Khoury: **Les théologiens Bysantins et l'Islam, textes et auteurs (VIII – XIII$_s$)**, cel Louvain, Paris, 1969, pp65-67.

(5) J. Nasrllah: **Saint Jean de Damas**, op.cit, p45.

(6) نفسه.

(7) نفسه، ص47.

(8) Dominique Carnoy: **Représentation de l'Islam dans la France…**, op.cit, p23.

والتي لن تظهر أهميتها في إسبانيا إلاّ بعد قرن من الزمن في الأوساط المسيحية، والتي يهتم من خلالها الكندي بشخص الرسول ومحاولة إظهار نقاط ضعف شخصيته والتي على حسبه لا تتوافق مع مهمته فتكلم عن العنف، والتجبر وحبه الشديد للنساء[1].

إن وصول المسلمين إلى شبه جزيرة إيبيريا سيؤثر على العلاقة والاحتكاك المسيحي الإسلامي، فكان هناك تبادل بينهما خاصة بمساعدة الإسبان المستعربين (Les Mozarabes)[2] وهذا الاحتكاك بينهم سيعطي ميلاد حضارة إسلامية كبيرة وإشعاع علمي في أوروبا، يكون له صدى وأثر على أوروبا لقرون طويلة، بل وقد يكون منطلق النهوض لأوروبا، وسيتحقق ذلك عن طريق التطور أين أصبحت معرفة الآخر – العربي المسلم – ضرورية، من خلال لغته ودينه وعاداته، ومن خلال احتكاكهم استطاع الأوروبيون أن يكون لهم معرفة أكبر وأدق لهذا المسلم، بالاحتكاك معه عن قرب[3]، هذا لا يعني أنه لم يبقَ رجال الدين والأوساط المسيحية واليهودية يهاجمون الإسلام ورسوله، ويحاولون جاهدين إبعادهم عن هذه الديانة، فخلال النصف الثاني من القرن التاسع هناك قس من قرطبة "إلوفيوس" (Eulogius) ومؤسس "حركة نحو الشهيد"[4]، كان له رغبة وميول في اكتشاف ومعرفة أكثر للإسلام، ففي قصته لمحمد والتي جاءت ضمن كتابه: Liber apologeticus martyrum، يعود إلى بعض القصص التي ذكرت عن الرسول، يركز على فكرة أن الديانة الإسلامية هي الوحيدة التي قطعت كلية مع الكنيسة، ويشرح بدقة كيف أن الإسلام يجعل من المسيح رسول مهم[5].

كما هناك يهودي تدين بالمسيحية ومعروف باسم ألفارو من قرطبة (Alvaro de Cordo) وهو عالم للاهوت، ومن المحتمل أنه مستعرب، درس اللغة العربية، وخلال أبحاثه التي كان يحاول حماية المسيحية، اطلع على المصادر العربية، والتي أعطته صورة أصح وأدق عن الإسلام والمسلمين وعاداتهم، ويتمكن من إعطاء أو رسم صورة نوعا ما صحيحة عن الإسلام تختلف عما كان يكتب قبله[6].

---

(1) A.T. Khoury: **Les théologiens Bysantins et l'Islam…**, op.cit, pp60-67.

(2) هو مصطلح يقصد به المستعربين.

(3) A.T. Khoury, op.cit, p68.

(4) نفسه.

(5) نفسه، ص52.

(6) Dominique Carnoy: **Représentation de l'Islam dans la France…**, op.cit, pp22-23.

ليظهر الجيل الثاني من المفكرين الأوروبيين وهم الذين كانوا في بداية حركة الاستشراق والاهتمام بالشرق من الداخل، يستحيل أن نذكر أول من بدأت معه الفكرة أي غزو الشرق من الداخل، عن طريق الفكر وغرس الأفكار الجديدة وفتن جديدة، ولكن هناك إجماع من طرف معظم المؤرخين أن الحركة بدأت في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر في فرنسا مع هؤلاء الذين درسوا في معاهد الأندلس ما بين 999م – 1187م[1]، وربما من أبرزهم الراهب هيربيرت دي أورلياك (Herbert de Oraliac)[2]، (938م – 1003م)، والذي قصد الأندلس وتتلمذ على يد عدد من العلماء وانتخب حبرًا أعظم باسم سلفستر الثاني، وأصبح اسمه مرتبط ببداية الاستشراق والاهتمام بالشرق – لأن علم الاستشراق لم يكن قائمًا – فاهتم باللغة العربية، وقام بترجمة بعض الكتب العربية، في الرياضيات والفلك ويرجع له الفضل في انتشار الأرقام العربية في أوروبا، وبعده قسطنطين الإفريقي (1020 – 1087م)[3]، وهو طبيب عربي ولد بقرطاج أو القيروان، اعتزل في دير بندكتي لمدة 20 سنة، تنصر وهرب إلى إيطاليا، قام بترجمة عدة كتب عربية من بينها كامل الصناعة لعلي بن العباس، واستخدمت كتبه في أوروبا إلى غاية القرن 17م[4]، كانت هناك ترجمة لكتب العلوم العربية للمسلمين، كترجمة جرار دي كريمونا (Gerard de Cremona) الإيطالي والذي قصد طليطلة وترجم ما لا يقل عن 87 مصنفاً في الفلسفة والطب والفلك وضرب الرمل[5].

لنصل إلى بطرس المكرم المحترم (Pierre le Venerable) (1094 – 1156م) هو رئيس جماعة البنديكتيين وهو معروف ببيار دوكلوني أي (Pierre de Cluny)، ينتقل إلى اسبانيا لزيارة مختلف الأديرة في 1143م، وتبين له مدى نقص المعلومات عن العقيدة الإسلامية والدين الإسلامي عند المسيحيين، فرأى أنه واجب الاهتمام بالمصادر العربية[6]، فجمع مجموعة من المثقفين الدارسين للغة العربية، وكلفهم بترجمة القرآن ومن بينهم،

---

(1) سعيد عبد الرحمان العظمة وآخرون: **الإسلام والمستشرقين**، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جـدّة، 1985، ص ص 12-126.

(2) نفسه، ص167.

(3) مصطفى السباعي: **الاستشراق والمستشرقون**، مرجع سابق، ص14-16.

(4) نفسه، ص16.

(5) Gilson Etienne: **La philosophie au Moyen âge**, vol. 1, éd., Paris, 1922, pp102-104.

(6) Alain Ducellier, Chrétiens d’orient et Islam au moyen-âge, éd., Armand Colin, Paris, p67.

بيار دو دواني روبير دو كيتون (Robert de Ketton)[1] وهو من Herman[2]، والمستعرب بيار من طليطلة، ومحمد Le Sarrasi[3] وجمع هذا العمل في 1043م وهو ما يعرف عن أدبيات العصور الوسطى كتاب كلوني (Corpus de Cluny)[4]، ويعتبر من أهم ما كتب عن القرآن، أو أهم ترجمة للقرآن، والذي سيبقى إلى غاية القرن 17م من أهم المصادر التي يعتمد عليها كل الذين يتعاملون مع الإسلام والمسلمين، وكان دافعه الوحيد هو فهم عقيدة المسلمين من أجل الدفاع عن النصرانية[5]، ومن خلال هذا العمل أصبح القرآن كما تصوره الغرب في متناول المسيحيين، علمًا أن هذه الترجمة لم تكن مخلصة للنصوص الأصلية فمثلاً حول سور القرآن الكريم التي كان عددها 114 حولها إلى 124، حيث قسمت السور الطويلة من طرف كيتون وذلك حسب وجهة نظره أن المظهر الخارجي يكون أكثر انسجامًا[6]، حظيت نسخة أو ترجمة "كلوني" بالطبع في مطبعة "بال" "Bâle"[7] وكان لها توزيع وترويج كبير وصدى مهم في أواسط علماء اللاهوت والفلاسفة، وتبدأ هذه النسخة بملاحظة مهمة وربما هي أهم فقرة في العمل بأكمله[8]، حيث توجه نظرة أو رأي القارئ منذ البداية إلى أن ما سيطلع عليه أنه هرطقة وليست ديانة، وأعمال شيطانية وهي كانت مقصودة من طرف المترجم حيث يقول فيها: «إذا أردت أن تتعرف من كان محمد المحارب للمسيحية وهو من أحب أتباع الشيطان اقرأ بتمعن هذا التقديم أو الدباجة والتي تلخص محتوى الكتاب، وما يتعلق بأصل محمد والطريق التي اتخذتها، حياته، عقيدته "الوسخة" "المجرمة" وحتى القصص التي اخترعها هو وأتباعه – يقصد هنا الخلفاء الراشدين– المجانين.

---

(1) Moreri, Louis: **Le grand dictionnaire historique**, Girin et Rivière, Lyon, 1674, p96.

(2) نفسه، ص91.

(3) نفسه، ص53.

(4) نفسه، ص ص46-47.

(5) Dominique Carnoy: **Représentation de l'Islam dans la France…**, op.cit, p24.

(6) T. Viliano: Le coran des latins, un impossible décentrement? les deux cas exemplaire de Robert de Ketton et Jean de Segovie, in RHR N°78, Juin 2014, p138.

(7) Marie-Thèrèse d'Alverny: **Deux traduction latines du coran au moyen âge**, vol 22-23, Paris, pp77.

(8) Si tu veux savoir qui fut Mahomet, le plus grand précurseur de l'Antéchrist et le disciple favori du diable, lis avec attention ce prologue, qui résume tous ce que contient son livre, qu'il s'agisse de sa propre origine, des plus infâme et tarées de sa vie ou de sa doctrine impur et criminelle, ou même des fables inventées par lui-même et ses secteurs, remplies de délives ridicules.

أنظر: Dominique Carnoy, op.cit, p24.

إذا تمعنا في هذه الملاحظة وحاولنا دراسة ألفاظها والتي انتقاها الكاتب، والذي هو رجل دين من الدير البندكتي[1]، نلاحظ أن هذه الأفكار مشحونة بالحقد والعداء نحو الإسلام، حيث يصف منذ البداية هذا الدين بالهرطقة، فيظهر الرفض الكلي لهذه الديانة، ثم يصف الديانة بأعمال شيطانية، ويستعمل لفظ الشيطان، حتى يتأكد من إبعاد القارئ من البداية عن العقيدة، لأن بسيكولوجيا كلمة شيطان تضع حدًّا بين القارئ وما سيقرؤه أي هو رفض مسبق أو مفتعل من طرف الكاتب، لأن الشيطان بالنسبة للعقيدتين المسيحية وحتى عند المسلمين هو مرادف لجهنم، ثم يقوم بالتهجم بالكلام على عقيدة محمد، يستعمل ألفاظ معينة، الوسخ، الإجرام، الوهم، أي كل ما جاء به محمد اختراع من خياله ووهم هو وأصحابه حتى يلقى اللبس في ذهن القارئ، ومن هنا أهم ما يمكن استنتاجه هو الكراهية والعداء للإسلام.

وجاءت بعده في القرن 13م، ترجمة أخرى للقرآن بأسلوب أكثر أدبي، وبنوع من الموضوعية، لم تكن لهذه الترجمة وقع أو صدى على نفوس المسيحيين وخاصة عند رجال اللاهوت والدين والفلاسفة، بل ورفضت، بل كانوا يعتمدون نسخة أو ترجمة كلوني[2]، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أن غاية العلماء المسيحيين لم يكن رفع اللبس عن هذه الديانة الجديدة والتعرف عليها وجعلها متداولة بين الناس من أجل المقارنة الحرة بين الديانتين، وإنما من أجل إعطاء نظرة معينة ورسم صورة للإسلام والمسلمين من أجل نشرها وترويجها على هذا الدين ورسوله، فكلما كانت الترجمة للقرآن غير مخلصة كلما اعتمدت وانتشرت وتصبح تخدم أهدافهم وهي إظهار صورة السيئة للآخر.

ومن خلال هذا التقرب من المجتمع المسلم الذي كان غريبًا، عن طريق كل الأفكار التي كتبت وصلت إلى الغرب المسيحي، إلاّ أنها لم تكن كافية، بل أصبح من الضروري التقرب أكثر منهم، وبما أن الكنيسة ورجال الدين هم المحركين لهذا العداء والكره للإسلام والذي سينتج عنه عدة أشياء من بينها الحروب الصليبية، فكان أول من كتب عن الإسلام هم رجال الدين، فكان منبت الاستشراق هو الكنيسة، ورجال الدين الذين اهتموا بالشرق والإسلام واللغة العربية[3]، فمنها تيقنت الكنيسة أن أول خطوة للوصول لهذا الشرق

---

(1) Marie-Thèrèse d'Alverny: **Deux traduction latines du coran au moyen âge**, op.cit, p78.

(2) Simon Jargy: **Islam et Chrétienté**, op.cit, p128.

(3) طلال العترسي: **البعثات اليسوعية...**، مرجع سابق، ص35 .

وإمكانية محاربته والاستيلاء عليه، هو المعرفة المعمقة له، ولعل أول خطوة هو اللغة العربية، وأصبحت حركة الترجمة تمثل حلقة أساسية ومهمة في احتكاك الغرب المسيحيي بالعرب المسلمين وعلومهم وأدبياتهم ومجتمعاتهم، ودينهم وعقيدتهم[1]، خاصة أن كل العلماء الذين يحسنون اللغة العربية ودرسوا على مصادرها كان لهم اطلاع واسع للأوضاع وشرح وتحليل أحسن لكل ما يأتي من عند المسلمين، وكان الدومينيكان أول دير صاحب مبادرة وضع مدارس للغات les studia lingurum، وأقدمها على الأقل كانت في تونس في 1242م[2]، تحت تسيير ريموند دي بينافور (Reymont de Penafort)[3]، كما تأسس مركز للدراسات الشرقية في كل البلدان المتصلة بالمسيحية بعد القرار الذي اتخذ خلال مجمع فيينا الكنسي في 1312م بإنشاء عدة كراسي لدراسة اللغة العربية في أهم الجامعات الأوربية: باريس، أكسفورد، بولونيا، إيطاليا، سلمنك بإسبانيا، إضافة للجامعة البابوية، وكل هذه الكراسي كانت إما على نفقة الفاتيكان بالنسبة لإيطاليا، وبالنسبة لفرنسا وإنجلترا كانت على نفقة الملك[4]، ونلاحظ اهتمام الحكومة والسياسة باللغة العربية وضرورة تعلمها، وستمثل الأندلس أهم مناطق التبادل الفكري، ويمكن اعتبار قرار فيينا الكنسي كبداية للدراسات الفعلية الاستشراقية. فتيقنوا أنه يجب ضرب الأفكار والقلوب والعادات والتقاليد، ولذا وجب الدخول إلى هذا المجتمع عن طريق الاطلاع على أدبياته وعاداته وتقاليده، فجنّدوا لأجل ذلك أموال كبيرة لضرب هذا الوازع الديني الذي يحرك أي مسلم في أي قطر من أقطار العالم، بمجرد الاعتداء على مسلم في عقيدته أو دينه أو حتى في شخصه، فقرّروا البحث في الثغرات أو نقاط ضعف العالم الإسلامي، ولن يكون لهم ذلك إلا بعمل المستشرقين والباحثين في هذا المجال[5].

ويقول ريلاند: «إن من الأجدر أن يسعى المرء للتعرف على الإسلام في حقيقته لكي يحاربه بطريقة أكثر أمانًا وأشدّ قوة»[6].

---

(1) أحمد الشامي: **تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في القرون الوسطى**، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1962، ص67-70.

(2) جون غانم: **الاستشراق والعصور الوسطى**، ترجمة عبلة عودة، هيئة أبو ظبي للثقافة والسياحة، ص ص120.

(3) Gilson Etienne: **La philosophie au Moyen âge**, op.cit, p107

(4) Ibid., p109.

(5) محمود حمدي زقزوق: **الاستشراق والخلفية الفكرية...**، مرجع سابق، ص ص22-27.

(6) نفسه.

ومن هنا انطلقت الحملة الصليبية الجديدة وهذه المرة علمية فكرية، وهذا ما أجبر الغرب على الاهتمام باللغة العربية واللغات القديمة، ولعل الرائد في هذا المجال هو المستشرق رموند لول (Raymond Lull) (1235م – 1315م)[1] ، والذي وصفه صموئيل زومير[2] بأنه أول منصر عند المسلمين، وصفه روبير سبير (Robert E. Speer)[3] بأنه أشهر منصر ارتحل إلى العالم الإسلامي وهو من أبرز شخصيات الكنيسة الكاثوليكية خلال القرن 13م، وذلك لأنه اعتبره مسيحيا بروح عصرية، يوجين ستوك (Eugene Stok)[4] سكرتير مجمع الكنيسة البروتستانتية، أنه لا يوجد شخصية بارزة أكثر بطولية في التاريخ الكنسي من ريموند لول، وهو من أهم المنصرين لدى المسلمين، ويقول زومير إنه رائده الأول وهو من مهد له الطريق، ويجب أن يكون قدوة لكل المنصرين، وأحسن شكر له هو تحويل العالم الإسلامي إلى النصرانية[5].

يعتبر لول مستشرق ومنصر بارز لأنه نشط على ساحتين، وذلك أن المجالين مرتبطين، أي أن الاستشراق والتنصير وجهان لعملة واحدة[6].

وابتداءً من 1263م، تصور له عيسى عليه السلام (حسب زعمه) ثلاث مرات يدعوه للالتحاق بالمسيحية، وبالفعل تنصّر وقضى خمسين عامًا في خدمته، انظم إلى الدومينيكان ولكنه غادر الجماعة نظرًا لصرامة نظامهم، وانظم للفرنسيسكان، أين قضى عشر سنوات في قراءة الفلسفة والعلوم وتعلّم اللغة العربية من أسير مسلم، عاصر خلال حياته الحروب الصليبية، فشهد انتصارات الظاهر بيبرس في الشام وغيرهم من الانتصارات، إلى آخر

---

(1) ريموند لول (Reymond Lulle) (1233م – 1316م) متخصص في علم اللاهوت، كان عصامي، فيلسوف، متصوف.

(2) صامويل مارينوس زومير (Samuel Marius Zwemer) ولد في الولايات المتحدة الأمريكية في 12 أفريل 1867م وتوفي في 2 أفريل 1952م، ويلقب بالرسول إلى الإسلام، وهو منصر ورحالة، وباحث أمريكي وهو رئيس إرسالية التبشير العربية في العالم الإسلامي (البحرين)، ورئيس جمعية التنصير في الشرق الأوسط الميداني، إدارة مجلة العالم الإسلامي وخوافيها، للمزيد انظر: عبد الرحمان حنبكة: **أجنحة المكر الثلاث وخوافيها، التبشير، الاستعمار، الاستشراق، وموقفها من الإسلام والمسلمين**، ط2، دار العلم، دمشق، 1980م، ص35.

(3) روبيرسبير (Robert E. Speer) (1867م – 1947م) بالولايات المتحدة الأمريكية، للمزيد انظر: نفس المرجع السابق، ص36.

(4) منصر أمريكي، انظر: نفس المرجع السابق، ص38.

(5) نفسه.

(6) طلال العترسي: **البعثات اليسوعية...**، مرجع سابق، ص65 .

انتصار للمسلمين في مدينة عكا في 1291م، والتي اعتبرها كارثة حلت بالعالم النصراني، من هنا جاءت دعوته بوجوب استرجاع الأراضي المقدسة وتنصير المسلمين[1].

تنقل لول بين المراكز الفكرية في أوروبا، أين درس وحاضر وناقش علماء اللاهوت عن شؤون الأمم الأخرى، كما شارك في العديد من المجامع الكنسية، كما تنقل إلى الشرق وشمال إفريقيا، داعيًا إلى النصرانية[2]. ويعتبر أول من تولّى التنصير بالمسيحية بعد أن أدرك أنه حان الوقت لإخضاع المسلمين عن طريق التنصير، ليتمكن من القضاء على هذا الحاجز الذي يقف في وجه النصرانية، ريموند لول من الأوائل الذين تفطنوا أنه لا جدوى لاستعمال السلاح من أجل التنصير، وحل الصراع بين الشرق والغرب، بل يجب استمالة المسلمين عن طريق الإقناع والتعليم، ومن بين ما حث عليه هو ضرورة توحيد منظمات الفرسان (الجماعات العسكرية، الاسبتارية (Les Hospitaliers)، والداوية، والتيوثون) حتى يكون لدى الكنيسة جيش من الفرسان[3].

انتقل إلى نابولي لمقابلة البابا كلستين الخامس في 1294م وعرض عليه مشروعه التنصيري، وطلب منه أن يتبناه كسياسة تنصيرية تحت رعاية الكنيسة، وأول ما حاول إقناعه به هو تنصير التتار حتى لا يتم استمالتهم من طرف المسلمين، ويصبحون يشكلون خطرًا على النصارى، كما طلب منه التحضير لحرب صليبية كبيرة ليس للأراضي المقدّسة فحسب، بل كل الأقطار الإسلامية، غير أن البابا كليسين الخامس تخلّى على كرسي البابوية[4]، واعتلى بعده الكرسي البابا بونيفيس الثامن (1294م – 133م)، يمكن اعتبار ريموند لول أبو التنصير والمنصرين، وهو من أخطرهم وأشهرهم على الإطلاق، فعمل على وضع نظام تنصيري منسق تحت رعاية الكنيسة، ويُعَدُّ برنامجه وخططه للتنصير هي نموذج ودستور سار ويسر عليه المنصرون إلى يومنا هذا[5].

---

(1) علي بن محمد عودة الغامدي: **الراهب الفرنسيسكاني ريموند لولو محاولاته نشر النصرانية في شمال إفريقيا**، مجلة المؤرخ العربي، المجلد 1، العدد 6، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، مارس 1998، ص5.

(2) ستيفن ريسنمان: **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة البدعريني، دار الثقافة، بيروت، ص33.

(3) علي بن محمد العواجي: **جهاد المسلمين ضد الصليبيين في المغربين الأدنى والأوسط في القرن 8ه/14م**، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1990م، ص.....

(4) Jacques le Goff: **Les intellectuels au moyen âge**, éd., le Seuil, Paris, 1962, p107.

(5) محمود عبد الرحمان: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص ص43-45.

كان لريموند لول مؤلفات باللغة العربية، والتي درسها وقرأ القرآن من أجل البحث عن طرق لإقناع المسلمين بضرورة الالتحاق بالمسيحية سلميًا، ولا يمكن أن نجزم أنه أول من اتجه على هذا المسار ولكنه أول من وضع له منهاجًا وخططًا، ويمكن تلخيص منهاجه في ثلاث نقاط حاول إقناع البابا بونيفيس الثامن بها عندما اعتلى كرسي البابوية، وتحجّج بعدد المسلمين الذي يفوق عدد النصارى والذي هو في تزايد مستمر، ولهذا وجب على النصارى الاستيلاء على مناطقهم ولن يتحقق ذلك إلا بتطبيق النقاط الثلاث وهي[1]:

1- على كل شخص يهتم أو ينظم للإرساليات التنصيرية أن يدرس اللغات الشرقية، من أجل تكوينه العلمي، وبعدها يجب أن يكون متمكن من لهجة المجتمع الذي سيتعامل معه إن وجدت، وذلك ليتمكن من إيصال أفكاره ومبادئ المسيحية، وتطبيق برنامجه التنصيري، ولهذا كان وراء طلب تدريس اللغات الشرقية في الجامعات الأوروبية، وعمل على إقناع الباباوات والملوك، الأمر الذي لم يكن سهلاً، ولم يتمكن من الحصول على قبول تأسيس جامعة لتعليم اللغات الشرقية حتى سنة 1274م من طرف ملك إسبانيا، ولكن لا يوجد وثائق تبرهن ذلك، وهل فعلا أنشأت هذه الجامعة، ومن هم الطلبة المتخرجون منها، ليحصل فيما بعد بمجمع فيينا في 1311م على قرار إنشاء كراسي للغة العربية.

كما حث على حتمية دراسة كل اللغات الشرقية، العبرية والسريانية والإغريقية، واقترح للمجلس دعوة المثقفين من كل أنحاء العالم للالتحاق بهذه الجامعات حتى يكون هناك التقاء دون أية محاولة للتمسيح وكانت غايته من ذلك:

- التبادل بالاحتكاك معهم.
- إيصال المسيحية ولكن بطريقة غير مباشرة.

2- من مخططاته تأليف كتب تشرح وتوضح حقيقة الدين المسيحي والتأكيد على الحجج، وذلك لأنه التقى بالعديد من العلماء المسلمين، من خلال العديد من المناظرات، ولاحظ ما كانوا يملكون من مناهج الكلام، ما كان يسمى بعلم الكلام، كما لاحظ أن في البلاد الإسلامية هناك توحيد في التدريس، في إحدى رحلاته رأى مفتي تونس يتحدّى المنصرين ويدعوهم إلى مناظرته، وقال لِلول: إذا كنت متيقنا أن المسيحية أصح من الإسلام فأيّد

(1) علي بن محمد العواجي: **جهاد المسلمين ضد الصليبيين...**، مرجع سابق، ص ص25-28.

رأيك بأدلة وحجج، ولم يستطع أحد التقدم لمناظرة مفتي تونس الكبير، لنقص تكوينهم، ما دفع بلول إلى التفكير في كتاب للحجج.

3- أما الفكرة الثالثة لم تكن متعلقة بالعلم أو الأفكار، وإنما تتعلق بالشخصية التي يجب أن تتوفر في المنصر أيًا كان، يجب أن يكون جريئًا، شجاعًا، أن يعلن إيمانه وعقيدته أمام المسلمين دون خوف، حتى لو كلفه ذلك حياته[1].

إن ريمون لول كان له قناعة أن العالم سيتحول كله إلى المسيحية، ولكن لن يحدث ذلك إلا عن طريق التضحيات الكبيرة، حيث يذكر في مذكراته: «إن الإرساليات ستحول العالم كله إلى المسيحية ولكن لن يتم إلا عن طريق الدموع، وإراقة الدماء، وجهود كبيرة وكذلك من خلال الموت المرير...»[2].

ومن ثم بدأ رحلته التنصيرية في 1296م، انتقل إلى تونس واثقًا أن بإمكانه تنصير المنطقة، أين قابل مفتى تونس ابن عمار ودخل معه في عدة مناظرات، والتي فشل في البرهنة على صحة عقيدته، ودونت هذه المناظرات في مذكراته ونشرت بعد وفاته بعنوان "المجادلة الدينية بين ريموند لول وابن عمار"[3] وكانت مناقشته عبارة عن تهجم على الإسلام والمسلمين وشخص الرسول، وتحرك التونسيون لأقوال هذا المنصر، فحوكم وأصدر عليه حكم بالإعدام وتخوفًا من سوء العلاقة السياسية بين تونس والسلطان الحفصي طرده إلى بلده وهنا قابله سكان المنطقة بالرمي بالحجارة[4].

وفي 1299م رحل إلى الشام، لمقابلة خان غازان المغولي والذي اعتنق الإسلام وانسحب من المنطقة، ثم انتقل إلى قبرص في 1299م وحاول تنصير المسلمين هناك، وطلب من الملك هنري II مساعدته في مهمته، وكان الملك قد استلم رسالة من طرف شيخ الإسلام ابن تيمية وهي الرسالة المعروفة بالرسالة القبرصية، أين شرح فيها عقيدة الإسلام[5].

---

(1) علي بن محمد عودة الغامدي: **الراهب الفرنسيسكاني**، مرجع سابق، ص31.

(2) Remond Lulle: **Le livre du gentil et des trois sages**, traduit par Armand Linarès, éd., Cerf, Paris 1993, p203.

(3) علي بن محمد عودة الغامدي: المرجع السابق، ص31.

(4) علي بن محمد العواجي: **جهاد المسلمين ضد الصليبيين...**، مرجع سابق، ص34.

(5) علي بن محمد عودة الغامدي: المرجع السابق، ص73.

ولما اطّلع عليها لول، وكان آنذاك يجمع مادته للكتاب، فردّ عليه بإرسال إليه كتاب كتبه أحد علماء اللاهوت الكنيسة الشرقية ويدعى بولس الراهب أسقف صيدا الأنطاكي، وكان رد شيخ الإسلام بكتابه "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح"[(1)].

ومن الواضح أن هذه النصوص للراهب الأنطاكي وضعت من أجل تشكيك المسلمين في عقيدتهم، وإثبات صحة دين النصارى، وهي الطريقة التي سار عليها ريموند لول.

وبسبب مواجهة النخبة والطبقة العلمية الموجودة في الشرق لكل أفكار التنصير والفتن، جعلت رحلة ريموند لول فاشلة، وبمجرد عودته إلى أوروبا، شرع في تأليف كتابه "النهاية" والذي وضع فيه آخر ما توصل إليه، من خلال رحلاته، ويتكون الكتاب من فصل تمهيدي وثلاث أبواب، وضع فيها لول خططه وبرنامجه لتنصير المسلمين، وتحويلهم عن دينهم وتدمير عقيدتهم[(2)]، وبدأ بطلب المساعدة من كل النصارى، وكذلك تعلم اللغة العربية للرهبان المنصرين، حيث تمكن هو من إتقانها، فتحدثها بطلاقة، وترجمت منها، وترجمت حتى بعض مؤلفاته للعربية، حيث تمكن من إقناع ملوك الأراجون بإنشاء مدرسة ميرامار لتعليم اللغة العربية وغيرها من اللغات القديمة، وكان ذلك في مايورقة في 1276م، والتي يمكن اعتبارها أول مدرسة للغرب الأوروبي لدراسة اللغة العربية، واستطاع الحصول من البابوية على الموافقة لإنشاء مدرسة أخرى بروما[(3)].

---

(1) وقد صرّح شيخ الإسلام أن سبب تأليفه للكتاب أنه تحصل على كتاب من قبرص، فيه الاحتجاج لدين النصارى لما يحتج به علماء دينهم، وفضلاء ملتهم قديمًا وحديثًا ومن الحجج السمعية والعقلية واقتضى ذلك أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب وبيان الخطأ من الصواب، لينتفع أولوا الألباب ويظهر ما بعث الله به من الميزان والكتاب، وأنا أذكر ما ذكره بألفاظهم بأعيانها فصلاً، فصلاً، وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعاً وأصلاً، وعقداً وحلاً وما ذكروه في هذا الكتاب هو عمدتهم التي يعتمد عليها علماؤهم في مثل هذا الزمان وقبل هذا الزمان وإذ كان قد يزيد بعضهم على بعض حسب الأحوال. للمزيد انظر: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، حققه علي بن حسن بن ناصر، دار العاصمة للنشر، القاهرة، 1999، ج1، ص5، بداية الكتاب.

(2) بدأ هذا الكتاب بالرثاء على حالة النصارى وقلتهم وكثرة المسلمين والأقاليم الإسلامية، وتوسع المسلمين على الأراضي المسيحية، واغتصاب الأراضي المقدسة، والتي تحق لهم، ونادى البابوات والكرادلة والملوك إلى مساعدته على تطبيق برنامجه من أجل جلب الأمم إلى النصرانية. للمزيد انظر: علي بن محمد عودة الغامدي: **الراهب الفرنسيسكاني**، مرجع سابق، ص75.

(3) محمد محمود الصياد: **أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970، ص103.

ونجد في كتابه الأخير النهاية فصلاً كاملاً أسماه "محاجاة الكفار" وهنا يقصد بالكفار المسلمين طبعًا[1].

كما دعي لإنشاء أربعة أديرة لتعليم اللغة العربية، وذلك من أجل تكوين المنصرين، حتى يتمكن المنصر من مجادلة الشعوب الإسلامية، كما حث ريموند لول بالعمل بالسيفين أو السلاحين، التنصير والحرب بالتوازي ضد المسلمين، حيث أن كل حملة عسكرية ضد المسلمين توفر السعادة الجسدية للمسيح، بينما عمل المنصرين تعطيه السعادة الروحية[2].

وفي الجزء الثاني من كتاب النهاية، والذي كان عنوانه "طريقة الحرب" عرض لول من خلاله خططه الحربية لإنجاح الحملة الصليبية المصحوبة بجيش المنصرين ودعا من خلاله أن يكون قائد الحملة التنصيرية منتخبًا من طرف البابا والكرادلة[3].

نلاحظ هنا الشرعية الكنسية للحملة، أي إعطائها الصفة الرسمية باختيار القائد من طرف البابا، كما طالب بتوحيد كل منظمات الرهبان الدينية والحربية[4]، ومن هنا نرى جمع المؤسسة الكنسية بين الجانب الروحي والدنيوي، كما طالب كذلك بتخصيص عشر مدخول الكنيسة من أجل تجهيز الجيش ومساعدة الرهبان المنصرين في بلاد المسلمين، وشرح كذلك رؤيته في طريقة تنظيم الجيش، وكمية المؤونة الغذائية اللازمة والمؤونة الحربية، والتعليمات التي يجب أن يلتزم بها المنصرون المرافقون للجيش، فأعطى خمسة طرق يرى فيها سهولة للوصول إلى الأراضي المقدسة وشن حرب على العالم الإسلامي[5]، وربما التمكن من تحويل المسلمين إلى النصرانية عن طريق المنصرين الذين يرافقون الجيش وهي:

1- عبر أراضي اليونانية (البيزنطية) وتركيا وأرمينية الصغرى ومن ثم إلى بلاد الشام، ولكن هذا الطريق طويل ومكلف ماديًا وخطير.

---

(1) علي بن محمد عودة الغامدي: **الراهب الفرنسيسكاني**، مرجع سابق، ص71.

(2) نفسه، ص73.

(3) عبد الجليل شلبي: **الإرساليات التبشيرية، كتاب يبحث في نشأة التبشير وتطوره، وأشهر الإرساليات التبشيرية**، دار المعارف، الإسكندرية، ص152.

(4) نفسه، ص153.

(5) علي بن محمد عودة الغامدي: المرجع السابق، ص73.

2- عن طريق جزيرة رشيد الواقعة شرقي الإسكندرية وهي مرفأ أمين للسفن ويمكن للفرسان انتزاعها بسهولة واتخاذها قاعدة للانطلاق إلى البر وشن الهجوم ويرى أن هذا الطريق طويل ومكلف كذلك.

3- الطريق البحري إلى قبرص ثم أرمينية الصغرى وهذا الطريق كذلك طويل ويتطلب مقاتلين في البر والبحر، إضافة إلى أن هذه البلاد لا تملك وسائل كافية لتزويد الجيش والأسطول بالمؤونة.

4- عن طريق تونس والذي كان قد اختاره لويس التاسع وفشل.

5- والذي يعتبره الأنجح للقتال بالنسبة للصليبيين ويمكن أن يحققوا من خلاله أفضل النتائج في محاربة المسلمين، ويبدأ بطرد المسلمين من الأندلس ثم العبور عبر مضيق جبل طارق إلى شمال إفريقيا، ويشرح مميزات الطريق، فغرناطة لها موقع فريد يسهل السيطرة عليها، فهي مطوقة بمياه البحر وبمملكتي قشتالة والأراجون، فيصعب على المسلمين تقديم المساعدة لهم، أضف إلى ذلك الأندلس منطقة خصبة ولديها وفرة من الخيول وكل ذلك سيكون في متناول الصليبيين، حتى يتمكنوا من إسقاط أو الاستيلاء على هذه القلعات الواحدة تلو الأخرى، وعندما تصبح الأندلس في يد الصليبيين، سيتمكنون من العبور نحو شمال إفريقيا عبر مضيق جبل طارق لضرب البربر في عقر دارهم، وأنه يجب على الصليبيين أن يبدأوا بسبتة ثم التحرك تدريجيًا عبر الساحل باتجاه تونس وبإمكانهم في نفس الوقت اتخاذ الجزيرتين مالطا ورودس قاعدتين لمساعدة الحملة لاسترجاع الأراضي المقدسة، والاستيلاء على مصر[1].

ومن هنا نلاحظ مدى أهمية منطقة شمال إفريقيا بالنسبة للغرب المسيحي من أجل السيطرة على مناطق العالم الإسلامي، إذ يعتبره بوابة الوطن الإسلامي، ولهذا السبب كان وما زال محطة أنظار كل الغرب المسيحي.

وفي الجزء الرابع من كتابه يقدم 12 نقطة يمكن الاعتماد عليها في التخطيط العسكري، وأنه حسب رأيه لو طبقها النصارى لتفوقوا على المسلمين، وأهمها هي:

- يجب على ملوك الغرب تقديم الإمدادات للجيش.
- يجب على القوى العسكرية المتمركزة على حدود المناطق الإسلامية أن تكون على استعداد للتحرك السريع.

---

(1) علي بن محمد عودة الغامدي: **الراهب الفرنسيسكاني**، مرجع سابق، ص73.

- أن يقوم القادة العسكريين بقطع كل أمل في أية نجدة قادمة للمسلمين من وراء البحر.
- ضرورة تفوق النصارى بآلات الحرب (ويعني بها في ذلك الوقت السهام والسيوف)[1].

كما ألح ريموند لول من خلال هذه النقاط على فكرة أنه ما يجعل المسلمين متفوقين هو نظامهم القتالي والذي ينفذه بصرامة، وامتلاك القوس الشركي، كما استعملوا الكمائن، وفن الالتفافات في حروبهم حول عدوهم، هي الطرق التي برع فيها المسلمون منذ الحروب الصليبية[2].

من خلال هذه النقاط نلاحظ حنكته السياسية والعسكرية، ومعرفته الدقيقة للمسلمين وتكوينهم العسكري، ولا شك أنه اكتسبه من خلال حركاته المتعددة حول العالم واحتكاكه بالأقوام.

كذلك من خلال خططه نلاحظ أنها حتى وإن لم تثمر خلال عهده إلا أنها إذا درسنا الحملات الاستعمارية التي شهدها العالم خلال القرن 19م كلها وكأنها اطلعت وطبقت كل ما وجد في خططه، فمثلاً التفوق العسكري، نلاحظ اهتمام الغرب المسيحي بالعتاد العسكري اهتمام كبير حتى حققوا تفوقهم، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على أن فكرة الاستيلاء على العالم العربي كمقاطعة قائمة كانت قيد التطبيق، أما بالنسبة للجيش الروحي أي المنصرين فيجب أن يتوفر لديهم، رهبان لديهم مهارة فائقة وقدرة إقناع ويكون من بينهم رجال مطلعين على القانون والطب والجراحة حتى يتمكنوا من القيام بمتطلبات الرهبان، والاهتمام بالمرضى والجرحى، كما يجب على المنصرين أن يكون لهم معرفة ودراية كاملة للغة العربية، ودراسة رسالة المسيح للكندي، حتى يتمكنوا من القيام بمناظرات مع الأسرى الذين إذا تنصروا يرجعون إلى أوطانهم ويقومون هم بدور التنصير لأهلها[3].

لم تتحقق خطط وبرامج ريموند لول خلال تلك المرحلة، ذلك أن كانت أوروبا والكنيسة تمر بعدة أزمات ومشاكل من أهمها ربما - الإسر البابلي - وفي 1307م بعد رحلته الأولى بخمسة عشر سنة أبحر ريموند لول للمرة الثانية إلى شمال إفريقيا والتي كانت تعتبر حسب خططه البوابة إلى المناطق المقدسة، وكان هدفه مواصلة أعماله

(1) علي بن محمد العواجي: **جهاد المسلمين ضد الصليبيين...**، مرجع سابق، ص31.

(2) سعيد عبد الفتاح عشور: **بحوث في تاريخ الإسلام وحضاراته**، القاهرة، 1987م، ص83.

(3) محمود عبد الرحمان: **التنصير والاستغلال السياسي**، دار النفائس، لبنان، 2009، ص53.

التنصيرية[1]، فبمجرد وصوله إلى بجاية اتصل بالعلماء المسلمين والذين وافقوا على مناقشته، وعقدت جلسة، ودار النقاش باللغة العربية، وانتهى النقاش بسخط أهل بجاية، والذين حضروا النقاش، وذلك بسبب تعصب لول وتهجمه على عقيدة الإسلام، والنبي، وإصراره على مواقفه، ومن أجل حمايته من سخط الجماهير، وضعه السلطان في السجن أين عومل معاملة طيبة، حتى أنه تمكن من القيام بمناظرات من بينها مع عالم يدعى عمر وعند خروجه طرد إلى بلاده وفي الطريق غرقت السفينة لكنه نجا بأعجوبة، ولكن فقد كل حاجته[2].

عند عودته، وبناءً على مناظراته قام بتنقيح عمله أين ذكر أن اليهودية ديانة طيبة وهي أصل المسيحية، إلا أن المسيحية أكمل وأعم، وتهجم على الإسلام والرسول وحاول وضع حلول التي رآها مناسبة من أجل التطويق على الإسلام وتدمير عقيدته[3].

- ضرورة وضع مدارس للغة العربية تهتم بأعمال التنصير.
- ضرورة توحيد سائر المنظمات الدينية والحربية للعمل وفق خطة مشتركة.
- ضرورة تخصيص أموال الكنيسة لتطبيق هذه الخطط.

كما أضاف أن جيمس الثاني ملك الأراجون وضع أمواله وأراضيه في يد الكنيسة لمحاربة المسلمين، وأرسل لول إلى كل ملوك أوروبا لمساعدة الكنيسة لمحاربة المسلمين ووضع هذا المشروع قيد التنفيذ، وحضر لول جلسات مجمع فيينا الذي انعقد في 1311م حيث جدد دعوته لنجاح هذا المشروع هو إنشاء كراسي لتعليم اللغة العربية، وهنا ظهرت البوادر الأولى للاستشراق والتي بدأت بين أحضان الكنيسة[4].

ليختم حياته بزيارته الثالثة إلى شمال إفريقيا، رغم فشل الزيارتين الأولى والثانية، وكان حاملاً معه رسالة من ملك الأراجون، ليضمن قبول السلطان التونسي الحفصي ابن اللحيان (1311 – 1317م)[5]، والذي سمح لريموند العيش في تونس شرط أن لا يجهر

---

(1) علي بن محمد عودة الغامدي: **الراهب الفرنسيسكاني**، مرجع سابق، ص83.

(2) نفسه، ص82.

(3) Jacque le Goff: **les intellectuels**, op.cit, p54.

(4) Alain de Ribera: **Penser au moyen-âge**, le Seuil, Paris, 1991, pp63-66.

(5) أبو يحيا زكرياء بن اللحياني تولى الحكم من (1311 – 1317م). للمزيد انظر: محمد لعروسي المطوي: **السلطة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي.**

بعمله التنصيري وأن لا يثير أو يمس مشاعر المسلمين لكن، لول بمجرد وصوله بدأ يدعوا إلى النصرانية، ثم اتجه إلى بجاية في الجزائر، أين سبق له أن أثار شعور المسلمين هناك، فاكتشف سكان المنطقة أمره، فرجموه بالحجارة على الساحل وكان ذلك في 21 جويلية 1315م، وحمله تاجران جنوبيان وهو يتلفظ أنفاسه الأخيرة، فحملا الجثة وأبحرا بها إلى بالما، أين دفن في جزيرة مايورقة عن عمر يناهز ثمانين سنة[1].

ومن خلال ما سبق ربما سؤال يتبادر إلى أذهاننا لماذا ركز "لول" على منطقة شمال إفريقيا، جهوده التنصيرية دون غيرها من بلدان العالم الإسلامي، فمن خلال كتابه النهاية والخطط التي اقترحها يتضح لنا أهمية إقليم شمال إفريقيا حسب نظره وذلك بسبب قربه من الغرب الأوروبي، وأنه يعتبر بوابه نحو المناطق المقدسة، ستتمكن أوروبا من استرجاع أراضي الإمبراطورية الرومانية القديمة، وتصبح المنطقة قاعدة أمامية للزحف نحو دولة المماليك، واسترجاع الأراضي المقدسة والتي تعتبر هدف كل المنصرين، ابتداءً من ريموند لول، وكذا التحالف مع التتار والقضاء على الإسلام نهائيًا، لهذا السبب اهتم ريموند لول بشمال إفريقيا بعد الأندلس.

ألف ريموند لول العديد من الكتب والرسائل التي وصلت عددها إلى 4000 عمل، لكن معظمها قد ضاع، كتب لول في عدة لغات، اللاتينية، والقاطلونية، والعربية، وأن 1000 منها كان موجودًا في القرن 15م ولم يكن معروف منها سوى 686 عمل، وجمع منها 45 في مجلدات ومن بين كتبه كتاب "الرد على اليهود" ولكن هذا الكتاب لم يكتف بالرد على اليهود بل رد على المسلمين كذلك، ومن بين فصوله الفصل السادس أين يناقش عقيدة التوحيد عند المسلمين والتي هي عبارة عن عدة افتراءات فلسفية، ومستمدة من آراء يوحنا الدمشقي، وبولس الأنطاكي أسقف صيدا، محاولاً أن يثبت من خلالها أن العقيدة النصرانية هي الصحيحة[2].

ومن كتبه كذلك "الطيب والعلماء الثلاث" أين حاول أن يعرض وجهة نظره في الديانات الثلاث المسيحية واليهودية والإسلام، إن الخطط التي وضعها ريموند لول لتنصير المسلمين أصبحت هي المناهج والدستور الذي سار عليه المنصرون بعده، عن طريق التعليم، والأعمال الإنسانية، كالمستشفيات والمؤسسات الخيرية بأنواعها.

---

(1) علي بن محمد عودة الغامدي: **الراهب الفرنسيسكاني**، مرجع سابق، ص...

(2) Remand Lulle: **le livre du gentil et les trois sages**, traduit par Armand Linarès, éd., Cerf, Paris, 1993.

رغم أن هذه البرامج والخطط لم تثمر في عهد ريموند لول، إلاّ أنه سارت عليها جميع الإرساليات والمنصرين، ابتداءً من القرون التي تلت وجوده.

3– صورة الإسلام والمسلم في الكتابات الكنسية الحديثة:

إن النهضة التي شهدتها أوروبا المسيحية والتي جاءت بعد احتكاك وتبادل طويل مع الحضارة الإسلامية العربية، تزامنت مع عودة الصراع السياسي العسكري بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي بعد نهاية الحروب الصليبية، جاءت القوة العثمانية والتي وصلت امتداداتها إلى قلب أوروبا نفسها، والتي شهدت خطر جديد لسواحلها هي الجهاد البحري عند المسلمين.

قصة الأسرى المسيحيين الذين أجبروا على الإسلام، التي أثارت الصراع من جديد، وتخوفت المسيحية من جديد على عقيدتها وأمنها.

وبدأ رجال الدين واللاهوت المسيحيين يكتبون من أجل تحريك إيمان المسيحيين وحصر قوتهم ضد العدو، ولكن في هذه الفترة الوضع كان يختلف، لأن النهضة تختلف عن العصور الوسطى، حيث كان احتكاك بالمسلمين ومعرفة المسيحيين لهم ولعاداتهم وتقاليدهم وذلك عن طريق الاحتكاك والسفر، وبالتالي أصبحت كتابات المستشرقين الأوائل غير كافية.

وخلال القرن 16م ستأخذ الدراسات الإسلامية مسار جديد وفي ظل هذه المعرفة الجديدة للإسلام والمسلمين، هذا الاستشراق الذي يرتكز على الدراسات الإسلامية، حيث ستظهر ترجمة جديدة للقرآن من طرف تيودور باشمان (Theodore Buchman) المعروف ببيبلاندر (Bibliander)، وقد قام بهذه الترجمة ما بين (1530 – 1540م) إلى اللغة اللاتينية، وهذه الترجمة ستكون الانطلاقة في أوروبا للدراسات الاستشراقية والتي ترتكز على الدراسات والعلوم الإسلامية[1].

إذا حاولنا دراسة صورة الإسلام والمسلمين في العصور الحديثة قبل وصول العديد من الروايات للرحالة ونصوص العلماء، لتغيير نوعا ما، الطريقة لإيصال الصورة النمطية الذين يريدون رسمها في مخيلة الفرد المسيحي، للمسلم والمسلمين، سنكتفي بالكتب العامة والتي كانت في متناول الجميع.

(1) Michel Mourre (sir): **Dictionnaire encyclopédique d'histoire**, vol 8, T3, Bordas, Paris, 1986, p204.

وفي هذا المجال يوجد ثلاثة نصوص، يجب التطلع عليها ولكن قبلها من الضروري التطرق إلى المستشرق الإنساني ڤيوم بوستال (Guillaume Postel)[1]، والذي اهتم كثيرًا بالإسلام، ولكن كان ذلك من أجل هدف تغيير العالم، والتسامح الديني، حيث حاول استعمال الانشقاق الديني الذي كانت تعاني منه الكنيسة من أجل إدخال فيها، أي المسيحية، العقيدة الإسلامية، حيث قال: «... هذه المسيحية يجب أن تكون الوحيدة التي تملك الشرعية في العالم، من الجانب الروحي والزمني...» «... وأنه ليس من الشيء السهل، وذلك أن الإله جعل سبع أعشار سكان العالم مسيحيين...»[2].

رغم أن كتاباته كلها كانت لاتينية إلا أنه عن 150 كان له كتاب باللغة الفرنسية، بعنوان: "تاريخ ونظرة الأصول، أزياء وملابس التتار والفرس والعرب والأتراك وكل الإسماعيليين والمحمديين"[3].

ولقد كتب بالفرنسية لأنه يرى أنه حسب كل القوانين الإلهية والإنسانية يجب على القوى العالمية أن تضع قوتها بين أيدي أمراء بلاد الغال.

تميزت الفترة الجديدة بكثرة الكتابات والإصدارات اهتمت بإعطاء صورة محددة للإسلام والمسلمين والرسول (صلى الله عليه وسلم)، لا تبتعد كثيرا عن الأولى في الهدف والاستناد على النصوص الأولى لرجال الدين في العصور الوسطى، اخترت ربما ثلاثة من أهم هذه الكتب التي أظن أنها هي التي كانت لها التمثيل الصحيح لما أرادت تظهره من سوء في هذا الدين.

---

(1) قيوم بوشال (1510 – 1581م) كان أستاذ في اللغات القديمة في الكولاج الملكي وهو من دير اليسوعيين وكان يهدف إلى إصلاح الإنسانية تحت راية المسيحية وقابلته بعض الصعوبات مع محاكم التفتيش، فألقي عليه القبض ووضع في أحد الأديرة. للمزيد انظر: Michel Mourre، نفس المرجع السابق، ص310.

(2) « … La dite chrétienté doit être seul, et légitime princesse du monde, tant en spirituel comme en temporel... ».
«…Bute qui devrait pas être aisé, à atteindre car Dieu sans que nul y pense, à fait que des sept dixièmes du monde soient déjà à demi convertis, et quasi chrétien… ».

انظر كتاب:

Gaullaune, Postel coffio polite de la république des turc : par Enguibert de Marnefn M. D. LX, p33.

(3) Hisoire et considération de l’origine, costumes des Tatares, Persiens, Arabes, Turcs, et tous autre Ismailistes, ou Mouhamedique ou Sarrazins.

ونبدأ بالأب فرانسوا دان (François Dan)[1]، والذي كتب نصوص تحت عنوان: تاريخ البربر والقراصنة لإمارات أو مدن الجزائر، تونس، طرابلس، Histoire de la Barbarie et de ses corsaire des royaumes et des villes d’Alger, Tunis, Salé, et Tripoli، وبقي هذا الكتاب عبارة عن مخطوطات إلى غاية 1884م حيث قام هنري دو غرامو Henri de Grammont بطباعته[2].

هذا الكتاب عبارة عن نص ضخم والهدف من كتابته هو تعبئة الجماهير وإعطاء صورة معينة عن الإسلام، ونشر أفكار حوله وإعطاء نظرة مرعبة ومخيفة للمسيحيين الذين يتصفحون هذا الكتاب أو النصوص من 600 صفحة، والمطبوع حسب كاتبه بدموع الأسرى، والذي سيحولهم إلى مسلمين[3]، فيطلب من المسيحيين التصدق بأموالهم للكنيسة من أجل تحرير وشراء الأسرى، فأصبح للكنيسة مدخول مالي جديد، وإن الصورة التي وجدت على الغلاف توضع الرسالة التي أراد الكاتب إيصالها إلى القراء[4].

فهي تظهر بإتقان على يمين الصورة ثلاثة أشخاص بالزي العربي الإسلامي، ويتفاوضون مع ثلاثة رجال بالزي المسيحي الأوروبي وهم رجال دين على الأغلب نظرًا للباس الذي يرتدونه، حاملين للصليب وصناديق مملوءة بالأموال لتخليص هذه الجماعات من الأسرى التي نراها على يمين أحد العرب، وفي الخلف نرى رجلين من العرب المسلمين يضربون في الأسرى، وفي خلف الصورة نرى حرب بحرية بين أسطول بحري وسفينتين مسيحيتين، والتي اشتعلت فيها نيران.

وكأن هذه الصورة تلخص موضوع الكتاب الذي سيتم وصفه خلال 600 صفحة، وهناك تأثير كبير بالحروب الصليبية والقرصنة، المسلم هو العدو، ودور رجال الدين هو تخليص الأسرى المعذبون من أيدي هؤلاء الكفار "على حد تعبيرهم" مقابل أموال.

---

(1) مؤرخ ثالوثي، وهو راهب ولد في حوالي 1580م، متخرج من جامعة باريس في علم اللاهوت، ثم التحق بجماعة التثليث (Trinité)، واهتم بشراء الأسرى، حيث قام في 1634م بشراء الأسرى في الجزائر وعندما عاد إلى باريس عين مسؤول الجماعة لمدة 14 سنة ليموت في 1649م، وهناك كتاب آخر كان من تأليفه هو "تاريخ عام للحياة"، وهو يروي أحداث ومغامرات لأشخاص نبلاء قبض عليهم من طرف المسلمين. للمزيد انظر:

(2) Dan Pierre: **Histoire de la Barbarie et de ses corsaires**, 2ème éd., Pierre Rocolet, imprimeur et libraire du roi aux armes du roi, Paris, 1946, préface.

(3) نفسه، ص ص5-6.

(4) صورة في الملحق رقم 02.

فيحاول الأب دان من خلال هذا إظهار بشاعة المسلمين، اتجاه المسيحيين وأن هذا النوع من التعذيب هي أعمال شيطانية، وفي الطبعة الثانية للكتاب، يظهر صورة أخرى تصف كل أنواع التعذيب الذي يتلقاه الأسرى من طرف المسلمين، وهذا ما حاول الترويج له في أذهان المسيحيين، وكل هذه الصور للتعذيب كانت تستعملها محاكم التفتيش ضد المسلمين خلال حروب الاسترداد(1).

كما ذكر الأب دان أن كل هذه الأنواع من التعذيب هي أعمال شيطانية والتي تحاول أن تقضي على هذا العالم، وبالتالي ومن خلال مواصفاته وأحكامه نرى أن الأب دان لا يختلف عن رجال الدين العصور الوسطى والحقد والعداء الذي كانوا يكنونه للإسلام ومسلمين حيث يقول: «وبما أن الشيطان رأى بأن كل الهرطقة التي ظهرت في العالم قبل الإسلام لم تكن قوية، جمع كل قوته في حوالي 600م وزرع أكبر فتنة أو هرطقة وأخطرها في العالم وهي الإسلام(2).

عبارة "تدخل الشيطاني" أو "الأعمال الشيطانية" ستمر علينا عدة مرات في هذه النصوص وفي كل كتابات رجال الدين والقديسين، لأنها الشرح الوحيد لديهم لانتصار الإسلام عن باقي الديانات الموجودة فأوربان يذكره في القرن 11م، ولا يوجد رجل ديــن أو لاهوت واحد خرج عن هذا الاقتناع، أن الله سمح للشيطان أن ينشر هذه الديانة المضرة الخاطئة وهذا من أجل معاقبة المسيحية والمسيحيين وأخطائهم، وحتى يعطيها فرصة تحسين وضعها.

التركيز على كلمة أو مصطلح "المضر"، وإذا لاحظنا نصوص الأب دان فإننا نجد أسلوب وكلمات منتقاة كلها من أجل إظهار الجانب أو الصورة المضرة لهذا الإسلام، من خلال عناوين 70 فصلاً التي تكوّن كتاب الأب دان والذي جزأ إلى 6 مجلدات، فالأول يتناول عموميات حول البربر والقراصنة، وديانتهم التي جعلتهم يكرهون المسيحيين حسب رأيه، ويتكلم عن تاريخ بربر الجزائر تونس، تطوان وطرابلس، وفي الكتاب الثالث يتكلم عن القرصنة أما الرابع فيتكلم عن المرتدين، والخامس عن معاناة الأسرى المسيحيين بين

---

(1) Dominique Carnoy: **Représentation de l'Islam dans la France…**, op.cit, p28.

(2) Mais comme saton vit que ses machines (les Hérissées), n'est pas assez puissantes, il ramasse toutes ses forces ensemble, et au commencement de l'an 600, il sema la plus pernicieuse et la plus donnable zizanie que l'on eut vu, Dan Pierre: **Histoire de la Barbarie et de ses corsaires**, op.cit, p25.

أيدي أو تحت رحمة المسلمين، والسادس يسرد ويسلط الضوء عن جماعة التثليث في تخليص الأسرى من المسلمين.

تميزت هذه النصوص بتعبير وأسلوب وكلمات عملت على ترسيخ فكرة مضرة الإسلام، صحيح أن هذه التعابير قد نجدها في العديد من الكتب، إلاّ أنها في هذا الكتاب وصلت إلى مرحلة من القمة من أجل برهنة وتصوير أنه لا يوجد أي جانب إيجابي من هذا الدين (الإسلام) وهي كلّها تابعة لقوى الشر (الشيطان والمسيح الدجال)، تعمل على نشر الأخطاء والسحر، والآفات والآلام، خطأ في العقيدة، والنفوس فاسدة، وأعمال السحر والشعوذة، المعاناة التي يعيشها المسيحيين، وكل هذا يظهر من خلال أو يتجسد في القرصنة حسب الكاتب أن الديانة الإسلامية (الخاطئة) تولد في قلوب القراصنة الحقد والعداء اتجاه المسيحيين (الديانة الصحيحة) وحسبه هذا الحقد يولّد فيهم كل الأعمال الشريرة، كالسحر، ونتيجتها كل ما يقومون من أعمال وحشية ضد الأسرى المسيحيين[1].

من خلال هذا الجدول يتبين لنا نوعية الألفاظ والتعابير المختارة من طرف الأب دان للوصول إلى غايته وهي الترهيب من الإسلام.

الألفاظ أو الأسماء	دجال – المحتال – قاتل – الظلم – البخل – عنف – سحر – قساوة – خطر – خسائر – جهنم – قوة – الجنون – المكر – رعب – الأمية – غير مؤمن – عديم الإنسانية – الظلم – انعدام العدل – وقاحة – قوى الشر – شهداء – آفات – بؤس – دمار – حِيَل – شيطان – السحر – اللعنة.

من خلال هذه الألفاظ أو الأسماء التي نلاحظها يصف بها إما الرسول أو المسلمين بصفة عامة، وإذا حاولنا دراستها عن قرب نجد أن كلّها إما يراد بها الإجرام، والخداع وكل الأشياء السلبية في هذا العالم. وإذا حاولنا تحليل شخصية المسلم من خلال هذه الألفاظ فأقل ما يمكن وصفه به هو أدنى شخصية على وجه الأرض هذا المسلم، وأخطرها.

أما بالنسبة للأفعال التي تداولها هي يثأر – يعاني – يقتل – مطاردة – تهديد[2].

(1) Dan Pierre: **Histoire de la Barbarie et de ses corsaires**, op.cit, pp193-200.

(2) Idem.

أما بالنسبة للصفات التي نجدها في هذا العمل تعاد عدة مرات هي: الحرق – الضرب – القتل – الخطيئة – مضاد – غاشم – دموي – إنهاك أو قضاء – قساوة – خطيرة – قاتل – مقتول.

وحتى هذه الألفاظ والتعابير تعطي صورة دموية للإسلام، ومرعبة تجعل كل من يتطلع عليها يتهرب من هذا الدين الذي يتصف بالعنف والبشاعة.

فهو يحاول برهنة على أن هذا الرسول كل أعماله هي شيطانية، حيث يقول: «هناك تشابه وعلاقة كبيرة بين محمد والمسيح الدجال حتى أعلن الكثير أنه هو المسيح الدجال، رغم أن الكنيسة ترفض ذلك، وأنا لن أدخل في هذا الجدال ولكن أكتفي بالقول أن الاثنين، لهما نفس الهدف، وهو محاولة من جهتهم للثأر من المسيحيين، فهما على حسبه يتشابهان في الخداع والكذب...»(1).

كما يصف في الفصل السادس عشر من الكتاب الثاني الإسلام وصفًا سطحيًا، وكأنها ديانة معروفة من الجميع(2)، فهو لا يدخل في التفاصيل، لأنه إذا دخل في تحليل التفاصيل سيجد نفسه أمام حقائق تتناقض مع مبادئ المسيحية وتكون منطقية أقرب إلى العقل فسيفتح مجال أمام أي مسيحي يتطلع على هذا الكتاب من طرح تساؤلات، ولكن في بعض الأحيان أعطى تفاصيل لكن عادة ما يكون تفسير سلبي أو خاطئ لحادثة معينة، إما أخذها مما كتب من طرف رجال الدين في العصور الوسطى أو اخترعها حتى يجد تفاسير تتماشى مع طرحه، جاعلاً الرسول محل شك وتخوف للمسيحيين، فمثلاً شرحه للجذور اليهودية للرسول التي جعلته عنده نفس طموح اليهود، كذلك العنف الذي يتصف به هو وأتباعه(3).

ثم في نفس الفصل يقوم بربط مثلاً الديانة الإسلامية بالمساجد، فيقوم بوصفها وصف معماري شكلي طبعًا، لا على أنها مكان علم أو مكان لحل كل النزاعات بين المسلمين، أو مكان موعظة، بل يصفها وصف خارجي، بربطها مباشرة بفريضة الصلاة

---

(1) «Il y a tant de rapports et de ressemblance de Mohamet à l'Antéchrist que plusieurs ont estimé qu'il était en effet… néanmoins, la croyance de l'Eglise étant contraire à cette opinion fait que je ne veux pas m'y arrêter. De sorte qu'il me suffit de dire que tous deux, comme une vengeance pernicieuse, suscitée des enfers et du père du mensonge, se ressemblent tellement qu'ils portent même couleur et même livrée…». Dan Pierre: **Histoire de la Barbarie et de ses corsaires**, op.cit, p219.

(2) نفسه، ص ص225-227.

(3) نفسه، ص ص227-242.

ويتكلم خاصة على صلاة الجمعة، كذلك صيام رمضان والأعياد، وكره وتحريم أكل لحم الخنزير عند المسلمين، ثم ينطلق إلى ظاهرة تقديس الأولياء الصالحين[1]، هذه الظاهرة التي استعملتها الحركة الاستعمارية الفرنسية في أراضيها المستعمرة من أجل إبعاد المسلمين عن ديانتهم الصحيحة وبالتالي – التحكم أحسن فيهم – والدراويش كما وصف الاحتفالات عند البربر، وهنا وصف مطولاً كل ما يبتعد عن الإسلام ويجعلهم يقتربون من العادات الوثنية ووضع هذا الوجه الاحتفالي في طابع ديني وثني، أي لابتعاد هذا المجتمع عن الديانة الإسلامية وتمسكها بالعادات والتقاليد الوثنية التي طبعًا تعود إلى العصور التي كانت تحت سيطرة روما[2].

أي حاول الاهتمام بالوجه الخارجي للديانة، فبتركيزه على هذه التفاصيل وتجاهل التفاصيل الحقيقية وذلك لأنه ينطلق بفكرة أن هذه الديانة شيطانية، ورغم كل الحقد والعداء والكره الذي يكنّه للإسلام إلا أنه يتكلم في بعض الأحيان عن نظافة المنازل، سهولة العدالة عند المسلمين، وأن المسلم لا يقسم باسم الله إلا لقول الحق وأن المسلمين لا يتعاركون ولا يتشاجرون فيما بينهم[3]، رغم أن هذه الصفات والصورة هنا حقيقية وجميلة وإيجابية عن الإسلام، فهو يعطيها صبغة خاطئة ممزوجة بين الخرافات والتطير عند الرسول، أي حتى ما هو إيجابي هو في الحقيقة حسب رأي الأب دان سلبي يراد به الأذى للمسيحيين لا غير.

وبذلك أن من خلال هذا الكتاب نلاحظ أن كل تفسيراته وتحليلاته تنبعث من الروح المسيحية التي هو مشبع بها، فهو يتكلم وينظر لهذه الديانة كمنصر، ويرى أن العالم قائم على هذا الصراع العميق بين المسيحية والإسلام، هذه الديانة التي سرقت نصف عقيدة المسيحية، وأن كل أعمال وتصرفات المسلمين حتى وإن كانت إيجابية وجدت من أجل ضرب المسيحيين في إطار الحقد والعداء الذي يكنه المسلم للمسيحي، فهو يحاول من خلال هذا التفسير قلب الحقيقة التي كانت قائمة ومازالت والتي تتمثل في هذا الحقد الذي تكنه الكنيسة للإسلام، وقوته وتطوره، منذ العصور الوسطى أمام انتشار وقوة الإسلام الذي هدد مناطق نفوذها.

---

(1) Dan Pierre: **Histoire de la Barbarie et de ses corsaires**, op.cit, pp241-242.

(2) نفسه، ص240.

(3) نفسه.

فحسب نظرته، إن المسلم إذا صلّى فمن أجل أن يدعوا ربه للقضاء على المسيحيين وإن قادوا البحار فمن أجل قتل المسيحيين، إذا حرموا أكل لحم الخنزير والذي يأكله المسيحي فخوفًا من النجاسة، وإذا تكلم المسلم عن المسيحي فمن أجل سبّه، ووصفه بكل الصفات القذرة، وأن كل فضائل المسلمين يعود إلى العداء يكنه المسلم للمسيحي[1]، فيقول مثلاً: «بما أنهم كلهم لصوص، يمكنهم أن يعيشوا دون تفريق،... حيث السبب الرئيسي الذي يجعل هؤلاء البربر يعيشون في أمان وسلم فيما بينهم هو النفور الطبيعي الذي يتصفون به ضد المسيحيين العميق، وإن رأوا في وحدتهم أذى للمسيحيين فهم يتّحدون من أجل ذلك...»[2].

لماذا يرى في وحدة المسلمين أذى للمسيحيين، ربما راجع لبداية ظهور الإسلام وسرعة انتشاره، وكيف حقق في ظرف سنوات قليلة توسع على حساب الأراضي المجاورة للمنطقة والتي كانت مناطق مسيحية، ففقدت الكنيسة بسبب وحدة المسلمين مناطق نفوذها، فيتحول الصراع هنا صراع المصلحة، وتخوف الكنيسة من هذه القوة الدينية الجديدة التي استطاعت جمع أقوام حولها وأصبحت تسيطر على مساحات كبيرة في العالم، ولم تتدهور قوة الإسلام والمسلمين بل تواصلت وكبرت حتى أصبحت تهدّد أوروبا والكنيسة الرومانية في عقر دارها.

ومن خلال ما يقوله الأب دان نعود إلى الفكرة الأولية البسيطة أن هدف عيش المسلم هو تعذيب وأذى المسيحي، والدليل الذي استعمله أو استشهد به في تحليله هو الأسرى بين أيدي القراصنة.

حاول من خلال هذا الكتاب ترويج صورة نمطية في مخيلة المسيحي البسيط للمسلم سيئة ومرعبة، تجعل المسيحي في حالة حذر أمام المسلم، فجمع الأب دان بين كل ما كتب ومعارف العصور الوسطى وأضاف إليها كل أحداث العصور الحديثة التي عايشها خاصة

---

(1) Dan Pierre: **Histoire de la Barbarie et de ses corsaires**, op.cit, p29.

(2) « … étant tous voleurs, ils peuvent vivre sans division (…) D’ailleurs… le principal motif qui oblige ces Barbares à vivre paisibles entre eux, c’est l’aversion naturelle qu’ils ont contre les chrétiens, qui est si grande que pour avoir moyen de leur faire plus de mal par leur union mutuelle, ils aiment, mieux relâcher, de leurs intérêts propres, que de la diviser et de la rompre…».

نفس المصدر السابق، ص31.

من خلال رحلاته إلى أراضي المناطق المسلمة في شمال إفريقيا، وأعطاها صورة وتحليل معين أو ميسر للوصول إلى هدفه[1].

إذا كانت عند الأب دان الديانة الإسلامية هي مزيج بين الأعمال الشيطانية، ومجيء المسيح الدجال، وأنها جاءت مباشرة من جهنم للقضاء على المسيحي، فإن النص الثاني الذي سأدرسه هو لميشال بوديه Michel Baudier[2] والذي حاول من خلاله أو ما أراد أن يصل إليه إظهار الاختلاف الحقيقي – حسب رأيه – بين ما يظهره المسلم والديانة الإسلامية وبين حقيقته الداخلية، فمن خلال كتابه: التاريخ العام لديانة الأتراك، (Histoire générale de la religion des Turcs)[3]، والذي أصدر أول مرة في 1625م ولكن كان له عدة طبعات، وحتى أنه استعمل كمصدر للعديد من الكتب الأخرى، فهو أحد أعمدة المعرفة للإسلام في القرن 17م، من طرف المسيحيين، وكان يستهدف طبقة العلماء، والمثقفين مقارنة بكتاب الأب دان، كما أنه كتب باللغة الفرنسية، كان هدف أو هم الأب دان من كتابه أن يصل إلى عامة الناس وخاصة الأغنياء، ليتحول إلى مصدر دخول أموال للكنيسة من أجل تخليص الأسرى من أيدي المسلمين، وبذلك وعن طريق هذا الكتاب استطاعت الكنيسة أن تفتح لها باب جديد لدخول الأموال، بينما بوديه فهدفه كان – على حسب تعبيره – أرقى واستهدف طبقة النخبة والمثقفين وكان العمل ذو طابع علمي حيث يقول: «... أنه يريد من خلال العمل تعليم الناس بأن كل الأشياء والأفكار المرتبطة بالإنسان قابلة التغيير، بينما التي تتعلق بالرب، تبقى ثابتة لا تتغير... وأهم ما سنعطيه من خلال هذا الكتاب للقراء هو تاريخ التقلبات المتناقضة في هذه العقيدة الإسلامية، وغرور رسول الأتراك وديانته الخاطئة»[4].

---

(1) Dominique Carnoy: **Représentation de l'Islam dans la France…**, op.cit, p33.

(2) ميشال بودي (Michel Baudier) (1589 – 1645م) مؤرخ ومستشرق فرنسي، وكان مؤرخ الملك لويس 13، للمزيد انظر: Steve Vomini: **Cultures historiques dans la France a XVIIème siècle**, Paris, l'Harmatton, 2000, p194.

(3) Michel Baudier: Histoire générale de la religion des Turc avec la naissance et la mort de leur prophète Mohamet et les actions des quatre premiers califes, celles du prince Mahaunias et les nuages des sarrasins en Europe au trois premiers siècles de leur loy. Ensemble le tableau de toute la chrétienté à la venue de Mohamed, Paris 1625.

(4) Enseigner que si les choses humaines sont changeantes celle de Dieu ne le sont pas en conséquence: «c'est la fin principale que s'est proposé, ce livre en donnant au public l'histoire des inconstances, contrariétés et vanités du prophète des Turc et de sa trompeuse religion… ». Michel Baudier, histoire générale de la religion des Turc avec la naissance et la mort de leur prophète Mohamet et les actions des quatre premiers califs qu'il l'ont suivie chez Iean Berthelin, dans la cour du palais, "préface".

ومن هنا نستنتج مباشرة التوجه الذي سيأخذه الكتاب، علمًا أن ما ذكر أعلاه في بداية الكتاب أي في المقدمة فهو يعلن توجه الأفكار، أضف إلى ذلك لما نقول حسب عنوان الكتاب، تاريخ لأي ظاهرة من المفروض يراد من الكتاب أن يكون تاريخي يحمل نسبة كبيرة من الحقائق التاريخية الصحيحة، لا نقاش فيها، وبما أن هذا العمل جاء من أجل الكنيسة فإن من المتوقع سيؤدي بالقارئ في رواق معين من الحقائق التي تظهر وجهة نظر الكنيسة وتصديقها.

كما أن السيرة الذاتية لهذا الكاتب من خلال الكتب تظهر أنه كان له العديد من الرسائل والمراسلات المهمة، والتي تخدم طرحه في هذا الكتاب إلاّ أنه ونظرا لتوجهاته فضل الاعتماد على المصادر القديمة الإغريقية والرومانية، وهكذا يضمن المشي في توجه الكنيسة وهذا ما نلمحه من خلال إحالاته، كما أن الكاتب كان متمكن من اللغة العربية والتي من المفروض تساعده على فهم أحسن وأوسع لهذه الديانة وللمجتمع الإسلامي حتى يستطيع أن يأتي بالجديد وبالحقائق التي تجيب على طرحه[1]، بينما هو على حسب قوله استعمل اللغة العربية من أجل التأكد من بعض الخرافات التي كتبها الأتراك[2]، نرى هنا أنه يركز على الأتراك وعلى هذا الدين ولكن من خلال الدولة أو الخلافة التي كانت تمثل القوة في تلك المرحلة وتمثل الإسلام، وكان الهدف هو ضرب هذه القوة الكبيرة والتي كانت في أوج قوتها، ونرى في كل مرة الصراع، والحقد الكنسي يكون حول مصالح معينة، لا عقيدة، لا نبي، يقف أو يمكن أن يضاهي مصالح الكنيسة.

وما يقصده بمناقشة ما كتبه الأتراك هو يتكلم عن الأحاديث النبوية، حيث يقول: «... بين كل الكتب الدينية، التي لا يمكن لأي شخص حزين قراءتها وذلك بسبب الحزن والسواد الذي تتصف به، هي الأحاديث النبوية، أي تاريخ الرسول...»[3]. كما أنه يتبين أنه قرأ أو اطلع على القرآن الكريم ولكن من خلال ترجمة بيار الفينيرابل (Pierre le Vénérable)، ورغم تمكنه من اللغة العربية، إلاّ أنه نلاحظ اعتماده ترجمة لرجل دين

---

(1) Prevost et Roman d'Amat: **Dictionnaire de Biography Française**, T5, Paris 1951, p47.

(2) Tirer de l'obscurité certaines fables que les Turc ont écrites de la naissance de leur prophète, Histoire générale de la religion des Turc, op.cit, p15.

(3) « … Parmi tous ces livres religieux, ceux qui ne peut être lus par aucun mélancolique, pour si noire qu'il soit, sans rires partiellement, ce sont l'Hadith et Naby l'histoire du prophète… ».

نفس المصدر السابق، ص141.

مسيحي من العصور الوسطى والذين كان لهم توجه خاص اتجاه المسلمين، ولم يتطلع على النصوص الأصلية باللغة العربية أو ربما تطلع عليها ولم يعتمد عليها في عمله حتى يبقى في التوجه الذي أراد المشي فيه، حتى لا يفتح مجال لنقاش الأفكار التي لن يكون ربما بإمكانه تصويرها على النحو الذي أراد الوصول إليه، حيث يقول: «... هذا القرآن يحتوي على 124 فصل...»[1].

بينما هناك ترجمة أخرى أقرب أكثر إلى الدين الحقيقي، وهي لبيار الطليطلي والذي كان متمكن من اللغة العربية تحت إدارة بيار دي كلوني، وهي ترجمة لاتينية، إلاّ أنه لم يعد إليه، بل اعتمد في عمله على الترجمة القديمة التي تخدم فكر كنسي معين، واعتمد كذلك على مصادر وجدت في العصور الوسطى كتبت من طرف رجال الدين، والتي تتبنى الفكر الكنسي الرافض والحاقد للإسلام وظهوره وانتشاره، والذي يعتبره من أكبر هرطقة العصر، وبالتالي وبهذا التصرف يضيف إلى عمله مصداقية جديدة التي يضيفها إلى المصداقية الأرثوذوكسية[2].

أما بالنسبة للخطة التي اتبعها الكاتب، لم ينوه في متاهات تجعله ربما التوجه من البداية عبر خطة معينة، حيث جعل الكتاب الأول يتكلم على ميلاد الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، والفتوحات الإسلامية، أي التوسع الإسلامي على حساب الأراضي المسيحية، ثم ركز على حالة المسيحيين بمجيء الإسلام، أما الخمسة كتب الباقية، فكانت عبارة عن وصف مطول ودقيق نوعا ما – بتحفظ – للديانة الإسلامية، بنظرته طبعا، وصف الطقوس، العادات، كان هذا في الكتاب الثاني، أما الثالث تكلم عن الكنيسة، نلاحظ من خلال هذه الخطة أنه مباشرة بعد التكلم عن الإسلام والمسلمين ينتقل مباشرة للمسيحية والمسيحيين، فنلاحظ في الكتاب الأول يتكلم عن ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم، والفتوحات الإسلامية، ومباشرة ينطلق نحو فكرة حالة المسيحيين بمجيء الإسلام، يركز على الوضع ويجعل ذهن القارئ موجه لا يعطيه فرصة النقاش حتى مع نفسه، فهو يتبع نفس الطرق التي كانت تستعملها الكنيسة في العصور الوسطى على المجتمع الأوروبي ولكن بطريقة فكرية، فهو يقوم بعمل بسيكولوجي، أي يتلاعب بذهن القارئ لإيصاله إلى

(1) Cet Alcoran contient 124 chapitre, المصدر السابق، ص135

(2) Dominique Carnoy: **Représentation de l’Islam dans la France…**, op.cit, p35.

ما يريده، فيصف الإسلام والعادات والطقوس، وفي الفصل الذي بعده يتكلم عن الكنيسة، ثم في الفصل الرابع يتكلم عن العلاقة بين اليهودية والإسلام، ليصل في الأخير إلى العلاقة بين المسيحية والإسلام، ثم يوم الحساب والجنة، كل هذه الأفكار ناقشها "بوديه" في حوالي 700 صفحة، صحيح أن هذا الكتاب يختلف ظاهريا عن كتاب الأب دان، إلاّ أن الاثنين يجتمعان في رغبتهم في تدمير هذه العقيدة الجديدة، فبعد العنوان مباشرة يأتي ما يلي: «... الذي رأينا أنه يجب إظهاره حتى يتمكن المسيحي اكتشاف بسهولة الإشارات الواضحة للخداع لدى محمد، وغرور جماعته أو طائفته وعقيدته السخيفة والمليئـــة بالعنف[1]».

نستخلص نقطتين مهمتين في هذا النص: العقيدة الخاطئة، وحرص المؤمنين عليها وكثرة عددهم، ففي الكتاب الرابع وخلال عدة فصول يبدأ الكاتب بالإنجيل مؤكدًا أن الرسول قام بوصفه وصف حقيقي وصحيح، فيذكر سلسلة من السور التي تتكلم على ما أتى به الإنجيل، فمثلاً تاريخ يعقوب، موسى، داود، سليمان، ولكن حسب رأيه أن الرسول استعمل كثيرًا مخيلته في هذه الكتابات حول هؤلاء الرسل والأنبياء[2]، وذلك لأنه رأى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) تمسك بالانزلاقات التي عرفتها الكنيسة والمسيحية من أجل ضرب المسيحية، وكل الهرطقات التي ظهرت، وغيرها من الأشياء أو الأحداث السلبية[3]، كما أن الرسول – على حد تعبير بوديه – لا يمكنه إلاّ قول الحقيقة في حق الشخص الذي سيخلص العالم عيسى عليه السلام، والذي ترى فيه المسيحية أنه مخلص العالم من جهتهم والخطيئة[4]، ثم يشرح أن المسلمين يرفضون التثليث ولكن يعترفون بعيسى عليه السلام، وأنه رفع إلى السماء، وأنه أحسن وأعظم خلق الله حتى أنه أحسن من رسولنا الكريم، وهذه الحقيقة التي موجودة في الإسلام ويعترف بها المسلمين لا تعتبر إيجابية فيه، وإنما هو يرى أن الحقيقة تنتهي دائما بفرض نفسها، وحتى وإن وضعت في بحر من الأكاذيب، كما

---

(1) « … Lequel avons jugé pouvoir être mis en lumière comme celui dans lequel les chrétiens découvriront aisément les insignes et notable impostures de Mohamet et brutale, et trouveront d'ailleurs sujet très grand d'entrer en confusion d'eux-même voyant combien sont tièdes et froids en l'observation de lois très saintes et très religieuses du christianismes, à l'égard de ces misérable aveugles, qui se portent avec tant de ferveur et d'ardeur à l'entière pratique de leur fausse religion… », Michel Baudier: Histoire générale de la religion des Turc…, op.cit, p3, "Préface".

(2) نفسه، ص11.

(3) نفسه، ص11.

(4) نفسه، ص536.

يرى أن ظهور الإسلام ورسوله رغم أنه حدث مؤسف، إلاّ أنه لا علاقة له بالشيطان، وهي أفكار تختلف وتبتعد عن أفكار الأب دان وإنما بوديه يرجع مشوار وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الصفحات التي تتسم بها شخصيته من الطموح والمكر[1].

ثم يقوم بالقص علينا بعض الأحداث المهمة من حياة الرسول، والتي يمزجها ببعض الخرافات والأكاذيب وبعض التفاصيل المضحكة والمخترعة طبعًا، كمعركة الخندق التي قام خلالها أتباع الرسول، مثلا بحفر خنادق حول المدينة من أجل تقويتها، واستطاع من خلال هذه الخطة من هزم العدو، ولكن حسب بوديه فإن الرسول خلال هذه المعركة قد أصيب بالسيف وسقط أرضًا ما أدى به لتضييع أسنانه الأمامية ما جعله بشع المنظر، وتركيزه على هذا التفصيل من أجل بعث بذهن القارئ المسيحي البسيط إلى كل تلك الوحوش البشعة التي يملأ نصوص وكتابات العصور الوسطى، كالبشع بدون أسنان (Le vilain édenté) أو الوحوش بضرس واحد، والهدف هو إعطاء نظرة بشعة ومخيفة ومرعبة للرسول صلى الله عليه وسلم[2]، ثم يتكلم عن الجهاز الكنسي للمسيحية، ويحاول مقارنته بما موجود في الإسلام والتي يرى أنه تقليد شيء للديانة الصحيحة وهي المسيحية حيث يقول: «... محمد يقلد المسيحية وعندما رأى أن للمسيحية سلم إداري حاول وضع واحد للمسلمين، تتماشى مع وجهة نظره، ضمن الجهل الذي يتسم بها قوانينه...»[3].

ونرى أن في التلميح ما هو أخطر من التصريح والذي يخلق اللبس ويترك مجال للشك في ذهن المسيحي، كما استعمل "بوديه" العديد من الألفاظ لوصف المسلمين وإذا حاولنا رصدها نجد أنه استعمل: دراويش، كذابين في وصفهم كذلك بأنهم يشبهون سوسة القمح إذا دخلت محصول قضت عليه، مفسدين، منافقين، أن المسلمين يتبعون شهواتهم، حتى وإن كانوا متشددين، مغرورين، وطموحين، لصوص وكسلاء، وكأنهم تجتمع فيهم كل الصفات الدنيئة، رغم ذلك يحاول الابتعاد عن الألفاظ والصفات التي كانت تستعمل من طرف رجال الدين في العصور الوسطى، والتي وجدتها عند الأب دان، كتشبيه بالشيطان والمسيح الدجال وغيرها من الألفاظ، ورغم ابتعاد بوديه عن هذه الألفاظ إلاّ أنه يصفهم بأسوأ الأخلاق وكل الألفاظ التي تدل على الرذالة.

---

(1) Michel Baudier: Histoire générale de la religion des Turc…, op.cit, p542.

(2) نفسه، ص ص28-29.

(3) نفسه، ص320.

ثم أخيرًا يصل إلى وصف الجنة، فإن النظرية المسيحية ترى أن إذا كان لمحمد العديد من الأتباعِ، ذلك أنه وعدهم بجنات عدنٍ تكون فيها الحياة أبدية ويجري فيها وديان من الحليب والعسل، في جنات عذبة، ويقول أن كل المسلمين سيلبسون ألوان وأشكال من الألبسة[1] ما عدا الأسود، فهو سيكون لرسولنا وحسبه، وكأن في الجنة ما زال ينبع أطماعه، وعندما نظن أن هذه الجنة تدفع بالمسلمين للأعمال الفضيلة والتحلي بالأخلاق، فهو خطأ، ويحاول بوديه تقبيح وشرح ذلك بقصة الشيخ الساكن في الجبل، وبالتالي يعرض بودي كل هذه الأخطاء والأوهام باختيار الألفاظ المناسبة التي تخدم رؤيته وهي كيف للمسيحي الذي يملك العقيدة الصحيحة، يستمع أو ينظر للمسلم ذا العقيدة الخاطئة[2].

ولتتعقد الأمور، عندما يبدأ يتكلم عن العبادة من أجل المقارنة أو توضيح الخطأ فيها، فأول ما يهتم به ويشد انتباهه صلاة المسلمين، وخاصة طريقة الصلاة، وسورة الفاتحة، والتي تعتبر عند المسلم فاتحة الكتاب، وهذا الخشوع والركوع لله والذي لا يمكن تجاهله أو نكر وجوده، فيرى بوديه أن هذا السكون والسكوت، وعدم الحركة والأكل للإنسان المسلم عند قيامه بالصلاة أي اتصاله بربه هو لا يمكن أن يتبع من أناس لهم عقيدة خاطئة[3]، حيث يقول: «... هذا الركوع الرائع أو العظيم والخشوع يمكن أن يعلن هنا من أجل إظهار العار وخطأ الذين يملكون العقيدة الصحيحة ولكنهم ليس لهم نفس الخشوع والاحترام في بيت الرب...»[4].

وكأننا هنا نلمس نوع من التوبيخ للمسيحيين الذين حسب رأيه يملكون العقيدة الصحيحة والذين من المفروض أن يكونوا في نفس المستوى من الركوع والخشوع للرب خلال الصلاة، ولكن في نفس الفكرة لا ينسى أن يؤكد أن قيام المسلمين بالصلاة بهذه الطريقة ليس دليل للنقاء أو صحة العقيدة وديانتهم، بل عكس ذلك تمام ما هو إلا مظهر فارغ، مخادع يدل على الفراغ الديني. حيث يقول: «... إذا كانت هذه الصلاة نابعة من

---

(1) Michel Baudier: Histoire générale de la religion des Turc…, op.cit, p645.

(2) « … excepté le noire, réservé à Mohamet, qui en sera paré seul dans le ciel, ou il veut faire le sérieux après avoir servi le bouffon en terre… ». نفسه، ص673

(3) Dominique Carnoy: **Représentation de l'Islam dans la France…**, op.cit, p38.

(4) انظر: Michel Baudier, op.cit, p174

«cette extraordinaire révérence… peut être couchée ici pour rejeter la honte au visage à ceux qui professant une plus Sainte religion, se comportent insolemment aux temples de Dieu… ».

قلب نقي وصحيح، ولكن عنادهم وعنفهم، لم تجعلهم يرفضون نعمة الله، وكان بإمكانهم الحصول على النور الذي لا يملكوه...»[1].

وهنا نلاحظ أنه استعمل أداة الشرط أو عبارة الشرطية تبين أن هؤلاء المسلمين لا تنطلق أعمالهم من العقيدة الصحيحة.

ثم ينتقل إلى ركن آخر من أركان الإسلام الذي يحاول مناقشته هو ركن الزكـــاة أو الصدقة والذي في وجهة نظره يجب أن تكون ملك لأصحاب العقيدة الصحيحة أي المسيحيين، بينما هو تغليط وخداع عند المسلمين فيقول: «... سوف يكون أكثر فائدة، من ما هو مجد للمسيحيين، التعلم من الأتراك ممارسة الصدقة، لأن هؤلاء الكفار يقومون بها على نطاق أوسع منهم، لأن شعبهم يحصل على مساعدة خيرية كبيرة...»[2]، ثم يعطي عدة أمثلة مهمة بخصوص الزكاة والصدقة وأهميتها ونتائجها عند المسلمين في المستشفيات والرحلات، أين يستقبل المسيحي هذه الصدقة في حالة رحلته من مكان إلى آخر.

«... إن الأعمال الخيرية عند الأتراك تتمثل في توزيع المشروبات والأكل اللازم دون إعطاء أهمية أو شرط للدين أو العقيدة، أو وطن الإنسان، فهو في الصدقة يعامل المسيحي واليهودي والمسلم على حد سواء...»[3].

وهذه الصدقة والإحسان التي يتصف بها المسلم والدالة على أخلاقه النبيلة وبعد نظره، لا يعترف بوديه أنها نوع من التسامح وحسن الأخلاق عند المسلم، بل يحاول الحط منها عندما يؤكد أن للمسلم نفس التصرف حتى مع الحيوانات فتظهر النوايا السيئة لبوديه دائما ضد المسلمين ورفضهم لسبع أخطاء كبيرة، والذين حسب بوديه أخذوها من المسيحية، ولكن بالعكس رسولهم قد قام بكل هذه الأخطاء وأن من أهم صفاته، الغرور واتباع

---

(1) « … certes si cette prière était proférée d'un cœur peur, et met, et que leur obstination, et leur brutalité, ne leur fit pas rejeter les grâces de Dieu, ils se rencontraient dingues de recevoir la lumière qu'ils n'ont pas…».
انظر: المصدر السابق، ص170.

(2) « …ce sera plus d'utilité que de gloire a ceux qui vivent dans le christianisme, d'apprendre des Turc la pratique de l'aumône, car ces infidèles l'encerclent plus largement qu'eux -même- le public en reçoit un charitable secours… ».
انظر: Michel Baudier: Histoire générale de la religion des Turc…, op.cit, p234.

(3) « … la charité turque leur distribue les rafraichissements qu'il leur faut, sans qu'elle puisse être refroidie par la condition, religion ou moins au les chrétiens et les Juifs que sur les Mahométans».
انظر: نفسه.

الشهوات[1]. وهو يعتبر أن الرسول (صلى اللهعليه وسلم) بزواجه المتعدد كان يجري وراء إشباع شهواته، وهي طريقة من أجل التقليل من شأنه، إذا أحصينا بالمقابل العدد الهائل للأطفال غير الشرعيين الذي عرفتهم كنيسة روما وبباواتها، وتواجدها إلى يومنا هذا، والأمثلة كثيرة، لا تعد ولا تحصى.

وأخيرا الجهاد والذي يرجعه إلى تعصب وتطرف المسلمين وإخلاصهم لعقيدتهم. «... الحماس الذي يملكون من أجل عقيدتهم أو ديانتهم، عظيم وكبير، حتى أنهم يستميتون من أجلها...»[2].

ويعتبرها طريقة من أجل تبني فكرة الجهاد من أجل حماية دين خاطئ، هي في الحقيقة وسيلة اتخذوها من أجل قتل وتعذيب الحاملين للديانة الصحيحة أي المسيحيين، ولكن إذا رجعنا إلى الحروب الصليبية فقط، ما يذكره التاريخ وتاريخهم خاصة، على لسان مؤرخيهم، عندما يتكلمون على خطاب أوربان الذي عبأ الجماهير المسيحية للتعدي على المسلمين في أراضيهم وقتلهم وتعذيبهم، وأبشع ما عاشه المسلمون خلالها، كذلك ما عاشه مسلمي الأندلس خلال حروب الاسترداد من بطش وعنف وتعذيب بكل الوسائل مع محاكم التفتيش، هي أحداث تظهر عكس ما يذكره بوديه، ثم يستنتج بوديه في الأخير فيقول: «... إن المظهر الخارجي للمسلم الحقيقي التركي يستعمل كغطاء أو حاجب للعقيدة الخاطئة لطائفتهم...»[3].

ومن أجل تأكيد على صحة نتائجه، لا يتردد في إعطاء أمثلة مثل ابن رشد، وابن سينا وصلاح الدين وأن كلهم كان لديهم نور العلم ولكن دون نور العقيدة والدين، سيكون شبه أعمى لملاحظة أو رؤية الحياة الخارجية وما تخفيه من حقائق.

رغم أنه تهجم على المسلم والإسلام ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولكنه مقارنة بكتاب الأب دان، تجنب ألفاظ العصور الوسطى محاولاً أن يكون أكثر علميًا وموضوعيًا ولكن، كان أكثر تشدّدًا وحاول بوجهة نظره برهنة أن هذا المسلم مبني على

(1) Michel Baudier: Histoire générale de la religion des Turc…, op.cit, p294.

(2) «… Le zèle qu'ils ont envers leur religion est si grand qu'il embrasse toute les actions de leur vie et celle encore qu'ils font en mourant…».

انظر: المصدر السابق، ص309.

(3) «… l'apparence et l'extérieur des plus religieux des Turcs sert de voile aux faussetés de leur secte…».

انظر: Michel Baudier, op.cit, p677.

الحيلة والخداع والكذب، وحتى ما هو إيجابي عن الإسلام عمل على ضربه وجعله خداع ينبع من فراغ في الدين عند المسلمين، أو استعمله في بعض الأحيان حتى يكون كعبرة للمسيحي حتى يحسن تصرفاته بما أنه هو الحامل للعقيدة الصحيحة.

لنصل للنص الثالث هو: قرآن محمد (l'Alcoran de Mohamet) مترجم من العربية إلى الفرنسية من طرف سيور دوراي (Sieur du Ryer)[1] في 1647م، وهنا نصل إلى شخص حسب المصادر الأوروبية هو من العلماء الأكثر علميين وموضوعيين ابتعدوا عن وجهة نظر الكنيسة، وهذه الترجمة إلى الفرنسية ستعتبر أول ترجمة له وستبقى الأهم والوحيدة إلى غاية 1783م، هذا العمل تطلب اهتمام وتحليل عميق، ولا يبتعد عن النظرة الدينية أو الكنسية في وقته، ولا يبتعد عن ألفاظ وتعبير الكنسية والمسيحية، الواسعة المدى[2]، هذه النظرة أو وجهة نظر الدينية نجدها في كلمته التي تسبق الترجمة في بداية الكتاب وأظن أنها أهم شيء حيث نستطيع أن نلمس من خلاله حقيقة أفكار ونوايا هذا العمل، وكان في المقدمة "ملاحظة للقراء"، «إن معرفة ما هو موجود في هذا الكتاب يجعله وقوانينه خسيسة»[3]، ويصرّ على أن هذه الديانة والعقيدة خاطئة وغير صحيحة، ويقول «... هذا الكتاب هو خطاب مطول للرب، للملائكة ومحمد، الذي اخترعه هذا الذي يدعي النبوة»[4]، وهو يحذر من الخلط الكامل للكتاب وأن عناوين السور يختلف عن ما بداخلها دون أن ننسى أن القارئ سيجد داخل هذا الكتاب عدة مقاطع منفصلة لا علاقة لها بالأخرى، ووجود العديد من التكرار[5]، وأخيراً يرى أن تفسير القرآن هو سخيف شأنه شأن النص الأصلي وهو القرآن[6].

---

(1) ولد في بورفونيا – فرنسا – في 1580م، شغل منصب قنصل في مصر إلى غاية 1630م ثم في القسطنطينية في 1632م حتى 1634م التاريخ الذي عاد فيه إلى فرنسا وكان مكلف بمهمة دبلوماسية من طرف مراد الرابع، كان يحسن التركية والعربية والفارسية، وقد أصدر في 1633م كتاب حول النحو في اللغة التركية وهذا قبل ترجمته للقرآن، كما له مخطوط وهو قاموس للتركية واللاتينية. انظر للمزيد: Prevot et Romon d'Amat, op.cit, p107.

(2) Dominique Carnoy: **Représentation de l'Islam dans la France…**, op.cit, p41.

(3) « … La connaissance de ce qui est contenu en ce livre rendra cette loi méprisable… ».

انظر: Sieur Du Ryer: **L'Alcoran de Mahomet, chez Antoine de Somma ville**, Paris, 1647, p3.

(4) هذا الكتاب: « …Ce livre est une longue conférence de Dieu, des Anges et de Mahomet, que ce faux prophète à inventé assez grossièrement… ».

انظر: نفس المصدر، ص4.

(5) نفس المصدر، ص5.

(6) نفسه.

يمكننا أن نتساءل لماذا دورايير يكثر من التحذير، ربما هي طبيعة عنده اكتسبها من تخوفه من الكنيسة التي يمكنها أن تثور ضده، لأنه سيقوم بترجمة القرآن والتي تراه هي مجموعة من الأفكار الخاطئة، لعقيدة خاطئة، أو ربما حتى يرهب ويبعد المسيحيين عن هذه العقيدة التي يمكن أن تفتح باب صراع على المسيحية.

هذا الغموض سنلاحظه أكثر، طيلة الترجمة للقرآن، فهو يضيف إلى التحذير، ملخص في أربعة صفحات أين يحاول شرح عقيدة المسلمين، أو أهم محاورها، لا يتكلم عن الشعائر والطقوس وإنما يهتم بالعقيدة وأركان الإيمان، هذه الأسطر لا يقوم بأي تهجم على الإسلام وإنما يبقى موضوعي، ثم ينطلق إلى الترجمة ويحاول أن يبقى أكثر موضوعية ممكنة[1]، فأول ما يقوم به هو إعادة تصحيح عدد السور فيتكلم عن 114 سورة وليس 124 كما أعلن بيار الفينيرابل، ثم لا يقدم أي تعليق عن القرآن أو حتى رد، ويتجنب النقد خلال الترجمة[2]، فمثلا سورة الإسراء والمعراج والتي لمدة طويلة كانت مجال سخرية في الكنيسة أين رفع الرسول إلى السماء، فهو يذهب بالقارئ المتمكن في اللغة العربية إلى كتب التفاسير لعلماء الدين الإسلامي، أي أنه يريد من هذا العمل أن يكون موضوعي علمي[3]. والميزة الثالثة التي تميز بها هذا العمل لا يخلو من ألفاظ دينية محددة من طرف المسيحية، خاصة وأن القواعد النحوية للغة الفرنسية لا تنطبق على اللغة العربية، ما جعل ترجمته للقرآن تصبح مفرنسة، كما حاول تسهيل فهمها، وتختلف عن ترجمة كلوني، ولكن هذه الترجمة محت كل مميزات اللغة العربية، والذي تميز بنمط خطاب غير متناسق ولا ينطبق مع اللغة اللاتينية، حيث قام بالعديد من التفسير الخاطئ، والتي هي أصلية في نوع هذا النص المترجم، فهو عمل على فرنسة الشكل ومضمون القرآن، الشكل بحيث وحده في جمل طويلة كل ما جاء في القرآن في شكل زجري مختصر، فأصبح مجبر على ربط بين سور رئيسية وفرعية والتي ليست لها هذه العلاقة في القرآن أي غير مرتبطة، وهذا خطأ كبير. قدم في شكل متجانس، دون فقرات، لأن السور القرآنية ليس فيها نظام الفقرات[4].

---

(1) Dominique Carnoy: **Représentation de l'Islam dans la France…**, op.cit, p42-43.

(2) نفسه.

(3) Sieur Du Ryer: **L'Alcoran de Mahomet…**, op.cit, p5.

(4) Dominique Carnoy, op.cit, p44.

من جهة أخرى هذا التضليل النحوي للنص، سيكون خاطئ في دلالته أي معنى.

دورايور يرى المقدس والإلهي بنظرة مسيحية، فيستعمل مفردات قريبة من الإنجيل (رغم أن الإنجيل يقرأ ويكتب باللاتينية خلال هذه الفترة).

فنجد في سورة البقرة مثلا "Eloigné notre péché de nous"، كذلك في سورة العلق يقول "اقرأ" في الآية الأولى من السورة "باسم ربك الذي خلق"، فهنا يرى أن فعل اقرأ وحده لا يكفي فيضيف له اقرأ القرآن فتصبح باللغة الفرنسية: Lis le l'Alcoran et commence par le nom de Dieu qui a tous créé[1].

نفس الشيء بالنسبة لفعل خلق في اللغة الفرنسية يتطلب تكملة خلق ماذا، بينما اللغة العربية كافية.

نفس الشيء بالنسبة للآية 8 و 9 في القرآن وعند دورايور (15-16) "أرأيت الذي ينهى عبدًا إذا صلى، أرأيت إن كان على الهدى"، فباللغة الفرنسية تصبح إذا ترجمناها: "هل اعتبرت أن الذي أراد منع عبد يقوم بصلاته، إذا كف، سيجر أمام النار مع الخطائين،

«As-tu considéré celui qui a voulu empêcher un des Serviteur de Dieu de faire ses prières… si il se désiste, il sera traîné devant le feu de l'enferre avec les méchants…»[2].

في الآيات القرآنية لا نجد ما يبين أن الذي لا يصلي سيجر أمام النار، كذلك بالنسبة لعنوان السورة وهو العلق والذي يعني في اللغة العربية قطعة من الدم الغليظ، وهي النطفة في الطور الثاني، وعنوان السورة بالفرنسية L'Adhérence هي اتحاد أو التصاق وليس لها نفس المعنى.

وبالتالي هذه الترجمة وضعت بمواصفات مسيحية كنسية، فرنسية، ولم يكن لهذه الترجمة صدى كبير، وإنما القراء سيعتمدون ترجمة ستاني بعد هذه ببضعة سنوات في 1698م من طرف مراسي Maracci[3]، ما اهتم به القراء هو المقدمة التي وضعها في البداية.

السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا، هل عمل دورايور لم يكن يتماشى مع عصره؟، رغم أنه يتصف بالرغبة في معرفة الآخر عن طريق الانفتاح للغات الشرقية، ولكن لم

(1) Sieur Du Ryer: **L'Alcoran de Mahomet…**, op.cit, p8.

(2) نفسه، ص9.

(3) Michel Mourre: **Dictionnaire encyclopédique d'histoire**, op.cit, V4, T2, p207.

يكن لهذا العمل صدى كبير، ربما لأن النص بالفرنسية ورجال الدين آنذاك كانوا يقرؤون باللاتينية، فهو ينزع له صفة القداسة ويدنسه ويجزءه إلى بعض السور ويصبح في متناول الجميع، وأخرج هذا الكتاب من ظلمات الكنيسة ورجال الدين الذين كانوا يستعملونه ويفسرونه كما يريدون إلى أرض الواقع، وهذا الكتاب الذي استعملته الكنيسة من أجل تعبئة الجماهير ضد المسلمين بتفسيراتها له حسب أهوائها، سهل القراءة والحصول عليه لمن أراد الاطلاع عليه.

ما عدا هذه النصوص الثلاثة هنا كل ما كتبه الرحالة عن رحلاتهم وهي الوسيلة التي اتخذها معاصرين القرون الحديثة لتعرف والاحتكاك أكثر بالإسلام والمسلمين، ورغم أنها غير معروفة عند فرنسيي القرن 17م، إلا أنها ستثري معرفتهم للإسلام وحضارته.

قصص الرحلة أهم ما يتميز به هو أنه خليط من المعلومات المختلفة التي عاشها الرحالة فهو يجمع الأساطير بالخيال بالحقيقة وتجاربهم الخاصة، كذلك ما كتبه أو قاله علماء المنطقة، ومغامراته كيف عاشها بكل مراحلها، وحاول الرحالة بمجرد عودتهم كتابة أو قص كل ما شهدوه حتى ينشره بين مجتمع المتعطش لمثل هذه الكتب الاستشراقية، أو بالأحرى الخاصة بالشرق الإسلامي، واختلفت هذه الكتب عن ما كتب في عصر ماركو بولوا، والبحارة الأوائل الذين ركبوا البحر بحثًا عن مناطق جديدة، وهنا سنهتم بما كتبه الرحالة من رجال الدين.

الخروج من مدينته للتجول داخل الوطن يعتبر مغامرة مهمة فما بالك إذا خرج من أجل اكتشاف العالم والأراضي البعيدة، وكم تكون هذه التجربة غنية، واحتكاكهم مع المسلمين والبربر، وخرج معظم رجال الدين من أجل نشر المسيحية في أوساط الأهالي الضالة – على حد تعبيرهم – أي المسلمين الذين يعتبرونهم المسيحيين كفار، انحازوا عن الدين الصحيح. فانطلق العديد من هؤلاء نحو البلاد الإسلامية وكثرت قصصهم أو كتاباتهم تصف المنطقة وأهلها والحضارة والعادات والتقاليد.

أهم ما يمكن ملاحظته من خلال كتب أو قصص الرحلات أنه تغيرت طريقة الكتابة، ففي النصف الأول من القرن 17م، تميز بالعديد من القصص حول الأراضي المقدسة والرحلات إلى تلك المنطقة[1]، أي إلى غاية 1650م، ثم نحصي حوالي عشرة كتب

(1) René R. Khouam: **L'univers**, op.cit, pp93-98.

فقط من 1650م حتى 1700م[1]، وكانت هذه الكتب لها عناوين جذابة، كالباقـــة المقدســـة، (Le bouquet Sacré)، السفر المقدس إلى تل أبيب (Le très Saint voyage à Jérusalem)، الحج الحقيقي للأرض المقدسة (Le pèlerine véritable de la terre Sainte)[2]، ولكن هذا النوع من الكتابة أو العناوين لن نجدها في النصف الثاني من القرن 17م، بل يكتفــون بعناوين سهلة، يعلن مثلاً السفر إلى الأرض المقدسة أو السفر إلى تل أبيب، وذلك لأن القراء اختلفوا وأصبحوا لا يهتمون بهذا النوع من الكتابات، وأصبح يهتم بنوع آخر من الكتب، مثلاً: قصص تحرير الأسرى في المغرب والجزائر، والتي ستخلف قصص الحج إلى الأراضي المقدسة[3]، فالأب نوو (Nau) يجلب القراء عن طريق رحلة جديدة للأراضي المقدسة، والتي ثمّنها بالعديد من الملاحظات الخاصة بالكتابات المقدسة.

وبالمقابل نقص عدد العناوين يمكن تفسيره كذلك أن الرحالة بين 1650م – 1700م لا يتردد في القيام بدوره حول الشرق وتكون ضمن رحلته للأراضي المقدسة، فمثلاً يتخذ طريق الإسكندرية ثم القسطنطينية وفي بعض الأحيان يصل إلى الهند، وهنا يتغير العنوان إلى العلاقات، رحلة نحو الشرق، أو في بعض الأحيان الدولة العثمانية، ولكن هذه القصص أو كتب الرحلات لا تمثل العلاقة بين المسيحيين والمسلمين، بل هي تصف الرحلة وجمالها وعظمة الوصول إلى الأراضي المقدسة[4].

وصل قصص الرحالة من رجال الدين أو المنصرين أو المبشرين إلى حاولي 38 ما بين 1650م – 17000م، بينما وصل عددهم ما بين 1600 – 1650م إلى حوالي 27، وذلك أن جمعية المنصرين في الخارج تأسست في 1622م من طرف فرڤوار 15[5]، وهنا تعتبر الانطلاقة الثانية لعمل المنصرين، بعد الانهزام في الحروب الصليبية، أصبحوا يكتفون بالإرساليات لتنصير الناس، اليسوعيين، والكانوسين والكرمن ينتشرون في المشرق، يتنقلون في الأراضي، فقام السلطان العثماني بتحديد مهمتهم في المنطقة المقدسة، حيث كان حكام المنطقة يقبلون وجودهم، شرط أن يتوقف على تمثيل جاليتهم أي

(1) Gérard. J. et Margolin J. C.: **Voyager à la renaissance Maisonneuve et Larose**, 1986, p72.

(2) نفسه، ص92.

(3) نفسه، ص ص92-94.

(4) Dominique Carnoy: **Représentation de l'Islam dans la France…**, op.cit, p48.

(5) René R. Khouam: **L'univers**, op.cit, p101.

المسيحيين لدى الكنيسة لا غير[1]، أضف إلى ذلك أن الإسلام يمنع تغيير الديانة من الإسلام إلى أخرى وتعتبر عند المسلمين الردة وحكمها القتل لتفادي الفتن، وهذا ما لاحظناه من خلال عناوين كتب الرحالة الذي يظهر نوع من الاستياء، فمثلاً: الوضع الحالي لتركيا (Etat présent de la Turqie) لميشال فيبفر (Michel Febvre) 1675م، العلاقة الجديدة وهي على شكل مذكرة لرحلة لمصر 1672م و 1673م لمجهول، ملاحظات حاج لمختلف رحلاته لسوريا، بلاد الرافدين، وبابل، وبلاد فارس، للأب ريقوردي (Père Rigordi) 1673م، رحلة وعلاقة للوضع الحالي لمملكة بلاد فارس مع تحليل عجيب حول العادات والدين والحكم لـ سونسو (Mr Sanson) 1695م[2]، وهنا يتحول رجل الدين إلى رجل علم ويكتب في كل ما يحيط به، وهكذا يضمن القراءة لكتابه من طرف العديد، بينما الآباء الذين بعثوا إلى المغرب أو بلاد البربر والذين كانوا عادة ينتمون إلى جماعة الميرسي (Mercy)[3] وجماعة التثليث، من أجل تحرير الأسرى، الجهاد البحري، في المغرب والجزائر، والذين كانوا يستعملون لخدمة الأرض، ولكن بمجرد دخولهم الإسلام يحصلون على حريتهم يصبحون ينتمون للمجتمع الإسلامي، ما جعل رجال الدين يهتمون بهم، يعملون من أجل الحصول على الأموال لتحريرهم قبل أن يدخلوا في الإسلام[4].

وهذا ما نلمسه من خلال عناوين قصص رحلاتهم، مثلاً:

La Miraculeuse rédemption des captifs faite à salé, côté de Barbarie, sous les heureux auspices du sacre du roi très-chrétien.

من طرف رجالي الدين، من جماعة التثليث المقدسة أرتوكس وهرون (FF. Armceux et Hérom) 1654م مرآة الصدقة المسيحية (Le miroir de la charité chrétienne) وكذلك كتاب لمجهول يتكلم فيه عن رحلة جماعة كنيسة السيدة دو لا ميرسي (Notre-Dame de la Mercy) وأصدر في 1662م، وكانت هذه الرحلة للجزائر حيث جلبوا حوالي مئة من الأسرى. أو كتاب آخر: "علاقة الاضطهاد المفروض على الأسرى الذين بيعوا كعبيد في

---

(1) Dominique Carnoy: **Représentation de l'Islam dans la France…**, op.cit, p49.

(2) Ibidem.

(3) المرسي (Mercy): جماعة تسمى جماعة السيدة للمرسي هم جماعة دينية كاثوليكية تأسست من طرف بيار نولاسك، (Pierre Nolasque) من أجل شراء المسيحيين الأسرى من طرف رياس البحر، وكان في 1218م. للمزيد انظر: Aldine Rucquoi, l'homme nouveau, CNRS, 2008, p76.

(4) Boutin A.: **Anciennes relation commerciales et diplomatique de la France avec la Barbarie (1516-1830)**, Pedone, Paris, 1902, p93.

الجزائر وتونس" (Relation des persecution subies par les chrétiens vendus comme esclaves à Alger et Tunis,)[1] في 1670م من خلال كل هذه الإصدارات حاول رجال الدين الرحالة برهنة مرة أخرى أن الإسلام هنا وهو العدو الأكبر، ولا يجب على المسيحيين تجاهل ذلك ولو للحظة، ويعمل المنصرين على تذكير الكل بذلك حتى لا يسيطر الإسلام على العالم، يمكن القول أن محتوى هذه الكتب يخدم أهداف المنصرين والكنيسة، ويظهر أن الإسلام هو كتلة لا يمكن القضاء عليها، مباشرة فيجب الدخول ببطء عن طريق كل الطرق الممكنة[2].

شهد القرن 17م كذلك العديد من الرحلات لزيارات – الحجاج – إلى الأراضي المقدّسة، حيث منذ أن فتح سليم الأول فلسطين وأصبحت الأراضي تابعة للدولة العثمانية، وأصبحت لها وضع خاص – ونوعا ما غامض – عند المسيحيين طبعا، لأن عندنا نحن المسلمين الواقع واضح لا يحتاج لا لتفسير أو أي شرح، بينما عندهم تسبب في العديد من الصراعات وذلك لتواجد العديد من المسيحيين الغربيين بشعائرهم اللاتينية من جهة، والشرقيين بشعائر يونانية، أرمينية، ناسطوريين، مارونيين، أقباط من جهة أخرى والكل يطالب أن تكون حماية الأراضي المقدسة من طرف المسيحيين، وقد سُلمت منذ القرن 13م من طرف البابا حمايتها لجماعة الفرنسيسكان[3]، وفي 1534م فضل سليمان القانوني البطاركة اليونان، فسلمهم المفاتيح[4]، الوضع الذي أغضب فرنسا والتي تعتبر نفسها الحامية الشرعية لهم، فطالبت بحقها لحماية هذه الأراضي والتي حصلت عليه منذ أن حصل شارلمان مفاتيح القبر المقدس من طرف هارون الرشيد، وخلال معاهدة الاستسلام بين هنري الرابع وأحمد الأول في 1604م، طالب الفرنسيين بإرجاع حماية الأراضي المقدسة للفرنسيسكان[5].

ما ميزت هذه المرحلة، الكتب العديدة التي كتبت، ولكنّها لم تأتِ بالجديد، بل اعتمدت على الكتب التي كتبت في الأول للأب "دان" والأب "بودي". ما كتبه الفرنسيسكان هي نصوص جاءت من أجل اختبار العقل، وهناك من بينها ثلاث ذات أهمية في إعطاء صورة للإسلام والمسلمين.

(1) Boucher de la Richaderie: **Bibliographie universelle des voyages**, V3, Paris, 1808, p302.

(2) Dominique Carnoy: **Représentation de l'Islam dans la France…**, op.cit, p51.

(3) عبد الجليل شلبي: **الإرساليات التبشيرية**، مرجع سابق، ص ص51-52.

(4) نفسه.

(5) Dominique Carnoy, op.cit, p52.

فهناك سفر إلى أورشليم (Voyage à Jérusalem)، وهو مقسم إلى ثلاث كتب، يحتوي على وصف طبوغرافي للعديد من المملكات والدول والمدن، ووصف للديانات الموجودة هناك في المشرق، والعادات والتقاليد، وكذا أفكار وآراء حول القرآن، ثم وصف كامل لأحداث القدس وكل المناطق المقدسة في فلسطين، وصاحب هذا الكتاب هو رجل الدين الأب برناردان سريوس (Le Pére Bernardin Surius)[1].

وهناك كتاب آخر العلاقات الجديدة والوفية للأراضي المقدسة لرجل الدين الأب فيلكس بوقروند (Felix Beaugrand)[2].

وكتاب آخر تاريخ وسفر إلى الأراضي المقدسة، وحاول الاهتمام بكل ما هو موجود ولافت للانتباه في هذه المنطقة وكتبه الأب جاك كوجون (Le pére Jacque Goujoun)[3].

ما يمكن الاهتمام له من خلال هذه النصوص الثلاثة، ليس كل ما تحتويه بل تصويرها للإسلام والمسلمين وعلاقتها معهم، وخاصة الفكر الذي يغذي هذه العداوة والحقد على الإسلام، وهذه العلاقة التي تتصف منذ البداية بالتوتر، والصراع.

فعندما ننظر إلى الفرنسيسكان الذين يعتبرون أنفسهم حراس وحماة شرعيين للمناطق المقدسة، وهذا ما يصرح به الأب "كوجون" من خلال كتابه مباشرة بعد تحديده للمنطقة جغرافيا وتاريخيا حيث يقول: «... الساميين هم السكان الأصليين للمنطقة والذين سكنوها بعد الطوفان، وتركوا المنطقة لمن جاء من بعدهم، والمؤسف أن نرى أن هذه الأراضي المباركة هي في حوزة أو ملك للأتراك، أو العرب، أو اليهود، والذين جعلوا من أقدس مناطقنا مركزا لفواحشهم، سيدنسوها أكثر، لو لم يثير الرب جماعة القديس فرنسوا مولاي وسيدي هو وأتباعه من كل مناطق العالم للمحافظة على نقائها، لقد أمنهم على هذه الأرض المباركة، التي شهدت مولده وحياته وموته وجعلهم الوارثين الشرعيين لمعاناته، وحراس على أغلى ما يملك فوق الأرض...»[4].

(1) Torchon de Lorier. R.: **Episode d'un pèlerinage en terre Sainte, 1644**, acte du 2ème congrès des société d'histoire et d'archéologue de l'Aisne 15 mai 1966, Tome 12, éd., imprimerie Chauny, 1966, p13.

(2) نفس المصدر السابق، ص19.

(3) نفس المصدر السابق، ص22.

(4) Sem en fut donc le premier possesseur, et le premier habitant après le déluge, lequel laissa le pays à ses successeurs et malheur, nous voyons aujourd'hui que cette terre de bénédiction et dans la possession des Turcs, des Arabes, des Maures, des Juifs qui fond de nos plus Saints lieux une Babylone d'abomination, il les profaneraient encore d'avantage si Dieu ne suscitaient continuellement les religieux de l'ordre de Saint François, mon illustre patriarche de toute sortes, de provinces et de royaume, pour en conserver la pureté. Il leur a confiés, cette terre de bénédiction, de sa naissance de sa vie et de sa mort, comme aux légitimes de ses souffrances et de l'humilité de la croix… leurs donnant en garde et en dépôt ce qu'il avait de plus précieux sur la terre… ». R. P. Jacque Goujon: **Histoire et voyage de la terre Sainte, chez Pierre compagnon, et Robert Taillandier, 1671**, Paris, p12.

إذا تمعنّا في الألفاظ والمصطلحات والتعابير المستعملة، فنجد أنه يحاول إعطاء الشرعية للمسحيين في حماية واكتساب المناطق المقدسة، وأنهم السباقين في المنطقة وهي عبارة عن صراع بين أصحاب الشرعية أي المسيحيين حسبه والمغتصبون الذين هم المسلمين والذين حسب تعبيره دخلوها بالقوة وسيطروا عليها وأن المسلمين لم يكتفوا بذلك بل جعلوها منطقة معاصي، نستنتج أنه بقي متمسك بالفكر الكنسي الأول الذي عمل جاهدًا على إظهار المسلمين مغتصبين لهذه الأراضي، وأن رسولهم كاذب وأن هذه العقيدة أي الإسلام هي خاطئة، رغم أنهم حاولوا إقناع العالم أنهم يبتعدون في كتابتهم من توجه الكنسي الأول، إلاّ أننا بمجرد تفصح الأوراق الأولى من هذه الكتب نجد بصمات الأفكار الكنسية الأولى موجودة وبقوة، ويحاول ترويجها ولكن بطرق جديدة تتماشى مع الأوضاع المستجدة في المنطقة آنذاك فيقول كذلك «... كما علمت من أحد أقدم أئمتهم أنهم حاولوا ثلاث مرات بناء مبنى عالي (صومعة على أغلب الظن) من أجل النداء للصلاة، ومدح ربهم، ورسولهم الكاذب ولكنهم لم يتمكنوا وكانت تسقط في كل مرة...»[1].

وهو يحاول بهذا النوع من القصص إظهار أن العناية الإلهية مع المسيحيين وهذا ما يقنع به الآخرين أن الديانة الإسلامية خاطئة، لا يقوم من خلال هذا الكتاب بوصف للإسلام و المسلمين واضح وإنما يكتب حول كل ما يتعلق بالإسلام و المسلمين دون تصريح، أي بطريقة غير مباشرة، من خلال قصصهم لحكايات أو أحداث وقعت إما لهم أو للمسيحيين وبما أنهم محتكين بالمسيحيين فستكون هناك علاقة لهذه القصص بالمسلمين لا محال، في كل مرة الصورة التي يريدون ترويجها عن الإسلام والمسلمين.

الأب سيريوس (Surius) ينظر للأراضي المقدسة بمنظار تاريخها المقدس لدى المسيحيين، وكذا بنظرة الحروب الصليبية، وفي الظاهر هذا الكتاب مخصص للحديث عن رحلة للأرض المقدسة. ولكن نلاحظ انه حوالي 90 صفحة مخصصة للمسلمين أي من الصفحة 160 إلى الصفحة 253[2] وهذه الصفحات وكأنها مضافة للكتاب وليس لها علاقة

---

(1) « … J’ai appris de leurs plus anciens Santons, qu’il n’y a pas longtemps qu’il tentèrent pas trois fois d’y bâtir une tour pour crier comme dessus les autres et exciter leur gens aux louanges de Dieu et de leur faux prophète Mahomet, mais que jamais il n’avaient pu réussir, qu’elle tombait aussitôt qu’elle était un peu élevée hors de ses fondements, ce qui les a empêchés depuis ce temps d’en recommencer une de nouvelle fabrique… ». R.P. Jacque Goujon: : **Histoire et voyage de la terre Sainte…,** op.cit, p34.

(2) Surius Bermardin, P.: Le pieux pèlerin, ou voyage de Jérusalem, divisé en trois livres contenants la description topographique de plusieurs royaumes, pays, villes, nations étrangère, nommément des quatorze religions orientales, leurs mœurs et humeurs. Joint un discours de l’Alcoran et un traité de la cité de Jérusalem et de tous les Saint lieux de la Palestine, le tout remarqué et recueilli, éd., François Foppens, Bruxelles, 1666, pp160-253.

بما بداخله ويقوم من خلال هذه الصفحات بوصف للمسلمين وعقيدتهم وعاداتهم وتقاليدهم، ويتخلّى خلال تسعون صفحة عن الموضوعية، وهذا الوصف أو هذه التسعون صفحة الخاصة بالمسلمين لم تكن وصفا لما رآه خلال رحلته وإنما ما جمعه من الكتب القديمة التي أثارت هذه المواضيع مرارًا وتكرارًا، وهذا ما يقوله في مقدمته أنه اعتمد على كتب بودي (Baudier)، ورجل الدين بوشر (Boucher)، وكذا روجير (Frère Roger)[1]، وهذا يتضح من خلال نصه حيث نجد خلاله فقرات كاملة مأخوذة من كتاب بودي، أما بالنسبة لترجمة القرآن، فإننا نرى أنه يعود إلى ترجمة كولوني وكأنه يتجاهل الترجمات الأخرى حتى يبقى من خلال عمله هذا على نفس فكر الكنيسة للعصور الوسطى، حيث وصفه للعقيدة هو يشابه ما كتب سابقا، ولكن ما يشد الانتباه هو وصفه للجنة في عقيدة الإسلام فهو يقول: «... هذه الجنة مقسمة إلى سبعة جنات وتختلف كل واحدة عن الأخرى، فالأولى أين وصل محمد خلال ليلة الإسراء والمعراج، وهي مرصعة بالفضة، والثانية، كلها من ذهب، والثالثة من الجوهر، والرابعة من الأحجار الكريمة، والخامسة من البلور، والسادس من نار والسابع هي جنة من البساتين بها أعين من حليب وعسل وخمر وزيت، وفيه كل أنواع الأشجار ومن بينهم واحدة اسمها التوبة والتي تظلّل بأوراقها كل الجنة، وأوراقها من ذهب وفضة ومن جهة كتب عليها الله ومن الجهة الأخرى رسوله محمد، وفي مدخل هذه الجنة حراس بصفة وحوش بأحجام مختلفة، فبعضهم يشبه الإنسان برؤوس بقر بقرون طويلة، 40 ألف عقدة وبين العقدة 40 يوما من المشي، ووحوش أخرى بـ 70 ألف وجه وفم»[2] ثم ينهي كلامه قائلا: «... لنخرج من هذه الجنة المليئة بالقرون وهذه الأفواه الكبيرة، خوفا أن تلتهمنا هذه الوحوش...»[3]. لا داعي لمناقشة هذه الأقوال التي تبدوا استهزاءا وخاصة أن قرآننا لا يحتوي على هذا الوصف للجنة، وإنما

---

(1) Serius Bernardin: Le pieux pèlerin…, op.cit, page préface, p3.

(2) «… Ce Paradis est divisé en 7 grandes compagnes qui font autant des Paradis différents l'un de l'autre, le premier ou il fut et vouté, lambricé et pavé d'argent, le d'or, le troisième, tout parsemé de perles le quatrième, tous enrichey d'esmraudes, lequel agréa sur tous à Mahomet en mémoire du quel pris le vert pour se livrée (…) le cinquième paradis est une matière semblable au cristale (…) le sixième est semblable au feu, le septième est un jardin délicieux ou sont des fontaines et rivière de lait de miel, de vin et d'huile, entre toute les espèces d'arbres, il y en aura un au milieux nommé Tuba'a, qui ombrage tous le paradis toute les feuilles de cet arbre soit d'or et argent, à chacun des quelle est d'un côté le nom de Dieu et de l'autre celui de Mahomet (…) l'entrée de ce paradis est gardée par une multitude d'Anges de diverses et montreuses formes, les un sont comme des hommes ayant des têtes de vache, avec des cornes qui ont chacun 40000 nœuds», Surius Bernadin, op.cit, pp176-177.

(3) «… Mais sortons de ce paradis cornu, et de ces grandes bouches de crainte que ces monstres ne nous engloutissent en marquant no forts de leur cornes…» Surius Bernadin, op.cit, p178.

وصف القرآن للجنة يجعل المسلم يعمل ليل نهار للوصول إليها. ولكن ما نلمسه من وصف هذا الراهب للجنة بهذه الطريقة، تذكرنا بوصف القدس السماوية في سفر الرؤيا Jérusalem Céleste والتي تحتوي على وصف مشابه في الأرض والأنهار والأبواب والأحجار الكريمة والذهب والفضة[1]، كذلك إذا تمعنا في هذا الوصف للجنة نجد أنه يحمل ميزتين متضادين من جمال وبهاء وحلي وذهب وفضة وفواكه وأشجار ووديان، ويقابلهما الوحشية والبشاعة والوحوش ربما من أجل الوصول إلى الصورة الشيطانية لهذه العقيدة – الإسلام – لدى الكنيسة، ولهذا يتكلم عن الوحوش بقرون وأوجه عديدة وأفواه متعددة وكأنه يصف الشيطان وبذلك يعود إلى الصورة الأولى التي أعطاها رجال الدين للإسلام والمسلمين ورسولهم، كما أنه يريد من خلال هذا الوصف توصيل فكرة أن هذا الدين يجمع بين الحقيقة والخيال.

نجده كذلك يصف الأتراك قائلا: «...الأتراك ليس لهم عقل وكسلاء أو بطيئين في العمل، ليسوا بارعين في الزراعة ولا حتى في الفنون والأعمال الأخرى، ولكنهم الأوائل في الفسق والخرافات...»[2]، أي يحاول أن يقول أنهم الصورة الحقيقية لديانتهم، لأنه يعني هنا بالأتراك المسلمين صحيح أن من خلال هذه النصوص لا يوجد وصف حقيقي للمسلمين والإسلام أو حياتهم وعاداتهم، وإنما حاولوا إعادة ترسيخ فكرة الكنيسة الأولى، أن المسلمين مغتصبين للأراضي المقدسة، وذلك من خلال عدة قصص لا علاقة لها بالمسلمين في غالب الأحيان[3].

أما الأب دودبان (Père Doudban)[4] من خلال كتابه: سفر إلى الأرض المقدسة[5] والذي أصدر في 1657م والذي سيعرف عدة طبعات، واعتمد في كتابه على ما جاء في كتابات رجال الدين الأوائل، وكذا ما جاء في الإنجيل، ونجد أنه يعلق في المقدمة أنه لن يتكلم عن شيء لا يعرفه، وهذه طريقة لتأكيد بأن كل ما روى في كتابه إما شاهده أو كان مشارك فيه للحصول على نوع من الشرعية، وأنه إذا أعطى أو صرح على أشياء يجب أن تقبل من طرف القارئ لأنه يعرفها حسب تصريحه الأول، ففي حوالي 750 صفحة

---

(1) Dominique Carnoy: **Représentation de l'Islam dans la France…**, op.cit, p62.

(2) « …. Les Turcs de peut de cervelle, et d'un esprit égus comme une loule, forts paresseux et tardifs au travail, et nullement propre au labourage, ni aux arts libéraux… ils sont adonnes à la lubecité… fort supers lieux…» Surius Bernardi: Le pieux pèlerin…, op.cit, p186.

(3) Dominique Carnoy, op.cit, p63.

(4) Torchon de Lorier. R.: **Episode d'un pèlerinage en terre Sainte…**, op.cit, p22.

(5) Voyage de la terre Sainte.

والتي خصص أهمها للمسيحيين ورحلته للأرض المقدسة (تاريخ المنطقة، الحروب الصليبية وآثارها على المنطقة)، ولكن رغم ذلك فإنه استطاع وهذا ما نلاحظ بمجرد تصفحنا الفهرس أنه خصص من حوالي 100 عنوان يوجد 19 يخص المسلمين مباشرة[1] وليست مواضيع شاهدها أو كانت له معها أية علاقة:

- العرب البدو أكبر اللصوص.
- مقابر الأتراك.
- ممنوع على الأتراك شرب الخمر.
- درويش الأتراك.
- عمر أمير المؤمنين يمنع الخمر على المؤمنين.
- اضطهاد الأتراك لرجال الدين في القدس.
- صلاة المحمديين أو أتباع محمد.
- الأئمة الأتراك.
- سليم الأول سلطان الأتراك يسيطر على الأرض المقدسة.
- العدو القاسي على المسيحيين.
- خرافات أتباع محمد.

هذا العمل هو مزيج، حيث يحتوي على قليل من الأحداث التاريخية ولكن حسب المصادر المسيحية طبعا، وجدال حول الاستيلاء على الأراضي المقدسة، وكذا سرد لبعض العادات والتقاليد، وهذا المزيج كله من أجل إعادة تجديد الفكرة القديمة والمسلّم بها في أوساط رجال الدين والكنيسة أنه لا وجود للإسلام والمسلمين إن لم يكن هناك معارضة للمسيحيين.

وعند وصفه للإنسان المسلم وأقصد هنا الوصف الشكلي، فيصورهم على أنهم رجال بأجسام مخيفة، شكلهم يقترب من شكل الوحوش، في القرون الوسطى[2].

ثم يصف في صفحات أخرى صلاة المسلمين فيقول: «... لقد حصل لنا أخيرا أن نرى من سطح البيت كيف يقوم المسلمون بالصلاة، فشاهدنا 3 أو 4 مسلمين يقيمون الصلاة فوق أرض مسطحة، أمام مسجدا صغير، بعد أن يغتسلوا جيدا بالماء، يبدعون

---

(1) Doudban Jean, P.: **Voyage de la terre Sainte ou contenant l'état de la ville de Jérusalem**, éd., Clouzier, Paris, 1675, Table des matières principales.

(2) Ibid, p167.

الرقص بالأيدي مرفوعة نحو السماء ورأسهم مرفوع، ويصرخون بصوتٍ عالٍ، ويقومون بعدّة دورات الواحدة داخل الأخرى، ولمدة طويلة، ثم يلقون بأنفسهم على الأرض يقبلونها عدة مرات، ويتمتمون بين شفاههم وأكنهم مجنونين، وينهضون ويعيدون نفس الرقصة ثلاث أو أربع مرات...»[1].

نلاحظ من خلال هذا الوصف إلى أي درجة يحاول السخرية بكل الطرق من هذا الدين من خلال هذا الركن المهم من أركان الإسلام وهو الصلاة والذي يرتكز عليه المسلم، فيحوّله من خلال وصفه إلى مهزلة وأظهره أنه رقص، فمن خلال عمله هذا يعود بنا إلى الأفكار التي عرفتها الكنيسة، هذه الطريقة التي حاول دائمًا رجال الدين من استعمالها لتحويل هذا الدين إلى مجال ضحك، خلال العصور الوسطى.

أما بالنسبة لليسوعيين الذين زاروا أو عاشوا في المشرق فكان لهم كذلك نصيبهم من الكتابات لإعطاء صورة معينة للإسلام أو المسلمين أو رسوله، فهناك مثلا الأب جوزيف بوسون (Joseph Besson)[2] وكان مؤلف لكتاب ضخم بعنوان "سوريا المقدسة"[3] وقد أصدر في 1660م، وتم تصدير الكتاب من طرف الأب نيكولاي دو بوارسون Nicolas de Poirsson[4] هو كبير أو مسؤول الإرسالية سوريا، وأرسل إلى الأب جاك رونو (Jacque Renault)[5] مسؤول الإرساليات في فرنسا يؤكد على أهمية هذا العمل أو الكتاب وضرورة طبعه ليكون في متناول الجميع.

كذلك عمل ليسوعي آخر وهو الأب ميشال نوو (Michel Nau) والذي انتقل في 1674م من صيدا نحو الأرض المقدسة برفقة المركيز أولي دوانتال (Ollier de Nointal)،

---

(1) « … Nous eûmes enfin le plaisir de voire de la terrasse de la maison 3 ou 4 Santons faire leur prière sur une plate-forme devant une petite mosquée, s'était bien lavés avec l'eau, il se mirent à danser les bras étendus, la tête levée en haut, crier à pleine gorge et faire mille tours les uns dans les autres fort longtemps, puis se jettent à terre la baisent plusieurs fois, marmottent entre les dents, avec des gestes de personnes toutes transportées, se relève et recommence le même dance trois ou quatre fois», Doudban Jean, P.: **Voyage de la terre Sainte…**, op.cit, p495.

(2) جوزيف بيسون ولد في 1610م والتحق بجمعية اليسوعيين في 1626م ودرس في علم اللاهوت قبل تدريس الإنسانيون، علم الجدل والفلسفة ومدير كوليج نيم (Nimes)، ثم بعث إلى الفرس عبر سوريا من طرف كولبير (Colbert) لجمع المخطوطات الشرقية. انظر:

Sommervogel C. S. J.: **Bibliothèque de la compagnie de Jésus**, Vol 1, éd., S.U. et Omort, 1960, Bruxelles, p225-226.

(3) Le P. Joseph Besson: **La Syrie et la terre Sainte, au XVII^ème^ Siècle**, N éd., Victor Palmé, 1862.

(4) Boucher de la Richaderie: **Bibliographie universelle des voyages**, op.cit, p208.

(5) نفسه، ص214.

والذي كان سفير فرنسا لدى الباب العالي، هذا السفر سيمكنه من تأليف كتابه: "سفر جديد للأرض المقدسة". والذي عرف شهرة كبيرة وعدة إصدارات، وكان له كتاب آخر، ولكن أصدر بعد وفاته في 1648م، بعنوان "دين محمد"، وحاول من خلاله محاربة القرآن بالقرآن، أي حاول إيجاد نقاط تناقض في هذا الكتاب.

تميزت كتاباته بفكر يسوعي قدمه بكل الطرق الممكنة عن طريق كتابه الأول، حيث جمع بين ثلاث آراء متتالية حسب نظام كرونولوجي، التاريخ القديم حسب المصادر الإغريقية، تاريخ الديانات اعتمادًا على تاريخ المقدس وتاريخ الحروب الصليبية، اعتمادًا أساسا على مصادر الكنيسة العربية، وأخيرًا التاريخ المعاش (آنذاك) أي تواجد العثمانيين في المنطقة.

ومن بين أهم الأفكار التي نجدها في هذا النص هو أن الأراضي المقدسة غربية ويسيطر عليها المشارقة المسلمين، وهو نفس ما نجده عند معظم كتاب رجال الدين من الفرنسيسكان وغيرهم، فالأب نوو مثلاً يشرح في الفقرة الأولى من كتابه كيف ينسب هذه الأرض للمسيحيين قائلاً: «... نسمي الأرض المقدسة، الأرض التي اختارها الرب بين كل أراضي العالم ليجعلها مسرح لهذه العظمة... وأين سيأتي في آخر القرن لمحاكمة أعداء القداسة لتعذيب الأبدي..."[1].

نلاحظ أنه يرجع من خلال هذه النصوص إلى التاريخ القديم والذي يحاول تعزيز الفكر الديني، وبما أن الثقافة الإغريقية هي ثقافة غربية، ولا يبقى بعد ذلك إلا الشرعية الدينية، فالأب بوسون يصف المنطقة بطريقة مروعة: «... كل الأمم المعادية لمخلّص العالم، من أتراك، وعرب، ومغاربة، يهود، والمنشقين عن الكنيسة الكفار، سيقفون أمامه يومًا...»[2]، ويؤكد الأب نوو أن المسلمين أصبحوا ملاك للأراضي المقدسة، ويكتب أنه يجب أن يعملوا جاهدين لتغيير هذا الوضع، ويقول الأب بونسون إن ظهور مذنب في السماء دليل أنه جاء وقت الذي سنحصد فيه ثمار أعمالنا كمنصرين أي ما قام به المنصرين في المنطقة من أعمال تنصيرية[3].

---

(1) «… Nous appelons la terre Sainte la terre que Dieu à choisi entre toute celles du monde pour en faire le théâtre de ses grandeurs (…) ou il viendra à la fin des Siècles… condamner les ennemis de la sainteté à des supplices infinis». Nau Michel, S. J.: **Voyage nouveau de la terre Sainte enrichi de plusieurs remarques qui servent à l'intelligence de la Sainte écriture,** éd., limin et pralard, Paris, 1979, pp1-2.

(2) نفس المصدر، ص9.

(3) نفسه، ص10.

ونجد الأب نوو في آخر كتابه يطالب من الملك لويس 14 أن يعمل من أجل مساعدة هذه الأرض المقدسة وتخليصها من أيدي المسلمين، حيث يقول: «لا شيء مستحيل على لويس الكبير...»، هذا العدو المتفوق مؤقتًا المتمثل في الأتراك (يسمي الأتراك كل المسلمين) يجب دراسة نقاط ضعفه[1]. ويقول بونسون أنه لم يلتق بمنصر عاش في هذه المنطقة ولم يتلقى هجومات وهو كان معرض كل يوم إلى نزع أملاكه، ضرب قتل وغيرها من أنواع المطاردة، وهو يحاول إقناع الغرب أن عمل المنصرين أصبح صعب بوجود وسيطرة المسلمين على المنطقة، أي هو يطالب بطريقة غير مباشرة الملوك الغربيين المساعدة على تنظيف المنطقة على حد تعبيرهم، فهو يحاول إظهار إلى أي مدى هذا الإسلام والمسلمين هو ضار للمنصرين، وهو سبيل معاناة رجال الدين المسيحيين[2].

ومن خلال هذين النصين أهم ما أوضحه هي الخطوط التي يمكن للمنصر المشـــي أو السير عليها في هذه المناطق من أجل محاربة الإسلام وإعادة نشر المسيحية.

(1) نفس المصدر السابق، ص12.

(2) نفسه، ص14.

الفصل الثالث:

تنصير النخبة وخدمة المخططات الاستعماريـة

- المبحث الأول: الكتابات والأعمال الأكاديمية الموجّهة
- المبحث الثاني: نماذج عن المؤتمرات
- المبحث الثالث: البعثات الدراسية إلى أوروبا ومهمة تنصير النخبة

إن وصول المنصرين إلى تحقيق هدفهم وهو الهدم، يتطلب ذلك نزع الاعتقادات الإسلامية من أجل زرع التربية النصرانية، وخلق وضع سياسي يساعد من أجل تحقيق الأهداف، وإن النشاط التنصيري لن يكون بنفس الطريقة لكل المجتمـــع، لأن المجتمـــع أو الدولة التي يُراد تنصيرها مكونة من عدة فئات، فنجد أن حتى بين المنصرين أعمالهم محدودة، فهناك المنصر المتعلم والذي يهتم بالمثقفين والمتعلمين في المجتمع، فيكون نشاطه عن طريق إصدارات وأعمال علمية، وهنا يظهر نشاط المستشرق بما أن الاستشراق في بداياته، كان منبت كنسي جاء من أجل دراسة هذا الشرق الذي يُراد شن عليه حروب سلمية لمحاربة عقيدته للوصول إلى تطبيق أهدافهم[1].

وكان عمل المنصرين أساساً خلق بيئة ومجتمع له قابلية للاستعمار، وبإبعاد هذه المجتمعات عن إسلامها ودينها وعقيدتها، فيبعدها عن القدرة عن المطالعة، فعملوا جاهدين على السيطرة على أهم عناصر التعليم، الثقافة، الإعلام، واخترعوا قوانين ونظم من أجل استبدالها بقوانين الشريعة التي كانت تطبق في كل المجالات، علما أن القرآن هو يعتبر الكتاب الوحيد الوضعي والروحي في نفس الوقت[2].

وكان النشاط التنصيري له عدة محطات ومشاريع وطرق للوصول إلى الغاية، فكانت طريقتهم للتنصير تختلف من فئة إلى أخرى، فهناك من كان يهتم بتنصير الفئة البسيطة من المجتمع، فيركز عمله على الجوانب التي تشد اهتمامهم، والنخبة تستعمل معها طرق ومشاريع أخرى، وركزت على علمائهم ومنظريهم.

وحتى يتمكن المنصر من الوصول إلى أهدافه، وجب عليه اقتلاع الإسلام من جذوره، وتنصير كل المسلمين، لذلك وجب الالتفاف حول الإسلام، والهرب من مواجهته، ولكن اختراقه عن طريق مصطلحاته وثقافته والأنماط والأشكال المألوفة عند أهله.

وآليات أو طرق تنفيذ أهداف النشاط التنصيري هو المؤسسات، ذلك أن الدعوة المباشرة على الطريقة القديمة، تيقن الغرب أنها لا جدوى لها[3].

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر**، مرجع سابق، ص54.

(2) محمود عبد الرحمان: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص17.

(3) نفسه.

فقامت دول الغرب عن طريق علمائهم ومنظريهم ومنصريهم، للبحث في الطريقة الأنسب للسيطرة على المسلمين، فتوصلوا إلى طريقة الأسلوب الشامل[1]، دون الوصول إلى المواجهة المباشرة، لتحقيق أهدافهم، فأحسن الطرق هي تقسيم مهمة التنصير في المنطقة أو الدولة المراد تنصيرها، والاهتمام بتنصير كل فئة بطريقتها الخاصة وحسب اهتماماتها، ووضعت خطط ومشاريع لكل منها.

ومن بينها خلق جو متقبل للنصرانية، وذلك عن طريق الأدبيات والكتب، حتى تصبح النصرانية مألوفة في الأوساط الإسلامية[2]، واختراق الإسلام والمجتمع الإسلامي وهدمه وتنصيره من الداخل، حتى وإن بقي مسلم بالديانة ومسيحي بالتصرف والتفكير. فوصلوا إلى أسلوب التسلل والذي وصفوه هم بالقوة الصامتة وغير مرئية، وهي لا تدخل في أية جدال، وتنتقل من العقل إلى القلب ثم إلى الضمير، للوصول في الأخير إلى تحقيق ما يريدونه وهو التنصير، وهذا هو التخطيط الجديد الذي بدأ أو تصاعد بعد الحروب الصليبية في بروتوكولات القساوسة المنصرين والذين قالوا: إن الطريقة الوحيدة للوصول إلى المسلمين وتنصيرهم هي الطريقة الصامتة التي لا يمكن أن يتفطنوا لها ويحاربونها حتى بعد فوات الأوان[3].

---

(1) محمد عمارة: **الغارة الجديدة على العالم الإسلامي**، دار النهضة، مصر، 2007، ص ص24-26.

(2) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص33.

(3) نفسه، ص37.

المبحث الأول: الكتابات والأعمال الأكاديمية الموجّهة

يقول اللّورد بلفور – صاحب وعد بلفور 1917م –، عندما نزل ضيف شرف في إحدى الجمعيات التنصيرية: «... إن المنصرين هم من ساعد جميع الحكومات الاستعمارية، وعضدها في كثير من الأمور المهمة، ولولاهم لتعذر على تلك الحكومات أن تتجاوز العديد من العقبات، ولذلك فإننا في حاجة إلى لجنة دائمة تعمل لما فيه صالح للمنصرين...»[1].

أول ما يشدّ الانتباه هو نزول اللورد بلفور ضيف شرف على جمعية نصرانية، فنتساءل لماذا ينزل سياسي عسكري ضيف شرفي على جمعية تنصيرية، إن لم تكن العناية التي يمنحها للتنصير في برامجه السياسية العسكرية، وهذا ما يقرّه من خلال هذا النص، فهو يعلن بوضوح أهمية النشاط التنصيري، وبالتالي الدراسات والأعمال الاستشراقية التي هي جزء لا يتجزأ من الفكر التنصيري، ومن الفكر والحركة الاستعمارية، والسيطرة، ونلاحظ عبارة "فلولاهم لتعذّر"، أصبح النشاط التنصيري شرط مهم لنجاح الحركة الاستعمارية بكل فروعها، وعلى كل المستويات، وبذلك فإن التنصير والاستشراق دعامة الاستعمار في العالم الاسلامي، فكلاهما دعوة إلى تهوين القيم الإسلامية والفضّ من اللغة العربية، وتقطيع الأواصر بين الشعوب الإسلامية والتنديد بحال الشعوب الإسلامية، والازدراء بها في المجالات الدولية العالمية[2].

وحتى تكون عملية التنصير صحيحة وذات نتائج، فإنه من المستحيل استعمال نفس الطرق والوسائل لكل فئات المجتمع الواحد، فإن لكل فئة يجب على المنصر التعامل معها وفق اهتماماتها، واستغلال هذه الاهتمامات حتى تكون وسيلة للدخول منها للفكر المراد تنصيره.

وتكون عبارة عن مخططات وأعمال فكرية أو تثقيفية وهدفها التنصير أو الإبعاد عن الإسلام، وجعل من الأمة المراد تنصيرها طبقة تحمل على عاتقها مهمة تنصير مجتمعها.

---

(1) محمد الدعمي: **الاستشراق الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي**، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2001، ص31.

(2) محمد البهي: **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**، مطبعة الأزهر، القاهرة، ص507.

وعندما نقرأ لهذه الفئة، أو نحضر لمحاضراتهم نرى بوضوح أثر هذه الحملة الخطيرة ضد الأمة المسلمة وتاريخها، وكيف أصبح يسهر على تنفيذها وتطبيقها أبناء هذه الأمة الذين ترعرعوا وتغذوا واقتنعوا بآرائهم وأصبحوا أيادي المستشرقين لتطبيق خططهم ومشاريعهم[1].

كما صوروا لنا هؤلاء حضارتنا الإسلامية تصويرًا كاذبًا منقوص من شأنها، كما أن كتبهم وأبحاثهم، خاصة تلك التي تهم الشرق الإسلامي والمسلمين، حتى أصبحت كتبهم مراجع أساسية، في جامعاتنا ولدى طلبتنا.

1 – الاستشراق:

وهي كلمة أطلقت على كل الدراسات التي يقوم بها غير الشرقيين عن كل ما يخص الشرق: لغاته، أديانه، تاريخه وأوضاعه الاجتماعية[2].

بمجرّد أن نرى كلمة أو مصطلح دراسة الأوضاع الاجتماعية، نتساءل لماذا هذا الاهتمام بالمجتمعات في هذه المناطق الشرقية؟ إذا علمنا أن اهتمام المستشرقين بعلوم الشرق جاء مع احتكاكهم بالمسلمين خلال الحروب الصليبية، وتيقنهم للتخلف والانحطاط الذي كانت أوروبا تتخبط فيه مقارنة بالعالم الشرقي المسلم[3]. فمن هنا من المفروض أن يكون هذا الاهتمام بالعلوم أو حتى اللغة، ولكن بمجرد الوصول إلى الجانب الاجتماعي، يعني أنه هناك نية اختراق هذا المجتمع، فما هي الدوافع والوسائل المستعملة من أجل تحقيق هذه الأهداف؟

بما أن محركو الحروب الصليبية هم رجال الدين والرهبان، فمن الطبيعي أن يكون منبت هذا الاهتمام بعلوم الشرق كنسي، حتى أنه في بدايته كان منحصرًا في الكنيسة، وكانت أهدافهم نفس أهداف الحروب الصليبية، غير أنها اتخذت طرق جديدة لمواجهة غير مادية أو مسلّحة، وهي فرع أو تيار موازي للتنصير، وله نفس الأهداف والغاية، ويسيران جنبًا إلى جنب لتحقيق هدف واحد مشترك، وهو إهانة القيم الإسلامية، وتفرقة وحدة المسلمين والتمكن من السيطرة على خيارات المنطقة وثرواتها، وصرفهم في آخر

(1) طلال العترسي: **البعثات اليسوعية...**، مرجع سابق، ص ص55-57.

(2) محمد عمارة: **الغارة الجديدة على الإسلامي**، مرجع سابق، ص27.

(3) الفصل الأول من هذه الدراسة.

المطاف عن إسلامهم، وجلبهم إلى أحضان الحضارة الغربية ومسايرتها[1]، ولهذا يمنحهم الاستعمار اهتمام كبير وعناية وتأييد بالغ، لأنه يعتبرهم الجسر الذي يعبر عليه للوصول إلى المناطق المراد استعمارها.

2 – الدوافع:

نشط الاستشراق من أجل التنصير، وبالتالي تطبيق أهداف الاستعمار، وفتح له كل المجالات، وإعطائه المادة المناسبة واللازمة لتطبيق مناهجه، وذلك عن طريق دراسات مفيدة لقدومه واستقراره وسيطرته على المناطق[2].

كما أن الدراسات الاستشراقية لها علاقة وارتباط وثيق بالتنصير، بما أنه – كما سبق وأن تكلمت عنه في تطور الفكر الاستشراقي – بدأ على يد قساوسة ورهبان، كما أن الاستشراق لم ينفصل عن اللاهوت، بل لو نظرنا إلى الحركة الاستشراقية لوجدنا أن معظم المستشرقين ينطبق عليهم تعريف الاستشراق والتنصير في نفس الوقت، مثلا: – للذكر لا الحصر – صَمُوَيلْ زُومِيرْ (S.M. Zweimer)، وكذا جورج سيل (George Sale)، وماسينيون (Massignon)، وغيرهم كثيرين، كما أن المنصر والمستشرق يلتقيان في الأهداف العامة لنشاطهم وذلك في تشويه الإسلام، وتشكيك المسلمين، ومحاولة تضليلهم، كما أنه هناك ارتباط بين الاستشراق والتنصير في أنه يجب على المنصر والمستشرق أن يؤهل تأهيلاً جيدًا من أجل العمل بنشاطهما، فكلاهما يجب أن يكونا على معرفة واطلاع في علم اللاهوت، بل ويكون متعمقًا في الدراسات اللاهوتية، كما يجب عليه أن يكون عارفًا وملمًا باللغة العربية وباللغات الشرقية على وجه العموم[3].

وبذلك فإنهما لهما نفس التكوين، علمًا أن التكوين عند المنصرين يكون بمجمله كنسي أي بين جدران كنيسة أو دير، وبما أنهما يلتقيان في خصوصياتهما، فبالتالي، فإن المستشرق يكون متشبع بالأفكار الكنسية، وربما العدائية للإسلام والمسلمين وحتى الديانات الأخرى،

---

(1) عامر عبد زيد الوائلي: **تأصيل مفهوم الاستشراق**، مرجع سابق، ص ص16-17.

(2) محمود عبد الرحمان: **التنصير والاستغلال السياسي**، دار النفائس، لبنان، 2009، ص27.

(3) محمد العربي معريش: **الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق من خلال المجلة الآسيوية (1822 – 1872م)**، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2009، ص ص118-119.

فغالب الدراسات الاستشراقية والفكر الاستشراقي غير ملتزم بالموضوعية والأمانة في دراسته للشرق الإسلامي على وجه الخصوص[1].

بل تكون دراسة ممنهجة للوصول إلى تحقيق عادةً أفكار مسبقة، فيعمل على برهنتها للوصول إلى زرع الشكوك والظن في نفوس المسلمين باستعمال نخبتها، فغاية المستشرق ليست بالضرورة التنصير وإنما زرع الشك[2].

ويعتمد التنصير في نشاطه على دراسات وعمل المستشرقين من أجل الضغط والسيطرة على الفئة المثقفة، بمخاطبة الفكر وذلك عن طريق عدة وسائل، مهتمين بكل ما يتعلق بالمسلم وإسلامه، وعقيدته، والمناطق الإسلامية، وعاداته وتقاليده، وهويته، وكل ذلك من أجل السيطرة على الفرد، فالمجتمع[3].

وهذا الاهتمام أو الدراسة للإسلام والشعوب الإسلامية جاء من أجل تحقيق أغراض تنصيرية، وبذلك ذو أهداف استعمارية للسيطرة على العالم الإسلامي، بدافع ديني ضد الإسلام والمسلمين.

ما يمكن ربما الإشارة إليه هو أن بداية الاستشراق كان يخدم مصالح الكنيسة بالدرجة الأولى، أي الفكر والحركة التنصيرية، وذلك لأن منبته الكنسي، وبما أن الكنيسة كانت قد تحولت إلى مؤسسة دينية، عسكرية، توسعية بمثابة إمبراطورية، فكان المستشرقين الأوائل يخدمون مصالحها، وعادةً ما يكون من رجال الدين، وبعد فترة النهوض الفكري، الذي عاشته أوروبا، والذي نتج عنه عدة تطورات لاسيما التطور الاقتصادي، والذي سيكون وراء فتح أعين السياسيين الغربيين على المناطق الشرقية وخيراتها، ومن أجل الوصول إلى تحقيق أطماعهم الاستعمارية، احتاجوا إلى دراسات مخصصة حول كل ما يخص المنطقة المراد الاستيلاء عليها، فوجهوا أعدادًا من المتعلمين في بلادها، للتفرغ للدراسات الشرقية من مختلف الجوانب اللغوية، والدينية والاجتماعية، وكان معظم المهتمين بهذه الدراسات إما من رجال الدين أو من المحسوبين على الكنيسة، وإن لم يكونوا مباشرة من رجال الدين أو الكنيسة[4] وإنما في هذه الفترة علماء ومفكرين اتخذوا لباس آخر من رحالة ومستكشفين، ورغم ابتعادهم عن النشأة الكنسية والتكوين الكنسي، إلا أن معظمهم محسوبين عليها،

---

(1) حسن كامل الديليمي: **بين الاستشراق والغزو الفكري** موسوعة الاستشراق، مرجع سابق، ص741.

(2) نفسه، ص742.

(3) محمود عبد الرحمان: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص27.

(4) الطيب بن إبراهيم: **الاستشراق الفرنسي**، مرجع سابق، ص136.

وذلك راجع لمدى تمويل الكنيسة لكل الرحلات الاستكشافية وغيرها، ما جعل الباحثين مدينين للكنيسة، ومن أجل تمويل أبحاثهم، يصبحون محسوبين على الكنيسة ومرتبطين بها، أو يكونوا متشبعين بالأفكار الكنسية، ويحملون انطباعات المدرسة الدينية، وأفكارها ونظرتها للإسلام والمسلمين(1)، والصراع المتواصل والذي ظهر من خلاله جيل جديد في الحملة الاستعمارية الكبيرة التي عاشها العالم في القرنين 19م و 20م، فنشطوا وكتبوا معتمدين على كل أعمال من سبقوهم من أجل الوصول إلى بناء صورة معرفية لدى الغرب عن الإسلام والمسلمين في عهد الاستعمار، فألبسوا لتوجه الغربي نحو الشرق غطاء فلسفي، أخلاقي، وحضروا الأرضية لإستراتيجية السيطرة عليه(2). فالاستشراق هو نظام معرفي، ومنهج يمثل إدراكاً غربياً متأسس على نظرة دونية لما هو شرقي وعلى نقيض ما هو غربي(3).

فإذا أعدنا النظر في الجيل الأول والذي كان معظمه حتى لا نقول كلّه، من رجال الدين، والجيل الثاني والذي كان في فترة نهوض فكري أي العصور الحديثة والذي عاشت خلاله أوروبا زعزعة أسس العقيدة النصرانية عند الغرب، انتشار وتوسع الإسلام على حساب الأرض المسيحية، فأصبح من الضروري إبعاد الخطر الإسلامي على أوروبا والغرب عامةً، خوفاً من انتشاره بسبب ضعف المسيحية(4)، ثم الجيل الثالث الذي جاء مع الحملة الاستعمارية، فنشط المدرسة الاستشراقية وتلقت فهم ومساندة وترويج من طرف الحكومات والنخب التي لها سلطة القرار في الغرب، فالتقت الأفكار القديمة حول الشرق بالمصالح والقوة الكبيرة التي امتلكها الغرب، وهذا ما سهل مهمة الاستعمار أمام الرأي العام، حيث تمكن الاستشراق من ترويج أفكار تجعل من الاستعمار الحل الوحيد، أصبحت مسألة الهيمنة على الشرق ومجتمعاته مهمة حضارية وحتى أنها مسؤولية إنسانية على الإنسان الغربي، وظهرت عدة نظريات في هذا المجال، كتلك التي تتكلم عن ضرورة قبول بهرمية الحضارات والتي تمنح الحق لأفضل الحضارات بفرض نفسها على الآخرين(5).

---

(1) محمد العربي معريش: **الاستشراق الفرنسي**، مرجع سابق، ص121.

(2) عبد الله يوسف سهر محمد: **المؤسسات الاستشراقية والسياسة الغربية اتجاه العرب والمسلمين**، مركز الدراسات والبحوث الاستشراقية، عدد 57، الإمارات، 2001، ص17.

(3) Edward W. Said, **L'orientalisme**…, op.cit, p58.

(4) نفسه.

(5) Edward. W. Saïd: **Culture et Impérialisme**, éd., Fayard, Paris, 2000, p17.

فالإسلام إذًا، لم يمثّل العدو بالنسبة للغرب المسيحي خلال العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة فحسب، وإنما تواصل خلال الفترات اللاحقة، حيث كان الدين شعارًا حمله الرحالة والمستكشفين، والإيديولوجية الاستعمارية والذي لا يمكن لأحد أن ينكره، وربما أحسن دليل موقف مطران باريس، بوصفه استعمار فرنسا للجزائر في 1830م، أنه انتصار للمسيحية على الإسلام. وأن هدف الأجيال الثلاثة هي السيطرة على المناطق الإسلامية وخيراتها، وذلك بسلخ المسلم عن دينه، إما بإدخاله إلى النصرانية أو إلحاده كليةً، أو أن يبقى مسلمًا ظاهريًا، بتصرفات غربية مسيحية، فتصبح السيطرة عليه أسهل للدول الاستعمارية، ومن ثمة استغلال خيراته، فأهدافه أصبحت خدمة للاستعمار إن لم نقل استعمارية، فكان الاستشراق معول لكل هذه الأجيال من المستشرقين لتحقيق نفس الهدف[1].

وربما هذا هو سبب جلب علماء مستشرقين خلال الحملات الغربية المسيحية على العالم الإسلامي، هذا ما شاهدناه خلال الحملة الفرنسية على مصر في 1798م، والحملة الفرنسية على الجزائر في 1830م، والتي اصطحبت في كل مرّة القوات الفرنسية جموع من العلماء في تخصصات مختلفة – مستشرقين – واستقروا في تلك المناطق، واهتمت بالبحث حول كل ما يتعلق بها، سواءً نجحت أم لا، فالنتيجة لم تؤثر على العلماء المستشرقين في إتمام نشاطهم لتحقيق أهدافهم[2].

فالاستشراق الفرنسي متأثر بعوامل لها صلة بمقومات الهوية الفرنسية، وتأتي المسيحية والكاثوليكية في مقدّمتها، رغم التحول السياسي الذي عرفته، فلم تتخلّ عن المسيحية الكاثوليكية في مباركتها لقراراتها، متجاوزة علمانيتها[3]، أضف إلى ذلك أنه حضاريًا فرنسا ترى نفسها وريثة روما والعالم اللاتيني، وإحساسهم بتفوقهم الثقافي وحتى العرقي ولّد لديهم عدم التسامح مع الآخر، والآخر يمثل كل من له ثقافة تختلف عن ثقافة الغرب عامة، والثقافة الإسلامية خاصة، وتنظر إليهم على أنهم متخلّفين، وعملت عن طريق المستشرقين للترويج بهذه الأفكار بين أوساط المجتمع الإسلامي، بل وأكثر من ذلك

---

(1) ألكسي جورافسكي: **الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم**، ترجمة خلف الجراد، العدد 215، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996، ص92.

(2) أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية 1900م – 1930م**، ج2، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983م، ص160.

(3) جواد كاظم نصر الله، شهيد كريم الكعبي: **الاستشراق الفرنسي والبعثات اليسوعية، لقاء الاستشراق والتبشير**، دراسات استشراقية، العدد الرابع، ربيع 2015م، صفحات (110-292)، ص120.

إقناعهم على أن الثقافة والحضارة وكل ما يأتي من الغرب، وهذا ما نراه مثلاً في فرضها للغتها على كل المناطق التي تسيطر عليها[1].

مثّلت فرنسا طويلاً همزة الوصل الأولى بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، وذلك من خلال الاحتكاكات التي كانت لها مع المسلمين إثر محاولة توغل الفتوحات الإسلامية إلى قلب أوروبا عبر جبال البارانس، وهي الحدود الطبيعية الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا، وربما أشهر تلك اللقاءات معركة بلاط الشهداء، أو معركة بواتي 732م/144هـ[2] والتي من نتائجها التي تهمنا:

أول إنتاج استشراقي فرنسي المتمثل في أنشودة رولاند (Roland)، والتي تقص كيف تم إبادة مؤخرة الجيش الفرنسي على أيدي المسلمين، في معركة رونسيفو سنة 778م[3]، إضافة إلى الدور الذي لعبته المراكز العلمية التي أنشأها المسلمون في الأندلس والتي جلبت علماء ورجال الدين وفي مقدمتهم الفرنسيين.

كما أمر البابا بإنشاء مدارس لتعلم اللغة العربية الأولى في روما، والثانية في فرنسا، وربما لهذا تعدّ المدرسة الاستشراقية الفرنسية الرائدة في هذا الميدان[4].

ثم تسارعت خطى الاستشراق الفرنسي واحتل المراتب الأولى، خاصة عندما كانت انطلاق الحروب الصليبية من فرنسا، خاصة الأولى والتي أهم ما ميزها هو خطاب أوربانوس، كما اعتبر المؤرخون الفرنسيون حملة لويس التاسع (Saint Louis) حملة صليبية فرنسية خالصة[5]، وكانت نتائج تلك الحملات فكرية، توطدت العلاقة بها بين فرنسا والشرق الإسلامي، وبالتالي تتصدر فرنسا الريادة في الحركة الاستشراقية، ليست بالصدفة، ولا نتعجب في أن يكون أول عمل استشراقي فرنسي الجنسية ولا أن ينعقد أول

---

(1) وفاء عبد الله المزروع: **جهاد المسلمين خلف جبال البرتات من القرن الأول إلى القرن الخامس الهجري**، ط1، دار القاهرة، مصر، 2009، ص ص57-78.

(2) جواد كاظم نصر الله، شهيد كريم الكعبي: **الاستشراق الفرنسي**، مرجع سابق، صفحات (110-292)، ص120.

(3) وفاء عبد الله مزروع: المرجع السابق، ص79.

(4) خليل إبراهيم السامرائي وآخرون: **تاريخ العرب وحضاراتهم في الأندلس**، ط1، المؤسسة اللبنانية للكتاب الأكاديمي، بيروت، 2014م، ص475.

(5) قامت هذه الحملة عام 1270م وكانت آخر الحملات الصليبية الخمس التي قادتها فرنسا، للمزيد انظر:

فؤاد كاظم المقدادي: **الإسلام وشبهات المستشرقين**، مجمع الثقلين العلمي، بغداد، 1425هـ، ص90.

مؤتمر عالمي استشراقي في فرنسا وذلك سنة 1783م[1]، وكذا تأسيس أول جمعية استشراقية في باريس.

ولم يتوقف الاستشراق الفرنسي، بل اتخذ شكل علمي أكاديمي خاصة بعد الاتصال المباشر الذي حدث بين فرنسا والمناطق الإسلامية، وذلك منذ اكتشاف رأس الرجاء الصالح 1488م[2]، وتسارع المستشرقين متخذين عناوين مختلفة، علماء، منقبين، منصرين، وكذا افتتاح مراكز التنصير في إفريقيا جنوب الصحراء ابتداءً من الكونغو 1491م، ومن ثم عملت على التعرف على المنطقة والدخول إليها كأكبر غازي من كل الجوانب ثقافيًا، عسكريًا واقتصاديًا[3]، ومن ثم أخذت تحاول التوسع على باقي أقطار العالم الإسلامي، حملة نابليون على مصر، واحتلال الجزائر، وتواجدها في المغرب والشام ولبنان، وربما لهذا عني الفكر الاستشراقي الفرنسي أهمية كبيرة، لأن بتواجدهم في مناطق الشرق، أصبح لديهم مخابر مفتوحة لتطبيق نظرياتهم، والحصول على المادة لبحوثهم ودراساتهم، دون أن ننسى مساعدة الحكومة الفرنسية وتشجيع هذه البحوث، فحضرت لهم كل ما يحتاجونه لتحقيق ذلك[4]؛ فكان للحملة الفرنسية على مصر مثلاً أثر على الفكر الاستشراقي، أعطاه نفس جديد، خاصة عندما نعلم أن توصيات المستشرق فولني[5] (Constantin François Volney) والتي طبقها نابليون خلال حملته على مصر، خاصة أنه اصطحب معه فريقًا كبيرًا من المستشرقين يفوق 175 عالمًا[6].

---

(1) نجيب العقيقي: **المستشرقون**، مرجع سابق، ص1101.

(2) يوهان فوك: **تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين**، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2001، ص35.

(3) يمبا آدم: **روايات الغرب لإفريقيا الغربية الفرنكوفونية، دراسة في الأبعاد الإسلامية**، مركز الجامعة الإسلامية للنشر، ماليزيا، 2013، ص ص23-24.

(4) فؤاد كاظم المقدادي: الإسلام وشبهات، مرجع سابق، ص107.

(5) قسطنطين فرنسوا فولني Constantin François Volney (1757م – 1820م) فيلسوف ومؤرخ، مستشرق وسياسي فرنسي، كتب عن مصر قد كان كتابه بمثابة خريطة الطريق لنابليون في حملته على مصر، للمزيد انظر:
Jean Gaulmier: L'idéologue Volney, éd., imprimerie catholique, Bayrouth, 1951, pp253-254.

(6) من بين 175 عالم كان هناك 21 عالم رياضيات، وثلاثة علماء فلك، و 17 مهندسا مدنيًا، 13 عالم في الطبيعة وعلماء اقتصاد، والفنون الجميلة، والمطابع والمترجمون وغيرهم. للمزيد انظر: ساسي سالم الحاج: **نقد الخطاب الاستشراقي، الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية**، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2002م، ص ص87-102.

فعندما وصل نابليون مصر عمل على إقناع المسلمين بأن فرنسا جاءت من أجل ترويج هذه الأفكار، حيث طلب من مترجميه ترجمة كل ما يقوله إلى الأسلوب العربـــي - القرآني - كما عمل جاهدًا من أجل استمالة الأئمة والقضاة والمفتيين والعلماء، حتى يصدرون فتاوى لصالح الحملة، فيقومون هم بمساندة حملة نابليون والترويج لأفكاره، كما قام نابليون بدعوة الأئمة والعلماء المدرسين في الأزهر، وحاول استمالتهم بالتكريم وكل هذا من أجل إقناعهم بحبه للإسلام والرسول[1].

وعندما رحل من مصر ترك لنائبه كليبر توصيات بإدارة مصر من خلال المستشرقين والزعماء الإسلاميين الذين تمكن المسشرقين من استمالتهم[2].

ما يمكن استنتاجه هو أن حملة نابليون على مصر كانت على الخبرة العسكرية، وخاصة على أعمال وأبحاث وجهود المستشرقين والذين تنقلوا بين الدين والجغرافية والتاريخ والاقتصاد من أجل تحقيق الانفتاح الكلي لمصر، وفتحها على المستشرقين لدراسات دون أي عائق[3].

3 - الوسائل:

فنلاحظ أن مع مرور الزمن استطاع المنصرين والمستشرقين من إقناع صانعي القرار لدى حكوماتهم الاستعمارية، أن المسيحية ستكون منطلق وقاعدة للاستعمار الغربي في الشرق، ولهذا نشأ الاستشراق على أكتاف المنصرين، وعلى هذا الأساس كان التعاون والتنسيق بين التنصير والاستشراق، فإن الاستشراق المصنع والتنصير الموزع، إلاّ أنه في بعض الأحيان الاستشراق يوزع بمفرده عندما يتعامل مع طبقة النخبة، بل حتى أنه يتمكن من استمالتها وتحويلها إلى موزع لأفكاره، كما كانت أعمال المستشرقين وقودا في أيدي المنصرين[4].

وبذلك نصل إلى أن المستشرق إن لم يكن منصرًا، فهو طليعة للتنصير والاستعمار، فهو الذي يمهد الطرق بمختلف الخطابات والتي تمس الفرد وعقيدته، دينه وهويته، من

---

(1) Edward W. Said, **L'orientalisme**, op.cit, p156.

(2) ساسي سالم الحاج: **نقد الخطاب...**، مرجع سابق، ص88.

(3) نفسه، ص90.

(4) طلال عترسي، **البعثات اليسوعية...**، مرجع سابق، ص33.

أجل زرع الشكوك والتي من خلالها يتسنى لهم اختراق المجتمع عن طريق المنصرين أو عن طريق نخبة هذا المجتمع[1].

ومن أجل تحقيق ذلك يستعملوا عدة وسائل تمكنهم من تحقيق أهدافهم، حتى يتمكنوا داخل المجتمع المراد تنصيره فرز أفكارهم التي تزرع الشك والظنون حول التراث الإسلامي وفوائده، وتشكيك في العقيدة حتى يفقد المسلم ثقته بنفسه، ويتجه نحو الحضارة الغربية، بحثًا عن هوية جديدة، فيصطدم بمقاييس أخلاقية جديدة ومبادئ وعقائد أخرى، وسلوك يختلف تمامًا على ما هو فيه، فإما أن يتبنى هذا المنظور وإما أن يفقد كل معالمه وأسسه، وكل المقاييس وفي كلتا الحالتين يصبح سهل الانصياع داخل المجتمع الجديد المصنع من طرف هذه الفئة والسيطرة عليه، من أجل استغلاله، واستعباده، فتصبح هذه الشعوب قابلة للاستعمار، فكرًا وثقافةً، وقد يعتبر أخطرها ما أصيب به العالم الإسلامي، وهو قابلية الاستعمار، ويمكن ربما حصر هذه المجهودات التي قام بها المستشرقين في بعض الوسائل[2].

أ- التأليف:

لعب الكتاب بمفهومه العام، أي كلّ ما كان يصدر من طرف المستشرقون، من كتابة التي كانت تشمل دراساتهم وبحوثهم والتي يروجون بها لأفكارهم وينشرونها في أوساط النخبة في العالم الإسلامي، وجاءت هذه المؤلفات من أجل التشكيك في كل مقومات هذه الأمة، عقيدتها، تاريخها، حضاراتها وهذا النشاط المكثف حتى يفقد المسلم ثقته بنفسه، فيبحث عن معالم أخرى من خلال مصطلحات أو مفاهيم جديدة مستوردة من الغرب ليختفي وراءها من أجل تبرير التقليد أو محاولته الانتماء للغرب مثل: التنوير، التقدمية، الحداثة، النهضة، الانفتاح وغيرها[3].

فكانت مؤلفات حول مختلف المواضيع التي تهم المسلم ابتداءً من إسلامه وكتابه ورسله، وكان معظمهم يكنون العداء والحقد، فنسجوا حول هذه المواضيع سياج من الأكاذيب والمغالطات خدمة لأهدافهم[4].

---

(1) محمد بن ناصر الشترى: **التنصير في البلاد الإسلامية، أهدافه، ميادينه، آثاره**، ط1، دار الحبيب، الرياض، 1998، ص38.

(2) محمد عمارة: **الغارة الجديدة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص57.

(3) ساسي سالم الحاج: **نقد الخطاب...**، مرجع سابق، ص37.

(4) محمد عمارة: المرجع السابق، ص61.

وكانت ولازالت هذه المؤلفات مراجع أساسية يعتمد عليها كل المنصرين في تكوينهم الأولي، كما استعملها المسلمون كمراجع أساسية خلال دراستهم في الجامعة الأوروبية[1].

وكانت بداية الكتابات والبحوث والدراسات الاستشراقية موجهة خاصة للأوربيين وللغرب عامة، لإبعادهم عن هذا الدين الذي أصبح يهدد أوروبا في عقر دارها، فهاجموا القرآن والعقيدة والرسول وأحاطوا بالعديد من الخرافات والأكاذيب، وكل هذا من أجل محاصرة الإسلام والمسلمين[2]، حيث يقول المستشرق الروسي ألكسي جورافسكي Alexy Zhuravsky[3] عن هذه المرحلة: «... لقد هيمن على الإدراك الأوروبي في القرون الوسطى، الموقف السلبي الصريح اتجاه الإسلام، رغم أن الأطروحات والمؤلفات المصنفة ضمن هذا المنحنى قد انتشرت عندئذ بأشكال وصيغ مختلفة...»[4].

لم تتوقف هذه النظرة العدائية لكل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين في العصور الوسطى، بل تواصلت حتى العصور الحديثة وأصبحت لا تقتصر على رجال الدين وعلماء اللاهوت، بل مست حتى الأدباء والفلاسفة والشعراء والمتشبعين بكل ما كتب من قبل من أكاذيب حول الإسلام، وهذا ما نلمسه في العديد من المؤلفات الأدبية، كتلك الكوميديا الإلهية للمؤلف دانتي أليجيري (Danté Alghieri)[5]، في بداية العصور الحديثة (النهضة)، والذي وصف من خلالها عذاب الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، والإمام علي رضي الله عنه، في يوم الحساب لأنهما – حسب رأيه – أصل الفساد في الأرض[6].

ولم تتوقف عند دانتي، بل عمت هذه الظاهرة على كل أعلام الفلسفة والآداب، أمثال شيكسبير (Shakespeare)، توماس الأكويني (Thomas d'Aquin)[7]، فولتير، مونيسكيو،

---

(1) ساسي سالم الحاج: **نقد الخطاب...**، مرجع سابق، ص41.

(2) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص56.

(3) نفسه، ص58.

(4) ألكسي جورافسكي: **الإسلام والمسيحية...**، مرجع سابق، ص74.

(5) أكبر شعراء إيطاليا ورجل سياسي من فلورانسا (1265 – 1321م)، ويعتبر أب اللغة الإيطالية وهو صاحب الكوميديا الإلهية La divine comédie. للمزيد انظر:

Marie-Nicolas Bouillet et Alexis Chassang (dir): **Danté Alighieri, dans dictionnaire universel d'histoire et de géographie**, 1878.

(6) دانتي ألجيري: **الكوميديا الإلهية – الجحيم**، ترجمة حسن عثمان، دار المعارف، القاهرة، 1995، ص ص90-122.

(7) توماس الأكويني فيلسوف (1224 – 1274م) صقلية، رجل دين دومينيكي، اشتهر بأعماله اللاهوتية والفلسفية، وقد أعلن البابا ليون 13 في 1879 أن أعماله تعبر عن التيار الفكر الكنسي. للمزيد انظر:

André Clément : **La sagesse de Thomas d'Aquin**, nouvelle éditions latines, Paris, 1983, p36.

حيث يذكر شكسبير مثلاً في إحدى رواياته، أسطورة الحمامة التي ربّاها الرسول صلى الله عليه وسلم على نقر أذنه، وأنه أخبر الناس أنها من توحي له: وهي أسطورة اختلفت في الأوساط الدينية من أجل الشك والمغالطات، فيقول في إحدى فصول رواياته: «... أتلهم الحمامة محمداً!؟... أما أنت فإن النسر ربما ألهمك...»، كما وصف توماس الأكويني الدين على أنه دينًا للجهلة، ومؤيدي استخدام العنف، وهذه النظرة ورثها العديد من الفلاسفة والأدباء والمفكرين الغرب المسيحي، وتمكنوا من وضع صورة معينة للمسلمين من الصعب التحرر منها[1].

فمونتيسكيو مثلاً في أطروحته روح القوانين (L'esprit des lois) وكذا الرسائل الفارسية (Les lettres Persians)[2]، يصف الإسلام بالاستبدادي والمتناقض مع الغرب، وهذه الفكرة التي نقلها عنه كارل ويتفوجل (Karl Wittfogel)[3] في كتابه المشهور والذي انتشر في كل ربوع العالم، الاستبداد الشرقي (Le dispotisme oriental) والذي نشر في 1967م[4].

فنجد كذلك توماس فالبي فرنش (Tomas Valpy French) يقول: «... إن المسيحية والمحمدية في اختلاف تام مثل اختلاف الأرض والجنة، لا يمكن بأي حال أن يتعايشا معًا...»[5].

وأرنيست رينان Ernest Renan[6] يرى أن شعوب الشرق وإفريقيا ذوي عقول مغلقة أمام العلم وليسوا بقادرين على الانفتاح على أي شيء جديد، ويذهب إلى أبعد من ذلك في طرحه، أن مستقبل الإنسانية متوقف على الأوربيين، ولكن هناك شرطًا ضروريًا لذلك وهو تحطيم عناصر الحضارة السامية والقوى الدينية للإسلام[7].

---

(1) عبد الله يوسف سهر محمد: **المؤسسات الاستشراقية**، مرجع سابق، ص10.

(2) دليلة بوجناح: **الفكر الاستعماري الفرنسي وتطوره خلال القرن التاسع عشر**، مرجع سابق، ص ص55-56.

(3) نفسه، ص31.

(4) بشارة خضر: **أوروبا والوطن العربي، القرابة والجوار**، ترجمة جوزيف عبد الله، مركز الوحدة العربية، بيروت، 1993، ص32.

(5) Edward. W. Saïd: **Culture**, op.cit, p22.

(6) Marie-Nicolas Bouillet et Alexis Chassang: **Danté Alighieri**, op.cit, p467.

(7) Ernest Reman: L'Islam et la science, éd., Calmann Levry, Paris, 1883, p18.

وهناك العديد من المفكرين والفلاسفة والأدباء الذين ساروا على نفس المنوال أمثال جيرار دي نافال (Gerard de Naval) وفولني ومارك بلوك (Marc Block) وغيرهم الذين أجمعوا على التفوق الأوربي وأن الشرق وكل ما يحتويه من ثقافة وإنسانية ما هو إلاّ سقوط من دائرة التاريخ المتحضر[1].

ما عدا الكتب، اهتم المستشرقين بإنشاء دوائر المعارف، وهذه الموسوعات دائرة المعارف بلغات متعددة والتي أصبحت مرجعًا علميًا لعدد من الطلاب في أنحاء العالم لاسيما الدول الإسلامية، واشترك في هذه الموسوعات عدد كبير من المستشرقين وأسندت كل مادة لمستشرق معين كتب فيها، وتعدّ دائرة المعارف الإسلامية من أخطر وسائل الاستشراق لأنها مملوءة بالمعلومات السهلة الوصول إليها، وإن كان 90% من معلوماتها صحيحة إلاّ أنه تبقى تلك الخمسة بالمئة والتي من خلالها ينشر المستشرق المغالطات والأكاذيب حول الإسلام، وبما أنها في متناول حتى الباحثين باللغة العربية، فأصبحت هذه الأخطاء شائعة وتستعمل في بحوث المسلمين ويدافعون عنها ويروجونها بين أوساط مجتمعهم، ومن بين محرري دائرة المعارف الإسلامية، المستشرق ج. أربري (A. J. Arberry)[2]، وكذا البارون كارادي (Barron Carra du Vaux)[3]، وكذلك هـ. أ. ر. جب (H. A. R. Gibb)[4] وهو من أهم محرّري وناشري في هذه الموسوعة وهناك الكثير والعديد منهم، كجولد

---

(1) هشام جعيط: **أوروبا والإسلام**، صدام الثقافة والحداثة، دار الطليعة، بيروت، 1995، ص ص10-33.

(2) أرثور جون هاربوري (Arthur John Arbery)، مستشرق إنجليزي متعصب، يكن العداء للمسلمين والإسلام، وهو كان أستاذا في كمبرج ومختص في الدراسات الإسلامية واللغوية في إنجلترا وكان له عدة كتب من بينها:

- الإسلام اليوم 1943.
- مقدمة لتاريخ التصوف 1947.
- التصوف 1950.

للمزيد انظر: عبد الرحمن بدوي: **موسوعة المستشرقين**، دار العلم للملايين، بيروت، 1993، ص....

(3) بارون كارا ديفو (Barron Carra du Vaux)، فرنسي متعصب جدًا ضد الإسلام والمسلمين وكانت له مساهمة كبيرة في دائرة المعارف الإسلامية.

(4) هاملتون ألكسندر روسكان جيب (Hamilton Alexander Gibb Rosskeen)، مؤرخ (1885 – 1972م) أكبر مستشرق في إنجلترا المعاصرة، كان عضو للمجمع اللغوي في مصر، وأستاذ الدراسات الإسلامية، وله عدة كتب منها:

- طريق الإسلام مترجم.
- الاتجاهات الحديثة في الإسلام 1947 مترجم.
- المذهب المحمدي 1947.
- الإسلام والمجتمع العربي وهو في عدة أجزاء.

تسهير (Gold Zieher)[1]، ما يمكن التركيز عليه مدى خطورة هذه الموسوعة رغم أهميتها العلمية لأنها مملوءة بالمادة العلمية، إلا أنها يجب أن تؤخذ بتحفظ وعلى الباحث تمحيص المعلومات الموجودة فيها للوصول للحقيقة العلمية الصحيحة.

كما اهتم المستشرقون كذلك بنشر المقالات والأبحاث في المجالات والصحف المحلية للأقاليم الإسلامية، وهذا من أجل بث أحسن ومباشر لأفكارهم، والترويج لها بين أقطار العالم الإسلامي.

وتعتبر مجلة العالم الإسلامي (The Muslim world)، والتي أنشأها المستشرق صامويل زويمر في عام 1911م[2]، وترأس تحريرها لمدة 36 سنة وكانت تصدر من هارفرت، ومازالت تصدر إلى يومنا هذا، وهي من المجلات الدورية المحكمة ويكب فيها كل ما يتعلق بالعالم الإسلامي، وأغلب من يكتب فيها هم المستشرقين، وتوزع هذه المجلة على العديد من المكتبات في العالم لاسيما المكتبات الإسلامية، وتميزت الفترة التي ترأس فيها صامويل زويمر أنه ما كان يكتب فيها يضرب العالم الإسلامي في دينه وعقيدته[3].

كما يوجد مثيلتها بالفرنسية وهي مجلة العالم الإسلامي (Revue du Monde Musulmane)، وهي خاصة بالمستشرقين الفرنسيين وذلك ما بين 1913-1938م، ثم أصبحت تظهر بالفرنسية والإنجليزية فقط من 1945 – 1977م[4].

- والمجلة الآسيوية أصدرت في 1820م كانت تصدر عن جمعية استشراقية.
- مجلة الجمعية الآسيوية الملكية وهي بريطانية.
- مجلة الدراسات الشرقية، وكانت تصدر في مدينة جامبير (Gambier) بولاية (l'Ohice) وكانت لها فروع في لندن وباريس، وكانت ذات طابع استشراقي.
- مجلة الإسلام ظهرت في باريس عام 1895م، والتي خلفتها مجلة العالم الإسلامي.

كان للاستشراق الفرنسي العديد من المجلات المرتبطة بالاستشراق وكانت تصدر في باريس والشرق الأدنى، وشمال إفريقيا عن الجمعيات والمعاهد والكليات والهيئات الخاصة والرهبانات، وجمعيات المستشرقين الفرنسيين وكانت تهتم بالمسلمين من أجل

---

(1) جولديزهر Goldizher يهودي (1850 – 1920م)، زعيم الإسلاميات في أوروبا بلا منازع، أنظر:

(2) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص156.

(3) محمد عمارة: **الغارة الجديدة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص ص91-93.

(4) محمد العربي معريش: **الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق**، مرجع سابق، 2000، ص ص100-107.

ترويج ونشر أفكار داخل هذه المجتمعات تخدم مصالحها[1]. واستطاعوا إنشاء ما يعرف بالمكتبة الشرقية (La bibliothèque oriental)[2].

وقد بلغ عدد ما ألفه المستشرقون خلال الفترة الممتدة ما بين منتصف القرن 19م وبداية القرن 20م، 60 ألف كتاب ومجلة وموسوعات[3]، فربما تعتبر الكتابة من أهم الوسائل لأنها تصل الأذهان بشكل مباشر ويوجد العديد من الأمثلة[4].

ب- الجامعات، النوادي، الجمعيات:

أما الوسيلة الثانية التي استعملها المستشرقون هي التعليم في الجامعات الغربية، وخاصة الاهتمام بالأقسام التي تختص بدراسة الشرق الأوسط والأدنى أقسام أو تخصص التاريخ والأديان، فمن خلال محاضراتهم يقومون في البداية بإعطاء قراءات معينة للنصوص الأصلية والقديمة، مستعملين لأجل ذلك ترجمات غير دقيقة، أو يقومون بالتعليق حول المواضيع المختلفة لإعطائها توجه معين، وبالتالي إدخال الشك والظن في نفوس وقلوب كل الطلبة الذين يتبعون هذه الدروس وخاصة المسلمين منهم لزرع الشك، وإبعادهم عن معالمهم الأساسية، رغم أن التأليف يلعب دور مهم وواسع المجال، إلاّ أن الشفهي قد يكون له أثر عميق يترك بصمة في النفس، رغم أنه ليس واسع المجال، فلا يتعدّى العدد القليل، ولكن عادةً ما هذا العدد القليل يكون له عمل وأثر كبير، لأنه يمثل النخبة بين أوساط مجتمعه فيكون أسهل بالنسبة له أن يؤثر عليهم، لأن هؤلاء القلة يتعاملون مع شخص المستشرق، وعادة المستشرقين يتبنون طابع الطيبة وحسن الأخلاق، أما علميًا تجدهم يبهرون بكثرة علمهم ومعرفتهم وكأنهم يتحكمون في حقائق الشرق، وهذا يؤثر في الطالب أو المستمع.

أصبح عدد كبير من المستشرقين يعملون في الجامعات الغربية، كما أسسوا جامعات داخل الأقاليم الإسلامية.

---

(1) Edward. W. Saïd, **L'orientalisme**…, op.cit, p232.

(2) Ibid., p238.

(3) Ibid., p259.

(4) العودة لكتاب محمد حسين علي المغير: **المستشرقون والدراسات القرآنية**، دار المؤرخ، بيروت، لبنان، ص ص142-162، أين يتكلم أو يعطي قائمة للمستشرقين تخصصوا في القرآن وترجمته وفترة أواخر القرن 19م وبداية القرن 20م.

فتأسس للاستشراق معاهد وتكونت جمعيات من المستشرقين يهتم بالبحث والدراسات في العلوم الاستشراقية، فنشرت بعض المخطوطات العربية، ووضعت الفهارس الشاملة لبعض الكتب الإسلامية، وفي نفس المرحلة تفطن اليهود إلى خطورة الفكر والعلوم الاستشراقية، وذلك لأن بإمكانها فتح الأبواب إلى المناطق المقدسة للنصارى وتجعلهم يسيطرون عليها[1]، ومن هنا تخصص فريق منهم في الدراسات الاستشراقية دون الابتعاد عن الخطط اليهودية وتمكن العديد من اليهود احتلال عدة كراسي في الجامعات الكبرى.

فعمل اليهود في هذا المجال مظهرين خدمتهم للأهداف التنصيرية، ولكن في حقيقة الأمر كانت بحوثهم وأعمالهم من أجل تطويق النشاط التنصيري واختراقه للوصول إلى تحقيق الأهداف اليهودية[2]، فعد للاستشراق عدة مدارس، كالمدرسة اليهودية بأهداف وأغراض تخدم الخطط اليهودية، وكذا المدرسة الإلحادية وهي ليس لها اعتقاد معين، إلاّ أنه تم احتواءها واحتواء كل أعمالها من طرف المدارس الأخرى، وكذلك المدرسة النصرانية وهي أقدمهم، حتى لا نقول أولهم، والتي أخرجت من الكنيسة في بدايتها الأولى والتي انقسمت فيما بعد بتطور الأحداث العالمية إلى كاثوليك وبروتستانت[3].

ومن خلال هذا التقسيم تتأكد العلاقة الوطيدة بين التنصير والاستشراق، فإن الفكر والحركة التنصيرية تنقسم بنفس الطريقة، أي التنصير الكاثوليكي والتنصير البروتستانتي، وما يهمنا في هذه الدراسة خاصة الكاثوليكي الفرنسي، ذلك أن فرنسا الاستعمارية تعتبر نفسها وريثة روما والعالم اللاتيني، والبنت البكر للكنيسة الكاثوليكية، وأحسن دليل ربما على ذلك هو انطلاق الحروب الصليبية من فرنسا[4]، كما كان تأسيس أول جمعية استشراقية باسم جمعية باريس الآسيوية وذلك في 1822م[5].

وزاد ترسخ الاستشراق الفرنسي بعد إنشاء كراسي اللغات الشرقية في أهم الجامعات الفرنسية، أهمها:

---

(1) عبد الرحمان حنبكة: **أجنحة المكر الثلاث**، مرجع سابق، ص ص83-85.

(2) علي بن إبراهيم الحمد النملة، **الاستشراق في الأدبيات العربية، عرض لنظريات وحصر وراقي**، مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية، الرياض، 1992م، ص...

(3) محمد بن ناصر الشثرى: **التنصير في البلاد الإسلامية**، مرجع سابق، ص35.

(4) جواد كاظم نصر الله، شهيد كريم الكعبي: **الاستشراق الفرنسي...**، مرجع سابق، ص ص237-240.

(5) نجيب العقيقي: **المستشرقون**، مرجع سابق، ج3، ص1101.

- جامعة السربون (La Sorbone) والتي أسسها الأب روبير دي سربون (Robert de Sorbone)[1]، ثم جدد بناءها الكاردينال ريشليو عام 1626م، وضمها نابليون إلى جامعة باريس عام 1808م، اهتم معهد الآداب فيها بتاريخ الحضارة وفن الشعوب الإسلامية.
- معهد تعليم اللغات الشرقية الذي أنشأه البابا هونوريس الرابع عام 1285م.
- جامعة بوردوا التي تحتوي على معهد الآداب للغة العربية والتمدين الإسلامي، وأنشأت عام 1441م.
- كرسي الدراسات العربية في ريمس الذي أنشأه الملك فرانسوا الأول عام 1519م.
- معهد فرنسا للدراسات الشرقية سنة 1590م.
- المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية أنشأت عام 1795م، بأمر من الإمبراطورة ماريا تيريزا لتدريس القناصل والسفراء، والتجار اللغات الشرقية، وكان المستشرق الفرنسي دي ساسي سلفستر (Silvestre de Sacy)[2] ، والذي اعتبر العديد من المؤرخين أن ظهوره هو بداية الاستشراق الفرنسي في إطار أكاديمي علمي والذي انتهى إليه أو بالأحرى إلى مدرسته العديد من رواد الفكر الاستشراقي من مختلف البلدان الأوروبية[3]، بينما اعتبر روبير مانتران (Robert Montran) إنشاء المكتبة والكلية الملكية هي بداية انطلاق الاستشراق الفرنسي.

أما المنهج الذي اتبعه دي ساسي في دراساته الاستشراقية هو نفسه في أنحاء أوروبا من طرف الطلبة الذين تتلمذوا على يده، أمثال شامبليون المستشرق الذي رافق نابليون في حملته والذي اكتشف حجر الرشيد، والمكتوب بالخط الهيروغرافي، والذي لقبه المؤرخون بشيخ المستشرقين الفرنسيين[4].

---

(1) هو كاهن القديس لويس Saint Louis.

(2) Antoine-Isaac, Baron Silvister de Sacy مستشرق فرنسي، اهتم بالمشرق الإسلامي، ورغم الغموض الذي يحيط بالكيفية التي صار بها مستشرقًا، إذ لا يعرف له أساتذة ولا كيف وصل لهذا التخصص، أي الدراسات الشرقية، العربية، والعبرية والفارسية إلا أنه كان متقن للغات القديمة واتخذ مهمة التدريس في الكوليج دو فرانس عام 1806م، أين ألف كتابه "النحو العربي" بمجلدين. للمزيد انظر: محمد العربي معريش: **الاستشراق**، مرجع سابق، ص96.

(3) Edward. W. Said: **L'orientalisme**, op.cit, p112.

(4) Ibid, p113.

وهناك اسم آخر بارز في علم الفكر الاستشراقي الفرنسي أرنيست رينان (Ernest Renan)[1]، والذي جاء لمواصلة ما بدأه دي ساسي، حيث قام بتدعيم الخطاب الاستشراقي وإعادة هيكلته، كما أنشأ مؤسسات فكرية حتى تتلاءم مع ثقافة عصره وتتمكن من الاستمرار، معتمدًا أساسًا على نشر كل أبحاث وأعمال دي ساسي[2].

كما كان للاستشراق الفرنسي وراء إنشاء وتأسيس العديد من المعاهد والكليات والمؤسسات داخل الأقاليم الإسلامية، كمعهد مصر الذي أسسه نابليون عام 1898م، والمعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة، وقد أنشأه مونسبيرو عام 1880م، وكلية الأب بورجاد في تونس عام 1841م، والتي تحولت إلى معهد الآداب العربية عام 1937، ومدرسة الآداب العالية بالجزائر، وأنشأها فاري عام 1881م والتي تحولت إلى جامعة عام 1909م، وكذا المعهد الفرنسي بدمشق والذي تأسس خلال المدة 1922 – 1930م، ومعهد الدراسات المغربية في الرباط عام 1931، ومعهد قرطاج في تونس عام 1895م، ومعهد الدراسات العليا في تونس عام 1945م، والمعهد الفرنسي الإيراني في طهران عام 1948م[3].

جـ- الترجمة:

فبمجرد سقوط طليطلة سارع المستشرقين الفرنسيين لدراسة المخطوطات وترجمة عدد كبير منها، كما عملوا جاهدين على جمع المخطوطات العربية والحصول عليها بأية طريقة أو ثمن، إما بشرائها من أشخاص جهلة لا يعملون قيمتها العلمية، أو حتى سرقتها في بعض الأحيان من المكتبات العامة، وحدث هذا خاصة في الفترة الأخيرة للعصور الحديثة[4] والمعاصرة، فبمجرد ظهور فترة حرب أو فتن داخلية للأقاليم الإسلامية العربية، يتسارع المستشرقين للإستيلاء على المخلفات العلمية من مخطوطات، وبهذه الطريقة انتقلت أعداد هائلة من نوادر المخطوطات العربية إلى المكتبات الأوربية وترجمت، حيث وصلت في بداية القرن 19م حوالي 250 ألف مجلد[5].

---

(1) جوزيف أرنيست رينان (Joseph Ernest Renan) 1823 – 1892م، انظر:
Charle Chauvin : **Renan (1823-1892)**, éd., Desclée de Brouwer, 2000, p36.

(2) Edward. W. Said, **L'orientalisme…,** op.cit, p232.

(3) Ibid., pp155-157.

(4) وفاء عبد الله المزروع: **جهاد المسلمين خلف جبال البرتات…**، مرجع سابق، ص83.

(5) فؤاد كاظم المقدادي: **الإسلام وشبهات المستشرقين…**، مرجع سابق، ص14.

احتلت فرنسا المراتب الأولى خاصة بعدما سجل الدير كلوني (Cluny) الذي برز باحتضانه الترجمة الأولى للنص القرآني في عام 114م[1]، رغم أن هذه الترجمة أساءت كثيرا للقرآن وحرفت العديد من معانيه وألفاظه، وذلك لأنه كان موجه للرّد على المسلمين[2].

يمكن اعتبار الترجمة المرحلة الأولى في الفكر والنشاط الاستشراقي، من اللغة العربية إلى اللغات الأوربية، طبعًا ترجمة الأوروبيين كذلك مصادر اليونانية أو الحضارة الإغريقية والرومانية، ولكن تبقى ترجمة علوم العرب تحتل أكبر حصة ابتداءً من ذهابهم إلى الأندلس[3]، لتستمر المدرسة وتتواصل، جاءت ترجمة معاني القرآن بعد ترجمة كلوني مثل ترجمة جورج سيل، كما ترجموا تاريخ الطبري من العربية إلى الإنجليزية، فلا شك أن الترجمة وسيلة من وسائل نشر الفكر الاستشراقي، وبلا شك أنهم أفادوا منها لاسيما في المرحلة الأولى من مراحل التطور الاستشراقي في نقل العلوم والمعارف والمناهج الإسلامية من اللغة العربية إلى اللغات الأوربية المختلفة، وقد عبر كبير مستشرقي فرنسا على هذه الفترة هو لويس ماسينيون: إنها اليقظة الحضارية في أوروبا[4]، وفي 1130م قام عالم طليطلي بإنشاء مؤسسة لنقل الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية[5].

وفي عام 1158م وصل إلى إنجلترا عالم طليطلي آخر يدعى إبرايم بن عذراء لفت انتباه الناس لضرورة تعلم العلوم الإسلامية، ومن هنا بدأ تكاثر الدارسين والمترجمين الأوروبيين المتخرجين من مدارس إسبانيا العربية والإسلامية[6]، وقد وصف شبلي النعماني أوروبا في هذه المرحلة بأنها بقدر ما كانت أوروبا تتعطش لسفك دماء المسلمين

(1) وات منغمري: **فضل الإسلام على الحضارة الغربية**، ترجمة حسين أحمد أمين، ط1، دار المعارف، مصر، 1983، ص ص81-82.

(2) هذا ما صرح به بطرس المبجل (Pierre le Venerable) نفسه، انظر: نجيب العقيقي: **المستشرقون**، مرجع سابق، ص ص122-123.

(3) نفسه، 125.

(4) جان موريون: **لويس ماسينيون**، ترجمة منى النجار، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981م، ص95.

(5) سعيد عبد الرحمن الأعظمي وآخرون: **الإسلام والمستشرقون**، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة، 1985، ص73.

(6) نفسه، ص103.

بسبب الخلافات كانت حرصًا على الاستفادة من علوم العرب والمسلمين[1]، وفي البداية اهتموا بالكتابات التي ليس لها علاقة بالدين، ثم بدأت حملتهم ضد الإسلام وتشويه لتصل ذروتها في نهاية هذه المرحلة[2].

ما يمكن ملاحظته هو أنه على الرغم من كل الفروقات الفكرية الموجودة بين العلماء والمفكرين، من حيث منطلقاتهم الفكرية، لاهوتية أو علمانية كانت، إلاّ أنهم اتفقوا في الرأي والنظرة فيما يخص المسلمين والإسلام، فامتزجت أفكار المدرسة الاستشراقية التقليدية والمدرسة الاستشراقية الحديثة، وحاولت تقديم نموذج جديد للمجتمعات الإسلامية العربية، يقترب من النموذج الغربي، حيث أصبحوا ينادون بالعلمانية وإبعاد الدين عن الدولة، وتغريب المجتمع الإسلامي، وذلك عن طريق إيجاد تسميات لظواهر التقدم وفرزها عن ظواهر التخلف، ويعني هنا أن التقدم هو تقليد الغرب فكرًا وسلوكًا ابتداءً بالمفاهيم للوصول إلى الهيئة الخارجية، ولكن اهتم المستشرقون بالنشاط بين النخبة بنشر المفاهيم والاعتقادات والنظريات التي تجعل النخبة تنتمي إليها ثم تروجها في أوساط مجتمعها، ولن يتم ذلك إلاّ عن طريق التأليف.

كل هذا النشاط المكثف زوّد المكتبة، والمؤلفات الاستشراقية بكم هائل من الكتب والدراسات والأبحاث والتي ترجمت ووزعت في كل أنحاء العالم، وطبعًا من أجل أن تصل كل هذه التصورات والأفكار للعالم وخاصة الأقاليم الإسلامية، يجب الاهتمام بدور النشر والطباعة، بعد وصول الطباعة عن طريق الحملة الفرنسية على مصر، اهتم المستشرقون بإنشاء دار الطباعة في لبنان من بينها، كدار فرانكلين للطباعة، والتي كانت تنشر سلسلة في غاية الخطورة وهي سلسلة كتب لا بد أن تقرأ.

في الواقع أنه منذ زمن بعيد حيث ظهرت أول مطبعة عربية في أوروبا في مدينة فانو بإيطاليا، وهي التي صدرت عنها بعض الكتب النصرانية عام 1514م[3].

ولوصول المادة استخدم المستشرقين وسائل الإعلام المطبوعة بكل أنواعها من كتب ومنشورات والصحف والمجلات، فكانت لهم عناية خاصة لتوزيع الإنجيل بلغات المسلمين

---

(1) Edward. W. Said: **L'orientalisme**, op.cit, p57.

(2) سعيد عبد الرحمن الأعظمي وآخرون: **الإسلام والمستشرقون**، المرجع السابق، ص115.

(3) كرم شلبي: **الإذاعات التنصيرية**، ط1، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، 1412هـ، ص59.

المختلفة، لأنه أهم عمل مسيحي، ثم جزء كبير من هذه المهمة بعد أن طبع في بيروت 46 مليون صفحة من الكتاب المقدس(1).

ونظرًا لأهمية الطباعة في نشر الأفكار بين أوساط المجتمع والنخبة خاصة، فقد أعطى المنصرين الأولوية للطبع والإصدار حتى أنه ظهر تخصص بعض الإرساليات في مجال الطباعة، من بينها:

- رابطة الإيمان لمساعدة الإرساليات.
- منظمة نشر النصرانية في الشرق الأوسط(2).

وهناك بعض الدور النشر:

- كدار النشر الفرنسية Le Cerf سارف.
- ودار الهداية ومقرها النمسا(3).

وحتى تكون نتائج هامة وتحقق أهدافها، فإنهم يقومون بتوزيعها على نطاق واسع وبأسعار زهيدة جدًا، تكاد تكون مجانية وعن طريق عدة منافذ ووسائل، مثل المكتبات في الكنائس، الإرساليات، المدارس، المستشفيات في أوساط الطلبة في الجامعات، داخل الأندية، أو حتى المكتبات المتحركة والتجمعات(4).

كما أنشئوا مكتبات ظاهرًا تقوم ببيع الكتب وفي الحقيقة هدفها إدارة أعمال التنصير وتوزيع منشوراته وكتبه، أو عن طريق إرسالها بواسطة البريد(5)، ونتج عن دور النشر هذه العديد من الكتب والتي كانت بمثابة كتب أساسية في نشاط وأعمال المستشرقين للوصول إلى تحقيق هدفهم.

4 – الأهداف:

استخدم المستشرقون الكتاب والمقال والمجالات العلمية، وكراسي التدريس فـــي الجامعات، والمناقشات في المؤتمرات العلمية والانتماء إلى المجامع العلمية واللغوية(6). وتعتبر هذه هي الوسائل الجديدة التي اقترحها رجال الدين بعد الحروب الصليبية، أي

---

(1) محمد الدين الخطيب، مساعد الباقي: **الغارة على العالم الإسلامي**، ط1، دار العلمية، بيروت، 1424هـ، ص29.

(2) عبد العزيز عسكر: **التنصير ومحاولته في بلاد الخليج**، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1414هـ، ص ص40-41.

(3) كرم شلبي: **الإذاعات التنصيرية**، مرجع سابق، ص60.

(4) نفسه، ص61.

(5) عبد العزيز عسكر: المرجع السابق، ص ص42-43.

(6) محمد محمد الدهان: **قوى الشر**، مرجع سابق، ص24.

التوسع في الدراسات الاستشراقية حتى تكون المفتاح الذي سيفتح به الأقاليم الإسلامية للغرب المسيحي، ووضع الأرضية الفكرية والنفسية للسيطرة على هذه المجتمعات[1].

وبالتالي عمل التنصير للسيطرة وعمل الاستعمار للسيطرة، فتيقنت الدول الاستعمارية أنه لا سيطرة دون تنصير ودراسات استشراقية، فمنحت هذه الدول العناية لكليهما للوصول إلى تحقيق أهدافها. وأخذ هذا الاستشراق صورة البحث العلمي، وأعطى لنفسه الطابع العلمي الأكاديمي، في حين بقيت دعوة التنصير تخص العقلية العامة للشعب[2].

فالمستشرق لعب دورًا لا يقل خطرًا عن دور السياسي والجندي والمنصّر في ضرب المشرق الإسلامي، حيث عملوا أساسًا على إضعاف العقيدة، وتشتيت الفكر، وتشويه الثقافة، وحدّدوا مصير المعركة، وكان الهدف من ذلك إضعاف شوكة الإسلام، وضربه وتدمير الثقافة والحضارة، واتخذت عدة تسميات من أجل تمزيق الفرد المسلم، وإبعاد الأمة عن الأصل والوحدة التي يمكن أن تتشكل أمة واحدة[3].

فعملوا على إعداد دراسات كثيرة ومتنوعة ولازمة لمحاربة العالم الإسلامي وتحطيمه، وتخص المناطق المراد الاستيلاء والسيطرة عليها والوصول إلى نقاط القوة لإضعافها، ونقاط الضعف لاستعمالها، وكل هذه الدراسات تسلم للكنيسة وبالتالي للمنصرين والمستعمرين، لتحكيم خططهم الاستعمارية[4].

وبما أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع الإسلامي، فكان أول ما اهتم به المستشرقين الأوائل، فاتجهوا للطعن في الإسلام، ومحاولة تشويه محاسنه، وتحريف حقائقه حتى يقتنع المسيحيون أولاً، أنه دين لا يستحق الانتشار، وأن المسلمين همجيين، لصوص، سفاكي دماء، وأن هذا القرآن يدعوا للشهوات الجسدية، ويبعدهم عن كل سمو روحي لأن الأعمال الأولى ضد الإسلام كانت تخوفا منه وإبقائه بعيدًا عن المسيحيين[5]،

---

(1) مصطفى السباعي: **الاستشراق والمستشرقين**، مرجع سابق، ص47.

(2) محمد العربي معريش: **الاستشراق**، مرجع سابق، ص106.

(3) هذا ما قاله الأستاذ كامل الشريف، وزير الأوقاف الأردني عن الدور الخطير الذي يقوم به الاستشراق، للمزيد انظر: محمد محمد الدهان: **قوى الشر**، مرجع سابق، ص48.

(4) عبد الرحمن حسن حنبكة، الميداني، **أجنحة المكر الثلاث وخوافيها، التبشير، الاستعمار، الاستشراق، وموقفها من الإسلام والمسلمين**، دار الوفاء للطباعة، المنصورة، مصر، 1988، ص49.

(5) محمد العربي معريش: **الاستشراق**، مرجع سابق، ص44.

فحاولوا نسج حول هذا القرآن أكاذيب وأخطاء، وذلك لأن الترجمة لم تكن دقيقة، واهتموا بالتعليق غير الصحيح على الترجمة، كما زعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استقى مادة القرآن من قصص الأحبار والرهبان، ولكن بمجرد مقارنته ببعض الروايات التي جاءت في القرآن مع ما جاء في التوراة أو الإنجيل، فنجد أن القرآن فيه البنيان والحكمة، وذلك باعتراف عدد من الغربيين من المستشرقين عن الإعجاز في القرآن [1].

فاختصت مجموعة كبيرة في دراسة كل ما يتعلق بعلوم الإسلام، وذلك خدمةً لأهداف تنصيرية استعمارية، فعملوا من أجل تشويه الإسلام والتاريخ الإسلامي، وخلق شبهات وإيجاد أدلة لها[2]. فحاولوا تحليل الآيات القرآنية، فتبنت الجامعات الكبرى هذه الدراسات، وحتى يتمكن المستشرق من تحقيق أهدافه وجب عليه اقتلاع الإسلام من جذوره، حتى يتسنّى له تنصير كل المسلمين، وأحسن طريق لتحقيق ذلك هو الالتفاف حول الإسلام لاختراقه عن طريق مصطلحاته وثقافته والأنماط والأشكال المألوفة لأهله[3]، فتبنّوا الأسلوب الشامل وقاموا بتقسيم عملهم على المنطقة المراد تنصيرها على حسب الفئة، ووضعت خطط ومشاريع لكل فئة حسب اهتماماتها[4].

فاستعمل المستشرقون ظهور الإسلام، والعبادات الإسلامية، وذلك من أجل البرهنة أن معتقدات المسلمين لا تختلف عن المعتقدات الروحية عند اليهود والنصارى، وذلك من أجل كسب ثقة المستمع، أن لا اختلاف في الديانات، رغم أن عقل المسلم واعتقاده، يعلم أنه أصل الديانات واحد ولا يختلف ولكن ما يختلف هو التحول الذي حدث في الديانات، وهذا ما يجعل المسلم ينفر منها، وكل هذا من أجل زرع الشك[5].

وإذا حاولنا حصر بعض أهم أهداف المستشرقين، فيمكن ربما تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

---

(1) Maurice Bucaille, **La bible, le Coran, et la science,** les écritures Saintes examinées à la lumière des connaissance modernes, éd., Seghess, Paris, 1976, pp370-380.

(2) محمد عمارة: **الغارة الجديدة على الإسلامي**، مرجع سابق، ص ص56-57.

(3) نفسه، ص ص55-59.

(4) نفسه، ص61.

(5) نفسه، ص62.

أ- الهدف العلمي ويراد به تشويه الإسلام:

وكان الهدف من هذه الدراسات التشكيك بصحة الرسالة النبوية لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وحتى مصدرها الإلهي، حيث معظم المستشرقين الكنسيين ينكرون فكرة أن محمدًا نبيًا يوحى إليه، واهتموا في دراساتهم بفكرة الوحي وحاولوا من خلال أعمالهم إعطاءها تفسيرات مادية، أو عضوية، كأنهم قالوا أنه مرض عضوي كان يصيب الرسول[1].

ثم لما ننتقل إلى المرحلة التي جاءت بعد الحروب الصليبية، ظهرت فكرة أخرى في دراسة المستشرقين لمحاربة هذا الدين وهي أن الإسلام هرطقة مسيحية، رغم اعتراف البعض منهم أن دين محمد توحيد ولم ينكر للمسيح وجوده حيث يقول أوت أوف فريزنك (Otto of Fresing)[2]: «... لقد صار معروفًا لدينا أن العرب جميعًا يعبدون إلهًا واحدًا، وهم يعترفون بشرعية العهد القديم وطقوسه كالختان مثلا، بل لا يقذفون المسيح بوصفه رسولا من الرسل...»[3]، ثم يعود ويقول في مجال آخر: «... إن هذا المعتقد بحدّ ذاته كافٍ لاستبعادهم عن طريق الخلاص وهو إنكارهم أن اليسوع المسيح هو الرب أو ابن الرب، ناهيك عن تقديسهم لمحمد الذي يغويهم بوصفه نبي الله الأعظم[4].

ولهذا أصبح يعتبر الإسلام أو بالأحرى روجت فكرة أن الإسلام عبارة عن هرطقة، وأمام العدد الهائل من الذين اعتنقوا الإسلام، رأى علماء الغرب أنه يجب إحالة العقائد الإسلامية إلى المسيحية بوصفها عقائد مسيحية الأصل ولكنها محرّفة، وهذه النظرة كانت إيجابية، حيث اعتبروا المسلمين أقرب من غيرهم إلى المسيحية، وتصبح فكرة تنصيرهم أو إرجاعهم إلى الطريق الصحيح ليس بالصعب، بما أن الإسلام هو اشتقاق من المسيحية على حدّ تفكيرهم.

رأى بعض المستشرقين أمثال روجر بيكون (Bacon)[5] ووليم الطرابلسي (Guillaume Tripolie)[6] بما أن الإسلام منشق من المسيحية، إذن هو دين ليس بعيد عن طريق النجاة،

(1) عبد الرحمن حنبكة: **أجنحة المكر الثلاث**، مرجع سابق، ص50.

(2) نفسه، ص56.

(3) محمد الدعمي: **الاستشراق الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي**، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، بيروت، 2008، ص34.

(4) نفسه، ص32.

(5) روجر بيكون، كان فيلسوف وراهب إنجليزي من جماعة الفرنسيسكان، انظر:
Louis Figuier: **Vies et savants illustre,** éd., Hachette, Paris, 1870, p173.

(6) رجل دين من الدومينيكان، أرسل من طرف البابا بمهمة التنصير، انظر:
Rustichello de Prise: **Les voyages de Marco Polo**, trad., Henry Yule, Paris 1903, pp113-116.

وكتب وليم الطرابلسي: «... على الرغم من أن إيمان المسلمين مغلف بالأكاذيب ومزوق بالتخيلات فإنهم قريبون من الإيمان المسيحي، كما أنهم ليسوا بعيدين عن طريق الخلاص...»[1].

ولكن هذه الفكرة جاءت على أساس منظور روّج في أوروبا لمدة طويلة ربما حتى القرن 19م، وهي بما أن الإسلام خارج من المسيحية، فإن محمد صلى الله عليه وسلم استعمل أصدقائه من اليهود والنصارى للتعرف على الديانتين، وأسس هذا الدين الجديد – على حدّ تعبيرهم – وهو القرآن والإسلام، ومن هنا انطلقت فكرة الهرطقة[2].

كما شككوا في الفقه الإسلامي وزعموا انطلاقا من أكاذيبهم حول النبوة لدى محمد، وأن هذا الفقه مستمد من الموروث الروماني، وبالتالي فهو مستمد منهم، وشككوا حتى في اللغة العربية، التي اعتبروها غير قادرة على مسايرة التطور العلمي[3].

ب- الأهداف الدينية والسياسية:

لتحقيق أهدافهم الدينية والاستعمارية، يقومون بالتشكيك في كل ما يتعلق بالديانة، أي الإسلام، والمعتقد، أي كل ثوابت العقيدة، أي التشكيك في الرسول وشخصيته وحقيقة بعثته والفقه الإسلامي، وطبعًا من أجل تحقيق الهدف الديني والاستعماري، يحاولون عبر دراساتهم المستهدفة، البرهنة أن الحضارة الإسلامية هي امتداد أو نقل كلي للحضارة الرومانية، أي المسلمين لم يأتوا بالجديد، بل نقلوا كل ما هو يمثل حاليا الحضارة الإسلامية، والتي هي – حسب رأيهم – خالية من الإبداع الفكري والابتكار الحضاري[4].

وكل هذه الحملات ضد الحضارة العلمية الإسلامية ما هي إلاّ وسيلة من أجل تشكيك المسلمين في تراثهم، وبعد الشك في كل ما هو إسلامي، فينتقل الشك إلى القيم والمثل، ولهذا أعلن المستشرقون الحرب على الإسلام متيقنين أنه يمثل العقبة الكبيرة في وجههم أمام الحصول أو السيطرة على العالم الإسلامي، والذي هو يسيّر الملايين من البشر،

---

(1) مصطفى السباعي: **الاستشراق والمستشرقون**، مرجع سابق، ص ص21-25.

(2) نفسه، ص30.

(3) أنور الجندي: **سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية**، دار الشهاب، الجزائر، 1987، ص ص53-63.

(4) مصطفى السباعي: المرجع السابق، ص ص31-35.

فعملوا على التشكيك فيه والتقليل من قيمته في نفوس المسلمين، ونسبوا له التخلف عن الركب الحضاري، وكل ذلك من أجل القضاء على ذلك الكتاب الذي يمثل دستور المسلمين، – إن صحّ فهمه – واستعماله، وأصبح المستشرقين ينادون أن الشرط الأساسي للالتحاق بالحضارة هو التخلي عن القرآن ومن بينهم وليم جيفورد بالكران: «... متى يتوارى القرآن ومدينة مكة من بلاد العرب، يمكننا أن نرى العربي يتدرج في سلم الحضارة التي لم يبعده عنها سوى محمد وكتابه...»[1].

وعندما علموا أنه لا يمكن زعزعة عقيدة المسلم، لجئوا إلى ضرب الكتاب، عن طريق الإنقاص منه علميًا، وفي بعض الأحيان نفيهُ كليةً، ليتحول القرآن سلاحًا ضد الإسلام، حتى يُقضى عليه تمامًا، وذلك بمحاولته ترسيخ أن الصحيح في القرآن ليس جديدًا وأن الجديد ليس صحيحًا[2]. حيث يقول المنصر نلسن: «... الإسلام مقلد وأحسن ما فيه مأخوذ من النصرانية والباقي من الوثنية...»[3].

ولكن رغم كل المحاولات والتي باءت كلها بالفشل، اتخذوا طريقة جديدة وهي التخويف.

وهذا ما أكد عليه غلادستون[4]: «... إن العقبة أمام استقرارنا بمستعمراتنا في البلاد الإسلامية، شيئان ولابد القضاء عليهما، ومهما كلفنا الأمر، أولهما هذا الكتاب – القرآن – ثم سكت قليلاً، واتجه نحو الشرق وأشار بيده اليسرى وقال هذه الكعبة...»[5].

ولكن رغم تعدد المحاولات فشلت وهذا ما يؤكده لاكوست وزير المستعمرات الفرنسية بعد فشل قواته في المغرب العربي: «... ماذا أفعل إذا كان القرآن أقوى من فرنسا...»[6].

لم يكتفِ المستشرقون بتشويه القرآن والرسول والعقيدة، بل حتى التاريخ الإسلامي وحتى وإن لم تأتِ بنتائج سريعة، فإن من مميزات الغرب أن مشاريعهم ذات نتائج بعيدة المدى، فبعد اهتمامهم بكل المسائل العقائدية والروحية عند المسلم، ذهبوا إلى التشكيك في

(1) محمد محمد الدهان: **قوى الشر**، مرجع سابق، ص28.

(2) نفسه، ص28.

(3) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص40.

(4) رئيس وزراء بريطانيا.

(5) مصطفى خالدي وعمر فروخ: المرجع السابق، ص41.

(6) مفسه، ص40.

أحد أهم الأركان التي يرتكز عليه الدين الإسلامي، وهو الجهاد في سبيل الله والذي بموجبه وموجب كلمة لا إله إلا الله تحرك المسلمون من كل أنحاء العالم لمحاربة المسيحيين خلال الحروب الصليبية، وما بعدها من اعتداءات جعلت المسلم يحس نفسه مجبر على حماية أرضه، أو أخيه المسلم إذا اعتدي عليه، مهما بعدت المسافة بينهما(1)، ومن أجل ضرب هذه الفكرة، وفكرة توسع الإسلام على حساب الأراضي المسيحية، تيقن الغرب بوجوب زرع الشك والظن حول فكرة الجهاد، فمن بين ما شوّه به التاريخ الإسلامي المستشرقين أنهم وصفوا الجهاد بالقتل هدفه السيطرة والغنائم، وأن الإسلام لم ينشر إلا بحدّ السيف، أي أن كل الحركات والفتوحات الإسلامية قائمة بالعنف وتعنيف الأقوام على حدّ تعبيرهم(2)، ثم يقارنونه بانتشار المسيحية والذي يعتبرونه دين تسامح وود، متناسين كل مشاهد القتل والذبح ومحاكم التفتيش وحروب الاسترداد، والحروب الصليبية وما قاموا به من ذبح، من أجل إجبار المسلمين عن التردي عن دينهم وتنصيرهم(3).

وقد اعترف العديد منهم بأن اتهاماتهم للإسلام غير صحيحة، فيقول توماس كاريليل في كتابه "الأبطال وعبادة البطولة"4 واصفاً النبي محمد عليه الصلاة والسلام، بأنه يعول على السيف لإجبار الناس على الاستجابة لدعوته.

وكذلك توماس أرنولد: «... إذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى الرعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي تبين أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان عامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن الصدق»(5).

وفعلاً أن خلال الفتوحات الإسلامية عادة ما تشهد معارك دامية وقاتلة ولكن ليس من باب الإكراه في الدين، فمثلاً فتح مصر، دخلها المسلمين فاتحين، بل أن الأقباط رحبوا بهم واعتبروهم المنقذين لهم من بطش الرومانيين، فلم يعتدوا على المصريين(6).

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص ص163-165.

(2) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص42.

(3) عبد العزيز نوار محمود محمد جمال الدين: **التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى**، دار الفكر العربي، مصر 1999م، ص51.

(4) محمود عبد الرحمان: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص87.

(5) أرنولد توماس: **الدعوة إلى الإسلام**، ط3، ص88.

(6) نفسه، ص90.

بدون شك فإن الحركة الاستشراقية تحاول أن تنال من الإسلام، من خلال إثارة الشبهات حول المصدر الأول، يراد به التشكيك بحجة الرسالة النبوية لمحمد صلى الله عليه وسلم، ويشكّكون حتى في مصدرها الإلهي، حيث معظم المستشرقين الكنسيين ينكرون فكرة أن محمد نبيًا يوحى إليه، فوجهوا الانتقادات للعقيدة، متبعين أقواله ضعيفة وعملوا على نشرها في أوساط المسلمين، كما حاولوا تفسير الظواهر تفسيرًا ماديًا على حسب أهوائهم[1].

حيث ذهب بعض المستشرقين إلى محاكمة الرسول – مجازًا – من خلال كتاباتهم، أمثال ماكسيم رودينسون (Maxime Rodinson)[2] أمام لجنة من العلماء لمحاكمته ودراسة محتوى رسالته من جهة، وشخصيته كسياسي من جهة أخرى، واختار لهذه المحاكمة عالمين أو منظرين هما ماركس وفرويد[3].

وقام آخرون بشرح النصوص القرآنية على أساس أنها ليست كلام الله والتفصيل فيها حسب موضوعاتها، كما تبنت الجامعات الكبرى هذه الدراسات، بل وأصبح فيها تخصصات في هذا المجال.

فتعمدوا على إخفاء الحقائق حتى يبرهنوا أن الحكم في الإسلام لا تحقق العدالة الاجتماعية، وبالتالي تشويه صورة الإسلام وتيقنوا أن محاربة المسلمين لن تكون إلا عن طريق قرآنهم، حيث قال جون تاكلي: «... يجب أن نستخدم كتابهم أي القرآن وهو سلاح حاد في الإسلام ضد المسلمين حتى نقضي عليه وعليهم كما يجب أن نوهمهم أن الصحيح في الإسلام ليس جديد والجديد ليس صحيح...» [4]، وربما يمكن الإجابة عن طريق ما قاله المستشرق الفرنسي: «... إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه نصوص القرآن لأول مرة هو ثراء الموضوعات العلمية المعالجة، وعلى حين نجد في التوراة والأناجيل أخطاء علمية ومنطقية ضخمة لا يوجد في القرآن أي أخطاء، لو قائل القرآن إنسان، فكيف يستطيع في القرن السابع أن يكتب حقائق لا تنتمي إلى عصره...»[5].

---

(1) محمد الدعمي: **الاستشراق**، مرجع سابق، ص32.

(2) وهو مؤرخ وعالم اجتماع (1915 – 2004م) مختص في الشرق الأدنى والإسلام. للمزيد انظر:
Sebastien Boussois, Maxime Rodinson : **Un intellectuel, du XX^ème siècle**, éd. Riveneuve, Paris, 2008, pp23-32.

(3) Malek Bennabi: **L'œuvre des orientalistes…**, op.cit, p2.

(4) Ibid., p3.

(5) Maurice Bucaille: **La bible, le coran…**, op.cit, p209.

ويبين هنا بوكاي علميًا إلى أي مدى القرآن كتاب منطقي علمي صحيح، وبالتأكيد كتاب سماوي مقدس على غرار كل الكتب السماوية الأخرى والتي من خلال دراسته ترهن على الأخطاء الموجودة فيها[1].

جـ- الأهداف العلمية الموضوعية نسبيًا:

وهي تمثل أو تخص مجموعة قليلة من المستشرقين هدفهم الأساسي هو البحث والوصول إلى الحقائق مهما كانت، وتوصلوا إلى استنتاجات خاطئة وحقائق بعيدة عن الصواب، وذلك إما لجهلهم للغة العربية، أو الأصول التاريخية للمنطقة، فتكون نتائجهم التي توصلوا إليها عبر مقاييسهم التي ألفوها في مجتمعاتهم والتي تختلف كلية عن المجتمعات الأخرى التي لها ديانة إسلامية وعقيدة تختلف، وبالتالي مقومات اجتماعية مختلفة[2].

ربما تعتبر هذه الفئة أقل خطرًا على العالم الإسلامي، لأنهم بمجرد الوصول إلى الحقائق يعلنون عنها، فيواجهون من طرف الآخرين بالقصف، ويتهمون بالانحراف عن المنهج العلمي، أو الانسياق وراء العاطفة أو مجاملة المسلمين[3].

وهذا ما فعلوه مع توماس أرنولد الذي أنصف الإسلام في كتابه الدعوة إلى الإسلام، حيث برهن على مدى تسامح المسلمين وعقيدتهم مع الديانات الأخرى، فوصفه المستشرقون أن كتابه هذا مندفع بعاطفة قوية من حب المسلمين[4].

كما أن دراساتهم لا تجد رواجًا بين رجال الدين عامةً، وبالتالي يحاولون منعها على عامة الناس، لأنهم غير مقبولين من طرف الكنيسة[5].

ومن بين من يتعامل مع الإسلام والمسلمين بكل موضوعية يجعلهم يسلمون أمثال ناصر الدين ديني[6] والذي أعجب بالإسلام وأعلن إسلامه وقد ألف كتاب حول سيرة

---

(1) موريس بوكاي (Maurice Bucaille) (1920-1998) طبيب، نشأ على المسيحية، وهو الطبيب الشخصي للملك فيصل وألف كتاب التوراة والأناجيل والقرآن. انظر: نفس المرجع السابق، ص164.

(2) محمود عبد الرحمن: **التنصير**، مرجع سابق، ص107-112.

(3) نفسه، ص113.

(4) مصطفى السباعي: **كتاب الاستشراق والمستشرقون**، ص ص20-25.

(5) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص53.

(6) ألفونسو إتيان ديني (Alphonso Etienne Dinet) رسام مستشرق فرنسي (1861 – 1929م)، انظر:
Pouillon François: **Les deux vie d'Etienne Dinet, peintre en Islam, l'Algérie et l'héritage colonial**, éd., Bolland, Paris.

الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكتاب "أشعة" خاصة بنور الإسلام، بيّن فيه مدى تطاول المسيحية على الإسلام ورسوله[1].

وكذا المستشرق عبد الكريم جرمانوس[2]، وهو عالم مجري اعتنق الإسلام وكان يرى أن اللغة العربية جميلة وتحتاج وقتا كبيرًا لدراستها، كما كان عضوًا في المجمع اللغوي في القاهرة، أحب الإسلام واللغة العربية وألف العديد من الكتب[3].

ومن أبرزهم كذلك الطبيب الفرنسي موريس بوكاي (Maurice Bucaille)، الذي قام بمقارنة بين التوراة والإنجيل والقرآن وتوصل إلى أن القرآن لا يخالف الحقائق العلمية حيث يقول: «... القرآن فوق مستوى العلمي للعلم، وفوق المستوى العلمي للعالم، وفوق المستوى العلمي للعلماء في العصور اللاحقة، وفوق مستوانا العلمي المتقدم في عصر العلم والمعرفة في القرن العشرين، ولا يمكن أن يصدر هذا عن أُمّيّ، وهذا دليل على ثبوت نبوة محمد، أنه نبيّ يوحى له»[4].

المبحث الثاني: نماذج عن المؤتمرات

أصبح من الواضح أن الاستيلاء على العالم والسيطرة على المناطق المقدسة لن تتحقق إلا عن طريق السلاح الجديد وهو التنصير، وهي الفكرة التي توصّل إليها ريموند لول وحاول نشرها وإقناع الكنيسة بها، ولم يكن هو صاحب هذه الفكرة، بل استوحاها من مذكرات لويس التاسع، التي كتبها عندما اعتقل في دمياط بعد الحملة الصليبية، حيث تيقّن أن الحل لوحيد للتطويق على الإسلام والمسلمين، والسيطرة على المناطق المقدسة هو استعمال الفكر والنشاط الفكري، وذلك من خلال الخدمات الاجتماعية والمدارس، حتى

---

(1) من بين الكتب:
- أشعة خاصة لنور الإسلام، ترجمها راشد رستم، وهو رد على القساوسة الذين أعلنوا أن الإسلام لم يأتِ بالجديد.
- السيرة النبوية في مجلد كبير ألّفه مع صديقه الجزائري سليمان بن براهيم وترجمه عبد الحليم محمود، انظر: الموسوعة العربية الميسرة، 1965.
- الشرق كما يراه الغرب وترجمه عمر فاخوري ونشر في دمشق.

(2) ولد في 06 نوفمبر 1884م في بودابست وتوفي في 07 نوفمبر 1979، وتكلم اللغات العديدة، وأجاد العربية.

(3) من بين كتبه: الله أكبر – الحركات الحديثة للإسلام – شوامخ الأدب العربي – معاني القرآن – دراسات في التركيبات اللغوية.

(4) Maurice Bucaille: **La bible, le coran…**, op.cit, p230.

يتمكن المنصر من الوصول إلى المسلم عبر فكره، للوصول إلى روحه، وبالتالي زرع كل ما يمكن زرعه من أفكار، حتى يتسنّى لهم السيطرة على فكره وأرضه[1].

ولكن للوصول إلى هذه النتائج، لا بدّ أن يكون هناك تأطير، ووضع خطط حسب كل منطقة أو مجتمع، وأحسن طريقة لتحقيق ذلك هي الوصول إلى معلومات ومادة تخص هذه المجتمعات ودراستها وتحليلها، وإعطاء لها تأويلات والطرق لتطبيق هذه الخطط التي وصلوا إليها، إلاّ إذا اجتمع علماء مختصين في هذه المجتمعات مع أصحاب العمل التنصيري، لمناقشة هذه المواضيع، ومن هنا ستنطلق فكرة الاجتماعات والمؤتمرات لدراسة الشرق وأصوله، ومجتمعاته ولغاته. فهل هذه المؤتمرات لقاءات علمية أم هي عمل وتخطيط ودراسة؟

1 – تعريف المؤتمرات:

المؤتمرات هي عبارة عن لقاءات علمية أو اجتماعات، يلتقي خلالها مجموعة من العلماء المختصين في دراسة أحوال الشرق ولغاته، وعاداته وتقاليده، أي ما يعرف بعلماء الاستشراق أو لقاء بين العاملين على التنصير والقائمين عليه من رجال الدين، والكنسيين والمنصّرين، إما بشكل فردي أو جماعي كالإرساليات[2].

فيكون هذا اللقاء إما كل جماعة على حدة، أي لقاء للعلماء المختصين في علوم الاستشراق، ولقاء للمنصرين، ولكن في كلتا اللقائين يلتقي الطرفين، وذلك كما سبق لي أن أشرت إليه سابقًا، عادةً ما يكون المستشرق منصرًا أو العكس، أي ما يكون المنصر مستشرقا، وهو شيء طبيعي نظرًا للوقت الذي يقضيه المنصر في مناطق الشرق للقيام بمهمة التنصير، تجعله يحتك بالمجتمعات الإسلامية، فيصبح أحسن المتطلعين على هذه الشعوب، فتصبح شهادته مهمة، بل ضرورية لكل الدراسات الاستشراقية تجبر المستشرق الاتصال بالمنصر – هذا في حالة ما إذا المستشرق لم يكن منصرًا – حتى تكون دراسته كاملة.

فأصبحت هذه اللقاءات العلمية والتنصيرية ضرورية، وظهر منها نوعين مختلفين ولكن متصلين فيما بينهما اتصالاً وطيدًا: المؤتمرات الاستشراقية والمؤتمرات التنصيرية.

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص49.

(2) علوي بن عبد القادر السقاق: **موسوعة الأديان، النصرانية وما تفرع عنها**، ص315.

2 – نماذج عن المؤتمرات الاستشراقية:

هذه المؤتمرات كانت عبارة عن اجتماع أو لقاء علمي لمجموعة من العلماء المختصين في دراسة أحوال الشرق ولغاته، فظهر في أوروبا اتحاد دولي للمستشرقين[1]، والذي اهتم بعقد ندوات ومؤتمرات منذ أكثر من قرن وربع، وباستمرار[2]، للبحث في مختلف التخصصات الاستشراقية، تهتم بالهند والصين، وجنوب شرق آسيا، ولكن الدراسات الإسلامية كانت وما تزال الدراسات المحورية والأساسية لهذه اللقاءات.

فقبل إقامة هذه المؤتمرات التي جمعت المستشرقين، كان الاتصال فيما بينهم، يكون عن طريق المراسلات أساسًا، وتبادل الزيارات[3].

وعندما ترأس سيلفستر دي ساسي معهد اللغات الشرقية سنة 1795م، وما بعدها، وفي إطار محاولاته في تحقيق التبادل العلمي بين المستشرقين، اهتم باستضافتهم في معهده من أجل إما إلقاء محاضرة، أو مناقشة أعمال الطلبة، حيث كان كلما برز مستشرق في منطقة معينة من أوروبا يستضيفه إما كأستاذ زائر، أو كمحاضر لبضعة أيام[4].

فيمنح المستشرق فرصة طرح أفكاره ومناقشتها، من جهة، ومن جهة أخرى يبقى الطلبة ومستشرقي العالم متطلعين على كل جديد يخص علم الاستشراق. حتى أنه في فترة معينة من الزمن اتصفت باريس أنها قبلة المستشرقين، ورغم كل مجهودات دي ساسي إلاّ أنّ هذه الطرق بقيت غير كافية، وأصبح من الصعب الإحاطة بكل ما يخص الشرق وأحواله، والتبادل العلمي فيما بين المختصين في علم الاستشراق.

وبالفعل جاءت أول مبادرة لعقد مؤتمر استشراقي دولي، وصاحب الفكرة هو "ليون دو روزني" (Léon De Rosny)[5] والذي كان أستاذ، وكان يريد تخصيص المؤتمر المراد

---

(1) اتحاد العلماء المستشرقين والذي تأسس في باريس، انظر: مازن صلاح، مطبقاني: **المغرب العربي الحديث بين الاستعمار والاستشراق**، دار الريشة، جدة، 1409هـ، ص15.

(2) نفسه، ص17.

(3) محسن بن علي بن صالح سويسي: **مؤتمرات المستشرقين، نشأتها، تكوينها، أهدافها**، رسالة دكتوراه، الموسم الجامعي 1998م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص ص24-27.

(4) نفسه، ص ص27-30.

(5) ليون لويس برونول دو روزني (Léon Louis Lucien Prunol De Rosny)، عالم فرنسي مستشرق، مختص في اللسانيات واللغة اليابانية (1837 – 1914م)، للمزيد انظر: موسوعة المستشرقين، مرجع سابق، ص ص619-630.
Desiré Marceron: **Pensées de Léon de Rosny**, éd. Alliance scientifique universelle, Paris, 1987, pp8-15.

عقده للدراسات اليابانية وذلك بسبب انفتاح أرخبيل نيبون (Nippon)[1] على العالم الغربي، وكان لهذه المبادرة ردة فعل إيجابية وقوية، ما جعل روزين يقرر فتح هذا المؤتمر لجميع التخصصات في علوم الاستراق، وبالفعل تحققت الفكرة وعقد أول مؤتمر استشراقي في باريس سنة 1873م[2]، وحاولت فرنسا إعطائه بصمة فرنسية واعتبرته فرنسي، وكان له صدى كبير ونجاح على الصعيد العالمي، ولم تتوقف هذه المبادرة بل تواصلت، واهتم المستشرقين بعقد هذه المؤتمرات، وظهرت عدة هيئات التي كانت تقوم بعقد هذه المؤتمرات، من جمعيات إقليمية وأخرى محلية، ودولية، وكانت على شكل ندوات محلية أو إقليمية لتتحول إلى دولية، وكذا جمعيات متخصصة في مجالات محدّدة كانت وراء عقد هذه المؤتمرات، كالأدب العربي[3]، أو الدراسات العثمانية، كالجمعية الأمريكية الاستشراقية والتي كانت تعقد مؤتمرات علمية سنوية، والجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط والتي كانت تعقد مؤتمر سنوي، وتختار له موضوع، وكذا رابطة الشرق الأوسط والتي تطورت موضوعاتها إلى كل ما يخص الشرق وأحواله. أما مركز دراسات الشرق الأوسط أهم ما ميزها هو عقد مؤتمرات علمية بشكل دوري ومستمر حتى أصبحت مواعيدها ثابتة لسنين طويلة ومعروفة[4].

وكان الهدف من هذه المؤتمرات أولاً خلق طريقة أو مناسبة تكون بمثابة همزة وصل مباشرة بين المستشرقين من بلدان مختلفة أوروبية، يكون منصة للبحث ودراسة كل ما يخص العالم الشرقي.

كانت الدراسات الإسلامية وكل ما يخص المسلمين، محور أساسي لهذه المؤتمرات، كما كانت تربط بين العالم المستشرق والمنصر، أي بين المنظّر والمطبق للتنصير، حيث خلالها يقوم الباحثين بإلقاء دراساتهم وبحوثهم، إما على شكل محاضرات وورشات عمل، وفي نفس الوقت المنصر يعطي انطباعاته ومادته العلمية التي تحصل عليها من مناطق

---

(1) هي منطقة في الشرق الأقصى لليابان، للمزيد انظر:

(2) عقد أول مؤتمر استشراقي في باريس سنة 1873، انظر:
Julien Duchâteau: **Une création scientifique**, éd. Dentu - Bouchard – Huzard, Paris, 1874, pp26-32.

(3) نفسه.

(4) صالح محمد الصقري: **مركز دراسات الشرق الأوسط في الغرب واهتمامها بالمسلمين**، الشرق الأوسط، العدد 5448، 28 أكتوبر 1993، ص25.

عمله، والتي بإمكان العالم المتخصص استعمالها في دراسات أخرى، وقد جرت العادة خلال هذه المؤتمرات، أن يقوم المشاركين بإهداء إما أعمالهم وبحوثهم، أو مخطوطات قديمة تحصلوا عليها، أو أية مادة علمية، تشكل بنك معلوماتي للمؤتمر، ينشر بعد انتهاء المؤتمر[1]. وفي نفس الوقت يستفيد المنصر بكل ما توصل إليه العلماء، يحاول من خلاله وضع إما خطط أو برامج أعمال جديدة، ليطبقها خلال القيام بمهمته التنصيرية.

وكانت هذه المؤتمرات الاستشراقية، تضم أو تجمع مستشرقين ومنصرين على حد سواء، وكانت تعقد في أوروبا أساسًا، حتى 1905م[2]، أين عقد أول مؤتمر خارج الأراضي الأوروبية وكان في قارة إفريقيا، في الجزائر المستعمرة من طرف فرنسا. واستمرت هذه المؤتمرات إلى غاية 1997[3]، أين عقد مؤتمر في بودابست والذي استمر من 7 إلى 12 جويلية، وقدم فيه ما يزيد عن ألف بحث للمناقشة[4]، وكان المؤتمر يستمر عدة أيام، ثم يقوم البلد المستقبل بطبع هذه المداخلات والبحوث وكل ما وصل المؤتمر من مخطوطات أو مادة علمية أرشيفية، إما على شكل كتاب، أو تنشر من خلال المجلات الاستشراقية. أما بالنسبة لاختيار البلد، فإن الهيئة المنظمة للمؤتمر تجتمع ويتم اختيار البلد المستضيف، ويكون الاختيار على أساس طلبات تقدمها البلدان الأوروبية، ويعتبر اختيارها لتكون بلد محتضن للمؤتمر شرف لها[5].

حيث أن الحكومات الأوروبية أعطت أهمية كبيرة لهذه المؤتمرات، لأنها اعتبرتها وسيلة من وسائل الاتصال بالعلماء والمتخصصين في أصول الشرق، فبذلت جهودًا من أجل هدم الإسلام وتطبيق كل الطرق للسيطرة على المجتمعات الإسلامية، فأصبحت هذه المؤتمرات طريقة لتوسيع مجال نشاطها حتى يستمر هذا النوع من الاستشراق ونشر آرائه، ووجهات نظره وخاصة أعماله، ثم العمل من أجل تأسيس وتمويل المؤسسات التي بإمكانها تطبيق ما توصل إليه المستشرقين من خلال دراساتهم، حتى تتمكن الحكومات

---

(1) Julien Duchâteau: **Une création scientifique**, op.cit, pp26-32

(2) مازن صلاح مطبقاني: **المؤتمرات الاستشراقية الحديثة**، مرجع سابق، ص5.

(3) مازن صلاح مطبقاني: **المؤتمرات الاستشراقية الحديثة، حول الإسلام والمسلمين**، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، 2007م، ص7.

(4) نفسه، ص8.

(5) محمد العربي معريش: **الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق**، مرجع سابق، ص149.

الاستعمارية من السيطرة أكثر على المناطق المستعمرة، والوصول إلى المناطق التي لم تسيطر عليه بعد[1].

فتمويل هذه المؤتمرات يعتمد أساسًا على المساعدات التي تضعها الحكومة المستضيفة للمؤتمر، وعادة ما تكون استعمارية أو ذات نوايا استعمارية، رغم أن الهيئة المنظمة للمؤتمر كانت تفرض رسوم أو حقوق المشاركة في المؤتمر وتحمل نفقات السفر على الباحثين[2]، ولكن لا تكفي، فإن عادة ما يكلف المؤتمر أضعاف ذلك، فنجد مؤسسات هامة تقوم بتمويل هذه المؤتمرات، مثلاً نجد المؤتمر الذي عقد في بيروت والذي يخص التربية والتعليم في البلاد العربية، فقد تحملت أعباء مصاريفه شركة روكفيلر[3].

كما استقبلت جامعة لندن في 1957م، باحثين من الغرب للتحضير والإعداد لعقد مؤتمر مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، حول التاريخ الإسلامي، وكانت الاستضافة لمدة ثلاثة أشهر، وهما الباحثان: جمال الشيال وعبد العزيز الدوري[4].

دون أن ننسى التمويل الذي تقدمه الهيئات الدبلوماسية، كالسفارات والقنصليات، فنجد سفارة اليابان مثلا، مولت ندوة حول مرور خمسمائة سنة من سقوط القسطنطينية والتي قامت بتنظيمها مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن في 1954م. كما أنه هناك المؤسسات اليهودية التي تقوم بتمويل هذه المؤتمرات كذلك، خاصة وأن نسبة كبيرة من المستشرقين هم من اليهود[5].

أما بالنسبة للمشاركين والحاضرين في هذه المؤتمرات الاستشراقية يمكن تصنيفها إلى[6]:

– رجال دين كنسيين محترفين في التنصير في المناطق الإسلامية، حيث تكون هذه المؤتمرات بمثابة المكتبة الحيّة، يقتنون منها مادتهم من خلال الأبحاث والدراسات التي تلقى في المؤتمر، وكل ذلك يساعدهم من أجل رسم أو تطوير برامجهم التنصيرية.

---

(1) فهد السامري: **الاستشراق الأكاديمي**، المسلمون، العدد "4"، الرياض، 1410هـ، ص29.

(2) محمد محمد حسين: **حصوننا مهددة من داخلها، دعوة الاستعمار إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام**، ط5، مجلة الأزهر، المجلد 29 العدد 3، مشيخة الأزهر، مصر، 1957م، ص37.

(3) نفسه، ص36.

(4) نفسه، ص38.

(5) ومنها مثلا معهد بحوث الشتات، ومعهد موريتمر وريموند ساكلر للدراسات المتقدمة Mortimer et Raymond Sackler، انظر: مازن صلاح مطبقاتي: **المؤتمرات**، مصدر سابق، ص15.

(6) محمد محمد حسين: **حصوننا مهددة من داخلها**، مرجع سابق، ص42.

- علماء مستشرقين في اختصاصات مختلفة، يهتمون بكل ما يخص الشرق وأحواله، فيقومون بطرح أفكارهم، ومناقشتها، وإثرائها من طرف التخصصات الأخرى.
- والسياسيين والدبلوماسيين، الذين يعملون في مختلف القطاعات وخاصة الخارجية، وحتى العسكرية والاقتصادية، للاطلاع على آخر الإحصائيات والدراسات التي تخص المناطق الشرقية حتى يتمكنوا من ضبط مخططاتهم الاستعمارية.
- وبعض الغربيين، ذوي ثقافات غربية، إمّا أساتذة جامعيين أو رؤساء التحرير، أو حتى وزراء.
- وكذا كل المهتمين بالمناطق الشرقية وخاصة المقاطعات الإسلامية والذين يعرفونها، لأنهم يعتبرون شاهد أعيان، وإضافاتهم تهم المختصين في أبحاثهم، وذلك لأنهم إما يعيشون في الأوساط الإسلامية، وإما يعرفون المنطقة بسبب رحلاتهم أو اهتمامهم بها.
- والمتغربين المحاربين للإسلام داخل المجتمعات الإسلامية.
- وكذلك حضور بعض علماء المشرق، إلا أن حضورهم بقي قليل جدًّا، ويعتبرهم الغرب دخلاء على هذه المؤتمرات[(1)].

ورغم أن هذه المؤتمرات تعتبر عالمية ودولية، إلاّ أن صفة العالمية تبقى ضيقة وقابلة للنقاش، ففي المؤتمر الذي عقد في 1889م، أعلن الوزير فون قلوسر (Von Glossler)[(2)] في خطاب الافتتاح، يهنئ المؤتمرون على مدى عالمية هذا اللقاء، الذي حضره علماء مختصين من مختلف دول العالم، والدول المتطورة، إلاّ أنّ مفهوم التطور عند الغرب محصور جدًّا عند الدول الأوروبية، وأن النصف الجنوبي من العالم ليس معني بمفهوم التطور[(3)].

وكانت الدول الأوروبية ترجع سبب عدم عقد هذه المؤتمرات في مناطق أخرى ما عدا أوروبا إلى صعوبة تنقل المشاركين، ورغم أن هذا السبب حقيقي إلا أنه لم يكن الوحيد والأهم، وإنما يعود سبب ذلك لاقتناع معظم المستشرقين وأن العلم لا يمكن أن يكون أو يتحقق إلاّ في أوروبا وفي أوساط الأوروبيين[(4)].

---

(1) محمد محمد حسين: **حصوننا مهددة من داخلها**، المرجع السابق، ص63.

(2) Pascale Rabault-Feuerhahn: **Les grandes assises de l'orientalisme**, la question interculturelle dans les congrès internationaux des orientalistes (1873-1912), revue germanique international, éd. CN.R.S., 8 novembre 2010, p57.

(3) نفسه، ص57.

(4) نفسه، ص58.

وكانوا يرون المستوى العلمي لدى المشارقة ضعيف، وأن مؤسساتهم التعليمية دون المستوى العلمي المطلوب. فعندما طالب كارلو لدنبرغ (Carlo Landberg)[1] بأن يكون عقد المؤتمر المقبل إما في القسطنطينية أو القاهرة، فكان معظم المشاركين ضد الفكرة، ما عدا بعض المتخصصين الذين رأوا إمكانية ذلك من أجل الاحتكاك المباشر بهذه الثقافات والمجتمعات، فتقرر عقد مؤتمر في هانوي عاصمة الفيتنام في ديسمبر 1902م. وهو أول مؤتمر دولي لدراسات الشرق الأقصى، ولم يكن تابع لمؤتمرات المستشرقين، وكان الهدف منه تعزيز نشاط المدرسة الفرنسية للشرق الأوسط، التي تأسست في 1898م والتي جاءت في إطار تنظيم المعرض الدولي لهانوي 1902م[2].

بينما أول مؤتمر استشراقي عقد لأول مرة خارج أوروبا هو مؤتمر الجزائر المستعمرة في 1905م[3]، وكذا مؤتمر أثينا والذي اعتبر خارج أوروبا، في المناطق الشرقية من العالم والذي عقد في 1912م[4]، فرغم رفض المستشرقين الغرب حضور العلماء الشرقيين في هذه المؤتمرات الشرقية، إلاّ أنهم يعلمون أنهم حلقة مهمة تصل هؤلاء بالمناطق التي تهم دراساتهم، حيث كتب المستشرق قوتليب ويليام لينر (Gottlieb Wilhelm Leitner) إلى وزير فرنسا للتعليم العام من أجل أن يؤكد على حضور أشخاص من أصل شرقي لحضور المؤتمر التاسع والذي كان سيعقد في لندن سنة 1891م تحت رئاسته: «هل ممكن لكم كما كان الحال بالنسبة لمؤتمر ستوكهولم إرسال علماء من الأهالي للمستعمرات الفرنسية، لقد بنيت جامع لهم، فيمكنهم أن يتأكدوا أنهم سيكونون على أحسن حال خلال المؤتمر»[5].

---

(1) كارلو لدنبرغ (Carlo Landberg) هو دبلوماسي من السويد ومتخصص في اللغة العربية والأمين العام لمؤتمر ستوكهولم 1889م. انظر: Pascale Rabault-Feuerhahn: **Les grandes assises de l'orientalisme**, op.cit, p58.

(2) Henri Lordier: **Rapport à M[r] le gouverneur général sur les travaux de l'école Françaises d'extrême orient, pendant l'année 1902**, bulletin de l'école Française d'extrême orient, vol 3, n°3, 1903, pp540-541.

(3) Les actes du XIV congrès international des orientalistes, Alger 1905, éd. Erneste Leroux, Paris, 1907, p6.

(4) حيث أن ابستول ألكسندر (Apostole Alexandris)، الوزير اليوناني ورئيس المؤتمر والذي اعتبر جامعة أثينا المستضيفة للمؤتمر هي بمثابة معبد واسع للعلوم الشرقية، انظر:
Les actes du 16[ème] congrès international des orientalistes , session d'Athène, du 6-14 avril 1912, imp. Hestia, Athène, 1912, p26.

(5) «… Serait-il possible, comme il l'était pour Stockholm de nous envoyé des savants indigènes des possession Française? j'ai bâti une mosquée dans ma propriété pour les musulmans, donc vos indigènes peuvent-être sur d'être à leur aise durant leur séjour… ». ANF/17/3092/2, congrès de Londre 1891, dossier confidentiel, lettre de W. Leitner au ministre de l'instruction publique, Woking, 25 mars 1891.

ولكن رغم ذلك فإن قوائم المشاركين والحاضرين والمحاضرين في هذه المؤتمرات تضم عدد قليل من العلماء العرب والمسلمين، والقلة الحاضرة من العرب والمسلمين نادرًا ما تكون من الجامعيين، بل يكونوا من الدبلوماسيين معينين في أوروبا، أو درسوا في الجامعات الأوروبية.

فمثلاً، في المؤتمر الذي عقد في برلين، جاء في قائمة المشاركين تحت صفة غرباء "Membres étranges"، بالنسبة لإفريقيا جاء اثنان من القاهرة ولكنهما من أصل غربي، وبالنسبة لآسيا حضر 13 مشارك من بينهم يابانيان واحد دبلوماسي والثاني يدرس في أكسفورد، وغربي في منصب دبلوماسي في المشرق، ورجل دين من القدس[1].

رفض المستشرقون فكرة تعاملهم مع المشارقة، فالمتخصص في اللغات الشرقية ألبرش فيبر (Albercht Weber)[2] وهو يمثل البروتيستان، لم يخفِ قلقه وتخوفه أمام حضور المشارقة مؤتمر استشراقي، والذين مثلوا 14/1 من مجموع المشاركين والذي رأى أنه حجم مهم، خاصة أنهم لا ينتجون، فلا يمكنهم الإفادة بشيء[3] «... إن الخطر الذي يمثله حضور هؤلاء المؤتمر له علاقة بالجانب السياسي، حيث بقبولنا المشارقة في هذا المؤتمر، سيتوهمون أنه بإمكانهم التخلص من الاستعمار ويحاربونه». وينتهز فيبر الفرصة ليؤكد على آماله في أن تصبح كل البلدان الإسلامية العربية تحت الهيمنة الأوروبية[4].

كما نرى في مؤتمر ليدي (Leyde)، يقدم المستشرق كارلو لندبارك (Carlo Landberg)[5]، عمل حول الشركات الاقتصادية الدمشقية (Les corporation de Damas)[6]،

---

(1) ANF/17/3092/2, congrès de Londre 1891, op.cit.

(2) Albercht Weber (1825 – 1901م)، مؤرخ ومستشرق ألماني متخصص في الهند، للمزيد انظر: عبد الرحمن بدوي: **موسوعة المستشرقين**، مرجع سابق، ص630.

(3) أين أعطى فيبر تبرير عنصري قائلا:

«… Les peuples orientaux seraient vaniteux et incapable de faire la différence entre un compliment authentique et un simple politesse, en admettait des orientaux dans le congrès, le danger était donc d'ordre politique car ils risquaient de se sentir trop flattes pour accepter, suite de reste sous le joug colonial.

انظر: Pascale Rabault-Feuerhahn: **Les grandes assises de l'orientalisme**, op.cit, p59.

(4) نفسه، ص59.

(5) Elia Qoudsi: **Notice sur les corporation de Damas**, in Actes du sixième congrès international des orientalistes en 1883, à Leyde, II^{ème}…….., section 1, sémitique, éd. Brille, Leyde, 1885, pp1-35.

(6) نفسه، ص30-34.

للنصراني العربي إلياس القدسي[1] قائلاً: إنها المرة الأولى التي يقوم بها عربي بإلقاء عمله أمام مؤتمر المستشرقين، هذا لا يعني أن عمله جيد، وإنما من أجل نشر في المشرق الفكر العلمي الأوروبي، خاصة نادرًا ما أجد طالب يتبع تعليماتي[2].

من خلال ما سبق نلاحظ أولاً نظرة الاعتلاء التي يتصف بها معظم المستشرقين، ناحية المشرق والمشارقة، ويريدون إقناع العالم أن التطور والعلم له عنوان واحد هو الغرب الأوروبي، وعلى المسلمين ضرورة تبنّي الحضارة الأوروبية للوصول إلى مصاف البلدان المتطورة.

كما أن حضور العرب المشارقة أو المسلمين، كانت له غاية واحدة هي نشر أفكار الغرب، التي كانت تروج من خلال بحوثهم ودراساتهم. وهذه المؤتمرات التي تهتم بكل ما يخص الشرق، فهي في الحقيقة تساعد الحكومات الغربية على التحكم أكثر في مستعمراتها، إذ على المستعمر أن تكون له معرفة كبيرة وشاملة بالمناطق والشعوب التي يستعمرها، فيؤكدون على أهمية الدراسات الاستشراقية[3].

يدعي المؤتمرون أن هذه المؤتمرات لا علاقة لها بالسياسة، وليس لها أية صفة أخرى ما عدا الصفة العلمية، ولكن نتساءل عن هذا الاهتمام الدقيق بلغات العالم الشرقي وتاريخه وشعوبه، وعاداته وتقاليده وكل ما يخص هذه الشعوب، والتي تعتبر المادة المغذية للسياسات الاستعمارية والغربية في الشرق، ألا تطبع وتعطي هذه المؤتمرات طبعة إمبريالية؟

في رسالة موجهة إلى وزير التعليم الفرنسي لإقناعه لمنح مساندته الكلية لمؤتمر الجزائر 1905م، لا ينفي من خلالها البعد السياسي الذي يتخذه المؤتمر، بل يرى في ذلك شيء أو لمسة إيجابية[4].

---

(1) مؤرخ ومستشرق، فرنسي، ألماني، كتب بالفرنسية والألمانية والعربية، وترجم العديد من الكتب من العربية إلى الفرنسية والألمانية، (1924-1848م)، انظر: عبد الرحمن البدوي: **موسوعة المستشرقين**، مرجع سابق، ص ص508-509.

(2) Pascale Rabault-Feuerhahn: **Les grandes assises de l'orientalisme**, op.cit, p59.

(3) هذا ما قاله وزير الداخلية الهولندي في خطاب الافتتاح في مؤتمر ليدي Leyde.

انظر: Les actes du 6ème congrès, op.cit, p133.

(4) ANF/17/3092/2, congrès d'Alger 1905, lettre de R. Basset au Ministère de l'éducation publique, Alger 31 janvier 194.

أما الحاكم العام الفرنسي في الجزائر جونار يؤكد أن عن طريق المؤتمر والدراسات الاستشراقية سيتوصل إلى إيجاد معادلة للمصالحة الوطنية، والتي ستحرك وتسير أعمال الحكومة الفرنسية في هذه المنطقة[1].

كما يصرح روني باس في نفس الرسالة السابقة أنه يتمنّى أن يظهر مؤتمر الجزائر لمستشرقي العالم بأسره، أن فرنسا حتى في الجانب العلمي تحتفظ دائمًا بمرتبتها بين القوى العالمية، كذا رأى أن مؤتمر الجزائر هو وسيلة لتعزيز مؤسسته، وإعطاء الأولوية للتعاون العالمي، في مجال الاستشراق، ومساندة الاستعمار، ومساعدته، عن طريق دراسة ومعرفة أكثر للرجال والثقافات وبمنح المشرق أنوار علوم الغرب.

ومن خلال خطابات الافتتاحيات لهذه المؤتمرات والذين كانوا يدرجون أبحاث وأعمال المحاضرين تحت صفة "المهمة السامية". حيث يقول ويبرر في مؤتمر ليدي (Leyde): «... إن نتاج المؤتمرات هي تكون أخلاقية من الجانب الروحي وإعلامية من الجانب العلمي[2]. أما بالنسبة لماكس مولر (Maxe Muller)[3] قد صرح خلال مؤتمر 1874م أن المستشرقين هم جنود من نفس الجيش، وموجهين بنفس المبادئ ونفس المهمة وهي استرجاع العالم الشرقي[4]. أي أن الرسالة هنا واضحة أن المهمة التي رسمها المستشرقين لأنفسهم هي نفس مهمة المنصرين، ألا وهي استرجاع الشرق أو المناطق المقدسة.

وهذا ما قاله ألكونت أنجلو دو غبرناتي (Le compte Angelo de Guebernatis)[5] في مؤتمر روما 1899م[6]، أين قدم المؤتمر على أنه شعائر تخدم عمل الإرساليات التنصيرية، والأخوة بين العباد[7].

---

(1) Il affirme aux orientalistes que: «… C'est grâce à eux c'est avec eux qu'il va essayer de dégager la formule de conciliation qui doit animer et diriger le gouvernement de ce pays…».

انظر:

Les actes du XIVe congrès international des orientalistes, Alger 1905, premier partie, procès verbaux, section 1, éd. Erneste Leroux, Paris 1906, p40.

(2) «… Le bénéfice des congrès est d'ordres morale sur le plan de l'âme et instructif sur le plans scientifique…».

انظر: Actes du 6ème congrès, op.cit, p226.

(3) ماكس مولر Max Müller (1823 – 1900م) كان مختصا في فقه اللغات، ومستشرق، مؤسس علم المختص بالهند. انظر:

George Harris: **Notice sur la vie et les ouvrages de Max Müller**, éd. Durand et Pédone, 1867, pp13-22.

(4) Pascale Rabault-Feuerhahn: **Les grandes assises de l'orientalisme**, op.cit, p64.

(5) ألكونت أنجلو دي غبرناتي Le compte Angelo de Guebernatis (1840 – 1913م) كاتب، شاعر، متخصص في علم اللغة، مستشرق إيطالي. انظر: عبد الرحمن البدوي: **موسوعة المستشرقين**، مرجع سابق، ص ص601-603.

(6) مؤتمر روما عقد في 1899م، انظر:

Les actes du XIIème congrès international des orientalistes, Rome 1899, tome premier société typographique Florentine, Florence, Rome 1899,

(7) «… Un grande rite d'où notre œuvre apostolique de lumière de Fraternité humaine sortira fortifiée…». ANF/17/3092/2, congrès de Rome 1899, prospectus du 10 mars 1898.

وبذلك نلاحظ أن مشاريعهم لإعادة دراسة وتتبع الفكر الإنساني متشبعة بالفعل الإمبريالي.

كما أن العديد من المستشرقين يرون أن مهمتهم كبيرة ومهمة للعالم الشرقي، حيث أنهم استطاعوا الاطلاع وشرح ودراسة المخطوطات القديمة والتي ترسم تاريخ الفكر الإنساني، وعليهم الآن ردّ الجميل للشرق، بإيصال إليهم العلوم والتطور، وإخراجهم من الأخطاء الذين هم فيها، وبذلك رغم أن هذا المشروع كان في الظاهر يُراد به أن يكون عالمي وهمزة وصل بين مختلف الاختصاصات الاستشراقية، كان مليئًا بالغموض والتناقض وإظهار موقف الوصاية على دول الشرق، من طرف علماء المستشرقين الغربيين، كما أظهرت هذه المؤتمرات الصراع القائم والعميق بين الغرب والشرق، والذي زاد عمقًا بسبب الإمبريالية الاستعمارية.

3 – نماذج عن المؤتمرات التنصيرية:

لم يكتفِ الغرب بهذه المؤتمرات العلمية والذين حاولوا إعطائها طابع علمي بعيدًا عن كل الصراعات الاستعمارية والمصالح المشتركة بين هذه الدول المستعمرة، رغم أن كل ما كان يُناقش ويدرس له علاقة وطيدة بطموح وأهداف استعمارية وتنصيرية. وكان للغرب كذلك مؤتمرات ربما مكملة للاستشراقية للوصول إلى تحقيق الأهداف الاستعمارية، وهي المؤتمرات التنصيرية والتي كانت تجمع رجال الدين بكل المستويات، علماء اللاهوت ومتخصصين في علم الكلام واللسانيات، وبطبيعة الحال مستشرقين وكانت عديدة وفي مناطق مختلفة من العالم[1]. وأهم ما كان يميز هذه المؤتمرات هي دقة المادة والمواضيع التي كانت تطرح خلالها، كما أنها كانت هادفة من أجل الوصول على تحقيق أطماع معينة، حيث أن نشاط المنصرين مرّ بعدة مراحل، تكاملت خلالها خططهم وبرامجهم، من أجل تحقيق أهدافهم، ما أقنعهم بضرورة الاجتماع والالتقاء في كل مرة بين المنصرين لمناقشة البرامج، ووسائل التنصير، وإحصائيات التنصير، فيخترعون طرق جديدة وحيل ووسائل وتجارب واختبارات، معتمدين في ذلك على كل ما توصل إليه علماء الاستشراق فيما يخص المجتمعات المراد تنصيرها، لغاتهم وعاداتهم، ووضع العديد من المخططات من أجل هدم وتخريب الروابط التي تجمع هذه الأمة، أو يمكن أن تكون همزة وصل

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص ص66-72.

لاتحاد هذه الأمة، كما استعملوا كل الطرق المتاحة للقضاء على التفكير[1] الديني الذي بإمكانه أن يقف في وجه المنصرين والتنصير. وكانت هذه المؤتمرات بمثابة مخابر لكل الأعمال وجمعوا من خلالها المادة، من أجل دراستها وإيجاد من خلالها وسائل جديدة لتنصير العالم.

وكانت فكرة عقد أول مؤتمر تنصيري للمنصر والمستشرق زومير، وقد عقد في ظل الاستعمار الإنجليزي، وكان ذلك في بيت أحمد العرابي[2]، ولكن كان زومير هو مبتكر فكرة عقد مؤتمر عام يجمع إرساليات تنصيرية ومنصرين، للتفكير في مسألة التنصير في العالم الإسلامي[3].

فطرح فكرته أو مشروعها، وتم دراسته والبحث في الفكرة في الهند، نظرًا لأهمية المنطقة بالنسبة لنشاط المنصرين، خاصة لوجود مدرسة "عليكرا".

وتقرر عقد هذا المؤتمر الذي جاء على شكل مشروع قدّمه زومير، وقام زومير بتأليف لجنة مؤقتة تحضر لوضع جدول أعمال المؤتمر وتدعو كل المنصرين المشاركة فيه[4].

وفعلاً، عقد أول مؤتمر دولي تنصيري في الرابع من شهر أفريل 1906م، وحضر المؤتمر ممثلون من إرساليات مختلفة والموجودة في المناطق الإسلامية، وتم خلال اليوم الأول انتخاب زويمر رئيسًا له. بلغ عدد مندوبي الإرساليات الأمريكية 62 بين رجال ونساء و 21 مندوب من الهند وسوريا والبلاد العثمانية، وبلاد فارس ومصر، وخمسة من الإرسالية الإنجليزية، كما شارك في المؤتمر منصرين منفردين من مختلف أنحاء العالم، تميز هذا المؤتمر بحسن التنظيم، واختيار المواضيع الهامة التي يتحتّم على المنصر مناقشتها.

---

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص75.

(2) أحمد العرابي وهو زعيم مصري، وقائد عسكري اسمه الكامل أحمد محمد عرابي محمد وافي محمد غنيم عبد الله الحسيني (1841 – 1911م) ومن الحروب التي شارك فيها، الحرب الإنجليزية المصرية حادثة الإسكندرية، ومعركة كفر الدوار، ومعركة التل الكبير. عقد أول مؤتمر تنصيري في بيته، رغم أن هذه الحادثة غريبة نظرًا لعداوته للإنجليز، انظر: سلامة موسى: **تربية سلامة موسى**، دار الجيل، القاهرة، 1947م، ص13.

(3) عبد الرحمن حنبكة: **أجنحة المكر الثلاث**، مرجع سابق، ص89.

(4) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص50.

أهم ما نوقش في المؤتمر:

- ملخص إحصائي عن عدد المسلمين في العالم.
- الإسلام في إفريقية.
- الإسلام في السلطة العثمانية.
- الإسلام في الهند وبلاد فارس، في الصين.

كما ناقشوا المنشورات التي ينبغي إذاعتها بين المسلمين – العامة والمثقفين منهم –[1].

حاولوا مناقشة التنصير والارتداد، كيف يجب إسعاف ومساندة المتنصرين المضطهدين، درسوا شؤون النساء في الإسلام، وكيفية تكوين المنصرين، حيث أكدوا على ضرورة تعلم اللغات واللهجات العامة، والمصطلحات النظرية والعلمية، كما وجب على المنصرين يكونون على اطلاع تام بالقرآن، حتى يقفون على محتواه لإيجاد الخطاب المناسب للعامة[2].

كما على المنصر عند إلقاء خطاباته بين المسلمين يجب عليه أن يكون جالس ويكون بصوت رخيم وبفصاحة مظهرًا قوة الشخصية، كما يجب أن يتفادى استعمال الكلمات الأجنبية، ويمكنه إدخال من حين لآخر آيات قرآن تكون لها علاقة بما موجود في الإنجيل، من أجل ترسيخ فكرة تقارب الديانتين في عقول وأرواح المجتمعات المراد تنصيرها، دون أن ننسى أنه وجب عليه أن يكون خبيرًا بالنفس الشرقية.

ولا بد أن يستعين بالتشبيه والتمثيل، خاصة وأن أكثر المسلمين المتنصرين من عامة الناس[3].

كما درس المؤتمر الصعوبات التي واجهت المنصرين خلال نشاطهم التنصيري، ومن أجل ذلك ترك المؤتمر توصيات حاولوا تحديد من خلالها الوسائل والسبل التي يجب إتباعها من أجل جلب والتأثير والسيطرة على عقول المسلمين وخاصة الشباب منهم، لأنهم يعتبرون القوة البشرية للمجتمعات، وكذلك العمل من أجل استرجاع ثقة المثقفين المسلمين في المنصرين، وذلك عن طريق إلقاء المحاضرات في موضوعات اجتماعية، خلقية، تاريخية، مبتعدين عن الجانب الديني، وكل ذلك من أجل جلب القلوب المسلمة إليهم[4].

---

(1) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص286.

(2) عبد الرحمن حمبكة: **أجنحة المكر الثلاث وخوافيها: التبشير، الاستشراق، الاستعمار**، دراسة وتحليل وتوجيه، ط8، دار القلم، دمشق، 2000م، ص92.

(3) النصائح الـ 13 للمنصرين.

(4) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص ص53، 60.

ونوقشت قضية اللجوء إلى التعليم والتدريس من أجل تعزيز النشاط التنصيري، وركزوا في خططهم على الشباب الذين تكونوا في المدارس الأوروبية، وضرورة إنشاء مدارس وكليات وجامعات مسيحية، تستقبل أبناء المسلمين وتكون الوعاء الذي يروج من خلاله المنصر بأفكاره[1]، كما ناقشوا مكانة الأزهر التعليمية وكذا قبلة كل المسلمين الطالبين العلم من كل أنحاء العالم، والأهمية التي حصل عليها في المجتمعات الإسلامية التي توجه أنظارها له في كل الأزمان[2].

وأمام هذه الأهمية، وقف المؤتمر عليها وترك توصيات على الوسائل والسبل والطرق التي يجب إتباعها من أجل السيطرة والتأثير على الشباب المسلم، وتوصلوا إلى ضرورة وجود مؤسسة مسيحية تلعب نفس الدور ولكن معاكس، حتى يتمكنوا من إبعاد المسلمين عن ما يمكن للأزهر إنتاجه، وهو إنشاء مدرسة جامعة نصرانية تنفق عليها الكنائس وتجمع كل الكنائس باختلاف مذاهبها حتى تتمكن من مزاحمة الأزهر[3].

كما اقترحوا إمكانية إتمام هذا العمل في دائرة صغيرة وذلك بتعليم المسلمين المتنصرين، حتى يتمكن هؤلاء من التنصير بين مجتمعاتهم الإسلامية. حيث قال زويمر في هذا المجال: «... ربما كانت العناية الإلهية هي التي قادتنا إلى اختيار مصر مركز عمل لنا، لنشرع بإنشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير المماليك الإسلامية...»[4]. لكن فكرة هذه المدرسة لم تتحقق، وأعيدت طرحها في مؤتمر 1978م في كاليفورنيا[5].

اهتموا كذلك بالمنشورات التي ينبغي إذاعتها بين المسلمين، فتبين لهم أن التوراة مترجم إلى العديد من اللغات واللهجات، بينما كل الأدبيات التي تدور حول التنصير، فترجمت إلى اللغات المعروفة والمهمة فقط، فتم اقتراح إعادة مراجعة هذه المؤلفات القديمة والتي استعملت لتنصير المسلمين المثقفين الذين درسوا في الجامعات والمدارس الأوروبية كأوكسفورد وبرلين، كما يجب تأليف منشورات جديدة تهتم بموضوعات جديدة،

---

(1) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص287.

(2) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص ص122-129.

(3) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص65.

(4) نفسه، ص67.

(5) عبد الرزاق ديار بكرلي: **تنصير المسلمين "أخطر إستراتيجية طرحها مؤتمر الكولورادو للتنصير**، ط1، دار النفائس، بيروت، 1989م، ص ص10-12.

كألقاب المسيح، طبيعة الخطيئة الأصلية، الغفران، الجنة وكيفية الحصول عليها، وروح القدس وأعماله[1].

فأنشئوا في مصر مجلة أسبوعية اسمها الشرق والغرب التي أوهموا الكل من خلالها أنهم يفتحون بابا للبحث والنقاش بعيدًا عن العقيدة[2].

كما أكدوا على واجب الاهتمام بتنصير العامة ويكون ذلك عن طريق الإرساليات التنصيرية الطبية، وذلك لتكون وسيلة للدخول داخل المجتمعات الإسلامية، فيتمكن هؤلاء المنصرين نساءً ورجالاً أن يحتكوا بالمسلم مباشرة داخل بيته، وهنا أعطوا أمثلة تبين أهمية الجانب الطبي في التنصير.

كتلك الطفلة المسلمة التي اعتنى بها النصارى وبعد أن شفيت، وضعت في مدرسة مسيحية للبنات في باب اللوق، وكانت نهايتها أن تتصرت[3]، فأولوا التطبيب أهمية كبيرة في برامجهم التنصيرية.

أعطى المؤتمر كذلك أهمية كبيرة للمرأة المسلمة، والتي اعتبرها نصف المجتمع الإسلامي، والبوابة لاقتحامه، فوضعوا برامج تكون على يد المنصرات اللواتي يستعن بالتعليم والطب والمساعدات المالية من أجل تحقيق غايتهم التنصيرية، واختراق هذا المجتمع الإسلامي النسوي والذي من خلاله ستتمكن من اقتحام المجتمع الإسلامي، لأن المسلم، أول مدرسة له يتلقى منها المبادئ الدينية الأولى هي الأسرة وعلى يد الأم التي تلقنه المعارف الإسلامية الأولى، وإذا تمكنت هذه المنصرة من نشر أفكارها المعارضة للدين، تحت غطاء حماية المرأة، والرفق بها، فإنها تمكنت من جعل نشأ مسلم ظاهريا، ولكن تصرفات بعيدة عن تصرفات المسلم[4].

وكانت أهم نتائج هذا المؤتمر:

- الخصال التي يجب أن تتوفر في المنصر، وكذلك إلى أي مدى المسلم المتنصر هو أهل لنشر النصرانية، ويتعلق الأمر بإخلاصه.

---

(1) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص288.

(2) أسسها بعد الاحتلال البريطاني المنصرين دوجلاس ثورنتون (Douglas Thornton) ووبليام تمبل جافندر (W. H. Temple Gavender)، انظر: عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير**، مرجع سابق، ص292.

(3) عبد الرحمن حمبكة: **أجنحة المكر الثلاث**، مرجع سابق، ص93.

(4) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص67.

- كما تيقنوا أن المناظرة والجدال لا تأتي بنتائج بين المسلمين[1]، بينما ترجمة الإنجيل والمنشورات دون مناقشة لها نتائج أحسن وأوسع، لأن الجدال والمناظرة يبعدان المحبة، والتي يعتمدها المنصر في نشر المسيحية وهي الطريقة الوحيدة التي تمكنه من دخول قلب المسلم، ولكن رغم ذلك فتحوا بابًا صغيرًا لبعض المناقشات التي يجب على المنصر مناقشتها ولكن بطريقة معينة، والتي تكون من أجل إقناع الناس[2].

وبذلك وضعوا برنامج لصفات التي يتصف بها المنصر حتى يتمكن من إقناع الناس بالنصرانية وحدودها فيما يلي:

- أن هذا الشعب المسلم بسيط يلزمه إنجيل بسيط.
- الشرق سئم من المجادلات والمناظرات الدينية، يحتاج إلى دين روحي خلقي.

من خلال هذه المبادئ توصل إلى قواعد أولية وجب على المنصر تبيينها وهي:

- لا يقوم المنصر على تحريض المسلم على القبول بالنصرانية، إلاّ بعد تأكده بتوفر كل الشروط الطبيعية والعقلية والروحية.
- اجتناب إثارة النزاعات مع المسلم.
- إذا حدث سوء تفاهم حول الدين المسيحي، يجب إزالة اللبس حتى وإن وجب ذلك المناقشة[3].

كما وجب على المنصر أن يظهر الاستقامة التامة، صفات خلقية حميدة، وأن يكون مقتنع بصحة البراهين التي يحتج بها، وأن لا يكون هدفه الفوز على خصمه وإنما الهدف هو اكتساب مودة وحب الخصم لا التغلب بالقوة، لأن العنف لا يمكن من خلاله تحقيق الأهداف، إذ يجب على المنصر أن يتحلّى بالصبر والسكينة، وأن يكون متحكمًا في عواطفه إلى الدرجة القصوى[4].

فحسب القس والمستشرق زويمر جاء هذا المؤتمر للبحث في شأن التنصير للمتطوعين.

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص70.

(2) نفسه، ص75.

(3) عبد الرحمن حمبكة: **أجنحة المكر الثلاث**، مرجع سابق، ص101.

(4) نفسه.

وربما أهم ما خرج به المؤتمر هو بعض الكتب التي ألفت من بعد نهايته[1]، ككتاب العالم الإسلامي اليوم، ورغم ما جاء فيه من مغالطات وتزييف، الذي وضعه القس زويمر، بمساعدة زملاء له، جمعوا العديد من التقارير والبحوث التاريخية والاجتماعية، كتبها المنصرين عن حال المسلمين القاطنين في مناطقهم.

وهذه التقارير هي خلاصة لأعمال المنصرين من أجل انتشار الدين المسيحي والتي ألحوا فيها بضرورة تنصير المسلمين، خاصة وأنهم متيقنين أن الإسلام عقيدة مبنية على التوحيد وهي عظيمة بشهادة العديد من المنصرين أنفسهم، حيث تمكن هذا الدين من اقتحام قارتي آسيا وإفريقيا، وأدخل حوالي 200 مليون شخص في شرائعه وتقاليده وعقيدته، وارتبطوا باللغة العربية، وأصبحوا قوة تهدّد العالم الغربي المسيحي[2]. ولاختراق هذه القوة يجب الارتكاز على بعض المواضيع التي بإمكانها أن تزعزع هذه العقيدة من الداخل وهي المرأة، كقضية تعدد الزوجات، ومكانة المرأة في المجتمع العربي[3] – والتي هي في الحقيقة قضية مرتبطة بعادات وتقاليد لا علاقة لها بالدين – ويعني أن المنصرين حاولوا إيجاد ثغور داخل المجتمعات الإسلامية، لهذا نجد أن المنصرين يعتمدون كثيرًا على دراسات المستشرقين لهذه المجتمعات، وكذا تقارير السياسيين، من أجل كسر سياج المجتمع الإسلامي.

كما أكد المنصرين من خلال تجاربهم داخل هذه المجتمعات، أن الكنيسة مخطئة إذا تركت الإسلام، لأنه دين عظيم وقوي وسريع الانتشار، ويجب أن تفتح أبواب التنصير على مصراعيها في البلاد الإسلامية، كالهند، والصين الجنوبية الشرقية، مصر، تونس، الجزائر، خاصة أن في العالم أكثر من 140 مليون مسلم ينتظرون الخلاص[4].

وجاء هذا الكتاب ليشرح من خلاله القس كل هذه المادة التي جمعها المنصرين خلال سنوات نشاطهم وبلورها وحولها إلى مجموعة من نصائح وطرق يستعملها المنصر للقيام بنشاطه التنصيري على أحسن وجه، ومن أهمها ربما وهي نفس التوصيات مؤتمر القاهرة:

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص77.

(2) نفسه، ص ص77-80.

(3) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص ص187-191

(4) أ. ل. لوشاتلي: المرجع السابق، ص ص80-85.

- أن أول خطوة مهمة هي إقناع المسلم بأن النصارى ليسوا أعداء للمسلمين بل جاءوا لمساعدتهم.
- ترجمة ونشر الكتب المقدسة بكل لغات المسلمين.
- تنصير المسلمين لن يكون إلاّ على يد رسول من بينهم.
- لا ينبغي للمنصرين أن يقنطوا إن لم يروا نتائج كبيرة ومهمة لعملهم التنصيري عند المسلمين، لأن نشاطهم سيؤدي لا محال إلى النتائج المرجوة، فستتطور كل هذه الأفكار في روح المسلم وسيميل إلى العالم الغربي، فسيتبنّى كل أفكاره، كتحرير المرأة وغيرها[1].

إذا حاولنا التمعن في هذا المؤتمر ونتائجه وظروف انعقاده وتحليل ما خرج به من توضيحات وقرارات، فأول ما نلمسه أنه كان موجه أساسًا للعالم الإسلامي، فنرى أن الإحصائيات[2] التي قدمت ونوقشت خلاله، هي تخص عدد المسلمين، ومدى انتشار الإسلام في العالم، خاصة إفريقيا والأقاليم التابعة للدولة العثمانية، والهند والصين.

عن طريق تقارير وإحصائيات المنصرين ونشاطهم في هذه المناطق، يحاول المؤتمرون وعلى رأسهم زويمر معرفة هل انتشار الإسلام عميق في نفوس هؤلاء المسلمين أمر ظاهري يمكن القضاء عليه أو تغييره، كما هو الحال لبعض المسيحيين الذين هم محسوبين على المسيحية ولكن لا علا قة لهم بالكنيسة والمسيحية، وكل هذه الأبحاث والدراسات من أجل وضع الخطط والبرامج المناسبة من أجل اختراق هذا المجتمع بأكمله، أو أجزاء منه للوصول إلى الكل، وهدفهم من كل هذا ليس التنصير أساسًا وإنما زعزعة عقيدة المسلمين في نفوسهم، وهذا ما نجده في العديد من التصريحات للمنصرين وأهمهم زويمر، حيث قال: «... المهمة التنصيرية التي ندبتكم لها الدول المسيحية في البلاد الإسلامية ليست إدخال المسلمين في المسيحية فإن ذلك تكريمٌ لهم، وإنما مهمتكم هي أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقا لا علاقة له بالله، وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها[3].

ومن أهم – ربما – ما توصل إليه المنصرين من خلال هذا المؤتمر، هي الفجوة التي ستسمح لهم باختراق المجتمع الإسلامي، والتي ترتبط بعادات وتقاليد هذا المجتمع،

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، المرجع السابق، ص ص85-87.

(2) انظر الملحق رقم 03.

(3) تصريح صاموئيل زويمر خلال أحد المؤتمرات التنصيرية، للمزيد انظر: أ. ل. لوشاتلي: المرجع السابق، ص57.

ولا علاقة لها بالإسلام والدين، ومقوماته وهي "المرأة"، وحسب ما توصلوا إليه من الدراسات الاستشراقية وإحصائيات المنصرين التي رصدها من المجتمعات الإسلامية عامة، أن هذه المرأة هي الركيزة الأساسية داخل الخلية الأولى للمجتمع[1].

وعنصر المرأة يمثل الخصوبة والتغيير السريع، وهذا يظهر بسهولة ووضوح في مظهرها الخارجي ومعاملاتها الظاهرية وأنها تعتمد دائما على بُعد نفسي، والذي يسيطر على أحداث حياتها، ويخدم مصالح المنصر، في خططه والذي يرى في المرأة المدخل، فباحتكاك المنصرين وأفكارهم التحررية مقنعين المرأة المسلمة بمدى تسلط وظلم الإسلام لها مستغلين في ذلك الوضع الاجتماعي للمرأة المسلمة في المجتمعات العربية والذي هو مرتبط بعادات وتقاليد مجتمعات لا غير، سيتمكن الغرب من نشر أفكاره التنصيرية في عقول النساء، بعدة طرق، وسيتمكن من خلالها خلق جيل جديد أو نشأ جديد داخل العالم الإسلامي مشبع بأفكار مسيحية غربية، متحررة، لهذه المرأة المستعبدة من طرف الرجل المسلم[2].

وهذه الأفكار طبعًا مفتعلة من طرف الغرب، لأن الإسلام حرّر المرأة وحماها وصانها وأعطاها مكانة خاصة. ولم تظهر قضايا وضع المرأة وتحررها في العالم الإسلامي إلا خلال الفترة المعاصرة، فإننا إذا تناولنا ما كتبه العلماء والمفكرين المسلمين لا نلمس في أيّة حال من الأحوال إشارة إلى وضع المرأة، فمثلاً ابن خلدون والذي يعتبر من أهم علماء ومفكري علم الاجتماع وواضع أسسه لم نجد في أي من كتبه الإشارة لهذه المشاكل، علمًا أنه ربما هو أحسن من وصف المجتمع الإسلامي ومشاكله كعالم اجتماع – حتى وإن المصطلح لم يكن وارد آنذاك – ولكن بافتعال وخلق هذا النوع من مشاكل داخل مجتمع معيّن سيتصدع[3].

ونجد أن المستعمر فيما بعد استعمل نفس العنصر لضرب المجتمعات المستعمرة، يقول جول فري في تصريحاته عند وصوله للجزائر المستعمرة وخلال تطبيقه لمخططاته الاستعمارية، أن المرأة ووضعها الاجتماعي هو المدخل إلى هذا المجتمع المغلق والذي

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص57.

(2) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص ص181-183

(3) دليلة بوجناح: **الفكر الاستعماري الفرنسي وتطوره خلال القرن التاسع عشر**، مرجع سابق، ص ص124-125.

يصنع هؤلاء الرجال الذين يحاربون فرنسا ويرفضون تواجدها، هذا المجاهد ينشأ في حضن هذه المرأة التي ترضعه وتنشئه وتلقِّنه مدة خمسة سنوات الأولى من حياته كل مقومات الدين الإسلامي، والوطنية، قبل التحاقه بالمدارس الفرنسية يكون متشبع بروح الوطنية. ولمحاربة ذلك يجب القضاء على مصدر هذه الأفكـار بالاحتكاك المباشر بالأم والمرأة وتغيير وتسميم أفكارها بأفكار غربية تخدم السياسـة الاستعمارية[1].

وهذه المرأة الجديدة والتي سيُغير أفكارها ستواصل مسارها وتطورها وتصبح فارسة ويقصد بذلك المرأة التي تأخذ مقاليد التسيير والحكم، وتصبح مسيرة لمجتمع فإن المنصر والمستعمر عندما يصل على هذه المرحلة، فهو متأكد أنه ضمّن وجوده في صميم المجتمع وحتى وإن تمكن هذا المجتمع من التخلص من الجيوش المستعمرة، فلن يتمكن من التخلص من هذه الأفكار الهدامة للمجتمع[2].

بعد مؤتمر القاهرة واصل المنصرين أعمالهم معتمدين في نشاطاتهم على المعطيات والتوصيات الجديدة التي جاءت خلال المؤتمر، وبعد أربعة سنوات اجتمع المنصرين مرة أخرى في 1910 لعقد مؤتمر جديد وهو مؤتمر أدنبرج (Edinbourg)[3]، وذلك نظرًا للنتائج الإيجابية التي حصل عليها أبحاث المؤتمر السابق.

حضر هذا المؤتمر حوالي 1200 مندوب من إرساليات مختلفة، وكان من المقرر أن يحضره الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية "روزفلت"[4]، والذي سيمثل التنصير الأمريكي، لأنه من أبرز المنصرين ولكنه اعتذر عن حضوره[5]، وحضر خطيب أمريكا براين (Braine)[6]، وكان معظم الحاضرين من الإنجليز والأمريكان والألمان وبعض الفرنسيين، وقد نشرت أعمال هذا المؤتمر في تسعة مجلدات[7].

---

(1) بوجناح دليلة: **تطور الفكر الاستعماري**، مرجع سابق، ص125.

(2) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص270.

(3) أدنبرج عاصمة اسكتلندا وهي تحتوي على المدينة القديمة التي تعود إلى العصور الوسطى والمدينة الحديثة، انظر: الأطلس الجغرافي.

(4) روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

(5) عبد الجليل شلبي: المرجع السابق، ص293.

(6) براين المشهور بلسانه وبلاغته، والذي رشح نفسه عدة مرات للرئاسيات الأمريكية، انظر: عبد الجليل شلبـي: نفس المرجع السابق، ص271.

(7) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص102.

اتصف هذا المؤتمر، بتنوع البحوث والمقالات والمحاضرات التي ألقيت فيه تنوعًا واسعًا، كما أخذ بكل جدية كل الاقتراحات والمعلومات، والتي وضعت بعده حيز التنفيذ.

قسم المنصرين المشاركين أنفسهم إلى لجان حسب المواضيع المدروسة، وبذلك كان لهذا المؤتمر ثمانية لجان وكل لجنة تختص في موضوع أو جانب يهم المنصرين، ولكن الملاحظ أن هذه اللجان كلها لم تختلف في أنها رغم تعددها اهتمت كلها بالإسلام والمسلمين ولكن كل واحدة أخذت المشكل أو الخطر الإسلامي من زاوية معينة والبحث في الطرق الناجحة للتغلب عليه، وما يمكن عمله لتنصير المسلمين، أو إعداد برامج ومشاريع جديدة مبنية على الإحصائيات والمعلومات الجديدة التي أتى بها المنصرين خلال هذا المؤتمر، حتى يكون له نتائج إيجابية لنشاطهم التنصيري، وقد أعلنوا على لسان تشارلس وطسون (Charl Watssan) الذي قال: «أن الغاية من عقد هذا المؤتمر هي البحث في مسائل العالم الخارج عن النصرانية...»[1].

واتصف هذا المؤتمر من خلال أعمال لجانه الثمانية، بالأهمية التي أولاها للعالم الإسلامي في جدول أعماله:

فاختصت اللجنة الأولى بالبحث في شؤون المسلمين واختارت الهجوم، كما أعطت تقارير تحتوي على إحصائيات حول عدد المسلمين في العالم وفي مناطق معينة.

واحتوى تقرير هذه اللجنة عن حالة الإسلام في إفريقيا، أن الحال أصبح صعب وذلك لسرعة انتشار الإسلام هناك، كما اكتشفوا أن المناطق التي كانوا يظنّون أنها خالية من الديانات ظهرت أنها إمّا تدين بالإسلام أو على وشك الإسلام[2].

كما اهتمت اللجنة بالبحث في الأحوال الاجتماعية لهذه المناطق حتى يسهل تنصير المسلمين، فعملت الجمعيات على توسيع نطاق التعليم الذي يشرف عليه المنصرين، وظهر التساؤل الأساسي داخل الكنيسة: «هل ينبغي للقارة السوداء أن تكون نصرانية أم مسلمة».

أما مهمة اللجنة الثانية هي تحضير الأرضية لرجال الكنيسة خلال الإرسالية التنصيرية.

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، المرجع السابق، ص ص103، 107.

(2) نفسه، ص ص118، 120.

واهتمت اللجنة الثالثة بالتدريس والمدارس التي يقوم بها المنصرين حيث أعلنوا: «اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوي التي أسسها الأوروبيون كان لها تأثير على المسألة الشرقية والذي يرجع للعمل المشترك الذي قامت به دول أوروبا كلها».

بينما كان للجنة الرابعة مهمة دراسة ومقارنة الإنجيل بالديانات، خاصة الإسلام، وحدّدت ما رأته نقاط ضعف في الإسلام والذي في الحقيقة لا علاقة له بالإسلام وإنما بتصرف المسلم المتشبع بعادات وتقاليد وأعراف، تتناقض في بعض الأحيان مع الإسلام، وحاولوا إبراز نقاط القوة في المسيحية، وكانت أعمالهم ترتكز على دراسات إما استشراقية أو نصرانية سابقة أو على أقوال وتصريحات المنصرين خلال تجاربهم الخاصة بين المسلمين[1].

أما اللجنة الخامسة اهتمت بالطرق والبرامج التي وجب على المنصرين تحضيرها من أجل تكوين المنصرين لتسهيل عليهم مهمتهم في المناطق الإسلامية، فمثلاً يتوجب عليهم تكوين في اللغات واللهجات المحلية، ومعرفة واطلاع كامل على الإسلام كديانة ومعتقد وطريقة عيش.

في حين اهتمت اللجنة السادسة بضرورة تنظيم إرساليات التنصير.

أما اللجنة السابعة فكان اهتمامها سياسي أي علاقة المنصرين بحكومة البلدان التي ينشطون فيها، وموقفهم أمام حكومتهم، خاصة في البلدان العثمانية، وانتقدت كل ما يطبق في العالم الإسلامي وليس مسيحي، ورأت أنها خطط ستفتح المجال للإسلام في الانتشار، وخصت بالذكر انجلترا وسياستها في النيجر والسودان[2].

أما اللجنة الثامنة فكانت اهتماماتها بالنشاط المسيحي من خلال الإرساليات التنصيرية وضرورة وحدة نشاطها ولم تكن تهتم بشكل مباشر بالمسلمين، ولكن نتيجة عملها ستعود على مستقبل المسلمين طبعا، حيث ركزت على العمل الجبار والصعب الذي

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، المرجع السابق، ص ص102، 125.

(2) فتعاطف الإنجليز في العالم الإسلامي مع المسلمين، فيصف عمل المنصرين ويجعلهم يخضعون إلى قوانين العالم الإسلامي، ما كان يرفضه المنصرين ويجعلهم يخضعون، كمثلا جعل الجمعة يوم راحة، والعمل يوم الأحد، وكذا السماح بتدريس القرآن في المدارس في مصر على حساب خزينة الدولة إلى غاية 1970م، انظر: نفسه.

يقوم به المنصرون في البلاد الإسلامية والتي لن تكون لها نتائج واضحة إن لم تتوحد نشاط الإرساليات لتحقيق نتائج مضمونة، سريعة وعلى مدى مستمر، حيث قامت المجلة السويسرية "مجلة إرساليات التنصير البروتستانتية" والتي تصدر في بال بنشر عدة مقالات عن تقارير اللجنتين السابعة والثامنة من هذا المؤتمر، وكانت هذه المقالات بقلم شالاتار وكانت تدور معظمها حول ضرورة توحيد أعمال المنصرين، والذي يقول[1]: «إن مهمة توحيد أعمال الإرساليات أصبحت قضية مهمة يجب أخذها بعين الاعتبار خاصة أن النصرانية لا تمثل إلاّ ثلث بني الإنسان، فأمامهم عمل كبير يجب إنهائه، وسيكون بين المسلمين وباقي الأمم نزاعات وصراعات ومعارك، ولذلك وجب الاتحاد بين المنصرين»، كما استشهد بعدة أعمال لمنصرين من مذاهب أخرى اتحدوا من أجل تطبيق خططهم التنصيرية في كوريا والفلبين، والذين تمكنوا حتى من طبع كتب مشتركة، وحاول شرح أهمية التضامن والاتحاد على أرض الواقع. وهذه المقالات كانت تكملة لما نشر في مجلة العالم الإسلامي تحت إدارة القسيس زويمر[2].

وتذكر هذه المجلة في عددها الأول أنه بعد مراجعة مجلة العالم الإسلامي الفرنسية والألمانية، ودائرة المعارف الإسلامية الجديدة والمحررة بثلاث لغات، يجب أن يكون الاهتمام بالعالم الإسلامي والمسلمين أكبر وهذا ما تطلب إصدار مجلة باللغة الإنجليزية خاصة بأبحاث الإسلام ودرس الأفكار الإسلامية والأفكار المنتشرة بين المسلمين لتطويقها، وعلاقتهم بالكنيسة، والخطط والبرامج التي يجب وضعها، خاصة وأن بعد مؤتمر القاهرة دخلنا في مرحلة جديدة وهي ضرورة الاهتمام بتنصير المسلمين، وللوصول إلى ذلك وجب على المنصرين إيجاد ميادين مشتركة بينهم وبين المسلمين للاحتكاك بهم، دون ذلك لا يمكن الوصول إلى اختراق روح العالم الإسلامي، وهذه المجلة ستعمل جاهدة من أجل تطبيق هذه الخطط وهي ليست خاصة بمذهب أو فرقة أو جماعة معينة، وإنما هي قابلة لكل المنصرين[3].

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، المرجع السابق، ص55.

(2) مجلة العالم الإسلامي الإنجليزية التي تصدر منذ فبراير 1911م، تحت إدارة القسيس زويمر، وهي دورية علمية فصلية تحتوي على 37 مجلد (1911 – 1947م).

(3) أ. ل. لوشاتلي: المرجع السابق، ص ص114، 115.

أما مجلة الشرق المسيحي الألمانية جاء في أحد مقالاتها بعنوان "دخول تبشير العالم في طور جديد"، ذكر من خلاله أهمية مؤتمر أدنبرج، والذي أعطى أهمية كبيرة للمنصرين، وهذا هو نفس المقال الذي نشر تفاصيل حول المؤتمر والحاضرين، عددهم، جنسياتهم، وأعمالهم ودراساتهم، وحتى اهتماماتهم[1].

ويتضح من خلال ما سبق أنه: ما كان يخيف المسيحيين من الإسلام، ليس تحول المسيحيين إلى الإسلام فقط، وإنما إسلام الوثنيين، ما يزيد عدد المسلمين في العالم، حيث وصل عدد المسلمين في ماليزيا وجزر الهند الهولندية وإندونيسيا حاليا إلى حوالي 32.000.000 مسلم حسب إحصائيات 1910م[2] والذي هو في تزايد مستمر، فيصبح عدد المسلمين يفوق عدد المسيحيين.

اهتمت مداخلات ودراسات هذا المؤتمر بأقاليم النشاط التنصيري، في وسط إفريقيا، والهند، الصين، اليابان، ومناطق أخرى من العالم، وفي كل هذه المناطق كان لهم عدو واحد ومشترك وهو الإسلام، والذي توجّب إيجاد وسائل خاصة بكل المناطق وذلك عن طريق الدراسات والاستعدادات الملائمة للوسط الذي يعمل فيه المنصر[3].

وتميز المؤتمر بصبغة من التفاؤل عند المنصرين، بوصول الوقت المناسب، أين سيتمكن المنصرين من زعزعة الإسلام عن أركانه[4].

وأهم ما توصل إليه المؤتمرون ولا تبتعد في أساسه عن ما جاء به مؤتمر القاهرة ما عدا ربما إحصائيات جديدة وأرقام جديدة، ويمكن ربما تلخيصها في بعض النقاط:

– ضرورة اتحاد كل الإرساليات التنصيرية مهما اختلفت أصلها أو أفكارها، فتيقنوا أن عمل كل واحدة وحدها، يجعل نتائج نشاطها مشتتة وفي بعض الأحيان بعيدة المدى، أو في بعض الأحيان نشاط واحدة يلغي نشاط الأولى، فعدم وحدتهم أمام العدو المشترك وهو الإسلام كان له آثار سلبية على الحركة التنصيرية ونتائجها، فاقترح المنصرين من أجل

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، المرجع السابق، ص ص109، 113.

(2) نفسه، ص112.

(3) طلال العترسي: **البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة**، مرجع سابق، ص102.

(4) أ. ل. لوشاتلي: المرجع السابق، ص113.

تفادي كل هذا، هو تأليف وإصدار كتب مفادها خدمة و حدة الإرساليات التنصيرية من أجل إقناعهم بالأدلة ضرورة الوصول إليها، ولكن هذا المشروع لم يتحقق[1].

- يؤكدون على ضرورة دراسة أحوال المسلمين حتى يسهل التعامل معهم، والاعتماد على قول صامويل زويمر في هذا المجال أنه يجب إظهار المعاملة الحسنة اتجاه المسلمين، وتوهيمهم أن المنصر يعمل من أجل مصلحته[2].

- لا بد من توجيه أنظار المنصرين نحو المناطق الإسلامية التي كانت تابعة للدولة العثمانية، وذلك من أجل الحصول على حرية النشاط في تلك المناطق، ومن أجل تحقيق ذلك وجب على المنصرين التسلح بمعلومات ودراسات وإحصائيات حول تناسب النشاط في هذه المناطق.

ومن خلال هذه النقاط نلاحظ أنه يمكن حصرها في ثلاث كلمات:

الاتحاد، أي لم جماعتهم من أجل تحقيق أهدافهم رغم اختلاف مذاهبهم، فهم يتجاوزون الاختلافات أمام الهدف الحقيقي.

الاطلاع، أي دراسة وتحليل وبحث في كل ما يتعلق بالآخر من أجل تحقيق أهدافهم.

وأخيرًا **السيطرة** على كل المناطق من أجل تحقيق الريادة العالمية[3].

وإذا حلّلنا هذه الأفكار والتي تعتبر برنامج فهي لا تبتعد عن الأفكار والبرامج الاستعمارية، وتبين أن غاية المنصر هي السيطرة والنفوذ، والتي من المفروض لا يكون لها أية علاقة بالنفوذ والأرض، وإنما تكون مرتبطة بالروح وعلاقة الفرد بربه.

وربما هذا ما يفسر وجود عسكري سياسي في هذا المؤتمر كضيف شرفي، وهو "اللورد بلفور"، والذي ألقى كلمة في آخر المؤتمر والتي بين من خلالها أهمية التنصير والمنصرين لتطبيق المخططات الاستعمارية، والذين سهلوا الطريق للعديد من الحكومات للوصول إلى الاستيلاء والتوسع المناطق المراد استعمارها. فأكّد على وجوب إنشاء لجان

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، المرجع السابق، ص123.

(2) مجلة العالم الإسلامي الإنجليزية والتي أصدرت خمسة شهور بعد مؤتمر أدنبرج أي في فبراير 1911م، انظر:
Alfred Le Chatelier: **La conquête du monde Musulmanes, les missions évangéliques anglo-saxonnes et germaniques**, éd. Leroux, Paris 1911, pp123, 124.

(3) Ibid, p125.

مهمتها تقديم كل أنواع المساعدات للمنصرين، مالية أو عسكرية أو أخرى من أجل أن يسهلون عليهم مهمتهم التنصيرية[1].

وهنا تظهر بوضوح سر اهتمام العسكريين والسياسيين والمثقفين لهذا النوع من التجمعات، والمتمثلة في الأهمية التي يُولها الغرب بمختلف فئاته للنشاط التنصيري والنتائج التي يمكن أن يفتحها له.

وهذا ما نلاحظه عندما أخذت توصية بلفور بعين الاعتبار وطبقت وذلك عن طريق تأسيس لجان تابعة للدولة والكنيسة في نفس الوقت تهتم بالإرساليات التنصيرية[2].

ومن خلال كل ما سبق يتبين لنا أهمية هذا المؤتمر بصفته أنه مكمل لسابقه، وكأن له آثار مهمة على نشاط المنصرين وخاصة في المؤتمرات التي عقدت بعده، كما أن أهم ما نتج عن هذا المؤتمر هو تأسيس لجنة لمباشرة الأعمال والخطط التي اتخذت وكان لها عدة فروع، فكان فرع للإحصائيات، وآخر للنشر والطبع، والفرع الآخر للتربية والتعليم، وواحدة لحل المشاكل التي تنشب بين المنصرين والإرساليات المختلفة، حتى يكون لها أثر على نتائج الأعمال التنصيرية، وفروع لدراسة العلاقة بين المنصر والحكومات، والعقبات التي تقف في وجه نشر النصرانية بين المسلمين.

كما اجتمعت هذه اللجنة في 1911م، للبحث في الطرق التي ينبغي للمنصرين إتباعها بين المسلمين.

وذكرت مجلة العالم الإسلامي الإنجليزية، أنه أول ما سينفذ من قرارات المؤتمر هو إنشاء مدرسة تنصيرية مشتركة بين كل الفرق المسيحية، وتكون خاصة بالتعليم في البلدان الإسلامية، وفعلاً تم افتتاحها في خريف 1911م، واستقبلت النساء والرجال، وكان يدرس فيها اللغة العربية، والعلوم الإسلامية وتاريخ وأوضاع العالم الإسلامي، ويكون لها مكتبة كبيرة تحتوي على أمهات الكتب باللغة العربية المتعلقة بالإسلام، خاصة تلك التي كتبت من طرف المستشرقين، ومن خلال هذه المدرسة يتمكن المنصرين الاحتكاك بالمسلمين نساءً ورجالاً، ما يمكّنهم من زرع وتمرير أفكارهم التنصيرية التحررية بكل سهولة وسرية تامة[3].

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص123.

(2) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص280.

(3) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص63.

تم عقد مباشرة بعده المؤتمر الاستعماري: والذي اهتم بالشؤون الصناعية والاقتصادية، ونمو الثروة الاستعمارية المتوقفة على أعمال رجال الدين المنصرين الذين يلتحقون بالمستعمرات وأن أهم وسيلة هو إدخال المسيحية في المنطقة(1).

وعندما انطلقت أشغال فرعه الرابع الذي اهتم بالمسألة الإسلامية، وهذا يبرهن على الأهمية التي منحها المستعمرين للنشاط التنصيري، بتخصيص فرع من المؤتمر الاستعماري للنشاط التنصيري، واغتنم الفرصة المنصرين في شرح وطرح أفكارهم، حتى ظن الجميع أن هذا المؤتمر الاستعماري تحول إلى مؤتمر تنصيري.

فتوصلوا إلى ضرورة الاهتمام بكل الأبعاد، تنصيرية كانت أم فكرية، أو سلطة سياسية، أي ضرورة الإلمام بكل ما يخص الإسلام من كل الجوانب(2).

وأكد خلال هذا المؤتمر "باكر" عضو مجلس المستعمرات على العلاقة بين الحكومات الاستعمارية وإرساليات التنصير، مؤكدًا على عدم وجود فاصل بين مصالح الاستعمار وأعمال إرساليات التنصير. فرأى أنه من أجل كسب العامة فقد أصبح من الضروري تعليم المسلمين في مدارس علمانية، بما أن المسلمين ينفرون من المدارس المسيحية، وبذلك هذا المؤتمر العسكري، السياسي، ذو أبعاد اقتصادية أعطى أهمية كبيرة للنشاط التنصيري، تيقنًا منهم أنه لا نفوذ دون تنصير، حتى أنه جاء في قراراته(3):

– أن ارتقاء الإسلام يهدد نمو مستعمراتنا، فمن الضروري أن تشدّد الحكومات المراقبة على المسلمين، ومقاومة كل ما يمكن أن يكون وراء المساعدة على انتشار الإسلام، ومنح كل الإمكانيات والمساعدات اللازمة للإرساليات لمواصلة نشاطها.

وهذا ما نجده عند باكر الذي قال: «... إن السياسة التي ينبغي الجري عليها في معاملة المسلمين تحتم علينا وضع خطة جديدة في مجرى سياسة حكومتنا». وقال أيضًا: «... المبشرون هم الذين اختصوا في الاهتمام بشؤون الإسلام والمسلمين في كل المستعمرات، ووجب على الحكومات الاستعمارية أن تهتم بالأزمة الإسلامية...».

(1) وهذا ما ذكره شنكال رئيس غرفة التجارة همبورغ والذي اعتبره الشرط الوحيد للوصول إلى الثروة. انظر:

(2) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص ص132، 134.

(3) طلال العترسي: **البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان**، مرجع سابق، ص103.

كما اقترح وضع خطة محكمة وهي:

- خطة عامة للنظام الإداري والعلمي.
- وضع علاقة بين الشرع الإسلامي والقوانين الأوروبية.
- من الضروري الاهتمام بتدريس الإسلام في النظام التعليمي، وذلك من أجل مقاومة انتشاره، ووضع أركان ثابتة لدين النصرانية، وهذا عمل المنصرين[1].

وبعد هذا المؤتمر الاستعماري السياسي العسكري ذو الطابع الديني التنصيري، عقد أحد أهم المؤتمرات التنصيرية وهو: مؤتمر لنكو عام 1912م: والذي عقد بعد خمسة سنوات من عقد مؤتمر القاهرة في 21 جانفي 1912م في منطقة لنكو في الهند، واستمر إلى غاية 29 جانفي، وكان ذلك في ساحة مدرسة إيزابيلا توريون البروتستانتية للبنات، نشروا على الجدران خرائط وإحصائيات تبين مدى انتشار الإسلام في العالم، وأمام المنضدة التي أمام الرئيس كرة أرضية وعليها الهلال والصليب – ربما لترسيخ الصراع الحقيقي في العالم وهو بين النصرانية والإسلام – كما عرضت في غرفتان كل الكتب والمطبوعات التي نشرت حول الإسلام والمسلمين[2].

اشترك في هذا المؤتمر 168 مندوبًا و 113 مدعوًا من 54 جمعية تنصيرية، نزل كل هؤلاء ضيوفًا على منصري "لنكو" ومن بينهم القسيس زويمر[3].

جاء هذا المؤتمر عقب أحداث هامة شهدها العالم الإسلامي ما بعد مؤتمر القاهرة، كالانقلاب العثماني[4]، تمديد سكة الحجاز، تأسيس مجالس في الهند إدارية وشورية، كان للمسلمين فيها غالبية على المسيحيين، ودخلت الدعوة الإسلامية في صفة جديدة تتلاءم مع العصر، كما حاول مسلمي الصين تنشيط دعوتهم، امتد الإسلام في إفريقيا وكل هذا يجبر الكنيسة على مضاعفة العمل وإيجاد خطط وبرامج جديدة لتطويق الإسلام والمسلمين[5].

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص ص137، 138.

(2) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص302.

(3) أ. ل. لوشاتلي: المرجع السابق، ص ص147، 148.

(4) مصطفى طوران: **أسرار الانقلاب العثماني**، ترجمة كمال خوجة، ط1، دار السلام، القاهرة، 1977م، ص ص85-97.

(5) جاء هذا المقال في مجلة العالم الإسلامي الإنجليزية، انظر:

Alfred Le Chatelier: **La conquête…**, op.cit, p127.

وبعد الافتتاحية وقراءة البرنامج الذي كان في تسعة نقاط تدور كلها حول النظر في تنصير المسلمين، وكيفية إعداد المنصرين من كل الجوانب، والاهتمام بالجامعة الإسلامية، وأثرها على التنصير في أوساط المسلمين(1).

والجدير بالذكر أن خطبة افتتاحية المؤتمر التي ألقاها القسيس زويمر قد ألمت بكل النقاط التي جاءت في المؤتمر، والتي قسمها إلى أربعة أقسام:

- الإحصائيات الإسلامية.
- حالة المسلمين السياسية وارتقاؤها.
- ما تغير عند المسلمين وفي الإسلام بعد مؤتمر القاهرة من انقلابات سياسية وفكرية.
- الخطط التي اتبعتها الكنائس.

فبدأ الخطبة بالإحصائيات(2) أين حاول إعطاء أرقامًا دقيقة في مختلف أنحاء العالم لعدد المسلمين والإسلام وسرعة انتشاره ليصل إلى نتيجة أنه لا تخلو منطقة في العالم من المسلمين حتى في المناطق التي تعتبر أغلبية مسيحية، تتخللها بعض الأقليات المسلمة، وأكد كذلك على سرعة انتشار الإسلام في إفريقيا، رغم مجهودات المنصرين، وهنا يشير إلى صعوبات هؤلاء في القيام بأعمالهم(3).

ثم انتقل في الجزء الثاني من خطبته إلى الانقلابات السياسية التي حدثت في العالم الإسلامي، وشكر الله على حدوث هذه الانقلابات في غرب آسيا، حيث بواسطة هذه الانقلابات والوضع المتوتر تمكن المنصرين من التغلغل مع الجواسيس، كما أصبح غير ممنوع من التجول في البلاد العثمانية، خاصة وأن عبد الحميد الثاني مسجون في سيريلنكا(4).

كما أن ارتباط المدينة المنورة بدمشق بواسطة سكة الحديد، وأصبح من السهل وصول المنصرين إلى المناطق المقدسة عند المسلمين كالمدينة ومكة قبلة المسلمين.

وتم احتلال أهم مقاطعة لتجارة الرقيق من طرف الفرنسيين، مقاطعة "واداي"، ما سيقف كحاجز في وجه شيوخ السنوسية ولن يتمكنوا من محاربة التوسع الاستعماري في فرنسا، وما يساعد أكثر هو انتقال السلطة السياسية في العديد من المناطق من الدولة

---

(1) انظر الملحق رقم 04 بخصوص برنامج مؤتمر لنكو 1911م.

(2) انظر الملحق رقم 05 الخاص بالإحصائيات والدائرة النسبية.

(3) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص148.

(4) نفسه، ص152.

العثمانية نحو الاستعمار، إما فرنسي أو إنجليزي، فزاد عدد المسلمين تحت سلطة الدول المسيحية وأصبحت مهمة الغرب أكبر في تنصير العالم الإسلامي[1].

ثم ذهب إلى كل الانقلابات الفكرية والاجتماعية، يقصد هنا كل التغييرات التي طرأت على الفكر والمجتمع الإسلامي عن طريق نشاط المنصرين الذين استطاعوا نشر أفكار داخل هذه الأوساط. حيث أراد أن يقنع الحضور أن المسلمين أصبحوا قابلين ومقتنعين بضرورة تطبيق عصرنة الإسلام حتى يتماشى مع العالم المتحضر – الغرب طبعًا – وقد اعتمد المسلمين من أجل هذا التغيير الحركات الإصلاحية، الطرق الصوفية، والجامعة الإسلامية، والتي حاولت تطبيق العصرنة على الأفكار المنتشرة في المجتمعات الإسلامية، كالعادات والتقاليد والأعراف[2]، – أي يريد عصرنة أفكار سائدة لا علاقة لها بالإسلام، عادة تكون معمول بها في الأوساط الإسلامية ومتوارثة لا غير –. وهنا يلحّ على فضل المنصرين ونشاطهم الذي مكّنهم من الوصول إلى هذه النتائج، أي عصرنة المجتمعات الإسلامية وانتشار الأفكار الغربية بين المسلمين، وأعطى عدة أسماء لعلماء عرب كتبوا وألفوا حول ضرورة عصرنة الأفكار الإسلامية لمسايرة الركب الحضاري، والذين تمكنوا من خلق الصراعات بين المسلمين[3].

ثم يشير زويمر إلى فكرة تأويل سورة الكهف والنساء واستحالة تطبيقها على العقل أي أنها غير منطقية، وهنا نلمس من خلال هذا التدخل التنصيري ما زال يحتفظ عنده بالمبادئ الأولى الموروثة من منصري العصور الوسطى والحقد الذي كان يكنّه هؤلاء للإسلام والمسلمين والذين ألفوا وكتبوا حول هذا الدين العديد من التشويه والتغليط، بهدف إبعاد عنه المسيحيين. أي أن المهمة التنصيرية لم تختلف منذ البداية رغم كل التحولات التي أظهرها الغرب والمنصرين نحو الإسلام والمسلمين[4].

ويناقش ما كتب حول الحجاب وتعدد الزوجات واعتبرها مواضيع يمكن أن تستعمل من أجل خلق نزاعات وصراعات وحتى انشقاق داخل المجتمعات الإسلامية، خاصة

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، المرجع السابق، ص155.

(2) نفسه، ص158.

(3) نفسه، ص155.

(4) عبد الرحمن حمبكة: **أجنحة المكر الثلاث**، مرجع سابق، ص96.

أن المجتمعات الإسلامية أصبحت في احتكاك مستمر ودون انقطاع مع المسيحيين والمنصرين، فلن يتمكن من مقاومة هذه الأفكار والاحتفاظ بمبادئ القرآن، وهذا هو باختصار عمل المنصرين وأهدافهم[1].

وبذلك وجب على الكنيسة إتمام عملها عن طريق المنصرين، فأكد زويمر أن لمؤتمر القاهرة انطلاقة جديدة في التنصير، فقام بوصف لكل أعمال المنصرين، وعرض لكل ما كتب ونشر عن الانقلابات عن الدولة العثمانية، والنهضة المصرية، وحركة الجامعة الإسلامية، وصنفت العديد من الكتب التي من الضروري توزيعها على المسلمين[2].

ختم زويمر خطبته أن البلاد الإسلامية تحتاج لعدوة مسيحية وأن كل منطقة هي جزء من الصراع المسيحي الإسلامي، فالمغرب الأقصى مثال للانحطاط، وبلاد فارس مثال للانحلال، والجزيرة العربية مثال للركود الفكري، ومصر مثال لمجهودات التغيير والإصلاح على الطراز الأوروبي، وإفريقيا مكان الخطر الإسلامي، وبذلك فإن الإسلام بحاجة ماسة للمسيحية، فالمسيحية هي التي سترسل أشعة النور للمغرب، ويوحد بلاد فارس، ويحيي الجزيرة العربية، ويزيل الخطر العظيم ويقصد بهاذ الإسلام[3].

كما تداول المؤتمرون خلاله العديد من الأمور، تتعلق بالعالم الإسلامي وكيفية تضييق الخناق عليه، وتفكيك أواصر الوحدة فيه. فقال مثلاً المنصر القسيس سيمـــون: «... عبثًا يبني المسلمين آمالهم على الجامعة الإسلامية، لأن التربية غير الإسلامية قد أنبتت في دمائهم بفضل مدارس التبشير...»[4]، أي يشيد هنا بالعمل الجبار الذي قام به المنصرين خلال نشاطهم لاسيما من خلال التعليم في بعث أفكار وخلق نشأ مسلم ظاهريًا فقط.

أما المنصر "مينهف"، ركّز على ضرورة احتكاك المنصرين والإرساليات بالمسلمين، والتسلح بكل الأفكار والتكوين من أجل محاربتهم دون خوف، وأن لا يقتصر نشاطهم على

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص ص157، 158.

(2) عبد الرحمن حمبكة: **أجنحة المكر الثلاث**، مرجع سابق، ص97.

(3) أ. ل. لوشاتلي: المرجع السابق، ص157.

(4) نفسه، ص158.

جانب اللاهوتي، بل أن يدخل كل الميادين، من الطب والصناعة، وكل الأعمال التي يتفوق فيها الغربي على الشرقي، وهذا من أجل تعزيز الإحساس بالنقص لدى المسلمين نحو الغربي المسيحي المتطور المتفوق.

أما مداخلة المنصر استوارد كروفورد "Stewart Crawford" في المؤتمر، فكانت حول أهمية التحلي بالصبر والتدرج خلال النشاط التنصيري، ويقول: «... إن المسلمين يقتبسون من حيث لا يشعرون شطرًا من المدنية المسيحية ويدخلونها في ارتقائهم الاجتماعي...»[1]، ثم تكلم عن موقف الإرساليات التنصيرية، اتجاه القوى الإسلامية الجديدة وأمام هذه الأوضاع يجب انتهاز الفرصة للاحتكاك بهذا المجتمع الجديد ولما لا هدايته للإنجيل، ولن يتم لهم ذلك إلاّ بالابتعاد عن الطريقة القديمة، أي إظهار الحقد والعدوان الذي جاءت به الحروب الصليبية[2].

وقد ركز على ضرورة الصبر الذي أوصى به الإنجيل، لأن الهدف هنا هو تغيير أخلاق أمة بأكملها، وهذا الاحتكاك بين المجتمعين سيساعد على انتقال أفكار وأخلاق وتصرفات التي يريد المنصر نشرها داخل المجتمع الإسلامي الجديد المتفتح و القابل لهذه الأفكار التطورية لمسايرة الركب الحضاري.

ثم يحاول القسيس المنصر "جون تكلي"[3] التأكيد أن الوقوف والتعرف على أسباب نمو الإسلام يمهد للحصول على وسائل لتوقيف تياره، ثم أوضح بعض ما يجب أن يتحلى به المنصر خلال القيام بنشاطه التنصيري وكذا ضرورة مضاعفة القوى البشرية التنصيرية المتخصصة[4].

إذا حاولنا إيجاد العامل المشترك بين كل هذه النماذج من المداخلات التي ألقيت خلال هذا المؤتمر ابتداء بالمداخلة الافتتاحية للقسيس زويمر، أنها كلها عبارة عن برامج ومناهج وخطط من أجل القيام بتنصير العالم الإسلامي على أحسن وجه، فكل منهم أعطى

(1) عبد الرحمن حمبكة: **أجنحة المكر الثلاث**، مرجع سابق، ص99.

(2) نفسه، ص100.

(3) نفسه.

(4) نفسه، ص101.

برامج ولكن كلها متقاربة ذات غاية واحدة، كما نلاحظ أن كل منهم أكد على ضرورة التحلي بالصبر لأن قضية التنصير صعبة وتتطلب وقت ومثابرة.

ومن أهم القرارات التي توصل إليها المؤتمر:

- ضرورة عقد مؤتمر آخر في القاهرة في 1912م، وفي حالة ظهور أوضاع سياسية تمنع انعقاده في القاهرة يعقد في لندن.

- يتبنّى هذا المؤتمر الفكرة التي طرحت من قبل خلال مؤتمر أدنبرج على ضرورة تركيز اهتمام الأعمال التنصيرية في إفريقيا ويجب من أجل تحقيق ذلك الاهتمام بحسن تكوين المنصرين واختيارهم، كما يرى أنه يجب على الجمعيات التنصيرية أن تتحد فيما بينها لتؤسس سلسلة قوية من الإرساليات، تطوف كل إفريقيا وتؤسس مراكز قوية في مواطن الخطر.

- وقد أصبح من العاجل تأسيس مدرسة في مصر خاصة بالتنصير، وحسن اختيار مدرسيها وعمالها، وتكون لكل الفرق المسيحية، الهدف منها مناهضة الأزهر، وتأثيره على العالم الإسلامي[1].

أهم ما يمكن استنتاجه هو أن هذا المؤتمر تكملة لمؤتمر القاهرة وأدنبرج الذي كان القسيس زويمر وراء فكرة عقدهم، وهو عبارة عن حوصلة لكل النتائج ومدى تطبيقها على أرض الواقع، وما يجب ربما تغييره وتطويره حسب المستجدات التي ظهرت في الساحة العالمية، وكان هدفه الأول من خلال هذه الدراسات وضع مخططات وإعداد منصرين من أجل تنصير أو بالأحرى مواصلة تنصير العالم الإسلامي.

في ماي 1912م صدرت أول نشرة عن هذا المؤتمر وكانت سرية وهي عبارة عن كراسة صغيرة بعنوان "أخبار وملاحظات" وهي نفسها التي تطورت لتصبح مجلة معهد هنري مارتن[2].

اعتبر هذا المؤتمر منطلق لسلسلة من المؤتمرات وصل عددها إلى واحد وعشرين مؤتمرًا، للإرساليات وقادة الكنائس، وكان الهدف منها العمل من أجل توحيد الجهود بين الكنائس وبالتالي الإرساليات ومضاعفة النشاط التنصيري.

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص110.

(2) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص298.

فجاء مؤتمر أورشليم في 1935م[1]، حاولوا من خلاله التركيز على المشاكل التي تواجه المنصرين بين المسلمين، فوضع خلاله خطوات العمل ومصدر المساعدات والإعانات، وأظهروا إحصائيات عرضت فيها أن رغم العدد الكبير للإرساليات التنصيرية إلاّ أن عدد المسلمين يفوق عدد المسيحيين بكثير وفي تزايد مستمر، وأعطى مثال على الهند الذي يصل عدد الإرساليات إلى 5000 إرسالية ويصل عدد المسلمين إلى 70 مليون مسلم، فإنها أرقام لا تشجع على مواصلة النشاط التنصيري وتوضح أنه هناك سوء تخطيط وعمل لدى الإرساليات تعيق الوصول إلى نتائج ظاهرة[2].

فمن بين ما اقترح هو إضافة خلال تكوين المنصر دروس حول آداب الإسلام والتي ستساعد المنصر من استعمالها كوسيلة لاختراق العالم الإسلامي[3].

وبرز شخص في هذا المؤتمر وهو م. س. تيتـــاس (M. S. Titus)[4]، والـــذي أبدى رغبته في إنشاء معهد للدراسات الإسلامية، واستجابت لـــه الكنيســـة النظاميـــة Les Méthodistes[5]، وفعلاً لم تمر سنة على المؤتمر وبمساعدة الكنيسة استطاع من تحقيق رغبته، وكان المعهد في منطقة لنكو، وقد فتح فرع خصيصًا للمتخرجين الذين تخصصوا في دراسة الإسلام والمسلمين[6]، وكانت هذه المدرسة رائدة، لمعهد آخر مهم جدًّا سيفتح بعدها في كلكوتا من أجل الاهتمام بالدراسات الإسلامية وهو معهد مارتن هنري[7].

وقد جاء خلال هذا المؤتمر التصريح الذي جاء على لسان أحد أقطاب المؤتمر، صامويل زويمر: «... أتظنون أن غرض التنصير وسياسته إزاء الإسلام هو إخراج

---

(1) عقد في أورشليم، جبل الزيتون في القدس وحضره 40 دولة صليبية. للمزيد انظر: علي بن إبراهيم الحمد النملة، **التنصير مفهومه**، مرجع سابق، ص57.

(2) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص298.

(3) نفسه، ص298.

(4) تيتوس Titus de Bostra، قس وكاتب كنسي من أصل سوري، انظر:
Paul-Hubert Poitier: **Une première étude de contra Manichoos de Titus de Bostra**, Paval théologique et philosophique, vol 61, n°02, 2005, pp359, 362.

(5) المفهوم قد سبق وأن شرحته في الفصل الأول من هذه الدراسة، الفصل الأول، ص ص62-63.

(6) عبد الجليل شلبي: المرجع السابق، ص299.

(7) معهد للدراسات الإسلامية، وأسس هذا المعهد في 1930م، للمزيد انظر: عبد الجليل شلبي: المرجع السابق، ص300.

المسلمين من دينهم ليكونوا نصارى؟ إذا كنتم تظنون هذا فأنتم تجهلون التنصير ومراميه، ولقد برهن التاريخ من أبعد أزمنته على أن المسلم لا يمكن أن يكون نصرانيًا مطلقًا والتجارب بيّنت لرجال السياسة النصرانية استحالة ذلك، ولكن الغاية التي ترمي لها هي إخراج المسلم من إسلامه فقط، ليكن مضطربًا في دينه، عندما لا يكون له عقيدة يدين بها ويسترشد بها ويصبح للمسلم من الإسلام إلاّ الاسم...»[1].

ونلاحظ أن هذا التصريح يلخص برنامج هذا المؤتمر وكل المؤتمرات السابقة والتي ستُعقد لاحقًا، لأنه يكشف وبوضوح أن الغاية والهدف وراء النشاط التنصيري لا علاقة له بالجانب الروحي التي تتميز بها العقيدة والديانة، بل كل هذا النشاط التنصيري هو الوصول إلى السيطرة على المسلمين والمناطق التابعة لهم، وبالتالي هذا دليل على أن المنصر يخدم مصالح حكومته التوسعية الاستعمارية.

وقد انعقدت مؤتمرات أخرى في عدة مناطق برئاسة منصرين معروفين ورجال دين والتي كانت تكملة لما سبق، حيث كان يتم خلالها حوصلة ما وصل إليه المنصرين خلال نشاطهم وإلى أي مدى طبقت خططهم وبرامجهم ومدى نجاحها في تحقيق غايتهم، وربما من أهم هذه المؤتمرات والذي كان بمثابة برامج جديدة للسيطرة على العالم الإسلامي وفق تطورات الأوضاع العالمية وانتقال السيطرة والقوة من أوروبا إلى أمريكا، هو مؤتمر كولورادو الذي عقد في 1978م[2]، والذي جاء من أجل إعطاء دور ومكانة لأمريكا في هذا المجال العقائدي، وتيقنوا خلال هذا المؤتمر أنه يجب تغيير طريقة العمـــل[3]، وأنه يجب على الغرب إظهار قبوله لمبدأ قدرة الله وسيطرته وتحكمه، لإزالة الشك الذي لدى المسلمين، الذي يرى أن العالم المسيحي يشجع على توجيه العالم الإسلامي نحو العلمانية.

---

(1) إبراهيم عكاشة علي، **ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي**، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1987، ص38.

(2) عقد هذا المؤتمر في كولورادو في كاليفورنيا في 1978م، وقد حضره أهم الحكام والقادة العالميين، للمزيد انظر: محمد عمارة: **إستراتيجية التنصير في العالم الإسلامي**، دراسة في أعمال مؤتمر كولورادو لتنصيـــر المسلميـــن، أو بروتوكولات قساوسة التنصير ومركز دراسات العالم الإسلامي، مالطة، 1992م، ص ص54، 56.

(3) نفسه.

كما تيقنوا أنه يجب إبعاد استعمال القوة والتشدد مع العالم الإسلامي، لأن هذه السياسة لا تساعد المنصرين في القيام بنشاطهم التنصيري، وبالتالي عرقلة مصالح الدول المسيطرة التي تقدمت في سياستها للسيطرة على هذه المناطق المبنية أساسًا على الدين والمعتقد، فوجب على القوى الجديدة خلق جو سلام وأمن وود بينهما[1].

ما يمكن استنتاجه أنه لم تتوقف نية الكنيسة في تنصير العالم الإسلامي رغم اختلاف الغاية والدوافع لذلك، حيث أنها بقيت تعمل جاهدةً، فكانت في كل مرة تعقد هذه المؤتمرات ويحضرها العديد من الدول المسيحية، تجمع شخصيات لامعة وبارزة في مجال الدين أو السياسة والعسكر والعلماء في مختلف التخصصات المهتمين بالعالم الإسلامي والمسلمين، يناقشون الإحصائيات والأرقام والبرامج والخطط التي وضعت وما يمكن إضافة أو تنقيص منها حتى تكون ناجحة لتطبيق أهدافها.

وما يمكن التركيز عليه أنه رغم أن التنصير كمفهوم لا يجب أن يكون محصور النشاط، إلاّ أننا لاحظنا خلال المؤتمرات المنعقدة، استشراقية أو تنصيرية حصرت مجالات الدراسة والبحث والمناقشة في مناطق العالم الإسلامي وكيفية تنصيره. وإن اهتمت بالمناطق الوثنية فغايتها حسب تصريحاتهم تكون خوفًا من انتشار الإسلام لديهم وليس همهم نشر المسيحية، وإنما إبعاد خطر الإسلام.

وهذا ما ظهر من خلال تصريحات أقطابهم أن همهم ليس تنصير المسلمين وغير المسلمين، وإنما إبعاد كل العالم عن المقومات والأسس الصحيحة للإسلام، والتي بإمكانهم ترقية العالم الإسلامي.

المبحث الثالث: البعثات الدراسية إلى أوروبا ومهمة تنصير النخبة

اهتمت الإرساليات التنصيرية بالنشاط في مجال التعليم بكل مراحله لأنه يعتبر أخطر سلاح، يمكن من خلاله ضرب المجتمع من الداخل، فاهتمت بالمدارس ومراكز التكوين والبرامج التعليمية والجامعات والمعا هد وكليات الدراسات العليا، لأن التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية[2]، وتعليمهم هو واسطة إلى غاية فقط، هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعلي مهم حتى يصبحوا أفرادًا مسيحيين، ثم شعوبًا مسيحية. ولقد

(1) محمد عمارة: **إستراتيجية التنصير في العالم الإسلامي**، المرجع السابق، ص ص44-53.

(2) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص121.

برهن التعليم على أنه أثمن الوسائل التي استطاع المنصرون أن يلجئوا إليها في سعيهم لتنصير سورية ولبنان[1].

اهتمت الإرساليات التنصيرية بإتمام تكوين هذا النشأ أو البعض منه، الذي ترى فيه النخبة التي ستقوم بإتمام نشاطها التنصيري بين أفراد مجتمعه بالبعثات الدراسية إلى الجامعات والمعاهد في أوروبا[2].

المنحة الدراسية هي دعم مادي يعطى للطالب من أجل استكمال دراسته، وتعطى المنح على أساس معايير عدّة، وغالبًا ما تعكس قيم ومقاصد المانحين، وأموال هذه المنح الطالب ليس مطالب بردها، فهنا يظهر عمل الإرساليات إيجابي من أجل خدمة العلم والطلبة وهذا ظاهرًا، أما في الحقيقة هذه المنح لم تكن تمنح لكل الطلبة، بل إلا للذين درسوا في المدارس المسيحية أو الفرنسية[3]، هذا من جهة، كذلك لماذا يا ترى، هذه الإرساليات عن طريق حكوماتها، ترسل الطالب إلى الجامعات الأوروبية وفي تخصصات معينة للدراسة في الخارج، لم يحصل أن بعثوا طلبة في تخصص الطب والعلوم الدقيقة أو البيولوجيا للدراسة في الخارج، بل أكبر عدد المرسلين في بعثات تكون في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية أو اللغات[4]، وإذا تمعنا في هذه التخصصات نجد أنها تخصصات تهتم بالفرد في مجتمعه وتاريخه، ولغته وعاداته وتقاليده، فإذا تمكّن من ترسيخ بعض الأفكار المسيحية الغربية في فكر هذا الطالب، قد تأكدت من مساعدته دون علمه في نشاطها وتطبيق أهدافها بين بني جلدته، وإقناع هؤلاء الطلبة، بارتباط الحضارة الإنسانية والتطور بأوروبا وشعوبها، وأنه من الضروري الأخذ بالنموذج الغربي، حتى يتمكن المسلمين أن يعيشوا عصرهم وحضارتهم، وكل هذا من خلال ما يحصلون عليه من خطابات ومحاضرات ومقالات، وصداقات، ثم بمجرد عودتهم إلى مواطنهم يحصلون على مناصب، لأن الإرساليات والحكومات المستعمرة تعمل جاهدة على إقحام العائدين من البعثات داخل الحكومات[5]، وإذا نظرنا عبر التاريخ، فإن معظم العائدين من البعثات يتولون مناصب

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص166.

(2) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص94.

(3) طلال العترسي: **البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة**، مرجع سابق، ص129.

(4) نفسه، ص130.

(5) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص95.

مقدِّرَة في المجتمع ويكون لهم مراكز قيادية، من خلال موقعهم الوظيفي يخدم مصالح أوروبا والمنصرين عامة[1].

ونجد أن الإرساليات ركزت على هذه المجموعة الهائلة من الطلبة المبعوثين في المدارس المسيحية الغربية، ويقفون على عتبتها، وذلك أنهم يمثلون طائفة منعزلة ومنغلقة، لأنهم يدرسون خارج أوطانهم، وإن الاحتكاك بهم والاهتمام بهم وحسن معاملتهم، سيمنح تلك النظرة الحسنة للمسيحيين والمسيحية، وتعتبر مباني الجامعات أو الكليات والمعاهد العليا مكان للاقتراب والتواصل والاختلاط بين الطلبة من كل الديانات، والجمعيات الطلابية وخاصة تلك المدعومة من طرف الإرساليات والتي لها أعمال خفية، تسعى من أجل تطبيقها في الأوساط الطلابية[2]، وتكون مدعومة من طرف الإرساليات التنصيرية، ويتبنى الاتحاد العالمي للطلبة المسيحيين (S.G.M)[3] والزمالة الدولية للطلبة الأنجليكانيين (I.V.F)[4]، مهمة الإرساليات عند الطلبة، خاصة المسلمين، لأن هذا الطالب سيتولى منصب في بلاده وسيكون له بطريقة مباشرة وغير مباشرة مهام التنصير بين أفراد مجتمعه، ويكون عمله أحسن من المنصر نفسه، وفي غالب الأحيان تنصيره ليس الدعوة للدخول في المسيحية، وإنما الخروج عن أسس الدين الإسلامي والشخصية الإسلامية من الأخلاق والتي تهدم الفرد المسلم[5].

فأصبحت المنح الدراسية نقطة مهمة تشد اهتمام البعثات الدراسية نقطة مهمة تشد اهتمام البعثات الدراسية للطلبة المسلمين، وذلك من أجل مواكبة السير الحضاري ووجود مجموعات من أبناء المسلمين في أوروبا وأمريكا لتلقي العلم، وهذه الفئة تتلقى موجات قوية من المنصرين، عن طريق مكاتب الطلبة الأجانب في الجامعات، وتضع لهم برامج من رحلات ونشاطات اجتماعية، ولكن قبل ذلك مساعدتهم في الإيواء، والاستقرار

---

(1) طلال العترسي: **البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة**، مرجع سابق، ص130.

(2) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص85.

(3) S.G.M هو اتحاد للحركات الطلابية المسيحية المستقلة وهي تشكل الذراع الشبابي والطلابي للحركة المسكونية العالمية، تأسس في باريس سنة 1895م وأهم أهدافه هو خدمة الطلاب الأكاديميين المسيحيين في الجامعات والسكن الجامعي، من برامج دينية لبناء مجتمع مسيحي قائم، انظر: مصطفى خالدي وعمر فروخ: المرجع السابق، ص70.

(4) هي جمعية مكونة من حوالي 136 حركة طلابية مسيحية إنجيلية في جميع أنحاء العالم وتشجع على التنصير وهدفها وضع حركات طلابية مستقلة ومحلية في كل بلد يوجد فيه التعليم العالي، تأسست في أكسفورد، انظر: نفسه، ص71.

(5) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص65.

والتعرف على المناطق من أجل الاحتكاك بهم عن قرب، وربط علاقات الصداقة والتقارب فيما بينهم، والتي ستسمح لهم بالانتقال إلى المرحلة الثانية[1]، وهي الاهتمام بإدماجهم في المجتمع الغربي المسيحي، دون إظهار في أية حال من الأحوال نية تنصيرهم، أو إبعادهم عن دينهم، وإنما من باب مساعدتهم، وذلك عن طريق إدخالهم في الحياة الاجتماعية، دعوتهم حضور الحفلات، والمشاركة في التظاهرات الرياضية والفنية، وغالبا ما تكون منظمة من طرف الكنيسة[2].

كما يستغلون المناسبات الدينية والوطنية لمحاولة الوصول والاحتكاك بهم، وذلك عن طريق دعوتهم، وإبداء الرغبة في خدمتهم والوقوف إلى جانبهم والتعاطف معهم، كما يستغلون ضعف بعض الطلبة المسلمين ماديًا، فتحاول الجمعيات دعم هؤلاء الطلبة، وتعمل على إيجاد فجوة بين المسلمين الأغنياء والفقراء، وتزرع بينهم العداوة والحسد حتى لا تقوم أي رابطة بين الطلبة المسلمين[3].

كما اهتمت ببعض الطلبة المسلمين الذين يتعسر عليهم العودة إلى بلادهم بسبب سوء الأحوال السياسية والاقتصادية، فيتم تزويجهم بفتيات من البلد، تكون ذات ميول نصرانية قوية[4]، وهكذا يضمنون أن مجيء الأطفال سيكون مجالاً للصراع بين الزوجين، وهنا سيكون حلين وكلاهما إيجابي بالنسبة للإرساليات والنشاط التنصيري، إما افتراق الزوجين، وحصول الأم على الحضانة، فتأخذ بأبنائها للكنيسة، فيكون انتصار للكنيسة، يكسب أفراد جدد في المجتمع النصراني، وإمّا أن يقبل الأب أخذ أولاده للكنيسة دون تعميد أي لا ينتقل بالضرورة هو إلى المسيحية، ولكنه يشارك في كل النشاطات والتعاملات بين المسيحيين، وهذا نادرًا ما يحدث ويعتبر هو كذلك انتصار للكنيسة.

كما استغل المنصرين المؤسسات العلمية المتخصصة في الدراسات عن العالم الإسلامي والغرب والشرق الأوسط، ونشأت هذه العلوم على أيدي رجال الدين، ومنحه مصطلح الاستشراق، أي الاهتمام بالشرق، واستغلوها من أجل ترويج أفكار تنصيرية،

---

(1) علي بن إبراهيم الحمد النملة، **التنصير مفهومه**، مرجع سابق، ص52.

(2) نفسه، ص52.

(3) نفسه، ص53.

(4) نجيب العقيقي: **المستشرقون**، مرجع سابق، ص110.

تضرب الإسلام والمجتمع الإسلامي[1]. وعملوا من خلال هذه المؤسسات على كسب المسلم، وكانوا يلقون محاضرات في كل مواضيع، الاجتماعية والخلقية والتاريخية، دون المساس بالدين مباشرة، لأنهم تيقنوا أن مجادلة المسلم في عقيدته لا فائدة لها، بينما بإمكانهم السيطرة عليه بحسن المعاملة، وإقناعه عن طريق تصرفاتهم أن المسيحية ليست عقيدة فحسب، بل هي الحياة اليومية، وأنها تطبق العدل والمساواة وتحث على النظافة والطهارة الفعلية والمعنوية، وترفض الظلم والباطل.

وبذلك جلب الشباب المسلم إلى جمعية الشبان المسيحيين، وهي تعمل على تكوين شباب مسلم على أسس مسيحية[2].

وكانوا ينظمون دورات رياضية في كرة القدم، وكرة اليد وغيرها من الرياضات، ويختلط الشباب المسلم بالشباب المسيحي واليهودي، وتبين أن الألعاب الرياضية لها أهمية ودور كبير في خدمة المخططات التنصيرية، وأظهروا أهمية كبيرة للروح الرياضية وأصبحت هذه الجمعيات تشجع التسامح الديني، وحوار الديانات، والذي كان يهدف القضاء على الشعور القومي، فقد برهنت الألعاب على أنها أحسن الوسائل لتقريب وجهات النظر بين المختلفين، بل حتّى بين المتعاديين، فمثلاً عندما أعلن العرب إضراب عام في القدس عام 1929م، احتجاجًا على ممالئة الإنجليز لليهود، قامت جمعية الشبان المسيحية بحفلة تخدم التعاون الودي بين العرب واليهود، فأقاموا مباراة في لعبة التنس، كان اللاعبون فيها مسلمين ويهود، وكان الحضور كثيف من كل الفئات، وسادت الروح الرياضية والتحيات المتبادلة بينهم، وتبعت المباراة بحفلة حضرها مختلف الفئات من اليهود والمسيحيين والمسلمين[3].

وبذلك فهي تعمل من أجل التأثير الفكري والثقافي على عقلية هؤلاء الطلبة المسلمين، وإغرائهم بوسائل التقدم المادي والمدني، وبهذا نلاحظ أن هذه الجمعيات الشبابية المنصرة، تعد لهؤلاء الشباب المسلمين برامج مهمة، من زيارات العائلات، منتهزة فرصة أن هؤلاء الطلبة لا يغادرون الجامعات والبلد في الأعياد والمناسبات، لتقوم باستدعائهم إلى عائلاتهم،

---

(1) نجيب العقيقي: **المستشرقون**، مرجع سابق، ص ص110-125.

(2) علي بن إبراهيم الحمد النملة، **التنصير مفهومه**، مرجع سابق، ص52.

(3) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص64.

حتى يتقاسمون معهم أجزاء الاحتفال خاصة في المناسبات الدينية[1]، ومختلف أوجه النشاطات الاجتماعية من حفلات ودعوات إلى الكنيسة، أو ما يلحق بالكنيسة من فناء وملاعب، فنجدهم يلتقفون الطلبة المسلمين، فيتعرفون على عناوينهم، ويتواصلون بهم، مبدين الرغبة في خدمتهم، والوقوف إلى جانبهم والتعاطف معهم، كما يستغلون ضعف بعض الطلبة المادي، فتتبنّى الكنيسة عن طريق جمعياتها الشبانية التنصيرية دعم هؤلاء الضعفاء من الطلبة، فأصبحت المنح تمثل أقوى وسائل التنصير والتأثير على الشباب المسلم[2]، فهي تختار من الطلبة النجباء، أصحاب الذكاء العالي، وتقدم لهم كل التسهيلات المادية، وتتكفل بمصروفات الدراسة والإقامة، وإغرائهم ليبقوا حتى بعد إكمال الدراسة، حتى لا يرجعوا إلى بلدانهم ويساهمون في تنمية البلاد الإسلامية.

والذين تمكنوا من السيطرة عليهم وتشجيعهم بأفكار تنصيرية وتكوين مسيحي، حتى وإن بقوا على إسلامهم ظاهريا، ولكن في تصرفاتهم وأفكارهم غربيين، هؤلاء يرجعون إلى بلدانهم ويتقلدون مناصب في إدارة البلاد[3]، من أجل خدمة مصالح التنصير والقوى الاستعمارية حتى وإن انجلت جيوش الاستعمار من المستعمرات.

وفي نفس السياسة إعداد نخبة منصرة داخل المجتمع الإسلامي، من أجل شن حملة على الأفكار، وبما أن الرق أو التجارة في الجنس البشري أصبح ممنوعًا عالميًا وفق اتفاقيات وقوانين دولية، فاضطرت الكنيسة في إيجاد طرق جديدة للاسترقاق، وهي استبعاد الروح البشرية وفكره، وهذا ما قامت به الإرساليات التنصيرية في إفريقيا، حيث استغلت حالة البؤس التي عاشتها الأسر الفقيرة المسلمة، فتعقد معها معاهدة تنص على تقديم الإعانات المادية – الغذائية بالدرجة الأولى – كل شهر، في المقابل يحق لها اختيار طفل من هذه العائلات لتربيته على حسابها[4].

ويوضع في العقد شروط، أنه في حالة مطالبة الأسرة باسترجاع ابنها، تصبح مجبرة على ردّ ثمن المساعدات والنفقات التعليمية، وهي طبعًا شروطًا تعجيزية تجعل

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص127.

(2) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص207.

(3) أحمد عبد الوهاب: المرجع السابق، ص127.

(4) أحمد عبد الوهاب: المرجع السابق، ص128.

الطفل ملك للكنيسة بما أنه يستحيل للأسرة استرجاعه بسبب عدم قدرتها على تسديد ما عليها من أموال(1).

وكانت البعثة تختار طفل يكون عمره أقل من خمسة سنوات(2)، حتى تتمكن من تعبئة ذهنه بكل الأفكار التنصيرية والتغريبية، ويوضع في مدارس التعليم المسيحي، وهناك من كانوا يرسلون إلى فرنسا لإتمام تعليمهم. وبذلك يقتلع الطفل من مجتمعه ووسطه الإسلامي، لينشئ نشأة مسيحية، فنفسيا هذا الطفل الذي نزع من أحضان أمه، سيخلق خوف عند الطفل، وسيبحث عن شخص يستطيع أن يثق فيه داخل المحيط الجديد هو الكنيسة(3)، فيجد المعلم أو الراهب الذي مكلف بمتابعته والتقرب منه في وقت حتى يراقب تصرفاته، فتخلق علاقة ثقة تجعل الطفل يتبع كل ما يقوله الراهب، فيتشبع الطفل بأفكار مبكرًا تجعله مسيحي غربي التفكير، ولهذا السبب يؤخذ الطفل قبل سن الخامسة، ليكون الطفل لم يتم تربيته داخل مجتمعه الإسلامي الأصلي، رغم فطرته، ويستعملون الاهتمام والحنية والحسنة والصدقة من أجل جلبهم(4).

وبعد إرسال هذا الطفل على فرنسا لإتمام دراسته، سيوضع في مجتمع غربي محض ويحاط بكل مغريات وشهوات الحياة الغربية، وبمجرد إنهاء دراسته، يرجع إلى منطقته ويتقلد مناصب حساسة ويصبح سلاح للكنيسة تستعمله داخل المجتمع الإسلامي، لأنه سيكون صوته له صدى، وتصرفاته داخل مجتمعه لها تأثير كبير على أفراد المجتمع(5).

كما ركّز شباب وشابات جمعية الشباب المسيحيين على المخيمات، والمؤتمرات الطلابية، والألعاب الرياضية، وبيوت الطلبة لتوزيع الكتب والمناشير ذات أهداف تنصيرية(6)،

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص128.

(2) Louis Jalabert: **La conquête missionnaire par l’influence intellectuelle**, in revue d’histoire des missions n°1, Paris, 1931, p326.

(3) أحمد عبد الوهاب: المرجع السابق، ص129.

(4) سجية مخلوف بن تونس: **التنصير في منطقة القبائل، أسبابه وعوامله**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر 2، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم النفس، الجزائر، 2014، ص ص36-39.

(5) وهذا ما قاله اللورد لويد ممثل بريطانيا في مصر سنة 1936م «كل هؤلاء لا يمضي عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا بوجهة نظر البريطانية بفضل الصلة بين الأساتذة والطلبة، فيصير قادرون إتباع أساليبنا... انظر: محمد محمد حسين: **الإسلام والحضارة الغربية**، مؤسسة الرسالة، ط4، 1981، ص ص45، 46.

(6) أحمد عبد الوهاب: المرجع السابق، ص129.

وعندما نلاحظها نرى أنها أعمال بريئة مفيدة للفرد والمجتمع، بينما تحمل هذه الأعمال في طياتها أفكار تنصيرية، تعمل على تطبيق أهداف استعمارية.

فنجد هذه الجمعيات تهتم بالطالب المسلم البعيد عن مجتمعه، فيساعدونه لإيجاد بيوت، وإدماجه في نشاطاتهم، وكانت مهمة هذه الجمعيات مساعدة الإرساليات التنصيرية في مهمتها، وبما أن غاية المنصرين ليست دينية بالدرجة الأولى وإنما إفسادية، من حيث تفكيك الأمة الإسلامية حتى يسيطرون على شعوبها، ذلك أن الممولون للمنصرين لا يهتمون بالديانة، فأصبح إفساد الطالب وإنشاء شباب على أسس مسيحية أمر ضروري، حيث يقول المنصر تكلي (Takle) أنه يجب التشجيع على إنشاء المدارس وتشجيع بالأخص التعليم في الغرب، إن الكثير من المسلمين قد تزعزع اعتقادهم حينما تعلموا في الغرب وباللغة الإنجليزية، وإن الكتب الغربية تجعل الاعتقاد بالكتب الشرقي المقدس – ويقصد هنا القرآن – أمرًا صعبًا[1].

مما لا شك فيه أن ذهاب الطلاب المسلمين إلى الغرب للدراسة تضعهم في بيئة تختلف وفي بعض الأحيان تتناقض تمامًا مع بيئتهم، وباحتكاكهم مع هذه البيئة وأفرادها ستكسبهم تصرفات وأساليب الحياة، واتجاه غربي في التفكير والعلم والسلوك والتصرفات، ولا شك أن لذلك جانبين، إيجابي من حيث الحصول على العلم، ويضفي على الإيجابي الجانب السلبي وهو كل ما يحصل عليه مع العلم، في نفس الوقت، ولأن غاية المنصرين من الاهتمام بالمنح والبعثات العلمية هو التطويق على هؤلاء الطلبة المسلمين وجعلهم نصارى أو على الأقل مماثلين لهم، في الشكل الخارجي والتصرفات والتفكير، وإن بقوا على إسلامهم، وفي بعض الأحيان عندما يدخلونهم في مشاريعهم لتنصير الكتلة – حتى دون علمهم – يفضلون أن يبقوا على إسلامهم الظاهري، حتى يتمكنوا من التأثير في المسلمين، لأن المسلم بطبعه ينفر من المسيحي، فإن جاءت الأفكار الغربية على يد بني جلدتهم المسلمين يكون لها صدى أقوى وأعمق[2].

---

(1) محمد محمد حسين: **حصوننا مهددة من داخلها**، مرجع سابق، ص47.

(2) الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود: **انحراف الشباب عن الدين والتحاقهم بالمرتدين**، ط2، المجلد الثالث، قضايا معاصرة، ص217.

وهذا ما يظهره المنصر المستشرق لويس ماسينيون، في مقالاته المطولة والتي يحث من خلالها على جعل الطلبة المسلمين الوافدين إلى فرنسا للدراسة لهم مدنية مسيحية[1].

عملت السلطات الاستعمارية على إقناع الحكام العرب بضرورة إرسال بعثات تعليمية إلى الغرب تحت غطاء المهمة التحضرية لهذا العالم المتخلف، ما فعله جونار عندما أقنع محمد علي حاكم مصر بإرسال بعثة للدراسة في الغرب، فالبعثة الثانية مثلاً والمتكونة من حوالي 44 طالبًا، أمضى خلالها الطلبة سنة كاملة في دراسة اللغة الفرنسية وبعض المواد التأهيلية[2].

ويمكن اعتبار هذه البعثات طريقة من طرق الكنيسة لتغريب المجتمع الإسلامي بطرق غير مباشرة، وقد بدأت هذه الهجومات على نظام التعليم خلال القرن 19م، حيث بدؤوا بإرسال شبان غير محصنين إلى أوروبا للدراسة، وهذه المناطق كانت تعتبر مواطن للفتن والشهوات، وستكون هذه البعثات الفتيلة الأولى لانتشار الفكر العلماني في العالم الإسلامي[3]، حيث كان هدف مؤطري هذه البعثات سرعة إلحاق العالم الإسلامي بالركب الحضاري الأوروبي، ولكن كان الهدف حقًا تطوير العالم وتحضيره، أم عكس ذلك تفكيكه بإدخال عليه مفاهيم وأفكار غربية مستقاة من المجتمع الغربي، لا علاقة له بمقومات ذلك المجتمع الإسلامي، فهؤلاء الطلبة الدارسين في الغرب سيعودون إلى مجتمعاتهم ويتقلدون مناصب متنوعة على مستويات مختلفة، إلا أن خطورتها تبقى نفسها على المجتمع حين يصبح هذا المتعلم والذي سيكتسب مكانة داخل مجتمعه بمثابة القدوة، وبالتالي حتى وإن بقى على إسلامه ستكون تصرفاته غربية مسيحية، وهذا ما ذكره زويمر في مؤتمر القدس خلال إلقائه خطابه: «... إن المهمة التي أوكلتم إليها،... ليست إدخال المسلمين في المسيحية... وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون بعملكم

(1) Revue Dieu vivant, n°4, p7.

(2) بدأت إرساليات الطلبة إلى أوروبا في حوالي 1813م، إلى إيطاليا ثم إلى فرنسا وإنجلترا، أول بعثة كبرى كانت في 1829م ثم في 1844م.

وقد بلغ عدد الطلبة ما بين 1813م و 1847م، 319 طالبًا، أما تكلفتها 303360 جنيه، للمزيد انظر: عبد الرحمن الرافعي: **عصر محمد علي**، دار المعارف، مصر، 1987م.

(3) محمد محمد حسين: **حصوننا مهددة من داخلها**، مرجع سابق، ص46.

هذا طليعة الحركة الاستعمارية، في المناطق المستعمرة،... أيها الزملاء إنكم أعددتم في ديار الإسلام شبابًا لا يعرفون الصلة بالله، ولا يريدون أن يعرفوها، وأخرجتم بعضهم من الإسلام، ولم تدخلوه المسيحية، وبالتالي جاء نشأ إسلامي طبقًا لما رآه الاستعمار، وقد تبوأ أسمى مراكز في الشهوات»[1].

فعمل المنصرين على استخدام هذا الأسلوب مع أحسن شباب المسلمين الذين استقدموا من بلادهم للتعلم والحصول على شهادات عليا، فاستغل المنصرين جاهدين هذه الفرصة للقيام بإفراز أفكارهم التشكيكية في كل قيم ومقومات الفرد المسلم، ثم محاولة جذبه إلى الثقافة الغربية المسيحية، وبالتالي إعداد قادة الرأي في البلدان الإسلامية على مقاييسهم الغربية، فافتتحوا أقسامًا للدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الغربية والمراكز، وقد كلف بالتدريس فيها المستشرقين والمنصرين، وأخذوا على عاتقهم تغيير فكر وعقيدة هؤلاء الشباب، فيعودون إلى مواطنهم محملين بالأفكار الغربية المسيحية، وبتساؤلات حول العقيدة لا معنى لها ولا وجود لها، والاعتماد الشبه الكلي للمصادر الغربية المسيحية، واضعين جانبًا المصادر الإسلامية، وبالتالي الولاء إلى الغرب تفكيرًا وثقافة[2].

وتمكن المنصرين من خلال نشاطهم في أوساط الشباب الدارسين في الغرب، في إيجاد شخصيات مسلمة تتبنى الأفكار والمبادئ المعادية للإسلام، دون الابتعاد عن إسلامهم، وكثيرًا ما تتقلد هذه الشخصيات مراكز نفوذ وحكم في البلاد، وعندئذ يستطيع دعاة التنصير أن يحققوا عن طريقهم مخططاتهم، خاصة وأن هذه الشخصيات ليست مجال للطعن ولأنها لها مكانة داخل مجتمعنا، ويصبح كلامها أقرب إلى النفس وبعيد عن الشك[3].

وهذا ما يشرحه المستشرق جب عندما يقول أن الإسلام قد فقد سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية وأخذت نفوذه تضيق شيئًا فشيئًا حتى انحصرت في طقوس محدّدة. وقد تم معظم هذا التطور بطريقة عدم الوعي، ودون انتباه، ووصل إلى أبعد الحدود، ومن الصعب الرجوع، ولكن يبقى مرهون إلى حدّ بعيد على القادة والزعماء في العالم الإسلامي، وعلى الشباب منهم خاصةً، وخاصة الفكر العلماني الذي تسرب إلى ذهنيات العالم الإسلامي

(1) محمد محمد الصواف: **المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام**، دار الثقافة والنشر، مصر، 1965م، ص ص58، 59.

(2) عبد الرحمن حسن حنبكة: **الغزو في الصميم**، دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والخلقي والسلوكي، دار القلم، بيروت، 1982م، ص62.

(3) محمد محمد الصواف: **المخططات الاستعمارية...**، المرجع السابق، ص60.

عن طريق الاحتكاك مع الدارسين في الغرب مع أعضاء الجمعيات والطلبة المدعومين من طرف الإرساليات التنصيرية، ومن خلال المحاضرات والخطب التي تلقى من طرف المفكرين داخل الجامعات، وهذا ما يشرحه "تكلي" المستشرق المنصر عندما ينادي بضرورة إنشاء المدارس على النمط الغربي العلماني، لأن كثيرًا من المسلمين قد زعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية، وتعلموا اللغات الأجنبية. كما يقول زويمر أنه ما دام المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية فلا بدّ أن ننشأ لهم مدارس علمانية، ونسهل لهم الالتحاق بهذه المدارس التي تساعدنا على القضاء على الروح الإسلامية عند الطلاب[1].

وهذا ما يعترف به لوشاتلي حيث يقول ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبني أساسًا على التربية العقلية، ليتسنّى لها توسيع نطاق هذا العمل والاستفادة منه، ولا يمكن الوصول إلى الغرض إلاّ بالتعليم تحت الجامعات الفرنسية نظرًا لما اختص به هذا التعليم من الوسائل العقلية والعلمية المبنية على قوة الإدارة، كما أنه يرجو أن يخرج هذا التعليم ليثبت في الدين الإسلامي التعاليم المستمدة من المدرسة والجامعة الفرنسية[2].

كما أن المنصرين متيقنين أنه لا شك في أنهم قد فشلوا فيما يتعلق بتخريب وتشويه عقيدة المسلمين، ولكن هذه الغاية خططوا للوصول إليها عن طريق الجامعات الغربية، وهنا جاء مشروع اختيار طلبة من ذوي الطبائع الضعيفة، والشخصية الممزقة، والسلوك المنحل من الشرق ولاسيما من البلاد الإسلامية، ومنحهم منح دراسية، حتى تباع لهم الشهادات بأي ثمن، ليكونوا المنصرين المجهولين، لتأسيس السلوك الاجتماعي والسياسي الذي نصبوا عليه في البلاد الإسلامية، وفي اعتقاد المنصرين أنه يجب استغلال تام لهذا الحب الجنوني لشرقيين بالدرجات والشهادات العلمية وإن غاب المستوى الفكري الذي يتماشى معها، واستعمال أمثال هؤلاء الطلبة كمنصرين ووعاظ ومدرسين لتحقيق مخططات الكنيسة المسيحية في العالم الإسلامي[3]، ويصبحوا يروجون أفكار المسيحيين عن طريق احتكاكهم بالمجتمع الإسلامي من خلال كتاباتهم أو محاضراتهم، فنجد مثلا "ماجد فخري" يرجع في كتاباته ومحاضراته تخلف العالم الإسلامي، سببه فساد الجهاز

(1) مجلة الأزهر، المجلد 24، ص976.

(2) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص107.

(3) محمد عبد العليم مرسي: **التغريب في التعليم في العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص ص78-79.

الإسلامي في الأنظمة الفكرية والتشريعية، وضرورة الرجوع إلى الغرب المسيحي لنستمد منه أفكارنا ونقيم حياتنا[1].

كما يرى جبران شامية من خلال كتاباته أن الإسلام يسلب كل السلطة، وضرورة إبعاده عن مجال الحياة وجعل الحكم علماني خالص، وهذا بالضبط ما نادى به العديد من المنصرين والمستشرقين[2].

كذلك الحداثة عند مصطفى كمال أتاتورك الذي وضع هو وجماعته أسس النهضة في تركيا الحديثة، والتخلص من القيود الدينية، ومن بين المدارس التي التحق بها خلال دراسته هي المدرسة الرهبانية الثانوية العسكرية.

هو من تبنّى المدنية الغربية وقبل شروط كيرزون والتي تقضي بقطع صلة تركيا بالعالم الإسلامي عامة، وبالعرب خاصة وإلغاء الخلافة الإسلامية، حيث قال خلال مؤتمر جونيف كرزون: لقد قضينا على الخلافة التي لن تقوم لها قائمة بعد اليوم،... لأننا قضينا على قوتها المتمثلة في أمرين: الإسلام والخلافة. صفق له الجميع لأنه حقق حلم أوروبا والمسيحية بأكملها[3].

فمصطفى كمال أتاتورك هو الذي تعلم في المدارس الأوروبية وتشبع بالأفكار الغربية، وبمجرد وصوله للحكم فرض على تركيا المسلمة العمل بالقانون السويسري حتى وإن كانت بعض نصوصه لا تتوافق مع الشريعة الإسلامية، في أحكام الطلاق، والميراث وزواج المسلمة بغير المسلم، وزواج الأخوين في الرضاعة، عمل من أجل تغيير شكل المجتمع التركي، حيث منع اعتماد الطربوش والعمامة، وروّج للباس الغربي، منع المدارس الدينية، وألغى المحاكم الشرعية، أزال التكايا والأضرحة، وألغى الألقاب المذهبية، وتبنّى التقويم الدولي، والقانون الذي فرضه مستوحى من القانون السويسري وجاء في عام 1928م[4]، وألغى استخدام الحرف العربي في الكتابة وعوضه بالحرف اللاتيني[5]، وذلك

---

(1) ماجد فخري اهتم كثيرًا في مؤلفاته بالمستشرقين وأفضالهم على العلوم الفنية وكان له عدة مؤلفات من بينها: تاريخ الفلسفة الإسلامية، منهج دراسة الفلسفة الإسلامية، دراسات في الفكر العربي، انظر: زكي الميلاد: **ماجد فخري ومنهج دراسة تاريخ الفلسفة الإسلامية**، نظرات نقدية، التجديد، المجلد 15، العدد 29، 2011، ص ص211-218.

(2) جبران شامية: **الإسلام هل يقدم للعالم نظرية للحكم**، دار الأبحاث والنشر، دمشق، 2004م، ص27.

(3) عبد القديم زلوم: **كيف هدمت الخلافة**، ط3، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، 1997، ص190.

(4) توفيق محمد محمد: **كمال أتاتورك**، دار الهلال، مصر، 1939، ص57.

(5) الذي قال: «إن لغتنا الجميلة تبرز ساطعة بالحروف الجديدة، وإن من الضروري التخلص من إشارات لا تفهم حبست عقولنا منذ عصور في نطاق ضيق من جديد». انظر: كمال أتاتورك: **الرجل الصنم، حياة رجل ودولة**، ترجمة عبد الله عبد الرحمن، الأهلية للنشر، الأردن، 2013، ص ص200-201.

من أجل قطع العلاقة بالعرب والإسلام، في إطار تأسيس دولة علمانية تبتعد عن التدين، حيث جاء في دستوره في المادة الثانية، أن تركية جمهورية قومية ديمقراطية علمانية، أي أنها تفصل الدين عن الحاكم. وجاء كذلك في مادته 19: أنه لا يجوز الاستناد إلى التعاليم الدينية لتأييد نظام الدولة الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي أو القانوني، ويعاقب كل من يخالف هذا القانون.

فلم يكتف بالحروف اللاتينية، بل أمر أن يكون الأذان والصلاة باللغة التركية، وأغلق عددًا كبيرًا من المساجد، وحوّل مسجد آية صوفيا إلى متحف، ومسجد محمد الفاتح إلى مستودع، وهو الذي قال مقولته الشهيرة عندما افتتح البرلمان التركي عام 1922م: «نحن الآن في القرن العشرين لا نستطيع أن نسير وراء كتاب يبحث عن التين والزيتون».

وسانده الدونمة[1] وردّدوا مع شاعرهم فاروق نافد: «سلمنا البلاد لأيدي أتاتورك، وتركنا الكعبة للعرب».

وقد صرّح بوضوح لأصدقائه بضرورة اقتلاع الدين من تركيا[2]، فكان عدوًّا لله في أهم صورة العداوة، وفي هدمه للإسلام[3].

وبذلك فإن هذه المنح الدراسية والبعثات العلمية هي من أهم المؤسسات التنصيرية التي عوّل عليها الاستعمار وما بعد الاستعمار لبسط نفوذه، من أجل اقتلاع الإسلام أو حتّى زعزعته داخل المجتمعات الإسلامية، وبث الانحلال الخلقي والديني. والأخطر أن هؤلاء متبعين من طرف العديد من المسلمين، ويرون أنها حاملة لواء العلم والمعرفة، والتوجيه والإصلاح.

(1) الدونمة هم اليهود الذين هاجروا إلى تركيا، بعد انكسار شوكة المسلمين في إسبانيا، وادعوا المسيحية خوفاً من اضطهاد المحاكم الشرعية، وعاشوا في تركيا تحت اسم الدونمة، ويسميهم الأتراك مسلمي الطابور الخامس، ويقول عنهم إسحاق بن زقي، اليهود الذين عاشوا في تركيا بوجه ظاهري مسلم وباطني يهودي، وكان منهم وزراء ونواب ومدرسون بالجامعة، وشيوخ فقه، وتفسير والتصوف، وكان هؤلاء الدونمة نواب حزب الاتحاد والترقي الذي صنع مصطفى كمال أتاتورك ودفع به إلى الثورة التي غيرت الوجه الإسلامي لتركيا، انظر كتاب: محمد محمد الدهان: **قوى الشر المتحالفة**، مرجع سابق، ص108.

(2) هـ. س. أرمسترونج: **الذئب الأغبر**، ترجمة دار الهلال، العدد 12، مصر، 1956، ص21.

(3) كمال أتاتورك: **الرجل الصنم**، مرجع سابق، ص ص344-345

الفصل الرابع:

الإرساليات بين استهداف العامة والمؤامرة السياسية

- المبحث الأول: الإرساليات وتنصير العامة
- المبحث الثاني: المؤامرات السياسية والتنصير

كان للعمل التنصيري عن طريق الإرساليات أو رجال الدين أو المستشرقين هدف، هو تغيير عقائد الشعوب التابعة للعالم الإسلامي، وقد وضعت عدة خطط من أجل الوصول إلى نفوس المجتمعات أو الفرد ومن ثم إلى عقولهم، وأخيراً إلى السيطرة الكلية على هذه المناطق.

فيقول ستيفنس مثلاً أن النشاط التنصيري في القدس بدأ بالاهتمام بالعناية الطبية، وذلك منذ البعثات الأولى التي وصلت مع جيوش الحروب الصليبية والتي أخذت مهمة تقديم العناية الطبية للفرسان والذين بقوا بعد الحروب الصليبية[1].

كما أن في سنة 1920م أصدرت لجنة التنصير الأمريكي التي تهتم بالاستفادة من الحروب في أعمال التنصير كتاباً أهم ما جاء في مقدمته: «أهم ما دفع الولايات المتحدة الأمريكية دخول الحرب العالمية الأولى أنها تبنت آراء ومبادئ التي كانت تهدف إليها الإرساليات التنصيرية»[2].

فأدخلوا مثلا التعامل بالربا من خلال بنوكهم، وأخرى سياسية كالليبرالية والديمقراطية، حيث حارب المنصرين كل ما يمكن أن يعيق التوسع الاستعماري والسيطرة، كالوحدة بين الأقطار الإسلامية، فعملوا على قتل القيم والمبادئ التي ترتبط بالإسلام، وعارضوا اللغة العربية وحاولوا القضاء عليها، وعملوا على تفكيك وتفريق كل الجبهات التي يحس فيها روح الوحدة أو العمل من أجل الوحدة[3].

وكذا الانقسامات السياسية والعنصرية والطائفية، والقبلية والجهوية، وتمويل وتشجيع كل هذه الفرق حتى لا تتم أي وحدة لهذا العالم الإسلامي، والذي لم يحسب له ألف حساب إلاّ في عهد وحدته.

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**، مرجع سابق، ص37.

(2) نفسه، ص41.

(3) نفسه، ص67.

المبحث الأول: الإرساليات وتنصير العامة

عرف المشروع التنصيري إعادة بعث قوية وبشكل جديد المتمثل في التحالف الإمبريالي المسيحي، ولاسيما في مناطق شمال إفريقيا، وخاصة بعد احتلال الجزائر، حيث اعتمدت سياسة التوغل الاستعماري على توجيه الرأي العام العالمي وخاصة رأي لدى عامة الناس، من أجل نشر وتثبيت نفوذ الهيمنة، دون أن تتخلى عن طرقها ومشاريعها الأولى، بل أضافت لها الجانب العسكري والتنظيري حتى يكون نتائجه مضمونة.

ولهذا وجب التحالف بين عدة أطراف، أي المنصرين والعسكريين والسياسيين.

وفي إحدى التقارير الذي أعدّ سنة 1885م تناول فيه هارمن كاركر ملخصًا ما يجب على فرنسا القيام به: «لم تكن محاولات الدمج عبر المدرسة كافية إلى حدّ الآن، إنها فشلت ككل محاولات التمدينية الاجتماعية في الجزائر، التي احترمت الإسلام، وبذلك فإن القضية الجزائرية قضية دينية عقائدية، والذين بإمكانهم حلّها هم المسيحيين الفرنسيين»[1].

فتوصلت فرنسا أنه ينبغي أن يكون نشاطها التنصيري في مستعمراتها والعالم الإسلامي عامة، أساسه التربية العقلية، أي العمل من أجل التأثير على عقول أبناء المسلمين، ثم قلوبهم، وحتى يتم تحقيق ذلك فعلاً لا يكتفي بما يقوم به الرهبان المنصرين، ذلك لأن معظم مشاريعهم خاصة، ولا تكون على المدى البعيد، وهذه أهم نقطة لدى المستعمر أن تكون النتائج على المدى البعيد والواسع.

كما أن النشاطات الفردية للمنصرين أو الرهبان كانت لا تملك التمويل الكافي، ما زاد في إعاقة توسعها وأهمية عملها، وبالتالي لا يمكن أن تحقق أغراض حكوماتها الاستعمارية.

ولن يتحقق ذلك إلاّ بإيجاد مداخيل مالية كبيرة ممولة لهذه الحركة التنصيرية بأهداف استعمارية واسعة المجال، وكانت الجامعات والبحث العلمي الوسيلة الوحيدة لإيجاد برامج ووسائل من أجل السيطرة على عقول عامة أبناء المسلمين، ومحاولة إدخال تعاليم وأفكار جديدة على الدين الإسلامي مستمدة من المدرسة الغربية عامة والفرنسية خاصة. وبذلك وجب على الكنيسة تخصيص أموال للنشاط التنصيري، ما أعطى لنشاط الإرساليات التنصيرية أهمية كبيرة وتعتبر باب على العالم الإسلامي، رغم أن النزاع الذي

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص25.

كان قائمًا بين الإرساليات التنصيرية الكاثوليكية والبروتستانتية عطل تحقيق نتائج وتطبيق خطط وبرامج استعمارية[1]، حتى وصل منظريهم إلى طلب من الإرساليات أيًّا كان اتجاهها الاتحاد ولو ظاهرًا أو توهيم العالم الإسلامي بوحدتهم، حتى يتمكنوا من تحقيق أهدافهم، وربما هذا ما تفطن إليه المنصرين خلال بداية القرن 20م، حيث رأوا أن هذه التفرقة فتحت المجال أمام علماء ومصلحي العالم الإسلامي لتوعية الشباب وإصلاح مجتمعاتهم، ومحاولة الإصلاح والوقوف في وجه كل ما تأتي به الإرساليات التنصيرية[2].

1 - علم الخرائط وتمويل الإرساليات التنصيرية:

مفهوم الخرائط التنصيرية ليست ظاهرة جديدة تخص القرن 19م، وإنما هي إرث لثقافة جغرافية طورتها الكنيسة عن طريق الإرساليات التنصيرية، وكان لهذه الفترة والنشاط أهمية كبيرة في تاريخ الخرائط، وهذا يشرح مدى اهتمام الكنيسة القديمة لمعرفة الجغرافية، خاصة من طرف الكنيسة، وذلك منذ حركة الكشوفات، واهتمام البابوية، خاصة أنهم يؤمنون ويروجون فكرة أن الكنيسة تحمل على عاتقها مهمة نشر الإنجيل للأمم الأخرى، وبذلك السيطرة على الكرة الأرضية[3]، فأصبح معرفة العالم عن طريق الكشوفات الجغرافية، أهم خطوة من أجل تحقيق هذه المهمة التنصيرية، فيصبح التنصير محرك الكشوفات الجغرافية، وفي نفس الوقت مصدر لتمويلها.

وما يؤكد أهمية الكشوفات الجغرافية، اللوحة التي رسمت من الحصى والمعروضة في قصر لتران (Latran)، وكتب عليها أنه حتى خلال وجباتهم على رجال الدين تذكر الأرض ومهمة الكنيسة عليها[4].

وتوسعت هذه اللوحات تدريجيًا - إن صحّ التعبير - مع توسع الحركة أو النشاط التنصيري، وخرائط حائطية في الفاتيكان في قاعتين كبيرتين، الأولى تمثل مناطق العالم، والثانية المدن والإمارات الإيطالية، ما يؤكد اهتمام الكنيسة بالجغرافية والكشوفات من

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص28.

(2) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص57.

(3) Thomassy M. R.: **Les papes et la géographie du Vatican**, Paris, 1852, p8.

(4) «Même durant leur repas, les pontifes devaient avoir constamment déployé sous leur yeux le domaine entier de la sollicitude ecclésiastique». In, Jean-Michel Vasquez: **La cartographie missionnaire en Afrique, science, religion et conquête (1870-1930)**, éd., Karthala, Paris, 2011, p11.

أجل تحقيق أهدافها، كما أن الكنيسة تحاول من خلال هذه الصور والخرائط إظهار اتساع العالم المسيحي بفضل الإرساليات، واتساع المناطق المسيرة من طرف البابا، أي مدى قوة الكنيسة، ما جعل الكنيسة تهتم بتطوير علم الجغرافية من أجل انتشار المسيحية في العالم.

فكلفت جماعة البروباقندا (Propaganda de la fois) بمهمة تنصير العالم وتتبع نشاط الإرساليات التنصيرية، فكبرت مهامها وأهميتها مع اتساع مساحة التنصير في العالم(1).

فاهتمت بتدوين كل ما يخص التنصير ونشاطه، أي المساحات المنصرة، الإحصائيات، وجغرافية المناطق المنصرة، وكذا المكتشفة حتى وإن لم يتم تنصيرها.

فتمكنت من جمع هذه المادة ونشرها في أوروبا على شكل كتاب ضخم بعنوان: الوضع الحالي للكنيسة الرومانية في كل أنحاء العالم والذي قدم للبابا إينوسنت XI(2)، ويمكن اعتباره أولى الإحصائيات الحقيقية عامة حول انتشار الكاثوليكية في العالم.

لتتحول هذه الظاهرة أي جمع المادة حول المناطق المكتشفة من أهم أوامر الكنيسة لرجال الدين المنصرين.

فأصبح رجال الدين يطالبون إرسالياتهم التنصيرية بضرورة جمع وتدوين كل المعلومات بأنواعها، ثم إرسال كل ما يجمع إلى الجمعية "البروباقندا" بأمر من البابا(3)، وهذا ما حدث مع الإرساليات في مختلف أنحاء العالم، فاليسوعيين مثلا عندما استقروا في الهند وكندا، كانت لهم عدة مراسلات قامت الكنيسة بنشرها مباشرة، كتاريخ الهند، وعلاقات فرنسا الجديدة في 41 جزء(4)، لتتوقف هذه الإصدارات بمرسوم من الكنيسة، ولن تعود إلا بعد 90 سنة، بنوع جديد من الإصدارات والتي تحاول من خلاله تبيين أولاً أهمية التنصير من خلال حركة المنصرين في مناطق العالم، وكذا تصوير هذه المناطق المجهولة لدى

---

(1) Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, p12.

(2) L'Etat présent de l'église romaine dans toute les parties du monde, écrite pour l'usage du pape Innocent XI. Par Urbano Cierri, in Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, p13.

(3) بموجب المرسوم الأول في 1565م، مسؤولي المقاطعات مجبرون على إرسال تقرير سنوي إلى روما، ثم في 1659م، ثم خلال القرن 17م أنه من الضروري إرسال المادة حسب أوامر المؤسس إنياك دو لويلا Ignace de Loyola، حسب الفصل VIII-3-3، انظر: نفسه.

Jean Comby: **Deux mille ans d'évangélisation**, bibliothèque d'histoire du christianisme, Desclée, Paris, 1992, p207.

(4) Histoire des Indes, les relations de la nouvelle, France, édité entre 1632-1673, Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, p14.

الأوروبي[1]، فكانت لها كتب لإظهار الصور مثلاً: رسائل تنويرية وغريبة، وهي تنشر صور غريبة، بوصف مطول وبتفصيل للمناطق التي مرّوا بها، والشعوب التي التقوا بها، فتوقفوا عند العادات والتقاليد، وطريقة عيشهم، فاهتموا ووصفوا أدنى وأتفه التفاصيل، وركزوا على تخلفهم، والغرابة التي كانت تتصف بها هذه الشعوب التي تقع وراء الحدود الأوروبية، حتى أصبح المنصر الوسيط الوحيد بين الأوروبيين والعالم الآخر[2]. ما ساعد المنصرين لترويج ونشر أفكارهم وآرائهم، وكان ذلك من خلال مراسلاتهم المستمرة، كضرورة انتشار الإنجيل في هذه المناطق وتحضيرها، ولن يتم ذلك إلاّ بالعمل والنشاط المتواصل وعن قرب تحت وصاية الدول التي تعتبر متطورة، أي بتعبير آخر وصريح استعمار هذه الشعوب، ولهذا الغرض كل هذه المراسلات والكتب والمنشورات أعيد إصدارها عدة مرات خلال القرن 19م، أي فترة الحملة الاستعمارية الكبيرة[3].

فعرف العالم الأوروبي من حكومات وسياسيين وجيوش وخاصة عامة الناس اهتمام كبير بعلم الجغرافية، الذي مكنهم من الوصول إلى مناطق غير معروفة حتى بالخيال، من خلال الإحصائيات والأرقام والصور والخرائط والوصف الدقيق لها، جعل الفرد الأوروبي ينتظر هذه المنشورات بشغف[4].

وستحتل المدرسة الفرنسية الصدارة في هذا المجال، رغم حداثتها مقارنة بالمدارس الأوروبية الباقية، خاصة المدرسة الألمانية. وربما ما ساعد المدرسة الفرنسية على اعتلاء المرتبة الأولى، هو حركتها الاستعمارية، التي فتحت لها المجال لاكتشاف هذه المناطق وكان لها الأسبقية بالنسبة لبعض المناطق في وضع خرائط لها، وتطور علم الجغرافية حتى أصبح يطبق في المدارس من خلال برامج تربوية، لتعويد الطفل الأوروبي عامة والفرنسي خاصة على فضل أوروبا في تحضير وتطوير شعوب متخلفة، فيكبر الطفل بإحساس أن كل هذه الشعوب تدين له، فيكسبه هذا الإحساس بالتفوق[5].

---

(1) Jean Comby: **Deux mille…**, op.cit, p210.

(2) Ibid., p211.

(3) Richard Drevet: **Laïques de France et missions catholiques du 19: L'œuvre de la propagation de la foi, origine et développement lyonnais (1822-1922)**, thèse université Lyon II, février 2002, pp379-383.

(4) Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, pp29-30.

(5) كان ذلك ابتداء من 1877م، انظر: Ibid., p31.

تعتبر الخريطة التنصيرية مادة توثيقية لا مثيل لها، لأن بمجرد وصول البحارة وإلى جانبهم المنصرين إلى السواحل، كانت مهمة التوغل داخل المناطق من نصيب المنصرين، ولذا حضوا بالأسبقية في التعرف على المناطق وبالتالي كانوا أول من كتب ووصف ووضع أول خرائطها.

وكل هذه المراسلات والصور والخرائط تنشر في مجلات متخصصة كمجلة الإرساليات التنصيرية الكاثوليكية (Revue des missions catholiques) ولمدة نصف قرن (1870 – 1930م)، وهي مرحلة اختارت المجلة نشر فيها الخرائط[1]، وتمكنت من أن يكون لها مادة علمية ضخمة حول التنصير والحركة الاستعمارية.

وهذا النوع الجديد من رجال الدين المنصرين سيعرف نشاطهم، أهمية كبيرة، خاصة في الجانب المادي، حيث تمكنوا من خلال منشوراتهم الخاصة بجغرافية المناطق الجديدة التحصل على الكثير من المساعدات المالية من عامة الناس، بهدف تطوير ومساعدة هؤلاء الشعوب المتخلفة والبدائية، استجابة لكل أفكارهم التي نشروها في أوساط العامة[2].

فما بين 1840م و 1860م ظهرت في أوروبا الغربية العديد من الجمعيات والمؤسسات الدينية التنصيرية[3]، بقيادة أسماء وشخصيات، من بينها جمعية آن - ماري جاوفشي (Anne-Marie Javouchey)[4] والتي أسست جمعية أخوات القديس جوزيف دي كلوني في 1807م، واللواتي كان لهن نشاط كثيف في جزيرة الرينيو (L’iles de la Reunion) والسنغال وغينيا، كذلك إرسالية ليون نحو إفريقيا والتي أسسها الراهب دو ماريون برنرلاش[5]، وهذه الجماعة كلفتها روما بتنصير سراليون Serra-Leone والداهومي Dahomey، وكذلك

---

(1) مجلة الإرساليات الكاثوليكية، وكانت تنشر الرسائل والخرائط والصور التي تصلها من المنصرين ورجال الدين في مناطق التنصير وكانت تصدر من طرف L’œuvre de la propagation de la fois، انظر:

Pirotte Jean: **Périodique missionnaire belges d’expression Française**: reflets de cinquante année d’évolution d’une mentalisé, 1899-1940, Louvain, P.U. de Louvain, 1973, pp31-35.

(2) نفسه، ص ص41-45.

(3) نفسه.

(4) Anne-Marie Javouchey ولدت في 10 نوفمبر 1779م وتوفيت في 1851م، هي من أسست جماعة أخوات القديس جوزيف دوكلوني (Les œuvres de Saint Joseph de Cluny)، انظر:

Gaston Beanouille: **Anne-Marie Javouchey, fondatrice des sœurs de St Joseph de Cluny une gloire de la France Missionnaire**, éd. Bernard Grasset, Paris, 1942, pp25-35.

(5) Melchior Marie Josep de Marrion Bresillac ولد في 1813م وتوفي في 1859م،، ومؤسس إرسالية إفريقية، انظر:

.Bruno Semplicio: **De Marion Bresillac (1813-1859)**, éd. SMA, Rome 2005, pp30-45

ربما أشهرها والتي تأسست في 1868م، إرسالية إفريقيا من طرف لافجري، أسقف الجزائر، وكل الإرساليات عملت جاهدة على إيجاد وسائل وطرق طبقتها من أجل تنصير الشعوب، تحت رعاية روما.

ورغم أن خلال هذه الفترة معظم العالم الغربي كان قد تبنّى النظام العلماني ظاهريًا، واتخذت الكنيسة مؤسسة نشر المسيحية[1] وسيلة لجمع الأموال والتبرعات من طرف عامة الناس، وكذلك الطفولة المقدسة (La sainte enfance) في 1848، والتي كانت وراء جمع أموال كبيرة لتمويل الإرساليات التنصيرية[2]. وذلك بسبب اهتمامها الكبير بإفريقيا عامة لأنها ربما تعتبر خلال القرن 19م القارة الوحيدة، التي لم يتم اكتشافها كلية، كما أنها تعتبر قارة استطاع الإنسان بذكائه ترويض الطبيعة خدمة لمتطلباته[3]، أضف إلى ذلك حفر قناة السويد، ما فتح المجال أمام حلم السيطرة على إفريقيا الجنوبية، وظهر ذلك من خلال الدعاية والمنشورات تتكلم وتروج فكرة إمكانية وجود سكة حديدية تعبر الصحراء، وكذا فكرة قناة في صحراء لخدمة الأراضي، ومن ثم وضعت إفريقيا تحت المجهر، وأصبحت تخصص لها بحوث مطولة، ومهمة صنفت أو وضعت إفريقيا من خلال خرائطهم أنها أول قارة للاستعمار، خاصة من طرف فرنسا التي أصبحت الدولة الاستعمارية الأولى في العالم خلال القرن 19م[4].

وكان لإفريقيا علاقة وطيدة مع الحركة التنصيرية، فقبل القرن 19م، كانت عملية التنصير فردية، أي يقوم المنصر بتنصير أشخاص، وتحولت هذه الفكرة فيما بعد لتصبح أحد الأسلحة لمواجهة الإسلام والتطويق عليه خاصة في إفريقيا، والذي كان يعتبر لديهم الخطر الوحيد الذي بإمكانه أن يقف في وجه التوسع الاستعماري[5].

---

(1) Œuvre de la Propagation de la Foi (O.P.F)، والتي تأسست في ليون عام 1822م والتي أسسها بولين جاريكون Pauline Jaricot (1799 – 1862م). للمزيد انظر:

Pirotte Jean: **Périodique missionnaire**, op.cit, pp51-51.

(2) Claude Prudhomme: **Cinquante ans d’histoire des missions catholiques en France: L’âge universitaire**, in histoire des missions chrétiennes, n°1, 2007, pp3-11.

(3) نفسه.

(4) Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, pp45-48.

(5) محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص25.

وكانت هناك عدة مؤسسات من أجل النشاط التنصيري، من إرساليات وجمعيات جغرافية، وذلك لأن إفريقيا خاصة الاستوائية والجنوبية كانت ذات مناخ وطبيعة صعبة، حيث شهدت الإرساليات الأولى عدد كبير من الوفيات في صفوف المنصرين (ما ذكره لافجري في رسالته لإرسالية إفريقيا[1].

وصل المنصرين على شكل إرساليات رسمية إلى سواحل إفريقيا في 1870م، وتواصل نشاطهم التنصيري إلى غاية 1930م، وذلك بعدما تمكنت الإرساليات من الاستقرار ووضع تقسيمات إدارية خاصة بالكنيسة على أبرشيات[2]، أهم ما يمكن استخلاصه أن الحركة التنصيرية في إفريقيا سبقت الحركة الاستعمارية لأن المنصرين رافقوا المستكشفين في البداية على شكل فردي ثم على شكل إرساليات رسمية، قبل أن يرافقوا فيما بعد الجيوش، أي يمكن القول أن جيوش المنصرين مهدوا الطريق للجيوش العسكرية[3].

كما أن أهداف وغاية الإرساليات التنصيرية لا تختلف عن أهداف المستكشفين والجيوش الاستعمارية[4].

فاهتمت الكنيسة عن طريق الإرساليات التنصيرية بالخرائط والصور من أجل تمثيل هذه المناطق الجديدة والغريبة على الأوروبيين حتى يتمكن الفرد الغربي العام من إتباع خطى المنصر، بل شدّ انتباهه، وقد أصدرت كلها أو معظمها في دوريات المنصرين والتي انتشرت بشكل واسع كما هو الحال فيما يخص حوليات الإرساليات التنصيرية، وكانت تنشر مجموعة من الخرائط والصور باستمرار، تهدف من خلالها إلى تصوير حركة ومسار المنصر وصعوبة نشاطه وقلة التمويل للقارئ الأوروبي، من أجل إقناعه بضرورة إرسال تمويله وإمداداته ومساعداته حتى يكون نشاط المنصر أكثر فائدة وسهولة[5].

فمثلاً ما بين 1873م و 1930م يمكن عد أكثر من 6 خرائط سنوية و 500 وثيقة لوصف المناطق، فتضاعفت الإصدارات تدريجيًا وباستمرار كلما تعدّدت البعثات

---

(1) Jean-Claude Geillier: **Histoire des missionnaires d'Afrique (père blancs) de la fondation par Mgr Lavigerie à la mort du fondateur (1868-1892)**, éd., Karthala, Paris, 2008, pp85-87.

(2) Ibid., pp90-92 .

(3) Catherine Coquery Vidrovith: **L'Afrique noir de 1800 à nos jours**, éd. PEF, Paris 1984, p21.

(4) Joseph Ki-Zerbo: **Histoire de l'Afrique noir**, éd. Hatier 1978, chapitre 10, p326.

(5) Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, pp29-30.

والإرساليات[1]، والتي كانت تنشر معظمها في الحوليات التنصيرية واسعة المجال، كحوليات مؤسسة "أعمال نشر المسيحية"، أو مجلة البعثات التنصيرية (Revue des missions catholiques)، التي اهتمت أساسًا بالخرائط التي كانت ترسل من طرف المنصرين[2].

فاستعملت هذه الصور والخرائط والمراسلات بعدة طرق ووسائل، ولكن لأهداف وغاية موحدة، وهي إدماج الفرد الغربي في النشاط التنصيري والتوسعي داخل هذه المناطق المكتشفة، وقد تبين ذلك من خلال الإصدارات التي نشرت لتحقيق هذه الغاية، رغم أنه لا يوجد أرشيف يخص الخرائط المنشورة الأولى لأنها ملك للإرساليات، والتي نشرت في المجلة التنصيرية (Revue des missions catholiques) خلال القرن 19م، الذي يعتبر من أهم منشوراتها الحوليات (Les annal de la propagation de la foi) في 1822م، والتي كانت تنشر رسائل تنويرية كانت تصلهم من المنصرين من مختلف أنحاء العالم، وكانت وراء شهرة وثراء مؤسسة ليون، ولكن نادرًا ما كانت: تخلل هذه المنشورات صور أو خرائط، وأول مجموعة ظهرت بين 1836م و 1840م واستلهمت من المبادرة اليسوعية[3].

عملت الخرائط على تجسيد ما جاء في الرسائل مكتوبًا، أصبحت ضرورية لوصف المنصر أو المستكشف، ونشرت هذه المجلة الخرائط المستمدة من مصادر المنصرين، كما اهتمت بكل الرحلات أو الإرساليات من أجل الوصول إلى حقائق جغرافية علمية.

كما اختارت "أعمال نشر المسيحية" الصور، وذلك بعد أربعة سنوات من تأسيسها والتي وافقت عيد ميلاد تأسيسها الخمسين، أين تبنت المؤسسة تحول كبير تحت مسؤولية رئيسها الأب لافيري (L'Abbé Laverie)، فتحولت دورية مصورة على شكل ما كان ينشر آنذاك، كالعالم المصور (Le monde Illustré) 1857م، أو رحلة حول العالم (Le tour du monde) 1860م، فأصبحت الرسائل التنويرية لا تكفي، وأصبح من الضروري إدخال عليها الصور والخرائط حتى يتمكن من جلب اهتمام أكبر عدد ممكن[4].

---

(1) Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, pp40-42.

(2) Pirotte Jean: **Périodique missionnaire**, op.cit, pp31-35.

(3) J. Gay: **Bibliographie des ouvrages relatifs à l'Afrique et à l'Arabie**, éd. Jean Gay et fils, San Remo, Paris 1875, pp122-125.

(4) عرفت فترة تحول أو تغير جذري، للمزيد انظر:
Jean-Luc Burlaits: **Les missions catholiques (1868-1914)**, in Hebdomadaire au service de la propagation de la fois, mémoire de maitrise, université Lyon III, 2001-2002, p120.

فأصبح حجمها أكبر من السابق، وعمل من أجل إعطاء معلومات جديدة للقراء المهتمين بالنشاط التنصيري، وكان آنذاك وسط إصدارات كثيرة، أجبرتهم على إيجاد حلول فعلية لمنح أهمية لهذا العمل، فجاء المنشور الجديد أو هذه المجلة الجديدة والتي أصبحت تخضع إلى الطرق الحديثة، وبالتالي بإمكانها أن تمس جمهور أكبر، كما أصبح ليس من الضروري الانتماء إلى الجمعية للحصول على المعلومات[1].

حيث أن المقال الذي جاء مع أول خريطة حدّد أهداف المجلة «نشر في هذا العدد، خريطة أولى حصرية لـ كوني تيشو (Kony-Tchéou)، وهدفها الأساسي من كل هذه المادة الجغرافية هو التحضير لإعداد أطلس الإرساليات الكاثوليكية، هو عمل واسع وصعب، سيقابله تباطؤ وصعوبات إعداده، وأكيد نقائص في العمل النهائي، ولكن هذا لا يمنع من المحاولة، حيث أن الإرساليات البروتستانتية لها أطلسها، فوجب على الإرساليات الكاثوليكية أن يكون لها أطلسها أيضًا، يجب على المسيحيين أن يهتموا بتوسعات الكنيسة، ويتمكنوا من إتباع خطى المنصرين، والعقبات والمصاعب التي تتخلل طريقهم على خريطة العالم، ومسار جيش المنصرين المكلف بتوسيع مملكة المسيح، الجغرافية من العلوم المساعدة والضرورية للتاريخ»[2].

كما تمدّ المجلة القارئ بخرائط جديدة ونادرة ولكن دقيقة، تشير عن كيفية التحضير لأطلس في وقت صغير، حسب نصائح بعض مراسليهم حيث يقول: «أظن أنه يجب تبني أو إتباع نفس السلم، القيام بطبع خرائط صماء أين تحدد الحدود المناطق والأنهار والوديان وأهم نقاط كمعالم. ثم ترسل هذه النسخ من الخرائط إلى المنصرين الموزعين في أنحاء العالم، والطلب من الإرساليات أن يضعوا أو يملئوا على هذه الخرائط أهم المعلومات التي تخص الكنائس وعدد المسيحيين وعدد الأديرة والحدود الصحيحة للنيابات والمناطق المسيحية أو المنصرة، وخلال بعض السنوات سيتمكنون من جمع مادة ومعلومات جديدة لم يحصل عليها أحد من قبل ولا أحد يمكن أن يعارض أو يناقش دقتها، ومن خلال التقارير المرسلة يمكن للباحثين تحرير نص لمرافقة هذه الخرائط[3]، وبإمكانهم

---

(1) Richard Drevet: **Laïques de France et mission catholique au XIX:** L'œuvre de la propagation de la fois, origine et développement Lyonnais (1822-1922), thèse université Lyon II, février 2002, pp379-389.

(2) Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, p30.

(3) نفسه، ص31.

الحصول على الأرقام الصحيحة والدقيقة لكل ما يخص البعثات التنصيرية من عدد الإرساليات، المسيحيين، المؤسسات،... الخ، وكل هذه الخرائط التي تنشر وحدها في المجلة ستمثل مادة لأطلس»[1].

سينتظر القارئ الغربي 13 سنة حتى يرى المشروع الضوء في ديسمبر 1884م، لكن لن يتحقق ذلك حتى الخريف، وفي الحقيقية هذا الأطلس لم يكن سوى ترجمة لأطلس Katholischer Mission-Atlas لـ O. Werner والذي أصدر في Freileury[2].

ولكن رغم ظهور هذا الأطلس، احتفظت المجلة بعاداتها وهي نشر خرائط جديدة وكبيرة الحجم كل سنة، وبالتالي كل هذه الخرائط التي نشرت ما بين عام 1880م حتى عام 1915م، مثلت مادة ضخمة حول الإرساليات التنصيرية الكاثوليكية[3].

أهم ما يمكن ربما ملاحظته من خلال هذه الخرائط المنشورة أنها كلها هي عبارة عن مناطق شهدت استعمار وتغلغل القوى الاستعمارية متحججة بعدة حجج أهمها ربما التنصير والتطوير.

كان لهذه الخرائط صدى ووقع لدى المجتمعات، حيث تجعلهم مرتبطين بعمل المنصر وتوسعاته وتوسع الرقعة المسيحية في العالم، فيحاول القارئ إيجاد على الخريطة المعلومات التي اطلع عليها في النصوص، ومشاهدة مدى تقدم عمل ونشاط المنصر على أرض الواقع، فيمنحه الإحساس أنه وسط هذا الاكتشاف، على الأقل هذه هي أهداف الإصدارات والمنشورات، وتبعث في فكر الفرد الأوروبي الرغبة في المشاركة في هذه المغامرة بكل الطرق، ما يجعله يتبرع بالأموال لأجل ذلك[4].

أما بالنسبة للدولة فإن كل هذه الخرائط والتقارير تؤكد مدى توسع المسيحية، وبالتالي تسهيل وتعبيد الطريق للجيوش، ويمثل ذلك في خرائط تمثل غرس الصليب في المناطق التي استقر فيها المنصرين، كما أن المنصرين من خلال الصليب يفرقون بين المناطق الكاثوليكية والبروتستانتية، وتصبح عبارة عن رسائل يبعثها من أجل تحميس

---

(1) Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, p31.

(2) نفسه، ص ص31، 32.

(3) نفسه، ص33.

(4) نفسه، ص41.

الرأي العام على المساعدات المالية من أجل أن يكون التوسع أكبر، وهذا التمويل كان يختلف من 0,5 فرنك إلى 500 فرنك، كما تصل في بعض الأحيان إلى أرقام أكبر[1].

وعادة ما كانت المجلة تنشر الأرقام وأسماء أصحاب الإمدادات وذلك بغرض تشجيع الناس على البعث بتبرعاتهم، وهذا ما نجده في بعض المقالات: «المجاعة والجفاف والأوبئة خطيرة في إفريقيا الاستوائية بنفس خطورة التي هي عليه الهند والصين... أطلب إذًا من نيابة إفريقيا الاستوائية أن تطلب المساعدات من المؤسسات الخيرية، لجمعية أو مؤسسة "أعمال نشر الإيمان"...».

وبالتالي أصبحت الخريطة وسيلة لدى المنصر لجلب المال، وبمجرد نشر الخرائط والنصوص أو التقارير التي كانت تصل من المنصرين، تبدأ تصل الإعانات والتبرعات من طرف القراء الذين يتطلعون على المنشورات.

كانت الجماعات المنصرة لها تكوين خاص حيث كانوا لا يطلعون على البعثة حتى يبقى من وقت الانطلاق إلاّ القليل ما يكفيهم لتحضير أنفسهم[2].

ونجد هذا عند السبيريتان (Les spiritains)[3]، حيث يقول ليبرمان: «... عادةً لا يعلم المنصرين ببعثتهم ولا وقت انطلاقها قبل وقت الذي يكفي لتهيئة أنفسهم، وهم يجب أن يتجنبوا الفضول خاصة لهذه النقطة وينتظرون الإرادة الإلهية لما تعلن...».

ثم بتأثير من المنصر رئيس دير لوكيت (Luquet) من جماعة البعثات الخارجية (Les missions étrangères) لباريس يرسل إلى البرلمان رسالة ليبين له التصرف الذي وجب على المنصر تبنيه من أجل نجاح بعثته[4].

«... لا تصدروا أحكاما بالنظرة الأولى، ولا حسب ما رأيتم في أوروبا، أو حسب ما أنتم تعودتم عليه في أوروبا، تجردوا من تجربتكم الأوروبية، عاداتكم، يجب أن تكونوا سود مع السود... حتى يتكونوا كما يجب، لا على الطريقة الأوروبية حتى نتمكن أن نجعلهم شعب الربّ...»[5].

---

(1) Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, p49.

(2) نفسه، ص ص49، 50.

(3) ويترأسها ليبرمان (Libermane) (1802 – 1852م)، قبل أن يعين رئيسًا لجماعة روح القدس (Saint esprit) في 1848م، وهو من أسس جماعة القلب المقدس لمريم (Saint cœur de Marie).

(4) Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, p53.

(5) Coulon et Paul Brasseur: **Liebermann 1802-1848 une pensée un mystique missionnaire**, Paris, éd. du cerf, 1988, p201.

من خلال هذا المكتوب نلاحظ أن هم المسيحي وعمله أولاً هو التنصير، لا كما يدعون التطوير أو التحضير، وهذا ما يظهر من خلال هذه الرسالة، أين عمل على عدم التغيير وكان وراء ذلك هو أن يبقى المجتمع على حاله وإنما الانتماء إليه،وإبعاد الأفكار والعادات الأوروبية، والمحافظة على المجتمع كما هو، وليس بالضرورة التحضير كما نادت شعاراتهم التوسعية والتنصيرية والاستعمارية، وإنما السيطرة على عقول الشعوب من خلال حسن المعاملة والمساعدات، وتحويلهم شيئًا فشيئًا إلى شعب الرب أي تنصيرهم.

واعتمد رؤساء الأديرة والجمعيات والمؤسسات الدينية على تكوين المنصرين قبل إرسالهم، فأكدوا على ضرورة وجود مكتبات لدى الجماعات المنصرة، كما عملوا على وضع مدارس لتكوين المنصرين في كل أنحاء العالم من فرنسا، روما، البرتغال، السنغال وغيرها من مناطق العالم، فكان التكوين وخاصة الجغرافي، أي كل ما يخص الحدود لكل المناطق المنصرة والتي في طريق التنصير، شعوبها، عاداتها، تقاليدها، لها أهمية كبيرة[1].

أما بالنسبة لمنصري إفريقيا (Les missions d'Afrique)، فإن أوامر الكاردينال لافجري التي أعلن عليها في مارس 1878م، تمثل أهم تكوين، والتي جاءت في الحقيقة في نص خطابي ألقاه الكاردينال على المنصرين قبل إرسالهم إلى زنجيبار (Zanzibar)، وبيّن نص الخطاب المبادئ التي وجب على الآباء البيض التحلي بها خلال مهمتهم[2].

وأصبح نص هذا الخطاب مرجعي، تتبع أوامره خلال الإرساليات التنصيرية، وكانت هذه التعليمات تقرأ مرة كل شهر، ووجب على كل منصر الحصول على نسخته الخاصة به ومكتوبة بخط يده، وربما أهم ما تنص عليه هذه الوصايا أو التعليمات – إن صحّ التعبير – دراسة لغات ولهجات المناطق المراد تنصيرها.

«... معرفة لغة الأهالي ضرورية للوعظ، إذ من الضروري على كل منصر أن يتكون بسرعة بمجرد إخباره بالبعثة، يجب أن يكرس لهذا التكوين كل وقته... وبمجرد حصوله على اللغة، علما أنه لا يحق له اجتياز مدة ستة أشهر على الأكثر لتعلّمها، ثم يجب على المنصرين التواصل فيما بينهم عن طريق هذه اللغة، وعلى مسؤول البعثة

(1) Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, pp94-95.

(2) العودة إلى بداية الرسالة في الفصل الثاني.

شخصيًا وإن لم يتمكن أن يعين أحد المنصرين لوضع قاموس لهذه اللهجة أو اللغة، وعليه أن يكرس له على الأقل ساعتين في اليوم لإنجازه، وذلك عن طريق التحاور مع الأهالي والأسئلة حول قيمة ومدلول كل كلمة»[1].

وهنا نلاحظ من خلال خطابه تأكيده على ضرورة معرفة لغة المجتمع المراد النشاط فيه، عاداته، تقاليده، وكل هذا عن طريق اللغة أو اللهجة، والتحاور معهم، وهذا التواصل معهم بلغتهم أو لهجتهم يجعلهم يطمئنون ويسهل للمنصرين القيام بعملهم، وهذا ما نجده في نص لافجري: «... الواجب وضع مذكرة لكل بعثة والتي تكون تحت إشراف أحد المنصرين وتكون مهمته كتابة وتدوين كل ما يحصل عليها من معلومات، كالعادات والتقاليد وجغرافية المنطقة، حوالي 15 إلى 30 سطر يوميًا، والتي ستتحول إلى مادة للنشر تزيد من تشريف الكنيسة وتعلي من قيمتها الإرسالية...»[2].

وبذلك وبأقل تكلفة ممكنة يمكن لهم الحصول على مادة علمية زاخرة بمجرد الملاحظة والسؤال، حول تاريخ المنطقة من أفواه السكان الأصليين، والجغرافية، والطبيعة، والجيولوجية، والتي لا تتطلب أكثر من بوصلة وإسطرلاب، مجهر، والكثير من الاهتمام والتمعن فيما حولهم، شرط أن يكون للمنصر المكلف بهذه المهمة معرفة مسبقة وأولية لهذه العلوم، ومن أجل ذلك يجب أن يوفر له بعض الكتب الأساسية والتي لا تكلف ميزانية ضخمة[3].

فنلاحظ أنه عند وصول المنصرين أو الإرسالية إلى منطقة معينة، فأول ما تقوم به هو التأقلم مع الطبيعة الجديدة، والتي تختلف على ما هو معتاد عليها في أوروبا، فيحاول وضع لنفسه معالم جديدة حتى يتكيف معها، وكذا أهم ما يقوم به هو غرس الصليب في المنطقة حتى تصبح مسيحية، تابعة للكنيسة، أو أراضي للتنصير، وكانت فكرة غرس الصليب احتفال لدى المنصرين حيث يلتقي أفراد الإرسالية في أعلى نقطة مع رؤساء القبيلة ويقومون في احتفال كبير بغرس الصليب وتحديد مناطق النفوذ.

(1) Jean-Claude Geillier: **Histoire des missionnaires…**, op.cit, p25.

(2) Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, p96.

(3) Cardinal Lavigerie: **Première instruction aux pères blanc de l’Afrique équatorial**, in écrits d’Afrique, éd. Bernard Grasset, Paris 1966, pp155-156.

ويعتبر الصليب رمز غامض ذو قيمة معقدة، وهي في نفس الوقت رمزية وحقيقية، روحية وعقارية أي تخص الأرض، يوضع الصليب في الغالب في المرتفعات حتى يتمكن رؤيته من طرف الجميع. فهو يخاطب الجميع، للمنصرين الذين يعتبرون أن كل الأراضي التي يُطل عليها الصليب تصبح تابعة للكنيسة، كما أنها تعلن لكل الأوروبيين المسيحيين أن هناك مسيحيين آخرين في المنطقة، ويمكن أن يوفر لهم الأكل والنوم، أي الملجأ، وأصبح غرس الصليب تصرف أساسي عند الإرساليات، لأنه يشدّد الروابط بين أفراد المجتمع المسيحي الجديد(1).

فأصبح المسيحيين يستولون على أرض ويدّعون أنها مهجورة وينصّبون فيها الصليب ويعينون حدودها وتصبح منطقة مسيحية(2).

ثم بعد ذلك تأتي مرحلة بناء البنيات، فيبدءوا بمنزل للمنصرين، والذي عادة ما يتطور إلى عدة منازل وكنيسة صغيرة في البداية ثم تتطور، وكل هذه البنايات من أجل إظهار التواجد الأوروبي المسيحي في المنطقة(3).

لنصل إلى مرحلة إعطاء أسماء للمناطق والمباني والتي تكون لها أسماء لها علاقة وطيدة مع المسيحية وتاريخها لتؤكد على تبعاتها للكنيسة(4).

وبذلك كان للخريطة أهمية كبيرة لدى نشاط الإرساليات التنصيرية، من حيث التمويل والمساعدات المالية التي كانت تتلقاها الإرساليات بعد كل منشوراتها. أما من الباب المعرفي فكل هذه النصوص والصور والرسائل والتقارير المستمرة مثلت مادة خام هائلة للدارسين والباحثين.

كما يمكن اعتبار الإرساليات باب على العالم الإسلامي، رغم تعطّل تحقيق الخطط التنصيرية بسبب الصراع الذي كان قائما بين الإرساليات التنصيرية الكاثوليكية والبروتستانتية. إلاّ أنها بمجرد تجاهلهم لصراعاتهم في سبيل تحقيق أهدافهم والتي تعتبر

---

(1) Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, pp106-107.

(2) Paul Claval: **La géographie culturelle**, une approche des sociétés et des milieux, éd. Nathan, Paris 1995, p178.

(3) Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, p109.

(4) نفسه.

واحدة، أصبح نشاط المنصر كبير واهم خطوة لتجسيد التوسع الاستعماري في مناطق إسلامية وغير إسلامية[1].

فمثلاً رغم أن أهداف اليسوعية مثلاً والمدرسة الفرنسية تختلفان، إلاّ أنهما تخدمان كليهما أهداف ومصالح التوسع الاستعماري في العالم (المباشر وغير المباشر)، فأصبح من اهتمام كليهما نشر وبث تعاليم اللغة الفرنسية وذلك من أجل ترويج الأفكار الأوروبية، وأصبح للإرساليات القدرة على التغيير داخل مجتمعات العالم الإسلامي، وهنا يظهر عمل المنصرين من أجل تطبيق خطتهم في هدم المجتمعات الإسلامية بالنصرانية، وذلك عن طريق استعمالهم كل الطرق والوسائل لنشر المسيحية[2]، فالتطبيب والتعليم والترجمة والأعمال الخيرية من ملاجئ ودور الأيتام والعناية بالمرأة، كل هذا كان موجهًا صحيحًا لخدمة التنصير والمخططات، وحسن التخطيط والتحكم فيما يخص الأعمال الخيرية حتى لا تذهب هباءً[3].

وعملت على الاستقرار في مستعمراتها عن طريق هذه الوسائل، مثلاً إما بوضع مناهج مدرسية تخدم مصالحها ودينها وأفكارها، أو تحكم التعليم الموجود والسائد من أجل تحطيم وهدم الهوية وإبقاء أو بالأحرى تحويل الأهالي إلى أميين.

ولم يكن هدفهم نقل الحضارة وإنما تنصير الشعوب أو إبعادها على ديانتها، وغالبا ما كانت مرتبطة بالاستعمار، حيث يقول تشارلس كرافت[4] أن إستراتيجية التنصيـــر الأوروبية الأمريكية مرتبطة عمومًا ارتباطًا وثيقًا بالعقلية الاستعمارية. ولهذا السبب كانت ناجحة كلما تعرضت الشعوب إلى التأثير القوي وحتى التخويف وذلك عن طريق الإنجازات الثقافية الأوروبية الأمريكية لقد كنا تمامًا مثل المهودين[5].

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص18.

(2) طلال العترسي: **البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة**، مرجع سابق، ص43.

(3) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص58.

(4) الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيري الذي عقد في كولورادو، 1978، **التنصير لغزو العالم الإسلامي**، دار مارك، ص122.

(5) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص125.

وكانت المدارس التي أسستها الإرساليات التنصيرية ميدان واسع لإبعاد المجتمعات الإسلامية عن الإسلام ومبادئه، وبذلك كان التعليم واسطة لجعل من الطفل المسلم مسيحيا وتكوين نشأ مسيحي(1).

وهذا هو عمل أو نشاط الإرساليات التنصيرية في العالم الإسلامي، ويتضح ذلك من خلال برامج عملها، فالإرسالية الأمريكية التي تأسست عام 1889م جاء في برنامجها: «نحن الموقعين أدناه قد عزمنا على القيام بنشاط تنصيري رائد في البلاد باللغة العربية، وخاصة من أجل المسلمين ولأن الحاجة بالغة لها»(2).

وهذا ما يدعو له زويمر أحد مؤسسي هذه الإرسالية وهو وجود حق للمسيحية في الجزيرة العربية وأن إعادتها إلى النصرانية كسابق عهدها أمر غير مستحيل(3).

2 – النشاط التنصيري من خلال التعليم:

اعتبر المنصرون المدرسة أحسن وسيلة وأهم مجال لتطبيق الخطط والبرامج اللازمة لتنصير العالم، ومحاولة إدماج المجتمعات الإسلامية داخل المجتمعات المسيحية(4). بل وأن ليس لهذه الشعوب الخيار، إما أن يندمجوا أو تهدم مقوماتهم الشخصية، وهذا ما عاشهُ معظم الشعوب والمجتمعات الإسلامية المستعمرة(5)، ولكن في حقيقة الأمر ليس هناك خيار حقيقي، لأن في كلتا الحالتين تهدم الهوية ومقومات الشخصية لهذه الشعوب، فإن امتنعوا أو تقبلوا فالنتيجة نفسها(6).

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، المرجع السابق، ص125.

(2) عبد المالك خلف التميمي: **التبشير في منطقة الخليج العربي، دراسة في التاريخ الاجتماعي والسياسي**، ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، 2000، ص246.

(3) حيث يقول: «إن للمسيح حق في استرجاع الجزيرة العربية وقد أكدت الدلائل التي جمعت لدينا في الخمسين سنة الأخيرة، على أن المسيحية كانت منتشرة في البلاد العربية، في سابق عهدها، وهناك دلائل أثرية واضحة على وجود الكنيسة المسيحية، لهذا فإن واجبنا أن نعيد هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية. انظر: عبد المالك خلف التميمي: **التبشير في منطقة الخليج العربي**، المرجع السابق، ص247.

(4) هذا ما نادى به الكاردينال لافجري عدة مرات انظر:
Bonner-Maury (G): **L'Islamisme et le christianisme en Afrique**, éd. Hachette, Paris 1906, pp139-140.

(5) Guedon (A): **L'assimilation des indigènes Musulmans, extrait de l'avenir d'Algérie**, imp. Coloniale, 1er édition, Paris 1890, p82.

(6) رابح تركي: **التعليم القومي والشخصية الجزائرية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981م، ص ص122-135.

وهذا ما نجده في أحد أجزاء الخطاب الذي ألقاه زويمر خلال مؤتمر القاهرة، حيث قال مخاطبًا المنصرين والإرساليات: «... إن بكثرة هذه المدارس تمكّنكم من إعداد في ديار الإسلام شبابًا لا يعرف الصّلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، وحتّى وإن لم تدخلوه في المسيحية، جاء نشأ طبقًا لما أراده المستعمر... لا يهتم للعظائم، ويحب الراحة والكسل ولا يهمه في الدنيا إلاّ الشهوات... إن مهماتكم قد تمت على أجمل وجه، وأنهيتم إلى خير النتائج، وباركتم المسيحية ورضا عنكم الاستعمار، فاستمروا، فقد أصبحتم بفضل الرب وجهادكم موضع بركات الرّب...»[1].

ما يمكن ملاحظته من خلال هذا هو اهتمام المنصرين بعلاقة المسلم بربه، وإفساد الأخلاق، لأن الأمم تقوم بالأخلاق، فاهتموا بهدم الشخصية، وهي أخطر من قتل الأشخاص.

ويقول شارلز أن أهم وأقوى وسائل التنصير هو السيطرة على التعليم ويجب على المنصر أن يتظاهر كالحمام الأبيض، ولكن هذا لا يمنعه أن يكون كالحية يتلوّن حسب الوضع.

ويذكر المنصر هنري جسب في ذات السياق، أن التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية إنما هو واسطة إلى غاية، هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادًا مسيحيين وشعوبًا مسيحية.

أما بنروز رئيس الجامعة الأمريكية ببيروت، فقد أشار إلى أن التعليم برهن على أنه أثمن وسيلة التي استطاع المنصرون أن يلجئوا إليها في سعيهم لتنصير العالم الإسلامي[2].

وبذلك فإن المنصر الأول هو المدرسة، ولهذا منحت أولوية وأهمية كبيرة من طرف الكنيسة، حيث أول ما يقوم ببنائه المنصرين بعد الكنيسة في المناطق المكتشفة هي مدرسة[3]، ويختفي وراء برامجها نوايا التنصير ونشاط المنصرين، وذلك أن المدرسة هي البنية الأساسية لكل مجتمع، لأنها تنشر من خلالها، المقومات والعادات والتقاليد للفرد، كما لها إمكانية ترويج الأفكار والإيديولوجيات المختلفة، وتكوين جيش خفي لها داخل المجتمع يكون لها سند في نشاطها، وفي بعض الأحيان يكون خلف لها، ويتمكن من إحداث تغير

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص48.

(2) نفسه، ص50.

(3) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص71.

جذري في بنية المجتمع ويكون ذلك انطلاقًا من الخلية الأساسية لبناء المجتمع وهي الأسرة[1]، ويكوّنوا جيل جديد نابذ لماضيه، لتاريخه، لعاداته وتقاليده ويتبنّى عادات وتقاليد وثقافة أوروبية مسيحية، من أجل الوصول إلى التحضر الآتي من الغرب، وهذا ما يسمى بالاستعمار الثقافي، الذي بإمكانه إمّا ترسيخ التواجد الاستعماري بعد الدخول واستعمال السلاح كما كان الحال في الجزائر، أو فتح المجال والأبواب أمام المستعمر الذي عُبّدت له الطريق من طرف المنصرين، كما كان الحال مثلاً في المشرق العربي، وذلك عن طريق محاولة السيطرة على عقول الأجيال الصاعدة[2].

إذًا التعليم ميدانًا لإبعاد المجتمعات الإسلامية عن الإسلام ومبادئه، كما انه كان واسط لجعل من الأطفال المسلمين مسيحيين وتكوين نشأ مسيحي التصرفات وإن أمكن العقيدة.

كانت للديانة خلال العصور الوسطى في أوروبا، أهمية كبيرة وكانت للكنيسة هيبة، ولم تكن لأوروبا المتطورة المتحضرة الحالية وجودًا، إلا أنّ بإطلالة العلم على عامة الناس، ونشوء هذه الطبقة المتعلمة الجديدة أول ما قامت به، هو رفض ونبذ طغيان الكنيسة وتسلطها، وبذلك فإن أوروبا المتطورة هي وليدة العلم، لا الدين، ما أقنع أوروبا الاستعمارية على التعامل مع التعليم في مستعمراتها بحذر، لأنّه سلاح ذو حدين، ومنحت هذه المهمة للكنيسة ورجال الدين حتى يتمكنوا من السيطرة على الأفراد، عن طريق البرامج والخطط المطبقة وبالأخص على أطفال البلاد المستعمرة[3].

تيقن رجال الدين عامة أن الموجه الحقيقي لكل فرد هو البيئة الأولى التي تحتضنه في بداية عمره، وهذه البيئة تبقى تؤثر فيه إلى سن متأخرة من عمره[4]. وهذا ما يقوله أصحاب نظرية التنشئة الاجتماعية وعلى رأسهم دوركايم[5]، على أنها عملية استبدال الجانب

---

(1) Yvonne Turin: **Les affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, école, médecines, religions (1830-1880)**, éd. Enal, Alger 1983, p12.

(2) محمد الطاهر وعلي: **التعليم التبشيري في الجزائر من 1830م إلى 1904م، دراسة تاريخية تحليلية**، منشورات دحلب، الجزائر، 1997، ص61.

(3) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص52.

(4) لويس كامل: **قراءات في علم النفس الاجتماعي في البلاد العربية**، المجلد الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1970، ص310.

(5) محمد عاطف غيث: **دراسات في علم الاجتماع، نظريات وتطبيقات**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1985، ص90.

البيولوجي بأبعاد اجتماعية ثقافية وتصبح هي الموجهات الأساسية لسلوك الفرد داخل مجتمعه، أي هي عملية تكييف الطفل وانسجامه مع محيطه ووسطه الاجتماعي، سواءً في الأسرة أو في المدرسة، والهدف الأساسي الأول هو تحول الطفل إلى عضو فعالٍ قادر على القيام بأدوار اجتماعية[1].

وبالفعل أعطت الكنيسة في إطار نشاطها التنصيري أهمية كبيرة لجانبين وهما المدرسة والأسرة، وبما أن التنشئة الاجتماعية هدفها خلق فرد فعّال يقوم بأدوار أساسية في المجتمع[2]، فإذا كانت هذه التنشئة الاجتماعية مشبعة بأفكار تنصيرية غربية، غريبة عن المجتمع بعاداته وتقاليده الإسلامية، ستضمن بذلك الهيئات التنصيرية وعلى رأسها الكنيسة، الدور الموجه لهذه الفئة.

حيث يهتم أصحاب نظرية التنشئة الاجتماعية بالجانب التعليمي الذي يخص السلوك الاجتماعية للفرد، ويعتبرها نمط تعليمي الهدف منه تكوين الفرد للقيام بأدوار في مجتمعه، وذلك عن طريق تعلم سلوكيات تمكنه من مسايرة حياته بصورة جديدة[3]، وهذا ما ينطبق تمامًا مع المشاريع التنصيرية والاستعمارية التي طبقت على العالم الإسلامي.

ولهذا التعليم جانبين، المباشر والذي يعمل من خلاله المنصر على اكتساب الطفل الصغير وتعليمه، ما يجب تجنبه وما يجب القيام به، وذلك عن طريق التعزير والعقاب، أما غير المباشر هو كل ما يكتسبه من الوسط الذي يعيش فيه بطريقة غير مباشرة[4].

وهذا ما اعتمد عليه رجال الدين في منظومتهم التربوية، فحاولوا من خلال مدارسهم ودور الحضانة وحتى التعليم العالي، بمجرد أن أدركوا هذه الخاصية، عملوا على استغلالها، من أجل سلخ الطفل من بيئته الاجتماعية الأولية وزرعه في بيئة اصطنعها المنصر له، حتى يتمكن من خلق فرد مشبع بسلوكيات مجتمع مسيحي داخل مجتمع إسلامي، يوافق مخططاتهم، ويستعمل من أجل تحقيق غايته التنصيرية، واستعملوا من أجل ذلك أنبل مهنة والتي جاءت من أجل تحرير العقول الإنسانية والرقي، لاستعباد الشعوب والإنسانية.

---

(1) عبد الواحد علواني: **تنشئة الأطفال وثقافة التنشئة**، دار الفكر العربي، دمشق، 1997، ص28.

(2) محمد عاطف غيث: **دراسات في علم ...**، مرجع سابق، ص91.

(3) نفسه.

(4) لويس كامل: **قراءات في علم النفس الاجتماعي في البلاد العربية**، مرجع سابق، ص ص37-44.

وبما أن الهدف الأساسي من التعليم هو تطبيق مخططاتهم وأهدافهم، وحّد المنصرين مشروعهم المسيحي في التعليم وكان كما يلي[1]:

– الإكثار من المدارس حتى يستطيع المنصر أن يتصل بالناس ويحتك بالمجتمع، ويدعوهم إلى مذهبه، وبما أن التعليم خطوة مهمة في النشاط التنصيري، حيث ساهم في إيصال الإنجيل إلى عدة مناطق من العالم، كما يُعتبر قوة تساعد على جعل المسيحية ديانة الشعوب، ويؤثر على هذا النشأ، الذي سيصبح يوما ما في مراكز مهمة من الدولة، ويكون لهم تأثير على قراراتها[2].

وبعد أن تيقنت الكنيسة أن التنصير المباشر من الصعب أن يصل إلى قلوب وعقول المسلمين، أصبح التعليم الوسيلة الوحيدة والمضمونة والصائبة، رغم بُعد نتائجها، واختفت وراء فكرة تنوير ونقل الحضارة للعالم الإسلامي المتخلف، وتحولت المؤسسات التعليمية إلى منابر لبث ونشر تعاليمهم ومعتقداتهم بين أبناء المجتمع الإسلامي في مختلف مراحله التعليمية، من سن الحضانة إلى غاية التعليم العالي، فتسايره خلال تطوره، وتعمل جاهدة على هز تعاليم دينه بداخله، وحتى وإن لم يبتعد عن دينه فإنه يبتعد عن التطبيق الصحيح له[3]، فأقاموا معاهد ومدارس ومؤسسات تعليمية لكل المستويات ونشروها في معظم حتى لا نقول كل العالم الإسلامي، ولا يوجد فرق بين المدارس المسيحية والتنصيرية، فكلاهما تحاول نقل الطفل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من مذهبه وعقيدته نحو المسيحية، إما بالعقيدة أو تبني كل ما يتعلق بها من سلوكيات وتصرفات، أو طبع بداخلهم معرفة وثقافة ترتكز على المسيحية والعبادة[4].

فاهتمت بالطفل بشكل خاص، باعتباره أساس المجتمع، فإذا تمكنت من زرع بداخله أسس المسيحية وعادات وتقاليد المجتمعات الغربية، فإنها ستتمكن من خلق نشأ بعيد عن دينه، رافض لعاداته، ولذا أصبح لديهم من الضروري حمل الطفل الصغير إلى المسيحية قبل بلوغ الرشد، وقبل أن تنطبع وتتأثر بالإسلام شخصيته، وهذا ما طبق من طرف

---

(1) محمد محمد حسين: **الإسلام والحضارة الغربية**، مرجع سابق، ص46.

(2) نفسه.

(3) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص ص71، 72.

(4) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص ص154-160.

الإرساليات التنصيرية في العالم العربي الإسلامي، لاسيما الجزائر[1] بمساعدة وتمويل الحكومات الاستعمارية، فتمكنوا من تأسيس مدارس في المناطق التي أخضعت لحكمهم أو لهم نية الاستيلاء عليها. و هنا نلاحظ السياسة المتناقضة التي مارسها المستعمرون اتجاه الدين، فمن جهة شجعوا وعملوا على إبعاد المسلمين عن الإسلام في إدارة حياتهم السياسية والتعليمية والإدارية، ولكنهم في الوقت نفسه شجعوهم على الالتحاق بالمدارس المسيحية، كذلك جعلت الأقليات الدينية الكاثوليكية في الدولة العثمانية تحت حمايتها، كما عملت على تقسيم البلدان الإسلامية إلى كيانات دينية مذهبية، وعملت جاهدة على أن تكون أنظمة الحكم في معظم تلك البلدان على أساس ديني طائفي، وهذا في المشرق الإسلامي[2].

ومن هنا تظهر أهمية المدرسة في تنصير أمة أو إبعادها عن دينها، حيث قال المنصر ماكدونالد أنه ليس هناك طريقة للتأثير على المواطنين أفضل من جمع أبنائهم في حجرات الدراسة[3]. فقامت الإرساليات التنصيرية بإنشاء المدارس في كل أنحاء العالم الإسلامي، ذلك أن التعليم أو المدرسة تعتبر جزء مهم من المغامرة التنصيرية وهو مشروع بابوي بالدرجة الأولى، فإن الباب قريغوريوس 16 والذي عيّن في سنة 1831م شجع اليسوعيين على الاستقرار في سوريا والعمل فيها، وبعده البابا ليون الثالث الذي أعطى الحق لليسوعيين بمنح الشهادات بأنواعها في سوريا وذلك في سنة 1881م، وتحولت على إثره جامعة القديس يوسف لجامعة بابوية، نفس الشيء بالنسبة للبابا بيوس الذي عين في سنة 1922م والذي كان يسمى بابا التنصير، وكان للتعليم غاية واحدة هو التنصير، وهذا ما استغله المنصرين من أجل بناء المدارس[4].

ولعلّ أول مدرسة في المشرق كانت مدرسة للبنات في الدولة العثمانية في 1830م في بيروت[5]، حيث تمكن المنصرين واليسوعيين خاصة حتى قبل الاتفاق مع فرنسا من

---

(1) محمد الطاهر وعلي: **التعليم التبشيري في الجزائر**، مرجع سابق، ص72.

(2) ماكدونالد بلاك دانكن (Duncan Black Macdonald) (1869-04-09/1943-09-06) مستشرق أمريكي، انظر: البدوي عبد الرحمن: **موسوعة المستشرقين**، مرجع سابق، ص538.

(3) Louis Jalabert: **La conquête missionnaire par l'influence intellectuelle**, in revue d'histoire des missions n°1, 1939, p326.

(4) Chandal Verdeil: **Les jésuites en Syrie (1831-1864) une mission au près des chrétiens d'orients du temps des reformes ottomanes**, thèse de doctorat soutenue à l'université Paris IV sous la direction de J. Frémeaux, septembre 2009, pp52-56.

(5) Ibid., p57.

تأسيس عدة مدارس للبنين والبنات، وبعد الاتفاق مع حكوماتهم الاستعمارية تضاعفت هذه المدارس، وذلك أن المدرسة الابتدائية من أفضل الوسائل لتغلغل النفوذ وتفوق الجامعة والتعليم الثانوي، وذلك لأنها تتوجه إلى أكبر قسم من الناس وتدخل إلى الأوساط التي يصعب الوصول إليها[1]، ويؤكدها المتخصصين الذين يرو أنه من الضروري تكثيف المدارس في سوريا حتى يتمكن جميع الأطفال من القراءة والاستفادة من التعليم الديني، والأخلاقي الذي ينشره بينهم.

امتد نشاط التنصير التعليمي في معظم أنحاء العالم الإسلامي وكان لتعليم مؤسسي الجمعيات التنصيرية آثار بارزة في التركيز على مدارس الأطفال والاعتناء بتربيتهم تربية مسيحية جيدة، وذلك أنه كلما كان جديًا كان له قوة كبيرة، وكل ما كان لينًا كان لديه استعداد للتطويع، وأن التقليد والعادة لها دائمًا تأثيرًا قويًا، ولهذا يجب على الطفل أن يبقى أطول مدة ممكنة تحت رعاية الآباء وفقًا لمبادئ ثلاث تنظم العلاقة بينهما:

- مبدأ السلطة والتي تمارس من طرف الآباء.
- مبدأ التكييف والذي يعتمد على تمييز قدرات الطفل.
- مبدأ النشاط والذي يفرض طريقة التنصير أو الوعظ التي لها صدى هام على المستمعين[2].

والهدف من كل هذا دفع الطفل نحو المسيحية أو بعيدًا عن الإسلام، وذلك عبر التشجيع ومراقبة التمارين، والتأثير الشخصي على الطفل، حتى يحقق في البداية صلة توجيهية والتي ستتطور وتوصله إلى الصلة الروحية، ولكن هذه العلاقة والصلة لا تلغي العقاب بأنواعه، حيث يبدأ بالنقد المعنوي أمام الآخرين، للوصول إلى الضرب والعقوبة المادية، وصولاً إلى الطرد[3].

وكانت المدرسة تعد وتهيئ التلميذ إعدادًا كليًا وكاملاً وشامل للحياة كما يرغبه رجال الدين، وقسمت الهيئة التعليمية إلى مدير ونظارة وأساتذة، يمتلكون قدرة عالية على الإعداد الأخلاقي، وتكون متابعة التلاميذ مستمرة حتى بعد أوقات التعليم، حيث يحولون المدرسة إلى مجتمع صغير قائمًا بحدّ ذاته[4].

---

(1) Paul Huvelin: **Congrès Français sur la Syrie**, fascicule III, chambre de commerce de Marseille, 1919, pp4-5.

(2) Charmot F.: **La pédagogie des Jésuites**, éd. Paris 1951, p163.

(3) تشير بعض الروايات إلى استخدام العقاب الجسدي بشكل قاسٍ وعنيف يصل أحيانًا إلى حدّ جلد الطالب، انظر: **La flagellation chez les jésuites (mémoire historique)**, éditeur H. Daragon, Paris 1912, p52.

(4) Bermoville Geatan: **Les jésuites**, Paris 1934, pp274-275.

ويرى المنصرين أن النشاط التنصيري لا يكون إلاّ بالاعتماد على العمل الأخلاقي قبل كل شيء، لذا عملوا على غرس العقيدة الدينية في قلوب الأطفال قبل تعرفهم على العلوم، لأن التعليم لديهم وسيلة للوصول إلى قلب المجتمع الإسلامي لا غير، أما العلوم التي يتلقاها الطفل فهي سطحية، الهدف منها محاولة إقناع الرأي العام العالمي من المهمة التحضيرية التي يقوم بها المنصرين، وتطوير الشعوب المتخلفة[1].

وهذا الخضوع والانضمام الذي حققته المدارس المسيحية لدى الأطفال، تحقق بفضل الاتصال المستمر والدائم بين المربي والطفل، إذ لا تربية صحيحة دون هذا الاتصال، ولا ينبغي في بادئ الأمر ترك الطفل وحده، لذا كان المراقب يلاحقه في كل مكان (الكنيسة، الصف، الملعب)[2].

وهذا هو سبب تركيز العمل التحضيري على الأطفال اقتناعًا منهم بتحقيق نتائج لم يحققوها مع الكبار «... إن الأهالي يرفضون رفضًا تامًا إتباعنا... لكننا آجلاً أم عاجلاً سنحصل على أطفال أكثر ليونة من أهاليهم... هذه المخلوقات البريئة يمكن التأثير عليها بسهولة[3].

تعتمد المدارس التنصيرية على الحفظ، ويتبعون طرق تتطلب الكثير من الصبر، يعتمدون على أن يردّد الأطفال في وقت واحد كلمة يلقيها عليهم الأستاذ ويكررها مرارًا، مع كل كلمة جديدة إلى أن يتم حفظ الدرس، ويقطع الأستاذ الدرس من حين لآخر ليسأل التلاميذ، هل يمكنهم إعادة الحفظ، ومن تفوق يرسل إلى الرئيس ليعرض له ويكافئه، وهذه الطريقة تجعل الأطفال الذين لا يعرفون القراءة، أن يتعرفوا، بل يحفظوا أسس العقيدة المسيحية[4].

ويولي المنصرين التعليم في كل مراحل التدريس أهمية كبيرة من أجل تأطير الطفل من البداية، تجعل الطفل يتبع المسيحية دون أن يحسن وهذا في أحسن الحالات، أو يبقى مسلمًا، بعيدًا عن كل ما يجعله مسلم من تصرفات، وبذلك يفتقد معالم شخصيته، دون أن

(1) **Histoire de la compagnie des jésuites**, TU, éd……………..Paris 1859, p160.

(2) Durkeim: **Evolution de la pensée pédagogique en France**, P.U.F., pp267-299.

(3) Bulletin d'œuvres des écoles d'orients 1874-1876, p241.

(4) Rambaud Alfred: **L'enseignement primaire chez les indigènes d'Algérie et notamment en grande Kabylie**, imp. Delagrave, Paris 1892, pp62-63.

ننسى أن الإشراف على الأطفال يخلق صلة بين المنصر وأهل الطفل، فيكتسب المنصر بذلك مكانة داخل هذه المجتمعات الإسلامية، مختفين وراء ستار التعليم، وأحسن المجالات التي ساعدتهم إلى الوصول إلى نتائج مؤكدة هي المدارس الابتدائية[1].

ورغم الأهمية التي أعطتها الإرساليات التنصيرية للمدرسة الابتدائية، إلاّ أنها اهتمت كذلك بمدارس التعليم ما بعد الابتدائي، والجامعي، وأعطوا أهمية كبيرة للمدارس ذات القسم الداخلي خاصة للفتيات، لأن المرأة أساس أي مجتمع، فهي من تنقل العادات والتقاليد والعرف، والعقيدة لأطفالها منذ البداية، فاهتموا بإنشاء دورًا لإيواء التلميذات والطالبات، وبذلك تنزع الفتاة من بيئتها الأصلية الإسلامية، لتختلط بالفتيات المسيحيات فيسهل على الإرساليات التنصيرية السيطرة عليهن مباشرة[2]، حيث قالت المنصرة آن ميلجان (Ane Meliguane)[3]: «... يوجد في صفوف كلية البنات بالقاهرة بنات آباؤهن باشاوات وباكاوات، ولا يوجد مكان آخر يمكن أن يجمع هذا الكم الهائل من البنات المسلمات تحت سيطرة أو نفوذ المسيحية، ولا يوجد طريق للقضاء على الإسلام، أقصر مسافة من هذه المسافة...»[4].

اهتم المنصرون اهتمامًا خاصًا وكبيرًا بالمرأة "الفتاة ثم الأم"، باعتبارها المنفذ الرئيسي للوصول إلى داخل الأسرة المسلمة، فإذا سيطروا على المرأة، سيطروا على العائلة، التي تمثل الخلية الأساسية لكل مجتمع المرأة نواتها. فشجعوا البنات للدخول إلى المدارس التي أسستها الإرساليات التنصيرية، وهذه الفتاة التي ستكون أمًّا لها أثر كبير على الطفل ذكرًا أم أنثى إلى غاية عشر سنوات أو أكثر. فهي الحامية للعقيدة الإسلامية، وإذا توصل المنصرون إلى تغيير أفكارها، ولو جزئيًا، فإنهم سيتمكنون من خلق تغير داخل المجتمع الإسلامي، ما دفعهم لوضع برامج خاصة من أجل تنصيرها، وهذا ما نادى به مؤتمر القاهرة سنة 1906م: «... لا سبيل إلاّ بجلب النساء المسلمات إلى المسيحية، إن عدد المسلمات كبير لا يقل عن مئة مليون وعلى الهيئات الموجودة مضاعفة العمل للوصول إلى نساء العالم المسلمات...»[5].

---

(1) Louis Jalabert: **La conquête…**, op.cit, pp207-210.

(2) طلال العترسي: **البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة**، مرجع سابق، ص ص154-157.

(3) نفسه، ص158.

(4) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص123.

(5) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص204.

فكان سبب تأسيس معظم المدارس والجامعات التنصيرية، عادة ما يكون تنصيري بالدرجة الأولى[1]، لعلّهم ربما عندما احتاجوا إلى كلية مسيحية إنجيلية لتحتضن التنصير المسيحي وزرع مبادئ المسيحية، انتقل دانيال بولس[2] إلى أمريكا لمناقشة فكرة تأسيس كلية تنصيرية في سوريا من أجل خدمة وتحقيق أهدافهم التنصيرية الاستعمارية في سوريا والأقطار المجاورة.

وتسلم إدارتها إلى غاية سنة 1902م، ولم تعلن هذه الجامعة نواياها التنصيرية منذ البداية خوفًا من أن تغلقها الدولة العثمانية، ولكن هذا لم يمنعها من العمل التنصيري، فمثلاً فدروس الإنجليزية كانت فرصة من أجل ترجمة النصوص الإنجيلية للغة العربية، وشرحها ومناقشتها على أنها نصوص مبرمجة، حيث قرّر مؤتمر القدس[3] المنعقد في سنة 1935م، استغلال كل الفرص من أجل ربط وتحليل العلوم بالشرح والتأويل المسيحي، حيث لم تقم الجامعة ببرمجة مبادئ المسيحية ومذاهبها كمقاييس مفروضة على الطلبة، لكن كانت كلما تسمح الفرصة يضعهم الأستاذ – والذي يكون مسيحيا منصرًا بالدرجة الأولى –، أمام مفاهيم إنجيلية وشرح مذهب وعقيدة أو ديانة عامة، دون أن ننسى أن دخول الكنيسة مفروض على كل الطلاب[4]، وعندما احتج الطلاب المسلمين على هذا الفرض، اجتمع عمداء الكلية ليخرجوا بمنشور جاء في مادته:

– إن هذه الكلية مسيحية، أسست بأموال مسيحية، هم من اشتروا الأرض وأقاموا البنايات، فيصبح من الواجب علينا من خلال دروسنا أن نظهر أهمية المسيحية، كما أن هؤلاء لن يقبلوا بعدم وجود تعليم يكون الإنجيل من مواده، وعرض لمنافع الدين المسيحي، وبذلك فنحن ملزمين بعرض الحقيقة المسيحية على كل تلميذ[5].

تعتبر هذه المادة تهديدًا مجرد من الروح العلمانية، وكانت ردة فعل الطلبة المسلمين إعلان إضرابًا، لكن هذا الإضراب وجه بتصلب إدارة الجامعة، بل أبعد من ذلك، كان رد

---

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، المرجع السابق، ص205.

(2) دانيال بولس، للمزيد انظر: نفس المرجع.

(3) طلال العترسي: **البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة**، مرجع سابق، ص157.

(4) مصطفى خالدي وعمر فروخ: المرجع السابق، ص207.

(5) نفسه، ص209.

الجامعة على لسان مجلس أمنائها، أن الكلية لم تؤسس لبث العلم العلماني، وإنما غايتها الأولى هي تعليم الحقائق الكبرى للمسيحية وأن تكون مركزًا للنور المسيحي[1].

وهنا نلاحظ، التطور في السياسة الداخلية للجامعة والتي في بداية التأسيس لم تظهر نواياها التنصيرية خوفًا من غلق أبوابها من طرف الخلافة العثمانية، ولكن بعد سنة 1920م وقرب نهاية الخلافة العثمانية وانهيارها، ولمّا أصبح العالم الإسلامي عبارة عن دويلات متناحرة، لا حامي لها، أجهرت هذه الجامعة بنواياها التنصيرية دون أي حرج.

أما بالنسبة مثلاً لكلية جردان في صيدا، فقد أسست لهدف تنصيري، وذلك أنهم كانوا يحتاجون إلى منصرين في هذه المناطق البعيدة، حتى ينشئوا قريبًا من هذه البيئة، ونفس الشيء بالنسبة لكل الكليات في المناطق النائية من العالم العربي الإسلامي، في مصر، طرابلس، القاهرة، حلب، وغيرهم[2].

والملاحظ، هو كثرة المدارس والجامعات التنصيرية في العالم الإسلامي، حيث يصل عدد المدارس التنصيرية في سوريا وحدها 174 مدرسة منتشرة في المدن والقرى[3].

أما في مصر فقد نشط الإنجليز في إنشاء مدارس تنصيرية، ثلاثة مدارس في الفترة الممتدة من سنة 1839 إلى 1840م، ثم تزايد فتح المدارس، وأمام هذا التزايد لفتح مدارس الإرساليات، توهّم البعض أن التعليم في مصر كان يسير بخطى سليمة، وهذا ما أراد أن يصل إليه المنصر، خاصة وأنه بعد توقيع اتفاقية لندن في سنة 1840م كان التعليم الحكومي في مصر قد انهار، واستمر حتى أوائل الستينات، وهذا ما ساعد انفتاح مصر على مدارس الإرساليات التنصيرية، والتي عملت على نشر الثقافة الغربية بين أفراد المجتمع عن طريق أبناء المسلمين، كما أن الإرسالية قامت بتأسيس معهد للاهوت من أجل تكوين كهنة أقباط ما بين [1842 – 1843م][4]، والذي أصبح مقر تخرج الإطارات التنصيرية المحلية في مصر، وكل هذا خلال صراع بين الإرساليات الفرنسية والإنجليزية، والتي عرفت تنافس بين المدارس البروتستانتية والكاثوليكية، وتواصل التنصير الفرنسي

---

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، المرجع السابق، ص211.

(2) طلال العترسي: **البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة**، مرجع سابق، مرجع سابق، ص ص160-162.

(3) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص95.

(4) خالد محمد منعم: **الجذور التاريخية للإرساليات التنصيرية الأجنبية في مصر، دراسة وثائقية (1756-1986)**، كتاب المختار، القاهرة، ص ص73-77.

في مصر، ليصل إلى غاية صعيد مصر على شكل عشرات من المدارس الفرنسيسكان، فتمكنوا من فتح مدرسة في نقادة وأخرى بعد ثلاث سنوات في سنة 1853م.

وكان أول اتصال حكومي بين إرساليات التنصير الفرنسية وبين الحكومة المصرية في عهد محمد علي[1] (1805 – 1848م) عندما زار الأب إتيان (Le père Etienne) الرئيس العام للعازاريين في سوريا، مصر، على رأس بعثة تنصيرية في سنة 1840م[2]، أين عرض عليه محمد علي إنشاء بعض المدارس من أجل تطوير التعليم في عهده، واعتبرها الأب إتيان الفرصة التي انتظرها واستجابةً لطلب محمد علي، فعملت الإرساليات على إقامة مراكز تنصيرية في مناطق مصر، ومن ثم أخذ المنصر الفرنسي يعمل من أجل إقامة المدارس الكاثوليكية الفرنسية كمدخل طبيعي ومنطقي للنشاط التنصيري في مصر. وبذلك كانت أول ثلاث مدارس في عهد محمد علي وهي: مدرسة الراعي الصالح (Le bon pasteur) للبنات في القاهرة سنة 1845م. ومدرسة فتيان الإحسان في نفس السنة ثم مدرسة العازاريين سنة 1846م[3]، ثم في سنة 1853م أنشأت مدرسة الراعي الصالح لداخلية، ومدرسة فرير عام 1853م والتي كانت تعتبر من أخطر المدارس التنصيرية لأنها تمكنت من تنصير العديد من أبناء المسلمين.

وفي عهد محمد سعيد[4] (1854 – 1863م)، والذي كان له ميول للفرنسيين لأنه تلقى تربية تعليمية فرنسية، زاد عدد وفود الإرساليات إلى مصر، واختلطوا مع أفراد المجتمع، فتكثف نشاطهم التنصيري، وأقيمت المدارس، وأصبح التعليم في مصر تميز بفتح العديد من المدارس التنصيرية الفرنسية، ولم يحاول محمد سعيد لإيقاف هذا التوافد، بل العكس، أعاد فتح المدارس الابتدائية والإعدادية والحكومية وسلّمها لإرساليات التنصير[5]، وبذلك تمكنت الإرساليات التنصيرية وبمساعدة والي مصر فتح العديد من المدارس بدون أية

---

(1) محمد علي باشا (1769 – 1849م) والي مصر، السودان الشام، الحجاز، الكريت، المورة، طاسوز، انظر: عبد الرحمن الرافعي: **عصر محمد علي باشا**، دار المعارف، ط3، القاهرة، 1989، ص ص20-30.

(2) أنور عبد المالك: **نهضة مصر**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 124م.

(3) جرجس سلامة: **تاريخ التعليم الأجنبي في مصر في القرنين 19م و 20م**، المجلس الأعلى للرعاية، الفنون والآداب، القاهرة، 1963، ص ص40-42.

(4) محمد سعيد الذي خلف عباس الأول الذي قتل في قصره، يقال أنه كان للفرنسيين يد في ذلك، انظر: أنور عبد المالك: المرجع السابق، ص63.

(5) أنور عبد المالك: نفس المرجع، ص74.

رقابة، فيقول أحد المنصرين عنه أنهم مدينين له بالكثير، حيث تمكنت الإرساليات في عهده بوضع أسس متينة للنشاط التنصيري عن طريق المدارس، لم يتمكن أحد من هدمها نظرًا لصلابتها، أي انه منح العديد من الامتيازات للفرنسيين فتحت المجال أمام المنصرين لمحاربة الإسلام والمسلمين عن طريق نشاطها التنصيري، لاسيما عن طريق التعليم حتى وصف بالقديس الحامي للإرساليات، ويقول منصر آخر إنه إضافةً إلى كل المباني التي منحها للإرساليات، قد حصلت هذه الأخيرة على إمدادات مالية ضخمة من طرفه، تفوق ما صرفته الحكومة على التعليم الحكومي[1].

وإضافة إلى مساعدات الحكومة، حضيت هذه الإرساليات بمساعدات رجال الأعمال وأصحاب المهن، كما وافق محمد سعيد على إهداء مقر دائم يكون بين الأخوات الفرنسيسكان في القاهرة سنة 1859م، وسمح للإرساليات الفرنسية من تأسيس أو فتح عشرات المدارس خلال فترة (1855 – 1863م)[2]. حيث وصل عدد المدارس الابتدائية والإعدادية في عهده أو نهاية عهده سنة 1863م ما بين 32 – 38 مدرسة، منها 3 علمانية[3].

وبذلك نلاحظ، أن الإرساليات الفرنسية كانت تقوم بممارسة عملها التنصيري بحماية والي مصر، وإن كانت مرحلة الخديوي سعيد وضعت أسس الإرساليات التنصيرية، فإن فترة خليفته إسماعيل باشا (1863 – 1879م) توجت خلالها جهود نشاط الإرساليات، حيث وضع ابنه الأكبر محمد توفيق راعيًا على المدارس الحرة المجانية والتي كانت تدار معظمها من طرف الإرساليات التنصيرية، وكان في بعض الأحيان يحضر حفلات توزيع الجوائز في تلك المدارس[4].

وقد أشار العديد من الباحثين، إلى الدور الذي لعبته إرساليات التنصير بمصر والتي اعتمدت أساسًا على قول اللورد سالسبوري: «... إن مدارس المنصرين، أول خطوة للاستعمار، حيث أول عمل لها هو إحداث شقاق في الأمة التي تبشر فيها، فمثلاً فتنة الأقباط والمسلمين التي خلقها وشجعها المنصرين عن طريق ما كان يلقن في المدارس المسيحية التنصيرية[5].

---

(1) جرجس سلامة: **تاريخ التعليم الأجنبي في مصر...**، مرجع سابق، ص57.

(2) نفسه، ص ص66-68.

(3) Chauleur Sylvestre: **Histoire des coptes d'Egypte**, éd. la Colomb, Paris 1960, pp148-149.

(4) أحمد عزت عبد الكريم: **التعليم في مصر في عصر عباس وسعيد**، ج1، مطبعة الفجر، مصر 1945، ص887.

(5) أنور الجندي: **الإسلام في وجه التغريب**، دار الاعتصام، القاهرة، ص30.

وتختلف المدارس التنصيرية الفرنسية عن المدارس التنصيرية الأخرى أنهم يحملون اسمها على ثيابهم، وكانت كلّها موجهة من كنيسة روما ومن فرنسا، وكان توجيهها دينيًا وسياسيا، وكانت سوريا مجالاً واسعًا بين هؤلاء المنصرين حيث وصلوها في القرن 18م، أي بعد إنشاء مدرسة عنطورة في جبل لبنان سنة 1734م[1].

ومنذ البداية اهتمت المؤسسات والمدارس الفرنسية بالتعليم الديني، اعتقادًا منهم أنه بسيطرتهم على رجال الدين المسيحيين، بتكوينهم في مدارسهم سيتمكنون من السيطرة على القرى النصرانية كلها، كما أن الفكر الاستعماري في التعليم المسيحي موجود، حتى وإن كان مستتر، حيث بنو برامجهم منذ 1824م على منوال البرامج الفرنسية أساسًا وأضافوا بعض دروس اللغة العربية[2].

وإذا تمعنّا في التاريخ – منذ 1824م – نلاحظ أن هذا التاريخ يعني للمسلمين نهاية الخلافة العثمانية، أي وحدة الأقطار الإسلامية تحت راية واحدة، أي الضعف.

أما بالنسبة للمغرب، والجزائر مثالا على ذلك فأهم ما يمكن ملاحظته فيما يخص التعليم التنصيري في الجزائر، أين كان نوع السيطرة مختلفة عن بلاد المشرق الإسلامي، وهو عزوف ورفض الجزائريين لتواجد الاستعمار المسيحي في بلادهم، والرفض التام لالتحاق أبنائهم بالمدارس الفرنسية[3]. ولهذا وفدت إلى الجزائر منذ 1830م عدد معتبر من الجمعيات التنصيرية واستقرت هناك، والعديد منها سبق أن كانت لها إقامة في المنطقة قبل الاحتلال[4].

رغم كل الصعوبات التي واجهت المنصرين في الجزائر، عملوا على تحقيق أهدافهم عن طريق التعليم وعملوا جاهدين لجلب أطفال الجزائريين إليها، وبذلك السيطرة على المنطقة، نفس ما طبق في باقي أنحاء البلاد الإسلامية، ومن أجل تحقيق ذلك وجب القضاء على اللغة والدين، والعادات، ولن يكون لهم ذلك إلاّ عن طريق المدرسة، والتي

(1) طلال العترسي: **البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة**، مرجع سابق، ص165.

(2) نفسه، ص167.

(3) انظر: محمد الطاهر وعلي: **التعليم التبشيري في الجزائر**، مرجع سابق، ص ص102-103.

(4) المهدي بوعبدلي: **آثار التبشير المسيحي في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي وبعده**، محاضرات الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي، منشورات التعليم الأصلي والشؤون الدينية، المجلد الرابع، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1975، ص1337.

تمكّنهم من إدماج الشعب الجزائري داخل المجتمع الفرنسي المسيحي، وبذلك إمكانية القضاء على مقاومة الجزائريين للتواجد الفرنسي، وكذا بتنصير الجزائريين سيتمكنون من إعادة إحياء الكنيسة الإفريقية.

والمؤكد أن التعليم التنصيري يستجيب للأهداف العامة لسياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، فهو يقوم على نشر اللغة الفرنسية وتلقين مبادئ المسيحية للأطفال(1).

وحاول المنصرين جعل من المدرسة التنصيرية والعمومية البيت الثاني للأطفال الجزائريين، يوضع فيه الجزائريين أبناؤهم منذ نعومة أظافرهم، أي لا يتجاوز أعمارهم الأربع سنوات، ويصبح فيها المنصر المعلم بمثابة الولي الثاني لهم بعد أوليائهم(2). ومن هنا انتهز المنصرين هذه القدرة على السيطرة عقليًا ونفسيا على الطفل، لسلخه من مجتمعه، لغته، دينه، عاداته وتقاليده(3).

حيث يقول أحد المفكرين: «... إن مدارس المبشرين في منطقة القبائل، تمتاز بالقدرة على إيواء التلاميذ وإطعامهم، إن هذا المأوى والطعام اللذان يقدمان للجزائريين ليس شفقة عليهم، أو حبًّا فيهم، بل الهدف منه إبقائهم تحت تصرف المنصرين دائما للتأثير عليهم بشكل فعّال في مجال التنصير، فيصبح هؤلاء الأطفال ينظرون إلى فرنسا نظرة تقدير تعظيم لفرنسا وتمجيدها وخدمة مصالحها، ويكبروا على حبّها والإشادة بمفاخرها والاستسلام إلى حكمها وخدمة مصالحها عن طواعية حتى يصبحوا يعتبرون فرنسا وطن طبيعي»(4).

وكثيرًا ما نادى لافجري بذلك: «... إن السعي إلى إدماج الجزائريين في المجتمع الفرنسي وثقافته أحسن من محاضرتهم خوفًا من العصبية الخيالية التي تستمد جذورها مت القرآن والبربرية...»(5).

---

(1) محمد الطاهر وعلي: **التعليم التبشيري في الجزائر**، مرجع سابق، ص ص106-109.

(2) Yvonne Turin: **Instituteur et colonisation en Algérie au 19ème** siècle, extrait du fascicule n°476, oct-nov 1965, revue historique, trimestriel, éd. PUF, Paris 1970, p6.

(3) Rambaud Alfred: **L'enseignement primaire chez les indigènes…**, op.cit, pp60-61.

(4) أبو خلدون ساطع الحصري: **أحاديث في التربية والاجتماع**، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت 1985م، ص ص7-8.

(5) Bonnet Maury (G): **L'Islamisme et le Christianisme en Afrique**, éd. Hachette, Paris 1931, pp139-140.

والإدماج عند الاحتلال هو إفراغ الجزائري من الداخل أي سلخه عن دينه ولغته وثقافته، ولكن يحتفظ بنمطه المعيشي، ما يدل على أن غاية المنصرين وفرنسا الاستعمارية ليس تحضير الشعوب، وإنما إبعادها عن دينها الذي فعلاً حضّرها، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلاّ مع الأطفال، وهذا ما يرويه العديد من الذين تنصروا من الجزائريين، وذلك حتى تعلن وتظهر فرنسا والمنصرين للعالم أنها لم تأتِ لتغيير الشخص العربي أو الإفريقي كما تدّعي، وإنما تلحقه بالركب الحضاري، وبالمسيح من أجل الخلاص، وبينوا للعالم أن المسيحية تنتشر في كل أنحاء العالم لا تبالي للجنس ولا للون الأفراد ولا تمس بالأشخاص وانتشاره سلمي، عكس الإسلام الذي حسب تعبيرهم لم يصل إلا بحدّ السيف[1].

لم يهتم الاستعمار الفرنسي بالتعليم بين الجزائريين من أجل أن يحصل الجزائريين على معرفة وعلم أو التحضر، وإنما رأوا في المدرسة والتدريس اللبنات، مهمة أساسية لإحياء مجد كنيسة إفريقيا، وبالتالي استرجاع المناطق المسيحية، وإنشاء نشأ قابل للتواجد المسيحي الفرنسي في المنطقة[2]. وراهنوا من أجل تحقيق مخططاتهم على الأطفال، فالكاردينال لافجري لم يضيع فرصة دون أن يوصي رجال الدين أتباعه، بأن يعلّموا الأطفـــال الجزائريين تاريخ الدين والكنيسة الإفريقية[3]. إن لافجري حضر طبعة جديدة لكتاب التربية الدينية المسيحية، ويتضمن ثلاث فصول عن الكنيسة الإفريقية تاريخها وقدسيتها، والذي استعمل في تكوين رجال الدين والمنصرين[4].

لم يغفل منصرو الجزائر عن أهمية تنصير الفتيات، فسعت المنصرات لجلب الفتيات إلى المدارس التنصيرية والاختفاء وراء ستار التعليم من أجل تلقينها المسيحية، كما عمل المنصرون على إقناع الفتيات وأهلهم على عدم تزوجهم إلا الشباب الذين زاولوا دراستهم في المدارس الفرنسية، حتى يتمكنوا من خلق البذرة الأولى لأسر جزائرية مسلمة ولكن ذات تعليم وثقافة وتصرف غربي مسيحي، يختلف عن أسلافهم[5].

(1) Amrouche Fathma: **Histoire de ma vie**, éd. Maspero, Paris 1970, pp68-70.

(2) Lesourd Paul: **Histoire des missions catholique Françaises**, imp. de l'Arc, Paris 1937, p292.

(3) Tiquet Jules: **Les colons Arabes chrétiens du Cardinal Lavigerie**: éd., maison carré, imp. des pères blancs, Alger 1936, p186.

(4) Mgr Baunard: **Le cardinal Lavigerie**, Tome II, éd. J. De Gigord, Paris 1922, p39.

(5) Lesourd Paul: **L'œuvre civilisatrice des pères blancs**, Paris 1931, p119.

وربما يعتبر هذا أخطر عمل تنصيري، أي خلق خلية أولية مهجنة أي مسلمة بثقافة ومعرفة مسيحية غربية، رافضة لعاداتها وتقاليدها، وفي بعض الأحيان حتى شريعتها.

فكان من أهدافهم تحقيق نوعين من المدارس داخل المجتمع الجزائري، وهي مدارس التعليم المهني ومدارس التعليم العام. ومن هنا نلاحظ اهتمام المنصرين بكل فئات المجتمع الصغار في التعليم التنصيري، وأما فئة الشباب فتحاول الوصول إليهم عن طريق تعليم الجزائريين بعض المهن.

أما التعليم التنصيري انقسم إلى نظامين تعليميين متمايزين، التعليم التنصيري العمومي وهو الفرع الثاني للتعليم الفرنسي العمومي العلماني (L'enseignement public laïque) وهو تحت إشراف وزارة التعليم العمومي، إلاّ أن الإدارة وهيئة التدريس كلهم من رجال الدين المسيحيين، وهو موجه إلى أبناء الفرنسيين والمعمرين من أبناء الجيش والمدنيين، وكان يغطي كافة المناطق التي يسكنها الفرنسيين. بينما التعليم التنصيري الخاص والذي يسهر على سيره الحسن الإرساليات التنصيرية، ولا علاقة لوزارة التعليم به إلاّ من حيث مسايرة التشريع المدرسي الفرنسي[1].

وهذا التعليم التنصيري ينقسم بدوره إلى قسمين: الأول موجه لأبناء الفرنسيين والأوروبيين عامة في الجزائر، وهم الذين عليهم تحمل نفقة الدراسات فيه، أما الثاني فهو خاص بالأهالي الجزائريين وهو يهتم بأبناء الجزائر، ويعرض خدمات مجانية[2]، رغم أنه تعليم خاص، أي ليس له تمويل مباشر من وزارة التعليم، وعادةً في التعليم الخاص عائلة التلميذ هي التي تتكفل بالمصاريف، إلاّ أننا نلاحظ أنه بالنسبة للجزائريين فإنه مجانًا وهذا له دلالتين وهما: أنه لا يقوم بتقديم البرامج والعلوم والمادة العلمية اللازمة، لأن ذلك يتطلب أموال، والتي لا يمكن للمؤسسة أن تصرفها على هذا العدد من التلاميذ الجزائريين، علمًا أنهم فقراء، واستبعد أن يتحمل عائلات المعمرين عبئ مصاريف الجزائريين، وهذا يوصلنا إلى الدلالة الثانية وهي أن وراء هذا المشروع هدف أعلى وأهم من الأموال التي بإمكانها جمعها، وأن الكنيسة مستعدة أن تتحمل عبئ هذه المصاريف من أجل تحقيق أهداف أكبر من الأموال وهي التنصير ونشر المسيحية في العالم.

---

(1) Repeticci Chamoine: **L'Algérie chrétienne 1830-1930**, esquisse historique, éd. notre dam, Alger, pp140-160.

(2) محمد الطاهر وعلي: **التعليم التبشيري في الجزائر**، مرجع سابق، ص ص114-115.

ومن بين الجمعيات التنصيرية التي اهتمت بالتنصير عن طريق التعليم هي ثلاثة:

- اليسوعيين (Les jésuites).
- الآباء البيض (Les pères blancs).
- منصرو الميلد ماي (Mild May)[1].

ومرّ التعليم التنصيري في الجزائر بمرحلتين مهمتين: الأولى من سنة 1830م إلى سنة 1867م، وهي المرحلة التي كان فيها الجزائريون رافضين لتعليم أبنائهم داخل المدارس المسيحية الاستعمارية، والتي كانت تفرض دراسة مادة التربية الدينية، زيادة علـــى الصبغة المسيحية التي كانت تطغى على المدارس الفرنسية، من رسومات دينية للعذراء والمسيح والصلبان المعلقة على الجدران، ما يجعل الجزائري المسلم ينفر منها من اللحظة الأولى[2].

ورغم ذلك تمكنت بعض المدارس من تسجيل بعض الأطفال الجزائريين[3]، ولكن المحاولات المباشرة وغير المباشرة لبعض المعلمين المنصرين من تنصير أبناء الجزائريين، تسبب في سخط أوليائهم وسحبهم من هذه المدارس[4]. وهي مرحلة عرفت نشاطًا تنصيريًا قليلاً عبر التعليم، خاصة أن مطارنة هذه المرحلة كانوا ذوي شخصيات ضعيفة، رغم حرصهم على العمل التنصيري ونيتهم في تحقيقه، إلاّ أن الواقع لم يمكن كذلك[5].

كما أن هذه المرحلة تعتبر انتقالية، حاولت خلالها القوات الاستعمارية البحث عن مواطن الضعف في الجزائر ولدى الجزائريين والثغور التي تتمكن الدخول منها داخل المجتمع المغلق، كما عملت في بادئ الأمر القضاء على النظام التعليمي القائم[6] حتى تتمكن

---

(1) Rambaud Alfred: **L’enseignement primaire chez les indigènes…**, op.cit, p64.

(2) Yvonne Turin: **La commune d’Alger et ses écoles en 1871**, revue historique n°496 oct-nov, éd. P.U.F., Paris 1970, p91.

(3) محمد الطاهر وعلي: **التعليم التبشيري في الجزائر**، مرجع سابق، ص ص37-40.

(4) Yvonne Turin: **La commune d’Alger…**, op.cit, p80.

(5) Agéron (G.R): **Les Algériens Musulmans et la France**, T1, éd. P.U.F., Paris 1968, p280

(6) Cahier du centenaire de l’Algérie, T2, publication du comité du centenaire de l’Algérie, éd. Dégelait, Orléans 1935, mémoire présenté par le général O. Moynier, pp12-15.

من السيطرة على هذا الميدان، وهذا لا يعني أنه ننفي وجود بعض المحاولات لإنشاء المدارس هنا وهناك عبر التراب الجزائري[1].

ومن الآباء البيض، الذين قاموا بإدارة مدرسة تابعة للبلدية، ثم استقروا في وهران سنة 1844م، وأسسوا كوليجا ضم حوالي 1500 تلميذًا[2]، وكذا الراهبات الثالوث (Les religieuse trinitaires) أشرفت ابتداءً من سنة 1849م على إدارة مدارس البلديات إلى غاية صدور قانون 30 أكتوبر 1880م والذي منع من خلاله أعضاء الجمعيات من التدريس في المدارس القومية.

نفس الشيء بالنسبة لأخوات العقيدة (Les sœurs de la doctrine chrétiennes)، اللواتي نشطت في مجال التعليم في شرق البلاد ووسطها وغربها، وكان لهم ما يقارب 18 مؤسسة بين مدارس وملاجئ عبر كل أنحاء الوطن[3].

وكذا الأب كروزا (Père Creuzat)، قام بفتح قاعة في معبده بالأربعاء للدراسة، وتمكن من جلب بعض أطفال الجزائريين لتعليمهم اللغة الفرنسية، ولكن أجبرته السلطات الفرنسية على إغلاقها، وتعتبر أول مدرسة تنصيرية في الجزائر[4].

لتأتي المرحلة الثانية والتي عين خلالها لافجري على أسقفية الجزائر[5]، والذي عرف النشاط التنصيري قفزة مهمة وخاصة في مجال التعليم، وكان له العديد من التمويلات والإمدادات للإرساليات لتتمكن من القيام بنشاطها التنصيري في الجزائر في جميع المجالات. أما الجمعيات التنصيرية التي اهتمت بالتنصير عن طريق التعليم كما سبق لي أن ذكرت، اليسوعيين، والآباء البيض والميلد ماي.

واهتم اليسوعيين بالتعليم في منطقة القبائل، فأسسوا مدارس في منطقة جرجرة، حيث وصلت أعمالهم إلى غاية تهريب أطفال الجزائيين المراد تنصيرهم إلى العاصمة

---

(1) عبد الحميد زوزو: **نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984م، ص236.

(2) نفسه، ص234.

(3) Klein (N): **Feuillets d’el-Djazair, l’enseignement à Alger depuis la conquête**, éd. Fontana, Paris 1920, p11.

(4) Antony Philippe: **Mission d’Afrique des pères blancs Tunisie – Algérie – Kabylie, Sahara**, éd. Dillen, Paris 1931, p64.

(5) ذكرت في الفصل

وحتى إلى فرنسا، وكان لهم مدرستين، الأولى في بني فرواسن وهي مدرسة الصهاريج وتأسست في 1873م، والثانية في بني يني وهي مدرسة آيت الأربعاء[1].

ورغم أن اليسوعيين كانوا السباقين في النشاط التنصيري عن طريق التعليم، إلاّ أن الآباء البيض كانوا أكثر تغلغلاً، وقد فتحوا أول مدرسة لهم في 1873م في قرية تاقمونت أوعزوز على يد الأب دي غيري (Père Deguery) ثم فتحت مدرستين، لتصل عدد المدارس في الجزائر سنة 1885م إلى غاية 7 مدارس[2]، وواصل العدد في التزايد.

كما اهتم منصرو السيدة الإفريقية بالتعليم، فكان لهم وجود في منطقة القبائل، ولكن كان لهم كذلك تغلغل في مناطق أخرى من الجزائر، كان الهدف الأساسي من تأسيس هذه الجمعية في الجزائر هو تنصير شعب المنطقة وكذا سكان القارة الإفريقية بوجه عام[3]. حيث وصل المنصرون إلى قرية تاقمونت أوعزوز في 1873م[4] لفتح ثلاث مدارس لهم في المنطقة، كما اهتموا بالمرأة عن طريق المرأة المنصرة، فأرسلت الأخوات البيض للعمل جنبًا إلى جنب مع الآباء البيض وعملهم أسفر على ميلاد أول أسرة جزائرية متنصرة في بلاد القبائل[5]، ولكن لم يتوقف الآباء البيض بمواصلة نشاطهم في منطقة القبائل، بل وصلوا إلى غاية الأوراس، والجنوب الجزائري[6]، دون أن ننسى أنه حتى التعليم التنصيري الموجه للأبناء الفرنسيين تمكن من جلب بعض أبناء الجزائريين، سواء في المدارس العمومية أو المدارس الخاصة[7].

ونظرًا لأهمية التعليم في الحركة التنصيرية، فقد أوليت من طرف الكنيسة أهمية كبيرة له، واهتمت بكل الفئات، حتى الكبار حضوا بتعليمهم من أجل الاحتكاك بهم.

---

(1) Rambaud Alfred: **L'enseignement primaire chez les indigènes…**, op.cit, p7.

(2) انظر الملحق رقم 06 الخاص بالمدارس.

(3) محمد الطاهر وعلي: **التعليم التبشيري....**، مرجع سابق، ص ص37-40.

(4) Société des missionnaires d'Afrique (pères blancs) les ordres religieux, 6ème éd. Letouzey et Ané, Paris 1924, p32.

(5) Lesourd (Paul): **L'œuvres civilisatrice des pères** blancs, éd., Desclée de Brouwer, Paris 1931, p119.

(6) Bonnet Maury (G): **L'Islamisme et le Christianisme en Afrique**, op.cit, p145.

(7) محمد الطاهر وعلي: **التعليم التبشيري....**، المرجع السابق، ص ص39-40.

كما أن التعليم المهني كان موجه بالدرجة الأولى للأيتام الذين يربيهم المنصرين داخل الملاجئ، حتى يتمكنوا من هذه المهنة كسب رزقهم والاعتماد على أنفسهم، فيتمكنوا من المحافظة على تنصيرهم.

ويمثل المعلم الركيزة الأساسية حتى يتم تحقيق مشروع التنصير عن طريق المدرسة، وأن المهمة الاستعمارية ثلاثية الأركان: الجندي، المعمر، المعلم، وربما كان المعلم من أخطر هذا الثلاثي[1]، لأن الجندي منتظر منه قساوته وقهره واستعمال أسلحته، والمعمر فإنه قادر على أخطر الخطط للحفاظ على أملاكه وحياته ومكانته التي اكتسبها في المنطقة المستعمرة، فكل هجوماته منتظرة، بينما المعلم والقس والراهب في هيئة معلم فهجومهم صامت، هادئ وخطير بنتائج وخيمة وبعيدة المدى، وحتى يتمكن من تحقيق هذه المهمة المنتظرة منه، أصبح الاهتمام بتكوينه خطوة أساسية ومهمة، فأول ما يطلب منه هو الاطلاع على الأديان والإسلام بصفة خاصة، وأن يكون له ممارسة للغة المنطقة جيدة وصحيحة، إضافة إلى الاطلاع على اللهجات المحلية، هذا دون الرجوع إلى تكوينه العلمي للتدريس والتنصير في الكنيسة أو الدير. ومهمته قائمة على قسمين مهمين:

- الدعوة إلى النصرانية ونبذ الديانات غير المسيحية بصفة مباشرة أو غير مباشرة.
- وفتح أبواب المنطقة للجيوش المستعمرة بشتى الطرق[2]، ومن أجل استغلال هذا المجال التنصيري استغلالاً صحيحًا، ونظرًا لأهميته وخطورته، اهتموا بالقائمين على هذا العمل، أي المعلمين، الذين سيتحملون مهمة التنصير المباشرة، لأنه سيكون على اتصال دائم وطويل بهؤلاء الأطفال داخل المدارس بأنواعها، ولذلك كان شرطهم أن يكون المعلم في هذه المدارس المسيحية التنصيرية، مسيحي العقيدة في بداية الأمر، حتى يتمكنوا من السيطرة على هذا المجال، ولا يكتفون بعقيدته المسيحية، بل وجب عليه تطبيق المسيحية في حياته الاجتماعية اليومية، وأن يقدمون القسم على أن تسيير هذه الدروس والأعمال من أجل تحقيق هدف وغاية واحدة هي التنصير، أي قبوله مهمة التنصير بين جدران قسمه[3].

---

(1) Yvonne Turin: **La commune d'Alger…**, op.cit, p.93.

(2) Mgr Baunard: **Le cardinal Lavigerie**, Tome I, éd. Paris 1922, préface, p4.

يقول: «إن الكاردينال لافجري دخل تونس قبل أن يدخلها جنود فرنسا، ويقول في الجزء الثاني من نفس الكتاب في الصفحة 223 كان حضوره إلى تونس يقدر بجيش كامل بالنسبة إلى فرنسا...».

(3) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص67.

ففصلوا المدرس الأجنبي على المدرس الوطني، وإن استدعت الحاجة للاستعانة بالمدرس الوطني لا بد أن يكون مسيحي وله ميول للتنصير، أي ما كان يسمى بالتنصير الذاتي، ويعني أن يعمل المتنصرون من المنطقة الدعوة إلى النصرانية بين أهلهم وذويهم حتى يسيروا على نهجهم، ولقد شجع بعض المنصرين التنصير الذاتي وذلك كما جاء على لسان اليسوعيين عندما سئل أحدهم عن الهدف من تكوينه للملقنين للديانة المسيحية Catéchistes ردّ قائلا: «... إذا حدث وأن مات كل القساوسة فإن المسيحية ستبقى حية بواسطة هؤلاء...»[1]، وأهم مجال استخدم فيه التنصير الثاني هو التعليم في مدارسهم[2].

وهذا ما يتأكد عندما نراجع قوائم أسماء الأساتذة الذين اشتغلوا في مدارس الإرساليات والتنصير، نجد أن معظمهم حتى لا نقول كلهم مسيحيين[3]، من خارج أو داخل الوطن مشبعين بالفكر التنصيري، كما نجد أن هذه المدارس تستغني قدر الإمكان عن المدرس المسلم، لأنه إذا كان هذا المعلم ذو أخلاق طيبة، أو منهجية صحيحة، وشخصية قوية يمكن أن يكون له أثر عميق في نفوس الأطفال، فسيؤثر إسلامه بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، ما يتنافى مع أهداف مدارس الإرساليات التنصيرية، وهي خلق جيل مسيحي العقيدة أو التصرف، أي أن يكون مشبع بالثقافة وأخلاق المجتمعات المسيحية حتى تضمن ارتباطها بالكنيسة والغرب[4].

ولهذا السبب كانت لا تستغني عن المسلم إلاّ في حالات نادرة، وفي هذه الحالات تشترط فيه أن يكون هذا المعلم ذو شهادة غربية، أو درس في المدارس المسيحية، بينما في المدارس اليسوعية ممنوع أن يعمل فيها المدرس المسلم إطلاقًا[5].

واستعملت البعثات التنصيرية الأخرى بعض المسلمين الذين تتوفر فيهم شروطهم إلى بعض القرى والمناطق البعيدة، حتى تكون مرحلة إقناع الناس أسهل لأنه ابن ملتهم[6]، فيخلق مناخ ثقة، يتمكن هذا المعلم إثره إقناع المسلمين من إرسال أبنائهم.

---

(1) Forey Joseph: **Du système des patronats à la congrégation 1949 de la propagande**, revue Rythme du monde 1949, Paris 1949, p.31.

(2) **Mission d'Afrique des pères blancs**, bulletin bimensuel n°175, janvier-février, éd. par la procure de Paris des missions d'Afrique, Paris 1903, p403.

(3) A.O.M. code: 41300, p431.

(4) Mgr Baunard: **Le cardinal Lavigerie**, Tome I, op.cit, p296.

(5) محمد الطاهر وعلي: **التعليم التبشيري في الجزائر**، مرجع سابق، ص120.

(6) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص201.

ونلاحظ أنه بمجرد وصول الإرساليات التنصيرية للمناطق المراد القيام بالنشاط التنصيري فيها، أو المراد استعمارها، تقوم السلطات الدينية المسيحية من إنشاء مدارس لتكوين المعلمين المنصرين، ما حدث في الجزائر مثلاً، حيث تم إنشاء معاهد لتكوين المنصرين في العشرية الثانية من عمر الاحتلال، فتأسست لهذا الغرض، معهدان، الأول في سان أوجين (بولوغين حاليا)، وكان يسمى السيمينار الصغير[1].

والثاني بالقبة، يسمى السيمينار الكبير، في عهد الأسقف بافي (Pavy)، إلاّ أن الاهتمام الكبير بالتعليم كان في عهد الكاردينال لافجري، حيث كان التكوين العالي لرجال الإكليروس شغله الشاغل، فعمل على تطوير البرامج وامتحانات القساوسة الشباب وعمل على رفع المستوى الفكري[2].

خاصة وأن فكرة تنصير الجزائر وإفريقيا، راودته منذ أن استلم منصب أسقفية الجزائر من جهة، وكذا استجابةً إلى حاجة المدارس العمومية والخاصة الموجهة لأبناء المعمرين، وتكوين المنصرين أو المعلمين داخل البيئة المراد تنصيرها، وكذا واحد في وهران وآخر في قسنطينة، وثلاثة معاهد للمنصرين المبتدئين واحد للذكور كان مقره الأبيار، ثم نقل إلى الحراش ثم إلى العطاف (الشلف)، والثاني للإناث ومقره القبة، ثم انتقل إلى بوزريعة ثم أعيد إلى القبة واختص في تكوين المنصرات، وآخر للفتيات في قرطاج، وكل هذه المعاهد يتخرج منها ما يسمى الإخوان والأخوات المنصرين. وكذا معهدان لتكوين الآباء ويقع بتونس، وكل هذه المعاهد تابعة لجمعية السيدة الإفريقية، ومن هنا يظهر مدى اهتمام الكنيسة بتكوين المعلمين المنصرين[3].

أما تكوين المنصرات كان من أجل استهداف الفتاة والمرأة المسلمة داخل مجتمعها حتى يتسنّى لهم ضرب الإسلام، إدراكًا منهم لدور المرأة في المجتمعات الإسلامية من تربية وتكوين النشأ الذي يستقبلونهم في مدارسهم، فإذا تمكنوا من تنصير الأم، أو حتى تشكيكها في ديانتها دون أن تتنصر، يكفي من أجل تحقيق مخططاتهم التنصيرية بمجرد وصول هذا الطفل إلى مدارسهم[4].

---

(1) وكان في مقر القنصلية الفرنسية في الجزائر خلال العهد العثماني، انظر:
Le cardinal Lavigerie: **Œuvres pastoral**, 3ème vol, imp. Joudan, Alger 1878, contre rendu au pape.

(2) Repeticci Chamoine: **L'Algérie chrétienne…**, op.cit, pp179-180.

(3) انظر الفصل الخاص بتكوين المنصرين.

(4) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص125.

أما بالنسبة للمناهج المطبقة والتي هي بدورها تعتبر جناح مهم من برنامج أو خطط التنصير عبر التعليم، كانت مدروسة بدقة من أجل تطبيق الأهداف.

فعندما فتحت هذه المدارس في بدايتها اقتصر تعليمها على تدريس التوراة والإنجيل، لأن هدفهم الأساسي هو التنصير، ورفضت التقيد بالمناهج الرسمية، والتي تفقدها صبغتها التنصيرية وتعتمد مناهج وبرامج خاصة بها، تخدم مخططاتها التنصيرية بالدرجة الأولى، والاستعمارية المباشرة وغير المباشرة بالدرجة الثانية.

وكانت هذه البرامج تعمل على نشر وترويج أفكارهم وآرائهم النصرانية الغربية، وهذا ما أشار إليه المستشرقون أنفسهم: «... لنبتهل إلى الله في سبيله تعميد نفوس هؤلاء الشباب الذين يترددون على كليات»[1]، وكانت هذه البرامج تعتمد أساسًا على كتب التدريس، بعد التوراة والإنجيل، فتحت مجال أمام تدريس التاريخ والجغرافية والتأكيد على العلاقة بينهما وبين التنصير، أي أن كل مادة تدرس لا بدّ أن تستعمل بطريقة أو بأخرى من أجل التنصير، وذلك لأنه لم يكن من الممكن التدريس دون إدخال العلوم الحديثة، كالرياضيات، الكيمياء والحقوق، والاقتصاد وما يشبه ذلك، وعن طريقها استعملت هذه المدارس وسيلة جديدة، وهي ضرب الإسلام والتاريخ الإسلامي.

ومن بين ما يميز الكتاب المدرسي، خاصيتين مهمتين: الأولى تتعلق بالنص التربوي، بمعنى أنه لا يكتفي بإعطاء المعلومة، وفي نفس الوقت يعمل على التكوين الفكري للطفل، وهذه هي النقطة التي اهتم بها المنصرين، حتى يكون الكتاب وسيلة للتنصير، والخاصية الثانية هي الشرح الذي يكون حول النص المدرسي والذي يعمل المعلم على إعطاءه قراءة معينة تخدم مخططاتهم[2].

ومن بين الكتب التي استعملت خلال مرحلة التدريس، كتاب بعنوان: "البحث عن الدين الحقيقي" وهو عبارة عن محاضرات في التعليم الديني، تأليف رجل الدين كولي، وقد أصدر عن اتحاد مؤسسات التعليم المسيحي في باريس عام 1928م، وقد حضي برضا ليون الثالث عشر في عام 1887م، وقد استعمل في المدارس المسيحية، وقد جاء في

(1) كتبه المنصر المستشرق هنري هيرس جسب إلى ستوارت دودج في الخامس من جانفي 1970، للمزيد انظر: طلال العترسي: **البعثات اليسوعية**، مرجع سابق، ص123.

(2) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص ص71-72.

صفحته 220: «الإسلام: في القرن السابع الميلادي برز في الشرق عدو جديد، وذلك هو الإسلام والذي أسس على القوة وقام على أشد أنواع التعصب، ولقد وضع محمد السيف في أيدي أتباعه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ثم سمح لأتباعه بالفجور، والسلب، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات، لتصبح آسيا الصغرى وإفريقيا وإسبانيا فريسته، حتى أن إيطاليا هددها بالخطر، كما اجتاح نصف فرنسا ولكن تمكن شارل مارتل أن يقف سدًّا في وجه سير الإسلام عند بواتي في سنة 856م في معركة حصن العقاب ثم تعمل الحروب الصليبية على مدى قرنين تقريبًا (1099-1254م) في سبيل الدين فتدجج أوروبا بالسلاح وتنجي النصرانية، وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب وانتصر الإنجيل على القرآن وعلى ما فيه من قوانين»[1].

من خلال هذا النص الذي يوضع بين أيدي أطفال، سيكون له أثر عميق على الأطفال المسيحيين أولاً، أما بالنسبة للأطفال المسلمين سيخلق لديهم لبس وشكوك تجعلهم يتساءلون على كل موروثهم الديني، ويقابل هذه التساؤلات والشكوك المعلم المنصر، القوي الشخصية والذي بهدوئه سيعمل من أجل جلب هذا الطفل المرتبك إلى برّ آمن وهو المسيحية، مجيبًا على تساؤلاته من زاوية معينة، هذا النوع من الكتب الذي ألف من طرف الغرب المسيحي حول الشرق الإسلامي، كان يدرس في كل مدارس الإخوة المسيحيين في كامل البلاد الإسلامية، وهو يمثل خطر كبير على المجتمعات الإسلامية، لأن غايته ليس التمسيح فحسب بل خلق الشك، والريب في نفس المسلم الصغير، وشك هذا الطفل سيتمكن بعد مدة من الزمن أن يخلق فتن في المجتمعات.

وهناك كتاب آخر يدرّس في المدارس الكاثوليكية هو: تاريخ فرنسا للكاتبين ج. إيزاك و أ. ألبا، طبعة مطابع الآداب الفرنسية بيروت[2]. وما جاء في هذا الكتاب في الصفحة 31: «واستطاع محمد من خلال رحلاته التعرف على القليل مما جاء في عقائد اليهود والنصارى، ولما وصل الأربعين، أخذت تتراء له الرُؤى، أقنعته بأن الله اختاره رسولاً».

---

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، المرجع السابق، ص ص72-75.

(2) Tiquet Jules: **Les colons arabes chrétiens du cardinal Lavigerie**, imp. Des pères blancs, maison carrée, 1936, p161.

وفي الصفحة 32: «القرآن هو عبارة عن مجموع ملاحظات كان تلاميذه يدونونها بينما كان هو يتكلم، وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الإسلام بالسيف إن اقتضت الضرورة». وفي الصفحة 36: «... وبينما كان محمد يعظ المؤمنون به يدوّنون كلماته على عجل». وفي الصفحة 162: «ودخلت فلسطين في سلطان الكفرة – وهنا يقصد بالكفرة المسلمين – منذ القرن السابع الميلادي».

كما يوجد كتاب آخر يستوجب التوقف عنده، ألا وهو تاريخ فرنسا، تأليف ه. غيرمان و ف. لوستر، وكان موجه لصفوف الشهادة الابتدائية[1]. وقد جاء في صفحتيه 80 و 81 مثلاً: «إن محمد مؤسس دين المسلمين وقد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم، وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو، ما أعظم الفرق بين الوثنيين والنصارى». إن العرب قد فرضوا دينهم بالقوة على الناس: «أسلموا أو تموتوا، أما أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم وإحسانهم، ماذا كان حال العرب لون أن العرب انتصروا عليها، لكنَّا نحن اليوم مسلمين كالجزائريين والمراكشيين»[2].

وما يمكن استنتاجه، هو أن هذه الكتابات رغم أنها كتبت في الفترة المعاصرة، إلاّ أنها لا تبتعد في طريقة طرحها للكتب الكنسية للقرون الوسطى الرافضة للإسلام، فنجد الكتب الثلاث تؤكد على العنف الذي يتصف به المسلمين في نشر دينهم، كذا طريقة تدوين المسلمين للقرآن فيذكرون لفظ "على عجل". وكأنهم يلمحون لإمكانية النقل الخاطئ، أي إدخال اللبس والشك في القلوب، وهذا الريب كافي لخلق فتن متنوعة، وزعزعة العقيدة في قلوب الأطفال المسلمين الذين يدرسون في هذه الكتب، خاصة وأن هؤلاء الأطفال عادة ما يكونوا إما من وسط فقير أو يتامى إذاً ليس لهم بديل في بيوتهم ما يمكن أن يثبت عقيدتهم.

وأصبحت هذه المفاهيم والعبارات متداولة بين أبناء العالم الإسلامي، في مدارس الإرساليات المسيحية بأنواعها، معلنين أنهم أتوا من أجل تهذيب النفوس وتعليم الأجيال، وتحضير الشعوب.

---

(1) Guillemain H. et Lester F.: **Histoire de France**, du cours moyen au certificat d'études, éd. les éditions des écoles, Paris, p73.

(2) Tiquet Jules: **Les colons arabes…**, op.cit, p162.

وبذلك فإن الخدمات التعليمية التي قدمها المنصرون لأبناء العالم الإسلامي، كانت تهدف كلها إلى تحقيق غاية واحدة وهي تنصير الأطفال الذين يدرسون في المدارس التنصيرية، والبرامج والكتب التي استعملت ما هي إلاّ وسائل لتحقيق مخططاتهم التنصيرية[1].

وقسم التعليم في المدارس التنصيرية، إلى تعليم ابتدائي أولي، وتعليم ابتدائي عالٍ، وكانت المرحلة الابتدائية محور التعليم العام في المدارس التنصيرية، وهي لا تحدد السن، حيث تقبل كل الأطفال ثم تقسمهم حسب السن إلى ثلاث فئات:

- فئة الصغار وتلقنهم الحروف اللاتينية.
- الفئة المتوسطة تتعلم المبادئ الأولى للنحو والحساب.
- أما فئة الكبار برنامج شبيه بما يطبق في المدارس الحكومية[2].

وكان التعليم يقسم إلى اثنين، أحدهما نظري والثاني تطبيقي، ووصل الحجم الساعي للدراسة 8 ساعات، ويحبذ المنصرين بقاء التلاميذ أكبر وقت ممكن في المدرسة حتى يبقوا تحت المراقبة المستمرة، فيخصصون وقت للمطالعة، ومراجعة الدروس، وهذا ما جعلهم يؤسسون المدارس الداخلية، حتى يكون التأثير على التلميذ بشكل فعال في مجال دعوتهم إلى المسيحية[3].

وكانت شهادة الأهلية بالنسبة للمدارس التنصيرية تختلف بين التلاميذ المسيحيين والمسلمين، ففي الجزائر مثلاً، كانت هناك شهادة الابتدائية الخاصة بالأهالي (Certificat d'études indigène) والتي كانت تسمح للحاصل عليها العمل كممرن (أهلي) Moniteur في مجال التعليم، وكان برنامج الشهادة الابتدائية الأهلية يتضمن المواد التالية[4]:

- اللغة الفرنسية وتشمل القراءة والخط والمبادئ الأولية والمختصرة في النحو والصرف والإملاء والتعبير الشفهي.
- الحساب: ويشمل العمليات الأربعة والقاعدة الثلاثية والمبادئ الأساسية للنظام المتري.

---

(1) Tiquet Jules: **Les colons arabes...**, op.cit, p166.

(2) Rambaud Alfred: **L'enseignement primaire chez les indigènes…**, op.cit, p60.

(3) Ibid., p61.

(4) A.O.M. dossier 1I 144, instruction publique, décret du 13 février 1883, article 31.

– التاريخ والجغرافية: وتحتوي هاتان المادتان معلومات مختصرة عن تاريخ وجغرافية فرنسا.

– اللغة العربية أو اللغة المثلية: كتابتها وقراءتها.

وكانت تضاف للبنات الخياطة والرياضة والأشغال اليدوية مادتان اختياريتين بالنسبة للذكور [1].

أما التعليم الثانوي فقسم إلى 4 أقسام:

– التعليم الثانوي الكلاسيكي: ويتضمن دراسة الفرنسية، العربية والإنجليزية، التاريخ والجغرافية، الرياضيات، الفيزياء والعلوم الطبيعية والفلسفة، ويتقدم الطالب في نهاية العام الدراسي لدورتي البكالوريا الفرنسية (فلسفة – آداب وفلسفة – رياضيات)[2].

وتعين المفوضية الفرنسية مسؤولي الامتحانات يشرف عليها جامعيون من فرنسا، ويتطابق التعليم فيها مع برنامج التعليم الفرنسي. أما بالنسبة للتعليم الخاص فيكون قريب من التعليم الكلاسيكي ويسمح لطلابها التقدم إلى امتحانات البكالوريا اللبنانية بفرعيها، أدبي وعلمي، يعطي التعليم الخاص أهمية كبيرة للغات خاصة الفرنسية والعربية، إذ يشرف عليها أستاذ خاص[3].

هناك الدروس التحضيرية للكليات العليا، وتخص الذين لم يتمكنوا من متابعة دراستهم، وتؤهلهم للتقدم من امتحانات القبول في كليات الطب والصيدلة والحقوق والهندسة الفرنسية، ومدة الدراسة فيها سنة واحدة. أما بالنسبة للصفوف التمهيدية فهي السنوات الابتدائية.

لقد حملت المدارس التنصيرية أهدافًا تتكامل فيما بينها، وهي نشر الثقافة الفرنسية، وسيطرة لغتها وأفكارها في إعداد النخبة القائدة، والتي يعتبر الهدف الرئيسي، لأن إعداد نخبة مسيحية يسمح لهذه الجماعة بتطبيق خططهم وهي السيطرة على المناطق، حيث تتمكّن هذه الجماعة التي أثقل كاهلها النير الإسلامي من التحضر شيئًا فشيئًا، وقد أعد

---

(1) Amrouche Fathma: **Histoire de ma vie**, op.cit, pp37-38.

(2) نفسه، ص ص40-41.

(3) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص129.

المرسلون لساعة الحرية طبقة وسطى قادرة على انتزاع الفائدة، ونخبة ذكية مثقفة ومؤهلة لقيادة الأمم المحرّرة، ولكن هذه النخبة لن تبقى هكذا إلاّ إذا تم السيطرة عليها[1].

وبمساعدة الحكومة الفرنسية تمكّن المنصرون من تحقيق ذلك، حيث أعدّت مدارسهم وجامعاتهم نخبة المسيحيين، الذين التحقوا بالتعليم العالي وهي التي تضم قادة إنسانيين المستتيرين الأوفياء لفرنسا على حد تعبير أحد القناصل: «التي ستقود الأمم المحررة»[2]، والمقصود من التحرر هنا هو من الإسلام الذي يعتبرونه ويحاولون الإقناع أنه الحاجز أمام هذه الأمم لتتحرر من الجهل والتخلف.

وهذا ما يؤكده بول هوفلان (Paul Huvelin): «... إن تعليم الناس لغتنا لا يعني ألفة أفواههم على الفرنسية، وآذانهم للصوت الفرنسي، وإنما يعني فتح نفوسهم على الأفكار الفرنسية، وعلى العواطف الفرنسية، وأن نجعل منهم فرنسيين من ناحية ما... هذه السياسة تؤدي إلى فتح البلاد بواسطة اللغة[3]. فكانت المدرسة التنصيرية تفرق لا توحد، وتعمق الانقسام في الانتماء التاريخي.

ما يمكن ربما استنتاجه، أن جميع هذه المدارس والجمعيات والمعاهد والكليات الأجنبية المنتشرة في الوطن العربي والإسلامي، عملت على تشتيته، وتفرقته وباعدت بين أهدافه، كما يمكن اعتبار التعليم قوة عظيمة، إن صحّ استعمالها وتأطيرها، يمكن أن تكون أهم سلاح تدمير شامل من الداخل، إذ كانت في أيدي أجنبية مسيحية، تتلاعب به حسب أهدافها وغاياتها، فربما تعليم وطني واحد وموحد ولو كان ناقصًا، أحسن من تعليم أجنبي متنافر ولو كان كاملاً.

حيث أهم خطوة عند المنصرين من أجل تطبيق أهدافهم هي تحضير الأرضية، ولن يتحقق ذلك إلا بزرع الشكوك والريب حول الموروث الديني العقائدي القائم في المنطقة، وكان التعليم عبر برامجه المخططة بدقة وعمل معلميه الذين حضوا بتكوين خاص، الوسيلة الوحيدة الأكثر نجاحًا، حيث تجعل أبناء هذه البلاد الإسلامية أشباه بأبناء فرنسا نفسها في المظهر واللغة وأسلوب التفكير والتعلق بفرنسا، وأنهم يتقنون ويعرفون تاريخ وجغرافية وثقافة فرنسا أحسن من تاريخ وجغرافية وثقافة بلادهم.

---

(1) Louis Jalabert: **La conquête missionnaire…**, op.cit, pp334-335.

(2) أرشيف الوزارة الخارجية الفرنسية، رسالة من قنصل فرنسا في بيروت، 17 ماي 1861م.

(3) Paul Huvelin: **Congrès Français sur la Syrie**, op.cit, pp7-8.

وبذلك فقد أساؤوا إلى أشرف وأنبل مبدأ فوق الأرض وهو العلم، باستعماله من أجل التنصير، وليس ذلك فحسب، بل من أجل خلق كل أنواع التشتت والتفرقة والفتن، لأن الأب لما يتخذ قرار وضع ابنه في إحدى المدارس، ظنًّا منه أنه وضعه بين أيدي أشرف وأنبل الأشخاص، أي المعلم.

بينما كان اهتمام المنصرين بإنشاء مراكز للتعليم والتكوين المهني، من أجل استيعاب أكبر عدد ممكن من الشباب، ولها برامج مهنية، وأخرى ثقافية، حتى التي تخص المجتمع والدين والأدب، ومن خلال هذه الدروس تنفذ مخططات التعاليم النصرانية، حيث يقول زويمر في مؤتمر القدس عام 1935م، لقد تمكنا من السيطرة أيها الإخوان في هذه الحقبة، ثلث القرن 19م على كل البرامج التعليمية في الممالك الإسلامية المستقلة، أو التي تخضع للنفوذ المسيحي، ونشرنا في تلك المناطق مكامن التنصير المسيحي والكنائس والجمعيات، وفي المدارس والمراكز ولدى الشخصيات[1].

أما بالنسبة للتعليم العالي أنشأت الكليات والجامعات والمعاهد العليا، داخل المجتمعات المسلمة، وأحسن مثال على ذلك الجامعات الأمريكية الفرنسية والتي انتشرت في المشرق الإسلامي، من أجل التنصير، وخدمة الوجهة الغربية وهي عميلة لدى الحكومات المدعمة لها، ويتخرج من هذه المؤسسات التعليمية أعداد كبيرة من شباب المسلمين، كما ساهمت بعثات التعليم في وضع مناهج وبرامج تربوية للمراحل العليا، وأخذوا مهمة إضعاف المؤسسات التعليمية الإسلامية الموجودة في البلاد.

3 – الأعمال الخيرية والتنصير:

اهتم دعاة الإنسانية والرحمة بالمريض والجريح والأزمات داخل الشعوب المراد تنصيرها، من أجل اغتنام فرصة للتنصير. فاستعملوا الطب والعلاج والأعمال الخيرية، فاستغلوا الكوارث الطبيعية والإنسانية من حروب وزلازل، فيضانات، لتنتقل إثرها الجمعيات التنصيرية إلى المواقع المكتوبة لمساعدة المتضررين، بهدف إعطاء الصورة الجميلة والنظيفة والإنسانية للنصرانية والمنصرين.

---

(1) عبد الله تل: **جذور البلاء**، دار الإرشاد، بيروت، 1971، ص ص275-276.

وهذه الوسيلة ليست وليدة العصور الأخيرة، وإنما تعود إلى وقت العصور الوسطى والحروب الصليبية، أين كانت ترافق الجيوش جعميات رجال الدين من نساء ورجال من أجل إقامة الماريستانات ومعالجة الجرحى، ثم بعد انتهاء الحرب وانجلاء الجيوش تبقى هذه الجمعيات وراء ستار الطب والتطبيب في هذه المناطق وتمارس نشاطها الأصلي وهو التنصير وتستقر في المنطقة وهناك عدة أمثلة[1].

وتواصلت هذه الطرق في العصور الحديثة وما بعدها واهتموا بالعمل الخيري من أجل تنصير الشعوب، فحاولوا من خلال ذلك نقل طريقة عيشهم الاجتماعية إلى عالمنا الشرقي المحافظ عن طريق الأعمال الخيرية، من أجل فتح أبواب جديدة للتنصير والسيطرة لم يتوصل إليها المنصرين من قبل، نظرًا للعرف القائم عليه المجتمع الإسلامي[2].

وبناء عليه، عمل المنصرون على خلق عدة مناسبات، يلتقي فيها الناس خارج أوقات العمل من أندية أدبية وسياسية، رياضية وغيرها. فحاولوا تطبيق مبادئ المسيحية في جميع العلاقات الإنسانية، وبما أن الإسلام يمتلك كل ما يلبي الحاجيات الاجتماعية للمسلم، وجب محاربته بالأسلحة الروحية، ويجب أن ترافق النشاطات الخيرية والاجتماعية التعليم التنصيري ليتمه[3].

وتكون هذه الأعمال من خلال المعاملات والاحتكاك يوميًا بأفراد هذا المجتمع والتي من خلالهم ستتطور هذه العلاقة لتفتح أبواب مجالات أكبر وأهم، ولهذا وجب أن يكون هذا العمل الخيري على أسس مدروسة حتى يكون له نتائج، وأخذوا على عاتقهم مهمة الوصول إلى المجتمع الإسلامي، وممارسة نشاطهم التنصيري دون أن يتفطن المسلمين لذلك.

فركزوا أعمالهم الخيرية على المظاهر، فيهتمون بأحوال الناس، فيزوجون الشباب، يحاربون تشغيل الأطفال، إصلاح أحوال العمال، الاهتمام بصحتهم والرفق بالحيوان، ولكن هذا ظاهرًا من أجل إظهار الصورة الجميلة للمنصر، وفي الواقع ليس هناك إصلاح

---

(1) جميل مدبك: **موسوعة الأديان في العالم، المسيحية**، ط1، مرجع سابق، ص25.

(2) إبراهيم عكاشة علي، **ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي**، مرجع سابق، ص ص32-33.

(3) أنور الجندي: **الاستعمار والإسلام**، دار الأنصار للطباعة والنشر، القاهرة، ص ص18-19.

حقيقي، فإنهم كانوا يختارون الفئة التي يتعاملون معها والتي تكون في تصرفاتها قريبة للمجتمع الغربي، فتحاول من خلالهم إظهار العمل الخيري حتى تتسلل إلى داخل الجماعات المسلمة[1].

كما أن المسلمين يعلمون ومتيقنون أن مساعدة المنصر لهم ليس من أجل فعل الخير، وإنما من أجل التنصير، حيث يقول أحد المنصرين: «... إنني أحاول أن أنقل المسلم من محمد إلى المسيح، ومع ذلك يظن المسلم أن لي في ذلك غاية خاصة، أنا لا أحب المسلم لذاته ولا لأنه أخ لي في الإنسانية، ولولا أنني أريد ربحه في صفوف المسيحيين لما تعرض لمساعدته...»[2]. ومن هذه المقولة يتبين لنا أهمية الإحسان والنشاط الاجتماعي لدى الحركات التنصيرية، رغم ذلك فإن الأعمال الخيرية يجب أن تستعمل بحذر، وتمنح أو تخص، للذين فيهم أمل الالتحاق بالكنيسة[3].

لأن هذه الأعمال الخيرية التي جاءت من أجل الاهتمام بأفراد المجتمع الإسلامي، لا تجعلهم نصارى – ما عدا القليل – ولكنهم يصبحون مسلمين يختلفون عن آبائهم، والملاحظ أن المنصرين ساروا على نفس المنوال في كل بلاد العالم الإسلامي، سوريا، مصر، شمال إفريقيا وغيرهم، وهذا يدل على وحدة فكرة السيطرة عن طريق التنصير. وأصبحت الحركات التنصيرية تتذرع بالنشاطات الخيرية الاجتماعية والمساعدات بكل أنواعها من أجل الوصول إلى غايتهم التنصيرية الاستعمارية، وحتى ننظر إليها على أنها مساعدة مالية واجتماعية للفقراء والمرضى واليتامى، ويدّعون أن هذه الأعمال إنسانية، وما يمكن استنتاجه أن المنصرين يهتمون بالجانب الاجتماعي من أجل تنصير الفرد داخل مجتمعه حتى لا يحس نفسه غريب داخل مجتمعه، ويكون تنصير المجتمع بالاهتمام بكل فئاته، وتبدأ كما رأينا بالمدرسة والتعليم بكل مراحله، أي من دور الحضانة حتى الوصول إلى الجامعات والمعاهد العليا، ثم الشباب، والفقراء والمرضى، اليتامى، والعجزة، والمرأة، وبالتالي الاهتمام بكل هذه العناصر تصبح عملية التنصير كل متكامل.

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص182.

(2) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص193.

(3) نفسه، ص194.

شدّت المرأة وتنصيرها اهتمام الإرساليات التنصيرية في العالـــم الإسلامـــي، والتي تعتبر المنفذ الرئيسي للوصول إلى داخل الأسرة المسلمة، لأن الفرد المسلم يقضي أهم سنوات عمره في حضن هذه المرأة، فتنقل له كل موروثها الحضاري والعقائدي الديني[1].

وعليه، عملوا على اختلاق فتن حول قضايا المرأة في الإسلام، الطلاق، تعدد الزوجات، العصمة، الميراث، تعدد زوجات الرسول، وغيرها، وبالمساس بهذه المرأة وجعلها قضية جدال وحوار، فإنها ستخلق اختلال في توازن المجتمع بما أنها تمثل نصفه، فتمكن المنصرين من إدخال على المجتمع الإسلامي فتن لتدخله في دوامة من البحوث والجدالات منشغلاً بها لإيجاد حلول لهذه المشكلات، ما فتح المجال للفرقة والتعصب، ولعل ما كان أخطر على المجتمع الإسلامي فيما يخص هذه القضايا هو أن مجموعة كبيرة من المثقفين في العالم الإسلامي، انقادوا وراء هذه القضايا، وتبنوا أفكار المنصرين وأصبحوا ينادون بها[2].

ومن هنا، خلقت فجوة جديدة داخل المجتمع الإسلامي، أي بين فئاته وأطيافه، وبين الرجل والمرأة، وهذا التشتت يخدم مخططات القوى الاستعمارية، حتى يصبح من السهل التسلل إلى داخله والسيطرة عليه. فكتب عن تحرير المرأة قاسم أمين فأثار كل المشكلات التي نادى بها المنصرين والتي لا علاقة لها بالمجتمع الإسلامي، ولا وجود لها، كما أنه نادى بفكرة أنه من الضروري على المرأة المسلمة أن تمشي على نحو المرأة الغربية المسيحية المنشأ، وخاصة الفرنسية منها، وأنها وجب عليها رفض فكرة تعدد الزوجات، والمطالبة بحقها في الطلاق وكذا ضرورة إعادة النظر في حقوقها في الميراث، رغم أن هذه الأفكار لها شرح مقنع، من أجل حماية المرأة، ولكن هذه القناعات الدينية تحصل عليها المرأة، خلال نشأتها داخل أسرتها المسلمة، وداخل مجتمعها المسلم، ولهذا عمل المنصرين على إيجاد طرق من أجل السيطرة على المرأة منذ صغر سنها[3].

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص182.

(2) علي بن إبراهيم الحمد النملة، **التنصير مفهومه...**، مرجع سابق، ص45.

(3) قاسم أمين (1865 - 1908م) أصله كردي، اشتهر بتبنيه الدعوة لتحرير المرأة، من كتبه: تحرير المرأة والمرأة الجديدة، انظر: **الموسوعة العربية الميسرة**، إشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين، القاهرة، ص1361.

فاهتموا بتدريس المرأة، ليس من أجل تعليمها، وإنما من أجل إخراجها من وسطها الديني، التي تكبر فيه، حتى يتمكنوا من زرع في ذهن البنت أو الفتاة الصغيرة كل الأفكار الغربية المسيحية، والتي تختلف وفي بعض الأحيان تعاكس تمامًا عاداتها وتقاليدها[1].

وهذا ما نادت به معظم المنصرات في المؤتمرات المتعدّدة، ففي مؤتمر القاهرة أكدت المنصرات على ضرورة جلب النساء المسلمات إلى المسيحية، ولا سبيل للسيطرة على المجتمع الإسلامي دون ذلك، وأن عدد المسلمات كبير، وعلى الإرساليات الموجودة مضاعفة العمل، والحل هو جلب فرع نسوي في كل الإرساليات، والجمعيات من أجل كسر هذا الحصن المتين[2]، عملت المنصرات على ترويج أفكار مفادها أنه لا يمكن للمرأة المسلمة أن تتحرر بسبب إسلامها، فهي تخاف من زوجها ومن موته، ومن الطلاق، وأن المرأة ليس بإمكانها العيش دون وجود رجل إلى جانبها أي إمـا الأب أو الأخ أو الزوج[3]، وكل هذه الأفكار من أجل خلق في ذهن هذه المرأة المسلمة ضرورة التحرر من الرجل وسيطرته، فتصبح المرأة المسلمة تتبنى ذهنيات وتصرفات المرأة الغربية المسيحية، ظنًا أن الإسلام قد فرض عليها السيطرة، وبهذا تكون المنصرات حققن غايتهن من ترويج هذه الأفكار وهي خلق فتيات مسلمات ولكن بصفات وهيئة وتصرفات غربية لا علاقة لها بإسلامها الذي منحها الحرية التامة والحماية، وفضلها عن الرجل.

وهدف المنصرات من نشر هذه الأفكار، ليس مساعدة المرأة، وإنما إخراجها من حلقة مجتمعها، فتصبح وحدها وبإمكانهم السيطرة عليها فكريًا، فضعفها يجعلها فريسة وعرضة لكل أخطار الحركات التنصيرية من جهة، ومن جهة أخرى إثارة عاطفة الأغنياء من المسيحيين الغربيين، حتى يتبرعون بالأموال والإمدادات لمساعدة هذه المرأة وإخراجها من الظلم والسيطرة التي تعيشها هذه المسلمة بسبب إسلامها والذي كبّلها بالعقيدة والعادات والتقاليد[4]، على حد تعبيرهم.

وهذا ما لخصه مؤتمر قسنطينة بالجزائر، الذي اهتم بطرق التنصير بين النساء المسلمات، ومن أجل تحقيق ما توصلوا إليه وجب بناء بيوت أو ملاجئ للنساء المسلمات،

---

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص197.

(2) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص ص20-21.

(3) نفسه، ص22.

(4) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، المرجع السابق، ص206.

الأرامل والمطلقات، تستعمل كملاجئ تتعلم فيه النساء حِرَف تعيش منها، وتمنحهم الأمن والدفء العائلي، وتبقى في هذه البيوت مدة معينة، تصبح خلالها الراهبات والمنصرات مثال لهذه النسوة والفتيات، من حيث الأخلاق والأعمال وبالتالي يصبح الإنجيل وتعليماته متبع من طرف المسلمات حتى دون علمهم[1].

وشيئًا فشيئًا يتم إقناع بعض هذه الفتيات وجلبهن إلى المسيحية، وتتأكد المنصرات على قدرتهم على إتمام العمل من بعدهم، فيجعلون منهم منصرات ينشطن بين أفراد مجتمعهن[2]، كما أن هذه المساعدات التي تمنحها للمسلمات، وهذه الأفكار التي تروجها حول سيطرة الإسلام وتقيد المرأة، تزعزع شخصية بعض المسلمين ويصبح يشعر بالنقص، وبذلك يفتح أبواب بيته أمام المنصرات اللواتي تدخلن إلى بيوت المسلمات وتعملن من أجل إيصال المسيحية إليهن عن طريق كل المساعدات المادية والمالية لمساعدة العائلة للعيش بطريقة أسهل، وهذه الصورة التي تمنحها هذه العائلة بتحسن مستواها المعيشي عن طريق مساعدة المنصرات للمجتمع الذي تعيش فيه، يمكن أن يمنح نوع من الشرعية للمنصرات داخل المجتمعات الإسلامية[3].

وحتى وإن لم تعتنق المسلمة المسيحية، لأن هذا نادرًا ما يحدث، لأن في الغالب المسلمة لا تتخلى عن عقيدتها، فإنها اجتماعيًا تتبنّى الأفكار والتصرفات المسيحية في معاملتها اليومية، فتزعزع الشخصية والعقيدة بداخلها.

كما عملت المنصرات على تشجيع زواج الفتيات اللواتي يتلقين التعليم في المدارس التنصيرية مع شباب المدارس التنصيرية وكذا زواج الشباب من النصرانيات متخفيين وراء ذريعة أنها من أهل الكتاب، وكل هذا من أجل تهجين المجتمع الإسلامي، وخلق النواة الأولى لأسرة مختلطة[4].

وبذلك يظهر الاهتمام، بل والإصرار على إخراج المرأة المسلمة من بيتها، والتأكيد على ضرورة إتباعها وتقليدها للمرأة العربية المسيحية، وذلك عن طريق نشر القيم

---

(1) Fathma Aith Mansour Amrouche: **Histoire de ma vie**, éd. la découverte, Paris 2005, p28.

(2) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص187.

(3) نفسه، ص188.

(4) في بعض الأحيان حتى يتحقق هذا الزواج يقمن المنصرات من مناقشة هذه القضايا في الغرفة البرلمانية، للمزيد انظر: Fadhma Aith Mansour Amrouche: **Histoire…**, op.cit, p32.

الغربية بين النساء، ومن أهم الجمعيات، جمعية تنصير الشباب[1]، والتي كانت وظيفتها استمالة البنات والنساء لسماع صوت المنصرين.

وفي مؤتمر القاهرة السالف الذكر، دائمًا ركز هاربر[2] عن طرق إبعاد المسلمات عن دينهن، ومن أهم هذه الطرق الإرساليات التنصيرية الطبية والتي تتمكن من الاحتكاك المطول بالأفراد، أي المريض وعائلته.

وعلى إثرها قال زويمر أنه ينبغي على المنصرين أن لا يقنطوا إذا رأوا أن نتيجة تنصيرهم للمسلمات ضعيفة، لأن من المؤكد أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوروبيين، وتحرير النساء[3]، أما في مؤتمر لنكو 1911م كان أحد أهم محاوره الارتقاء الاجتماعي والنفسي بين نساء المسلمات والأعمال النسائية التنصيرية، كما تحدّث القسيس تروبربدج[4] عن واقع المرأة المسلمة في ظل تطور الأوضاع في الخلافة العثمانية، قائلاً أن الحكومة سمحت عقب إعلان القانون الأساسي لخمس فتيات عثمانيات مسلمات أن يتعلمن في كلية البنات الأمريكية، حتى يتهيأن لإدارة الأمور في المدارس الحكومية للبنات[5].

ومما جاء في توصيات المؤتمر في جلساته النهائية، أنه يجب لتنصير النساء المسلمات وأولادهن، يتطلب تدخل المنصرات، وأهم ما نلاحظه أن كل المؤتمرات تدعو لنفس التوصيات وهي الاهتمام بالمرأة، وتخصيص لها جيش من المنصرات لتهتم بتنصيرها من أجل السيطرة الفكرية عليها، حتى لما تتلقى التعليم هذه الفتاة داخل المدارس المسيحية، فإن تعليمها موجه وغير كامل، لأن المنصرات لا يمنحن تعليمًا كاملاً وحقيقيًا للفتيات المسلمات، لأن التعليم والتفكير ينور العقول ويفتح المجال أمام التساؤلات الحقيقية حول العقيدة، الحقوق، العدالة الاجتماعية، والسيطرة السياسية، فهذه الفتاة، أو حتى الشباب إذا حصل على تعليم حقيقي كامل، سيكون بمثابة خطر على الاستعمار والحركة التنصيرية أولاً، قبل أن يثور حول أوضاعه الاجتماعية أو عقيدته، لهذا السبب كان التعليم بالمدارس التنصيرية موجه، يخدم مصالح الإرساليات التنصيرية والاستعمار عامة.

---

(1) محمد عمارة: **الغارة الجديدة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص ص169-176.

(2) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص60.

(3) نفسه، ص55.

(4) محمد عمارة: المرجع السابق، ص173.

(5) نفسه، ص ص170-172.

وحتى هؤلاء اللواتي تخترن من طرف الراهبات لإكمال مهمة التنصير بين أفراد مجتمعها، لا تتلقى التعليم الكافي، وإنما تحصل على المبادئ الأولى للقراءة والكتابة، وكانت الراهبات تركزن على الهيئة الخارجية لهذه الفتيات، وكذا طرق التعامل داخل البيوت وتربية الأطفال، وجعل من الغربيات المسيحيات مثلهن الأعلى ومحاولة ترسيخه داخل مجتمعاتهم، وهذا ما يؤكد أن الهدف الحقيقي لهؤلاء المنصرات هو إما إخراج الفتاة من مجتمعها، أو تنصير الكتلة عن طريقها[1]، والمؤكد لهذه الفكرة، أن معظم الفتيات اللواتي يدرسن في المدارس التنصيرية لا يتقدّمن للامتحانات الوطنية، إلاّ القليل منهن، وهذا لا يعود لنقص قدراتهن على ذلك، وإنما لأن همّ المنصرات لم يكن منح هؤلاء الفتيات الشهادة، وإنما منحهم تبعية فكرية لمجتمع لا تنتمي له[2].

ورغم أهمية المرأة داخل المجتمع الإسلامي، فقد أخذت قسطًا كبيرًا من اهتمام رجال الدين المنصرين، لعلاقتها بعدة مجالات في نشاط المنصرين، كتعليم المرأة، وتطبيبها والأعمال الخيرية التي تخص المرأة، ولكن هذه المرأة لم تكن تمثل المجتمع وحدها، فكان هناك فئات أخرى، رأى المنصرون ضرورة الاهتمام بتنصيرها حتى يتمكنوا من السيطرة الكلية.

حيث كانت أوضاع المسلمين المزرية بسبب الحروب والفتن والأمراض والمجاعات والفقر، بابًا واسعًا للتنصير عبر الأعمال الخيرية، وهذا ما ينادي به لافجري حيث يقول: «... سنستعمل الوقت اللازم لكسب قلوب المسلمين عن طريق الأعمال الخيرية، وطيلة هذا الوقت، لا تهتم ولا تتكلم عن التنصير، لقد بينت التجارب أنه إذا نصرنا أشخاص داخل مجتمعاتهم لن يتمكنوا من البقاء على نصرانيتهم، وأنهم سيعودون إلى إسلامهم، ولهذا وجب أن يكون التنصير قوي ويكون في كتلة حتى يتمكنوا من الاتحاد فيما بينهم...» [3].

---

(1) Fathma Aith Mansour Amrouche: **Histoire…**, op.cit, p51.

(2) Ibid., p52.

(3) «… Durant tout le temps nécessaire, on s'en tiendra à gagner les cœurs des infidèles par les œuvres de charité, avant de s'occuper de conversion.
L'expérience à montré que si l'on baptisait tel ou tel individu en particulier, il se trouverait dans un milieu, tel que sa persévérance serait impossible, et que tôt ou tard il reviendrait à son ancienne vie; il faut, pour que les conversions soient solides, qu'elle est lieu en masse, afin que les néophytes se puissent soutenir les uns les autres…».

رسالة الأب دوقاري (Deguery)، 28 أفريل 1873، للمزيد انظر:
Jean-Claude Geillier: **Histoire des missionnaires**, op.cit, pp55-56.

ومن هنا نستنتج الأهمية التي منحت للأعمال الخيرية، من أجل التنصير، شرط أن يكون استعمالها بحذر حتى لا تذهب هباءً، لأن نتائجها غير مؤكدة.

فالنشاط التنصيري – على حد تعبيرهم – إن لم يكن يخص كل الفئات في المجتمع لا يمكن أن يكون ناجحًا، وذلك إذا اعتبرنا أن تنصير المسلم هي من أصعب الأمور وحتى أنها عادةً لا تتحقق، فما بالُنا إذا ننصر المسلم وبقي داخل مجتمعه فإنه لا محال سيعود إلى إسلامه، وهناك العديد من القصص الواقعية أين تنصر بعض المسلمين بشكل فردي، ما لبثوا أن عادوا إلى إسلامهم، بمساعدة مجتمعهم وعائلتهم[1].

وفعلاً ومن هذا المنطلق، أصبحت الإرساليات التنصيرية تعمل على تنصير العائلة، أو الأسرة، أو القبيلة، واهتمت بالفئات الأخرى، أو في بعض الأحيان إيجاد وبعث قرى خاصة بالمتنصرين وتشجيع الزواج بينهم حتى يكونوا المثال الجديد للأسرة في مجتمعاتهم الإسلامية ويحرصون على إعطاء تلك الصورة الجميلة لهذه الأسر.

فاهتمت الإرساليات بالطفل، فبعد الاهتمام بوسطه العائلي، والتعليم الذي يمكن له الحصول عليه داخل المدارس التنصيرية، جاء دور الطفل اليتيم والذي راهنت عليه معظم الإرساليات والمنصرين ورجال الدين، ونظرًا لأهمية الإحسان لدى الإرساليات التنصيرية[2] ألّف جماعة من المنصرين كتاب بيّنوا من خلاله أهمية التعليم المجاني وأعمال الخير وكيفية منحها بحذر، وتمنح خاصة للذين فيهم أمل الالتحاق بالكنيسة، فأنشأت ملاجئ من أجل الاهتمام بأطفال الفقراء، والتي لا ينتظرون منها أن تجعل الطفل مسيحي بالضرورة، رغم أنهم يبذلون جهود من أجل ذلك[3]، ولكن هم عادة يكتفون بخلق نشأ مسلم ولكن ليس كآبائهم، بل هم مسلمون بالعقيدة، بتصرفات مسيحية، ويصبح الراهب هو المثال الأعلى لهذا الطفل، وعلى نفس المنوال سار المنصرين في كل أنحاء العالم الإسلامي[4].

فعملت الإرساليات جاهدة من أجل التقاط وضم الأطفال المسلمين إلى جماعتهم، حتى أصبحت هناك دراسات وبحوث في الأمر وإيجاد ظروف ووسائل، وأهم ما توصلوا إليه هو إنشاء ملاجئ في مناطق مختلفة، مثل ما كان عليه الحال في الجزائر لإطعام

(1) خالد محمد منعم: **الجذور التاريخية للإرساليات التنصيرية الأجنبية في مصر**، مرجع سابق، ص ص213-215.

(2) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص92.

(3) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص176.

(4) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص142.

الأطفال وكسوتهم وإيوائهم، وهذه الأعمال لا تجعل الطفل مسيحي، ولكن لا تبقيهم على إسلامهم مثل آبائهم.

كما مارسوا طريقة تبنِّي الأطفال البائسين ويكون تبني نسبي، أي أن الكنيسة تتكفل بإيجاد عراب لطفل يتكفل بمصارفه التعليمية ومأكله وملبسه، ولكنه يبقى وسط مجتمعه، ما سيكون صورة لنتائج الاحتكاك بالمسيحيين، فبتحسن مستواه المعيشي والمادي وسط مجتمعه، تجعل الأطفال يأتون بمحض إرادتهم للبحث عن المتبني أو العراب، ما يقرّب هذا الطفل بالكنيسة ويحتك مع رجال الدين في كل مرّة، رغم أن هذا البرنامج الذي طبق في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، لم يحظ بالنتائج المنتظرة[1]، ولكن واصلت الكنيسة عن طريق المنصرين هذا النشاط، لأن التعامل مع الإنسان نتيجته غير مضمونة، حيث هذه الإمدادات المادية تجعل الطفل متعلق برجل الدين، ماديًا، لا غير.

ومقارنة بالتعليم حيث أن الطفل يمضي أوقات طويلة مع المنصر من أجل الحصول على العلم والذي يبعث في طياته كل أنواع الأفكار المسيحية الغربية، فإن التكفل بالطفل ماديًا وإبقائه في مجتمعه، نتائجه غير مضمونة، فبإبقائه في مجتمعه يبقى تأثير مجتمعه الكبير والصغير، أي العائلة على الطفل، وبذلك من الصعب جلب الطفل إلى المسيحية. رغم ذلك واصلت الكنيسة هذا النشاط، مراهنة على نتائج بعيدة المدى.

استغل المنصرين العمل أو النشاط الخيري من أجل غزو العالم الإسلامي، والذي كان يعتمد أساسًا على ملاجئ الأيتام، ومراكز للأسرة المنصرة، ويمارس فيها التنصير بعيدًا عن رقابة الأهل والسلطات، وإن الاهتمام بهذا المجال لم يكن صدفة، وإنما هي مشاريع مضبوطة ومخططة[2]، كملجأ العطاف أو ميزون كاري في الجزائر، حيث أنه منذ تعيين لافجري على رأس أسقفية الجزائر، وهو يعمل على تحقيق مشروع تأسيس قرى للأيتام، فاشترى أراضي، وفي إحدى مراسلاته، يشرح عرضه في إنشاء مزارع، لتُسلم للأيتام الذين كانوا في الملاجئ المسيحية، من أجل أن يكوّنوا أسر لشباب عرب، ذوي تكوين وتصرفات مسيحية غربية، سيمثلون النواة الأولى لأسر مثالية من العرب المسيحيين[3].

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص....

(2) محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص ص88-90.

(3) سعيدي مزيان: **النشاط التنصيري للكاردينال لافجري في الجزائر 1867م – 1892م**، دار الشروق للطباعة والنشر، الجزائر، 2005، ص45.

ونجد في إحدى مراسلات لافجري كذلك القول التالي[1]: «... صديقي العزيز، أؤكد لك ثانية ما قلته لك منذ يومين، لقد أرسلتكم للعطاف كمنصر وليس كفلاح، فلستم مطالبين بأعمال الفلاحة التي تخص الأخ جيروم (Jerôm)، بل المراقبة العامة لجانب الديني، والحرص على القيام الصحيح للأعمال التي مكلف بها كل واحد، أنت والأب فويي (Feuillet)، وجب عليكم الاهتمام بالإرسالية وعلاقاتها الخارجية، زيارة القبائل، ربط صداقات وعلاقات مع العرب، فتح مدرستكم في أقرب الآجال... تذكر أنك راهب ومنصر وأن الرب لن يحاسبك على المحاصيل الزراعية، وإنما على روحكم والأرواح التي منحت لكم، وقولوا كل هذا للأب فويي، وذكروه بوجوب التواصل معي على الأقل مرة في الشهر...»[2].

ومن هنا، نرى أن الاهتمام بأطفال المسلمين هي مشاريع مخطط لها، ولم تكن في أية حال من الأحوال صدفة أو وليدة لأوضاع معينة، بل أسستها الكنيسة على يد منصريها على مبادئ أساسية وهي العائلة أو الأسرة، أهمية الأسرة، الأرض وأهميتها، والحياة الاجتماعية التي تدور حولها بفكر مسيحي غربي.

فكان المنصرون يرون أن الاهتمام باليتامى داخل الملاجئ ثم القرى المسيحية يمثل مجال تنصيري واسع ولكنه صعب يستحق الغوص فيه لتجاربه المهمة، فالتظاهر باحترام اليتامى والاحتكاك اليومي والقريب من هذه الفئة يجعلهم يسيطرون تدريجيًا عليهم. حيث أنهم يأخذون الوقت اللازم لكسب قلوب المسلمين الصغار، ولا يظهرون رغبتهم في تنصيرهم علانية، حيث أكّدت التجارب أنه تنصير الأشخاص داخل مجتمعاتهم، نادرًا ما يبقون على نصرانيتهم، رغم أنهم غالبًا يبتعدون عن عقيدتهم ولكن لا ينتصرون كليةً، لهذا وجب بعد تنصيرهم عزلهم ولو لمدة حتى تترسخ بداخلهم العقيدة المسيحية، ولن يعودون عنها[3]، وكانت الكنيسة خلال مشاريعها التنصيرية تهتم بمبدأين، السكان أي الفرد والأرض، وهي طريقة السيبرتانيون (Les Spiritains)، والتي صادق عليها ميثاق سنة 1878م، وكانت عدة تجارب من هذا النوع، الراهب بيريوت (Briot) في الكابون سنة 1845م،

(1) Jean-Claude Geillier: **Histoire des missionnaires**, op.cit, p52.

(2) Ibid., pp52-53.

(3) عبد الرؤوف قرناب: **علماء الجزائر في الرد على التنصير إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1962م)**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، علوم شرعية، مقارنة الأديان، الجزائر، 2014-2015م، ص ص104-108.

ويمكن اعتبار هذه التجربة من الأوائل في هذا المجال، وكذا تجربة لافجري في الجزائر، والراهب روي (Roy) 1884م[1].

وبذلك تظهر بوضوح ضرورة ضم أطفال المسلمين إلى المسيحية، وتنشئتهم على المنوال المسيحي الغربي، متيقنين أن هذا الدين الإسلامي من أعظم الأديان[2]، المبنية على التوحيد والتي اقتحمت العالم وانتشرت شرائعها وتقاليدها وعقيدتها، وارتباطها باللغة العربية، أصبح من الضروري إيجاد شعور داخل مجتمعاتها لإحاطتها وكسر سياجها، وأصبح الطفل المسلم فريسة لمخططاتهم التنصيرية على حسب قول زويمر، أن تنصير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من وسطهم، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها.

وتأسس في مصر عام 1886م معهد علمي لجمعية تبشير الكنيسة، وكان لهذا المعهد أربعة فروع، واحد مدرسة للصبيان وآخر للبنات وآخر لنشر الإنجيل، وقسم طبي وكان الهدف وراء هذا النوع من المعاهد هو التنصير بالدرجة الأولى عن طريق الاحتكاك بالمسلمين وبث فيهم الأفكار المسيحية[3].

أما إرسالية التنصير العربية والتي تأسست في 1889م، وهي تابعة لكنيسة الإصلاح، فانتشرت في البصرة والبحرين، وكان لها في منطقة البحرين خمسة منصرين، رجل دين، طبيبان ومنصرتين، أما في البصرة أربعة منصرين، من بينهم طبيبين[4].

وكما سبق، التطرق إليه، في الصفحات السابقة، عن أهمية الأعمال الخيرية والتي تمت ترجمتها من طرف كل أو معظم مؤتمرات التنصير، التي ركزت عليها في جداول أعمالها[5].

وأولى المؤتمرون أهمية كبيرة إلى ضرورة خلق إرساليات طبية من أجل الدخول داخل المجتمعات الإسلامية، وهذا ما ذكره هاربر، لأن رجال هذه الإرساليات يحتكون

---

(1) Henri Maurier: **Les missions, religions et civilisation, confrontées à l'universalisme**, éd., du cerf, Paris 1999, p192.

(2) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص141.

(3) محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص ص88-90.

(4) طلال العترسي: **البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية**، مرجع سابق، ص172.

(5) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص48 وما بعدها.

بالمسلم مباشرة، إما وحده داخل المستشفيات والمستوصفات أو داخل مجتمعه، وذلك أن الطبيب ملزم بيمين أو بقسم أبو قراط الذي يجبر الطبيب على أن يكون ذو قيم إنسانية عالية، وذلك لأن المرض يجعل صاحبه في حالة ضعف يجعله مستعد للتضحية بكل ما يملك من أجل العلاج والشفاء، ويصبح كل شيء لا قيمة له أمام شفاءه أو شفاء أحد أفراد عائلته[1]، أدرك المنصرين أو دعاة الإنسانية والرحمة هذا الضعف الطبيعي داخل الإنسان، فعملوا على استغلال هذه الفرصة في المجتمعات الإسلامية، أي المرض، لفتح مجال آخر للتنصير باستعمال الطب والعلاج، فاستغلوا الكوارث الطبيعية والإنسانية بكل أنواعها وأشكالها من أجل فتح أبواب العالم الإسلامي للجمعيات التنصيرية، والتحاقها بالمناطق المتضررة، رافعةً شعار المساعدة والغيث، وكل ذلك من أجل الصورة والحصول على الشرعية الدولية، وهي تبدو في الظاهر مساعدات في المجال الطبي، ولكن هي تعمل من أجل خدمة النصرانية والتنصير، تاركين جانبًا كل القيم النبيلة والإنسانية التي يتخللها يمين أبو قراط، واستعملوا الطب في غايات تخدم مصالحهم، من خلال إنشاء المستشفيات، والمستوصفات والعيادات المتنقلة، والقيام بتشغيل بنات المجتمع في مؤسستها الطبية[2].

اختفى المنصرون وراء ستار آلام الشعوب لممارسة خططهم، وهذا ما صرحوا به حيث يكون البشر نجد الآلام، وحيث تكون الآلام تكون الحاجة إلى الطبيب، وهذا الطبيب يفتح مجال للتنصير[3]. كما اختفوا وراء انتشار الفقر والجهل والمرض في المناطق التي تمر بكوارث طبيعية أو إنسانية كالحروب، فالصحة المتدنية التي تخلفها الحروب مثلاً يجعل مجال التطبيب الوسيط الأنجح للوصول إلى المجتمع والفرد، الذي أصبح لديه نفسية هشة، تجعله يتقرب من كل فرد يمنحه الاهتمام والمساعدة، فيفتح المجال أمام المنصر للقيام بنشاطه التنصيري مقابل التطبيب والمعالجة والمساعدات المالية، وأصبح الطب وسيلة سهلة وموثوقة وغير مشبوهة للتنصير، وذلك بسبب اللقاء المباشر بعامة الناس، كما أن الذهاب إلى الطبيب والحصول على كشف يكون عادة مرفوق بالراهب أو الراهبة.

---

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص141.

(2) عبد المالك خلف التميمي: **التبشير في منطقة الخليج العربي**، مرجع سابق، ص ص123-132.

(3) مصطفى خالدي وعمر فروخ: المرجع السابق، ص59.

وربما أول من تخلوا عن القسم –أبي قراط– أو ابتعدوا عنه هم المنصرين الأمريكيين، عندما أنشئوا عيادة طبية في السيواس بتركية عام 1859م[1]، واعتبروا أن الطب مشروعًا مسيحيًا، لأن المنصر لا يرغب في إنشاء مستشفى ولو بلغت أهميته كل البلاد الإسلامية، لقد وُجِدنا في العالم الإسلامي العربي لنجعل رجاله ونسائه نصارى[2].

لتشهد مناطق العالم الإسلامي، توسعًا كبيرًا في فتح مراكز العلاج، التي وصلت إلى 9 مستشفيات و 10 مستوصفات في سوريا ولبنان، وعدد كبير من المستشفيات في فلسطين والعراق، أما منطقة الخليج، فكانت فيها إرساليات تنصيرية متمركزة[3]، والتي اتخذت من بلاد البحرين مركزًا للتنصير في شبه الجزيرة العربية[4]، كما أن المنصرين عملوا من أجل الوصول إلى غايتهم الأساسية، وهي جلب المسلم المريض وأهله إلى المسيحية، ويجعلون منهم أعضاء فعالين داخل الكنيسة[5].

وهذا ما تؤكده إيرا هاريس (Ira Haris)، عندما تنصح طبيب ذاهب في مهمة تنصيرية، أنه يجب عليه انتهاز الفرصة، للوصول إلى آذان ثم قلب المسلم المريض، فلا يجب تضييع هذه الفرصة الثمينة من أجل التنصير، عبر التطبيب والعلاج، بالتركيز على الإنجيل، ولا يجب أن يغوي الشيطان، والالتزام بالواجب الطبي على حساب التنصير[6].

ولهذا السبب حرصت معظم المؤتمرات التنصيرية وأكدت على أهمية وخطورة استعمال العلاج لتحقيق غايتهم التنصيرية وأخذ حصته في التوصيات، ففي مؤتمر القاهرة، صرّح هاربر أنه يجب الإكثار من الإرساليات الطبية، لأن الطبيب يحتك دائمًا بالأفراد، ويمكن أن يكون له تأثير عليه أكثر من المنصرين الآخرين، ويجب على طبيب الإرسالية لا ينسى ولا لحظة أن مهمته الأساسية هي التنصير لا العلاج، لأن الطبيب عندما ينتقل ويتجول من أجل العلاج يزرع بذور التنصير، ليحصدها في الوقت المناسب، وهذا ما ذكره هاربر

(1) بول هاريسون: **رحلة طبيب في الجزيرة العربية**، ترجمة محمد أمين عبد الله، ط2، وزارة التراث القومي والثقافة، الرياض، 1981، ص92.

(2) نفسه، ص233.

(3) رأفت العتيمي الشيخ: **حملات التنصير تجتاح البلدان العربية الإسلامية**، مصر، دار القلم، مصر، ص ص2-4.

(4) نفسه، ص ص2-4.

(5) هذا ما يقوله المنصر موريسون، للمزيد انظر: أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص73.

(6) إيرا هاريس، انظر: مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص59.

عندما روى في مؤتمر القاهرة قصة تلك الفتاة المسلمة والتي اعتنى بعلاجها المنصرين في مستشفى مصر القديمة ثم ألحقت بمدرسة البنات البروتستانتية في باب اللرآن وفي النهاية تعمدت واعتنقت المسيحية، وكذا قصة الرجل المسلم الذي كان يحضر محاضرات المنصرين لإثارة الفوضى، عندما مرض دخل مستشفى المنصرين ومكث فيه حتى شفي، لما خرج منه أصبح يحضر المحاضرات ولكن بخشوع وانتهى الأمر بتعميده[1].

ليليه الدكتور أراهارس طبيب إرسالية طرابلس الشام، والذي زود الحضور في مؤتمر القاهرة بإحصائيات حول أعداد المرضى الذين كانوا يعالجون عنده ويحتك بهم يوميًا، والذي مارسَ نشاطه لمدة اثنين وثلاثين سنة وأن 68% من مرضاه الذين كانوا يترددون على عيادته من المسلمين و 50% منهم نساء، حيث بدأ في أول سنة ممارسة التطبيب في المنطقة، كان عدد المرضى الذين عالجهم قد وصل إلى 175 مريضا، وفي آخر سنة له هناك وصل 2500 مريض، وهذا يدل على الثقة التي يمكن لها أن تصل أعلى الدرجات بين الطبيب والمحيط الذي يعمل فيه. فبمجرد أن توضع الثقة يصبح الطبيب في يده مفاتيح عديدة للوصول إلى عقول وقلوب المسلمين. فحرصت الإرساليات بتوصيات من المؤتمرين أن يكون الطبيب نسخة من الإنجيل، ويجب على الطبيب المنصر أن لا ينسى ولو في لحظة واحدة أنه منصر قبل كل شيء[2].

وهو الأمر الذي لا ينفي الصعوبات التي يتلقاها طبيب الإرساليات داخل المجتمع الإسلامي، الذي من الصعب السيطرة عليه أو تحويل معتقده[3]، كما أظهر خلال هذا المؤتمر أهمية وأفضال الإرساليات الطبية في فتح مجال واسع لتنصير العالم الإسلامي، حيث أكثر من 30% الذين يعالجون في مستشفيات والعيادات التنصيرية من الفلاحين والبسطاء وأكثرهم من النساء[4]، وفي سنة 1924م عقد مؤتمرًا عامًا وعقدت جلساته في كل من القدس، اسطنبول، مصر، لبنان، بغداد، واهتم المؤتمرون خاصة في جلسة القدس بالطب، على أنه وسيلة للتنصير، وحللوا وشرحوا الطرق الواجب استعمالها، أما في لبنان لم يفصلوا فيه ولكن أكدوا على أهميته[5].

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص ص56-60.

(2) نفسه، ص60.

(3) هذا ما صرح به الدكتور تمباتي في مؤتمر القاهرة، انظر: نفس المرجع السابق، ص62.

(4) هذا ما صرحت به الراهبة ألمس أتاوستون في خطابها خلال مؤتمر القاهرة، انظر: نفس المرجع السابق، ص63.

(5) طلال العترسي: **البعثات اليسوعية...**، مرجع سابق، ص83.

ولذلك حرصت الإرساليات على التطبيب من أجل أن يترك الطبيب المنصر أثر عميق داخل نفس المريض وعائلته، وهذا ما أوضحه موريسون (Morrisson)، في مجلة العالم الإسلامي، نحن متفقون بلا شك أ ن الغاية الأساسية من أعمال العلاج والتطبيب بين المسلمين المرضى، سواء الذين يعالجون في المستشفى أو أولئك الذين يعالجون في بيوتهم، وهو التنصير، فزيارة الطبيب لهم تفتح له مجال لممارسة عمله كمنصر أولاً، فيتمكن من جمع أكبر عدد ممكن من أهله وأصحابه ويحتكون به عدة مرات من أجل إظهار الصورة الحسنة أولاً للمنصر الإنساني الذي يهتم بعلاجه، وبعد ذلك استعمال مهامه التطبيبية من أجل فوز أفكاره التنصيرية[1].

وأما بالنسبة للذين يعالجون في المستشفيات والعيادات التنصيرية، تكون العملية أسهل لأن لهم علاقة مباشرة بالمريض وعائلته، فيتمكن الطبيب من خلق علاقة ودّ وثقة بينهم، كما نجد المنصرون يقرءون الإنجيل وتعاليم المسيحية للمرضى وعائلاتهم بأسلوب بسيط، بعيد عن التطرف والمناقشة، وعملوا على جعل المريض من داخل غرفته يستمع إلى درس وموعظة الأحد التي تلقى داخل الكنيسة، فيتعوّد المريض وعائلته المترددين عليه على هذا الدرس ودون شعوره ستنغرس بداخله أفكار قد تثمر، كما أسسوا داخل المستشفيات والعيادات مكتبات لبيع الكتب والمطبوعات والتي تدور كلها حول المسيحية وتعاليمها وأهميتها في حياة الفرد، وهذا ما يؤكده المنصرون أنفسهم

أما في المناطق النائية والأدغال فيعلنون عن مجيء الطبيب بوقت طويل، حتى يتمكن الناس من المجيء من كل مكان، يحملون مرضاهم لانتظار قدومه، وخلال وقت الانتظار تقوم الجمعيات التنصيرية بنشاطها التنصيري[2].

وفي هذا المضمار نجد اليسوعيين، قد ركّزوا نشاطهم التنصيري على التطبيب، حتى أنه يمكن القول أن بداية التنصير عندهم كان من التطبيب، ويوجد كذلك طرق أكثر تطرفاً وقسوة في التنصير، تخص عادةً المناطق الفقيرة التي تنتشر فيها الأمراض والأوبئة،

---

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص60.

(2) هذا ما قام به المنصرين في وادي النيل حيث صنعوا من ثلاث قوارب عيادات متنقلة ويعلنون عن مجيء الطبيب، فيجتمعون الناس حاملين مرضاهم، وفي انتظار الطبيب، يقوم المنصرون يخطبون ويقرءون تعاليم المسيحية، انظر: المرجع نفسه، ص62.

والمجاعات، فتجعل سكانها في أوضاع حرجة وضعيفة، بإمكانهم القيام بأي شيء مقابل الأكل والعلاج، فمثلاً أنشأ المنصرون مستوصفًا في منطقة الناصر بالسودان، وكانوا لا يعالجون المريض أبدًا إلاّ بعد أن يعترف بأن الذي يشفيه هو المسيح، أما في الحبشة كانت المعالجة لا تبدأ قبل أن يركع المرضى ويسألوا المسيح شفائهم، وهذا يدل على أن الهدف الأساسي من العلاج هو تحقيق أهداف تنصيرية لا غير[1].

وهذا ما كان المنصرون يصرحون به، حيث يعلنون أن خلال هذه المناسبات من التطبيب، يتمكن الطبيب أن يخاطب المسلمين بكلام وخطاب، لو سمعه المسلم في مكان آخر غير مكان علاجه لامتلأ غيضًا وغضبًا[2]، ولكن في الوضع الذي يكون فيه المسلم صحيًا هو أو أحد أفراد عائلته، يجعله ضعيف يتقبل كل شيء مقابل الحصول على العلاج.

---

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، المرجع السابق، ص63.

(2) نفسه، ص65.

المبحث الثاني: المؤامرات السياسية والتنصير

يعتبر الاستعمار الحديث ظاهرة ارتبطت بكل التغيرات التي اتسم بها الغرب في هذه الفترة، حيث هذه النهضة الأوروبية للأفكار والعلوم والتي بفضلها استطاعوا الوصول أو تحقيق عدة تطورات وتغيرات جذرية، ساعدت العالم الغربي على النهوض وتحوله إلى قوة عالمية والوصول إلى ما يعرف بالثورة الصناعية، والتي ستكون أكبر حليف لها للوصول إلى الشرق الإسلامي، لافتقاد العالم الغربي للمواد الأولية تخدم احتياجاته التصنيعية الجديدة في عصر الصناعة أو التصنيع، ووجب عليه الحصول عليها بأرخص الأسعار، لترتبط الثورة الصناعية بالاستعمار والسيطرة، ومن هنا زحفت الدول الاستعمارية الحديثة على الشرق والعالم الإسلامي للحصول على المواد الأولية لتطوير منتوجاتها، لتحول هذه الواد المصنعة لهذه الدول وبالتالي أصبحت هذه المناطق بمثابة مخزن للمواد الأولية، وأسواق لترويج السلع[1].

يختلف الاستعمار الغربي الحديث عن ما سبقه عبر التاريخ من التوسعات الرومانية أو الفارسية، جاء بعد الحروب الصليبية على المشرق والمغرب الإسلامي، والذي عرف نوع من الاستقرار والراحة خلال الخلافة العثمانية التي تمكنت من حماية الأقطار الإسلامية العربية لمدة ثلاثة قرون، لتليها قوى استعمارية جديدة، كانت حملة مزدوجة الأطماع، فاختلطت أطماع فرنسا وبريطانيا بأطماع ومصالح الصهاينة، وأطماع روسيا القيصرية، واستمر الصراع حتى وصل إلى اقتسام المناطق على النحو الذي كان عليه بعد الحرب العالمية الأولى، فتمكنت القوى الاستعمارية من تحطيم القوى العثمانية، وتقسيم ما كان تابع لها، سيطرت روسيا على المناطق في آسيا والقرم وتركستان، واستولت فرنسا وبريطانيا على المناطق ما بين المشرق والمغرب[2].

ورسخ التواجد الصهيوني في قلب العالم الإسلامي، فالغرب المسيحي وجه كل قواته واهتماماته من أجل إخضاع العالم الإسلامي وتفكيكه، وإشعاره بالنقص، ووضعت عدة مخططات، منها تلك التي وضعها البريطاني كامبل[3] والذي جمع رجال الدين وعلماء التاريخ والقانون والسياسة وطرح عليهم سؤال: هل يمكن إيجاد أسباب أو طرق تحول

---

(1) دليلة بوجناح: **الفكر الاستعماري الفرنسي وتطوره خلال القرن التاسع عشر**، مرجع سابق، ص ص83-91.

(2) محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص23.

(3) هنري كامبل بانرمان (Henry Campbell Bannerman): سياسي بريطاني (1836-1908م) ، صاحب التقرير الشهير المعروف بتقرير بانرمان، والذي كان خاتمة لمؤتمرات الدول الاستعمارية، بمؤتمر كامبل بانرمان، انظر: نفس المرجع السابق، ص24.

دون أن يسقط الاستعمار الأوروبي، أو ينهار، خاصة أنه بلغ ذروته وأن أوروبا أصبحت قارة قديمة استنفذت قواها ويقابلها العالم الإسلامي الذي لا يزال شابًا بمستقبل وقوة هائلة من مواد أولية وقوة شبابية، وكانت خلاصة ما ردّ عليه علمائه، أنه يجب إيجاد عنصر دخيل يوضع في المنطقة، والذي يمنع المنطقة أو مجتمعاتها من الوحدة مدى الحياة، لا فكريًا، لا علميًا ولا عسكريًا، وبذلك فتحت البلاد الإسلامية أمام العنصر الصهيوني، عن طريق تطبيق وعد بلفور، وتحطيم العالم الإسلامي من الداخل[1].

وبذلك حتى تتمكن هذه القوى الاستعمارية من الوصول إلى تطبيق مخططاتها، ارتبطت ارتباطًا وطيدًا بالنشاط التنصيري والذي سبق الحركة الاستعمارية ومهّد لها الطريق بخلق بيئة، ومجتمع له قابلية للاستعمار، وإبعاد هذه المجتمعات الإسلامية عن إسلامها ودينها وعقيدتها، لتبتعد عن القدرة عن محاربته والتخلص منه.

فعملت القوى الاستعمارية والإرساليات التنصيرية من أجل تنصير العالم الإسلامي، وبالتالي تعزيز الوجود الاستعماري والسيطرة الاقتصادية والسياسية والثقافية، مع النخبة والعامة، ولكن نتائج هذا النشاط بعيدة المدى، تيقنوا أنه لا بدّ من إيجاد مجالات جديدة تمكّنهم من تحقيق السيطرة الآنية، في انتظار نتائج الأعمال الخيرية التي ستؤكد وجودهم حتى وإن غادر هذا المستعمر والمنصر هذه الأراضي، سيبقى ارتباط هذه المجتمعات بمستعمريها، ثقافيًا وحضاريًا.

ما يمكن استنتاجه، أن القضية ليست قضية دين أو عقيدة أو محاولة إدخال طائفة في طائفة أخرى، بل ربما هي مؤامرة خطيرة قديمة ومتواصلة، بإصرار القائمين عليها، وهي السيطرة على العالم الإسلامي والتي ستحقق لهم السيادة والريادة العالمية، وذلك لعدة أسباب إستراتيجية واقتصادية[2].

بعد نهاية الحروب الصليبية أصبح من الصعب أن تقوم حرب عالمية بأسباب دينية علنية، فتذرّع الغرب بأسباب وتسميات مختلفة لشن حروب على الأقطار الإسلامية، ولكن محركها الحقيقي هو العقيدة والكنيسة رغم علمانية العالم الغربي منذ العصور الحديثة[3]،

---

(1) ما يعرف بمؤتمر كامبل بانرمان وانعقد في 1905م ودامت جلساته 1907م وكان سريًا، هدفه إيجاد طرق للمحافظة على تفوق ومكاسب الدول الاستعمارية في مستعمراتها، وخرجوا بوثيقة سرية سميت "بوثيقة كامبل"، انظر: نور الدين حاطوم: **خرائط الشرق الأوسط الاستعمارية ترسم حدود التقسيم منذ العام 1907م**،.......

(2) محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص25.

(3) والتي كانت مهمتها الاستفادة من الأزمات، انظر: نفسه.

ففي عام 1920م، أصدرت لجنة التنصير الأمريكية، كتابًا جاء في مقدمته أن أهم ما جعل الولايات المتحدة الأمريكية تدخل الحرب العالمية الأولى، تبنيها كل آراء والمبادئ التي كانت تهدف إليها الإرساليات التنصيرية، وسميت هذه المبادئ بأسماء سياسية[1].

وبوصول الجيوش إلى الأقطار الإسلامية، عملت على تدعيم وتسهيل نشاط الإرساليات التنصيرية، فغرسوا مؤسساتهم في البلاد الإسلامية، وتآزروا مع المنصرين، واعتبروها تآزر للحروب الصليبية الفاشلة، وهذا ما جاء في العبارة الشهيرة في القدس: «... اليوم انتهت الحرب الصليبية ...» والتي قالها اللورد اللنبي والذي ذهب ماشيًا إلى قلب المدينة المقدسة بعد احتلال البريطانيين لها في 1917م[2].

وما قاله الجنرال غورو عندما دخل دمشق ووقف على قبر صلاح الدين الأيوبي: «... ها قد عدنا يا صلاح الدين ...»[3].

وعبر التاريخ تأرجحت فكرة الاستيلاء على العالم الإسلامي بين الجيوش ورجال الدين، وفي القرن 19م، وبعد أن عمل رجال الدين جاهدين في الخفاء في المناطق الإسلامية، فتحوا أبواب الشرق الإسلامي على مصراعيه أمام الجيوش، ومن ثم تحسنت أوضاع المنصرين واكتسبوا شرعية وقوانين ومساعدات وتمويل مالي ومادي وحتى معنوي للقيام بنشاطهم[4].

وما يذكره دوفوكوا: «... إن لم يتم تنصير المسلمين في مستعمراتنا بشمال إفريقيا، فإن حركة ستقوم بها على غرار ما حدث في تركيا، فستتكون نخبة من المثقفين في المدن الكبرى متأثرة بالفكر الفرنسي، ستحتفظ بمظاهر الإسلام رغم ضياع روحه، لتؤثر بها على الجماهير، ومن جهة أخرى فإن جمهور الشعب من البدو الرحل سيبقى جاهلاً عديم الصلة بنا متمسكا بإسلامه حاقدًا على الفرنسيين من رجال السلطة»[5].

---

(1) محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص17.

(2) صالح مسعود أبو بصير: **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**، دار الفتح للطباعة والنشر، لبنان، ، ص65.

(3) جلال العالم: **قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام، أبيدوا أهله**، ط2، دار الغرب للنشر، طرابلس الشام، 1975، ص ص62-67.

(4) عبد الفتاح أحمد أبو زايدة: **التبشير الصليبي والغزو الاستعماري**، منشورات رسالة الجهاد، مالطا، 1988، ص147.

(5) عز الدين العراقي: **التبشير أخطر أسلحة الاستعمار**، مجلة البيئة، الهلال، مج71، ع10، أكتوبر 1973، ص ص60-70.

فهو وكأنه يؤكد على فضل المنصرين في تواجده في المنطقة، وهذا ما نجده كذلك في قول نابليون الأول، حين أعلن أن نيته إنشاء مؤسسة إرسالية أجنبية، فهؤلاء الرجال المتدينون سيكونون عونًا كبيرًا في آسيا، وإفريقيا، وأمريكا، سأرسلهم لجمع المعلومات عن الأقطار، إن ملابسهم تحميهم وتخفي نواياهم[1].

فإذا تمعنا في هذه الأقوال لهذه الشخصيات التي لعبت دورًا مهمًا في الحركـــة الاستعمارية للقرن 19م، يتبين لنا مدى اعتماد الحكومات الاستعمارية على الحركة التنصيرية ونشاط رجال الدين في المناطق المراد الاستيلاء عليها، ومهمتهم في ترسيخ التواجد الاستعماري ليس العسكري فحسب، بل الفكري والروحي وذلك عن طريق احتكاكهم بالسكان الأصليين وتوهيمهم بالأعمال الخيرية التي يقدمونها لهم، حيث انتهز المنصرين الأزمات التي مرّ بها العالم الإسلامي، واستغلال الوضع السائد من جهل وفقر ومرض، وانتشار قلة الوعي، واختلاط الحق بالباطل واختلاط الصدق بالخرافة، وانتشار البدع، وكل هذا من أجل تثبيت خطوة المنصر والمستعمر في هذه المناطق.

لم تتوقف نية الكنيسة في تنصير العالم إلى يومنا هذا[2]، وكانت وراء انعقاد مؤتمرات ولجان عمل، جمعت أكبر وأهم الشخصيات السياسية والدينية والعلمية المختصة في الشرق الإسلامي والمسلمين وحضارتهم، والعالم الثالث والعالم الإسلامي، وخبراء في نظريات الإعلام، وطرق وأساليب توجيه الرأي العام والتلاعب به وخلقه في بعض الأحيان[3]، ويبدوا أن هدف الكنيسة عن طريق الإرساليات هو وضع خطط وبرامج مرحلية من أجل السيطرة المباشرة أو غير مباشرة على العالم الإسلامي وغزوه، والنشاط التنصيري لم ينقطع وأخذ في كل مرحلة صورة معينة تستعمل من أجل تحقيق ذلك وأن الغرب يواصل في دعم الإرساليات التنصيرية من أجل تطبيق المشاريع والمخططات على أرض الواقع، فعملت جاهدةً على منع الوحدة الإسلامية، وكذا مشاريع لخلق أقليات مسيحية داخل مجتمعات إسلامية، وتشجيع كل الفرق والطوائف التي تبتعد على الإسلام والعقيدة التي تنبثق من مجتمع إسلامي وتمكنها من إبعاد المسلم عن دينه.

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص209.

(2) العودة إلى قرارات مؤتمر كولورادو، انظر: محمد عمارة: **الغارة الجديدة...**، مرجع سابق، ص ص37-40.

(3) نفسه، ص41.

1 – منع كل أنواع الوحدة بين الشعوب الإسلامية:

تيقن الغرب المسيحي أنه ما يقف كحاجز أمام السيطرة الكاملة على الأقطار الإسلامية هو العقيدة والإسلام، وهذا ما يصرح به غلادستون رئيس وزرا بريطانيا في القرن 19م، أن العقبة أمام استقرارهم في مستعمراتهم في بلاد المسلمين شيئان، ولا بدّ من القضاء عليهما مهما كلفهم الأمر، أولهما الكتاب أي القرآن، ثم موجهًا أعينه نحو المشرق ويشير بيده اليسرى قائلاً هذه الكعبة[1].

وكذا ما قاله وزير المستعمرات الفرنسية عندما فشلت قواته بالمغرب العربي فقال: «... ماذا أفعل إذا كان القرآن أقوى من فرنسا ...»[2].

تيقن الغرب والكنيسة أن يقظة العالم الإسلامي ووحدته، سيغير في مجرى التاريخ المعاصر، فسعى المنصرين من أجل قمع كل بذرة اتحاد في العالم الإسلامي، والذي يهدد أمنهم وسلامهم، وذلك بشتى الطرق، وأول خطوة هي زعزعة عقيدة المسلم، وإبعاده عن إسلامه، وهذا فما جاء في الخطاب السري الذي ألقاه البابا شنودة في الكنيسة المرقصية في الإسكندرية في مارس 1983م، وذكر فيه أنه يجب مضاعفة الجهود التنصيرية التي وضعت وبنيت على أساس أهداف متفق عليها للمرحلة القادمة، وهي زحزحة أكبر قدر من المسلمين عن دينهم، والتمسك به على أن لا يكون من الضروري اعتناقهم المسيحية، بل الهدف زعزعة الدين في نفوسهم وتشكيك الجموع في كتابهم وحذف محمد[3].

حتى يتمكنوا من تطبيق خططهم من أجل منع وحدة المسلمين التي تقف كحاجز أمام مشاريع السيطرة والاستيلاء، وتشتيت هذه الأقطار وفق سياسة فرّق تسد الاستعمارية، لأن الإسلام هو همزة وصل بين أكثر من 1350 مليون مسلم[4] يوحّدون الله وتوحدهم هذه العقيدة والتي تعتبر رابط متين، يستميت من أجله المسلم، حيث تحثه عقيدته أنه إذا مس مسلم في نصف آخر من الكرة الأرضية يعنيه الأمر، وينهض لأجل مساندته، وهناك العديد من آيات وأحاديث نبينا ما يحثنا على الاتحاد والتعاون بين المسلمين[5]، ولو تشبع

---

(1) سعد يوسف أبو عزيز: **صحيح وصايا الرسول**، دار التوافقية للنشر، ط1، 1900، ج1، ص562.

(2) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية في الجزائر...**، مرجع سابق، ص17.

(3) محمد الظاهر التنير: **العقائد الوثنية في الديانة النصرانية**، دار الشواق، الرياض، 1995، ص18.

(4) نفسه، ص20.

(5) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص47.

المسلم بهذه العقيدة الصحيحة وأصبح مؤمنا بها، لأنه حسب ديننا لن نؤمن حتى نحب لأخينا ما نحب لأنفسنا، ومن خلال هذه العقيدة الصحيحة يمكننا أن نحلل تخوف الكنيسة من العقيدة الإسلامية، وبما أن عدد المسلمين فوق الأرض يفوق عدد الديانات الأخرى، فإن اتحادهم يشكل خطر على توسع بقية الديانات من جهة، واستقرار المستعمر في هذه الأقطار، وهذا بالضبط ما عملت جاهدةً الإرساليات التنصيرية على التخلص منه وذلك عن طريق التشكيك في الدين وتعاليمه.

ويتربع العالم الإسلامي كذلك على مساحة إستراتيجية يمكن اعتبارها من أحسن مناطق العالم بخيراتها الباطنية والطبيعية والجغرافية، وقوة بشرية هائلة، تشكل خطرًا كبيرًا على العالم في حالة ما إذا اتخذت من عقيدتها الصحيحة منهاجا للسياسة، فما سيكون مصير الغرب والعالم النصراني المستعمر، ولهذا السبب حارب المنصرين كل فكرة توحيد بمحاربة المفكرين المسلمين روحيًا وفكريًا داخل مجتمعاتهم، لم يتخل المسلم عن إسلامه، بل ابتعد عن أساسيات معتقداته الصحيحة، وهذا هو هدف المنصر، اعتمادًا على ما قاله زومير خلال المؤتمر المنعقد في مصر، وبذلك إذا تمعنا في العالم الإسلامي عبر التاريخ، فإن المنصرين قد قطعوا شوطًا كبيرًا في مهمتهم، فنرى الشعوب الإسلامية رغم غنى أراضيهم يتخبطون فيما بينهم في مناحرات وصراعات وعداء في بعض الأحيان، بل وحتى حروب في أحيان أخرى، حيث طبقت عليه سياسة فرّق تسد، وظهر ذلك من خلال نشاط الإرساليات التي جندت كل قواتها المادية والفكرية والمعنوية من أجل تحطيم كل بوادر أو أفكار الوحدة وتحطيم كل من يأتي بها من مفكر أو قائد أو زعيم روحي، وذلك أن وحدة المسلمين في إمبراطورية واحدة ستكون لعنة على العالم وخطرًا[1]، وهذا ما يثبته التاريخ، من خلال كل المحطات التي شهدنا فيها العالم الإسلامي في كتلة واحدة، وصل إلى أوج طبقات المعرفة والعلم والقوة والحضارة، في حين إذا بقي متفرق، متشتت، سيظل بلا وزن ولا تأثير، وهذا ما نراه حاليًا في العالم أو بالأحرى في الدويلات الإسلامية.

إن الوحدة تجمع العالم الإسلامي كل آماله وسيتخلص من السيطرة الأوروبية، وقد يشكل التنصير عامل مهم في كسر شوكة هذه الحركة[2]، والعديد من المنصرين يؤكدون

---

(1) هذا ما قاله لورانس براون (Laurance Brown)، انظر: مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، المرجع السابق، ص32.

(2) محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص44.

من خلال تصريحاتهم أن تخوفهم الكبير يكمن في وحدة المسلمين، وهذا ما يؤكده المنصر مورو بيرجو، حيث يبين أن الخوف من العرب واهتمام الغرب بالأمة العربية، ليس ناتجًا عن وجود البترول بغزارة عند العرب بل بسبب الإسلام، يجب محاربة الإسلام للحيلولة دون وحدة العرب، التي تؤدي إلى قوتهم والتي تتماشى مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره[1].

ويقول هاملتون جب أن الغرض من الجهود المبذولة لحمل المسلمين على الحضارة الغربية، هو تفتيت الحضارة الإسلامية، التي تقوم عليها وحدة المسلمين، وتغيير خصائصها، تغيرًا جذريًا، عن طريق النشاط التعليمي والإعلامي والثقافي، والذي من شأنه أن يترك في المسلمين أثرًا يجعلهم يبدون في مظهرهم العام لا دينيين، من غير وعي منهم[2].

ويقول غلادستون كذلك أن ما دام هذا القرآن موجودًا بين أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق ولا أن تكون في نفسها في أمان[3].

اهتمت الإرساليات التنصيرية بشكل خاص بالصحافة والنشر والتي ستكون لها الحليف الكبير من أجل ترويج أفكارها وزرعها في أوساط العالم الإسلامي، وزرع الاضطراب والشك في المثل والمبادئ الإسلامية خاصة لهؤلاء الذين يتمكنوا من إخراجه، وهذا ما نلمسه مثلاً في رسالة المنصر زويمر إلى لوشاتلي في 02 أوت 1911م يقول فيها أن لنتائج إرساليات التنصير مزيتين، واحدة للتشييد – من وجهة نظره – والثانية للهدم، أو التحليل والتركيب، وما يجب التركيز عليه أن للمنصرين القدرة الكبيرة التغيير من الحضارة العربية[4]. وفي رد لوشاتلي يؤكد أن الإرساليات التنصيرية بروتستانتية كانت أم كاثوليكية تعجز عن تحريك العقيدة الإسلامية من نفوس المسلمين، ولن تتمكن من ذلك إلاّ ببث أفكار تتسرب مع اللغات الأوروبية، فبنشرها يحتك المسلمين بصحف أوروبا وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي[5].

الأمر الذي يعني العمل من أجل تغيير السلوكات اليومية للمجتمع المسلم، والاهتمام بممارساته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لتحويله من إسلامه إلى تبني أنماط غربية

---

(1) محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، المرجع السابق، ص48.

(2) نفسه، ص48.

(3) نفسه، ص49.

(4) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص8.

(5) نفسه، ص9.

في الحياة والتي هي مستمدة من أصول دينية نصرانية أو يهودية، وأن عملية تغريب العالم الإسلامي لم تكن بين ليلة وضحاها، بينما استمرت وقتًا طويلاً، ولم يكن كليًا وكان من طرف المنصرين أساسًا الذين اعتبروا أنفسهم حامين للمسيحية في العالم، وبالتالي للحضارة والتقدم[1].

وعليه عمل هؤلاء، ودون انقطاع منذ نهاية الحروب الصليبية، على إدخال النصرانية على المجتمعات الإسلامية، وهذا ما أكده المنصرون أنفسهم أنهم لن يوقفوا جهودهم وسعيهم في تنصير المسلمين، حتى يرتفع الصليب في سماء مكة ويقام قداس الأحد في المدينة[2].

اهتم المنصرون بالمسلمين بشكل خاص واستعملوا عدة طرق وخطط ما كان خفي منها وما كان علني وما كان تقليدي وما كان يتماشى مع تكنولوجيات كل عصر، حيث وصل بعض منظري التنصير إلى أكثر من 700 خطة أو طريقة للوصول إلى غايتهم[3].

وربما أهم ما اهتم به المنصرين لتحويل المجتمع الإسلامي ومنع الوحدة الإسلامي هي التهجم على اللغة التي جمعت أقطار عربية عديدة تحت لواء القرآن، فمنعتها أو بالأحرى تهجمت عليها حينًا، حين حاولت إعطاء الأولوية للعامية عوض الفصحى وأعطت أهمية كبيرة للهجات المحلية لكل قطر إسلامي حتى تفتح مجال الاختلاف والتفرقة لهذه البلدان وتجعل من وحدتها شيء مستحيل، وهذا ما صرّح به المفكر الفرنسي[4]، وصل الإسلام إلى كل مكان في العالم وأنهم محاطين بالإسلام والمسلمين في كل مكان، وأن الهلال الإسلامي ينتهي طرفاه من جهة بمدينة القسطنطينية، ومن جهة أخرى بفاس في المغرب الأقصى، فيعانق الغرب كله، وأنه من الضروري العمل على تفكيك تلك الرابطة التي تجمع بينهم[5]، حارب المنصرين اللغة العربية بشكل خاص بحجة أنها أصبحت لغة مختلفة

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **التغريب طوفان الغرب**، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، 1990م، ص13.

(2) روبرت ماكس وعبد الودود شبلي: **الزحف إلى مكة، حقائق ووثائق عن مؤامرة التنصير في العالم الإسلامي**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1989م، ص13.

(3) عبد الله محمد جمال الدين: **المسلمون والمنصرون أو المرسكيون الأندلسيون، صفحة مهملة من تاريخ المسلمين في الأندلس**، دار الصحوة، القاهرة، 1991م، ص540.

(4) المفكر هانوتو بعد احتلال فرنسا للجزائر من خلال مقال طويل الإسلام والمسألة الإسلامية. انظر: المجلة الإفريقية، العدد 72.

(5) روبرت ماكس وعبد الودود شبلي: **الزحف إلى مكة**، المرجع السابق، ص16.

عاجزة على مسايرة الركب الحضاري، لأن الفصحى لا تتماشى مع العلم والتطورات العلمية – على حدّ تعبيرهم – وإرهاصات هذه الدعوة أو المحاربة تمثلت في الدعوة إلى العامية والتي جاءت على يد منصرين ومستشرقين، وربما تعود بداية الاهتمام باللغة العامية إلى القرن السابع الهجري[1]، ولما وضع الراهب الكطالاني ريموند ماتن[2]، معجمًا عربيًا لاتينيًا، وآخر لاتيني عربي، واعتمد فيه عامية شرق الأندلس، ويبدو من خلال هذا المعجم أنه كان مطلعًا على الفصحى وكذا على بعض العلوم الإسلامية وصل حتى أنه أعلن إمكانيته معارضته القرآن[3]، وقد أثبت الونشريسي في المعيار مناظرة طويلة بين هذا الراهب وبين أبي الحسين بن رشيق، والتي انتهت لصالح بن رشيق[4].

ومن بين الذين اهتموا كذلك بالعامية الراهب بيدرو دي ألكا، أو القلعاوي (Pedro de Alcala)[5]، والذي كانت غايته من المعجم الذي أصدر مساعدته في التنصير، ونفس هذا المعجم أعاد راهب آخر العمل عليه ومراجعته باتريسيو دي لاتوري (Patricio de Latore)، الذي كتب كلماته بالحروف اللاتينية وأضاف إليه وسماه سراج في اللغة المعجمية المنقولة من اللغة الإسبانيولية إلى العربية، وقد طبع هذا المعجم بمدريد عام 1805م[6]. ومـن المهتمين ألونصو دال كاستيلوا، والذي ترجم الكثير مما نقش على جدران قصر الحمراء، ومراسلات بين أحمد المنصور السعدي والملك فليب الثاني، وأصدر مجموعة من الأمثال العامية[7].

---

(1) عبد الله محمد جمال الدين: **المسلمون والمنصرون**، مرجع سابق، ص543.

(2) نفسه، ص550.

(3) معاجم اللغة العامية المغربية، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عدد 89، ص135.

(4) أبو العباس، أحمد بن يحيى الونشريسي: **المعيار المعرب والجامع المغرّب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981، ج11، ص155.

(5) مستشرق إسباني أشرف على وضع معجم إسباني عربي في 1505م، للمزيد انظر: عبد الرحمن البدوي: **موسوعة المستشرقين**، مرجع سابق، ص ص77-88.

(6) محمد بن شريفة: **تراجم مغربية من مصادر مشرقية**، ط1، المملكة المغربية، 1996م، ص144.

(7) ولد في 1520 – 1530م ومات قبل طرد المورسكيين، للمزيد انظر: حسين بوزينب: **أمثال عامية بالمغرب**، منشورات أكاديمية المغرب، الدار البيضاء، 2001م، ص371. وكذا البارون دي ويتز في 1664م، الذي دعا إلى تأسيس مدرسة جامعية تكون قاعدة لتعليم التنصير المسيحي تعلم فيها لغات الشرق التي يُراد بها التنصير.

وجاء رهبان آخرين بعد هذه الفترة، اهتموا بالعامية، فدوّنوا ألفاظ، وكانت عدة دراسات من أجل الدعوة إلى العامية، فأسس الغرب معاهد لدراسة العامية في العديد من الدول الأوروبية، كالمدرسة التي دعا إلى تأسيسها البارون دي ويتز في سنة 1664م، لتكون قاعدة للتعليم التنصيري المسيحي، تعلم فيها اللغات الشرقية التي يراد بها التنصير[1]، ومدرسة نابولي في سنة 1727م، وأخرى في فيينا سنة 1854م، ومدرسة باريس سنة 1859م، وفتحت لندن فرعًا لدراسة الفصحى والعامية[2].

فالراهب ليرشوندي الذي أكمل في سنة 1892م معجمه الإسباني العربي وعنوانه ألفاظ إسبانية عربية[3]، وكان هذا القاموس مرجعًا هامًا لدى العمال الإسبان في الحامية، في شمال المغرب، نفس الشيء بالنسبة للبعثات الكاثوليكية الإسبانية التنصيرية بطنجة[4].

إن الدعوة إلى العامية هو مخطط استعماري شامل، وقد خص كل بلد عربي إسلامي بمخططات تخدم هذه الدعوة، حيث عندما دخل الاستعمار الفرنسي الجزائر، فرض تعليم اللغة الفرنسية وحدّد للغة العربية سوى حصتين في الأسبوع، كما أن المستعمر خاطب الجزائريين بالعامية وربما أحسن دليل هو أول بيان كتبته فرنسا للجزائريين والذي كان بالعامية، وأصدرت فرنسا جريدة أسمتها المنصر، والتي استمرت إلى غاية 1927م، والتي كانت تنشر بلغة هجينة ركيكة التركيب[5].

أما في المغرب الأقصى فقد اتبعت فرنسا الاستعمارية مبدأين، هما: الأول هو تعطيل المؤسسات التعليمية الموجودة التي حفظت على اللغة العربية الفصحى وطورتها، والثاني هو خلق مؤسسات تعمل بالموازاة على تحقيق المشروع التنصيري الاستعماري[6]، واعتمدت

---

(1) محمود محمد شاكر أبو فهر: **أباطيل وأسمار**، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1385هـ، ص165.

(2) نفوسة زكريا سعيد: **الدعوة إلى العامية وآثارها على مصر**، الإسكندرية، 1964م، ص9.

(3) Vecabulario Espaniol Arabica، Vocabulaire Espagnole Arabe، انظر: محمد بن شريفة: **تراجم مغربية من مصادر مشرقية**، مرجع سابق، ص145.

(4)

(5) محمد وحيدي: **بين الفصحى والعامية، أغاليط الخطاب التلهيجي**، اللسان العربي، العدد 71، 2013م، ص132.

(6) ككتابتها في عددها الأول: «اعلموا يا مسلمين أرشدكم الله العظيم سلطان فرنصة، نصره الله اتفق له برأيه وقوع هذا المبشر مختص لفائدتكم يرضى لكم ما يرضى لنفسه، انظر: عائشة عبد الرحمن: **لغتنا والحياة**، دار المعارف، مصر، 1991م، ص173.

السلطات الاستعمارية على خبيرين هما: ألفريد بل (Alfred Adave Bel) وغاستون لوث (Gaston Louth)، وعملا الاثنين كل واحد بطريقته للقضاء على المؤسسات التعليمية الخاصة بالقرويين، فألفريد رأى أنه يجب تركها تموت ببطء، بينما يرى غاستون أنه يجب تطبيق نفس ما طبق في الجزائر أي تحديد التعليم باللغة العربية على الصفوف الابتدائية الأولى.

ومن بين ما قامت به فرنسا لإنهاء التعليم العربي هو إجهاض مشروع الإصلاح ليوسف في 1914م والذي كان متكوناً من 16 فصل و 102 مادة، وتدخل ليوتي لإنهائه مدعيًا عدم وجود التمويل الكافي[1].

وقامت السلطات الفرنسية في بلاد المغرب الأقصى، بعد فرض الحماية عليها في مطلع القرن العشرين بإغلاق العديد من المدارس، وتماديا في إهانة التعليم والمعرفة، عملت على تحويل بعض من تلك المدارس إلى إسطبلات ومرافق أخرى، شأن ذلك شأن إحدى مدارس مدينة سلا، التي حولت إلى فندق، أطلق عليه اسم أسكور، ليتم تحويله لاحقا إلى إسطبل[2].

ونفس السياسة طبقت على المشرق الإسلامي، لأن المنصرين حاربوا اللغة العربية السائدة في العالم الإسلامي والتي كانت تمثل عامل مشترك بينهم، وأول من نادى بهذه الفكرة في مصر مثلا: المستشرق وليام سبيتا (Wilhelm Spitta) الألماني، والذي كان يشغل منصب مديرًا لدار الكتب، وهو من وضع قواعد اللغة العامية في مصر، وأظهر أهمية اللغة القبطية، ودعا من خلاله العالم الإسلامي إلى اتخاذ اللغة العامية بدلاً من الفصحى، متنبئًا بموت اللغة العربية، شأنها شأن اللاتينية وأرجع ذلك إلى أن الفصحى مستعملة من طرف النخبة فقط، ما سيعيق التحاق العامة بالتعليم، فانتقد ازدواجية اللغة داخل العالم الإسلامي، كما عاب على الكتابة العربية الفصحى تعقيدها، وادّعى أنها أكثر تعقيدًا من الصينية، رغم أن أهلها يحققون إنجازات علمية باهرة[3].

---

(1) محمد بن الحسن الحجوري الثعالبي الفاسي: **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص38.

(2) محمد المكي: **الأحباس الإسلامية للمملكة المغربية**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، المغرب، 1992م، ص63.

(3) أدولف وليام (Federich Adolf Wilhelm Spitta)، عالم لاهوت ألماني مستشرق اهتم بالشرق كان له عدة كتب ربما أهمها: قصص عربية عصرية بالعامية (Conte arabe moderne). انظر:

Jean Lecerf: **Littérature Dialectale et renaissance arabe moderne**, in bulletin d'études orientales, T2, n°2, institue Français du Proche-Orient, Liban, 1932, pp179-258.

ليواصل المشوار بعده وليام بلكوكس (Wilhelm Belcocs)، والذي كان يخفي أنه منصرًا من نادي الأزبكية[1]، وعمل على نشر فكرة استعمال العامية بدل من الفصحى وكانت حملته هذه داخل الوسط الثقافي، فدعا إليها في العدد الأول من مجلة الأزهر التي آلت إليه بعد أن تخلّى محررها عنها، وأخذ يدعو العلماء إلى الكتابة باللغة العامية في المجلة، وأنه سيمنح من كتب مقالاً بالعامية أربعة جنيهات إفرنكية[2]، ولكن بعثوا معظمهم مقالات بالفصحى، وحتى أن البعض منهم قاموا بإصدار مجلة علمية مضادة وهي مجلة المهندس، ونشرت فيها بحوث علمية باللغة الفصحى، لإثبات أن اللغة العربية هي لغة علم كغيرها من اللغات الأخرى، كما ردّ عليه عبد الله نديم في 1893م بإصدار صحيفة الأستاذ، حيث قال له من خلالها: «... إننا نعلم علم اليقين أنه لو ظهر ألف داع بل مئات الآلاف من الدعاة الأوروبيين لاستعمال لغة تميت لغة القرآن ما وجدوا آذان صاغية[3].

وبعد ذلك بثلاثين سنة، قام بلكوكس بترجمة الإنجيل إلى العامية وأصدره سنة 1925م، كما أصدر كتابًا سماه الأكل والإيمان، ودلل في هذا الكتاب على نواياه التنصيرية، المخفية وراء فكرة الإصلاح، وكان هدفه الوحيد هو إحداث القطيعة بين المجتمع والقرآن، وكذلك المستشرق اللورد دو فرين، الذي وضع سنة 1886م، تقريرًا أعلن فيه أن العامية هي سبيل النهوض والتقدم في مصر، وكذا كارل فولرس الذي دعا إلى هجرة الفصحى نحو اللغة العامية المكتوبة بالحروف اللاتينية، وكذا المستشرق سلدن ويلمور الذي ألف سنة 1901م كتابًا سماه العربية المحلية، وما ألفه الأب رافاييل نحلة "قواعد اللهجة اللبنانية النورية"، وألف الكتاب باللغة الفرنسية والنصوص العربية منسوخة باللغة اللاتينية[4].

ويمكن أخذ نماذج من المعاجم التي استعملت ونشرت لهذا الغرض، وهو محاولة تعميم العامية، كمعجم الألفاظ العامية ذات الأصول العربية، لعبد المنعم عبد العال، ويقوم عمله على أساس وجود لغة عامية واحدة[5].

---

(1) محمود محمد شاكر: **أباطيل وأسمار**، مرجع سابق، ص164.

(2) نفسه، ص165.

(3) عائشة عبد الرحمن: **لغتنا والحياة**، مرجع سابق، ص109.

(4) طبع الكتاب في المطبعة اليسوعية ورقمه في قائمة المطبوعات 692، ص3 من القائمة 195، انظر: مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص223.

(5) عبد المنعم سيد عبد العال: **معجم الألفاظ العامية ذات الحقيقة في الأصول العربية**، الطبعة 2، مكتبة الخانجي، مصر، 2000.

وكذا معجم كولان والذي كان يسميه مؤلفه معجم العامية المغربية، والذي جاء في سبع مجلدات (Dictionnaire colind d'Arabe dialectal Marocain)، إلاّ أنه لم يتمكن من استيعاب كل العاميات الموجودة في المغرب[1]، وما يمكن أن نلاحظه في هذا العمل أن الأشخاص الذين اعتمد عليهم في بحثه هذا، لا يمثلون المغرب بشساعته، وتعدد لهجاته، وإن الميزة الأساسية، ولأي لغة هي قدرتها على التمكين من التواصل بدقة وإيصال المعنى إلى أكبر عدد ممكن من الناس، وهذا ما يجعل اللغة عالمية أم لا، بينما اللهجات المحلية أو العامية تبقى دلالاتها محدودة، وإن تم تبني هذه اللهجات تجعل مستعمليها مسجونين داخل محيط استعمالها[2].

وبذلك فإن الدعوة إلى استعمال العامية داخل قطر سياسي معين سيفتح المجال أمام الفتن والشقاق وهذا داخل وطن واحد وذلك بسبب تعدد اللهجات، فإذا عممت الدعوة إلى العامية على أقطار العالم الإسلامي باختلاف عاميته فسنصل إلى التجزئة اللغوية وبالتالي الثقافية للوصول إلى السياسة. حيث ينقطع الدارس أو المتعامل بالعامية عن غيره في المكان وحتى الزمان، وسيتعذر عليه قراءة أشياء مما دوّن بالعربية الفصحى، فلن يتمكن من قراءة القرآن ولا الحديث واللذان يعتبران مصدرًا له، فينقطع عن تراثه وفكر أمته وأدبها وقيمها وبالتالي يفقد معنى الانتماء، وينغلق في حلقة لهجته التي ستعزله عن محيطه الثقافي والحضاري القديم، وهذا ما يؤكد لنا ربما نوايا هذه الدعوة إلى العامية من طرف القوى الاستعمارية التنصيرية، والتي لا يمكن أن تكون بريئة، أو أنها مجرّد تطبيق لنتائج بحث علمي نزيه وموضوعي، وإنما هي محاولة لاقتلاع الفرد العربي المسلم من دائرة ثقافية وعزله ثقافيًا، حتى يتمكن المستعمر من تشكيله وإلحاقه بأي نموذج ثقافي آخر، ومعوله لتحقيق ذلك، العامية التي يهدم من خلالها الفصحى، وبالتالي يقطع الطريق نحو الوحدة بمعناها العام، ولهذا كان زعماء ورواد فكرة الكتابة بالعامية واستعمال الأحرف اللاتينية في اللهجات المحلية، الاستعماريين والمستشرقين والمتمثلين في المنصرين بشكل عام، كلويس ماسينيون والذي حاول أن يبعث دعوته في المغرب ومصر وسورية ولبنان، وقد سعى هؤلاء أجمعين من أجل تحقيق أهدافا ومخططات استعمارية.

---

(1) عائشة عبد الرحمن: **لغتنا والحياة**، مرجع سابق، ص110.

(2) نفسه.

ونظرًا لأهمية الدعوة لاستعمال العامية، والنتائج البعيدة المدى المراد تحقيقها، لم يكتف المنصرين والمستشرقين بأعمالهم، وإنما أقنعوا العرب أنفسهم بضرورة تبني هذه الدعوة، فتولّى هذه الحملة العرب خاصة هؤلاء الذين تلقوا تعليمهم وتكوينهم، إما في المدارس والجامعات والمعاهد الغربية المسيحية في أوروبا أو تلك المنتشرة داخل العالم الإسلامي[1].

فظهرت عدة روايات وقصص وحتى الشعر باللهجة العامية، والهدف هو محاربة اللغة العربية الفصحى، لغة القرآن الكريم، متحججين بنفس حجج الغرب المسيحي، الذي قال بعجز اللغة العربية عن مسايرة العلم والتطور، وكذلك فكرة أن عامة الناس لا تفهم الفصحى، وأن الأدب إذا كتب بالفصحى ابتعد عن الواقع المعاش في المجتمع[2]، كرواية "لبن العصفور" والتي كتبت بالعامية من طرف القاضي المصري يوسف العقيد، وإصدار كتب تهتم بلهجات الوطن العربي، وضع لهم قواعد وأسس[3]، ككتاب "التحفة العامية في قصة فنيانوس" من تأليف شكري الخوري، والتي نشرها له الأب لاي اليسوعي، وكتب باللهجة اللبنانية العامية، وتعرض إلى نواحي هامة من حياة اللبنانيين، وطبع في المكتبة اليسوعية[4].

وجاءت هذه الكتابات في إطار محاولة تشجيع استعمال اللهجات العامية بدلاً من اللغة العربية الفصحى، وفي ذات المضمار ظهر دعاة تبسيط اللغة العربية (وتطعيمها بمفردات من اللهجات العامية)، بحجة أن تكون هذه اللغة في متناول عامة الناس، لأن التمسك بها كما هي، كما يقولون، يصعب من استيعابها وفهمها، وعليه يجب التخلص من تلك المفردات والقواعد، لأنها ألفاظ أو قواعد ميتة، وأنها لا تفيد في التعبير المعاصر[5]، فهؤلاء، وبهذا الطرح تبنوا كل أفكار المنصرين، بل زايدوا عنهم أين أصبحوا يطالبون باستعمال اللغة العامية، والأخطر هو كتابتها بحروف لاتينية، وضبط الكلمات فيها مرة أخرى، وتعممت فكرة تبني الحروف اللاتينية على اللهجات العامية حتى يخرج المسلم العربي من إطاره الإسلامي، وذلك عن طريق تبني حروف لاتينية، تبعده عن لغته ولغة

---

(1) بوجمعة وعلي: **الدعوة إلى العامية في الوطن العربي، ثبات الأهداف وتحول الأساليب**، المنهل، ص ص2-15.

(2) نذير محمد مكتبي: **الفصحى في مواجهة التحديات**، دار البشائر الإسلامية، 1991م، ص ص111-146.

(3) وليد قصاب: **الدعوة إلى العامية من يوقظها**، مجلة فيصل، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، العدد 224، الرياض، 1995م، ص ص27-30.

(4) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار...**، مرجع سابق، ص63.

(5) أنيس فريحة: **تبسيط قواعد اللغة العربية وتبويبها على أسس منطقية جديدة**، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1959م، ص7.

كتابه، الجامع والرابط الوحيد والقوي والصحيح للمسلمين في كل أنحاء العالم، وإلاّ سينفصل العالم العربي عن تاريخه وأدبه وشخصيته وقطع حاضره ومستقبله بماضيه، وبالتالي التخلي عن كل ما يمثل قوته، وهذا ما سيحقق الغايات الاستعمارية بكل أنواعها، وحاولوا من خلال مؤلفاتهم[1] إظهار حقدهم على اللغة العربية ورجالها وحتى الاستهزاء بهم، ويؤكدون أنها لغة اكتسبت حصانتها بالقرآن، ولذلك يجب إعادة النظر في قوانينها، وإعادة عصرنتها[2]، وبذلك تصبح اللغة العربية تقرأ في المساجد فقط، شأنها شأن اللاتينية التي تستعمل في الكنائس، وهكذا يتمكنون من تحقيق غاية المنصرين، فتصبح كل بقعة عربية لها لهجة أو لغة خاصة بها، وهذا ما يؤكد أن الحملة على اللغة العربية الفصحى، هي حملة على الوحدة، فهذه اللغة هي التي تجمع بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين، وتجمع بين المسلمين عربًا كانوا أم عجمًا، وهو ما قد يؤهل هؤلاء جميعًا لأن يكونوا أمة واحدة، يكون للحرف العربي فضل فيها.

ومن بين الذين أظهروا العداء للغة العربية، نجد الأديب سلامة موسى، وهو مسيحي الديانة إذ حاول أن يقيسها باللغة اللاتينية، متبعًا رأي أنها سيكون لها نفس المصير، ولكن هذا غير معقول لأن العربية استوعبت النص القرآني وأدت معانيه، وما ميّز هذا النص القرآني أنه الوحيد الذي حافظ على اللغة كما تنزل بها، بينما النصوص اللاتينية عن الأرامية التي تكلّم بها عيسى عليه السلام، ورغم ذلك لم يتبق في الإنجيل من اللغة القديمة إلاّ 16 كلمة[3].

وربما ما يمكن استنتاجه من هذه الحملة على اللغة العربية من طرف الغرب المسيحي، أنه تيقن من نهضته الفكرية، ومن خلال ما رآه من حوله من شعوب ذات اللسان غير العربي ومسلمة انتمائها للعالم الإسلامي واعتبار نفسها من مجتمع واحد، وتلتف كل هذه الأقوام والأجناس حول هذا الكتاب المكتوب باللغة العربية والقوة الذي يملكها هذا الكتاب من توحيد أسنتها على اختلاف ألوانها وأجناسها نجدها تحفظه عن ظهر قلب حتى وإن لم تكن تجيد لغته، وبذلك تيقن الغرب المسيحي بأهمية اللغة العربية وقدرتها على الحفاظ على وحدة الأمة وهويتها[4].

---

(1) أنيس فريحة: **محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها**، ط1، دار الجبل، بيروت، لبنان، 1989م، ص12.

(2) أنيس فريحة: **نحو عربية ميسرة**، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1955م، ص ص17-18.

(3) علي عبد الواحد وافي: **الأسفار المقدسة في الأديان السباقة للإسلام**، ط1، مكتبة نهضة مصر، 1964م، ص87.

(4) محمود محمد شاكر: **أباطيل وأسمار**، مرجع سابق، ص158.

فأصبح من الضروري تهديم كل ما يمكن أن يقوي هذه اللغة، فتبنوا البرامج والمشاريع لمهاجمة اللغة العربية وأغلقوا المدارس والجامعات التي كانت تحافظ على هذه اللغة، وفي نفس المرحلة التي كان الغرب المسيحي الاستعماري يغلق المدارس ودور العلم في مستعمراته، كان يؤسس في بلاده معاهدًا للغات الشرقية[1]، كالذي أنشأته في 1915م معهد الأبحاث العليا المغربية، الملاحظ أن في نفس السنة الذي أجهضت فيه فرنسا المشروع الإصلاحي في المغرب، فكان لهذا المعهد من 1915م إلى غاية 1959م، عددًا كبيرًا جدًا من نصوص اللهجات العامية، واستمر مشروع دعم العامية وخدمتها على ما كان عليه، إلى أن كلفت فرنسا جورج كولان (George Collin)، والذي كان مستشارًا في العامية بالمغرب بإتمام المهمة في صيغة جديدة، وذلك عن طريق التدريس والكتابة، وهذا ما أظهره كولان[2] من خلال المقال الذي نشره وأعاد فيه ما قاله أسلافه من قدماء دعاة العامية عن ازدواجية اللغة في العالم العربي الإسلامي والذي لا يمكن تجاوزها حسب رأيه إلاّ باعتماد ثلاثة طرق:

– إما باستعمال الشباب المتعلم لتسيير الفصحى وتقريبها للناس، وأكّد على أن هذه العملية مستحيلة، – تعود استحالتها للجهود التي تقوم بها القوى الاستعمارية على أي القوى التنصيرية لإبعادها على عامة الناس ونشر الأمية –.

– أو من خلال تعميم الدارجة أو العامية، وكان هذا هو الهدف الأساسي، متحججًا بفكرة أنها الأقرب فهمًا والأسهل تناولاً لدى عامة الناس.

– أو وهو الحل الأنجع حسب رأيهم لأنه يمكّنهم من تطبيق مشاريعهم على أحسن وجه وهي نزع الفصحى والعامية ونشر بدلها اللغة الاستعمارية، لاسيما الفرنسية، مما سيساعدهم على تحقيق غاياتهم[3].

وهذا ما يقوله جاك شوفالي[4] في حملته لمحاربة اللغة العربية، وعندما ردّ على مطالب الوطنيين الجزائريين بضرورة جعل اللغة العربية رسمية ردّ قائلاً: «إن تعليم اللغة

---

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص230.

(2) جورج سرابان كولان (1893-1977م) Georges S. Collin مستشرق فرنسي، انظر: عبد الرحمن البدوي: **موسوعة المستشرقين**، مرجع سابق، ص ص489-490.

(3) Marçais Philippe: **Esquisse grammaire de l'Arabe Maghrébin**, librairie d'Amérique et d'Orient, Paris, 1977, p…

(4) جاك شوفالي Jacques Chevallier رجل سياسي فرنسي (1911-1971م)، انظر للمزيد:
Jean Sprecher: **A contre courant étudiants et progressistes à Alger 1954-1962**, éditions Bouchene, Paris 2000, pp9-12.

العربية إجباريا يعني دفع المسلمين أكثر فأكثر إلى الإسلام، وتمكين العلاقة بينهم وبين الجامعة العربية، وذلك يعني إدخال البربر تحت سلطة الإسلام عن طريق اللغة العربية»[1].

وهذا التصريح واضح أنه لا يخدم مصالح ومخططات القوى الاستعمارية وبالخصوص فرنسا، أية تقارب ووحدة بين العرب والأمة الإسلامية، وحتى أنها ترفض أي مظهر من مظاهر الوحدة داخل الوطن الواحد، كما يؤكد على ضرورة الاهتمام بالعنصر البربري وإبعاده قدر المستطاع عن الدين والعروبة.

وهذا ما سبق إليه يوتي بقوله: «اللغة العربية هي عامل الأسلمة لأنها لغة القرآن ومصلحتنا هي إخراج البربر من إطار الإسلام، لذلك علينا أن نستعمل اللغة، فيستوجب علينا إذًا ربط البربرية بالفرنسية، لهذا نحن بحاجة إلى المتبربرين، وينبغي كذلك إنشاء المدارس الفرنسية البربرية»[2].

حيث ورد في الجريدة الرسمية للدولة الفرنسية[3]، قرار يخصص 300 ألف فرنك فرنسي لتشييد مدارس لقبائل جرجرة و 1000 فرنك لفتح تخصص لدراسة البربرية بدلاً من العربية، كما أمر الماريشال جون باستيست في سنة 1856م المستشرق جيسلان بإعداد تقرير مفصل عن اللهجات الشفوية المستعملة في الجزائر[4].

لتنشأ فرنسا في 20 ديسمبر 1875م مدرسة اللغات والقانون والعلوم، وحاولت من خلالها تسييس اللهجات القائمة من أجل تحويلها إلى لغات متداولة، وخلقت من أجل تحقيق هذا الغرض شهادة أهلية في اللغة القبائلية وخصصت مبلغ 300 فرنك سنوياً منحة لكل طالب، وفي 27 ديسمبر 1887م خلقت شهادة جديدة تحت اسم دبلوم اللغة البربرية[5].

---

(1) Millman Richard: **Les croix de feu et l'antisémitisme**, in vingtième siècle, revue d'histoire n°38 avril-juin 1993, pp47-61.

صدر في الجريدة الرسمية الفرنسية: 15-02-1843، انظر:

(2) أحمد بن نعمان: **فرنسا والأطروحة البربرية، خلفيات، الأهداف، الوسائل والبدائل**، شركة دار الأمة، 2011م، ط2، ص62.

(3) Robert Estoublan, Adolphe Lefeleure: **De l'Algérie annote**, recueil chronologique, lois, ordonnance, décret, arrêtés, circulaire, etc…, éd. Adolph Jordane, librairie éditemme, Alger 1896, T1, pp43-58.

(4) مصطفى نويصر: **الدعوة إلى البربرية والدارجة صناعة استعمارية فرنسية**، الشروق العربي، 20-04-2018.

(5) Robert Estoublan, Adolphe Lefeleure, op.cit, pp60-65.

وأعلنت فرنسا خلال مؤتمر التعليمي للدراسات العليا المنعقد في باريس على لسان عالم اللسانيات المعروف بول بوير رئيس لجنة اللغات الشرقية، أن الحكومة الفرنسية لا تعير للغة العربية أي اهتمام في مستعمراتها، لكنها تهتم باللغة البربرية وتعمل على تعميمها[1].

وفي 30 ماي 1929م، أوصت اللجنة المالية الفرنسية بمضاعفة ميزانية التعليم البربرية وحضارتها، كما دعا المستشرق الاستعماري لويس ماسينيون إلى الكتابة بالعامية والتدريس بها، وفي 1930م[2]، صدر مرسوم موقع من طرف رئيس الجمهورية الفرنسية ينص على خلق تخصص في التعليم العالي في اللغة البربرية وحضارتها، وكلية اللغات في جامعة الجزائر في قسم اللغة والحضارة البربرية[3]، وفي مقابل هذا أصدرت في 1936م قرار اعتبرت فيه اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، وفي 1938م صدر مرسوم ينص على حظر واستعمال اللغة العربية وتدريسها وغلق الكتاتيب القرآنية والمدارس العربية، وإحداث كرسي جديد لتدريس العامية الجزائرية باسم كرسي العربية الحديثة[4].

وهنا تتضح أن المشكلة ليست اللغة أو اللهجة البربرية نفسها أو العربية، وإنما اللغة العربية، والغاية من هذا الاهتمام هو رغبتهم في تحقيق الشق والثغرة داخل العالم الإسلامي، وقطع العلاقة بين الطبقة العامة لهذا المجتمع وكتابهم والذي كان دائمًا يستمدون منه قيمهم ومبادئهم[5].

كما أن ازدواجية اللغة التي نبذها معظم دعاة العامية، هي ليست خاصة باللغة العربية، فهي موجودة في كل البيئات، حيث نشأت إلى جانب اللغة الفصحى، لغات تستمد منها، وتكون عادةً دون ضوابط معيارية صارمة فتصبح الفصحى بما فيها من دقة في التعبير ودلالة الألفاظ، هي لغة العلم والمعرفة والآداب، بينما تكون العامية لغة عامة الناس، وهل يعقل أن ينشر العلم بهذا النوع من اللغات.

---

(1) أحمد بن نعمان: **فرنسا والأطروحة البربرية**، مرجع سابق، ص ص63-64.

(2) نفسه، ص202.

(3) Robert Estoublan, Adolphe Lefeleure: **Lois et ordonnance**, op.cit, pp61

(4) نفسه، ص62.

(5) أحمد بن نعمان: المرجع السابق، ص203.

وهذا ما حاولت فرنسا فعله عندما أرادت أن تجعل من العامية لغة رسمية في مستعمراتها، واستدعت لذلك الغرض عددًا من المختصين في اللسانيات، ومن دارسي اللهجات، فأجمعوا على أنه مشروع فاشل[1].

كما حاول بعض المتفرنسين إعادة إحياء الفكرة وتعميم العامية، ولكن من الصعب تطبيق ذلك[2].

وما زال إلى يومنا هذا يحاول البعض إعادة إحياء نشر العامية، وذلك من أجل البحث عن فرص للبروز الاجتماعي ولتداول أسمائهم عبر الإعلام ولو بتوجيه لهم النقد، لأن ذلك يكفي لظهورهم.

ولهذا كانت الصحافة والنشر من أهم الوسائل التي اهتم بها المنصرين، لتوجيه الرأي العام وفي بعض الأحيان خلق رأي عام وترويجه، وتفطن المنصرين لأهمية الصحافة والطبع والنشر في نشاطهم التنصيري، ويمكن اعتباره من أحد أهم الوسائل لنشر أفكارهم والإشادة بها، والترويج لها واستبدال الأفكار الموجودة ومحاربتها.

راهن المنصرون على الإعلام بكل أنواعه من أجل نشر أفكارهم التنصيرية والاستعمارية، وخلق رأي عام جديد داخل المجتمعات الإسلامية، فكان الإعلام بكل أنواعه وسيلة خدمت المنصرين في تحقيق مطامحهم وأهدافهم، حرصت من خلاله على الشمولية بحيث يأتي على جميع جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية التي يراد بها التغيير.

وأول ما استعمله المنصرون هي المطبوعات منذ زمن بعيد وكانت طريقة سهلة ومباشرة لنشر النصرانية والكتاب المقدس والأفكار التنصيرية، فكان للطباعة أهمية كبيرة مكنت وسائل الإعلام من تحقيق نتائج مهمة، وكانت أول مطبعة عربية في أوروبا في مدينة فانو بإيطاليا وهي التي صدرت عنها بعض الكتب النصرانية باللغة العربية وذلك سنة 1514م[3].

---

(1) هذا ما حصل عليه عبد الله العروي عن طريق هنري لاوست، انظر: عبد الله العروي: **من ديوان السياسة**، المركز العربي الثقافي، 2013، ص36.

(2) نفسه، ص56.

(3) كرم شلبي: **الإذاعات التنصيرية**، ط1، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة 1412هـ، ص59.

لا انتشار الأفكار دون كتابة ودون طباعة، فكان للمطابع أهمية كبيرة، وربما لهذا السبب تعطلت ظهور الصحف في العالم العربي، إلى غاية دخول الجيوش الغربية الأراضي المسلمة، ويمكن اعتبار أن المشرق العربي كان سبّاقًا لإصدار الصحف وذلك لأنه شهد نشوء أول مطبعة في بيروت في دير مار أنطونيوس في واد قانوبين في سنة 1610م[1]، وكذا مطبعة ديرمار يوحنا الصايع عام 1733م[2]، وفي سنة 1751م أنشئت مطبعة بواسطة الشيخ يونس نقولا الجبيلي، وهي مطبعة القديس جاورجيوس، ثم انتقلت جزء من المطبعة الإرساليين الأمريكيين التي تأسست في جزيرة مالطا إلى بيروت في سنة 1834م[3]. وواصلت نشاطها الطباعي والتوزيع منشوراتها في بيروت ومختلف أنحاء المشرق العربي، وطبعت الكتاب المقدس بعدة لغات، العربية، التركية، الأرمينية، العبرية، اليونانية، الكردية، والإسبانية، وطبعت العديد من الكتب والمجلات والصحف باللغة العربية وانطلق الحرف المشكول بهذه المطبعة[4].

فكانت أهمية المطبعة تكمن في الإعلام وترويج الأفكار، وانطلقت معظم المطابع في المشرق وخاصة في لبنان، وكانت ملك للمسيحيين إما للأديرة أو الكنيسة أو رجال الدين، وكانت مهمتها الأساسية تلبية حاجة مدارس الإرساليات التنصيرية في مختلف المناطق اللبنانية، وقد طبعت حوالي 2960 كتاب خلال فترة ما بين سنة 1834م وسنة 1964م، وانتقلت إدارتها من الإرساليات الأمريكية إلى السينودس الإنجيلي تحت اسم المطبعة الإنجيلية. وتلقت مساعدة في سنة 1848م من طرف الكونت دي تريمون من أجل تطويرها وتمكنوا من بعدها في سنة 1854م من طبع 2000 نسخة من كتاب الاقتداء بالمسيح، والذي وزع مجانًا على الناس، كما أنهم جلبوا مطبعة للحروف اللاتينية لطبع النصوص الفرنسية، كما تلقى الكاثوليك مطبعة أخرى من اللجنة الفرنسية لمدارس الشرق.

---

(1) وهذه المطبعة استخدمت الحرف السرياني، وطبع فيها كتاب مزامير داوود بالسريانية والكرشونية (الكرشونية عي السريانية المكتوبة بالحرف العربي)، للمزيد انظر: أديب مروة: **الصحافة الغربية، نشأتها وتطورها**، ط1، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، 1961، ص ص27-35.

(2) تأسست هذه المطبعة العربية الأولى في الشرق والتي استخدمت الحرف العربي، انظر: كرم شلبي: **الإذاعات التنصيرية**، مرجع سابق، ص61.

(3) نفسه، ص62.

(4) نفسه، ص61.

ولهذا اعتمد المنصرون على الاهتمام بالمطابع لأنها وسيلة مهمة للإعلام وإصدار الصحف والمجلات، حيث فتحت مجال كبير أمام حملة توزيع الإنجيل المترجم على المسلمين[1].

ونظرًا لأهمية هذا المجال، تخصصت بعض الإرساليات في مجال الطباعة والنشر من بينها:

- رابطة الإيمان لمساعدة الإرساليات.
- منظمة نشر النصرانية في الشرق الأوسط، وهي منظمة بروتستانتية[2].
- دار النشر الفرنسية (Serf).
- دار الهداية ومقرها (النمسا)[3].

فتأسست عدة مطابع في بيروت للطباعة الصحفية كمطبعة خليل الخوري أين طبعت صحيفته "حديقة الأخبار" في سنة 1858م، وفي نفس السنة أسس إبراهيم النجار المطبعة الشرقية، كما أسس يوسف شلفون المطبعة العمومية في سنة 1861م وعدة صحف أخرى، حيث تشير الإحصائيات أنه في سنة 1902م بلغ عدد المطابع في بيروت 16 مطبعة كبيرة[4].

ولهذا كان اعتماد المنصرين على مدينتين هما: بيروت والقاهرة[5]، فقد عرفت بيروت مثلاً صدور 49 صحيفة، و 26 مجلة ومنشور، كما زاد نشاط الحركة الصحفية مع الدخول الفرنسي إلى سوريا ولكن قبل ذلك يمكن اعتبار لبنان السباقة في إصدار الصحف[6]، وأول الصحف بعد صحيفة بونابرت التي أصدرت في مصر حديقة الأخبار والتي كانت تصدر في مطبعة خليل خوري في جانفي 1858م والتي كانت عربية العبارة[7].

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص29.

(2) عبد العزيز عسكر: **التنصير ومحاولاته في بلاد الخليج العربي**، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1414هـ، ص ص40-41.

(3) كرم شلبي: **الإذاعات التنصيرية**، مرجع سابق، ص60.

(4) كمطبعة المتصرف داوود باشا في جبل لبنان، وفي 1876م أنشأ خليل سركيس المطبعة الأدبية وهي التي صنعت الحرف الإسلامبولي، وهي التي طبعت صحيفة لسان الحال منذ تأسيسها.

(5) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص75.

(6) حسب إحصائيات 1908-1911م، انظر: ليلى حمدون: **الصحافة المصرية بين عهد الانتداب البريطاني وقيام الثورة المصرية في 1952م**، مجلة الصحافة الإلكترونية، العدد 11، 2000، ص2.

(7) خليل الخوري (1836-1907م)، والتي كانت ستصدر تحت اسم الفجر المنير، انظر: جرجي زيدان: **تاريخ آداب اللغة العربية**، دار الكتاب، بيروت،.....، ص1223.

ما يمكن الإشارة إليه أن السباقين في إصدار الصحف كانوا من المسيحيين من السكان الأصليين أو الإرساليات، ولكن المؤكد أن معظم الصحف كانت تطبع في مطابع الإرساليات التنصيرية لسبب بسيط أنهم كانوا المالكين للمطابع بحكم تقاربهم من الكنيسة الأوروبية وبالتالي اقترابهم من أوروبا، ومن هنا تتأكد الأهمية التي منحها رجال الدين للمطابع وضرورة امتلاكها من أجل نشر الأفكار وترويجها بين أفراد المجتمع. وبما أن المطابع مسيحية الملكية فإن المنشورات والصحف ستكون لا محال مسيحية، من بينها ربما برجيس باريس التي أصدرت في 1858م، التي أصدرها الكونت رشيد دحدح[1]، وكذا أحمد الشدياق الذي أصدر الجوائب في 1860م[2].

والجريدة الثانية التي أصدرت في لبنان، هي نفير سوريا، التي أسسها المعلم بطرس البستان في 1860م[3]، وبعد 1870م ظهرت عدة صحف أنشأتها الإرساليات التنصيرية أو رجال الدين ربما من أهمها "النشرة الأسبوعية" والتي أنشأها البروتيستان في بيروت، وظلت تصدر حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية، وجريدة "البشير" والتي أصدرها الآباء اليسوعيين والتي هي نموذج لكل الصحف التي كان ينشرها المنصرين، كما كانت هي المظهر الأول للمنافسة بين الإرساليات التنصيرية ضد الإسلام، وكانت تتضمن مقالات دينية، وكان شعارها "تعرفون الحق والحق يحرركم" والحق عند المنصرين معروف هو الاقتداء واتباع اليسوع أو المسيح والنصرانية للتحرر، لأن حسب اقتناعاتهم المسيح هو المحرر ومنقذ الإنسانية، كانت تهتم كثيرًا بأخبار روما والبابوية والرد على أعداء المسيحية، وكانت تتمتع بحماية فرنسا[4].

وكذا جريدة الجنان التي أصدرها المعلم بطرس البستاني رجل دين في سنة 1870م، والتي كان شعارها "حب الوطن من الإيمان" وهذا نشر غير مباشر لفكرة القومية الوطنية[5].

---

(1) جرجي زيدان: **تاريخ آداب اللغة العربية**، المرجع سابق، ص1232.

(2) نفسه، ص1233.

(3) نفسه، ص1234.

(4) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص63.

(5) نفسه، ص64.

كما أنشأ في نفس السنة القس صابونجي[1] النحلة والتي ظاهرًا كانت تهتم بكل المجالات ما عدا الدين والسياسة، ولكن تصل إليه أو تصب عندهم عن طريق كل الجوانب الاجتماعية وغيرها، وقد أصدر منها 31 عدد[2]، وكذا "الهدية" والتي كانت لسان حال الطائفة الأرثوذكسية.

وهذا ما يبين تفطن المنصرين لأهمية الصحافة والطبع والنشر في نشاطهم التنصيري، ويمكن اعتباره من أهم المجالات المهمة لنشر أفكارهم، والإشادة بها والترويج لها واستبدال الأفكار الموجودة ومحاربتها، استعمل المنصرين مصر كذلك لينشطوا من خلال مقالاتهم في الصحف المصرية، ولم يكن ذكر للصحافة بالمفهوم المعاصر في العالم الإسلامي إلاّ مع دخول الغرب منصرين كانوا أو مستعمرين، فكانت الحملة الفرنسية على مصر سبب دخول الصحافة المعاصرة بمفهومها الأوروبي إلى العالم الإسلامي[3]. وأنشأ المنصرون صحف ومجلات يومية وأسبوعية خاصة بهم "بشائر الإسلام" و "الشرق والغرب" في مصر، واتخذ البروتيستان القاهرة مركزًا لتوزيع منشوراتهم في مصر والعالم الإسلامي، وكانت المطبعات تابعة لهم حتى يتمكنوا من المراقبة أحسن لكل ما يكتب وينشر للعالم الإسلامي، فتروج الأفكار التي يريدون بثها وتمنع الأفكار المصلحة، والتي بإمكانها إنقاذ العالم الإسلامي[4].

كما تعاون المنصرين والصهاينة، فظهر نوعين من الصحف اليهودية والنصرانية في مصر، إحداهما صهيونية أصدرتها الهيئات والجمعيات الصهيونية باللغتين العربية والفرنسية، والأخرى تنصيرية، دون أن ننسى المجلات الموجهة للأطفال من أجل خدمة الثقافة العربية وتلوين العقول الناشئة للمسلمين[5].

كما كانت محاولات في طبع ونشر الصحف والمنشورات في فلسطين من خلال إنشاء مطبعة الرهبان دير الفرنسيسكان في 1846م، في القدس، وكذا بعض المنظمات التنصيرية أنشأت بعض المطابع والتي كانت لكل أو معظم منشوراتها طابع ديني، ثم بعد

---

(1) جرجي زيدان: **تاريخ آداب اللغة العربية**، مرجع سابق، ص1234.

(2) نفسه.

(3) زهير إحدادن: **الصحافة المكتوبة في الجزائر**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012، ص25.

(4) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص35.

(5) محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص31.

انطلاق تركيا الفتاة ظهر العديد من الصحف لأصحابها المسيحيين، ويمكن أن نقول أن معظم الصحف في فلسطين في تلك الفترة كانت لشخصيات مسيحية.

دون أن ننسى في تلك الفترة الصحافة النسوية والتي كان لها أسماء بارزة واهتمت هذه الصحافة بالمرأة والجانب الاجتماعي للمرأة وأخبار أوروبا لكل ما يهم ويتعلق بالمرأة، فكانت بطريقة غير مباشرة تفتّح المجتمع النسوي العربي الإسلامي على المجتمع الغربي النسوي، وتجد في كل مرة ما يربط بينهما، ويمكن ذكر هند نوفل[1] أول صحفية لبنانية في المجتمع العربي ومؤسسة للصحافة النسائية في 1892م بالإسكندرية، أصدرت مجلة الفتاة، لتتولى بعدها عشرات من الأسماء التي برزت في مجال الصحافة النسوية واللواتي كانت لها تكوين في المدارس المسيحية أو كانت مسيحية الأصل، فكتابتها ومواضيعها ستكون ذات بُعد مسيحي لا محال[2].

وقد ركّز المنصرون والمستعمرون على مصر عمومًا، ومدينة القاهرة خصوصًا، لأن مصر كانت السبّاقة في الطباعة والنشر، ولكن هذا لا يعني اقتصار نشاط المنصرين على عموم البلاد وعاصمتها، بل انتشر في العالم الإسلامي ولكن ليس بنفس الحجم والأهمية، فمصر عرفت أول جريدة مع حملة نابليون، وعرفت الجزائر أول جريدة بالمفهوم المعاصر L'estafette de Sidi Fredj[3] الستافات عن طريق الحملة الفرنسية في الجزائر، وكانت باللغة الفرنسية موجهة أساسًا لأفراد الجيش في 1830م، لتأتي بعدها صحيفة المرشد المونيتور ألجيريان (Le moniteur Algérien)[4] في 1832م في عهد الحاكم دو روفيقو[5].

وكانت المرشد الجزائرية بمثابة الجريدة الرسمية للاستعمار، وربما أول جريدة في الجزائر تنشئ لها ملحق بالعربية، ولكن كانت عربيتها ركيكة صعبة الفهم ومختلطة بالعامية، متذرعين بفكرة أنه لا يمكن مخاطبة الشعب الجزائري إلا بالعامية، وأنه لا يمكن

---

(1) كرم شلبي: **الإذاعات التنصيرية**، مرجع سابق، ص60.

(2) جرجي زيدان: **تاريخ آداب اللغة العربية**، مرجع سابق، ص1234.

(3) زهير إحدادن: **الصحافة المكتوبة في الجزائر**، مرجع سابق، ص26.

(4) توقفت عن الصدور في 1871م، للمزيد انظر: أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م، ص214.

(5) دور روفيقو Savary, Anne Jean Marie René Duc de Rovigo دبلوماسي، سياسي، عسكري فرنسي، للمزيد انظر: Thierry Lentz: **Savary le séide de Napoléon**, éd. Fayard, Paris, 2001, pp….

لهم فهم اللغة العربية الفصحى. وهنا نلاحظ مدى حرص الاستعمار على إبعاد الجزائريين عن الفصحى وتقريبهم باللغة الفرنسية، لأن معظم ما كان ينشر من قوانين ومناشير كان باللغة الفرنسية، ولفهمها وجب على الجزائري تعلم الفرنسية وإلا استعمال العامية، علمًا أن المحررون في الجرائد لم يكونوا من الجيش وإنما فرنسيين أدباء أو صحفيين مهتمين بأمور الشرق، من المستشرقين والمنصرين، فأهدافهم واحدة.

وأصدرت صحيفة الأخبار في سنة 1839م وتوقفت عن الصدور في سنـــة 1898م[1] أو سنة 1939م[2]، وكانت لها صدى كبير بين المجتمع، وكانت تعمل من أجل نصرة الجزائر الفرنسية، وتخدم قرارات ومشاريع فرنسا وعملوا على أن تكون حلقة وصل بين السلطات الاستعمارية والمجتمع الجزائري، ولكن تروج أفكار تبعد من خلالها الفرد الجزائري العربي المسلم عن ثقافته وإسلامه.

كما أصدرت السلطات الفرنسية سنة 1847م جريدة المبشر والتي كانت مهمتها تبليغ الجزائريين القرارات والقوانين الفرنسية، تخدير الشعب الجزائري أساسًا[3].

ثم تعددت صدور الصحف بكثرة حسب التوجه السياسي العام للإدارة الاستعمارية في الجزائر، ويمكن تقسيمها إلى: صحافة استعمارية وصحافة أحباب الأهالي، صحافة أهلية، صحافة إصلاحية، صحافة محافظة، صحافة وطنية وصحافة ثورية. وما يشدّ انتباهنا هي الصحافة الاستعمارية وتشمل كل الصحف التابعة للإدارة الاستعمارية تبعية كلية ومباشرة، من جانب التمويل والإشراف من مسؤولي الإدارة الاستعمارية[4].

إلى جانب ذلك، ظهرت صحافة أحباب الأهالي، ويقصد بها المستعمرون الذين انتهجوا منهج المهادنة الظاهري والتقارب من الجزائريين، حتى يتمكّنوا من تطبيق مخططاتهم ومشاريع السلطات الفرنسية بسهولة، وذلك بتخدير الشعب الجزائري[5].

ويمكن أن نأخذ نموذج حول هذه الصحف التي كانت تخدم مصالح فرنسا وتعمل من أجل تطبيق مشاريعها، وأول عدد منها حمل في مقدمته الأهداف من هذه الجريدة وهي على حدّ تعبيرهم، تثقيف الشعب الجزائري وإنبائه بأخبار العالم الإسلامي والذي

(1) زهير إحدادن: **الصحافة المكتوبة في الجزائر**، مرجع سابق، ص26.

(2) وهذا ما يؤكده أبو القاسم سعد الله في المرجع السابق، ص215، حيث أضيف لها قسم عربي في 1903م.

(3) نفسه، ص ص.22-223.

(4) زهير إحدادن: المرجع السابق، ص ص47-58.

(5) نفسه، ص ص29-30.

يعتبر حكامه أصدقاء الملك الفرنسي، كما أن هذه الجريدة تعمل في كلّ مرّة على تذكير الجزائريين بنعم فرنسا عليهم، وكان من أهدافها البعيدة المدى، إلهاء الجزائريين عن الثورات، وزرع روح الخوف فيهم، ولما لا حب فرنسا صاحبة النعم عليهم، حاملة راية التحضر والعلم لهذه الشعوب المتخلفة[1].

دون أن ننسى كل الصحف والمنشورات التي كانت تصدر داخل الكنائس والأسقفيات والتي كانت تهتم أساسًا بالمجال الديني وتعمل داخل المجتمع، كجريدة الأسبوع الديني (La semaine religieuse) والتي كانت تصدر كل أسبوع[2]. ولم يتوقف عند الجرائد، بل تعدّاه إلى كل وسائل الإعلام والاتصال بأنواعها، فقد أولاها رجال الدين أهمية كبيرة، خلال نشاطهم التنصيري، وخصصت مثلاً في الإذاعات ساعات عديدة للبث باللغة العربية[3].

دون أن ننسى وسائل الإعلام الخفية وهي المسلسلات والأفلام والبرامج الوثائقية والتعليمية، والتي تطبع دائمًا بنمط العيش الغربي المسيحي وثقافته وممارساته الدينية، حتى أفلام الصور المتحركة للأطفال لها نفس الصبغة، والهدف من هذا أن يعتاد المسلم على هذه العادات والتقاليد والثقافة الغربية التي في الواقع لم تتخلص من التأثير الديني عليها، بل وتسعى لتثبيته وترسيخه بمخططاتهم من التبعية الثقافية للغرب[4].

وبذلك يعد الإعلام بكل أنواعه من الوسائل الناجحة لنشر أفكار وإيديولوجيات مختلفة وبرامج تنصيرية موجهة[5]، فتمكن من بث أفكار جديدة على هذا المجتمع الإسلامي وترويجها واستقطب العديد من المختصين في الإعلام حتى يتولوا هذه المهمة بل المنصرين، وذلك من أجل إضعاف روح الانتماء الإسلامي والعربي، فجاءت الأفكار القومية وانسلخوا من الانتماء الإسلامي واهتموا بالعروبة، التي ضربت من جهة أخرى كما سبق الذكر، وأعطوا أهمية كبيرة للهويات القديمة للعالم الإسلامي، فاهتموا بالفرعونية في مصر، والفينيقية والآشورية في الشام وبغداد، والأكراد والفارسيين والأتراك والبربر، بعد أن كانت هذه المساحات والأقطار الشاسعة يربطها رابط واحد هو الإسلام تحت خلافة

---

(1) أعداد من جريدة المبشر.

(2) وهي صحيفة كانت تصدر عن الأبرشيات كل أسبوع، هناك أعداد معتبرة منها في – ديوساز – الجزائر.

(3) كرم شلبي: **الإذاعات التنصيرية**، مرجع سابق، ص ص71-77 – 85-87.

(4) فريد أكوورد: **الإرسال الإذاعي الحالي الموجه للمسلمين**، ص ص562-581.

(5) علي بن إبراهيم الحمد النملة، **التنصير مفهومه**، مرجع سابق، ص45.

واحدة[1]، ولقد عمل هؤلاء المنصرين ومن سار على ركبهم لإحياء هذه الروح الجاهلية التي جاء الإسلام من أجل القضاء عليها ومحاربتها[2].

لقد اهتزت الأمة الإسلامية بإدخال أزمة الخلافة، فقضوا على الخلافة العثمانية، التي كانت رمزًا حيًّا لهذه الوحدة الإسلامية، وانتشر عوضها الفكر القومي، ودفن الانتماء الإسلامي، والإخاء الديني، وبذلك فتحت الأبواب للمستعمر ليملأ الفراغ في هذه المناطق وأخذ يحتل المنطقة تلوى الأخرى وفقًا لاتفاقياتهم ومصالحهم، تقاسموا أملاك الرجل المريض، فاستولوا على ثروات المناطق الإسلامية ومكّن الاستعمار والغرب المسيحي قبضتهُ عليها، ولم يكن لهم ذلك إلاّ بجهود المستشرقين المنصرين الذين مهّدوا له الطريق في نفوس المجتمع الإسلامي وإضعاف روح الانتماء الديني بين المسلمين.

لقد كان الشرق وثرواته وما زال إلى يومنا هذا يشدُّ أطماع الغرب وعملوا على الاستيلاء عليها، فأنشئوا أسواقًا ومؤسسات تجارية، وأصبح السيطرة على هذه الثروات هدفًا مهمًا عند المستشرقين، عيّنوا على رأس هذه المؤسسات الغربية مستشارين ومترجمين، وحتى بعد استقلال هاته الشعوب، اهتم الغرب بوضع أشخاص يهتمون بمصالحهم فعينوا في قنصلياتهم وسفاراتهم رجال ذوي خبرة بالعالم الشرقي.

أما الذين كان لهم نشاط سياسي ملحوظ، فكانوا يتصلون بالكثير من المهتمين بالثقافة والإعلام لتشكيل جماعة تخدم وتطبق مشاريعهم، أي يتولوا نشر المفاهيم التي يرغبون في ترويجها بين الشعوب، من أجل فك وإضعاف الروابط بين المسلمين، وأصبحت تمثل غاية وهدفًا للمنصرين، الذين اهتموا كثيرًا بالجانب النفسي وسر قوة المسلمين من أجل أن ينزعوا منه هذه القوة، حتى يصبح سهل الاستيلاء والسيطرة ويصنعون عقيدته حسب أهوائهم الصليبية، وقناعاتهم السياسية والمذهبية، وخلق الظنون والشكوك حول عقيدة المسلم، للدخول إلى عقول المسلمين، وهذا ما يعترف به الآباء والقناصل على حدّ السواء، حيث انتقل الهدف من إنشاء كنيسة ونشر تعاليم المسيح نحو غرس النفوذ الأوروبي ولغته وثقافته، وهذا ما جاء في مراسلات واعترافات القناصل المبعوثين[3].

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص ص174-176.

(2) نفسه، ص176.

(3) طلال العترسي: **البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة**، مرجع سابق، ص ص17-19.

حيث ذكر زويمر خلال مؤتمر لنكو[1] في 1911م – الذي درس خلاله أحوال العالم الإسلامي – أن الانقسام السياسي الذي هو عليه العالم الإسلامي دليل على تدخل يد الله وبذلك أصبحت في يد المنصر العديد من الأوراق الرابحة، تخدم النشاط التنصيري، وبالتالي، أصبحت 4/3 من مناطق هذا العالم سهلة الدخول إليها من طرف المنصرين[2]، وكان لمهمة نشر الفكر القومي أهمية كبيرة في هذا النشاط التنصيري من أجل ضرب الوحدة الإسلامية، وهذا الفكر الذي عبر من الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط نحو الضفة جنوبيه، فبموجبه حاولت المجتمعات العربية الاتحاد حول اللغة العربية[3]، وقامت معظمها على أساس التسامح الديني، أو نظرية قبول الآخر، لتتحول هذه الفكرة تدريجيا من قبول الآخر إلى الابتعاد عن الدين ولكن فيما يخص المسلم، رغم أن فكرة تقبل الآخر موجودة عند المسلم منذ البداية، لأن ديننا يأمرنا بالإيمان بكل الأنبياء والرسل والكتب السماوية[4]، مقارنة بالغرب الذي يعود التسامح الديني إلى فترة انطلاق الإصلاح الديني خلال القرن 15م في أوروبا، ودخلت هذه الأخيرة في صراعات واضطرابات عنيفة واهتزت أوروبا بسببها عشرات السنين[5]، حتى عقدت معاهدة واستفاليا عام 1648م[6].

ليبدأ مبدأ التسامح الديني، وينتشر بسبب ما عانوه من التعصب وحتى يتوقف النصارى على محاربة بعضهم البعض. وكذلك الأمر، عندما ازدادت هجرات الأوروبيين إلى أمريكا للحصول على حياة أحسن، وظهرت اضطرابات مع السكان الأصليين فأصبحوا ينادون بالتسامح.

أما بالنسبة للمسلمين، فإن مبدأ التسامح ومفهومه عندهم مرسخ في عقيدتهم الإسلامية والتي تقول وتقرّ باحترام كل أنبياء الله ورسله وكتبه دون تفرقة، ومنذ ظهور الإسلام، وهناك فرق مسيحية ويهودية تعيش في وسط المسلمين، تمارس شعائرها دون أن

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص93.

(2) نفسه، ص94.

(3) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص178.

(4) محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص102.

(5) أحمد عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ص161-165.

(6) وضعت معظم البنود بتأثير من الكاردينال مازارين (Mazarin) والذي يعتبر الحاكم الفعلي لفرنسا آنذاك، انظر: حمزة عبد الرحمن عميش: **المفاوضات والمعاهدات، دراسة مقارنة بين التشريع الإسلامي والقانون الدولي**، منشورات مركز أبحاث فقه المعاملات الإسلامية، 2016، ص72.

يتعدّى عليها أي مسلم، وذلك ضمن حدود التعايش المشترك دون إثارة أو استفزاز للمجتمع الإسلامي وذلك ما نجده في قرآننا[1].

بينما التسامح الذي ينادي به المسيحيون، هو أن يبقى المسلمين صامتين أمام حركاتهم التنصيرية، وتركهم يطبقون خططهم التنصيرية على المسلمين والعالم الإسلامي، الشيء غير المعقول عند المسلم التمسك بعقيدته التي تحثه على التغير ومنع الخطر على المسلمين، ومن خلال شعار أو مبدأ التسامح الديني، يمنح لهم الحق في التدخل في الدول والأقطار الإسلامية لحماية المسيحيين من أي تعدي عليهم من طرف المسلمين بموجب شعار حقوق الإنسان وحريته، والهدف الأساسي من هذه الشعارات هي إبعاد المسلم عن حرية تطبيق دينه وعقيدته ويمارس شعائرها[2]، وهنا نتساءل، من الذي يجب عليه الإيمان بالتسامح الديني؟ لأن التسامح الديني يجب أن يكون من الطرفين ولا يقتصر التسامح على المسلمين تجاه المسيحيين، خاصة وأن تطور المسيحية الحالية في العالم تدعوا إلى تسامح المسلمين، بينما وجب أن يكون التسامح اتجاه المسلمين من طرف المسيحيين، وخاصة اتجاه الذين يسلمون حديثًا[3].

ولا يعتبر استغلال المسيحيين المنصرين للصهاينة أو الحركة الصهيونية، تسامحًا ديني، وإنما هو وسيلة لتطبيق نشاطهم في العالم الإسلامي، وذلك لأن العدو أصبح مشتركًا، خاصة وأنه كان لليهود مؤازرة في التنصير، وذلك بعد أن تحولت المسيحية على يد بولس إلى خليط من الثقافات السابقة عليها، بما فيها اليهودية المحرفة[4]، ويظهر هذا التسامح بين الديانتين، مباشرة بعد القرارات التي اتخذت في المجمع الفاتيكاني الثاني ومن أهمها[5]:

---

(1) سورة العنكبوت، الآية 46.

(2) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص174.

(3) لقمان هارون، عضو برلماني إندونيسي خلال جلسة 21 جويلية 1967، مذكرة تفسيرية للمداخلة التي قام بها مع 25 عضو بمناسبة الغارة التنصيرية التي تعرضت لها إندونيسيا وما جاء من إحصائيات وبيانات مذهلة نشرتها مجلة التايمز في 12 جوان 1967م، عدد 1 مجلد 89، انظر: أحمد عبد الوهاب: نفس المرجع السابق، ص174.

(4) وهذا ما نجم عن خروج بولس إلى أوروبا، إذ اضطر إلى الجمع بين عقائد الخلاص المنتشرة في الإمبراطورية الرومانية وعقيدة الخلاص التي نادى بها اليسوع، فامتزجت دعوة التوحيد بنظريات فلسفية إغريقية، للمزيد انظر: إبراهيم خليل أحمد: **محاضرات في مقارنة الأديان**، ط2، دار المنار، القاهرة، 1992، ص19.

(5) زينب عبد العزيز: **حرب صليبية بكل المقاييس**، مرجع سابق، ص ص33-34.

- تبرئة اليهود من دم المسيح.
- توصيل الإنجيل إلى كافة البشر.
- توحيد كافة الكنائس تحت لواء كاثوليكية روما.
- فرض عملية التنصير على كافة المسيحيين الكنسيين منهم والعلمانيين.
- استخدام الكنائس المحلية في عملية التنصير.
- فرض بدعوة الحوار.
- إنشاء لجنة خاصة لتنصير الشعوب.
- تغيير اسم لجنة محاكم التفتيش.

فيما يخص التبرئة فإننا نتساءل كيف بعد 2000 عام من تحميل اليهود عبء مقتل اليسوع، اكتشف مسؤولي الفاتيكان فجأة براءة اليهود من دم المسيح، وتحميل ذنب قتله كافة الشعوب، ما احتج عليه المسلمين، فأعيد تغيير صياغته لتحميل عبء قتله للشعوب المسيحية[1].

تعتبر هذه خطوة مهمة لتحطيم العالم الإسلامي نهائيًا، ولمدة طويلة ومن الصعب إيجاد ما يلمه بعدها، وهي خلق عنصر دخيل في فلسطين، اللورد شافتسبري[2]، وهو الذي كان يُمثل فكرة تنصير فلسطين، وجلب اليهود منصرين إليها وإعلان الحماية البريطانية، وحاول اللورد بالمرستون[3] الترويج ونشر هذه الفكرة، فوجه رسالة إلى جريدة التايمز اللندنية والتي نشرتها الجريدة في 17 أوت 1840م، ومن الشخصيات البريطانية التي عملت

---

(1) زينب عبد العزيز: **حرب صليبية بكل المقاييس**، المرجع السابق، ص ص34-35.

(2) اللورد شافتسبري هو مؤسس العقيدة الصهيونية عرف باسم أنتوني أشلي كوبر وهو واحد من أبرز الشخصيات الإنجليزية في القرن التاسع عشر، فقد تبلورت العقيدة الصهيونية على يده من خلال كتابه النظرية، وأشهر ما كتب "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" وقدمه أثناء عقد مؤتمر الدول الأوروبية في لندن عام 1840م، ودعا فيه لندن تبني فكرة **إعادة** اليهود إلى فلسطين وإقامة دولة خاصة بهم – على حد تعبيره –، ولم يكتف بصياغة النظرية الصهيونية، بل هو من كتب المذكرات التفصيلية المحدّدة لبالمرستون، حتى أن أول قنصلية إنجليزية في القدس تم افتتاحها نتيجة إلحاحه وبناءً على توجيهاته. للمزيد انظر: يوسف طويل: **كتاب الحملة الصليبية على العالم الإسلامي، الجذور، الممارسة، سبل المواجهة**، ط2، صوت القلم العربي، مصر، 2010، ج1، ص55.

(3) هنري جون تيمبل ويعرف فيسكونت بالمرستون، سياسي بريطاني تولى منصب وزير الخارجية 1784-1865م، وهو الذي تبنّى مشروع خلق كومنولث يهودي في النصف الجنوبي من سوريا، انظر: : إدوارد ميل أيرل: **رواد الإستراتيجية الحديثة**، مكتبة النهضة المصرية، ج2، ط1، مصر 1961م، ص174.

على تحقيق فكر من سبقها غلاتستون، والقائد البريطاني الجنرال جوردون، والمستكشف البريطاني ليفنستون والممرضة الشهيرة فلورانس نايتنجال.

وعندما عقد مؤتمر أدنبرج التنصيري في سنة 1910م، والذي كان سيحضره الرئيس روزفلت ثم اعتذر، ولكن حضر براين، وكان الغرض من هذا المؤتمر، البحث في مسائل العالم غير نصراني، ومحاولة إيجاد موضع ربط بين المنصرين وأعمالهم، وأهم لجنة في هذا المؤتمر الذي قسم إلى ثمانية لجان، هي اللجنة السابعة التي ترأسها اللورد بلفور والتي اهتمت بدراسة تقارير المنصرين والإرساليات التنصيرية عن أحوال مجتمعات المناطق التي استقروا فيها، أي أنها اهتمت بالتنصير في العالم، وارتبطت بها أسماء لامعة تركت بصمات في مجال السياسة والاستعمار، أمثال بالمرستون، غلاتسون، جوردون، روزفلت، بلفور، وكل هذه الأسماء في مؤتمر تنصيري، يعني أن المؤتمر كان سياسي بالدرجة الأولى، أو من أجل تطبيق غايات سياسية[1].

وربما الذي يهمنا من هذا، هو ازدواجية والمواقف والتلاعب حتى بالنصوص، وفقًا للأهواء السياسية، تبرئة اليهود يخالف نص عقيدة الإيمان المسيحي نفسها، والأخطر أو الجدير بالإشارة إليه أن يقوم الفاتيكان في 30 فيفري 1993م بالاعتراف رسميًا بالكيان الصهيوني المحتل للأرض الفلسطينية[2]، أو الاعتراف بما يطلق عليه "دولة إسرائيل"، وبالرغم من معارضة ذلك للعقيدة الأساسية للكنيسة، وأقر البابا يوحنا بولس الثاني إقامة دولة دينية عنصرية هي الأولى من نوعها في التاريخ[3].

ويظهر هذا التعايش والتآزر بين الديانتين عندما تحدث أزمة محلية أو إقليمية وتكون إحداهما طرفًا فيها، ما حدث في الحرب الأهلية اللبنانية، أو جنوب السودان ضد المتمردين النصارى في الجنوب[4]، أو ما حدث في البوسنة والهرسك، وفي الكسوفو، فتعمل الحركة الصهيونية على تثبيت العقيدة النصرانية التي تخدم وتتفق مع المنطلقات والمصالح والمخططات اليهودية الثابتة في العقيدة اليهودية، أن الأخاريين خدم لليهود، كما هو مصرح به في بروتوكولات حكماء صهيون[5].

---

(1) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص102.

(2) زينب عبد العزيز: **حرب صليبية بكل المقاييس**، مرجع سابق، ص35.

(3) نفسه، ص36.

(4) مصطفى فوزي غزال: **الحيل والأساليب في الدعوة إلى التبشير**، ص ص7-11.

(5) عجاج نويهض: **بروتوكولات حكماء صهيون: نصوصها، رموزها، أصولها التلمودية**، ط3، دار الاستقلال، بيروت، 1990، ص ص296-297.

كما أن صاموئيل زويمر وعائلته كانوا من اليهود، وهو من أكبر وأهم المنصرين في العالم الإسلامي، وعمل من أجل التنصير ومات يهوديًا[1]، وعادةً ما يخفي اليهود انتماءاتهم وينخرطون في أعمال دينية ويمكن أن يتظاهروا بالإسلام لتحقيق وتطبيق أهدافهم.

وبذلك فإن إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين وإصرار النصارى المسيحيين على ذلك، لم يكن من باب التسامح الديني، وإنما خدمةً لمصالحهم وذلك لأن التواجد الدخيل في وسط العالم الإسلامي، سيضعفه ويشتت شمله، وبفتح المجال التنصيري في فلسطين، ستصبح مركز هجوم على العالم الإسلامي، ولا يمكن تجاهل قوة اليهود الهدامة وتخوف الإمبراطوريات منها[2].

وهذا ربما ما جعل اليهود يدخلون مشاريع ومخططات الغرب المسيحي، حيث تأسست في سنة 1809م الجمعية اللندنية لنشر النصرانية بين اليهود[3]، وهي التي عملت على تحريك الأقليات من أجل ضرب الدولة العثمانية، وتحطيم روابط العالم الإسلامي، وكذا فكرة جمعهم في وطن قومي، والتخلص منهم من أوروبا، وخلق للمسلمين عدو قوي في القدس، وهي التي تعتبر عند المسلمين من أهم المناطق، وبذلك ومن هذا المركز الجديد سيخلقون مشاكل وأزمات بكل أنواعها تبقي المنطقة في حالة عدم استقرار دائم يخدم مصالح الغرب المسيحي، فتصبح الأبواب مفتوحة على الشرق الذي أغلقها إسلامهم[4].

وهذا ما يؤكد لنا أن فكرة التسامح الديني لديهم لا علاقة لها بقبول الآخر، وإنما هي وسيلة من بين كل الوسائل التي استعملها المسيحيين لتحقيق مشاريعهم.

ودائمًا مستعملين سياستهم التلاعبية بالمصطلحات والمفاهيم والشعارات، حاول المنصرين إدخال مفاهيم غربية، ظهرت في العالم الغربي المسيحي الحديث، وذلك عن طريق البعثات التعليمية لبعض المثقفين والذين استعملتهم الجيوش التنصيرية من أجل نشر هذه المفاهيم والأفكار الجديدة والتي لم تعبر نحو العالم الإسلامي إلاّ لضمان تقسيمه وتشتيته طويلاً، وحاولوا نشر أنه لكل منطقة قومية معينة خاصة بها، يوضع الدين

---

(1) عبد الله التل: **جذور البلاء**، دار الإرشاد، بيروت، لبنان، 1971، ص228.

(2) العودة للأحداث التاريخية القديمة، انظر للمزيد: عبد الله التل: نفس المرجع السابق، ص ص9-45.

(3) إبراهيم سليمان الجبهان: **معاول الهدم والتدمير في النصرانية والتبشير**، ط4، عالم الكتب، الرياض، 1981م، ص ص47-50.

(4) زينب عبد العزيز: **حرب صليبية بكل المقاييس**، مرجع سابق، ص60.

والإسلام جانبًا وإعطاء الأولوية لقوميات أخرى على حسابه، لاسيما العروبة، وكذا إعادة بعث الفرعونية في مصر، والفينيقية في ساحل الشام، والآشوريين في العراق، والبربرية في المغرب، وعمل المنصر جسب على إعادة الانتساب الفينيقي من جديد تكون فيه النصرانية أكثر انتشارًا وعلى مجال أوسع، واتخذ من كل المدارس التنصيرية والصحافة شبه التنصيرية والكنيسة من أجل تحقيق هذا الهدف[1].

ولكن أهم شعار خدم الحركة التنصيرية هي العروبة والانسلاخ من الإسلام، لإعطاء الأولوية للغة على حساب الدين الإسلامي، وأصبح هناك شبه تكتلات ترتكز أساسًا على اللغة، فقد يتحد ظاهرًا المسيحي والمسلم تحت لواء القومية العربية، فيشتت ويفرق شمل المسلمين في العالم وأصبحت اللغة هي التي تجمع وتوحّد، وأخرجت إن صح التعبير الأقطار المسلمة غير العربية من حيز التكتل، كتركيا وإيران وباكستان وغيرها، وبمساعدة الأفكار التي زرعت في نفس المجتمعات، من فرعونية وآشورية وفينيقية وبربرية، والتي ظاهرًا فشلت في التفشي، إلاّ أنها كانت وراء فشل اتحاد حول القومية العربية وخلقت داخل هذه التكتلات العربية بالإسلام أي عرّبها الإسلام، وفرقها التاريخ، رغم تأسيس أحزاب وحركات سياسية داخل المجتمعات الإسلامية تناشد وتعمل من أجل تحقيق هذه الأفكار، كالحزب القومي السوري[2] الذي أسسه أنطوان سعادة، وحزب البعث العربي الاشتراكي الذي أسسه مشال عفلق، وحزب الكتائب اللبناني، وكذا المخيمات العربية القومية، لتعبئة الشباب العربي، وكل المؤسسات العلمية والسياسية التي أنشأت من أجل نشر هذه الأفكار القومية وتطبيقها وتعبئة الجماهير من خلالها[3].

وما يمكن استنتاجه، هو أن القطر القومي العربي، والذي كان هدفه خلق تكتل قوي، سيحدث تشتت داخل الصفوف العربية أنفسهم، وهذا ما يهدف إليه الفكر التنصيري أساسًا. وكانت حجتهم في ابتعادهم عن الدين هو كثرة واختلاف المذاهب والأديان، والطوائف العقائدية في العالم العربي، مسلمون ونصارى ويهود، وفي كل ديانة عدة مذاهب، سنيين، حنابلة، شيعيين، كاثوليك، بروتستانت، أرثوذكس وغيرها[4].

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص153.

(2) محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص73.

(3) نفسه، ص74.

(4) أحمد عبد الوهاب: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص160.

وإذا وضعنا جانبًا الشتات الذي يمس العالم الإسلامي بتبنيه الفكر القومي العربي، فإنه يُخرج خارج حيز اتحاده كل الدول المسلمة غير عربية، ويدخل داخل حيز الاتحاد دول عربية غير إسلامية، ويصبح هذا التكتل معني بكل ما يمس هذه الدول العربية ولكن مسيحية، في حين لا يهتم بما يحل بدول أو شعوب أو مجتمعات إسلامية غير عربية، ويمكن اعتباره أعمق تشقق وانقسام في العالم الإسلامي حققته الحركات التنصيرية وعملت جاهدةً على إخفاء أن الإسلام هو أحسن ما يمكن للعالم الالتفاف حوله، حيث تفطن السياسيين[1] أن الحركة الإسلامية التي تتسع في إفريقيا هي التي تهدد الإمبراطوريات الاستعمارية، وهذا ما يقره ساستهم، حين يعلنون مثلاً أن الثورة في الجزائر لا علاقة لها بالدين، وإنما هي ثورة مظلوم ضد ظالم، ولكن ما حرك هذه القوات الجزائرية أليس الدين، أليس الإسلام، كل زعيم قادة جماعة نحو أية مقاومة شعبية أو حركة سياسية إلاّ وكان زعيمًا دينيًا أولاً، ثورة أول نوفمبر ألم تقم على صيحات الله أكبر، فإن الدين كان ولا يزال يحرك الجمع في الجزائر، تيقن الجزائريون منذ أن وصلت الجيوش الفرنسية ميناء سيدي فرج، أن هدفهم القضاء على الإسلام وأن لهذا الاحتلال صبغة وروح صليبية[2].

خاصة وأنه خلال مؤتمراتهم التي كانت تعقد من أجل تقييم نشاطهم التنصيري والعمل من أجل إنجاحه بين المسلمين، أكدوا أن في الإسلام ما يلبي كل حاجيات المسلم، لذلك عملوا على مقاومة الإسلام من الداخل، أي بالسلاح الروحي[3].

كما يعلن جورج بيدو[4]، أنه لن يترك الهلال يتغلب على الصليب، وأن الحرب في الجزائر هي ليست حرب دينية، أو جنسية أو حضارية، وإنما هي حرب مظلوم يطلب التحرر من الظالم، إلاّ أنّ الدين في الواقع، عنصر فعال في تحريك هذا المظلوم ضد الظالم[5].

---

(1) قي مولي رئيس وزراء فرنسا سابق، للمزيد انظر: أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، المرجع السابق، ص174.

(2) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص135.

(3) أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص ص49-100.

(4) George Bidault (1899-1983م)، رجل دولة فرنسي، انظر:

Jacques Dalloz, Georges Bidault: **Biographie politique**, l'Harmattan, Paris 1993, pp17-19.

(5) Colette et Francis Jeanson: **L'Algérie hors la loi**, le seuil, Paris 1986, pp267-268.

وبذلك شجع الاستعمار عن طريق المنصرين الفكر القومي وكل الحركات الانفصالية التي تقوم على أساس قومية معينة داخل العالم الإسلامي، فشجعوا الجنس، والأصل، واللغة والجغرافية، بحجة أن كل منطقة عربية لها بيئة جغرافية خاصة بها، والتي تؤثر على الإنسان في عاداته وتقاليده، وتشجع كل هذه الفئات في المطالبة بوطن داخل أوطانهم، وكذا نظرية قومية ثالثة هي إرادة التعايش المشترك، أي أنه إذا أرادت فئة داخل مجتمع معين لأسباب خاصة، تكون اختارتها أو افتعلتها أو افتعلوها لها، مشتركة فعليًا أو فرضيًا، أن تعيش في استقلالية من هذه الأمة الأصلية، لا أحد له الحق في التدخل في حريتها ومنعها منها، وعن طريق هذه الأفكار تأكد من إمكانية تطبيق سياستهم لضرب الوحدة العربية والإسلامية حتى بعد استقلال هذه الشعوب من استعمارها[1].

كل هذا من أجل إبقاء هذه المناطق مضطربة وغير مستقرة، فاستعملت القوى الاستعمارية على أيدي المنصرين الدين في معظم المخططات المراد تحقيقها، ما نراه مثلاً عندما أراد البابا في تونس إقامة احتفال القديس أوغسطين الذي صادف هذا الاحتفال إفخارستي، وكان هذا في قرطاجة على أن أوغسطين بربري الأصل، وكان لهذا الاحتفال محاولة خلق فتن بين المسلمين في المنطقة، فوضعت الأسرّة في المساجد لينام فيها الذين جاءوا للاحتفال، والذين جاءوا معلنين لحرب صليبية جديدة في بلاد المسلمين، كما أن فرنسا قامت بإلقاء القبض على كل الشباب الذين احتجوا لهذه الأعمال التي تتنافى مع المبادئ الدينية للمنطقة[2].

وكذا الظهير البربري، والذي جاء من أجل إثارة الفتن، والذي استعملته فرنسا في مراكش في 15 مارس 1930م، حيث أجبرت السلطان المراكشي الشاب على إصدار ظهيرًا (مرسوم) ينص على أن القبائل البربرية لا يمكن لها أن تخضع للنظام والتشريع القضائي الإسلامي، وأنها يجب أن تسير على قواعد العُرف العشائري البربري، أرادته فرنسا فتنة دينية[3]، بعد أن فشلوا في تحريك العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين ركزوا على فكرة البربري والعربي، من أجل خلق الانشقاق داخل المجتمع المغربي، كما عملوا على إحياء

(1) لطفي عبد الوهاب يحيى: **الكيان العربي، بين المقومات والإمكانيات**، مطبعة الأنصاف، بيروت، لبنـــان، 1965م، ص ص124-125.

(2) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص120.

(3) محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص83.

اللغة البربرية، وعلموا ضباطهم وأولادهم اللهجة من أجل تعميق الهوة بين العرب والبربر وخلق الفتنة والشقاق داخل مجتمع وأمة واحدة، وذلك عن طريق إصدار هذا المرسوم الذي حاول من خلاله سلخ البربر عن الإسلام وعن العرب[1].

وربما من أهم مواده:

– أن كل القضايا التي تحدث في منطقة القبائل البربرية والتي هي من اختصاص القادة من الموظفين وإداريي الأرياف في التشريع الإسلامي، يرجعون فيها الفضل من خلال هذا القانون إلى رؤساء القبائل.

– كما تخضع المعاملات المدنية والتجارية والعقارية وما يتعلق بالأملاك للتشريع الخاص المسمى بالعادات القبلية أو "العرف".

– ذهبوا حتى إلى فكرة إنشاء محاكم استئنافية للبربر، وكانت حجة فرنسا في ذلك، أي إصدار هذا الظهير أو المرسوم أن البربر مظلومين من قبل العرب الذين أجبروهم على اعتناق الإسلام ولغته، ولذلك لا يجوز استبداد الأقلية العربية للأكثرية البربرية، وأغرب ما في الأمر هو أن البربر لم يطلبوا هذا الإنصاف من الفرنسيين، لأنهم مسلمين، وأن المسلمين البربر تمكنوا من تأسيس قوتين، أو دولتين تحت راية الإسلام، الموحدين والمرابطين، ولم تحارب العرب رغم قوتهم لأنهم لم يحسوا بأي تعصب[2].

لكن كل المغاربة ثاروا ضد هذا المرسوم، حيث مشوا من كل المناطق احتجاجًا على هذا التفريق في التشريع بين المسلمين أنفسهم[3]، ورغم ثورات المغاربة ضد هذا المرسوم، إلاّ أنهم استطاعوا من خلاله فتح ثغرة داخل مجتمع موحد، وبقي هذا المرسوم ورقة ربح عند الإرساليات التنصيرية، من أجل ترويج فكرة أن البربر هم السكان الأصليين للمغرب وأنهم يختلفون، بل وأنهم من أصل أرقى من العرب، النازحين على المنطقة، بحجة أنهم أتوا بالإسلام[4]، وأرادوا بكل الطرق والنظريات ربط المجتمع البربري بأصول أوروبية غربية، ويؤكدون على مسيحية المنطقة قبل الإسلام، ومن خلال دراساتهم للتاريخ القديم

---

(1) محمود عبد الرحمن: المرجع السابق، ص85.

(2) حسان حقي: **المغرب العربي**، دار اليقظة، بيروت، لبنان، ص ص168-169.

(3) نفسه، ص ص170.

(4) محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص ص91-93.

للمنطقة عملوا على تسليط الأضواء على هذه الفترة، وحاولوا تفسير حالة اندثار المسيحية في الغرب الإسلامي، محملين حكام الدولة الموحدية ذلك (1147 – 1233م)، ويعتمدون في ذلك على نص صغير لا يتجاوز السطر ونصف ويخص منطقة تونس لا شمال إفريقيا بأكملها ورد عند ابن الشدّاد (توفي بعد سنة 1186م) وأعاده ابن الأثير ويقول: «عرض الإسلام على من بها من اليهود والنصارى، فمن أسلم سلم ومن امتنع قتل»[1].

وكل هذه الجهود من أجل مسح فترة الإسلام في المغرب وفتح ثغرات داخل المجتمع المسلم لتحريك بداخله قوميات تجعل المنطقة في حالة غليان دائم تسمح لها بتحقيق مشاريعها. وكل هذا عن طريق تعزيز فكرة أن البربر قوم مختلف عن العرب، متقدم ورقي الأصل، وأن له تشريع بين عشائره، دون اللجوء إلى النظام الإسلامي وحتى الاستعماري، متجاهلين في ذلك، أن القاعدة الأساسية في التشريع الإسلامي هي الشورى، وهذا أهم ما تميز به التشريع لدى العشائر البربرية، أي أن كل قرار يؤخذ في كل المجالات والمسائل والمشاكل بكل أنواعها لن يتمّ إلا باجتماع شيوخ العشائر لدراسته واتخاذ القرارات اللازمة، أي الشورى وهذا ما يسمى عند البربر "تجمعت" أي مجلس الشيوخ[2].

واستغل المنصرين أوجه الخلاف الفرعية بين المسلمين، فحاول تعميقها، وغذى وساعد الأقليات والطوائف والقبائل، بل وفي بعض الأحيان كان وراء خلقها على البقاء، وخلق بينها وبين الأكثرية أحقاد وخصومات مستغلاً ذلك لتأكيد بقائه.

وهذا ما يؤكده بعض المفكرين، الذين يقولون أن الخطة الفرنسية، تهدف إلى إيجاد تيار جزائري في مظهره وأصوله، فرنسي في قناعته وتوجهاته، فهو يرفض مقولة الجزائر الفرنسية بحكم الواقع، ولكون المعمرين لا يسمحون بذلك، حتى لا ينافسهم الجزائريين في امتيازاتهم التي كانوا يحظون بها، كما أن هذا التيار أيضًا لا يسلم بفكرة الجزائر العربية الإسلامية باعتبارها لا تعبر عن طموحهم ولا تتماشى مع انتماءاتهم وقناعاتهم، وقد استطاع هذا التيار الذي ظهر ناطقون باسمه في الجزائر، أن يستقطب في منطقة بلاد القبائل بالخصوص جماعات من الشباب نشأت في مدارس المنصرين الاستعماريين، وذات

(1) عز الدين عناية: **الحضور المسيحي في المغرب الكبير**، جريدة الخبر، العـــدد 7888، ليوم 21 أوت 2018م، ص ص15-17.

(2) أحمد بن نعمان: **فرنسا والأطروحة البربرية**، مرجع سابق، ص ص45-50.

توجهات لائكية، وترعرعت بتوجيه من القائمين على الإدارة. وكل ذلك من أجل تعزيز وتثبيت الثغرة داخل المجتمع الجزائري حتى تنسى من تطبيق سياسة فرق تسد[1].

ومن هنا نلاحظ النظرة العدائية التي اتسم بها الغرب المسيحي نحو الإسلام، مقتنعين بالخطر الذي يمثله بانتشاره في كل أنحاء العالم، وهذا راجع لتأثير الكنيسة على كل الأحداث السياسية، والتي لم تكن لها علاقة بالدين ولكن ضرورية للخطاب السياسي، للتأثير على الدوافع السياسية اتجاه الشرق الإسلامي، والتي تجسدت بنقل العديد من المفاهيم والأفكار من أوروبا المسيحية إلى العالم الإسلامي، واستغلت كل الفرص لتعزيز العمل التنصيري خاصة الخفي، فعملوا جاهدين على إظهار أن الإسلام هو دين لاهوتي عبادي لا ينطبق على المجتمع الحديث المتحضر، وأنه من أراد أن يتطور وجب عليه اختيار أحد الأنظمة الديمقراطية الغربية في السياسة والاقتصاد والتعليم.

كما حاول المستغربين من استغلال نتاج الحركة التنصيرية، وذلك لتدعيم عدة شعارات من بينها مثلاً العلمانية في كل المجالات خاصة التعليم والسياسة، بنزع الدين أساسًا من المناهج التعليمية، ومن القضاء والقانون، وذلك أن سبب تخلف العرب هو تمسكهم بالدين الإسلامي، ولن يستطيعوا التخلص من هذا التخلف الحضاري – على حدّ تعبيرهم – وضرورة التخلي عن الدين في التعاملات اليومية، وعملوا جاهدين على أن يصبح الدين عبارة عن قضية شخصية، يمارس الإنسان طقوسه وشعائره في بيته أو في المسجد، ويحاولون دائمًا في أوساط الشبان طرح أفكار للمقارنة بين المجتمعات الأوروبية المسيحية والإسلامية، مركزين على فكرة أن تطور الغرب المسيحي راجع لتبنيه فكرة العلمانية والتخلي عن الدين، وتمسكه بمنطق العلم، ويمكن اعتبارها من أخطر القضايا المطروحة إلى يومنا هذا، وسبب الصراع بين العلمانيين والإسلاميين.

نشأت العلمانية[2] في أوروبا بسبب عدائها للكنيسة، والتي شكلت في تلك الفترة العدو بسبب تسلطها، ورفضها للعلم والعلماء، ما ولّد الرفض للديانة والكنيسة، ما يختلف تمامًا مع الإسلام والذي لم يرفض العلم والعلماء، بل يحث على طلب العلم.

---

(1) ناصر الدين سعيدوني.

(2) هي ترجمة عربية للفظ إنجليزي Secularity أي لا ديني أو اللادينية أو ابتعاد عنه.

العلمانية حسب الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة والصادرة عن الندوة العالمية للشباب المسيحي، وانتشرت في العالم بدعم من الحركة الاستعمارية وحركات المستعمرين، للمزيد انظر: أحمد إدريس الطعان: **تاريخ الدين والوحي في الإسقاطية العلمانية**، مجلة الحياة، ع13، 2009م، ص59.

وهذا الصراع بين الكنيسة والحركات الجديدة، أتى بطريقة غير مباشرة، الثورة الفرنسية[1] لتكون أول حكومة لا دينية ظاهرًا، تحكم باسم الشعب، ويعتبر اسبينوزا[2] رائدًا للعلمانية رغم أن المصطلح معاصر مقارنةً بالفترة التي وجد فيها، كما استغلّ العلمانيون نظرية داروين[3]، من أجل خلق فوضى في أوساط المجتمع ونشرت الإلحاد، ليأتي بعدها نيتش، والذي من خلال نظريته رأى أن الإله قد مات وأن الإنسان العاقل يجب أن يحل محله، أما دوركايم[4] اليهودي الأصل رأى أنه من الضروري الربط بين حيوانية الإنسان وماديته، ليأتي فرويد[5] اليهودي الذي أسس نظرية الدافع الجنسي كأساس لتفسير كل الظواهر الإنسانية، وماركس اليهودي صاحب التفسير المادي للتاريخ، والذي كان يرى أن الدين أفيون الشعوب، فاستطاع أتباعه من تأسيس دول لها مناهجها التربوية والتعليمية والسياسية علمانية.

ما يمكن ملاحظته، هو أن أصحاب هذا الفكر العلماني أو النظريات التي ساعدت على قيامه، أي إبعاد الدين عن الدولة خاصة من اليهود. فهناك من يقول أن البعض منهم انتهزوا حركة الثورة الفرنسية في 1789م، فاستغلوا أخطاء الكنيسة والحكومة الفرنسية وركبوا موجة الثورة لتحقيق مخططاتهم وأهدافهم، وصلت العلمانية إلى الشرق عبر حروب وجيوش، وكانت دخيلة أجنبي من كل النواحي والرؤى والإيديولوجيات[6]، وبما

---

(1) من بين الكتب والعلماء الذين قادوا الثورة الفرنسية، جان جاك روسو، العقد الاجتماعي والذي يعد إنجيل الثورة، مونتسكيو، روح القوانين، سبينوزا، اللاهوت والسياسة فولتير، القانون الطبيعي، ويليام جودين 1793م، العدالة السياسية، ميرابو سارت، وغيرهم، انظر: (1) دليلة بوجناح: **الفكر الاستعماري الفرنسي وتطوره**، مرجع سابق، ص ص115-130.

(2) ويرى سبينوزا أن العلمانية أو مفهومها منهاجا للحياة والسلوك، انظر:

(3) التي ترتكز على قانون الانتقاء الطبيعي للبقاء الأنسب حيث زعم أن بداية الإنسان عبارة عن خلية عاشت في المستنقعات قبل ملايين السنين والقردة مرحلة من مراحل التطور التي كان الإنسان آخر حلقاتها، وهذه النظرية خلقت فوضى في الأوساط الدينية، انظر: بخنز علي: **مذهب داروين**، ترجمة شبلي، فلسفة النشء والارتقاء، دار مارون عبود، لبنان، 1983م، ص98.

(4) دوركايم (1858-1917م)، انظر/ يوسف كرم: **تاريخ الفلسفة الحديثة**، مرجع سابق، ص434.

(5) فرويد يرى أن الأديان وهمًا من أوهام الجماهير، يميلون للاعتقاد بوجود أب وراء هذا الكون بوصفهم أطفال بحاجة ماسة إلى رعاية، انظر: أغروست روبيرث: **العلم في منظوره الجديد**، ترجمة كمال خلايلي، عالم المعرفة، الكويت، ع10، ص134.

(6) أغروست روبيرث: نفس المرجع السابق، ص135.

أنها ظهرت وترعرعت في ظروف خاصة في أوروبا، لم تكن موجودة داخل المجتمعات الإسلامية، بل وصلت إلى العالم الإسلامي الذي يختلف تمامًا عن المجتمع الغربي، فأساس نجاحها في الغرب مفقود في العالم الإسلامي، بل وربما يتناقض تمامًا معه، ولهـذا السبب استعملت هذه الأفكار من طرف الغرب المسيحي الذي كان غرضه زعزعة البنية الاجتماعية للمسلمين.

دخلت العلمانية كأفكار إلى مصر عبر الحملة الفرنسية[1]، وأول من استعمل هذا المصطلح النصراني إلياس بقطر من خلال معجم عربي فرنسي[2]، وكذا إدخال القانون الفرنسي 1883م على مصر من طرف الخديوي إسماعيل[3].

كما عملت فرنسا جاهدة من أجل إلغاء التعامل بالشريعة الإسلامية في الجزائر بعد احتلالها، كما أدخل القانون إلى تونس في 1906م، أما في المغرب تم إدخاله في 1913م، أما تركيا بعد كل الإرهاصات والمقدمات، لبست زي العلمانية بعد 1923م[4].

وبعبور هذه الأفكار بين الضفتين ووصول الفكر العلماني إلى العالم الإسلامي، ثم تعزز بقوة الاستعمار على يد المنصرين، وهي طريقة جديدة لتمزيق الأمة الإسلامية، والتشكيك في عقيدتها، وتسوية تاريخ أمتنا، من أجل توهيم النشأ بوجود فرق بين الدين والعقل[5]، وقد استعمل المنصرين عن طريق المستشرقين منهم، العديد من الكتب والدراسات من أجل نشر هذه الأفكار نيابةً عن المستعمر، واستخدمت من أجل ذلك بعض المثقفين، في مصر، والشام، والعراق، وتونس، والجزائر والمغرب، وكان لها مجموعة من مثقفيها الذين روجوا للعلمانية[6]، وذلك عن طريق الإعلام بكل أنواعه، وندوات ومؤتمرات

(1) الجبرتي عبد الرحمن بن حسن: **مظهر التقديس**، تحقيق عبد الرزاق عيسى، ط1، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ص123.

(2) إلياس بقطر، هو كاتب مصري قبطي عيّن في كرسي اللغة العامية العربية في مدرسة اللغات للشباب في باريس، إلياس بقطر، قاموس فرنسي – عربي، وضعت فيه لأول مرة ترجمة عربية لكلمة laïque = علمانية، انظر: عبد الرحمن البدوي: **موسوعة المستشرقين**، مرجع سابق، ص112.

(3) كان الخديوي إسماعيل مفتون بالغرب، وكان أمله أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا، انظر: عمر عبد العزيز عمر: **تاريخ مصر الحديث والمعاصر (1517-1956م)**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989، ص ص170-172.

(4) إبراهيم سليمان الجبهان: **معاول الهدم والتدمير**، مرجع سابق، ص63.

(5) محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص125.

(6) إبراهيم سليمان الجبهان: المرجع السابق، ص64.

ومناظرات، ووصلت حتى مدرجات الجامعات تحت غطاء التنوير، بنشر فكرة أن هناك تناقض بين العقل والمنطق والدين أي النصوص الشرعية، وأخذت الأفكار الهدامة للقيم مكانها في المجتمع بتسميات مختلفة، العنصرية، الشيوعية، الصهيونية، الماسونية، ما ساعد على ضياع ثروة المسلمين وتردّي اقتصادهم، والاستيلاء والسيطرة على أراضيهم[1].

ما أدّى إلى انتشار الإباحية والانحلال الخلقي ما كان يطمح إليه المنصرين، ما أكده زويمر في مختلف خطاباته، أن أهم أهداف العمل التنصيري هو إبعاد العالم الإسلامي عن أخلاقه وعقيدته، حتى يصبح دون أخلاق. مؤكدين أن الإسلام هو العقبة الوحيدة أمام تقدم وتطور الشعوب المسلمة، والابتعاد عن الشريعة يفتح له أبواب التطور والرقي على مصراعيه[2].

ولكن هل حقًّا تقدم وتطور أوروبا كان بابتعادها عن الدين، أي علما نيتها؟ للإجابة ربما وجب الرجوع إلى الأحداث التي مرت بأوروبا والمسيحية أو بالأحرى الكنيسة بعد علمنة الحكومات، وما يمكن ملاحظته إذا ألقينا نظرة سريعة، فنجد أوروبا أو الحكومات الأوروبية أعطت أهمية كبيرة للكنيسة والديانة في سياستها الداخلية، عكس ما تروج له خارج مواطنها موهمة العالم بعلمانيتها التامة، فإنجلترا لا يمكن لنا أن نشك في تطور وتقدم شعبها، إلاّ أنه من أكثر الشعوب الأوروبية تمسكًا بالدين، فعندما ظهر صراع بين اليمينيين واليساريين حول الخبز والخمر، وتحوله إلى جسد ودم المسيح في الثلاثينات، ورغم أن القضية دينية محضة، إلاّ أنها كانت أساس مناقشات طويلة في مجلس الشيوخ والنواب[3] في أكثر دولة تحضرًا، فهل كانت إنجلترا رافضة للدين حين شغلت نفسها بهذه المشكلة؟ فقد نصحها عدة مرات عسكرييها على تكثيف عمل الإرساليات التنصيرية في العالم الإسلامي لتسهيل تطبيق خططهم، فالجنرال هايغ نصح حكومته بإرسال المنصرين إلى شبه الجزيرة العربية[4].

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص73.

(2) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص125.

(3) محمد السيد الجليند: **الاستشراق والتبشير، قراءة تاريخية موجزة، سلسلة تصحيح المفاهيم**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1999م، ص ص92-95.

(4) نفسه، ص101.

بلجيكا تبنت في برامجها الحكومية الرسمية مهمة تنصير الزنوج في مستعمراتها، في الكونغو، واستطاعت تحقيق ذلك حين أصبح أكثر من 50% من الكونغو مسيحيين، بفضل جهد المنصرين الذين أوفدتهم من بلجيكا[1].

أما في إيطاليا التي حاربت البابا وسجنته في الفاتيكان، بنت سياستها الاستعمارية على مجهودات الرهبان والمنصرين، وبعد أن غلب عليها الحكم الفاشي، عادت إلى المدارس الكاثوليكية وأقامت الصلبان داخل المدارس، وعدلت قوانين البلاد وفقًا لمبادئ الكنيسة، كما أعلنت أنها دولة مسيحية واستعانت برجال الدين داخل مستعمراتها، كما أنها أخذت الأطفال من مستعمراتها "ليبيا" بالقوة من أجل تربيتهم تربية نصرانية، واعتدت بذلك على أقدس حرية إنسانية وهي الحرية العقائدية[2].

وفرنسا العلمانية في دولتها، أكبر حامية للإرساليات التنصيرية في مستعمراتها، فمثلاً اليسوعيين الذين طردتهم من فرنسا هم أهم أصدقائها في مستعمراتها، وهي التي وضعت اتفاق مع الفاتيكان لتحديد العلاقة بين الدولة والكنيسة[3]، وأمريكا الرأسمالية مولت ولا تزال تقريبًا نصف الحركات التنصيرية في العالم ويدعون إلى الحياة الروحية والسلام الديني. وحتى روسيا المحاربة للأديان في بلادها بعد الحرب العالمية الثانية عندما أرادت أن تتوسع إقليميًا، بدأت تحمي وتتعاطف مع رجال الدين وتمولهم ودعت إلى قيام مجمع مسكوني في موسكو وحضره ستالين شخصيًا[4].

وكل الدول الأوروبية أعلنت مسيحيتها، وأن ثقافتها إنجيلية، وكانت تعلن مرارًا واستمرارًا أمام مجالسها النيابية أنها متمسكة بالثقافة الإنجيلية، فنجد وزير المعارف الهولندي، افتتح مؤتمر المستشرقين في لندن عام 1931م، بخطاب صرّح فيه بأن هولندا لم تذهب إلى الشرق من أجل التجارة، وإنما لنشر الدين المسيحي، كما صرّح "سترزمان" وزير خارجية ألمانيا في كثير من خطاباته أن الثقافة الألمانية قائمة على الدين المسيحي[5]،

---

(1) محمد السيد الجليند: **الاستشراق والتبشير**، المرجع السابق، ص103.

(2) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص ص34-35.

(3) نفسه، ص36.

(4) نفسه.

(5) محمد السيد الجليند: **الاستشراق والتبشير**، المرجع السابق، ص103.

كما أن برنامج هتلر الذي قدمه لوزارته وصادق عليه الوزراء كان يعلن أن أول ما سيبدأ به في ألمانيا القومية هو استرجاع الوحدة الروحية، وإحياء النصرانية، وبدّل التعليم الديني بالتعليم المدني.

أما برنامج المصلح كالفن قائم أساسًا على فكرة أن الدولة المسيحية رأسها هو الله، وحتى يبقى الإنجيل تابعًا لهذه الدولة يجب أن يبقى يسير على خطى الإنجيل، وبذلك عبادة الله رأس الدولة المسيحية واليسوع رأس الكنيسة، وباتحاد هاتان السلطتان الدينية والدنيوية ستتمكن من تسيير شؤون الدولة، وأن كل حكم زمني أو روحي يجب أن يُبنى على أساس الكتاب المقدس، كما أنهم أكدوا على قبول رجال الدين للحكم[1].

حتى وإن سلمنا بأن الحكومات الأوروبية تبنت العلمانية، لكن المؤكّد أنّها في مستعمراتها أو المناطق المراد استعمارها ساندت النشاط التنصيري، والمنطق يقول أنها لا تهتم بالدين، إلاّ بالقدر الذي يمنح الحرية الدينية والممارسات الشخصية للشعائر الدينية، كما أن علمانية الدولة لا تعني عدم تدين المسؤولين عليها، وإنما نظريا عدم تدخل الدين في الشؤون والقرارات الداخلية والخارجية للدولة، ومهما حاولنا أن نحسن الظن في الحكومات الغربية وعلمانيتها، لكنّنا نجد أنفسنا أمام كل المساعدات والتسهيلات التي قدمتها للمنصرين ورجال الدين عامة[2]، وتبنّي معظم المشاريع المقدّمة من طرف الجيوش التنصيرية، وإقحام رجال المخابرات بين رجال المنصرين، وذلك عن طريق السفارات أو القنصليات والملحقات الثقافية، والامتيازات التي حصل عليها بعض رجال الدين تجارية أو غير تجارية، وكل هؤلاء يمرون بتكوين تنصيري قبل الدخول في العمل الدبلوماسي أو الالتحاق بمناصب، وهناك عدة أمثلة، منها لا للحصر القنصل البريطاني جون كرك والذي في 1877م، دعا الأمين لجمعية الكنيسة التنصيرية هنري رايت إلى إرسال المنصرين نظرًا للأهمية الدينية والسياسية للوقوف في وجه ما سماه هو الامتداد المصري التركي، أي بتعبير آخر الامتداد الإسلامي[3].

---

(1) محمد السيد الجليند: **الاستشراق والتبشير**، المرجع السابق، ص105.

(2) إبراهيم الزين صغيرون: **لمحات تاريخية عن انتشار الإسلام في أوغندا**، مجلة كلية العلوم الإنسانية، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، عدد 6، 1986م، ص ص17-29.

(3) نفسه، ص ص17-29.

حيث يعتبر المنصرين جواسيس بالدرجة الأولى في خدمة الدول المستعمرة، وأولت الدول الغربية أهمية كبيرة للإرساليات التنصيرية داخل العالم الإسلامي، حتى يكون لها أعين في المنطقة ويمكن لها التحرك متى تشاء نحوه[1].

عملوا جاهدين من أجل نشر أفكار تدور معظمها حول العلمانية، وأول ما عملوا على نشره هي فرض النظام الوضعي والذي يقوم على أساس التناقض مع الإسلام وشريعته جملةً وتفصيلاً، ويتماشى مع كل الأفكار الهدّامة، عمل المنصرين بدعم من المستعمرين على إقناع المسلمين أن لا علاقة بين الله وحياة الإنسان، وأن الحياة تقوم على أساس العلم المطلق وبالعقل والتجربة، ففسروا مبادئ عديدة منها البراغماتية "النفعية" والمكيافلية، في الحكم والسياسة والأخلاق، ونشر الإباحية والفوضى الأخلاقية، وكل ذلك عن طريق الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي كمؤيدين للمذهب العلماني، والذين بدورهم أصبحوا يطعنون في حقائق تخص الإسلام والقرآن ويعتبرونه نص إنساني ذكر على لسان نبي[2].

وهناك من أكّد أنه كان صالح في وقت معين لمحاربة الوثنية والأصنام، وبذلك فهو لا يصلح للتقدم والتحضر والرقي، بل هو سبب التخلف، فعملوا على تشويه الحضارة، عندما طالبوا بتحرير المرأة على المثال العربي، وتربية النشأ بعيدًا عن الدين، وكل برامجهم ومناهجهم التي حاولوا نشرها اقتبست من الغرب[3].

ولكن رغم كل مجهوداتهم، إلاّ أنّها لم تتحقق في العالم الإسلامي إلا بنسبة قليلة.

2 – مشاريع تهجير الموارنة إلى الجزائر:

المارونيين هي طائفة دينية تقطن في سواحل بلاد الشام، تمكن الموارنة من الحفاظ على كيان شبه مستقل خلال فترتي الخلافة الأموية والعباسية، محافظين على ديانتهم، وهيمنوا خلال القرن 19م على جمهورية لبنان الكبير برعاية دولة أوروبية[4].

وإن تاريخ الموارنة هو صورة عن رحلة التهجير والتوطين، نشأت المارونية في شمال سوريا، واستوطنت شمال لبنان، ثم نزحت إلى الكسروان والشوف وسائر المناطق، ثم هاجرت أو هُجِّرت واستوطنت بقاع الأرض[5].

---

(1) طلال العترسي: **البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة**، مرجع سابق، ص ص38-40.

(2) محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص ص107-109.

(3) محمد الغزالي: **ظلام من الغرب**، ط1، دار الكتاب العربي، مصر، 1956م، ص ص108-110.

(4) للمزيد انظر: متى موسى: **الموارنة في التاريخ**، دار قدمس للنشر، دمشق، 2004م، ص ص21-31.

(5) نفسه، ص34.

بانسحاب جيوش محمد علي من لبنان سنة 1804م، واستسلام حليفه الأمير بشير ونفيه من طرف الإنجليز إلى مالطا، ودخلت المنطقة في حالة من الفوضى والاضطراب بتعيين بشير الثالث أميرًا على لبنان من سنة 1840م إلى سنة 1847م، وشهدت المنطقة فتنًا دموية عدة وذلك نتيجة اتساع نطاق التدخل الأوروبي، واشتداد الصراع الفرنسي الإنجليزي على المنطقة، وكذا ضعف الدولة العثمانية، ولكن كانت تحاول في كل مرّة تحافظ على نفوذها، مثلاً سنة 1841م تدخل العثمانيين ونفوا بشير III إلى اسطنبول وتحولت إمارة لبنان إلى إمارة عثمانية، وعين عمر باشا واليًا عليها، ولكن لم يهدأ الوضع بل قامت انتفاضات أجبرت الباب العالي بموافقة الدول الأوروبي سنة 1843م، إلى تجزئة لبنان إلى محافظتين، درزية ومارونية، وهذا هو الحل الدولي[1].

وهو الذي كان في الحقيقة تحضير منظم لحرب أهلية بين الطائفتين، حيث اشتعلت نار الفتن وكذا بعض انتفاضات اجتماعية فلاحية، وهذه الانتفاضات المتداخلة بين الطوائف والطبقية، متبوعة بمذابح أدت إلى نزوح فريق من الأهالي إلى المناطق الأكثر أمنًا، وأحيانًا إلى هجرتهم خارج لبنان، إلى مصر مثلاً، ومن هنا قدَّم فريق من النازحين الموارنة طلبًا إلى قنصل فرنسا العام لتأمين سفرهم إلى الجزائر[2]، ليبدأ مشروع تهجير الموارنة إلى الجزائر، حين وجه في 9 سبتمبر 1845م قنصل فرنسا العام في الإسكندرية، إلى وزير الشؤون الخارجية الفرنسي برقية تتضمن طلب المارونيين الراغبين في الهجرة، ويمكن اعتبار هذه البرقية المؤشر الأول لتحقيق هذا المشروع، وحاول شرح من خلالها طلب هؤلاء وهو رغبتهم في العبور إلى الجزائر عبر بواخر الدولة، علمًا أن الجزائر كانت تحت الاستعمار، أي تحت الحكم الفرنسي المسيحي الحامي للموارنة في لبنان، وحامي المسيحية في العالم[3].

ولكن قوبل هذا الطلب بالرفض من طرف الملك، فاقترح القنصل ضرورة طرح المسألة أمام وزير الحرب ورئيس المجلس رغبة منه في استعمال الموارنة في استعمار شمال إفريقيا، حيث حصلوا على الإذن، سيتبعهم العديد من مواطنيهم والذين هم مسيحيين

---

(1) كمال الصليبي: **تاريخ لبنان الحديث**، ط7، دار النهار للنشر والتوزيع، بيروت، 1999م، ص ص14-27.

(2) سركيس أبو زيد: **تهجير الموارنة إلى الجزائر**، ط1، دار أبعاد للطباعة والنشر، بيروت، 1994، ص ص21-22.

(3) Georges Yver: **Les Maronites et l'Algérie**, revue Africaine, vol. 61, n°304-34/1920, 3ème et 4ème trimestre de 1920, pp166-167.

بالولادة ومتمسكين في ديانتهم، ويمكن أن يكون لهم أثر كبير على الجزائريين، بما أنهم سيكونون على اتصال مباشر بهم، أضف إلى ذلك مساعدتهم في الجانب الاقتصادي[1].

وبالفعل في 30 سبتمبر نقل هذا الاقتراح من طرف وزير الشؤون الخارجية إلى وزير الحربية، والذي أحاله هو بدوره على كبار موظفي الوزارة لدراسته ولكن استقبل ببرودة، ولخصوا أسباب ذلك أن مسيحيي لبنان ليسوا محاربين وأنهم يعيشون تحت سيطرة مطلقة لإكليروس قليل الأخلاق غيور على سلطته، ويعتمد على الدسائس، أي ليسوا محل ثقة[2]، وبما أن الوضع في الجزائر ليس واضح بعد لا يمكن لفرنسا أن تخاطر، بإدخال عنصر دخيل، يمكن أن يصعب الوضع.

أضف إلى ذلك المصاريف التي تكلفهم هذه الهجرة لأنها لا يمكن أن تؤمن لهم النقل فقط، بل يجب أن تتكفل بهم لمدة طويلة حتى يتمكنوا من الاستقرار والعمل[3].

وأكدت المذكرة على الدور الذي يلعبه هؤلاء الموارنة في الشرق ولخدمة مصالح فرنسا، حيث تمارس فرنسا من خلالهم تأثير في المنطقة خاصة في حالة سقوط العثمانيين، سيكوّنون أهم ثغرة لتدخل فرنسا في المنطقة[4].

ورفعت هذه المذكرة إلى الماريشال سولت (Soult)، وزير الحربية، والذي طلب منهم ضرورة استشارة الحاكم العام للجزائر، ومدير الداخلية وخاصة مراجعة أسقف الجزائر[5].

وفعلاً فقد وجه وزير الحربية في 2 نوفمبر 1845م رسالة إلى حاكم الجزائر، الجنرال بيجوا (Bugeaud) يشرح ضرورة وضع تحذيرات جانبًا، أمام مشروع تهجير الموارنة إلى الجزائر، والتي بالإمكان أن يكون له فوائد عظيمة على فرنسا في الجزائر وفي المشرق[6]. ورغم كل التزكيات إلا أن جواب الجنرال بيجوا كان غير مشجع، نظرًا لما ممكن لهذه الفئة أن تخلق من ردّة فعل للمجتمع الجزائري، وفرنسا ما زالت خلال هذه

---

(1) Georges Yver: **Les Maronites...,** op.cit, pp168-169.

(2) سركيس أبو زيد: **تهجير...**، مرجع سابق، ص84.

(3) Georges Yver: **Les Maronites**..., op.cit, p168.

(4) نفسه.

(5) سركيس أبو زيد: نفس المرجع السابق، ص37.

(6) نفسه، ص40.

الفترة تحاول السيطرة على الجزائر عسكريًا وإخماد حركات المقاومة لوجودها، وتهجير الموارنة سيؤكد نية فرنسا الاستيطانية والتنصيرية، وأكّد أنه في حالة ما إذا وجب تنفيذ هذا المشروع، لا بدّ من استقبال أشخاص أثرياء ينقلون ثروتهم إلى الجزائر ومعداتهم للعمل إما في الحرف والمهن أو في الزراعة والتي يمكن تحويلها إلى عملة أو دعم اقتصادي للدولة يمكن الاستفادة من تهجيرهم، أما إذا وجب على الدولة التكفل بهم من كل النواحي فإنه يرى أن لفرنسا مشاغل أخرى يمكن أن تهتم بها[1].

وبذلك فإن حالة البؤس والفقر التي تعيشها فئة الموارنة اضطروا للعيش من هبات ومساعدات، وهذا ما اقتنع به الحاكم العام للجزائر على ضرورة رفض فكرة تهجيرهم إلى الجزائر، فإن هذا سيكلف فرنسا خسائر مادية إضافية هي في غنًى عنها في تلك الفترة التي هي تحاول أن تسيطر على مستعمراتها الجديدة، حتى تحسن مادياتها[2].

انتهت المحاولة الأولى لتهجير الموارنة إلى الجزائر، والذي بدأت في 9 ديسمبر 1845م بطلب من بعض اللاجئين الموارنة في مصر، الذين رغبوا التخلص من الوضع المأساوي الذي يعيشونه في مصر، واللجوء إلى الجزائر طالبين الأمان ولو مؤقتًا، فأثار هذا الطلب ضجة كبيرة في الأوساط الحاكمة لفرنسا، حيث حضي بعطف وزير الحربية، والذي كان يرى من وراءه نافعة على فرنسا، وذلك باستعمال هذه الفئة حتى يتم السيطرة أكثر على الجزائر، وذلك بإدخال فئة مسيحية عربية داخل مجتمع عربي مسلم، فإن هذا العامل المشترك بين الفئتين هو العروبة، وهذه العروبة تشكل مدخل سهل بالنسبة لهؤلاء المسيحيين داخل المجتمع الجزائري، واندماجها، وتهجين هذا المجتمع الأصلي وما يمكن تغييره عبر العصور.

ولكن بعد تبادل المراسلات بين مسؤولي فرنسا قوبل الموضوع بالرفض، متذرعين وراء فكرة عدم قدرتها بالتكفل ماليًا بهؤلاء، وأنها كانت تحتاج وجودهم في المشرق من أجل ضمان مكان لها في المشرق، نظرًا لصراعها الدائم مع بريطانيا في المنطقة. فإن تواجد فئة تحت حمايتها هناك، يجعلها عنصر ضغط في سياسة فرنسا في المنطقة.

---

(1) Louis de Baudicour: **La colonisation de l'Algérie, ses éléments,** éd. Jacque le coffre, Paris, 1856, p230.

(2) سركيس أبو زيد: **تهجير...**، مرجع سابق، ص39.

ومن هنا نلاحظ أنه لو كانت القضية قضية حماية المسيحيين في العالم حسب الامتياز الذي حصلت عليه فرنسا من الكنيسة نفسها، لكانت قد قبلت المشروع مهما كلّفها من مصاريف ويوضع جانبًا كل مصالحها السياسية، بينما نلاحظ أنه بمجرد أن أصبح المشكل مالي، وأن يتطلب من فرنسا إخراج أموال أصبح مصير هؤلاء المسيحيين غير مهم، أو أن الرهان كان يختلف وهو مصلحة فرنسا في المشرق أهم من مصير فئة فقيرة من المسيحيين، فتذرعت وراء مشكل المال حتى تبقيهم في المنطقة وتحقق أهداف استعمارية أخرى، دون أن ننسى أن وضع فرنسا في الجزائر خلال هذه الفترة كان قد بدأ في التحسن، حيث كان الجنرال بيجوا في حرب ضد الأمير، والمقاومة كانت على وشك الإخماد في الغرب الجزائري، أما في الشرق ستنتهي في 1848م، أي سنوات تفرق على هذا الهدوء النسبي في المنطقتين، وكذا توقيع فرنسا معاهدة طنجة مع مراكش، والتي بموجبها سحبت فرنسا جيوشها من المغرب شرط عدم مساعدة الثوار الجزائريين ضدها.

وكان بإمكان فرنسا تهجير هذه الفئة المسيحية وحمايتها، إلاّ أن سياسة فرنسا كانت ترى إبقائها في المنطقة أحسن لتطبيق أطماعها.

ليأتي مشروع جديد وهو نفسه في حقيقة الأمر، خاصة أن كل الحلول التي وجدت في لبنان، لم تكن كافية لأنها بمجرد أن هدأ الوضع حتى تفجرت فتن جديدة، حركت الرأي العام الفرنسي، والذي بدأت من خلاله فرنسا البحث عن حلول، ومن بين ما اقترح مشروع بوديكور (Baudicour)[1]، وهو جمع المجتمع الماروني في الجزائر، وكان يرى أن المارونيين هم جزء من الأمة الفرنسية في الشرق. وهذه من بين الأفكار التي حاولوا ترويجها، لأن المارونيين لم يكونوا في أية حال من الأحوال رغم مسيحيتهم جزء من الأمة الفرنسية، وواجب على فرنسا تحقيق الأمن والملجأ لهم. كما أنه رأى في إدخال المسيحيين بعادات وتقاليد عربية إلى الجزائر، سيكونون أقرب إلى الجزائريين من الأوروبيين المسيحيين، وسيقفون في وجه العنصر اليهودي والإسلامي[2].

وبدأت تحركات بوديكور في 1847م عندما قدم طلب لوزير الحربية أن يقيم الموارنة في الجزائر، ويتم نقلهم على متن سفن الدولة التي كانت تنقل الحجاج إلى مكة،

---

(1) كاتب فرنسي، لهتم بالسياسة الفرنسية الاستعمارية، ولد وعاش ما بين (1815 – 1883)، انظر:

(2) Louis de Baudicour: **La colonisation de l'Algérie**, op.cit, p234.

فوعده الوزير على مساعدة الموارنة عن طريق القنصل دوكارني (De Carné)، ولكن لاحقا حتى لا يصطدم بالباب العالي.

وفي هذه الفترة وصل الدوق دومال (Duc d'Aumal)[1]، إلى منصب حاكم عام للجزائر خلفًا لبيجوا، وكان أكثر ميلاً للموارنة، فأعلن أنه مستعد لاستقبال حوالـــي 100 أو 150 عائلة مارونية، كما أنه مستعد منحهم أراضي زراعية وحيوانات للفلاحة، وبذور، وتسليحهم، وأنه يستعملهم في جيوشه، وبما أنهم جبليين متعودين على المناخ والتضاريس الجبلية تجعلهم يتأقلمون أكثر مع المنطقة من الأوروبيين، أي أن دوما كان يأمل في تكوين من هؤلاء المسيحيين العرب نواة لفيلق عسكري مناهض المسلمين[2].

ففي رسالة وجهها حاكم الجزائر في 15 ديسمبر 1847 إلى وزير الحربية، حيث وصف الجبليون اللبنانيون أنهم عنصر حي يمكن يكون فعّالاً في استعمارنا للجزائر، بما أنهم شرقيين وجبليين متعودين على هذه التضاريس، كما أنهم عرب بالدم والعادات والتقاليد، فبإمكانهم السيطرة أكثر على الجزائريين وطلب من وزير الحربية النظر في القضية مع وزير الشؤون الخارجية والبحرية، وأن الجزائر مستعدة لمنح هؤلاء السوريين بمجرد وصولهم الجزائر قطع أراضي تصل من 10 إلى 20 هكتار لكل عائلة، وأدوات زراعية وحصص من الطحين وغيرها من البذور لمدة ثلاثة أشهر، وكذلك تسليحهم، وسيصبحون هؤلاء الموارنة مدافعون متحمسين على العلم الفرنسي، ويمكن استعمالهم كذلك في النشاط التنصيري الذي يعمل من أجل تعزيز التواجد الفرنسي في المنطقة، وسيمنحون كذلك مواد للبناء وكل هذه الإمدادات ستكون مقابل أن تمد كل عائلة رجل أو عدة رجال للجيش الفرنسي، لإخماد ثورات المسلمين في الجزائر[3].

ولكن لم يكن الرد من طرف السلطات الفرنسية، فأمام هذا الوضع، أرسل دومال رسالة أخرى اقترح من خلالها أن يفرض على كل عائلة دفع للحكومة الفرنسية مبلغ

---

(1) الحاكم العام في الجزائر واسمه هنري دو أورليان (Henri d'Orléans) ولد في 16-01-1822م وتوفي في 07-05-1897، هو رجل عسكري وسياسي، للمزيد انظر:

Emmanuel de Waresquiel: **Le prince immobile**, Fayard, Paris, 2003, pp556-558.

(2) Le Baron Henri: **Au capitaine, les Kabyles et la colonisation de l'Algérie**, éd., Bastide, Alger, 1864, p67.

(3) نفسه، ص68.

يتراوح ما بين 1500 و 2000 فرنك فرنسي مقابل استقبالها في الجزائر، ويكون للإقامة والحصول على المساعدات، والملجأ والأمن[1].

ولكن عقب هذه الرسالة التي كانت في 22 فبراير 1848م، حصلت اضطرابات في فرنسا، طرأت عقبها تغيرات في الحكومة، وغادر على إثرها دومال الجزائر[2].

ولكن هذا لم يوقف من حماس لويس بوديكور، فوجه في 24 مارس 1848م، رسالة إلى وزير الخارجية الجديد دولامارتين، عرضه الخاص بإقامة مستعمرات مارونية في الجزائر، واقترح مشروع لا يكلف فرنسا مصاريف من أجل نقلهم، بل عكس ذلك ستستفيد فرنسا منهم ويخدم مصالحها، ويتمثل في إنشاء شركة تجارية تقيم على حسابها عائلات مارونية في المواقع الفرنسية المتقدمة، وفي مدن الداخل التي لم تدخلها الجيوش والتي ستتمكن من إنشاء شبكة واسعة في مختلف المناطق الجزائرية من تجار عملاء مخلصين لفرنسا، ووسطاء لعلاقة فرنسا مع الأهالي[3].

ورحب هذه المرة بالمشروع، ووجب البحث على رجل ماروني لقيادة المشروع، توجه بوديكور إلى مرسيليا وهناك تم اختيار مرعي الدحداح، وذلك لأنه كان محترمًا في الوسط الماروني، وكان وضعه التجاري قوي، أضف إلى ذلك وفائه لفرنسا، ووقع بينهما اتفاق، قرر الدحداح زيارة الجزائر مع بوديكور، وترك صهره وأحد أبنائه هناك لإدارة المركز الرئيسي[4].

دون أن ننسى مباركة البابا بيوس التاسع للمشروع وشجعه بتسجيل لنفسه 10 حصص أو أسهم من ألف فرنك في هذا المشروع الذي سمي بشركة إفريقيا والشرق، وهي شركة تعمل من أجل دعم استعمار المسيحيين في إفريقيا وتوطين الموارنة، وطلب من الوزير دعم المشروع[5].

---

(1) سركيس أبو زيد: **تهجير...**، مرجع سابق، ص88.

(2) نفسه.

(3) نفسه، ص91.

(4) والذي كان مستشار الأمير عباس شهاب، والذي تولّى إدارة الجبل لمدة قصيرة، انظر:
Adel Ismail: **Document diplomatique et consulaire les services Française**, éd., des œuvres politique et historique, Beyrouth, 1976, pp243-247.

(5) نفسه، ص268.

وقد سجلت هذه الشركة في مرسيليا في 22 فيفري 1848م، شركة إفريقيا والشرق، وهي مؤسسة شراكة مل بين السيد لويس جوزيف كولييت دو بوديكور المالك المقيم في الجزائر، وكل الأشخاص الذين يوافقون على الهيكلة الحالية.

ويحدّد البند الثالث من هذه الشركة أن هدفها: توظيفات عقارية في إفريقيا وتنمية الأراضي، أو أي نوع آخر من الالتزامات من أجل دعم الاستعمار المسيحي، وعمليات تجارية بين المسيحيين والمسلمين في الجزائر وفي حوض البحر الأبيض المتوسط(1).

وفي إطار تدعيم الاستعمار الفرنسي، اتخذت الجمعية العامة ما بين 19 سبتمبر و 18 نوفمبر 1848م مجموعة من القوانين من أجل إنشاء قرى زراعية يسكنها باريسيون، ولكن هذه القرارات لم تنفذ وبقيت هذه المستوطنات أو بعضها فارغة، فطرحت عندئذ قضية الموارنة(2).

ووجه قنصل فرنسا العام في بيروت في 2 أكتوبر 1848م إلى وزير الخارجية، رسالة يطلب من خلالها منح فرنسا للموارنة مقاطعة في الجزائر، ما رفض الباب العالي تقديمه لهم في لبنان، أي يقصد هنا الحكم الذاتي(3). الشيء الذي يشكل خطرًا على الاستقرار الاستعماري الفرنسي في الجزائر إذا عنصر دخيل ومنحته حكم ذاتي داخل حكمها الاستعماري في المنطقة.

ولكن رغم خطورة هذه المطالب، إلا أن بوديكور انتهز الوضع ليعيد طرح مشروعه الخاص بتهجير الموارنة إلى الجزائر، محللاً ما يمكن لهذا المشروع أن يقدم من منافع، وذلك عن طريق وثيقة أو رسالة أرسلها إلى وزير الحربية في 27 سبتمبر 1849م، عنوانها اقتراح بوضع سكان الموارنة في الجزائر(4).

فأكّد أن المارونيين سيقدمون منافع كبيرة في مجال الزراعة، الاقتصاد والسياسة، ومن بين أهم الحجج التي يركّز عليها هو تماثل المناخ بين سوريا وإفريقيا، وكل هذا من أجل تحقيق فكرة الجزائر الفرنسية، وتحقيق فكرة الإمبراطورية، وأن المصاريف ستكون

---

(1) Adel Ismail: **Document diplomatique…,** op.cit, p273.

(2) Louis de Baudicour: **La colonisation**, op.cit, p239.

(3) سركيس أبو زيد: **تهجير...**، مرجع سابق، ص92.

(4) نفسه، ص49.

قليلة مقارنةً بما كلفهم استوطان الأوروبيين في المنطقة، وعلى الحكومة نقل المهاجرين من سوريا إلى إفريقيا.

حتى تضمن حسن سلوكهم يجب دعوتهم تحت نفوذ الإكليروس الرهباني، صاحب القوة والسيطرة في لبنان[1]، كما دعى لبناء دير ليساعد في نشاطهم في تعمير المستعمرة، خاصة أن رجال الدين لهم مهارة في هذا المجال، أي التنصير والتعامل مع السكان الأصليين بسبب تكوينهم[2]، وكان بوديكور سبق فكره ما قام به لافجري بعد عشرين سنة، ثم يثير فكرة المارونيين التجار العرب وما يمكن أن تقدمه هذه الشبكة، وسيقفون في وجه اليهود وربما يحلون محلهم والذين هم يلعبون دور الوساطة بين الفرنسيين والسكان الأصليين[3]. فنعود بذلك إلى الفكرة الأولى وهي ضرب الموارنة لليهود، وخاصة أن اليهود هم عملاء الإنجليز بالدرجة الأولى، ولذا لا يمكن أن يكونوا محل ثقة عند الفرنسيين، بينما الموارنة قد يرهنوا على ولائهم لفرنسا.

كما يوضح أن مشروعه لا يتطلب نقل كل الموارنة إلى الجزائر، حتى لا يضعف موقف فرنسا في الشرق، بل بضعة آلاف لا تؤثر على نفوذ فرنسا في المشرق، وبقي الاقتراح مدة طويلة بلا جواب، ثم أحيل على الحاكم العام في 1850م، والذي لم يبد رأيه، وفي 7 مارس 1850م، تسلم المكتب الأول في إدارة شؤون الجزائر مذكرة من فهيم شدياق، يطلب من خلالها تسهيل توطين الموارنة في الجزائر، فعلق عليها رئيس المكتب برسالة موجهة إلى وزير الحربية، أن تأسيس مستعمرات زراعية يمتص مبالغ طائلة، فلا يمكن في هذه الحالة منح الأجانب ما يحجب على الفرنسيين أنفسهم[4].

وبذلك فرنسا رافضة دائمًا فكرة تهجير الموارنة إلى الجزائر، وبمجيء الجنرال دوماس (Daumas)[5] في 20 أفريل 1850م يرجع طرح الاقتراح مرة أخرى، ويبدي

---

(1) سركيس أبو زيد: **تهجير...**، المرجع السابق، ص50.

(2) Louis de Baudicour: **La colonisation**, op.cit, p240.

(3) سركيس أبو زيد: **تهجير...**، المرجع السابق، ص ص51-52.

(4) وهو ينتمي لعائلة مارونية، للمزيد انظر: Georges Yver: **Les Maronites**..., op.cit, p183.

(5) أجين دوماس (Eugène Daumas) (4 سبتمبر 1803م – 29 أفريل 1871م)، رجل سياسي وكاتب فرنسي، وعين عام 1850م حاكم عام للجزائر، للمزيد انظر:

Adolphe Robert et Gaston Cougny: **Dictionnaire des parlementaires Français**, éd., Edgar Bourloton, Paris, 1889-1891, pp….

دوماس قبولا تاما للمشروع، توطين الموارنة بالنسبة له كان سيعود بالفائدة على فرنسا وسياستها في مستعمرتها الجزائر، ولكن هذا المشروع جاء من الأب عازار، وكان بمساعدة رجال الدين ورجال الأعمال.

جاء المشروع من الأب جان عازار الوكيل العام لمطران صيدا آنذاك ومندوب البطريك الماروني، والذي انتقل إلى أوروبا في عام 1844م لشرح وجهة نظره، فقام بحملة ترويجية لهذه الأفكار، وكتب كتاب "الموارنة حسب المخطوطات العربية"، وكان مشروعه يشبه مشروع بوديكور، إلاّ أنه كان أدق في تفاصيله ووسائل تنفيذه[1]، وقد وجه رسالته إلى وزير الحربية في 9 سبتمبر 1850م[2].

ركّز في رسالته على مسؤوليته الدينية، أي أن اهتمامه له بُعد ديني وأنه مكلف من طرف سلطات بطريك أنطاكية الماروني. أي أن هذا الاهتمام بهذا المشروع لم يكن منه وإنما هو كنيسي، ثم يؤكد على اطلاعه على المشاريع التي سبقت مشروعه، حيث يقول: «... سبق أن تكرر البحث في مسألة إقامة مستعمرات مارونية في الممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا...»[3].

ثم ينطلق لعرض كامل لفوائد هذا المشروع، حيث يرى أن الموارنة يعيشون تحت رحمة الدروز، وهؤلاء مدعمين ومحميين من طرف الوالي وانجلترا، وأن الدعم الذي تقدمه فرنسا أصبح غير كافي، وأن الموارنة عازمين على الرحيل، فوجب على فرنسا منحهم مقاطعات في مستعمراتها في شمال إفريقيا، أي الجزائر[4]. ثم يعدّد كل الفوائد التي ستكون على فرنسا وعلى سياستها في الجزائر، إذا استوطن المارونيين هناك.

فإنهم سيلعبون دور الوساطة بين فرنسا والجزائريين لأنهم عرب بنفس العادات والتقاليد واللغة والدم، فسيتمكنون من الدخول في المجتمع الجزائري، الذي فرنسا تعمل

---

(1) الأب عازار Le père Âzâar، انظر:

Eugène Vayssettes: **Sauvons les maronites par l'Algérie et pour l'Algérie, solution provisoire de la question d'orient**, éd., LEN, 2017, p73.

(2) سركيس أبو زيد: **تهجير...**، مرجع سابق، ص115.

(3) Arboit Gerald: **De l'immigration des maronites: un aspect de la politique Française à l'égard des communautés chrétiennes de Syrie entre 1848 – 1870**, in revue Française d'histoire d'outre-mer, tome 87, n°328-329, 2ème trimestre……., pp231-239.

(4) سركيس أبو زيد: **تهجير...**، المرجع السابق، ص152.

جاهدة لاقتحامه[1] ولنتوقف قليلاً أمام هذا الغرض، نجده أولاً مستمد من كل المشاريع السابقة، وكذاك له نفس أهداف المنصرين التسلل داخل المجتمعات من أجل السيطرة، لا يجب أن ننسى أن صاحب هذا الاقتراح هو رجل دين، يعني أنه لا ينسى في أي وقت من الأوقات رسالته التنصيرية في ديار المسلمين، فإنه بغض النظر عن فكرة حماية الموارنة من الدروز، هناك فكرة إيصال طائفة مسيحية متطرفة كالمارونيين إلى منطقة مسلمة وتوطينهم هناك، ومنحهم الإمكانيات المادية والمعنوية لذلك، ويأتون بنيّة الوصول إلى داخل المجتمع الجزائري المسلم، فإنها طريقة لتنفيذ مخططات تنصيرية وتعزيز التواجد الاستعماري في المنطقة.

فنجده يؤكد من خلال مذكرته، عن معارف المارونيين في الزراعة، والتي سيفيدون بها اقتصاد فرنسا، من خلال تنويع وتحسين الإنتاج الزراعي في الجزائر، وذلك عن طريق إدخال أنواع من محاصيل جديدة، والجزائر لها المناخ والتربة المناسبة والتي لا تختلف عن مناخ وتربة بلاد الشام. وإن الموارنة يخضعون لنظام إقطاعي، فإن فرنسا متأكدة من ولائهم وإخلاصهم.

ثم ينتقل إلى شرح هذا المشروع من الجانب المالي بدقة، أي ما يكلف خزينة فرنسا، فيقترح نقل مجموعة لا تتعدّى عشرة أعيان من الموارنة، من أجل اختيار الأراضي من تلك التي تقترحها فرنسا، وسيختارون الدفعة الأولى من المهاجرين ويكونوا من بين متوسطي الثروة، وسينتقلون بعتادهم الزراعي وأموالهم للاستقرار، كما أن على فرنسا منحهم قروض صغيرة إضافة إلى ما لديهم، سيتمكنون من الانتقال بالقيام بمشاريعهم الزراعية، وبعد موسم الحصاد ستتمكن فرنسا من استرجاع قروضها بفوائدها[2].

ومن هذا العرض المالي نلاحظ إلى أي درجة اهتم رجل الدين هذا بالمشاريع المقترحة من قِبَله والتي كانت ترفض في كلّ مرة بسبب ما ستكلف خزينة فرنسا من خسائر، فدرس هذه الثغرات وتفاديها في مشروعه، بل قدم إغراءات تتمثل في إرجاع الديون خلال موسم واحد، إضافةً إلى الفوائد.

---

(1) سركيس أبو زيد: **تهجير...**، المرجع السابق، ص53.

(2) نفسه، ص152.

فيحدّد الرحلة الأولى لن تتعدّى 100 عائلة مارونية أي 500 شخص، والذين سيعملون من أجل الاستقرار، وبعد سنة أو اثنين هم الذين سيعملون من أجل جلب باقي الموارنة ولن يكلف الباقون أموالاً للخزينة[1].

ويحدّد من خلال عرضه هذا المنطقة المراد الاستيطان فيها، وهي إمّا المنطقة الموجودة بين البليدة ومليانة، أو ما بين مليانة وشرشال[2]، أي في كلتا الحالتين اختياره سهل المتيجة والذي يعتبر من أجود السهول الجزائرية والعالمية، معروف بأراضي زراعية من النوع الجيد، فنرى أنه لم يكتفِ بدراسة المشاريع السابقة حتى لا يقع في نفس أسباب رفض المشاريع السابقة، وإنما صححها وأعطى حلولا. وصلت الرسالة إلى إدارة شؤون الجزائر والتي كانت تحت رئاسة الجنرال دوماس، والذي تقبل الاقتراح دون تحفظ ورفع المذكرة إلى وزير الحربية في 30 سبتمبر 1850م، وحاول من خلالها التركيز على الأسباب الإيجابية المفيدة لاقتصاد فرنسا، والتي يمكن أن تجعله يقبل المشروع، خاصة على ولاء وإخلاص وتعلق الموارنة بفرنسا والذين يمثلون جيشًا يمكن أن تعتمد عليه في الجزائر، كما يعيد التفصيل في المصاريف والطريقة الأنسب لتعويضها[3].

ويؤكد أن الأوضاع في الجزائر هادئة وقد انتشر السلم والأمن، رغم أنه في عام 1847م لا يمكن أن نقول أن الأوضاع كانت هادئة، رغم القضاء على مقاومتي الشرق والغرب الجزائري، إلاّ أن المقاومات لم تهدأ، وأن التوسع الفرنسي داخل الجزائر لم يتم كليةً، رغم إعلانها عن إلحاق الجزائر بفرنسا رسميًا، ولكن فعليًا المقاومات لم تتوقف[4].

وفي أكتوبر يعيد إرسال رسالة أخرى يطلب فيها الموافقة على المشروع، بعد أن أعاد تلخيصه، والذي يؤكد على أنه ذو منفعة كبيرة على فرنسا[5].

أحدث هذا المشروع ضجة كبيرة في أوساط الإدارة الفرنسية، وبعد أخذٍ ورد عن طريق رسائل متبادلة بين الحاكم العام للجزائر ووزير الحربية والبحرية والشؤون الخارجية.

---

(1) Georges Yver: **Les Maronites**..., op.cit, pp165-167.

(2) سركيس أبو زيد: **تهجير...**، مرجع سابق، ص58.

(3) نفسه، ص ص59-60.

(4) نفسه.

(5) نفسه، ص61.

في 18 جوان وضع وزير الخارجية دراسة معمقة عن المناطق المناسبة لاستقرار هؤلاء المهاجرين، وهي المناطق الداخلية[1]، فأجابه الحاكم العام استنادًا على تقرير دقيق وضعه دو ماكمهون، والذي كان يرى أن يوضع هؤلاء في المناطق المواجهة لمعاقل الثوار الجزائريين، والمناطق التي ما زالت حسب نفس التقرير لم تدخل بعد تحت السيطرة الفرنسية، فرأى أن يضع هذه الفئة ذات العادات الوسيطية بين الأوروبي والعربي، في مراكز عسكرية يحسن اختيارها، فبإمكاننا الاعتماد عليهم في أيام الحرب، وأشار إلى منطقتين تتوفر فيها كل هذه الشروط:

– واد المقرة بين بلعباس وتلمسان، وهي منطقة لها أهمية اقتصادية وإستراتيجية كبيرة، فاحتلال هذه المنطقة والتي تقع على ممر القوافل التي تدخل التل، ستكون بمثابة المراقب للمنطقة، ويقترح تقديم حوالي 450 إلى 500 هكتار لاستقبال حوالي 70 عائلة[2].

– أما المنطقة الثانية التي اختارها ماكمهون للموارنة فهي منطقة عين الحد التي تشكل عقدة لأنها معزولة عن الفرنسيين، فهي تناسب الموارنة، ويقترح منح من 2000 إلى 2500 هكتار لإقامة حوالي 80 عائلة.

ثم يؤكد دعمه لهذا المشروع، وأنه سيكون مسرورًا باستقبال الموارنة[3].

وهذا الحماس الذي أظهره ماكمهون لن يكون منفردًا به، بل كان يعم وزير البحرية الذي أبدى استعداده لنقل الموارنة نحو الجزائر، أما بالنسبة للمصاريف فسيتقاسمها كل من وزير الحرب والذي سيتكلف بالمحروقات والغذاء والمبيت، والبحرية ستتولى مصاريف النقل، وسيدوم النقل 19 يوما ما يكلف 50600 فرنك لنقل 500 مسافر[4].

ولكن كان على فرنسا الحصول على موافقة الباب العالي للقيام بهذه العملية حتى لا تكون بينهما مواجهة، ولا يقف الباب العالي كعقبة لتحقيق هذا المشروع، ولكن رفض الاقتراح من طرف العثمانيين، فاعتمد وزير الحرب هذا الرفض، ورفض المشروع هو بدوره لتفادي أن تسيء علاقة فرنسا بالأستانة[5].

---

(1) Eugène Vayssettes: **Sauvons les maronites…**, op.cit, pp….

(2) سركيس أبو زيد: **تهجير…**، مرجع سابق، ص61.

(3) راجع الاقتراح في:

Adel Ismail: **Document diplomatique**, op.cit, p121.

(4) سركيس أبو زيد: **تهجير…**، المرجع السابق، ص63.

(5) Arboit Gerald: **De l'immigration…**, op.cit, p236.

ليعود الأب عازار في 1845م لإعادة إحياء المخطط وينتقل إلى لبنان ويعلن أنه مكلف باختيار عائلات مارونية لقيادتها إلى الجزائر، ولكن بمجرد أن وصلت هذه المعلومات للسلطات الفرنسية حتى راسلت قنصلها الفرنسي في لبنان معلنة أنها لم تكلف أحد بهذه المهمة[1].

وفي ماي 1852م أرسل القنصل الفرنسي العام في بيروت طلب للأمير أسد الشهاب، أمير الموارنة بالسماح له لنقل الموارنة إلى الجزائر بصفة مستوطنين على حسابه الخاص، وسانده في هذا المشروع الأب عازار، الذي رأى فيه إحياء لمشروعه الذي رُفض، إلاّ أنه قوبل بالرفض من طرف الحكومة الفرنسية، ووضعت شروط تعجيزية لهؤلاء الذين يريدون الاستيطان في الجزائر، أن تكون ثروتهم لا تقل عن 1200 فرنك فرنسي[2].

ما يمكن ملاحظته أن فرنسا في هذه الفترة كانت تحافظ على علاقتها مع الأستانة والمحافظة على دور الموارنة في المشرق لتحقيق مخططاتها الاستعمارية.

وبعده مباشرة جاء مشروع والمالس (Felix Walmas)[3]، والذي وجه عريضة إلى نابليون الثالث كتب فيها باللغة الإيطالية في 28 نوفمبر 1854م، اقتراحه المتمثل بجلب سكان إلى الجزائر حتى تتمكن فرنسا من السيطرة التامة على شمال إفريقيا سلميًا، دون اللجوء إلى المعارك الدامية، وبذلك تؤمن الخضوع العربي في الجزائر وإنقاذ مسيحيي سوريا من الظلم[4].

وأهم ما اعتمد عليه والماس هي أن هدف هذه الهجرة تأتي في إطار مخطط انتشار المسيحية في العالم عامة وإفريقيا خاصة، وحتى تتمكن فرنسا من أن تحمي احتلالها ومشاريعها الاستعمارية في إفريقيا، وركز على أن كل الهجرات الأوروبية لم تنجح ولم يكن لها النتائج المراد الوصول إليها في إفريقيا، لأنهم كثيرو الاختلاف عن السكان المحليين، لذلك اقترح التوجه إلى شعب لا يختلف عن سكان الجزائر بعادات وتقاليد ودم عربي، ولكن مسيحي الديانة والمعتقد، وهذا الشعب هو الموارنة من سوريا[5].

---

(1) Adel Ismail: **Document diplomatique,** op.cit, p127.

(2) Arboit Gerald: **De l'immigration**, op.cit, p237.

(3) Georges Yver: **Les Maronites**..., op.cit, p196.

(4) Idem, p198.

(5) Arboit Gerald: **De l'immigration**, op.cit, p238.

ولا بد من الاعتماد على الإكليروس من أجل تنظيم هذه الهجرات، ويمكن استعمال بطريك أورشليم ومطران الإسكندرية، نظرًا للعلاقة الحسنة التي يحتفظ بها هؤلاء مع كهنة سوريا وأديرتها[1].

كما دعى لإنشاء جمعية من أجل تكوين مستوطن لشرقيين في إفريقيا، وذلك من أجل إغراء الشرقيين وجلبهم إلى الجزائر، من أجل تدعيم النفوذ الفرنسي في الجزائر.

وهذه الحامية ستبدأ أعمالها بمجرد إطلاق الهجرة الأولى التي لا تتعدّى 100 عائلة، ثم سيكون تنظيم لعدة رحلات بين سوريا وإفريقيا[2].

أما من جانب تكاليف الرحلة فهو تكلم على مبلغ 60000 فرنك فرنسي، وبإمكان فرنسا، وستتمكن من دفع ذلك، لأنها باستقبال الموارنة ستوفر حوالي 200 ألف فرنك بإلغاء بعض مراكز جندي، بعد إقامة الموارنة في مكانهم، ويظهر أن الهدف من تهجير الموارنة هو تدعيم النفوذ الفرنسي في الجزائر[3].

ثم يؤكد على مسألة الديانة التي ستكون بمثابة عداء دائم بين الجزائريين والفرنسيين، وبما أن فرنسا لا يمكن لها إبادتهم، وجب عليها استمالتهم إلى الحضارة الغربية، وبما أن الموارنة مسيحيين ذوي أصول عربية، فيصبحون أدوات فعالة للوصول إلى استمالتهم.

ورغم كل التوضيحات والحجج إلاّ أن الاقتراح رفض كباقي المشاريع التي سبقته في 31 مارس 1855م[4].

وكان هناك عدة مشاريع أخرى، فمثلاً ذلك الذي اقترحته الكونتيستة كليمانس دو كورنيال لاجوكير (La comtesse Clémence de Corneillan Lajoukaire)، والتي كانت عضو شرف في المجمع الرهباني الملكي للبروتيستان لبروسيا، والتي دعت لنفس المشروع، وكذا السيد فايسات (Vayssettes) والذي نشر في أواخر 1860م كراسًا بالموضوع نفسه شرح كل الحجج، والتي لا تبتعد عن ما سبق من المشاريع وقوبلت كلها بالرفض[5].

(1) سركيس أبو زيد: **تهجير...**، مرجع سابق، ص69.

(2) Arboit Gerald: **De l'immigration**, op.cit, p238.

(3) Georges Yver: **Les Maronites...**, op.cit, p201.

(4) Idem, p202.

(5) سركيس أبو زيد: المرجع السابق، ص69.

ما يمكن ملاحظته من خلال كل هذه المشاريع ضرورة اجتياح المجتمع الجزائري المسلم لتعزيز التواجد الاستعماري، ضرورة تنصير العالم الإسلامي، وأن معظم أصحاب هذه المشاريع إما رجال دين إذًا منصرين لا محال، أو متعاطفين مع الكنيسة ورجال الدين، وما هي إلاّ طريقة جديدة من أجل تطبيق مشاريع التنصيرية.

3– نماذج لتشجيع الفرق الضالة:

حاول المنصرين إدخال عدة أفكار إلى العالم الإسلامي من أجل زرع بداخله بذرات التفرقة والشتات بكل أنواعه، عن طريق جيوش من المنصرين التي لم تتغلب بقوة سلاح حكوماتها فحسب، بل بالمكر والخداع والتلاعبات والمؤامرات وعملت في كل مرة من أجل إيجاد طرق وأساليب وخطط من أجل إيقاف المصلحين، من انتداب، والوصاية ومحاولة ترسيخ أكاذيبها التحضرية والإنسانية اتجاه هذه الشعوب المتخلفة القاصرة غير قادرة على إدارة شؤونها بنفسها، وكل هذا من أجل إبعاد أو ضرب كل ذرة وحدة يلمسونها في هذه الشعوب، فالجامعة الإسلامية[1] التي أسسها السلطان عبد الحميد[2] هزت العالم الغربي المسيحي، ولهذا سارع للقضاء عليها وتفرقة المسلمين وتحويل أنظاره إلى صراعات داخلية بين قوميات والوطنيات، ويظهر أن فكرة الوحدة الإسلامية أو حتى العربية بمفهومها الضيق تقلق الغرب المسيحي[3].

ولكن لم يبق علماء الأمة الإسلامية مكتوفي الأيدي، بل عملوا جاهدين لمحاربة الاستعمار والتنصير بكل أساليبه، وبرز عدد كبير من المصلحين والمفكرين والمجاهدين والزعماء الذين قادوا الحروب والحركات التحررية والإصلاحية داخل العالم الإسلامي، من أجل ترسيخ تعاليم الدين ومحاربة الأفكار الدخيلة على العالم الإسلامي ومجتمعاته المهددة، من أجل توعية المجتمع الإسلامي وفتح أعينهم أمام أوهام الغرب المسيحي الذي نشر جيش من الرهبان ورجال الدين في كل أنحاء العالم الإسلامي[4]، وتمويلهم ماديًا

---

(1) محمد عمارة: **الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كمال**، دار الشرق، القاهرة، 1994، ص ص3-30.

(2) سيف الله آرباجي: **السلطان عبد الحميد الثاني، مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية**، ترجمة عبير سليمان، ط1، دار النيل، مصر، 2011، ص ص17-44.

(3) Gabriel Charmes: **L’avenir de la Turquie, le panislamisme**, Paris, 1883, p197.

(4) أحمد أمين: **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، دار الكتاب العربي، بيروت، 2012، ص ص2-10.

ومعنويًا، وكان نشاط المصلحين والعلماء عن طريق النوادي والجمعيات الإصلاحية، وراهنوا على الأطفال والشباب لتخليصهم من أيدي المنصرين، ومحاربة المسيحية والشبهات والسموم التي حاولت هذه الحركة التنصيرية والغزو الثقافي والتغريب نشرها عن طريق الإرساليات الاستشراقية، وشملت هذه الحركات الإصلاحية كل أنحاء العالم، كالعرابي في مصر، والمهدي في السودان، ويعقوب في تركستان، وعبد القادر في الجزائر، وعبد الكريم الخطابي في المغرب، والسنوسي في ليبيا، والمفكرين المصلحين كابن باديس، وإقبال، والقاسمي، والأيوبي، وخير الدين، ومحمد عبده[1]. وكان كل من الأزهر والزيتونة والقيروان وبعض المعاهد في دمشق وبغداد معاقل للمقاومة والجهاد الإسلامي، ولهذا عمل الاستعمار بمساعدة الحركات التنصيرية من ضرب هذه المعاهد ومنع التدريس فيها حتى لا يتحكمون في شباب المسلمين[2]، وأصدروا قوانين من أجل منع شباب مستعمراتهم الالتحاق بهذه المعاهد، بل حولت أنظارهم نحو الدراسة في الغرب[3]، وحاولت ضرب الأزهر وجهة نظر كل المسلمين والفقهاء والعلماء وإعلان أنه من الضروري بناء جامعة كبيرة داخل العالم الإسلامي تهتم بدراسة العلوم الإسلامية والفقه بنفس صدى الأزهر حتى تتمكن من التصدي لكل الإصلاحات التي يمكن أن تخرج منه أي من علماءه[4].

ومن هنا نلاحظ الأهمية التي أعطتها الدول المسيحية لضرورة التخطيط من أجل صد الخطر القادم من العالم الإسلامي، وحتى وإن انسحبت القوات العسكرية تخلف بعدها قوى أخطر وهي فكرية وثقافية، تتمكن من خلالها أن تبقي على سيطرتها على المراكز الهامة ويفرض السيطرة السياسية والاقتصادية، بغض النظر عن السيطرة الفكرية، وهذا التغير في طريقة السيطرة لا يعني التخلي عن تحقيق أهدافهم، وإنما تحسين الطريق من أجل تطبيق أحسن، بينما أبقوا على الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي في فلسطين، لأنه الوسيلة الوحيدة والمضمونة لتفكيك العالم الإسلامي، لأنه في قلبه ويسيطر لا على فلسطين

(1) أحمد أمين: **زعماء الإصلاح**، المرجع السابق، ص12.

(2) محمود عبد الرحمان: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص150.

(3) أنور الجندي: **الاستعمار والإسلام**، دار الأنصار، 1979، ص25.

(4) محمد محمد حسين: **حصوننا مهددة من داخلها**، مرجع سابق، ص ص200-205.

فحسب بل على كل ما حولها، وهذا التحول في السياسة من أجل القضاء على الطاقة الفكرية والروحية التي يمكنها بعث إصلاح ورفض للاستعمار وما يمكن أن يخلفه، وبذلك ركزت خططهم التنصيرية على الجانب الروحي، وبما أن همهم ليس إدخال المسلمين في المسيحية، وإنما إبعادهم عن دينهم وعقيدتهم الصحيحة، فكان همهم الأول هو روح المسلم، وهذا ما اتفق عليه في مؤتمر القاهرة حيث قال جايردنر: «إننا نجد أنفسنا وجهًا لوجه أمام نهضة إسلامية تعليمية ودينية تحتم علينا هذا التقدم التنصيري، إذًا كان علينا أن نحافظ على مكتسباتنا، ولهذا حان الوقت لتحريك العمل إلى الأمام بتخطيط حكيم وتنفيذ واعٍ»[1].

ويضيف قائلاً: «هؤلاء الطلاب الذين يتم إعدادهم للقيام بالتنصير بين المسلمين يجب أن يضيفوا إلى برامجهم مهمة مراقبة ودراسة ومواجهة هذا الإسلام الجديد، بكل مظاهره، ولا يمكن أن تُجرى هذه الدراسة إلا في الدول العربية، وفي القاهرة بالضبط»[2]، حتى يكونوا قرب من الأزهر المقر الذي يجتمع فيه معظم علماء ومفكري ومصلحي العالم الإسلامي، ومنه يتخرّج آلاف العلماء وينتشرون عبر العالم، ما يشكل خطر لديهم، فعملوا على وأد الدعوة الإصلاحية[3]، التي لا تخدم مصالح المسيحيين، وقام المنصرين عن طريق المستشرقين منهم بالتعرف على الثغرات التي يمكن من خلالها ضرب هذه المناطق، وخاصة التعرف على الأشخاص المشبوهين أو ذات شخصيات مضطربة التي يمكن استعمالها والتقرب منها لتطبيق خططهم ونشر أفكارهم ونشاطهم، لتضليل المجتمعات الإسلامية عن الطريق الصحيح، ومطاردة الإسلام من بلد إلى بلد ومن طبقة من المسلمين إلى طبقة أخرى، وكلما عقدت معاهدة أو اتفاق مع جهة إسلامية إلاّ كانت للناحية التنصيرية عناية كبرى داخل هذه المعاهدة أو في ملاحقها[4].

---

(1) أنور الجندي: **الإسلام في عين الخطر**، ط1، مركز الإعلام العربي، مصر، 2013م، ص22.

(2) نفسه، ص24.

(3) محاربة الإمام عبد الوهاب: قام المنصرون بمحاربته حتى لا يهدد المسيحية والتنصير في المنطقة، وكان ذلك على يد محمد علي والحملة الإبادية على الحركة، حيث طالبه العثمانيين من 1807م – 1810م لمحاربة محمد عبد الوهاب ورفض، إلى أن عمل المستشرقين القناصل على إقناعه فاستجاب، فأمدوه بالسلاح ليقوم بحملة في 1811م، أي بعد توليته على مصر بـ 6 سنوات. للمزيد انظر: محمود عبد الرحمان: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص ص150-152.

(4) محمد محمد حسين: **حصوننا مهددة من داخلها**، مرجع سابق، ص ص209-224.

وكما أن جيوش المنصرين المتواجدين في أنحاء العالم الإسلامي قدموا تقاريرهم السياسية، كل ذلك من أجل انسلاخ المسلم عن إسلام، حتى وإن ذهب نحو الإلحاد، وكان يرى الكثير منهم حتى لا نقول معظمهم أنه من الضروري الحد من تقدم الإسلام وانتشاره وذلك عن طريق نشر البدع، أي كل ما يخالف أصل الإسلام، والعمل على إثارة قضايا الخلافة والآراء المخالفة للفرق الغالية حتى ينشغل المسلمين بها، فحركوا الخلافات المذهبية والصوفية، فركزا في دراستهم على إحياء ألوان معينة من التراث الصوفي وإحياء الصراعات[1]. وهذه من بين ما قام بها الغرب المسيحي على يد المنصرين من أجل ضرب وحدة المسلمين هو تشجيع الفرق "الضالة" لتشتيت الوحدة الفكرية للمسلمين، وفي بعض الأحيان يقومون بخلق هذه الفرق بمساعدتهم ماليًا[2]. فالبهائية مثلاً انبعثت من المذهب الشيعي الشيخي في 1844م تحت رعاية الاستعمار، بهدف إفساد العقيدة الإسلامية وتفكيك وحدة المسلمين، وصرفهم عن قضاياهم الأساسية، وتأسست على يد الميرزا علي محمد رضا الشيرازي[3]، الذي اهتم بكتب الصوفية والرياضة الروحانية.

وابتداء من سنة 1859م بدأ يتردد على بغداد وبالخصوص على مجلس إمام الشيخية في عهد كاظم الرشتي وأخذ يدرس أفكاره، وهناك في مجالس الرشتي تعرف عليه الجاسوس الروسي كينازد الغوركي[4]، والمدعي الإسلام باسم عيسى النكراني، والذي بدأ ينادي بأن الميرزا علي محمد الشيرازي، هو المهدي المنتظر والباب الموصول إلى الحقيقة الإلهية، والذي سيظهر بعد وفاة الرشتي، وذلك لما وجده مؤهلاً لتحقيق خطته في تمزيق وحدة المسلمين[5].

---

(1) محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص155.

(2) علي بن إبراهيم الحمد النملة: **التنصير، مفهومه**، مرجع سابق، ص93.

(3) علي محمد رضا الشيرازي (1819 – 1850م)، والذي تلقى تعليمه في ستة سنوات على يد دعاة الشيخية من الشيعة، ثم انقطع عن الدراسة ثم عاد إليها في سن 17 سنة، للمزيد انظر: محب الدين الخطيب وآخرون: **دراسات عن البهائية والبابية**، مطابع رابطة العالم الإسلامي، دون تاريخ، ص ص3-4.

(4) محمد أحمد عوف: **خفايا الطائفة البهائية**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1972م، ص5.

(5) محب الدين الخطيب وآخرون: **البهائية**، المرجع السابق، ص6.

وفي 23 مارس 1844م أعلن أنه الباب نسبة إلى ما يعتقده الشيعة من ظهوره بعد وفاة الرشتي، وأنه رسول كموسى وعيسى عليهما السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم، بل وأفضل منهم.

فآمن به تلاميذ الرشتي، وانخدع العامة، واختار ثمانية عشر منصرًا لدعوته، وأطلق عليهم حروف الحي، إلاّ أنه في سنة 1261هـ قبض عليه وأعلن التوبة على منبر مسجد الوكيل بعد أن عاث وأتباعه في الأرض فسادًا وتقتيلاً وتكفيرًا للمسلمين. ثم في سنة 1266هـ، وكان قد ادّعى حلول الإلهية في شخصه حلولاً ماديًا وجسمانيًا، ولكن حين ناقشه العلماء تظاهر بالتوبة والرجوع.

وأهم ما تراه هذه الفرقة في معتقداتها أن الوجود هو مظهر من مظاهر الله، وأن الله هو النقطة الحقيقية، وكل ما في الوجود مظهر له[1]، وبانتشار هذه الأفكار سيدخل المسلم في متاهات الخلق والخالق والفعل وحرية الفعل، ويشجع الانقسامات والفرق الجديدة في أوساط المسلمين، كما انتشر لمدة طويلة أن البهائية طائفة من الطوائف المسلمة، لكن العديد من المسلمين وبالأخص العلماء اهتموا بكل ما كتب من طرف البهائيين، فاكتشفوا أمورًا وحقائق خطيرة ومذهلة حول البهائيين ومعتقداتهم[2]، وأن هناك أناس هدفهم تضليل الآلاف من البشر بدعاوى باطلة لا أساس لها من السنّة أو القانون أو دليل في الواقع الحقيقي، والكثير ممن انتموا إلى هذه الطائفة ظللوا بلا ذنب، لأنهم لم يتمكنوا أو لم تتح لهم الفرصة للاطلاع على المصادر الإسلامية الصحيحة، وما زال العديد يظن أن البهائية

---

(1) أهم أفكار ومعتقدات البهائيين:
- يعتقد البهائيون أن الباب هو الذي خلق كل شيء بكلمته وهو المبدأ الذي ظهرت عنه جميع الأشياء.
- يقولون بالحلول والاتحاد والتناسخ، وخلود الكائنات وأن الثواب والعقاب يخص الأرواح فقط.
- يقدّسون العدد 19 ولهم 19 شهرًا.
- يؤمنون بنبوة بوذا وكنفوشيوس وبراهما وزاددشت وأمثالهم من الهند والصين.
- يوافقون اليهود والنصارى في القول بصلب المسيح.
- يؤولون القرآن تأويلات باطنية.
- ينكرون معجزات الأنبياء وحقيقة الملائكة والجن وينكرون الجنة والنار.
- يحرّمون الحجاب على المرأة ويحللون المتعة وشيوعية النساء والأموال.
- ينكرون أن محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والرسل.

انظر: محب الدين الخطيب وآخرون: نفس المرجع السابق، ص ص21-22.

(2) أحمد أمين: **زعماء الإصلاح**، مرجع سابق، ص10.

طائفة انشقت من الإسلام، بينما البهائيون يزعمون أنها دين جديد قائم بذاته، لا تمت للإسلام بصلة ويزعمون في أحياناً أخرى أنها امتداد للإسلام والديانات السماوية[1].

رغم أن علماء المسلمين أصدروا فتاوى من المجامع العلمية، مثل مجمع الفقه الإسلامي بمكة ودار الإفتاء، والذين صرحوا بخروج البهائيين عن شريعة الإسلام[2]، تدعوا إلى الشرك بالله وتنكر النبوة، لأنهم يرون أن محمد خاتم الأنبياء لا المرسلين، كما يعتبرون البابا آخر المرسلين، كما أن لهم علاقة وطيدة بالغرب والصهيونية، ويقع المركز العالمي للبهائية في حيفا قرب مركز دراسات الشرق الأوسط، وهو مركز استشراقي صهيوني، وعرفت هذه الطائفة عدة شخصيات[3]، من بينها عباس أفندي الملقب بعبد البهاء[4]، أوصى له والده بخلافته، فكان ذا شخصية جادة، لدرجة أن العديد من المؤرخين يرون أنه لولا العباس لما قامت للبابية والبهائية قائمة، كما يعتقد البهائيون أنه معصوم غير مشرع، وكان يضفي على والده صفة الربوبية القادرة على الخلق.

زار البهاء سويسرا وحضر مؤتمر الصهيونية ومنها مؤتمر بال[5]، وحاول تطوير الطابور الخامس وسط العرب لتأييد الصهيونية، كما استقبل الجنرال اللنبي لما أتى إلى فلسطين بالترحيب، لدرجة أن كرمته بريطانيا بمنحه لقب "سير" فضلاً عن أرفع الأوسمة الأخرى[6].

كما زار كل من لندن وأمريكا وألمانيا والمجر والنمسا والإسكندرية، والهدف من هذه الزيارات هو الخروج بالدعوة من حيز الكيان الإسلامي، فأسس في شيكاغو أكبر محفل للبهائية، رحل إلى حيفا في 1913م[7]، ثم إلى القاهرة حيث هلك فيها عام 1921م[8].

---

(1) صالح عبد الله الكامل: **أضواء على البهائية، الادعاءات ودحضها في الفكر والعقيدة: حوار بين مسلم وبهائي**، دار القبلة للثقافة الإسلامية، الرياض، 1985م، ص ص22-34.

(2) جريدة المدينة، الأحد 23 سبتمبر 1979م، ع297، ص15.

(3) قرة العين واسمها الحقيقي أم سلمى، الميرزا يحيى علي أخو البهاء والملقب بيصبح أزل، الميرزا حسين علي، للمزيد انظر: عبد الرحمن الوكيل: **البهائية، تاريخها، عقيدتها وصلتها بالباطنية والصهيونية**، تحقيق عبد الغني المصري، دراسات المؤمنين للنشر والتوزيع، د. ت. ن.، ص ص30-34.

(4) ولد في 23 ماي 1844م، انظر: محمد أحمد عوف: **خفايا الطائفة البهائية**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1972م، ص35.

(5) إحسان إلهي ظهير: **البهائية نقد وتحليل**، ط2، إدارة ترجمان السنة، باكستان، 1981م، ص19.

(6) أنور الجندي: **الإسلام في عين الخطر**، مرجع سابق، ص ص194-197.

(7) نفسه، ص197.

(8) عبد الرحمن الوكيل: **البهائية، تاريخها**، المرجع السابق، ص55.

وفي عام 1963م تولّى تسعة من البهائيين شؤون البهائية بتأسيس بيت العدالة الدولي من تسعة أعضاء أربعة من أمريكا واثنان من انجلترا وثلاثة من إيران، برئاسة فرناندو سانت[1]، ثم تولى رئاستاها من بعده اليهودي الصهيوني ميسون الأمريكي الجنسية[2].

وتتركز الغالبية العظمى للبهائيين في إيران والبعض منها في العراق وسوريا وفلسطين، حيث مقرهم الرئيسي، وهنا نتساءل لماذا فلسطين بالضبط، ربما من أجل تطبيق خطط وبرامج تنصيرية، كما لهم وجود في مصر رغم أنهم أغلقت محافلهم بقرار رقم 263-196[3]، ولهم محافل في إفريقيا كأديسا بابا والحبشة وكمبالا وبأوغندا وزامبيا وجوهانسبورغ وكذا في دول الغرب كلندن ، فيينا وفرانكفورت، ويوجد لهم في شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية أكبر معبد لهم، ومنه تصدر مجلة نجم الغرب، وكذا في ويلمنت النويز المركز الأمريكي للعقيدة البهائية، أما في نيويورك فلهم قافلة الشرق والغرب وهي حركة شبابية قامت على المبادئ البهائية ولهم كتاب ودليل القافلة وأصدقاء العلم، وهناك إلى يومنا حوالي 600 جمعية[4]. ولكن الأهم أن لهذه الطائفة ممثل في الأمم المتحدة فيكتور دي أرخو وممثل في مقر الأمم المتحدة في جنيف ونيروبي، وكذا عضو استشاري في المجلس الاستشاري الاجتماعي والاقتصادي للأمم المتحدة أيكوسكو ECOSCO، وكذلك في برنامج البيئة للأمم المتحدة UNEP وفي اليونيسيف UNICEF، وكذلك بمكتب الأمم المتحدة للمعلومات U.N Office of Public Information[5]، وديزي بوس ممثل الجماعات البهائية الدولية لحقوق الإنسان في الأمم المتحدة، ورستم خيروف[6]، الذي ينتمي إلى المؤسسة الدولية لبقاء الإنسان.

---

(1) عبد الرحمن الوكيل: **البهائية، تاريخها**، المرجع السابق، ص ص58.

(2) أنور الجندي: **الإسلام في عين الخطر**، مرجع سابق، ص197.

(3) عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): **قراءة في وثائق البهائية**، ط1، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1986م، ص ص35-38.

(4) عبد الرحمن الوكيل: المرجع السابق، ص65.

(5) نفسه.

(6) نفسه، ص73.

إن أتباع هذه الطائفة موجودين عبر العالم ولهم ممثلين في هيئات عالمية مهمة لماذا؟ ربما لموالاتهم المستمرة والدائمة لليهود وسعيهم الدائب لتهويد المسلمين. ولم تكن الحركة الوحيدة التي عملت في هذا المجال بمساندة من الحكومات الاستعمارية.

فالحركة القاديانية أو الأحمدية[1] سلكت نفس الطريق، نشأت هذه الحركة خلال القرن 19م، بتخطيط ودعم من الاستعمار عن طريق نشاط المنصرين، وكان الميرزا غلام أحمد القادياني (1839م – 1908م)[2] أداة التنفيذ الأساسية، وانحدر من عائلة اشتهرت بخيانة الدين الوطن والولاء للاستعمار، فنشأ وفيًا للاستعمار مطيعًا له في كل حال من الأحوال[3].

بدأ نشاط هذه الحركة على يد غلام أحمد القادياني، وبعد وفاته تولى الخلافة 5 من أتباعه، ومؤخرًا خلفهم مسرور أحمد والمقيم في لندن حاليًا، كما كان لهم نشاط كبير في إفريقيا، وكان لهم فيها أزيد من خمسة آلاف مرشد وداعية، متفرعين لدعوة الناس للأحمدية.

ومن أهم ما يؤمن به القاديانية أن غلام رسولاً بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا يكفي لإخراجهم من الإسلام[4]، ولكنهم مقتنعون بأنهم حركة إسلامية تجديدية، حيث ادّعى غلام أحمد القادياني أنه المسيح المدعو المهدي المنتظر من قبل المسلمين، ذلك المصلح الذي تنبأت به كل الديانات السماوية، ويعتبرون أنفسهم جماعة دينية غير سياسية هدفها تجديد الإسلام[5].

وذلك بتخطيط من الحكومات الاستعمارية، وكل هذا من أجل إبعاد المسلمين عن دينهم، وخاصة عن فريضة الجهاد، حيث من أهم معتقدات هذه الجماعة أنه منع أو نزع

---

(1) نشأت في أواخر القرن 19م في 23 مارس 1889م وسماها الجماعة الإسلامية الأحمدية، وادعى أنه مجدد القرن 14هـ. للمزيد انظر: عمار النجار: **القاديانية**، ط1، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، 2005، ص7.

(2) ولد في قرية قديان في الهند وكان ينتمي إلى أسرة اشتهرت بخيانتها للدين والوطن، حيث تنكر الغلام إلى ملكة بريطانيا التي جعلته نبيًا وأن عصيان الإنجليز هو عصيان لله. انظر: إحسان إلهي ظهير: **الفرق، القاديانية**، دراسات وتحليل، ط4، إدارة ترجمان السنة، باكستان، 1404هـ، 1984م، ص ص19-22.

(3) عمار النجار: **القاديانية**، المرجع السابق، ص ص13-15.

(4) نفسه، ص ص11-12.

(5) وهذا يعود لمشاكله النفسية ومرضه، حيث يقول: لقد ألهمت بشأن إلهي بختي"، وهذا ما يدل على مرضه. انظر كتابه: أربعين، المجلد 4، ص19، نقلاً عن عمار النجار، نفس المرجع السابق، ص9.

فريضة الجهاد، وهذا ما كان يخدم المستعمر، حيث دعت القاديانية إلى التعامل مع المستعمر[1].

وللقاديانية علاقة وطيدة مع إسرائيل، وقد فتحت لهم إسرائيل المراكز والمدارس ومكنتهم من إصدار مجلة تنطق باسمهم وطبع الكتب والنشرات لتوزيعها في العالم، كما أن تأثرهم بالمسيحية واليهودية والحركات الباطنية واضح في عقائدهم وسلوكهم رغم ادعائهم الإسلام ظاهريًا، فنسبة الولد إلى الله وادعائه أن غلام ابن الله[2].

فعمل المنصرين على نشر هذه الأفكار على نطاق واسع من أجل بث السموم الفكرية والعقائدية ضد الإسلام، ونشرت هذه الأفكار في كل المناطق المستعمرة وتغلغلها في أوساط المسلمين والاحتكاك بهم، وعاملتهم على أنهم الممثلون للإسلام في مستعمراتها[3].

وصلت الأحمدية إلى الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، لم تشكل خطرًا كبيرًا، حيث كتبت عدة مقالات وأعطيت عدة محاضرات من أجل حماية وتوعية الشعب الجزائري ضد هذه الفرقة، من طرف علماء ومصلحين، من خلال البصائر والشهاب عندما كان أسبوعيًا[4].

وأكدوا على أنه بإمكانها أن تشكل خطر فعلي يقف في وجه التعبئة لاستقلال الجزائر، بسبب عقائدها الفاسدة وعلاقتها بالاستعمار، فهي حاولت نشر فكرة أن كل من يفكر في الاستقلال والتخلص من الاستعمار كافر، وخروج عن الحاكم ومعادٍ لله ورسوله[5].

وهناك طائفة أخرى والتي أعيد بعثها خلال القرن 18م و 19م، وهي بدعة النيتيشرية[6]، نسبة إلى نيتشر (Nature) وهي كلمة لاتينية معناها الطبيعة، والهدف من هذه الطائفة هو ضرب الأديان وخصوصًا الإسلام، الذي هو يحمي الإنسان بثلاث عقائد و 3 خصال تجعل المسلم في بر الأمان من هذه الطائفة[7]، التي عملت على ضرب

(1) عمار النجار: **القاديانية**، المرجع السابق، ص10.

(2) إحسان إلهي ظهير: **الفرق، القاديانية**، مرجع سابق، ص20.

(3) نفسه، ص22.

(4) عبد الحميد بن باديس: **جاء الحق وزهق الباطل**، البصائر، ع1، سنة 1935، ص2.

(5) نفسه.

(6) للمزيد حول هذه الطائفة انظر: جمال الدين الأفغاني: **الرد على الدهريين**، تقديم الإمام محمد عبدو، تحقيق محمد حامد، دار الإبداع، 1983م، ص ص12-19.

(7) نفسه، ص ص19-23.

والتشكيك في هذه الأسس، حيث أنزلت الإنسان إلى منزلة الحيوان وتعدّه لحياة جامدة ضيقة جافة لا قلب لها ولا سمو، وكل هذا لتلويث أفكار المسلمين، وهذا وينشط لأجله جيوش من المنصرين رأوا فيها الوسيلة الأقرب لتحقيق مخططات حكوماتهم الاستعمارية، وبذلك ضرب الإسلام وقيمه الذي يطالب المسلمين أن يكونوا أصحاب السلطان في أوطانهم، فأصبح من الضروري أن يجدوا ما يضعف أثر العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين، ومساعدتهم على نشر هذه الأفكار الكاذبة والخاطئة عن الإسلام والدين، وبالتالي فتح المجال أمام المنصرين والاستعمار، خاصة وأن نشاطهم التنصيري كان دون نتائج فعلية داخل العالم الإسلامي، لأنه من الصعب إخراج المسلم عن إسلامه، بينما يمكن تشكيكه وزعزعة عقيدته[1].

حاربها علماء ومصلحي المسلمين بكل الطرق، وقال عنها جمال الدين الأفغاني: «هي جرثومة فساد وأورمة البلدان» وهذا يكفي حتى نصنفها من الفرق الضالة، التي عملت جنبًا إلى جنب مع المنصرين لتطبيق مشاريع الحكومات الاستعمارية، وحصلت على الكثير من الامتيازات مقابل ذلك[2].

ومن بين الفرق التي ساعد الاستعمار على تأسيسها أو إعادة بعثها بمساعدة المنصرين هي فرقة البريولية[3]، وهي تعتبر نفسها من الفرق صوفية العقيدة، وتدعي الانتساب إلى مذهب أبي حنيفة، نشأت في الهند أسسها البريولي أحمد رضا خان تقي علي خان وقد سمى نفسه "عبد المصطفى"[4].

أهم ما اشتهرت به هذه الفرقة هو تقديس الأنبياء والأولياء عامة، وأنهم لديهم قدرة التحكم بالكون ويكادون أن يضعوهم في نفس مرتبة الألوهية، حيث يقول أحمد رضا خان مخاطبًا عبد القادر الجيلاني: «إن قدرة (كن) حاصلة لمحمد من ربه، ومن محمد حاصلة لك وكل ما يظهر منك يدل على قدرتك على التصرف، وأنك أنت الفاعل الحقيقي وراء

---

(1) أحمد أمين: **زعماء الإصلاح**، مرجع سابق، ص15.

(2) جمال الدين الأفغاني: **الرد على الدهريين**، مصدر سابق، ص20.

(3) البريولية هي فرقة صوفية، انظر: محمود عبد الرحمن: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص75.

(4) المولود في مدينة بريلي من مدن الهند في ولاية أبربردش سنة 1272هـ – 1865م وتوفي في 1340هـ/1921م، للمزيد انظر: إحسان إلهي ظهير: **البريولية عقائد وتاريخ**، ط1، إدارة ترجمان السنة، باكستان، 1983م، ص37.

الحجاب»، كما أنهم وصفوا النبي محمد صلى الله عليه وسلم بما لا يليق إلاّ بالله، حتى وصلوا إلى إنكار بشرية النبي صلى الله عليه وسلم[1].

حتى أصبحوا يحثون أتباعهم على الاستغاثة بالأنبياء والأولياء، ومن ينكر عليهم ذلك يرمونه بالإلحاد.

كما أنهم حثوا على تشييد القبور وتعميرها والنذر لها، والتبرك بها، والطواف حولها، وكفّروا مخاليفهم[2].

كما أنهم وقفوا في وجه الحركات المجاهدة ضد الاستعمار، حيث لم تقم حركة ضد الاستعمار إلاّ وخالفها ووقف ضدها وذهب إلى تكفيرها في بعض الأحيان. كما أن البريولي قال في كتاب له: «... لا جهاد وقتال على مسلمي الهند...» [3]، حيث أمر المسلمين بالتباعد عن هذه الحركات الجهادية كلها، كما أفتى بتحريم الجهاد في ربوع العالم الإسلامي، وخاصة في الهند، مستدلاً بأن الهند ليس بدار الحرب ولا يؤذن الجهاد فيها، وكان كل هذا من أجل إرضاء المستعمر، حيث كتب رسالة مستقلة باسم إعلام الأعلام بأن هندستان دار الإسلام[4].

كما أنهم كتبوا رسالة أخرى من أجل ضرب المسلمين، عندما خلف الإنجليز وعودهم الاستقلالية وقيام حركة تحررية ضدهم بقيادة المسلمين، أدرك البريولي خطر هذه الحركة وما تشمل على دعوة الجهاد، فكانت الرسالة التي كتبها بمثابة السد المنيع في وجه هذه الحركة والقضاء عليها، وكانت هذه الرسالة "دوام عيش"، شك في الخلافة العثمانية، مستدلاً بأن الخلافة لا يجب أن تكون لغير قريشيًا[5]، وبما أن – على حدّ تعبيره – العثمانيين الأتراك ليسوا من قريش فلا تثبت خلافتهم، وعلى ذلك ليس على المسلمين مناصرتهم أو مساعدتهم أو محاربة الإنجليز من أجلهم، حيث قال: «... إن حماية الأتراك

(1) إحسان إلهي ظهير: **البريولية**، المرجع السابق، ص ص139-140.

(2) عبد الرحمن الوكيل: **مجموعة مقالات**، تحقيق محمد عوض بن عبد الغني المصري، ط1، دار سبيل الرشاد للنشر والتوزيع، أغادير، المغرب، 2011م، ص842.

(3) إحسان إلهي ظهير: المرجع السابق، ص152.

(4) محمد عبده وطارق عبد الحليم: **دراسات في الفرق الصوفية، نشأتها وتطورها**، ط4، مصر، 2001، ص ص19-20.

(5) إحسان إلهي ظهير: المرجع السابق، ص ص40-42.

خداع محض وإلا المقصود الأصلي من ذكر اسم الخلافة تحرير الأراضي الهندية...»[1]. وذهب البريليون إلى إصدار فتاوى ضد الجهاد ضد الإنجليز، وفي 1857م كتب البريولي كتيبًا مستقلا باسم "المحجة المؤتمنة في آية الممتحنة".

ومن خلاله حاول التركيز على ضرورة الابتعاد عن محاربة الإنجليز، حيث قال: «إن المقصود من هذه الحركة هو الحصول على الحرية من الإنجليز»[2].

كما قال كذلك: «... إنه لا جهاد علينا مسلمي الهند بنصوص القرآن العظيم، ومن يقول بوجوبه فهو مخالف المسلمين ويريد إضرارهم...»[3].

وعندما سألوه عن جهاد علي رضي الله عنه، فإنه أجاب أنه حرامٌ على سلطان الإسلام الذي يجب عليه إقامة الجهاد أن يبدأ بقتال الكفار إذا لم يكن يكافئهم، فكيف ونحن لا نستطيع مكافئة الإنجليز ومحاربتهم[4].

وهنا نلاحظ إلى أي درجة يخدم مصالح المستعمر عن طريق ترويج فكرة تحريم محاربتهم، ولم يكتفِ بذلك، بل ذهب إلى فكرة طالما حاول المنصرين نشرها في العالم الإسلامي وهي تفوق المستعمر وقوته على الشعوب المستعمرة. وختم كتابه أيضًا بتكفير كل من يناضل ضد المستعمرين ويدعو إلى ترك الموالاة لهم والمعاملة معهم.

حيث اشتهر بين المسلمين بالموالاة للاستعمار والعمل لحسابهم، وهذا ما كتبه الإنجليزي فرانسيس رابنس: «... إن البريولي كان عمله حماية الحكومة الإنجليزية، فإنه أيد الحكومة في الحرب العالمية الأولى، واستمر في هذه الحماية والتأييد حتى أيام حركة الخلافة عام 1921م، حيث عقد مؤتمر في بريلي، وجمع فيه العلماء الذين كانوا يخالفون ترك موالاة الحكومة والذين كان لهم أثر كبير في نفوس العامة المتعلمين والدارسين المسلمين...»[5].

ومن ذلك ما يمكن استنتاجه أنها نشأت في الهند خلال مرحلة الاستعمار وبتدبير من المنصرين، وكان الهدف منها ضرب العقيدة الإسلامية الصحيحة، حتى يجعلوا

---

(1) حازم محفوظ: **ازدهار الإسلام في شبه القارة الهندية**، ط1، دار الثقافة للنشر، مصر، 2004م، ص112.

(2) إحسان إلهي ظهير: **البريولية**، مرجع سابق، ص43.

(3) نفسه، ص ص44-45.

(4) محمد عبده وطارق عبد الحليم: **دراسات في الفرق**، مرجع سابق، ص44.

(5) إحسان إلهي ظهير: المرجع السابق، ص44.

للإنجليز الثغرة التي يدخلون منها للمجتمع الإسلامي، يسعون جاهدين على شق صفوف المسلمين وإضعافهم، فلهم بدعة تقبيل الإبهامين ومسح العينين بهما عند الآذان، بل ويعتبرونه من الأمور الأساسية، مزجوا عقيدتهم بالنصرانية وبمختلف المعتقدات الموجودة في المنطقة، فأصبحت مزيج لكل هؤلاء، وهذا ما يظهر من خلال عقيدتهم.

كان تأسيسهم في الهند ولكن تواجدوا في انجلترا، وتسمى جمعيتهم باسم "جمعية أهل السنة وجمعية تبليغ الإسلام".

ما يمكن استنتاجه من خلال هذه الفرق التي ظهرت في المناطق من آسيا، والتي عمل الاستعمار بتدبير ومساعدة الجيوش التنصيرية على نشرها وإعادة بعثها في كل أنحاء العالم الإسلامي. وكل ذلك من أجلا خلق الفتن التي تعتبر الطرق الوحيدة لضرب الوحدة داخل العالم الإسلامي، وزعزعة اليقين الديني داخل نفس المسلم، والابتعاد عن الجهاد الذي اعتبرته معظم هذه الفرق من أهم أركان الإسلام في مرحلة الحروب.

وما نلاحظه أن هذه الفرق الأربعة باختلاف معتقداتها، إلاّ أنها تشترك في معتقد واحد، ألا وهو العمل على الابتعاد على الجهاد، الركن الذي يعتبر من أهم الأركان التي يعتمد عليها الإسلام في حالة الحروب.

ولإقناع المسلمين عمل المنصرين جاهدين من أجل الوصول إلى هذه الأفكار ونشرها في أوساط المسلمين، وإبعاد المسلمين عن الجهاد، بل إقناعهم بالولاء والتبعية لهم، وهذا ما خططت له الحكومات الاستعمارية عن طريق المنصرين وتطمح لتطبيقه.

الفصل الخامس:

التنصير في المستعمرات الفرنسية

- المبحث الأول: التنصير في إفريقيا الوسطى والجنوبية
- المبحث الثاني: نماذج من التنصير الفرنسي في المشرق الإسلامي
- المبحث الثالث: الفكر التنصيري في الجزائر

ما يمكن أن يشد انتباه المتتبع للحركة الاستعمارية لدول الغرب على العالم الآخر، خاصة العربي الإسلامي هو مدى اهتمام الدول التي كانت تعتبر مالكة للقوة آنذاك بأراضي إفريقيا، وربما يعود ذلك لمخططات المنصرين والمنظرين الغرب للوصول إلى المناطق المقدسة والسيطرة عليها، أمثال ريموند لول الذي كان يراها بوابة الأراضي المقدسة.

فبعد فشل الحملات الصليبية والتي كانت بدعامة الكنيسة والمتمثلة في شخص البابا، والتي عرفت بالحروب الصليبية وعجز أوروبا والكنيسة بصفة خاصة من اختراق العالم الإسلامي، ولكن كان لهذا الاحتكاك للغرب مع العالم الإسلامي فوائد كثيرة، تمكن من خلاله الغرب من الاقتناع والتعرف ببعض المفاهيم العلمية وخاصة في المجال الجغرافي من المسلمين (الإدريسي – البيروني – ابن حوقل)، كما تمكنوا من الاقتناع بكروية الأرض، فتح لهم المجال في وقت لاحق أمام مغامرات لمعرفة العالم برًا وبحرًا[1].

كما أن هذا الاحتكاك نقل العلم والمعرفة إلى أوروبا، ما ساعد الغرب بالقيام بتغيرات جذرية غيرت أوروبا وأدخلتها مرحلة من التطور وعرفت بالنهضة، استطاعت من التغيير في العديد من المجالات، وبنت قوتها الاقتصادية والعسكرية، وبإنهاء الحروب العديدة التي كانت بين الإمارات الأوربية، وتشكلت دول قوية ستكون في وقت لاحق قوى عظمى واستعمارية، فرنسا – اسبانيا – البرتغال – بريطانيا – هولندا – إيطاليا وغيرها، كما أسست أساطيلها العسكرية القوية، وركبوا البحر لمعرفة العالم، وتسويق منتوجاتهم والسيطرة على الطرق التجارية، وتعزيز من خلالها رغبة الكنيسة في نشر مبادئ النصرانية، وهذا ما شجع الكشوفات الجغرافية[2]، وبذلك كان للعامل الديني أهمية كبيرة في هذه الحركة خاصة مع الإسبان والبرتغال الذي حرصت الكنيسة على نشر المسيحية في العالم من خلال مغامراتهم الكشفية حول العالم.

---

(1) استطاع العرب المسلمين والمستكشفين أن يغامروا، فتعرفنا عن طريقهم بثلاث اتجاهات ناحية الشرق الأقصى فوصلوا إلى الصين والهند وإيران وكانوا أول من عرفوا قارة آسيا، في 705 – 714م، كما أنهم يعود لهم الفضل في التوغل في الأراضي السودانية التي تقع جنوب من الصحراء الكبرى حيث كانت لهم صلات تجارية هناك 1076م، كما أنهم وصلوا إلى ساحل ناتال، واكتشفوا مدغشقر، وكذا حاولوا التوغل في أوروبا فتوصلوا إلى الأراضي الروسية والبولندية. للمزيد أنظر: أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**.

(2) زينب عبد العزيز، **تنصير العالم**، دار الوفاء، المنصورة، مصر 1965م، ص ص25-27.

المبحث الأول: التنصير في إفريقيا الوسطى والجنوبية

إفريقيا من قارات العالم القديم والتي يرى الكثير من العلماء والمؤرخين أنها قد تكون الوطن الأول للإنسان[1]، ولكن رغم ذلك بقيت هذه القارة لمدة طويلة لا يعرف منها من العالم الخارجي إلاّ سواحلها، أما الاتصال بداخل القارة كان شبه منعدم وبقي قلب القارة مجهولاً على العالم الآخر وخاصة الأوروبيين حتى بدأت الحركة الاستكشافية الكبرى خلال العصور الحديثة[2].

ولكن لم يكن الأوروبيين الأوائل في اكتشاف إفريقيا بل سبقهم في ذلك المصريين الذين يحتلون الصادرة في بداية محاولة اكتشاف هذه القارة، والذين كانت لهم علاقات مع بلاد النوبة، فأقاموا الحصون والمعاقل لحماية الطرق المؤدية إلى هذه المناطق، كما يوجد جهود العرب الذين وصلوا مبكرًا إلى القارة واستقروا فيها، وكانت لهم علاقات تجارية مع الأفارقة حتى أنهم كوّنوا إمارات عربية، حيث أن العرب استقروا في شمال القارة، وتمكنوا من هناك التوغل نحو الداخل[3].

وبذلك فإن هذه القارة منقسمة إلى جزأين، شمالي وجنوبي وقبل أن يكون تقسيم استعماري أو كلونيالي فهو أولاً تقسيم طبيعي، وإفريقيا التي نسلط عليها الضوء في هذه الدراسة هي إفريقيا الجنوبية أو إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، أو إفريقيا السوداء أو المظلمة، أو إفريقيا الزنجية من مصطلح زنجبار "Zanzibar" وهو يصف المنطقة الإفريقية التي تقع جنوب الصحراء الكبرى، وهي التي تفصل منطقة الجنوب عن منطقة الشمال[4]، تعتبر من أكبر الصحاري في العالم، يسودها مناخ قاسي، يجعل المعيشة صعبة، وكانت ذات كثافة سكانية قليلة وحاليا أصبحت يطلق عليها عدة تسميات منها إفريقيا المدارية والاستوائية، وهي أحدث المصطلحات البديلة لهذه المنطقة، إلاّ أن هذا المصطلح لا ينطبق جغرافيا لأن معظم مساحاتها تقع خارج المناطق المدارية[5].

---

(1) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وشوقي الجمل: **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، ط2، دار الزهراء، الرياض، 2002، ص3.

(2) نفسه، ص10.

(3) محمد عبد القوزي: **في تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2006، ص11.

(4) قيل أن هذه التسمية مرتبطة بسواد بشرة سكانها. انظر: عبد الله الرازق، المرجع السابق، ص12.

(5) كوليين ماكيفيدي: **أطلس التاريخ الإفريقي**، ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1987، ص ص15-25.

تاريخ إفريقيا الحديث يتصل اتصالاً وطيدًا بالأوروبيين وهذه العلاقة ظهرت في شكل محاولات كشف القارة لتتطور إلى استعمار المنطقة، والذي اشتدت حدّته حتى كادت الدول الأوروبية أن تصطدم فيما بينها في سبيل السيطرة على أكبر حصة من المنطقة والتي أصبح اقتصادها وتطورها – الدول الأوروبية – مرتبط بما يمكن أن تقدمه هذه المناطق، من خيرات باطنية، ويد عاملة رخيصة وغيرها[1].

حيث كانت الحركة الاستكشافية التي بدأها البرتغاليون في القرن 15م، بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح والتي اشتدت حتى وصلت ذروتها في القرن 19م مع بداية الحملة الاستعمارية الكبرى، اهتم الغرب المسيحي بهذه المناطق ولكن بعد أن دخلها المسلمون، إما كتجار، أو رحالة أو مستكشفين، فاستطاعوا الوصول إلى بعض المناطق منها، فنشروا فيها الإسلام، كالسودان والسنغال والنيجر، وبعض المناطق الأخرى، وأول من اكتشف مدغشقر، وصلت مراكبهم من الأندلس، عبر الجزائر، نحو الصومال وزنجيبار والموزنبيق وجزر القمر، ويعتبر المسلمين من السباقين في اكتشاف منابع نهر النيل قبل أن يصلها المستكشفون الغرب[2].

وما يمكن أن يشد الانتباه هو اهتمام الغرب بالقارة الإفريقية بمجملها، ولكن بصفة خاصة ربما الشمالية منها والشرقية، ولم يتمكن الغرب المسيحي من كشف إفريقيا إلى غاية القرن 19م، حيث ما كان يعرف منها إلا سواحلها، وكونها ضيقة، وانعدام الجزر من القرب منها لم تساعد الغرب على التغلغل فيها[3]، أضف إلى ذلك مناخها الصعب، كون المنطقة تقع على المدار، فلها مناخ مداري استوائي صعب، دون أن ننسى الأمراض المختلفة والمنتشرة في المنطقة، فاهتم الغرب المسيحي في البداية بسواحلها التي جعلها محطات تجارية، ذلك أن العالم الإسلامي بموقعه المتميز سيطر على التجارة في الشرق، بتحكّمه في شرايين الملاحة المؤدية إلى مصادر التجارة، فالسيطرة على العديد من الإطلالات البحرية والمضايق والطريقين التجاريين نحو الهند وهما طريق الحرير والتوابل،

---

(1) دياب أحمد إبراهيم: **لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث**، ط1، دار المريخ للنشر، الرياض، 1981م، ص23.

(2) يسرى عبد الرزاق الجوهري: **الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية**، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1975، ص31.

(3) محمد هاشم عوض: **مراحل وأساليب انتشار الإسلام والمسيحية في إفريقيا**، مجلة دراسات إفريقية، العدد 15، دار جامعة إفريقيا العالمية للطباعة والنشر، السودان، 1996، ص ص23-27.

وبالنهضة التي شهدتها أوروبا، والتحولات في جميع المجالات، خاصة العلمي والفكري والاقتصادي، كل هذا أدّى إلى تطور الغرب ووصوله إلى الرقي الحضاري والصناعي، وعم هذا التطور أوروبا بأكملها تدريجيًا، وانغلاق أوروبا تجاريًا واقتصاديًا، ما دفع أوروبا للخروج بحثًا عن مناطق جديدة وأسواق وطرق تجارية من أجل تسويق، وجلب مادة خام لتصنيعها[1].

انطلقت أول بواخر في مغامرات بحرية في القرن الرابع عشر الميلادي بعد حروب الاسترداد، وسقوط آخر معقل المسلمين في الأندلس غرناطة في 1492م، عندما خرج الغرب مطاردين للمسلمين على السواحل الإفريقية، ومحاولة إجهاض وإفشال أي محاولة رجوع إلى أوروبا، وبالتالي محاولة التطويق ومحاصرة الإسلام والمسلمين، وبما أن إفريقيا كانت معبر لأهم الطرق التجارية وأهم محطاتها، جعل الغرب يشد أنظاره إليها، فكانت البهارات والتوابل والأقمشة تصل أوروبا عن طريق الخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، ثم دمشق والقاهرة إلى أوروبا عن طريق السواحل الإيطالية، فتحول هذا الخروج البحري إلى محاولة إنهاء السيطرة والاحتكار الإسلامي أو للدول الإسلامية للتجارة العالمية[2]، فاتخذت هذه المغامرات البحرية طابع ديني، وذلك بسبب مباركة البابا والكنيسة، التي كانت تكن العداء للإسلام والمسلمين، حيث ذهب البابا في تصريحاته أنه من مات خلال الرحلات البحرية يعتبر من شهداء الكنيسة[3].

ومن ثم انطلق ملوك إسبانيا والبرتغال في تخصيص أموال ضخمة للإنفاق على هذه الحملات، ليشهد البحر الأبيض المتوسط والدول الإسلامية حركة كشفية، لم يشهدها العالم من قبل، ويمكن اعتبار البرتغال الرائدة في هذا المجال خاصة كشوف إفريقيا، فقد سبقت الدول الأوروبية الأخرى، وربما يرجع ذلك إلى الأمير هنري الملاح[4]، والذي كانت له أهداف من هذه المغامرة البحرية والتي بدأت بمطاردة وملاحقة مسلمي الأندلس

---

(1) يسري عبد الرزاق الجوهري: **الفكر الجغرافي...**، مرجع سابق، ص35.

(2) عبد الحميد عبد الغني: **أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة**، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص45.

(3) إبراهيم محمد أحمد بلولة: **البعد الديني للكشوف الجغرافية**، مجلة الشريعة للدراسات الإسلامية، العدد السادس، مركز التنمية المجتمع، جامعة إفريقيا العالمية، السودان، 2005، ص193.

(4) هنري الملاح (1334 – 1460م) هو من أسس أهم أكاديمية بحرية في البرتغال. انظر: يسري عبد الرزاق الجوهري، المرجع السابق، ص82.

نحو السواحل الإفريقية والقضاء عليهم، وتنتهي بوضع مشروع خطة لتطويق والالتفاف حول العالم الإسلامي، والوصول إلى الهند بالدوران حول إفريقيا[1]، التي كان المسلمون الذين أثبتوا أنها جزيرة يحيط بها الماء، وبالتالي اكتشاف طرق تجارية جديدة، ليتمكن الغرب من خلالها محاصرة المسلمين تجاريًا بخلق طرق تجارية جديدة، وانتزاع تجارة الذهب وغيره من حاصلات إفريقيا الغربية من يد المسلمين، ولتنتهي به الأمور إلى محاولة نشر المسيحية في المنطقة، والهدف من ذلك مسابقة المسلمين في المنطقة ما جعله يحاول الاتصال بنجاشي النصراني وراء الصحراء الكبرى جنوبًا وتحالف معه من أجل ضرب المسلمين عسكريًا من الجنوب، وقد تعتبر رحلات الأمير هنري من بين أهم الرحلات البحرية التي دارت حول إفريقيا، فاستطاع الوصول إلى المغرب واحتلالها حتى نهر السنغال[2].

وما يجب التركيز عليه هو أن الغرب اهتم بالقارة الإفريقية بأكملها، فالساحل الشمالي لإفريقيا، وهو المواجه لأوروبا مباشرة، كانت مناطق معروفة عند الغرب المسيحي، انتشرت فيها المسيحية في وقت مبكر، وكان لذلك صلة وطيدة بالإمبراطورية الرومانية، وحكمها في بلاد المغرب، وكان ذلك بخروج المسيحية من بلاد الشام وهدم الإمبراطورية الرومانية، وبدأ تنظيم الكنيسة الإفريقية في منتصف القرن الثالث على يد القديس سبيريان (Saint Cyprien)[3].

أما الساحل الغربي لإفريقيا والذي كان هو الآخر قريب من السواحل الأوروبية، وصل إليها الغرب بسهولة ولكن لم يتمكنوا من السيطرة إلاّ على السواحل، وبقي من ذلك الوقت وحتى القرن التاسع عشر مسيطرًا على السواحل إلا نادرًا، وكانت هذه المحاولات الاستكشافية لإفريقيا من طرف الغرب منذ القرن الخامس عشر الميلادي وتواصلت لمدة خمسة قرون، من أجل اكتشاف خبايا هذه القارة[4]، وما أدّى في غالب الأحيان إلى اصطدام مصالح القوى الغربية على السيطرة على المناطق ابتداءً بالقوتين في العصر الحديث

---

(1) إبراهيم محمد أحمد بلولة: **البعد الديني للكشوف الجغرافية**، مرجع سابق، ص223.

(2) يسري عبد الرزاق الجوهري: **الفكر الجغرافي...**، مرجع سابق، ص ص83-86.

(3) محمد هاشم عوض: **مراحل وأساليب انتشار الإسلام والمسيحية في إفريقيا**، مرجع سابق، ص ص34-37.

(4) جوزيفين كام: **المستكشفون في إفريقيا**، ترجمة السيد يوسف نصر ومحمد على الوقاد، دار المعارف، القاهرة، 1973، ص57.

البرتغال واسبانيا ثم من ورثها أي فرنسا وبريطانيا وغيرهما. فبعد هنري الملاح هناك رحلتا "بارثولميو دياز" الأولى والتي أوصلته إلى خليج غينيا وساحل العاج ونيجيريا والكامرون حتى مصب نهر الكونغو والرحلة الثانية التي أوصلته إلى رأس الرجاء الصالح[1]. كما هناك رحلة "فاسكو دي ڤاما" في 1497م والتي دار فيها لأول مرة حول إفريقيا، والذي كان له صفة المنصّر كان يصرح أن ما يهمه سلطة الروح[2].

أما بالنسبة لاسبانيا فاتجهت كشوفاتها البحرية غربًا وربما من أشهر بحارتها كريستوف كلونمبس[3]، والذي كان له هدف مهم كرّس له كل جهوده بل وحياته وكتب مرّة عن هذا الهدف إلى ملك وملكة إسبانيا فردينات وإيزابيلا قائلا أنه يريد أن يكتشف ممالك ومدنًا جديدة يضمها إلى التاج الإسباني، ويهدي شعوبها إلى الدين المسيحي ثم يجنّدها فيما أسماه بحرب الحياة أو الموت ضد إمبراطورية محمد، وأضاف أيضًا أن هدفه النهائي استعادة الأراضي المقدسة وخاصة القدس ومهد المسيح وذلك تمهيدًا لنزول مملكة الله على جبل صهيون[4].

وقد أصبحت رسالة كولونبس والمؤرخة في 15 فيفري 1492م برنامج عمله ومنهاجه التزم به طيلة عمره، حيث طبعت هذه الرسالة في 1493م وتم ترجمتها إلى عدة لغات وأعيد طبعها عدة مرات، حتى أصبحت وثيقة رسمية تمثل البرنامج الإيديولوجي للأوروبيين في حملاتهم الاستكشافية، الاستعمارية، التنصيرية، ويلخص برنامجه كما يلي: غزو العالم وهداية البشرية إلى المسيحية، واستعادة الأراضي المقدسة، والإعداد لإنشاء مملكة الإله على جبل صهيون في موقع الهيكل[5]، وكأنه يتصور نفسه رسول الوحي المستقبلي الذي يتنبأ باستعادة القدس، وكان يمض اسمه كريستوفرنز (Christophernz)

(1) عمار هلال: **التنافس التبشيري الحديث في إفريقيا السوداء**، مجلة الثقافة، العدد 78، السنة 13 نوفمبر – ديسمبر، وزارة الثقافة، 1983، ص....

(2) كارل بروكلمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة، نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 2005، ص201.

(3) عبد الحميد عبد الغني: **أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة**، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص ص192-194.

(4) روجيه جارودي، **الخرافات المؤسسة للسياسة الإسرائيلية**، ترجمة محمد علي الكيلاني، دار الكتاب، دمشق، 1996م، ص57.

(5) طمسون، توماس: **الماضي الخرافي للثورة والتاريخ**، ترجمة عدنان حسين، دار القدس، دمشق، 2001م، ص124.

وتعني باللاتينية حامل المسيح[1]، وكان يرى أن مهمته مقدسة كمنصر عالمي كانت شبيهة بمهمة القديس كريستوفر الذي حمل المسيح الطفل عبر النهر على كتفيه، وقد كتب في دفتر يومياته تحت تاريخ يوم الجمعة 16 نوفمبر 1492م لقد زرع الصليب في كل مكان وصل إليه، سواء في الجزر أو القارات[2]، وهذا ما يتضح لنا من خلال أول تصرف له عندما وصل إلى جزيرة غنهاني (Guanahani) في 1492م، غرس الصليب المسيحي في المنطقة[3].

وبذلك أصبحت المسيحية خلال الفترة الحديثة أهم معول لخدمة المخططـات الاستعمارية ووظفتها لتحقيق أغراضه، بل جعلها أحد أهم المبررات للتنصير والاستعمار، واللذان هما مرتبطين ببعضهما، وكان للتنصير دورًا محوريًا للسيطرة والتوسع الاستعماري الأوروبي، لاسيما بعد الكشوفات الجغرافية، وكان للإرساليات والجماعات التنصيرية دور هام ومحوري، أمام تعبيد الطريق للمستعمر وفتح الأبواب له في المناطق المراد السيطرة عليها، وذلك عن طريق الإعانات التي كانت تتلقاها من حكوماتها ومن الكنيسة بروما، وهذا ما يؤكد أن حركة الكشوفات حركة صليبية بأهداف استعمارية. وبعد هذه الكشوفات البحرية التي أوصلت أوروبا إلى سواحل إفريقيا دون التوغل بداخلها، تأتي مرحلة الكشوفات البرية أين حاول المستكشفون الأوروبيون المخاطرة والدخول داخل إفريقيا، خاصة منطقة إفريقيا جنوب الصحراء[4].

ففي الجنوب ومقارنةً بالشمال الإفريقي، وصلت إليها المسيحية عن طريق المنصرين البرتغال والإسبان حاملين صولجان الاستكشاف والتنصير وصولاً إلى الاستعمار، فاستكشاف القارة الإفريقية من طرف الغرب فتح الباب أمام المستعمرين للاستيلاء على مساحات واسعة واستغلال الأفارقة، وخيرات المنطقة من أجل تحسين حياة الفرد الغربي، لينطلق استعمار هذه القارة ابتداءً من القرن الخامس عشر ميلادي، فبدأ بالسواحل لينتشر داخل القارة، وكان أهم دوافع أو هذا الاهتمام الزائد بالمنطقة هو بأهداف دينية، فبعد انتهاء من

---

(1) كنعان جورجي: **أمجاد إسرائيل في أرض فلسطين**، دار الطليعة، بيروت، 1978، ص164.

(2) كنعان جورجي: **العنصرية اليهودية**، دار النهار، بيروت، 1983م، ص43.

(3) كنعان جورجي: المرجع السابق، ص168.

(4) نفسه، ص170.

المسلمين في شبه جزيرة إيبيريا، حملت بعدها البرتغال لواء الحركة الدينية ونشر المسيحية، وهناك من اعتبرها حرب صليبية جديدة حاول البرتغاليون من خلالها الوقوف في وجه التوسع والامتداد الإسلامي[1].

وما يبرهن أن دوافع الحركة الاستعمارية في ذلك الوقت كانت ذات دافع ديني، هي مباركة البابا لكل الحركات البريّة والبحرية، وبعد أن فتحت أبواب المشرق لمسيحيي أوروبا، ظهرت عدة جمعيات وإرساليات وخاصة من الدومينيكان والفرنسيسكان، تعمل من أجل تحقيق مخططات التنصير في العالم الإسلامي وغير الإسلامي[2]، وخلال الحرب الصليبية انتقل القديس فرانسوا إلى السودان، وأعلن للحاكم أو السلطان أنه مبعوث من الله لتنصيرهم بالرسالة النصرانية وإظهار لهم طريق النجاة، أعجب الأمير بهذا القديس، وكافأه وبعث معه جنود لمرافقته للرجوع، وطلب منه أن يدعو ربه من أجله حتى يتبين له الديانة الصحيحة ويعطيني الشجاعة لاعتناقها، ومن ثم أصبح قابل للمسيحية وهناك من المؤرخين من يذكرون أنه تلقى التعميد قبل موته[3].

كما حصل الدومنيكان على نجاح كبير في أوساط الأطفال المسلمين، في إسبانيا وإفريقيا، وأعطى البابا قريقوار التاسع نفس جديد للحركة التنصيرية، والتي تبينت من خلال أعمال رجال الدين لهذين الجماعتين، واللتان أصبحتا مهمتان، وعملا منصريها على نشر المسيحية والموت في سبيل ذلك، ورغم أن الهدف لكل منهما كان واحد، إلاّ أنهم كان بينهما تنافس شديد في مجال التنصير وذلك بسبب بسيط هو الاستيلاء على الأراضي، أي أن كلما قامت إحداهما بتنصير منطقة تصبح تسيطر عليها، فظهر تصادم بين المصالح، وهذا الصراع الداخلي للكنيسة عرقل ولمدة طويلة تطور الحركة التنصيرية في العالم، رغم أن هذين الجماعتين تمكنتا من إيصال المسيحية للكونغو منذ 1484م[4]، حيث اكتشف الكونغو من طرف البرتغالي دييقو كازو (Diego Casu)[5] وكان شعب الكونغو وثني

---

(1) محمد هاشم عوض: **مراحل وأساليب انتشار الإسلام والمسيحية في إفريقيا**، مرجع سابق، ص ص46-48.

(2) كنعان جورجي: **أمجاد إسرائيل...**، مرجع سابق، ص200.

(3) « …Priez votre Dieu pour moi, afin qu'il ne fasse connaitre la vrais religion et me donne le courage de l'embrasser… », J. J. Roy: **Histoire Abrégée des missions catholique dans les divers partie du monde, depuis la fin du XVème siècle, jusqu'à nos jours**, 6ème éd., tours Alfred Mame et fils, Paris, 1990, pp16-17.

(4) محمود شاكر: **الكشوفات الجغرافية دوافعها وحقائقها**، ط1، المكتب الإسلامي للنشر، بيروت، 1393هـ، ص ص77-78.

(5) Jean Baptiste Glaire: **Encyclopédie catholique répertoire universel et raisonné des sciences, des lettres des Arts et des Métiers**, Tome 14, parent Desbarres éditeur, Paris, p 563.

الاعتقاد، فأرسل دييڤو بعض البرتغاليين بالهدايا إلى ملك الكونغو، ثم اصطحب معه بعض الكونغوليين، وعلمهم اللغة والديانة، وعند عودته إلى الكونغو وجد أصحابه الذين تركهم وأغلبهم من رجال الدين والرهبان كانوا قد قاموا بعملية التنصير على أحسن وجه وتمكنوا من التقرب من الملك وتحبيب المسيحية له، حتى أن الملك طلب من دييڤو أخذ معه إلى البرتغال مجموعة من خيرة الرجال الذين أختارهم، من أجل تعليمهم وتعميدهم، وإرجاعهم إلى الكونغو، ليتبنوا هم مهمة التنصير في الكونغو أي بين الأوساط الكونغولية[1]، وطبعًا فإن الفرد الكونغولي سيرتاح أكثر عندما يتكلم عن العقيدة مع كونغولي مثله، ونلاحظ أن هذه الطريقة في أخذ من المجتمع أشخاص لغرز فيهم أفكار بكل أنواعها أي دينيه كانت أو اجتماعية أو سياسية أو حتى حضارية، هي طريقة تبناها الفكر الاستعماري من أجل تحقيق الفجوة داخل المجتمع الواحد، ما يساعد على تحقيق وتطبيق المخططات الاستعمارية.

وهو ما قام به نابليون بونابرت بعد هزيمته في مصر خلال حملته عليها، ومن خلال اتفاقيات البعثات التعليمية للمصريين إلى أوروبا من أجل التحضير والتعلم وخاصة والأهم جلب تلك الحضارة وترسيخها في أوساط المجتمع الإسلامي[2]، وفي الكونغو راهن الملك والملكة على زعيمهم زاكوندا (Zaconda) والذي منح اسم جون (Jean) بعد التعميد، ومن ثم بدأت حملة التنصير في الكونغو، ففي 1491م انطلق ثلاث رهبان دومينيكان واستقبلوا من طرف الملك نفسه وتم بناء كنيسة لهم، والتي تم تعميد فيها العديد من أهم رجال الدولة، ومن بينهم الملك والذي منح اسم جون عرفانا منه لملك البرتغال، وسميت زوجته إليونور (Eleonore)، ومنحوا اسم ألفونسو (Alphonso) لابنهم، كما أرسل ملك البرتغال إيمانويل أستاذ لتعليم الأطفال مدعيًا رغبته في تحضير المنطقة وتنصيرها، ولما اعتلى ألفونسو الحكم جعل للمنصرين مكانة هامة، وكانوا يستقبلون كالملائكة كما أصبح الكونغوليين يتوافدون يوميًا نحو الكنيسة للتعميد، وأرسل العديد من الشباب إلى البرتغال للتعلم وجلب الحضارة، ومن بين هؤلاء كان ابن الملك والذين ساهموا في رفع عدد المتنصرين عند عودتهم من البعثة، كما قام الملك بتغيير اسم عاصمة الكونغو، والتي كانت تسمى الكونغو إلى سان سلفادور (San-Salvador)[3].

---

(1) J. J. Roy: **Histoire Abrégée des missions catholique…**, op.cit, pp19-21.

(2) زينب عبد العزيز: **حملة المنافقين الفرنسيس**، دار النهار، مصر، 1998، ص ص25-30.

(3) سدني لانجو فورد هايند، **سقوط غرب الكونغو**، ترجمة أحمد العبدلي، ط1، هيئة أبو ظبي الثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، 2010، ص ص13-18.

ولم تتوقف الإرساليات حيث في سنة 1521م التحق بالمنطقة العديد من المنصرين من جماعات مختلفة، دومينيكان، فرنسيسكان، كونفتيين وعلمانيين، وتقاسموا الإمارات فيما بينهم من أجل القيام بعملية التنصير، حيث تمكنوا من الحصول على نجاح كبير، وتنصير الملايين من سكان المنطقة، وكان لدون بيدرو (Don Pedro)، ابن الملك وولي العهد، نفس الاهتمام للمسيحية والمنصرين، في بداية حكمه منح البابا لأسقف جزيرة الكونغو سان تومي (San-Thome) السلطة الإدارية لكل مملكة الكونغو، ما ساعده على الحصول على لقب أسقف الكونغو بأكملها، والذي لما زار الأبرشية الجديدة، استقبل استقبالاً حارًا، وخرج لاستقباله الملك وكل حاشيته لإيصاله إلى كنيسته الجديدة الصليب المقدس (Sainte-Croix) والتي تحولت إلى كاتيدرالية، ثم قام بتقسيم المنطقة إلى أبروشيات ووضع على رأسها رجل دين وحدد له منطقة عمله، وكان له عدة مشاريع من هذا النوع، أي من أجل نشر المسيحية، ولكنه لم يتمكن من تحقيقها بسبب موته[1].

وقد توفي الملك، دون أن يكون له ولي عهد في سنة 1530م انتقل الحكم إلى أخيه وكل الذين حكموا الكونغو من بعده ابتداءً من أخيه دون دياقو (Don-Dièguo) كانوا من منصارين للمسيحية، بل كانت المشاريع توضع على حسب أهواء الكنيسة وملوك البرتغال، إلى غاية سنة 1540م، فاختلطت الأمور وذلك بسبب كثرة عدد البرتغاليين في المنطقة، فحاولوا تنصيب ملك موالي لهم، ولا علاقة له بالأسرة الحاكمة، الشيء الذي جعل المملكة كلها تتحرك ضدهم، وحملوا السلاح وقضوا على التواجد البرتغالي في المنطقة ولكن لم يتعدوا على رجال الدين، واختير أمير من الأسرة الحاكمة هنري والذي كان له حكمة كبيرة في تسيير المنطقة[2]، حتى هجمت عليه قبائل من آكلات لحوم البشر الجيقاس (Giagas)، فقتل وخلفه العديد من سلالته من بينهم ألفار الأول (Alvar I) ولكن كثرة الآفات، المجاعة والأمراض، كالطاعون جعل العيش في المنطقة صعب، فأرسل إلى مدريد للحصول على إرساليات جديدة من أجل إصلاح الوضع الديني هناك، فمنحه فليب II ملك اسبانيا والبرتغال أسقف خاص بالكونغو فوصل هذا الأسقف مع العديد من رجال الدين وانتشروا في المنطقة، وتمكنوا من القيام بعملهم التنصيري[3].

---

(1) سدني لانجو فورد هايند، **سقوط غرب الكونغو**، المرجع السابق، ص ص25-30.

(2) نفسه، ص ص42-44.

(3) محمود شاكر: **الكشوفات...**، مرجع سابق، ص91.

حكم ألفار الأول لمدة 28 سنة وخلفه العديد من الحكام الذين ساروا على نفس منوال حكمه، من بينهم ألفار III و IV واللذان بمجرد وصولهما الحكم أرسلا سفراء كدليل على الطاعة وطلبوا إرساليات جديدة، وبعد ألفار IV جاء سلسلة من الحكام المستبدون كان آخرهم ألفار الثامن والذي انتزع من الحكم في سنة 1670م.

ومن ثم لن تصل أخبار الكونغو للعالم حول وضع الكنيسة والمسيحية إلى غاية سنة 1773م، أين استطاع منصرون من فرنسا الوصول إلى المنطقة: «... العقيدة المسيحية مازالت موجودة، ولكن تفتقد المنطقة إلى رجال دين... رغم ذلك استطاع الكونغوليين التمسك بالمسيحية وتعليمها لأبنائهم، ورفضوا عبادة الوثنية، حيث في غياب رجال الدين اتخذوا هم مهمة القيام بهذا العمل»[1].

وبالتالي ومن خلال ما سبق، نلاحظ كيف أثرت الحركة التنصيرية على المناطق في إفريقيا، ولم يتوقف عمل النصرانيين على المناطق الوثنية فقط، بل كان همهم هو محاصرة الإسلام وتوسعه ونشاطه وسيطرته على المنطقة، فكانت الحركات الأولى مع المستكشفين الأوائل من أجل الوصول إلى الاتصال بملك الحبشة النصراني، ومحاصرة التوسع الإسلامي والسيطرة على التجارة التي كانت محتكرة من طرف المسلمين ورغم أن الحركة التنصيرية انطلقت مع الحركة الكشفية إلا أنها كانت واسعة النطاق، ولم يتوقف عملهم منذ أن دخلوا إفريقيا، بل تواصل ولم يكن مؤطراً وشامل، بل كان عبارة إما عن مبادرات شخصية أو جماعية، وكانت كل جماعة تعمل من أجل الظهور والحصول على الاعتراف من طرف الكنيسة في روما، فظهر نوع من التنافس بين الجماعات التنصيرية، ما عطل هذه الحركة.

ولم يتم إصلاح هذا الوضع حتى أواخر القرن 18م وبداية 19م، وذلك عند ظهور نوع من التأطير داخل الكنيسة. والتي وضعت هيئة تهتم بالبعثات والتنصير في العالم، من أجل تأطيرها وتمويلها، وحاجة أوروبا للمادة الخام واليد العاملة الرخيصة جعلت إفريقيا مستودع أوروبا، وبحركة الأفكار الذي عرفها العالم الغربي خلال عصر التنوير وقناعته أن للمعتقد أهمية كبيرة للسيطرة على الفرد وبالتالي على المجتمع، أصبح توظيف الديانة والإرساليات التنصيرية، أي المعتقد عند الشعوب يعني بتعبير أوضح تنصير الشعوب وإدخالهم تحت جناح الكنيسة، وسيلة للهيمنة، وضرورة من أجل ضمان الحفاظ على

(1) سدني لانجو فورد هايند، **سقوط غرب الكونغو**، مرجع سابق، ص ص47-49.

مكانتهم – أي القوى الاستعمارية – بين القوى الاقتصادية العالمية في مرحلة أين أصبح المال والاقتصاد مسير للعالم، وأمام رغبة القوى الأوروبية في تأسيس إمبراطوريات عالمية، وأصبح الجانب المادي يسيطر أو يضفي على جوانب أخرى، أصبح التنصير لدى هذه القوى حتمية لتحقيق آمالها الاقتصادية، وبذلك ظهر السباق نحو التوسع الاستعماري الأوروبي في إفريقيا، خاصة وأنه ولفترة من الزمن كانت العلاقة بين الدول الأوروبية وقارة إفريقيا تتمثل في التبادل التجاري لاسيما تجارة العبيد، والتي كانت تقوم على السواحل، فبذلك ما عدا بعض اكتشافات البرتغاليين والذين توصلوا إلى الموزنبيق والأنغولا خلال القرن 16م، لم يكن توغل آخر داخل القارة[1].

ونظراً لما توصل إليه المستكشفين وبرفقتهم المنصرين من معلومات حول المناطق الإفريقية الداخلية، وما حققه من سيطرة، ورغم أن اهتمام الكنيسة للمعرفة الجغرافية قديم لكن زاد اهتمامها في فترة الكشوفات الجغرافية واعتبروا أن الاهتمام بالجغرافية وعلومها يندرج طبيعيًا في حملة الكنيسة لتنصير العالم، والتي تحمل على عاتقها مهمة نشر الإنجيل للأمم الأخرى، وبالتالي يصبح معرفة أو اكتشاف العالم خطوة أساسية من أجل تحقيق هذه المهمة التنصيرية ظاهريًا، والتي لها هدف أعمق وهو السيطرة على العالم[2]، رغم أن رجال الدين المنصرين قد وصلوا وتوغّلوا في بعض مناطق القارة، خاصة بعض الإرساليات المعروفة التي شهدتها الفترة ما بين 1790 – 1820م من مناطق مختلفة من أوروبا لاسيما فرنسا وبريطانيا، كإرسالية لندن التنصيرية (London Missionary Socity) في سنة 1795م، وجمعية أو الإرسالية التنصيرية لباريس في سنة 1822م وكل هؤلاء أرسلوا منصرين إلى إفريقيا جنوب الصحراء، ففي سنة 1830م كان هناك منصرين في ليزوتو (Lesotho)[3].

كما تأسست عدة جمعيات جغرافية ابتداءً من جمعية لندن في عام 1788م، وقررت الإرسالية الجغرافية والتي هي ذات منبت كنسي، وتابعة لهيئة كنسية تحمل أو مكلفة بمهمة نشر المسيحية في العالم، إرسال بعثات لاكتشاف إفريقية وبالأخص في البداية، وكان لها دور مهم في اكتشاف الأنهار وأسرار القارة الداخلية وإعطاء تقارير ذات قيمة

---

(1) أحمد الدايم محمد حسين: **الاقتصاد الإفريقي في كتبات الرحالة الأوروبيين في القرن 19**، مجلة قراءات إفريقية، العدد 21، جويلية – سبتمبر، القاهرة، 2014م، ص ص10، 11، 12.

(2) Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, p51.

(3) Jean-Claude Geillier: **Histoire des Missionnaires…**, op.cit, pp17-20.

علمية كبيرة حول الثروة المعدنية والزراعية، فكان لهم دور كبير في اكتشاف منابع نهر النيل والنيجر، وخلال رحلاتهم لجنوب إفريقيا اكتشفوا وتتبعوا مسار نهر الزمبيري ما بين (1853 – 1856م) وكذا مجرى نهر الكونغو العلوي في عام 1871م[1].

وكل هذه المعلومات التي كانت تصل الكنيسة شجعت على تأسيس العديد من الجمعيات الجغرافية الاستكشافية، كجمعية باريس سنة 1821م، جمعية برلين سنة 1828م، الجمعية الملكية بلندن سنة 1830م، حتى وصل عدد الجمعيات ما يقارب المئة جمعية وعادل عدد أعضائها حوالي 50 ألف عضو، وهذا ما سمي بالتدافع نحو إفريقيا، أي أن هذه المنطقة أصبحت تمثل منطقة مهمة، ومن هذه المرحلة أصبح هناك أهداف مسطرة ومدروسة لهذه الكشوفات وهي بسط النفوذ والسيطرة على الموارد وخيرات المنطقة[2]، حيث شهد التاريخ العديد من التقارير للمستكشفين والمنصرين لمنطقة إفريقيا، لصانعي القرار في بلدانهم، فوصف خيرات وثراء المنطقة، ودعوة صريحة من طرفهم للسيطرة على المنطقة، فمثلاً عند وصول الاسكتلندي جيمس بروس للحبشة سنة 1769م، قام بنشر أخبار رحلته في ستة مجلدات مليئة بالخرائط وأعطى من خلالها وصفًا مفصلاً وكاملاً لبحيرة تانا وجزرها، والألماني جون كرايف سنة 1843م والبريطاني بروتون وسبيك سنة 1856م و 1859م ثم سبيك وجرانت (1861م – 1863م)، وأعطوا بدورهم معلومات مفصلة عن بحيرات وثروات المنطقة[3].

أما ديفيد لفينستون (David Livingstone) والذي يرتبط اسمه باكتشاف نهر الزمبيزي والذي كشف عن تفاصيل خيراته من خلال رحلته الأولى والثانية، وكان له دور مهم في فتح أبواب المنطقة أمام البعثات التنصيرية، فرغم أنه اشتهر كمكتشف للقارة الإفريقية، إلا أنه لا يختلف عن ما سبقوه من المكتشفون الأوائل حيث كان له تعصب ديني، فهو من اسكتلندا انضم إلى جمعية لندن التنصيرية في 1838م، وقام بنشاط تنصيري، فقد أسس أهم مركز للتنصير في كورمان في جنوب إفريقيا، وباكتشاف المنطقة استطاع المنصرين التمركز في عدة مناطق أخرى وأصبح هناك عدة مراكز للتنصير، هذا الرجل كان له نفس الاندفاع الذي اتصف به الرهبان والمنصرين خلال الفترة الحديثة، وقد حصل على

---

(1) Arnoux Alexandre Père: **Les pères blancs au sources du Nil (Rounda)**, librairie Missionnaire, Paris, 1950, pp36-38.

(2) Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, pp53-54.

(3) Armoux Alexandre, op.cit, pp 42-45.

ميدالية شرفية من الجمعية الجغرافية، ورغم كل أعماله التنصيرية إلاّ أنه لم يحصل على مكافأة من طرف الجمعيات أو الإرساليات التنصيرية أو من الكنيسة عرفانًا بأعماله الجبارة في مجال التنصير[1].

وبفضل كل هذه الاكتشافات وظهور نوع جديد من رجال دين منصرين متحمسين وإعانات مادية جديدة، ظهرت في أوروبا الغربية مؤسسات وجمعيات وجماعات دينية ما بين 1840م و 1860م بقيادة بعض الشخصيات، فمثلاً آن ماري جافوري (Anne-Marie Javouhey)[2]، كانت من الأوائل حيث أسست في 1807م جماعة أخوات القديس جوزيف دو كلوني (Les sœurs de Saint Josef de Cluny)، وقد التحقت هؤلاء المنصرات أو الراهبات بجزيرة ريينون (L'ile de la Reunion) إلى السنغال وغينيا، كذلك المنصر يعقوب ليبيرمان (Jacob Libermann) يؤسس أباء القلب المقدس لمريم (Saint cœur de Marie) في 1842م، والتحقوا بجمعية غينيا سنة بعد تأسيس هذه الجمعية، كما أسس في 1856م مارليون بريسيلاش (Mgr de Marion Bresillach) إرسالية ليون نحو إفريقيا والتي كلفتها روما بمهمة تنصير سيراليون (Sierra léone) والداهومي (Dahomey) وأخيرًا في 1868م تأسست جمعية إرسالية إفريقية، عن طريق لافجري أسقف الجزائر[3].

كل هذه الإرساليات طورت طريقة جديدة للتنصير وتطبيقها على الشعوب تحت رعاية روما من أجل الحصول على مهمة التنصير، وهذا التصرف يتيح الفرصة لجمعية البروباقوندا (Propaganda) من أجل تسيير وتنسيق الحركة التنصيرية، وتأخذ بعض المؤسسات مهمة جمع الأموال، كمؤسسة العمل من أجل انتشار الإيمان (Œuvre de la propagation de la foi) والتي تأسست في ليون عام 1822م[4]، وكذلك الطفولة المقدسة (La Sainte-enfance) في 1843م واللتان كان لهما الفضل في توفير حصة كبيرة لتمويل الإرساليات التنصيرية.

---

(1) إبراهيم محمد أحمد بلولة: **البعد الديني للكشوف الجغرافية**، مرجع سابق، ص ص216-218.

(2) Anne Marie Javouhay، للمزيد أنظر:

Comby Jean: **Deux mille ans d'évangélisation**, Desclée, Bibliothèque d'histoire du christianisme, Paris, 1992, pp67-71.

(3) Jean-Claude Geillier: **Histoire des Missionnaires…**, op.cit, pp31-37.

(4) نفسه، ص42.

لماذا إفريقيا تعتبر أحسن مثال لدراسة التنصير والحركة التنصيرية خاصة خلال القرن 19م، ربما لأنها تعتبر القارة الوحيدة والتي رغم صعوبة الطبيعة فيها، إلاّ أن الإنسان استطاع بذكائه ترويضها لخدمة متطلباته.

كذلك حفر قناة السويس وتدشينها في 1869م، فتحت المجال أمام تحقيق حلم الغرب في اكتشاف المنطقة، وبدأ الكثير ينشرون فكرة إنشاء سكة حديدية تعبر الصحراء، وعن قناة في الصحراء لخدمة هذه الأرض التي اعتبرت خصبة، ومن ثم وضعت إفريقيا تحت المجهر واهتم بها العلماء من جغرافيين، وعلماء البيولوجيا وغيرهم وخصصت لها بحوث مطولة ومهمة(1)، واهتموا بالخرائط التي كان يرسلها المنصرون المستكشفون للمنطقة، فدرست هذه الخرائط ونشرت للعالم حتى يرى مجهودات الكنيسة من أجل توسيع العالم المسيحي(2)، وهذه الأعمال الجغرافية صنفت القارة الإفريقية كأول منطقة على القوى الاستعمارية الاهتمام بها والسيطرة عليها، خاصة فرنسا التي أصبح لها توجه استعماري خاص لإفريقيا، وكان للحركة التنصيرية في قارة إفريقيا علاقة وطيدة مع الحركة التنصيرية للقرن التاسع عشر أي مع البعثة الجديدة، لأن المنصرين الأوائل في إفريقيا الذين رافقوا المستكشفين كانوا يتعاملون مع الفرد ولم يكن لهم برنامج عام للعمل، وعادة ما كانوا لا يصلون إلى نتائج نظرًا لانطلاقهم بفكرة أنهم يتعاملون مع فرد بدائي ليس له القدرة على تقبل الرسالة المسيحية(3).

وتحولت هذه الفكرة مع الجيل الجديد أن تنصير هذا المجتمع الإفريقي، حتى وإن كان بدائي هو ظاهر، ولكن الأهم هو نقل أفكار وطريقة عيش تجعل الطريق معبدة للمستعمر من أجل السيطرة، أي أن نصرانية هذه الشعوب لا تهم الكنيسة وليس شغلها الشاغل، وإنما الاستيلاء على خيرات المنطقة هو الهدف الأسمى(4)، ومحاصرة وتطويق انتشار الإسلام الذي اعتبرته الكنيسة منذ ظهوره الخطر الوحيد الذي يمكنه أن يقف في وجه المسيحية وتوسعها.

---

(1) محمود شاكر: **الكشوفات...**، مرجع سابق، ص ص74-78.

(2) عبد العزيز كحلوت: **التنصير والاستعمار في إفريقيا السوداء**، ط2، طرابلس الغرب، كلية الدعوة الإسلامية، 1962، ص27.

(3) Jean-Michel Vasquez: **La cartographie…**, op.cit, pp53-55.

(4) Jean-Claude Geillier: **Histoire des Missionnaires…**, op.cit, pp25-28.

شجعت الكنيسة الحركات والبعثات التنصيرية إلى إفريقيا واعتبرت التنصير هناك بالنسبة لرجال الدين عبارة عن تكفير عن الذنوب نظرًا للطبيعة الصعبة والمناخ الوعر والأمراض والأوبئة الجديدة التي لم يكن يعرفها الأوروبيين حيث شهدت البعثات التنصيرية عدة وفيات عند المنصرين الأوائل، وتواصلت الحملات التنصيرية إلى غاية 1930م[1].

وسبقت حركة التنصير في إفريقيا جنوب الصحراء الحركة الاستعمارية، حيث رافق المنصرين المستكشفون والتجار قبل أن يرافقوا الجيوش والإدارة، رغم أن في حقيقة الأمر جيوش التنصير مهَّدوا الطريق لجيوش الدولة[2].

فالمنصر يمهّد الطريق لجيوش الدولة، ويخدم مصلحة الدولة التي انطلق منها، هم يتبعون المستكشفون ويسبقون المستعمرون[3]، ولكن من المفروض أن رجل الدين لا يخدم مصلحة أي بلد لأنه رجل روح يهتم بعلاقة الفرد بربه، أي علاقته التي تخرج عن حدود هذا الكون وبالتالي فإن عليه أن يعمل من أجل تنصير الفرد وإيصاله الرسالة الصحيحة من أجل الخلاص النهائي وذلك إذا أخذنا تعاليم رسالتهم، أي ما يحث عليه الإنجيل، فلماذا نلاحظ أن المنصر لا يهتم حقاً لتنصير الشعوب مقارنة باهتمامه بالأموال والخيرات التي يمكن أن تحصل عليها دولته، حيث نلاحظ في حملتهم العنصرية، بمجرد تنصير شخص أو تعميده لا تهتم الكنيسة بتعليمه أساسيات دينها وإنما تجرد اسمه في سجل على أنه مسيحي[4].

ولم تكتفِ هذه الإرساليات من تعبيد الطريق بل كانت وريثة المستعمرين عندما استلزم الأمر على المستعمر أن يترك المناطق المستعمرة[5]، وأحسن مثال لعمل الحركات التنصيرية نشاطها في العالم الإسلامي وإفريقيا خاصة، واعتمادًا على تصريحات ساستهم، وبعض مثقفيهم يؤكدون أن المنصرين هم من عبّدوا الطرق للمستعمرين من أجل السيطرة على هذه المناطق. حيث اتجه المستعمر إلى استبعاد الجسد الإفريقي، أما المنصرون فاستهدفوا روحه ويعني أن التنصير كان عبارة عن المنوم الذي ساعد على تسهيل إلقاء حبل الاستعمار على عنق الإفريقي[6].

---

(1) Jean-Claude Geillier: **Histoire des Missionnaires…**, op.cit, pp3.

(2) M.S Delacroix: **Histoire universelle…**, T3, Paris, 1958, op.cit, p18.

(3) Joseph-Ki-Zerbo: **Histoire de l'Afrique noire de 1800 à nos jours**, éd., PUF, Paris, 1989, pp66-68.

(4) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص88-90.

(5) Joseph-Ki-Zerbo, op.cit, pp70-71.

(6) محمود عبد الرحمان: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص131.

حيث جاء الرجل الأبيض إلى إفريقيا وبيده الإنجيل، وكان الإفريقي يمتلك الأرض، ثم دارت الأيام فأصبح هو يمتلك الأرض والإفريقي يمتلك الإنجيل[1]، بينما يرى المنصرين غير ذلك، أن التنصير في إفريقيا جاء مع الاستعمار وتغلغلا معًا في هذه القارة، للتنمية الاقتصادية واستتباب الأمن من أجل فائدة السكان الأصليين والبعثات التنصيرية، فساهم الاستعمار في نشر توسعه ورقعة استعماره[2].

حقًا أنهم تقدما معاً وفي وقت واحد، ولكن وصول المنصرين كان قبل الاستعمار، وذهبوا إلى أبعد منهم وهذا ما نراه في الكاميرون مع الإنجليزي ساكير وفولير 1845م، حوالي أربعون سنة قبل الاستعمار، والأب دورجير في داهومي في عام 1864م، أو الآباء الروحيين في الكونغو في 1874م، والطبيب ديفيد ليفينستون 1813 – 1873م، وهذا نعني به التمهيد للاستعمار، أعطت البعثات التنصيرية التعليمية المبكرة الأولوية الفائقة للصبغة الدينية والأخلاقية للتدريس، وهذا ما قد تلاشى في أوروبا، والظاهر أن الكنيسة المسيحية اهتمت بالتعليم، ولذلك وجب عليهم منحها اهتمامًا خاصًا، وكانت البعثات التنصيرية المسيحية جزء لا يتجزأ من القوي الاستعمارية ولها نفس المرتبة مع المكتشفين والجنود والتجار، وتحولت إلى أدوات الاستعمار، حيث كان بعض السياسيين والجنرالات يكرهون رجال الدين والبعثات التنصيرية، إلاّ أنهم من أجل تحقيق مخططاتهم الاستعمارية، يتعاملون معهم ويتعاطفون معهم، يمدونهم بالمساعدة لأنهم يعتبرون أن كل موقع لبعثة تنصيرية هو تدريب على الاستعمار[3].

وبذلك نلاحظ أن طيلة فترة الاستعمار بكل أنواعها تعاون الاستعمار والسياسيون مع المنصرين ورجال الدين وتعاونوا مع بعض، إلى غاية استقلال هذه المناطق وحتى بعد الاستقلال قامت بعض الدول المستعمرة في إفريقيا بتحديد الاستقلال وذهبت حتى إلى رسم علم وطني واختيار أو وضع النشيد الوطني[4]، وتؤكد من خلال ذلك العبادة الشخصية والتامة لرئيس الجمهورية الذي تختاره الدولة المستعمرة، فيكون مسيحيًا لا محال فما لم يحققه التنصير يقوم به الاستعمار ومخططات ما بعد الاستعمار وما لم يتمكن

---

(1) علي محمد طاهر حمزة شلش: **الأدب الإفريقي**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، 1993، ص88.

(2) Mgr A. Boucher: **Au Congo Français les missions catholique**, T3, librairie Pierre TEQUI, Paris, 1928, p209.

(3) ولثير رودني: **أوروبا والتخلف في إفريقيا**، تر: أحمد قيصر، عالم المعرفة، الكويت، 1988، ص369.

(4) محمود عبد الرحمان: **التنصير والاستغلال السياسي**، مرجع سابق، ص31.

من الوصول إلى تحقيقه الاستعمار يتولاه التنصير، طبعًا بإخفاء دائمًا العلاقة بينهما والاختفاء وراء المهمات الإنسانية[1].

ومن خلال وثيقة وزعت من طرف رئيس وزراء البلجيكي على البعثات التنصيرية في الكونغو، يظهر جليًا مهمة المنصرين وما ينتظره السياسيون والعسكريون منهم، «آباؤنا المبجلون، مواطنونا الأعزاء، مرحبًا بكم في وطنكم الثاني الكونغو البلجيكية، إن المهمة التي كُلِّفتم بأدائها حساسة جدّاً، وتتطلب الكثير من الحذر والحيطة، أيها الآباء، إنكم جئتم للتنصير، ولكن هذا يجب أن يكون ممثلاً لروح أهدافنا الكبرى، وقبل كل شيء منفعة لبلدنا الأم، وليس من أهدافنا الأساسية جعل الأسود يتعرف على الرب، هذا الإنسان الذي لا يعرف سوى القتل والثرثرة والأكل، ومواقعة زوجه غيره، وكلام فارغ، فمهمتكم ليست تعليمهم بل مهمتكم أساسًا تكمن في تسهيل مهمة الإداريين والسياسيين والجنود، أي عليكم تفسير الإنجيل بما يخدم مصالحنا في هذا العالم وحتى يتم ذلك وجب عليكم باتباع بعض التعليمات[2]:

1- جردوا هؤلاء المتوحشين من الاستفادة من عنادهم الطبيعي وأخذوا أراضيهم، وانهبوا ثرواتهم الباطنية، وامنعوهم من الاهتمام والتفكير بثروتهم ومزاحمتنا، أو حتى الحلم يوماً بمناقشتنا، ومعرفتكم للإنجيل تجعلكم تجدون بسهولة النصوص التي تنصح وتحث على حب الفقر، كما جاء في إنجيل متى الفقر الخامسة الآية اثنى عشر، ولوقا الفقرة السادسة الآيات 20 و 23: «طوبى للفقراء، الآن ملكوت السماوات يكون بهم»، «لا يدخل ملكوت السماوات الغنى حتى يدخل الجمل في سم الخياط».
2- أن تؤمنوا للإداريين والسياسيين ثروة هؤلاء دون اللجوء إلى الانتقام، ولا تعطوا للسود الراحة حتى لا يهتم بالانتقام وانصحوهم ليتحملوا كل شيء وأن يتبعوا القديسين الذين تحملوا العذاب من دون أن يشكوا أو أن يعتدوا كما جاء في إنجيل متى.
3- يجب الاستهزاء بكل ما يعطيهم الشجاعة على محاربتنا أو مواجهتنا وأن تجعلوا الحرية وهمية، وركزوا على صغار السن.
4- ركزوا من خلال حملاتكم على الخضوع والطاعة العمياء، فتجنبوا في مدارسكم، تشجيع روح النقد، وعلموهم الإيمان والاعتقاد بالشيء لا على المنطق وأبدوا نظاما نفسيًا وروحيًا يمكنكم من إقناع كل أسود له روح الاستقلال بأنكم أحكم منه.

---

(1) محمود عبد الرحمان: **التنصير والاستغلال السياسي**، المرجع السابق، ص31.

(2) نص الوثيقة موجود في جريدة الشرق الأوسط، العدد 2099 بتاريخ 10 أوت 1995م، انظر: بيان حسن صالح: **تبديد الأوهام: الأهداف الحقيقية للتداعي على إفريقيا**، مجلة القراءات، العدد 9، جويلية 2011، ص ص13-14.

5- علّموهم أشياء أنتم أنفسكم لا تستطيعون القيام بها، وإذا قالوا لكم لماذا تفعلون عكس ما تقولون، قولوا لهم أنتم السود اتبعوا ما نقوله لكم، فما أسعد أولئك الذين يقتنعون ولا يضجرون أو يحتجون.

6- إن أصنامهم يغشاها الشيطان إن لم يذهبوا إلى متاحفنا، وإلى الفاتيكان.

7- لا تقدموا للأسود كوبا عندما يأتي عندكم ولا سجارة، ولا تدعوه إلى طعام العشاء.

8- اعتبروا كل السود مثل الأطفال وأكدوا لهم على أن ينادوكم بـ: الأب (Mon Père).

9- اصرخوا عليهم عندما يحتجون على تعذيبكم لهم، وعندما يطلبون منكم أن تتوقفوا عن استغلالهم وغشهم.

هذه بعض الأمور العلمية والتطبيقية التي يجب التحلي بها دون إهمال، وهناك الكثير الذي سيوزع عليكم في نهاية هذه الجلسة، ويعطي الملك أهمية كبيرة لبعثتكم التنصيرية، قرر أن يسهل لكم أموركم، ولذلك تمتعوا بحمايته وحماية الإداريين، وبالمساعدات المالية من أجل التنصير، ولتنقلاتكم، وتمنحون أراضي للبناء وتحصلون على أيدي عاملة مجاناً من التلاميذ.

وهكذا آبائي المبجلين، أبلغتكم ما طلب مني أن أعلمكم به في هذا اليوم، يدًّا بيد لعظمة وطننا، عاشت السيادة، وعاشت بلجيكا»، موقعة من طرف وزير المستعمرات البلجيكية[1].

إذا تمعنا في هذا الخطاب وحاولنا تحليله، نجد أن هذا الخطاب ظاهرًا قسم إلى أربعة أفكار رئيسية تهدف كلها للوصول إلى حث المنصر للعمل من أجل تطبيق المخططات الاستعمارية، فنلاحظ من خلال الفكرة الأولى والتي قام فيها بتبجيل المنصرين ومنحهم الأمان وكسب ثقتهم، وذلك لأن المنصرين كانوا قد عاشوا في أوروبا مطاردة ورفض لهم من طرف حكوماتهم، ولهذا نلاحظ كلمات الترحيب والتبجيل ثم ينتقل إلى فكرة أخرى وهي التأكيد على أهمية المهمة وخطورتها، وبعد ذلك الفكرة الثالثة حول البرنامج الذي يجب الاعتماد عليه للوصول إلى الهدف، وأخيرًا الإغراءات المادية، فنلاحظ تسلسل في أفكاره للوصول إلى فكرة تطبيق الأهداف بكل الوسائل.

فنجده يبدأ خطابه بألفاظ من أجل الاستمالة باستعمال لفظ المبجلين والذي يعني لغويًا التعظيم أو الوقار وذلك من أجل منحهم مكانة ثم تحسيسهم بالأمان وذلك من خلال

---

(1) بيان حسن صالح: **تبديد...**، مرجع سابق، ص15.

الجملة "وطنكم الثاني" وكسب ثقتهم خاصة بعد كل الأحداث والأوضاع التي عاشها رجال الدين المنصرين والكنيسة في أوروبا بعد علمنة الدول الغربية، ثم مباشرة يذكرهم بالمهمة التي أوكلت إليهم ويؤكد على صعوبتها ونتائجها وظروف القيام بها، ثم يذكر المهمة بصحيح العبارة "التنصير" ولكن يقوم بتفسير رؤيته للتنصير وتحديد هذه المهام على حسبه، وهذا النشاط التنصيري يجب أن يتماشى مع الأهداف والمخططات والتي تكون بالمنفعة للدولة، فيبين كيف ترى الدولة نشاطه، وأنها لا يهمها تنصير الأسود أو الاهتمام بعلاقته بربه، قدر اهتمامها بضرورة التسهيل على الإداريين والسياسيين والجنود لتحقيق مبتغاهم، أي بتعبير آخر، ربما تعبيد الطريق للمستعمرين من أجل الاستيلاء والسيطرة، فيطلب منهم استعمال ما يخدم مصالحهم في الإنجيل وتفسيره حسب أهوائهم، المهم أن يخدم مخططاتهم. بعدها يقوم بإعطائهم مجموعة من التعليمات والتي هي في الحقيقة البرنامج المسطر لهؤلاء المنصرين، فنلاحظ استعماله للعديد من أفعال الأمر، فالتعليمات يقدمها مستعملاً لفظ "وجب" و"اتباع" ثم خلال كل هذه التعليمات يستعمل فعل الأمر مثلاً: جرّدوا، أخذوا، انهبوا، امنعوهم، ركزوا وغيرها، فيتبين أنه برنامج مسطر وجب على المنصرين اتباعه وتحقيق أهداف السياسيين والدولة أو الملك، ويبين لهم أن أول خطوة يجب القيام بها هي الاستيلاء على الأراضي أي الممتلكات وبما أن في نظر الغرب الإنسان الإفريقي عامةً والأسود خاصة هو لم يصل بعد إلى درجة أو مرتبة المواطن[1].

فلا يحق له اكتساب أراضي أو خيرات فيستعمل كلمة أو صفة "المتوحش" أي يعتبره في مستوى الحيوان، وبذلك فبإمكانه السيطرة على ممتلكاته لأن الحيوان ليس له حق في الامتلاك بل له سيد يقوم بإطعامه مقابل أعمال يقوم بها الحيوان، وبذلك يجب نشر وترويج هذه الأفكار بطريقة غير مباشرة من أجل تسهيل عملية الاستيلاء على الأراضي والأملاك والخيرات، وباستعمال عناده سيتمكنوا من شغل اهتمامه بأي شيء حتى لا يهتم بما يعمله المستعمر ولا حتى التفكير أو الحلم بمحاولة استرجاع أراضيه، وعلى المنصرين إيجاد من خلال نشاطهم التنصيري الطريقة للوصول إلى ذلك، حتى وإن تطلب ذلك الاستهزاء بكل ما يمكن إعطاؤهم الشجاعة لمحاولة محاربة أو التخلص من الاستعمار أو التواجد الغربي في المنطقة، يجب أن تكون برامجكم التعليمية تعمل من أجل تحقيق الطاعة والخضوع، حيث يقول ركزوا على الصغار أي التعليم، فيجب على المنصرين أن يمنعوا

(1) بيان حسن صالح: **تبديد...**، المرجع السابق، ص15.

انتشار في المدارس أي بين التلاميذ روح النقد أو الرفض أو حتى المناقشة، بل يجب أن تحققوا لديهم فكرة قبول وتقبل دون مناقشة كل ما تقولونه، لا تعلمونهم التفكير أو التساؤل أو المنطق، لأنها أفكار يعلم الغرب أنها تفتح المجال للنقاش والتساؤلات والتفكير، يصل بهم ربما إلى ثورة وطلب حقوقهم، ومحاولة تطبيقها فيما يعاكس أو لا يتماشى مع نوايا المستعمر في المنطقة، ولن يتمكن الغرب من الابتعاد عن هذا الخطر، أي تفطن السكان الأصليين إلا بإقناع السود أن الأبيض أحسن منه وأعقل منه، ويعمل من أجل تحقيق مصلحة الأسود[1].

وهو الأمر الذي نلاحظه في التعليمة السابعة يمنع المنصر التعامل مع الأسود بالطيبة والكرم، من خلال الجملة التي يذكر فيها أنه لا يجب أن يعرض على الأسود الجلوس أو الأكل إلى جانبه، وهنا المنصر يستعمل العامل النفسي حتى يسيطر على شخصيته، ويؤكد على تفوقه (أي الإنسان الأبيض)[2] دون الكلام، وهنا نعود إلى البرنامج الذي سطره ريموند لول للمنصرين والذي يعتبر من أوائل من وضع المناهج الأساسية التي يجب على المنصر اتباعها لتحقيق أهدافه.

وما يمكن استنتاجه هو ربما استخدام رجال السياسة الأوروبيين خطب تحمل في طياتها نظرة الكنيسة الأولى، وبرامج رجال الدين كمواثيق هامة لتطبيق سياستهم الاستعمارية، مما يثبت ولاءهم الدائم الكامل للكنيسة الكاثوليكية، رغم كل الأزمات وتطبيق الغرب للنظام الديمقراطي ذو التوجه العلماني.

ومن ثمة نلاحظ، أنه يؤكد على فكرة غرس في أذهان السكان الأصليين، أي السود مدى تفوق الرجل الأبيض وحكمته وكيف يعمل من أجل تحقيق مصلحة السود ولذلك على الأسود أن يثق ثقة عمياء في المنصر، وعلى المنصر أن يعامل دائما الأسود على أنه إنسان قاصر لا يعرف مصلحته، فنجده يركز على مصطلح الأب (Mon Père)، وكأن حملتهم جاءت من أجل نشر فكرة، النظرية الإنسانية والأبوية، ودور وأهمية الرجل الأبيض في تحضير أهل المنطقة وتعددت التسميات، مثل الآباء البيض، والأخوة الكبار ولكن في الحقيقة هذه لم تكن إلا أقنعة لترسيخ الأفكار الاستعمارية، وحقيقة السيطرة والتمهيد للاستعمار وشق الطريق له.

---

(1) Palicot Reynaud: **La république racial et idéologie républicaine 1860-1930**, éd., PUF, Paris 2006, pp82-84.

(2) Gilles Manceron: **Le tournant colonial de la république**, éd., la découverte, Paris 2006, p54.

وبذلك ومن خلال هذا الخطاب نلاحظ أن أهم ما يحرك الغرب نحو العالم وإفريقيا خاصة، هوا الحاجة إلى المادة الخام، واليد العاملة الرخيصة، لخدمة المصالح الاقتصادية، وأصبحت هذه المناطق من العالم وخاصة إفريقيا تمثل مستودع لتطوير وتسيير اقتصادها، ونظرًا لأهمية المعتقد عند الفرد والمجتمع، أصبح الغرب يوظفه من أجل السيطرة على خيرات العالم، وأصبح وسيلة للهيمنة، فتبنت الدول الأوروبية فكرة التنصير بل وأصبحت ضرورة من أجل الوصول إلى تحقيق الهيمنة العالمية، وتأسيس إمبراطورية اقتصادية عالمية، فسيطر الجانب المادي على كل الجوانب الأخرى، وتحول التنصير لدى هذه القوى حتمية لا بد منها لتحقيق آمالها الاقتصادية.

ويتبين لنا ذلك من خلال كل القوافل والإرساليات، التي كانت ترسل إلى إفريقيا، ففرنسا مثلاً بمجرد وصولها الجزائر وتمركزها فيه فتحت أنظارها نحو بقية إفريقيا، ففي شهر مارس وأفريل 1878م انطلق من الجزائر عشرة أشخاص من أجل تأسيس إرساليتين أو مركزين للتنصير في إفريقيا الاستوائية كانوا ينتمون إلى جمعية منصري إفريقيا[1]. التي أسسها لافجري، تحصلت هذه الجماعة من روما على مهمة التوغل، انطلاقا من زنجيبار فانقسموا، جزء منهم نحو المناطق الممتدة من بحيرة فيكتوريا التي عرفت بمنابع نهر النيل، والباقي على ضفاف نهر تانقنياك (Tanganyika) أين فقد ليفيستون حياته[2].

وقد كان هذا لأن سنة 1876م كانت منعطف هام في تاريخ الإرسالية التنصيرية الإفريقية، حيث فتح لافجري مناطق جديدة للتنصير الأولى في المشرق والثانية في إفريقيا الاستوائية، وانطلاق القافلة الأولى نحو هذه المناطق[3].

وحرر من أجل انطلاق هذه القوافل تعليمات لرجال الدين حتى يتبعونها لكي يتم نشاطهم على أحسن وجه، ولكن رغم معرفته تقريبًا أو نظريًا للمناطق التي يريد أن يتم فيها التنصير، إلا أنه لم يتمكن من تحديدها في إفريقيا طبعًا نظرًا لصعوبة المنطقة، فأهم ما ركز عليه هو نقطة الانطلاق، ولكن حاليًا يمكن إعطاء بالتحديد المناطق التي تمركزت

---

(1) Jean-Claude Geillier: **Histoire des Missionnaires…**, op.cit, p119.

(1) François Rnault: **le Cardinal Lavigerie, 1825-1892.**

(2) L'Eglise: **La France**, éd., Fayard, Paris, 1992, p350.

(3) Jean-Claude, Geillier, op.cit, p120.

فيها الإرساليات التنصيرية للآباء البيض، تنزانيا، أوغندا Uganda في المرحلة الأولى، وبعدها البوراندي (Le Burundi) وروواندا Rwanda، وشرق الكونغو، ثم جنوب مالاوي (Malawi) وزامبيا Zambie، المؤسسات الأولى اكتفت بجزء المركزي الغربي لتانزانيا وأوغندا، لما وصلت الفرقة الأولى من المنصرين إلى زنجبار لم تجد أية هيئة أو سلطة سياسية حاكمة، بينما كان هناك شبكة كبيرة من القوافل والتي كان يتحكم فيها أساسًا العرب التجار طبعًا ولهذه الشبكة عدة تفرعات[1].

من أهم المراكز التنصيرية التي استقرت في هذه المناطق السبيريتان (Les Spiritains)[2] في زنجبار منذ 1862م، وكذا في منطقة باجامويو (Bagamoyo) وستعرف هذه المؤسسة تطور وستحاول التوغل داخل إفريقيا وسيكون هذا المركز ولمدة طويلة منطلق العديد من القوافل التجارية والتنصيرية كقافلة الآباء البيض، ومن شمال القارة، هناك منصر وهو الأب كومبوني (Comboni)[3] مؤسس معهد المنصرين بإفريقيا والموجودين في السودان لاسيما في الخرطوم[4].

وخلال سنوات قليلة ستتحول هذه المناطق من إفريقيا الاستوائية إلى مركز اهتمام أوروبا والكنيسة الكاثوليكية، تحت سلطة البابا والتي وضعت مشاريع وكلفت أشخاص من أجل القيام بهذه المهمة، وفي هذا الإطار، متيقنين بما يمكن أن تحققه هذه المناطق.

وشهد عام 1876م في سبتمبر حدثين مهمين في العالم التنصيري الكاثوليكي المهتم بإفريقيا، وهو المؤتمر الذي عقده ملك بلجيكا ليوبول II وهو مؤتمر جغرافي دولي جمع مكتشفون وعلماء وبعض المنصرين، وكان في ظاهره يهدف إلى تبادل المعلومات الجغرافية، ولكن هدفه الحقيقي تحديد برنامج لوضع مراكز من أجل بحوث علمية وتكون هذه المراكز في مناطق غير مكتشفة من إفريقيا، لينتهي المؤتمر بتأسيس جمعية عالمية إفريقية (Association international Africaine)[5]، ولكن إذا عدنا إلى خطاب وزيره المكلف

---

(1) Jean-Claude Geillier: **Histoire des Missionnaires…**, op.cit, p122.

(2) هم منصري روح القدس Saint Esprit. للمزيد أنظر:
Ernoult Jean: **Les Spirilaines au congo, de 1865 à nos jours, Matériaux pour une histoire de l'église au Congo, collection mémoire**, éd., Spiritains étude et congrégation du Saint-Esprit, 1995, pp 25-34.

(3) المنصر كومبوني (Comboni) (1831م – 1881م) وقد تكون من في إطار برنامج تنصير إفريقيا. للمزيد أنظر:
Josèphe-Royer: **Colonisation et évangélisations, des père jésuite**, édition et publication, Caire, 1985, pp22-23.

(4) نفسه، ص25.

(5) Jean Claude Geiller, op.cit, p122.

بالحربية والذي كان ينطق بلسان الملك وخاطب جماعة المنصرين في إفريقيا، فإن كلامه كان صريحا ينتظر منهم التنصير وتهيئة الأرضية للاستعمار. ومن المفروض هذه الجمعية تكون حيادية بالنسبة لمشاركة المنصرين، ولكن الملك ليوبول II كان يرى عكس ذلك حيث حبذ مشاركة المنصرين، وأعلم الفاتيكان بذلك، فأين علمانية هذه الحكومات؟.

وعليه نرى أن الملك يؤكد على أهمية المنطقة وضرورة مشاركة رجال الدين ومنصريها في هذه الجمعية، وقام المسؤول العام للإرساليات التنصيرية في ليون الأب بلانكي (Planque) بكتابة وثيقة عرض من خلالها للبابا مدى أهمية التنصير في منطقة البحيرات الكبرى، والكاردينال رئيس البروبقوندا فضل توسيع نطاق نشاط البعثة، وحاول جمع معلومات حول المنطقة من طرف كل المنصرين الموجودين هناك[1]، وكانت هذه هي الفرصة المنتظرة من طرف لافجري والمناسبة لعرض خدمات لإرسالياته التنصيرية، وردّ على الكاردينال بوثيقة مطولة تسمى: مذكرات سرية[2]، قسمها لافجري إلى قسمين، يحتوي القسم الأول شرح للغموض والنوايا المخفية التي يظن أنها موجودة في قرارات هذه الجمعية وأن الجماعات البروتستانتية وأنصار الأفكار الحرة يناشدون هذه الأفكار خدمة لمصالحهم، أما القسم الثاني وهو الأهم وذلك أن لافجري يحاول عرض من خلاله أهم نقاط مشروعه التنصيري وقد عنونه كما يلي[3]: "الوسائل الفعالة التي يجب تبنّيها من أجل التنصير في إفريقيا الاستوائية" ويشرح من خلال هذا العرض المطول خطة العمل والتي تبين وجهة نظره في التنصير والتي رتبها كما يأتي:

1- **إنشاء نواب إرساليات جدد:** انطلاقا من هذه الجمعية وضع خطة للدخول في هذه المناطق واستقرار في المراكز أصبح من الضروري، لأنه رغم وجود إرساليات على سواحل المحيط الهندي إلاّ أنها أصبحت غير كافية لتحقيق هذا المشروع.

---

(1) Storme Marcel: **Rapports du Père planque de Mgr Lavigerie et de Mgr Comboni sur l'association international Africaine**, Bruxelles, 1957, pp73-74.

(2) العنوان الكامل لهذه الوثيقة هو مذكرات سرية للكردنال فرانشي على الجمعية الدولية الإفريقية وكانت مرفقة بخريطة لإفريقيا الاستوائية وحررت في 1877م ولكن أرّخت في جانفي 1878م، ومتكونة من حوالي 50 صفحة. للمزيد انظر:

Mémoire Secret adresse au Cardinal Franchi sur l'association de l'Afrique Equatorial, Jean-Claude Geillier: **Histoire des Missionnaires…**, op.cit, op.cit, p122.

(3) نص المذكرة في: Storme Marcel, op.cit, p114.

2- **تغيير إفريقيا من قبل الإفريقيين أنفسهم:** أي يجب القيام بالتنصير في إفريقيا أو الأفارقة وإدخالهم المسيحية ومن ثم استعمالهم من أجل التغيير كما يراه هو أي استعمال المسيحيين الجدد، فالتغيير في إفريقيا سيكون على المنوال المسيحي الغربي، ولاستعمال الأفارقة يجب تحقيق:

- تعليمهم وتكوينهم للحصول على بعض الإطارات.
- إعطاء لهؤلاء الأفارقة تعليم ومهنة تمكنهم فيما بعد من التأثير على مجتمعاتهم.
- ويشير إلى نقطة يعتبرها مهمة وهي ضرورة تربية هؤلاء الأطفال في إفريقيا وعلى الطريقة الإفريقية، ولكن بتكوين مسيحي غربي يسهر على تحقيقه المنصرين.
- الحصول على الإعانات اللازمة، وهنا لافجري لا يفصل في طريقة الحصول عليها ولكن يؤكد على أهميتها، نظرًا حسب رأيه لبعد المنطقة ولكن هو يؤكد أن إرسالية التنصير في إفريقيا الموجودة هناك وكذا الآباء البيض بإمكانهم تحمل الأعباء المالية لهذا المشروع[1].

3- **وضع كل الإرساليات الإفريقية تحت إدارة واحدة:** الأخذ بعين الاعتبار التنسيق الذي وضع بين الدول في مؤتمر بروكسل، فهو يقترح أن تضع الكنيسة الرومانية أو الفاتيكان كل البعثات التنصيرية لإفريقيا تحت تسيير مسؤول واحد، ويعطي من أجل ذلك حجج: «... إلى اليوم البعثات المتمركزة في إفريقيا... لا ينسقون فيما بينهم كل واحدة تتبع إلهامها وطريقتها...»، فهو يبين أن التنسيق بين البعثات أصبح واجب من أجل الحصول على نتائج أحسن[2].

4- وأخيرا يستعمل إشكالية العبودية التي تعيشها إفريقيا والذي هو في حقيقة الأمر من صنع الغرب المسيحي بحثاً عن يد عاملة رخيصة[3].

إذا تمعنا في الجملة "تربية أو تكوين الأطفال يجب أن تكون في إفريقيا وبالطريقة الإفريقية"، أي يؤكد على عدم إخراج هؤلاء الأطفال من بيئتهم حتى يظلوا أفارقة التفكير

---

(1) نفس المصدر السابق، ص126.

(2) « …Jusqu’à ce moment, les Missions établie en Afrique… ne concertent leur action, chacune suit ses inspirations, sa méthode… ».

انظر: نفس المصدر، ص10.

(3) نفسه، ص10.

والعادات، علمًا أن الغرب دائما يعتبر الأفارقة بدائيين متخلفين، وبإخراجهم من بيئتهم نحو بيئة أوروبية متطورة بأفكار حرّة، ففي بعض الأحيان يمكن أن يحتك أحدهم رغم كل الرقابة بهذه الأفكار الحرة والذي لا تتماشى مع مخططات الكنيسة في المنطقة، ولكن بإبقائهم في بيئتهم سيعمل رجال الدين على تنصيرهم ظاهريًا غالبًا، وهذا ما يبين إلى أية درجة تحويل أو تحسين أو تطوير أوضاع الأفارقة غير مهم قدر اهتمامهم بإعلان المنطقة مسيحية وما يضعها تحت حماية الكنيسة والغرب، وكل هذا تحضيرًا للمرحلة القادمة وهي الاستعمار العسكري أو الحماية وهذا ما يرجعنا إلى ما ذكره لافجري في الجزء الأول من هذه المذكرة، أين يتكلم عن نوايا المخفية للجمعية التي أسسها مؤتمر بروكسيل ونعلم دون التفصيل نوايا ليوبول II في إفريقيا والتي هي مشابهة لنوايا فرنسا وبريطانيا.

وهنا نستنتج أن هذا المشروع الذي وضعه لافجري لم يكن سوى تحضير الوضع لدولته للوصول إلى إفريقيا الاستوائية.

وهيأ لافجري لإرسال قوافل في كل مرة للالتحاق بإفريقيا، وفي كل مرة كان يسلم لهم تعليمات ليتبعونها.

وكانت أول قافلة في 1878م والتي كتب من أجلها التعليمات الأولى والتي كانت متكونة من حوالي 12 صفحة مقسمة إلى خمسة أجزاء، مشحونة بجملة من الأحاسيس، وتوزع نسخة لكل عضو من القافلة(1).

جاء في الجزء الأول منها تحليل مطول لضرورة تكريس حياتهم للحياة الروحية، والوفاء والطاعة والقيام بكل الصلوات، وكأنه يؤكد على أن يهتموا أولاً بالصورة التي يجب أن يظهرها رجل الدين(2).

ثم يخصص الجزء الثاني للعطاء الشخصي لكل منصر، وذلك لأن العمل الذي يقومون به مهم، وأنهم سيتعاملون مع مجتمع لا يعرفونه، فوجب إظهار تفتحهم، وتكريس أنفسهم كلية لهذه المهمة، أما فيما يخص تكوينهم الديني التنصيري يجب إعطاء الأولوية لتكوين ديني، ابتداءً من الحقائق الأساسية والابتعاد عن محاولة البرهنة عليها بالمنطق

---

(1) Joseph-Royer Benoist: **Eglises et pouvoir politique du Soudan Français, Administrateurs et missionnaire dans la boucle du Niger (1885-1945)**, Karthala, Paris, 1987, pp35-39.

(2) On peut consulter ces instruction dans les volumes dactylographiées de la correspondance de Lavigerie, Archive general des missions d'Afrique, Fonds Lavigerie, Vol 68 (A.G.M. Afr).

ترجمة شخصية للطالبة.

والفلسفة، وهذه الطرق اعتبرها لافجري بدائية سخيفة لا توصل إلى نتائج مرغوبة، كما يجب على المنصرين كسب ثقة رؤساء القبائل[1]، وما يمكن أن يقف في وجه المنصرين حسب لافجري عند القبائل هو مشكلة تعدد الزوجات، ولكنه يؤكد أن البدايات الأولى للمسيحية عرفت صعوبات وعقبات كثيرة ولكنها تمكنت من تجاوزها. فعلى المنصر الثبات والعمل، ويمكنكم الاعتماد على ملاحظات ومذكرات المستكشفين الذين سبقوهم، ومن أهم التوجيهات الاهتمام باللغة التي يتكلمها المجتمعات الإفريقية[2]، وبالنسبة للهجات غير المعروفة أمر بتعيين واحد منهم يهتم بتعلم هذه اللهجة وجعل لها قاموس ليتعامل بها الآخرون مع سكان المنطقة، بمجرد وصولهم[3].

ثم قام بتحليل نظرته للخطة المتمثلة في تكوين بعض الأفارقة الذين يتم اختيارهم من مجموعة الأطفال الذين يظهرون القدرة على تحمل مهمة التنصير فيما بعد بين أوساط مجتمعهم، أما في الأجزاء الثلاثة الباقية، لافجري يحذر المنصرين من أن يعرضوا أنفسهم لخطر الموت، كما يجب عليهم أن يحرسوا على إقامة مراكزهم في مناطق آمنة، وكذا أكّد على أن اكتشاف المنطقة يكون تدريجيًا وبحذر[4]، ويمنع على أي منصّر التنقل بمفرده، يجب على المنصرين أن يؤقلموا لبسهم مع الظروف المناخية، وفي الجزء الخامس يعرض لافجري قضية التكوين العلمي وذلك من أجل إظهار أن الكنيسة ليست رافضة للعمل، ويمكن أن يقوم بهذا التكوين أحد المنصرين، كما يطلب أن يكون لكل منهم كراس يومي يسجل فيه كل ملاحظاته حول المنطقة الجغرافية واللغة والعادات والتقاليد، ومحاولة وصف المناطق التي يكتشفونها، وفي الأخير وبعد كل دعواته بالنجاح يؤكد على وجوب قراءة هذه التعليمات مع بعض كل شهر، وبالتالي يتضح لنا أنه يمثل مصدر مهم يجب الاعتماد عليه[5].

ثم تأتي مجموعة من التعليمات والتي تتبع كل قافلة ودامت من 1879 – 1880م وكان في كل مرّة لا يغير في النص الأول والذي يعتبر لافجري الأساس ولكن يضيف ما يراه ناقص.

---

(1) نفس المصدر السابق، ص68.

(2) نفسه، ص ص90-110.

(3) نفسه، ص ص111-118.

(4) نفسه، ص ص104-106.

(5) نفسه، ص107.

والنص الثاني[1] والذي جاء سنة 1879م والذي كان يخص القافلة الثانية، رغم أنه يظهر كمكمل للأول، إلاّ أنه يحتوي على حوالي نفس عدد الصفحات ومقسمة إلى عشرة أجزاء وبعضها بنفس أهمية الأولى، فكان هناك فصل كامل خاص بمعدّات القوافل، والثاني خاص بأحسن طرق التي يجب تبنيها في معاملة الحمالين والتجار العرب وسكان المنطقة. كما طلب لافجري وأكد على وجوب التحلي بالحيطة، لأن الصعوبات قد تحل من أية جهة، شجار بين الحاملين، سرقة، أعداء، نفاق شيوخ القبائل.

ثم تليها أربعة أجزاء تخص الأكل والصحة، وذلك أثناء السفر، ويدخل في تفاصيل دقيقة وطويلة لتوضيح ما هو ممنوع وما هو مقبول وتذكير عدة مرات ضرورة الاهتمام بالصحة، ثم في الجزأين المواليين أي الجزء السابع يظهر وكأنه تكملة قصيرة لما جاء في نص 1878م، ويبدأ بالتحذير من ظاهرة خطيرة يمكن أن تصيب المنصرين وهي الفشل والإحباط[2].

ويشرح لافجري في الجزء الثامن رغم صغره من خلاله فكرة أو اعتقاد تكويـــن أو تأسيس مملكة مسيحية وهي تشكل أحد اهتماماته الكبرى، وهنا تظهر النوايا الحقيقية لهذه البعثات التنصيرية والتي لا يهمها التنصير كحركة أو تنصير الأسود وإنما غايتها ظاهرة. ويقول لافجري في هذا المجال: «... بعد التفكير في عدم نجاح العديد من البعثات التنصيرية الحديثة ودراسة تاريخ الشعوب التي أصبحت اليوم مسيحية، توصلت إلى أن المسيحية لن تكون مؤسسة عالمية إلاّ إذا تبنّاها رؤساء الدول رسميًا ويصبح نشره مسموح بسلطتهم...»[3]. ونلاحظ من خلال ما كتب أنه يؤكد على ضرورة الوصول إلى المسيحية العالمية أي انتشار المسيحية في العالم ثم يذكر "مؤسسة"، وهذا اللفظ المؤسسة يبين ابتعاد المسيحية الروحية والتي تربط العبد بالرب نحو مسيحية دنيوية لها أهداف وغايات أخرى فتلاحظ أن الكنيسة تجسد الجانب الروحي في مؤسسة.

---

(1) نفس المصدر السابق، ص109.

(2) نفسه، ص110.

(3) «Après avoir longuement réfléchi à l'insuccès relatif d'un grand membre de missions modernes et avoir étudié dans le passées l'histoire de la conversion des peuples, aujourd'hui chrétiens, j'en suis venu à constater cette règle…. Le christianisme ne devient un établissement universel que lorsque il est officiellement adopté par les chefs d'un pays et que sa diffusion est favorisée par leur exemple et par leur pouvoir…».

للمزيد أنظر: نفس المصدر السابق، ص112-114.

ثم يتكلم عن دراسته للتاريخ والتي يريد منها تأكيد على أن المسيحية تتصف بالسيرورة عبر التاريخ وأنه يجب الرجوع إلى طرق انتشارها الأولى وهنا يقصد لا محالة الإمبراطورية الرومانية واعترافها بالمسيحية كديانة رسمية وأصبحت للمسيحية سلطة وقوة عبر سلطة وقوة الإمبراطورية، ومن هنا هدف الكنيسة العودة إلى تلك السيطرة العالمية، وتبتعد بذلك عن تعاليم المسيحية الأولى، والتي هي قائمة أساسًا كغيرها من الديانات السماوية على معتقد الفرد وتقربه من خلاله بربه[1].

ولكي يكمل لافجري فكرته، قام بالرجوع إلى عدة أمثلة عبر التاريخ، ثم اقترح على المنصرين أنه بالنسبة لإفريقيا، يجب الوصول إلى ملك أوغندا ميتيسا (Mteca) ويؤكد Stanly أن لديه استعداد وأنه قد اكتسب ثقته، ويمكن أن نكلف بعض الجنود المسيحيين للمشاركة في توطيد سلطة هذا الملك المسيحي، بالتكفل بتأطير جيشه، ولم يتوقف هنا بل ذهب إلى وضع حل سياسي حيث يقول: «... اذهب إلى أبعد من هذا ودون الدخول في التفاصيل دون أهمية، أظن أنه إذا من بين كل الأمراء السود لا يوجد واحد يمكن أن يقوم بهذه المهمة، يمكن للغرب اختيار مسيحي شهم يقوم بها، وأنا متأكد أن الملك البلجيكي يفكر في نفس الشيء، وربما قد حظر سرًّا بعثة،... ويرغب في الاستيلاء بوضع مراكز على طول خط زنجبار إلى سان بول، في لواندا، عن طريق الكونغو وللأسف ستانلي، رئيس بعثته بروتستانتي...»[2].

ويظهر من خلال هذا الصراع والتنافس بين القوى التي كانت موجودة آنذاك حول مناطق النفوذ، وكذلك نؤكد على أن رغبة لافجري يعمل من أجل تحضير الأرضية لبلده فرنسا، ويظهر ولو بطريقة غير مباشرة رفضه لإنجاز ليوبول II، ويتضح مشروع تأسيس في قلب إفريقيا مملكة مسيحية تحت تسيير أوروبي غربي ورغم أنها تظهر العملية صعبة إلا أن لافجري متيقن أنها ممكنة التحقيق.

---

(1) نفس المصدر السابق، ص ص115-116.

(2) «… je vais plus loin, et sans entrer dans les détails qui serait inutile, je pense que si parmi les princes noire de l’intérieur, il ne s’en trouvait pas de capable ou dédaigne d’un tel rôle, il ne serait pas impossible qu’un européen brave et chrétien ne pût le remplir, peut-être même qu’en ce moment le roi des Belges y songe : j’ai du noir la certitude qu’il prépare, dans le secret, un expédition et qu’il désire s’emparer, en établissement des stations de la ligue de Zonzibar à Saint Paul de Loonda par le Congo malheureusement, Stanley, le Chef de son expédition, est protestant…».

نفسه، ص114.

كما أن البعثات الأولى قامت بتطبيق تعليمات لافجري وهذا ما نلاحظه في نشاط ليفينياك (Liviniac) ولوردال (Lourdel) في تقربهم من ملك أوغندا وكسب ثقته[1].

أما في الجزء التاسع من التعليمات فهو مخلص لضرورة أن يكون لكل منصّر كراس يومي خاص لتسجيل كل ملاحظاته والتي ستكون مهمة وتستعمل من أجل الحصول على الإعانات والمساعدات واهتمام الناس من خلال كل ما ينشر منها، ولذلك يجب أن يكون الوصف حي يتخلّله بعض القصص الشخصية التي يعيشها المنصرين في حياتهم اليومية، حتى يشدّ اهتمام القراء الأوروبيين، وإضافة بعض المعلومات التاريخية والجغرافية، وبعض الملاحظات العلمية، ثم يقترح وضع لجنة لتحرير أو كتابة هذه الملاحظات بعد جمعها وإرسالها بشكل مستمر[2].

ينتقل فيما بعد إلى بعض النصائح لإرسال هذه الملاحظات كأخذ حامل خاص يوصلها إلى الساحل، نلمس من هنا مدى أهمية هذه الملاحظات والمعلومات التي تجمع، لتكون هناك معرفة بالمنطقة للكنيسة[3].

نصل فيما بعد إلى تعليمات 1880م، وكانت موجهة كسابقاتها للقافلة التي كانت تحضر نفسها للذهاب.

أخذ لافجري نفس النصوص وقام ببعض التصحيحات أو الإضافات يحث دائما من خلالها على الحيطة والحذر لتسيير القافلة، الاهتمام بالصحة والأكل، ويؤكد على أنه من أحسن السفر بأقل المعدات والحاملين، كما يعيد التركيز على تعليم وتكوين الأفارقة لاستعمالهم من أجل تحقيق مخططاتهم، كذلك يرجع إلى فكرة تأسيس مملكة مسيحية، يسرح مشروع التمركز والاستقرار في المنطقة والذي سيتحقق جزء منه في 1880م[4].

أما تعليمات نوفمبر 1880م، التعليمات الرابعة والأخيرة والتي يكتبها لافجري في نوفمبر وعكس السابقة، فلم يتم نشر منها ولا جزء في كتاب التعليمات وذلك راجع لما تحتويه من ألفاظ تعبر على غضب لافجري من رجال القوافل أو المنصرين ويحملهم عبئ كل ما حدث في إفريقيا، متهما إياهم أنهم لم يكونوا على كامل الحيطة والحذر[5].

---

(1) Jean-Claude Geillier: **Histoire des Missionnaires…**, op.cit, p142.

(2) نفس المرجع السابق، ص143.

(3) Jean Claude Geillier, op.cit, p143.

(4) A. G. M. Afr: **Instruction 1879**, op.cit, p120.

(5) A. G. M. Afr, op.cit, p139.

ومن خلال الأخبار التي كانت تصله، تيقن من مدى الصعوبة التي صادفت الجماعات أو القوافل الأولى، سوء تسيير القافلة، علاقات صعبة مع الحاملين، كذلك المناخ وصعوبته، وصعوبة الطرقات، كل هذه الأحداث جعلت الوضع الصحي لدى رجال الدين صعب ومتدهور، كما أنه تدهور نوع وقيمة الغذاء، حتى فقدت القافلة خمسة من المنصرين، وتم سرقة حقائبهم والتي كانت ذات أهمية كبيرة، والأخطر أن هذا الوضع تكرّر عدة مرات الشيء الذي أغضب لافجري، ظنا أنه كان بإمكان هؤلاء أن يتفادوا هذا الوضع لو طبّقوا تعليماته.

ولا تخلو هذه التعليمات الأخيرة من تحذير ونصائح حول التسيير والاهتمام بالأموال ودراسة اللغات، وغيرها مما ذكر في التعليمات السابقة[1].

وبذلك يمكن اعتبار إفريقيا أحسن مثال لدراسة التنصير والحركة الاستعمارية وذلك لسببين:

الأول أن هذه القارة شهدت كل أنواع الاستعمار وعلى مدى قرون عديدة، البرتغالي والإسباني، الفرنسي والإنجليزي، الإيطالي، الألماني، ومازالت إلى يومنا هذا بعض المناطق لم تتخلص كلية من الاستعمار.

كما تعتبر إفريقيا حسب المنصر الأمريكي جاك مندلسون هي قلب العالم ويطبق فيها أكثر من أربعمائة منظمة كنسية نوع أو آخر من العمل التنصيري، ويذكر تقريرًا يؤكد أن قبل 1970م، وصل عدد المنصرين في إفريقيا حوالي 15970 منصّر، أي ما يعادل 35% من مجموع الإرساليات في العالم، ليبلغ العدد 42250 في 1980م، وقد وصلت مصاريف نشاط الإرساليات التنصيرية في منتصف الستينات حوالي 170 مليون دولار[2].

فالرسالة التي وجهها كنيث كاوندا رئيس جمهورية زامبيا خلال كفاحه ضد الاستعمار الإنجليزي، بعث بخطاب إلى رئيس الإرسالية ونقل فيها ما كتبه برنارد شو، في كتابه "رجل القدر": «حينما يريد الإنجليزي سوقا جديدة لبضائعه الفاسدة التي صنعها في مانشستر، فإنه يرسل منصّرا لتعليم الأهالي بشارة المسيح، ويقتل الأهالي المنصر، فيذهب

(1) A. G. M. Afr, op.cit, p140.

(2) عبد العزيز بن إبراهيم العسكر: **التنصير ومحاولاته في بلاد الخليج العربي**، مكتبة العبكان، الرياض 1993، ص25.

الإنجليزي إلى حمل السلاح دفاعًا عن المسيحية، ويحارب من أجلها، ثم تستولي على السوق كمكافأة من السماء. فإذا كنت تنوي خدمة الحكومة البريطانية بالطريقة التي وصفتها، فلقد أتيت في الوقت غير المناسب، فلم يقتل أجدادنا أحد الأوروبيين في المحمية، وسوف تتأكد من أننا لن نقتل أي أوروبي منصرًا أو غير منصّر لأسباب سياسية»[1]، وبعبارة أخرى يعلن أن الأوروبي يتسبب ويختفي وراء ذرائع لتحقيق أغراضه الاقتصادية.

(1) عبد العزيز بن إبراهيم العسكر: **التنصير ومحاولاته...**، المرجع السابق، ص26.

المبحث الثاني: نماذج من التنصير الفرنسي في المشرق الإسلامي

ربما وضع التنصير في المشرق الإسلامي يختلف عن ما هو عليه في باقي أنحاء العالم عامة والأقطار العربية الإسلامية خاصة، ذلك لأن المنطقة تعتبر مهد الديانات المسيحية واليهودية، فجاءت الحروب الصليبية من أجل تخليص هؤلاء النصرانيين والقدس والأراضي المقدسة من يد المسلمين، على حد تعبيرهم، كانت ذات دافع ديني يغطي غايتهم للسيطرة على مناطق الشرق الإسلامي بما فيه من خيرات اقتصادية ومراكز حربية، فعمل الصليبيون جاهدين ولمدة طويلة لاستعادة الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، لكن دون جدوى[1].

وبالرغم من فشل الحروب الصليبية بقي الصليبيون ينمون حلم استعادة الأماكن المقدسة من المسلمين، حتى وإن خاب أملهم أمام استرجاعها بحدّ السيف، خاصة أن الحروب الصليبية لم تأتِ من أجل حماية المسيحيين قدر ما جاءت لتدمير المسلمين، بعد أن تمكن الصليبيون من خلق عداوة عميقة بين المسلمين والنصارى[2]، صار من الضروري إيجاد إستراتيجية جديدة، تكون حربًا من نوع آخر تمكّنهم من تحقيق آمالهم في منطقة المشرق الإسلامي، بجيوش تستولي على الأفكار والذهن والروح لتصل إلى الأرض والذين اعتبرتهم الكنيسة جيوش روحية، حيث تأتي بالإنجيل في يدها لتمنحه للسكان الأصليين وتستولي في المقابل على الأرض حيث كتب الأسقف الدومينيكاني وليم الطرابلسي[3]، رسالة بشؤون المسلمين، يوصي فيها باستعمال المنصرين، بدل من الجيوش لاسترجاع المناطق المقدسة[4].

وكان لهذا النشاط التنصيري عملاً جبارًا بالنسبة لحكومات الدول المستعمرة، وخاصة فرنسا والتي استعملت من أجل ذلك البعثات والإرساليات التنصيرية إلى هذه المناطق من أجل حماية هذه الأقليات المسيحية، الموجودة في المنطقة، والتي استعملتها

---

(1) مصطفى خالدي عمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص14.

(2) نفسه، ص ص12-14.

(3) عبد الرحمن البدوي: **الدفاع عن محمد صلى الله عليه وسلم، ضد المنتقصين من قدره**، ترجمة كمال جاد الله، دار العالمية للكتب والنشر، ص ص8-9.

(4) عندما يكتب إلى البابا في أوربا ويقول: "نريد مرسلين، لا جنود لاسترداد الأراضي"، فيليب حتى: **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ج2، ط2، دار الثقافة، بيروت 1972م، ص263.

دول الغرب كذريعة من أجل تحقيق مخططاتهم[1]، حيث هي من عبّدت الطريق للحركة الاستعمارية للقرن التاسع عشر الميلادي، فانطلقوا منذ البداية بفكرة القيام بالأعمال اليومية داخل الكنيسة وأصبح رجال الدين يطالبون بالالتحاق بهذه المناطق من أجل الوصول إلى هناك، ولكن حقيقة التحاقهم عادةً ما تكون من أجل التنصير أساسًا، وإكمال ما لم تحقّقه الحروب الصليبية[2].

وبما أن الأقليات المسيحية الموجودة هناك هي مكتسبة من طرف الكنيسة ولا داعي لنشاط تنصيري بينهم، ولكن هي أحسن الطرق للدخول في أوساط المسلمين للقيام بعملية التنصير ولو ظاهرية، هي من فتح الأبواب المشرقية أمام الغرب المسيحي حيث لم ينته القرة 19م حتى تمكنت القوى الاستعمارية الغربية، لاسيما فرنسا من احتلال معظم المناطق الإسلامية، فتمكنت فرنسا من وضع يدها على سوريا ولبنان ومعظم دول شمال إفريقيا[3]. إذ لم تتوقف البعثات التنصيرية نحو المشرق والعالم الخارجي عامةً من طرف فرنسا، بل كان التنصير الميدان الأوسع بين الطوائف والمذاهب المتواجدة في منطقة المشرق الإسلامي، وقد اهتم الملوك شخصيًا بالتنصير[4] وذلك منذ بداية العصور الحديثة في أوروبا، حيث اهتمت الدول المسيحية ببناء كنائس كبيرة، والاهتمام بمظاهرها، وذلك من أجل التأثير العقلي على الشعوب المتخلّفة، على حدّ تعبيرهم، وهذه هي الطريقة التي استعملتها دول الغرب المسيحية منذ البداية وهي ترسيخ فكرة تفوقها على العالم[5].

إذاً دائما بنظرة التكبّر والاستعلاء وليحققون ويرسخون ذلك في نفسية الشعوب المستعمرة والتي يمارسون فيها التنصير، وركّزوا على أن تكون كنائس الإرساليات ومدارسهم ونواديهم ذات مباني شاهقة، غريبة المنظر حتى يكون لها تأثير على عقول السكان ومخيلاتهم[6]، فيجعلهم ربما يقتربون من المسيحية ولو من باب الفضول، فالعديد

(1) عبد الرحمان حنبكة الميداني، **أجنحة المكر الثلاث وخوافيها التبشير، الاستشراق، الاستعمار**، دراسة تحليلية، ط2، دار القلم، ص35.

(2) مصطفى خالدي عمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص25.

(3) نفسه، ص28.

(4) Etienne Thuau: **Raison d'état et pensée politique à l'époque de Richelieu**, éd., Albin Michel, Paris, 2000, p176.

(5) زينب عبد العزيز: **محاصرة وإبادة، موقف الغرب من الإسلام**، دار الكتاب العربية، القاهرة، 2003، ص37.

(6) المهدي رزق الله أحمد: **أساليب المنصر للوصول إلى أهدافهم في المجتمعات الإسلامية المعاصرة**، مجلة البحوث الإسلامية، عدد 22، سنة 1408هـ.

من الكنائس المسيحية التي بينت في مناطق المشرق الإسلامي هي نموذج من الفن المعماري الحديث وكانت دائمًا تتربع على مناطق إستراتيجية، حتى تظهر من بعيد معلنةً أن المنطقة نصرانية[1].

كما قامت ببناء كنائس في مناطق ليس فيها أي نصراني، حتى تشهد المنطقة في المناسبات الكاثوليكية توافد للصلاة فيها من مناطق مختلفة، وقامت الإرساليات بشراء قطع أراضي ذات مواقع إستراتيجية، ودفعوا فيها ثلاث أضعاف ثمنها في بعض الأحيان للحصول عليها لموقعها الاستراتيجي[2]. وكل الأموال من تمويل الحكومات الحامية لها، خاصة وأن بعد الحروب الصليبية افتقرت المنطقة للكنائس، ما عدا قليلة منها، والتي كانت في وضع رهيب، ووصل رهبانها إلى حد كبير من التخلف[3]، حيث من بين 180 قسيس أرثوذكسي لم يكن منهم سوى عشرة لديهم مستوى من العلم والثقافة[4]، ولهذا أول ما قام به المنصرين في المشرق هو إصلاح الأحوال الداخلية لهذه الكنائس، حتى يتمكنوا من استعمالها للتنصير في أوساط المسلمين، فاستقبلت فرنسا رجال الدين من أجل تعليمهم في المدارس، لإعدادهم للتنصير والعمل في مناطق المشرق الإسلامي، وفقاً لمناهج مبنية على معرفة وفهم روح الشرق[5]، وتسيطر على تلك المناهج أفكار معينة وهي إظهار الجوانب السلبية في المشرق الإسلامي، وتبيّنه على أنه متأخر ومتخلف[6].

واستعملت من أجل ذلك المدارس القديمة التي كانت موجودة في روما وباريس، واسبانيا ومع مرور الزمن أضافت إلى مناهجها تدريب عسكري، وكأنها تخطط لهجوم عسكري، وكل هذا من أجل السيطرة وتحقيق المخططات الاستعمارية[7].

ورغم أن التنصير لا يخص المسلمين فقط، إلا أن جهود المنصرين بدافع من حكوماتهم موجه معظمه ضد الإسلام والمسلمين، ونلاحظ استواء جميع المنصرين في هذا

(1) زين زين: **الصراع الدولي على المشرق العربي، ولادة دولتي سوريا ولبنان**، دار النهار للنشر، بيروت 1978م، ص35.

(2) نفسه، ص ص37-41.

(3) جورج ساطور: **الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط**، ترجمة عمر فروخ، ط1، منشورات المكتبة المعارف، بيروت، 1956، ص73.

(4) نفسه، ص81.

(5) Goyau. G.: **La France missionnaire dans les cinq partie du monde**, T2, Paris, 1904, pp324-325.

(6) نفسه.

(7) نفس المرجع السابق، ص57.

الرأي رغم اختلاف طوائفهم[1]، ولكن ورغم كل ما خلفته الحروب الصليبية من مخلّفات سيئة في نفوس الغرب المسيحي بغض النظر عن الخسائر المادية والبشريـــة، إلاّ أن الغرب بمجرد ما تمكن من إعادة تجديد أفكاره وأهدافه وإعادة بعث الحركة الصليبية بلباس أو هيئة جديدة، فاختلط التنصير بالسياسة، أو تغلفت السياسة بالتنصير وهذا ما يسمى بالاستعمار، ولم يكن خاص بالفرنسيين فحسب، لكن عند فرنسا ظهر بأبشع صوره، حيث يصفها البعض بالحروب الصليبية الهادئة وبدأها المنصرون في القرن السابع عشر الميلادي وما زالت مستمرة إلى اليوم، والرهبان والراهبات مازالوا مستقرين في منطقة المشرق الإسلامي، ولم تتوقف فرنسا والكنيسة الفرنسية من التفكير طويلاً بتلك الروح الصليبية ضد المسلمين[2].

وبما أنه خلال هذه الفترة، كانت القوة الإسلامية ممثلة في الدولة العثمانية والتي كانت تمثل وحدة المسلمين، وعادت فكرة استرجاع المسيح لأراضيه المقدّسة، ومحاولة تحويل مناطق البحر الأبيض المتوسط إلى مسيحية، وهذا ما ظهر وبكل وضوح في مشاريع الأب جوزيف (Père Joseph)[3]، والذي كان وراء فكرة أو مشروع شن حرب صليبية جديدة ضد العثمانيين، مطالبًا بتحرير مسيحيي المشرق والوصول إلى الأراضي المقدّسة، ويبدأ المشروع بحماية المسيحيين وتوحيد كل القوى الأوروبية المسيحية ضد العدو المشترك وهو الدولة العثمانية فيتمكن من إشغال الغرب عن الصراعات الداخلية التي كانت قائمة، وتوحيد المسيحيين وراء فكرة إحياء "مملكة المسيح"، وحماية المسيحية ضد التدخل الخارجي وخاصة الإسلامي، وهذه الفكرة انطلقت في العصور الوسطى عند رجال الدين وتبناها البابا بولس الخامس[4].

وكانت الدولة العثمانية تمثل بالنسبة للكاثوليك والبروتستانت خطر كبير يهدد أوروبا من كل الجوانب خاصة الجانب الروحي والعسكري، وبذلك أصبح محاربة الدولة

---

(1) جورج ساطور: **الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط**، مرجع سابق، ص91.

(2) أنور الجندي: **الاستعمار والإسلام**، دار الأنصار للطباعة والنشر، ص ص33-42.

(3) جوزيف لوكلارك دوتروميلاي (Joseph le Clerc du Tremblay) من عائلة أرستقراطية حصل على لقب الدوق في 1595م. للمزيد أنظر:

Benoist Pierre: **Le Père Joseph, l'empire ottoman et la méditerranée au début de XVIIème siècle**, in cahier de la Méditerranér 71, 2005, pp185-186.

(4) للمزيد أنظر:

Jacques Humbert: **Charles de et la milice chrétienne, 1598-1625**, in Histoire Militaire, n°68, année 1987, pp85-109.

العثمانية هي القضاء عن الإسلام والمسلمين، وهذا ما عبّرت عليه أدبيات وكتابات الرهبان ف تلك الفترة كالكتب الزرقاء (Livres bleus)[(1)]، ومنشورات أوبسكون Opuscules، وفي بعض الأحيان منشورات على شكل أوراق والتي انتشرت في أوروبا، كما منحت الحكومات الأوروبية أهمية كبيرة للعرافين والمتنبئين بالمستقبل الذين أعلنوا نهاية القسطنطينية[(2)].

وفي خضم كل هذه الأحداث استرجع الأب جوزيف كل أفكاره العدائية ضد الإسلام والمسلمين والذين كانوا متمثلين في الأتراك العثمانيين، ويتجلى لنا ذلك بكل وضوح في قصيدة تورسيادا (Turciade)[(3)]، والتي ألّفها الأب جوزيف، لإحياء فكرة استرجاع الأراضي المقدسة فهي تبين الصراع الديني، وحلم تأسيس مملكة المسيح، وقد وقفت الدولة العثمانية في وجه هذا المشروع، وكانت هذه القصيدة ستكون كنشيد للحرب الصليبية الجديدة، تحتوي هذه القصيدة على حوالي 4600 بيت، أهداها للبابا أوربان الثامن (Urban VIII)[(4)].

فيصف في بعض أبياتها مملكة المسيح، وعندما يأخذ المسيح الكلمة ليعبّر عن حزنه وألمه لرؤيته للشرق الأدنى والأوسط مسيطر عليه من طرف المسلمين، ويطلب من القوة السماوية تصحيح ذلك، ثم نجده يتكلم مع كل القوى المسيحية في الأرض ويحاول إقناع أهم سلاطينها، لويس الثامن وفليب الرابع بإعلان الحرب ضد الباب العالي[(5)] فمن خلال هذه القصيدة يريد منح الشرعية الإلهية أو السماوية لمشروعه، حتى يجعل منها طلب إلهي، فهنا ما يمكن التركيز عليه هو الأهمية التي تملكها الكنيسة والمسيحية، في العالم الغربي حتى خلال القرن السابع عشر والذي يعتبر عصر حركة الأفكار وظهور كل حركات العلمانية والتحررية في أوروبا، إلاّ أنهم وخدمة لمصالحهم، يرجعون للمسيحية وللكنيسة لتحقيقها.

---

(1) هي عبارة عن تقارير تجمع في كتب وتعود هذه التسمية إلى القرن 15م قرن النهضة الأوربية والكتابات كانت تستعمل من أجل حفظ أرشيف البرلمان. انظر: Benoist Pierre: **Le Père Joseph…**, op.cit, p21.

(2) Benoist Pierre, op.cit, p22.

(3) أبيات شعرية طويلة كتبها باللغة اليونانية بين 1617 – 1625م يظهر ويؤكد الجو الفكري المشحون، المواجهات الدينية التي كانت تطفو على تلك الفترة. للمزيد أنظر:
Alphonse Dupront, **le Mythe de la croisade**, éd., Gallimand, Paris, 1997, pp153-157.

(4) نفسه.

(5) Louis Dedouvres: **Le père Joseph de Paris, capucin l'éminence grise**, in revue d'histoire de l'église de France, T19, année 1933, n°84, pp390-393.

ويشرح الأب جوزيف أن طبيعة النظام العسكري الديكتاتوري إن صحّ التعبير للدولة العثمانية أوجب على الكنيسة والغرب الوقوف في وجهه، مثله مثل العديد من مفكري هذا العصر الذين كانوا يرون أن العثمانيون يهتمون بالحروب والملك والتوسع. «... ميزانية الأتراك في اضطراب بسبب إهمالهم، وحبهم لحياة البذخ والمال، وكذلك والأهم بسبب الحروب الطويلة ضد الفرس»[1]. فيحاول من خلال كتاباته الرجوع إلى أعمال الصليبيين الأوائل، ويبجل ويعظم أعمالهم، وكأنه يريد إخفاء الماضي الأسود لهؤلاء الصليبين، كتبجيله للصليبي القديس فرانسوا (Saint Françoi d'Assise) وفرسان الطاولة المستديرة (Ses chevalier de la table ronde)، كما يعود في كتابه مقدمة الحياة الروحية (Introduction à la vie sperituelle) إلى أول شهيد من جماعة الإخوة الصغار (Les frères mineurs)، الذين ضحوا بحياتهم بين أيدي الكفار إفريقيا وآسيا ويقصد هنا بالكفار المسلمين طبعًا[2].

ومنذ انتصار ليبونت (L'Epante)[3] لم تتغير النظرة أن العثمانيون يشكلون الخطر الذي يهدد المسيحية، حيث كانت ردة العثمانيين عليهم بعدة انتصارات أخرى منها بتراس (Patras) وقبرص (Chypre) (1570 – 1571م) وإلحاق تونس في 1574م، كما توسعت الدولة العثمانية على أذربيجان في 1790م، رغم المشاكل الداخلة للدولة العثمانية، إلاّ أنهم استطاعوا المحافظة على قوتهم الخارجية ما عزز فكرة تفوقهم واعتبارهم خطر يهدّد المسيحية، وبات الغرب متخوف من وصول الإنكشاريين إلى أراضيهم، ومن هذه الفكرة أو النظرية جاءت فكرة مشروع الأب جوزيف، التعاون أو الاتحاد في قوة واحدة من أجل تهديم أو تدمير الأتراك العثمانيين، وتأسيس البروباقاندا لنشر الإيمان والدين الكاثوليكي[4].

---

(1) « … les finances des Turc sont en desordre par sa negligance, luxe de sa vie volupteuse et principalement par longues guenes domestique domestiques et changerès de la part du perse qu'il a soutenues presque depuis son avenement… » : أنظر. Gustave Fagniez: **Le Père Josephe et Richelieu (1577-1688)**, T2, ed Hachette, Paris, 1894, p486.

(2) Benoist Pierre: **Le Père Joseph…**, op.cit, pp200.

(3) معركة وقعت في 1571م وانتصر فيها المسيحيين ضد الدولة العثمانية. أنظر:
Edmond Juvien la Gravier: **La guerre de chypre et la bataille de Lépante**, 2ème éd., Daville, Paris, 2011, pp214-218.

(4) Ibid., p220.

من خلال ميليشيات من المسيحيين يعتبرون أنفسهم فرسان المسيح من أجل نصرته، وسلم وتحرير المسيحيين من قمع الكفار والتي أرادها أن تنطلق من بولونيا، وفي 1619م تهيأ جيش من حوالي 12 إلى 15 ألف رجل للتوجه لضرب العثمانيين من Valachie، وكانت رغبة الأب جوزيف هو أن يقود الجيش الدوق نافيرس (Le Duc Nevers) وكان سيلعب دور مهم لأنه كان له حلم وهو استرجاع مملكة المسيح عن طريق استرجاع المناطق المقدسة، وكان لهذا الشخص أصول مشرقية من جهة أمه تعود إلى عائلة حاكمة في المشرق وكان يحلم باسترجاع التاج المشرقي، وتحرير الإغريق من الحماية العثمانية، خاصة بعدما قصده وفد من رجال الدين الأرثوذكسيين طالبين منه ذلك أي الحماية، فبذلك وجدت فرنسا مكانها داخل صفوف هذا المشروع لاسترجاع الأراضي المقدسة، كما كان من المفروض أن ينطلق جيش أو فرع آخر من جيش هذه الحملة لضرب المجر والتي أصبحت جهة عثمانية أقل قوة، ذلك منذ أن استعمل السلطان أحمد الأول بعض من قوتها لضرب الفرس[1].

وكان هناك جيش آخر يتألف من 25000 إلى 30000 رجل أو مقاتل من كوزاك (Cosaques) وهم متمركزين في بولونيا، ويكنّون عداء شديد لتركيا، وهذا المشروع كان يحتوي هجوم من البحر والذي كان يأمل في جمع عدة قوى بحرية، كقوة أو جيش نائب الملك نابولي، والقوة الإسبانية، وفرنسا، كما أملوا في ضم بعض السفن الإنجليزية والهولندية وكذا من فينيسيا[2].

ولم يكتفِ في هذا المشروع الصليبي "بمحاربوا الرب" (Les Griers de Dieu)، بل أراد تقويتهم عن طريق تحالفات أخرى خارج أوروبا، كالاستعانة بقوة الدروز، في لبنان والأرامتة في آسيا الصغرى، النجاشي في إثيوبيا، وذلك من أجل ضرب العثمانيين في مصر وإخراجهم منها، وإضافة إليهم القوة العسكرية الفارسية التي طلبت منذ مدة من البابا والإمبراطور وملك إسبانيا من أجل القيام بهجوم ضد الأتراك، خاصة وأن الفرس كانت لديهم قوة إقناع وتفاوض، حيث خلال طلبهم بضرب القوة العثمانية من طرف البابا منحوا له في المقابل القدس وفلسطين، كما وعد المسيحيين بإمكانية الاستقرار وممارسة

---

(1) Louis Dedouvres: **Le père Joseph de Paris,** op.cit, pp52-57.

(2) Benoist Pierre: **Le Père Joseph…**, op.cit, p158.

ديانتهم، بكل أمان وحرية، وكان يأمل في انتفاضة الأقليات داخل الدولة العثمانية في المشرق، وكذا انتفاضة جيشه، ولكن بهذا التحضير الذي يظهر محكم، لأن الأب جوزيف درس كل جوانب هذه الحرب الصليبية، ودرس كل نقاط القوة والضعف عند العثمانيين، إلاّ أنّ هذا المشروع لم يرَ النور ولم يطبق[1].

هذا المشروع الخارج مباشرة من بين أسوار الكنيسة، والذي يعزز الفكرة الروحية للغرب الأوروبي وهي تمسيح العالم أو إعلاء مملكة المسيح، إلاّ أننا يتضح لنا من خلال هذا المشروع الغاية الحقيقية التي حركت هذا الغرب المسيحي ابتداءً من صاحب المشروع نفسه الأب جوزيف، والذي من خلال هذا المشروع كان له هدف مهم وهو تعزيز قوة فرنسا حيث كان السبب الرئيسي هو تضارب مصالح الغرب، لأن الأب جوزيف كان يستعمل المسيحية والجانب الروحي لصالح ملك فرنسا، ولذلك كان يريد منح قيادة الجيوش لفرنسا، ما أزعج اسبانيا أولاً والعديد من القوى الأوروبية آنذاك، حيث نرى في قصيدته بقوى يظهر دور فرنسا بقوة حيث يقول:

«...الكبشيون (Les capucins) يختارون من سيخلص العالم من الأتراك والبروتستانت وكل من يمكنه أن يهدد أو يضر مجد مملكة: الرب وفرنسا، والثانية هي الوسيلة الأولى. الحروب الصليبية هي أولاً وقبل كل شيء وسيلة لتحقيق مجد فرنسي في أوروبا...»[2].

وإضافة إلى ذلك كل الصراعات الدولية الأوروبية قضت نهائيًا على فكرة إمكانية الاتحاد لضرب العثمانيين وأخذ الأراضي الأوروبية والمقدسة منها.

وبعد أن تيقن من فشل هذا المشروع سنلاحظ تحول في سياسته في أوروبا، وحتى مع تعامله مع الدولة العثمانية التي ستتحول إلى حليفة فرنسا لحماية مصالحها في أوروبا وخارج أوروبا، وسيكون الأب جوزيف المتفاوض الأول مع الدولة العثمانية، وسيحوّل هو الآخر من أجل تحقيق مصالحه وأهداف بلده من المحاربة العسكرية المسلّحة إلى العمل التنصيري عبر جيوش المنصرين والذين سيكون لهم نفس أهداف الحرب الصليبية ولكن بضرب روح الدولة العثمانية[3].

---

(1) Edmond Juvien la Gravier: **La guerre de chypre**, op.cit, p62.

(2) « … Le capucin fixait couple qui devait sauver le monde des turc, des protestants, et tous ceux qui pouvaient nuire à la gloire du royaume Dieu et la France, la second étant l’instrument du premier. La croisade était d’abord et avant tous le moyen d’assurer la gloire des Français en Europe… ».

انظر للمزيد: Benoist Pierre: **Le Père Joseph…**, op.cit, p190.

(3) Ibid., p159.

لتنطلق إرساليته المتوسطية في 1625م، تغلبت من خلالها الحركة السلمية الفكرية على العنف العسكري، وبما أن الأب جوزيف يعتبر أهم مستشاري ريش ليو (Richelieu)، وهو من سيحرك الإرساليات الكابوشية (Capucines) في داخل الدولة العثمانية حيث لم يتردد الأب جوزيف من عقد اتفاق مع العثمانيين في الوقت الذي كانت فرنسا ستدخل في حرب مع النمسا، وتعهدت بصرف أموال للباب العالي مقابل التحالف معها ضد النمسا وإسبانيا[1].

رغم أن هذا الحلف العسكري لم يستعمل، إلاّ أنه اعتبر من طرف فرنسا حصنًا ضد أعدائها في أوروبا، ومن خلاله استطاع الأب جوزيف من تعزيز عمله أو نشاطه التنصيري في المشرق وإنجاح إرساليته[2].

ثم قامت فرنسا سنة 1638م بإصدار قرار وهب المملكة لمريم العذراء[3] وهذا يعني فعليا أن فرنسا قررت استعمال التنصير من أجل تحقيق مصالحها، في داخل وخارج فرنسا، وأصبحت بموجب هذا القرار حامية رسمية للمسيحيين في العالم، وتطالب دائما بحق حمايتهم، وهي في الحقيقة سياسة أو وسيلة للوصول إلى عدة مناطق في العالم والسيطرة عليها، عن طريق الدين الذي سيمنحها بعض الامتيازات ستكون الأبواب التي ستستعملها فرنسا لتدخل كقوة استعمارية.

وقد اكتمل مشروع إرسال بعثات تنصيرية إلى المشرق في جانفي 1620م وفي 1622م أرسل أول راهب –رسميًا– من جماعة الكابوشيون يدعى الأب باسيفيك (Le Père Pacifique de Provins)، نحو الشرق بطلب من الأب جوزيف، ليعيّن الأب جوزيف سنة 1626م من طرف البابا مسؤول على كل الإرساليات المشرقية[4].

فاهتم بالأناضول، اليونان والمشرق الأدنى وشمال إفريقيا، فأرسل أربعة جماعات من الكابوشيون نحو القسطنطينية، حاملين رسائل من الأب جوزيف ومن ملك فرنسا ومن

---

(1) Louis Dedouvres: **Le père Joseph de Paris,** op.cit, p67.

(2) Gratien de Paris: **Les Bénédictines du calvaire, le Père Joseph du Trembley et le veu de Louis XIII**, d’après des documents inédits, Paris, 1938, pp110-112.

(3) Benoist Pierre: **Le Père Joseph…**, op.cit, p102.

(4) Gratien de Paris, op.cit, p115.

ريشليو، كما حصل بعض رجال الدين الفرنسيسكان على تأسيس الدير، واستقروا في كنيسة سان جورج (Saint-George)، والتي بنيت أمام مدرسة بمجرد وصولهم[1].

وبفضل مساعدة الأب جوزيف كان التوسع سريعًا، وتم تأسيس عدة منازل أو أديرة في مناطق مختلفة في اليونان ما بين 1627م و 1628م[2].

كما استقر الكابوشيون في سوريا، حلب، لبنان وصيدا وبيروت ووصلوا بغداد في 1628م وأصفهان (Ispahan) في الفرس، ليصلوا شمال إفريقيا في 1629م، حيث بدأوا بالمغرب ثم في 1630م وصلوا مصر (الإسكندرية والقاهرة) ثم منطقة البربر (تونس)، ثم طرابلس، وكان لهم مشاريع في قبرص واللاذقية ودمشق، وكان الهدف الأساسي لهذه الإرساليات هو منح المساندة الروحية للمسيحيين في المشرق وتأطيرهم[3]، أي بمعنى آخر السيطرة الروحية والدينية على مسيحيي المنطقة من أجل حسن استعمالهم لتطبيق مصالح ومخططات الغرب المسيحي في المنطقة، وبذلك فظاهرًا مهمتهم الاهتمام بأعمالهم الدينية، ولكن هم يدخلون التنصير كمهمة رئيسية ولكن بطريقة غير مباشرة، عن طريق التعليم والاحتكاك بالسكان الأصليين وكذا مهمة شراء الأسرى، والتي كانت خلال هذه الفترة من أهم الوسائل للدخول داخل المجتمع الإسلامي واستغلال ثغوره لبعث أفكار التنصير المشحونة بعدة أفكار أخرى تجعل الدخول الغربي أسهل إلى المنطقة، وعن طريق هذه الإرسالية حاول الأب جوزيف تعزيز سلطة فرنسا في منطقة المتوسط.

بما أن فرنسا كانت تعتبر نفسها الحامية للمسيحيين في المشرق، فوجدت الحركة التنصيرية دعم من الملك، حيث تمكّن الأب جوزيف من إقناع الملك لويس 13 من تولي حماية الإرساليات الكابوشية (Capucines)[4]، وفي المقابل سيقوم هو بتعزيز سلطة الملك وراء حدود فرنسا، ونصل هنا إلى التوسع العالمي والريادة، ومن ثم إلى الفكرة الأساسية وهي مملكة المسيح والتي من خلالها ستتمكن فرنسا من السيطرة على العالم، يتضح لنا أن مهمة رجال الدين الأولى كانت خدمة المصالح السياسية الفرنسية في الخارج، بتقوية

---

(1) Gratien de Paris: **Les Bénédictines…**, op.cit, p115.

(2) Smyme, Naxos, Chios.

انظر: Gratien, op.cit.

(3) Benoist Pierre: **Le Père Joseph…**, op.cit, p107.

(4) Guillaume de Vaumas: **Lettres et documents du Père Joseph de Paris, concernant les missions étrangères, (1619-1639)**, éd., imprimerie Expresse, Lyon, 1942, pp19-22.

نظام تحالفاتها في إطار منح رسائل صلح لأمراء المناطق أو إمكانية التعايش مع السكان الأصليين حتى يحافظون على سمعة الملك.

فمثلاً الأب باسيفيك تمكن بفضل سخاء عباس الأول من تأسيس جماعتين أو ديرين في أصفهان وكسبيان، ومنح مهمة ربط علاقة مع الشاه باسم ملك فرنسا، وبذلك تحولت البعثة الكابوشية إلى بعثة دبلوماسية تخدم مصالح فرنسا ومصالح الملك لويس 19[1].

وهنا نلاحظ تغير التوجه من حماية الكاثوليكية والمسيحية العالمية إلى حماية مصالح الملك وأصبحت أهم مهمة لدى البعثات الكابوشية المستقرة في الأقطار التابعة للدولة العثماينة، كما منح الملك خلال القرن 17م حق حماية المسيحيين في العالم، ما حرك القوى الأوروبية ضدّه، فوجب على فرنسا إيجاد توازن أوروبي نظرًا للصراعات التي كانت خلال هذه المرحلة في أوروبا، وسمحت سياسة الإرساليات بترك الباب مفتوح أمام إمكانية إعانة السيد، دون التخلي عن حلم الوحدة المسيحية أو مكانة المملكة في وسط الدول التي هي بصدد التكوين.

وبذلك ابتعد الأب جوزيف عن فكرة الحروب الصليبية نحو فكرة ملك قوي يمثل روح المجتمع وأعلى هيئة سياسية أو إدارية على الأرض، وهنا ازدواج بين المهام الأرضي والسماوي في شخص الملك[2].

وخلال هذه المرحلة من الحركة الفكرية والتطور الصناعي الذي عرفته أوروبا، وما كان يسمى بالنهضة الأوروبية وعرفت خلال القرن17م و 18م حركة للأفكار سمي العصر بعصر التنوير، حملت فيه أوروبا وفرنسا خاصة شعار التحضر وحملت مهمة تحضير الشعوب على عاتقها وحاولت نشر هذه الأكذوبة بين الرأي العام العالمي.

فانتشر اعتقاد أن أوروبا المسيحية تحاول أن تنشر التطور والتحضر عن طريق إرسال العديد من البعثات والإرساليات في مختلف ربوع العالم، وخاصة المناطق التابعة للدولة العثمانية، وأن احتكاك مجتمعات هذه المناطق بالإرساليات والبعثات سيمكنها من تحقيق الارتقاء إلى الدول الراقية المتطورة[3]. ولكن هذه الشعارات كانت من أجل التغلغل

---

(1) Guillaume de Vaumas: **Lettres et documents du Père Joseph de Paris**, op.cit, pp19-22.

(2) نفس المصدر السابق، ص ص121-126.

(3) جورج ساطور: **الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط**، مرجع سابق، ص ص53-62.

داخل أقطار العالم الإسلامي والسيطرة عليه، وبما أن هذه الأقطار كانت كلها تحت حماية الدولة العثمانية، ونظرًا للسياسة التي تبنتها الدولة العثمانية ضد الإرساليات والبعثات والتي كانت تتميز بالتشدد أو الرقابة على أبسط تصرفاتهم[1]، جعلت عملهم مشتت وصعب وغير كامل، ورغم إمكانية الإرساليات التنصيرية من فتح مدارس أو معاهد بدعم من حكوماتهم، إلا أن الدولة العثمانية كانت تقوم بإغلاقها ومنع المنصرين من النشاط[2]، وذلك لسبب بسيط هو أن الإرساليات أظهرت نواياها منذ البداية في مناطق المشرق الإسلامي، وما عملت جاهدة من أجل تحقيقه في سوريا ولبنان وغيرها من المناطق، وذلك لأن فرنسا اعتبرت نفسها حامية للمسيحيين والمسيحية في العالم والشرق، كتقديمها كل المساعدات والإمدادات والحماية للموارنة في لبنان مثلاً[3].

تمكّنت هذه الجماعات من تدعيم السياسة الفرنسية في المنطقة تحت غطاء ديني، فاستطاعت من تحقيق علاقات تجارية وتنصيرية بين لبنان وفرنسا، حيث بعثت بقناصلها للتفاوض وأسست مكاتب ثابتةكما حاولت فرنسا جاهدة بضم لبنان، حيث أرسلت أسطولاً متكونًا من 15 سفينة إلى السواحل اللبنانية، إلاّ أن مسلمي ودروز المنطقة اتحدوا وحاربوها حتى طردوها، ولهذا تيقنت فرنسا أن ميدان التنصير أنجح لتطبيق مصالحها وأهدافها[4].

ونظرا لتشدّد الدولة العثمانية مع إرساليات ورجال الدين داخل الأقطار التابعة لها، وذلك لأنها كانت متخوفة من المنصرين المتواجدين في مناطق نفوذها، ذلك أن المنصر يسبق الجيش، ولهذا شددت الرقابة عليهم في كل العالم الإسلامي، ووضعت لهم عدة عراقيل، متيقنة أنهم يعملون لصالح حكوماتهم حتى أصبح التنصير في البلاد الإسلامية شبه مستحيل، لكن رغم كل ما قامت به الدولة العثمانية لم تتمكن من تطبيق سياسة علانية اتجاه المنصرين، وذلك بسبب نشاطهم التنصيري الخفي والسّري[5]، كما أصبح المنصرون يلجئون إلى قناصلهم لطلب الحماية كلّما شددت عليهم الحراسة، ورغم كل هذه السياسة الحريصة للدولة العثمانية، إلاّ أن العالم الغربي المسيحي وخاصة فرنسا لم تتوقف من إرسال

---

(1) مصطفى خالدي عمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص128.

(2) أحمد عبد الوهاب، **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص163.

(3) مصطفى خالدي وعمر فروخ: المرجع السابق، ص129.

(4) طلال عترسي، **البعثات اليسوعية**، مرجع سابق، ص31.

(5) عثمان عكاك: **التبشير والتخطيط التبشيري**، الملتقى السابع للتعريف على الفكر الإسلامي، المجلد الثالث، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، 1975، ص ص73-75.

البعثات التنصيرية والاهتمام بالإرساليات التي كانت موجودة في المشرق منذ القرن 13م وتواصلت إلى غاية القرن 19م، وكانت على يد رهبان الدومينيكان، والفرنسيسكان وغيرهم، ورغم أنهم كانوا مضطهدين من قبل فرنسا داخل فرنسا، إلاّ أن فرنسا لم تخرج هذا الاضطهاد خارج حدودها لأنه لا يخدم سياستها الخارجية، بل عكس ذلك منحت رجال الدين الهيبة والحماية الخاصة التابعة للدولة العثمانية بالخصوص[1]، فكان الباب الذي استخدمته دول الغرب المسيحي للدخول إلى المشرق الإسلامي وممارسة نشاطها التنصيري، وبقيت عين العثمانيين تراقب عملها عن قرب[2].

وكان الهدف من النشاط التنصيري في المشرق الإسلامي هو تغيير عقائد الشعوب في الشرق الأدنى، وقد وضعت خطط مختلفة للوصول إلى النفوس في هذه الأقاليم التابعة للدولة العثمانية، من مسلمين، ومسيحيين وحتى اليهود إذا أمكن، من أجل الاستقرار والسيطرة على المنطقة[3]، وأهم حليف لها هي الكنيسة الأرمينية التي تكون الوسيلة لتنصير غربي آسيا ومن ثم التقدم نحو إيران، العراق، سوريا، فلسطين، وآسيا الصغرى، وإن سارت الأمور حسب تصورهم تتمكن الكنيسة المسيحية الكاثوليكية، ودون حروب أن تسترجع تلك المناطق[4]، كما بدأ النشاط التنصيري في القدس بالاهتمام بالعناية الطبية، والتي يمكن إرجاع أصولها إلى الحروب الصليبية وكل الجماعات التي تأسست هناك، والتي كان مهامها تقديم الإسعافات الأولية والأكل واللباس والمأوى للجنود الصليبيين، وبعد نهاية الحرب الصليبية لم يغادر بعض هؤلاء الرهبان والراهبات المنطقة وبقوا في الأديرة، يمارسون شعائرهم في الظاهر، ويستقبلون رجال الدين والمستشرقين الذين يزورون المنطقة، وكذا الحجاج من المسيحيين المتوجهين نحو المناطق المقدسة وذلك إلى غاية عام 1824م[5].

وخلال هذه الفترة لم تتمكن الإرساليات التخلص من رقابة وتشدّد الدولة العثمانية حتى القرن التاسع عشر، أي مع التغيرات السياسية، والفكرية، وميلاد أنظمة جديدة

(1) أحمد عبد الوهاب، **حقيقة التبشير...**، مرجع سابق، ص162.

(2) مصطفى خالدي عمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص130.

(3) زينب عبد العزيز: **مؤامرة الفاتيكان على الإسلام**، دار الحرية، مصر، 2006، ص35.

(4) Bombassei Giorgior: **L'empire d'occident veut remodeler le moyen orient à son image et ressemblance**, Paris, 2003, p24.

(5) جميل مدبك: **موسوعة الأديان**، مرجع سابق، ص45.

كالرأسمالية، فتخرج هذه الدول لمواجهة الدولة العثمانية[1]، كانت قد وصلت بفضل توسعاتها إلى مشارف فيينا، وأصبحت حامية للإسلام والمسلمين عبر القارات الثلاثة، وبالتالي أصبحت الخيرات الباطنية لهذه المناطق تابعة لها، بينما كان العالم الغربي وفرنسا خاصة في أمس الحاجة إليه خاصة مع كل التحولات الاقتصادية من ثورة صناعية، وتطور النظام الميركانتيلي إلى الرأسمالية، فاهتمت القوى الاستعمارية أكثر بالدولة العثمانية وأصبحت مهمة تمزيق الوحدة العثمانية، أهم أهداف الدول الاستعمارية[2]، وكانت هذه الإرساليات والبعثات بمثابة حرب هادئة على كل تجمع إسلامي كبيرًا كان أم صغيرًا، فابتداءً من القرن 19م التحقت بالمناطق التابعة للدولة العثمانية أي المشرق الإسلامي، جماعات أخرى كالعزريون والكبوشيون والأغسطنيون، وغيرهم، كما كان هناك أشخاص لم يكونوا منصّرين رسميًا ولكنهم تلقوا تعليمهم في مدارس رهبانية وعند اليسوعيين، وكانوا يعرفون باليسوعيين ذوي الملابس القصيرة، كما كان هناك راهبات يعلنون أنهم وهبوا أنفسهم لخدمة المرضى والفقراء والمساكين وتعليم الأميين ظاهرا، ولكن هم في الحقيقة مجندين ويمثلون الفرع النسوي للتنصير، فهن لسن راهبات أو معلمات وإنما راهبات منصرات[3].

ولم تَقِل البعثات التنصيرية إلى المشرق الإسلامي ولم تتوقف، وإنما تواصلت واستمرت، من أجل تأسيس حلقة مركزية لرجال الدين الشرقيين في كل أنحاء العالم الإسلامي الذي كان تحت راية الدولة العثمانية، والتي كانت تقوم بتأسيس مدارس ونظام تعليمي مستلهم من الثقافة الغربية المسيحية[4]، وكل هذا من أجل الوصول لتحقيق أهدافها وغاياتها، وهي تحطيم هذه الوحدة العالمية آنذاك، وتحريض على الحركات الاستقلالية ابتداءً من الدويلات التابعة للدولة العثمانية في أوروبا، فكانت البداية من صربيا واليونان لتليهم رومانيا، كما تمكّنوا من إبقاء مصر كقوة عسكرية في عهد محمد علي خارج وصاية العثمانيين وذلك من أجل ترسيخ سياسة فرّق تسد[5]، وكانوا في استعداد للسيطرة على

---

(1) مصطفى خالدي عمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص131.

(2) Bombassei Giorgior: **L’empire…**, p27.

(3) عبد الجليل شلبي: **الإرساليات التبشيرية، بحث في نشأة التبشير وتطوره وأشهر الإرساليات التبشيرية ومناهجها**، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص ص114-110.

(4) نفسه، ص115.

(5) نفسه، ص115.

سوريا في 1831م، فباستيلاء محمد علي على سوريا ونظرا لسياسته المتسامحة مع الإرساليات، رأت أوروبا أنها الفرصة لتطبيق مشاريعها(1).

كما أسس قريقوار (Gregoire XVI) في 1832م بعثة بابوية في بلاد ما بين النهرين وكردستان وأرمينيا الصغرى ثم اليونان وتركيا بعد سنتين، أي في 1834م، والبعثة الثالثة إلى مصر والجزيرة العربية في 1839م(2)، كما وصل من باريس حوالي 17 مبعوث عازاريًا إلى القسطنطينية ما بين 1830م و 1835م، فقاموا بإعادة افتتاح مدارسهم المغلقة منذ 1812م، ومدارسهم في أزمير وفي عينطورة مقر اليسوعيين سابقًا(3).

فيتجلى لنا بوضوح أهمية البعثات والإرساليات التنصيرية لدى القوى الاستعمارية الجديدة، فعندما أرادت دول الغرب المسيحي التخلص من إبراهيم باشا، وطرده من سوريا بالقوة، وذلك عن طريق ضرب بيروت من البحر، أرسلت دول القوى الاستعمارية سفينة صغيرة حربية اسمها "سيان" حملت كل المنصرين إلى قبرص وأرجعتهم بعد نهاية العملية العسكرية(4).

كما وصلت إلى بيروت عام 1847م أخوات المحبة وفتحت مركزًا للتربية في القسطنطينية قبل ذلك، لتلحقها أخوات مار يوسف، ووصل الدومينيكان إلى الكردستان لتلبية حاجة البعثات لدى النساطرة واليعاقبة، في تلك المنطقة، ووصل الكبوشيون إلى ديار بكر وأقاموا هناك عام 1850م بين السوريين والأرمن والأرثوذكس(5). فتبيّن باستمرار أهمية المنصرين من أجل تجسيد النفوذ الأجنبي في الدولة العثمانية حتى أصحبت الدول الأوروبية تتسابق من أجل تمركز منصريها في نفوذها أو المناطق التي تريد السيطرة عليها، وخاصة بين القوتين الاستعماريتين فرنسا وإنجلترا، التي احتدم الصراع بينهما، وكانت لبريطانيا عدة محاولات لدخول المشرق عبر لبنان والسيطرة عليه عن طريق إرسالياتها التنصيرية، وبالموازاة انتشر في المنطقة المنصرين الفرنسيين الذين تجولوا بين القرى المارونية، طالبين من السكان حمل الأعلام الفرنسية التي جاءت لمحاربة إبراهيم باشا(6).

---

(1) طلال عترسي، **البعثات اليسوعية...**، مرجع سابق، ص35.

(2) Primo J. L. François: **Histoire universelle des missions catholique**, Tom 2, Paris, 1958, éd., Libraire Grund, pp25-32.

(3) نفس المرجع السابق، ص33.

(4) مصطفى خالدي عمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص131.

(5) طلال عترسي: المرجع السابق، ص35.

(6) من بين ما قامت به بريطانيا هو تحريض الشعب ضد إبراهيم باشا وأرسلت كاهن إلى لبنان والذين حاول زرع الشقاق بين الأهالي، وعد البطريرك بمساعدة بريطانيا لإعلان لبنان إمارة مارونية مقابل مساعدة الموارنة لها، كما أكدت على صداقة وعطفها على الدروز. للمزيد أنظر: مصطفى خالدي وعمر فروخ، نفس المرجع السابق، ص128.

وكانت سياسة فرق تسد هي التي يتم الاستناد عليها لأن نتائجها مضمونة، وهي أسهل وسيلة للدوام، وبالتالي إثارة الفتن الدينية عن طريق جواسيسها وعلمائها ومنصريها، ولكن بمجرد انسحاب إبراهيم باشا من سوريا، عادت السياسة للدولة العثمانية اتجاه الإرساليات والمنصرين. ففي 1860م اندلعت فتنة بين الدروز المحميين من طرف إنجلترا والمارونيين المحميين من طرف فرنسا، والتي أسالت دماءً كثيرة، زعزعت العالم، وتمكّنت الإرساليات خلالها من جمع إعانات كبيرة باسمها، واستعملتها من أجل التنصير[1]. كما فتحت مدرسة في لبنان لأطفال الدروز في عام 1857م[2].

دون أن ننسى الآباء البيض واستقرارهم في الشرق الأوسط من أجل إدارة مؤسسة القديسة آن، وبما أنه كانت أراضي الشرق الأوسط تابعة للدولة العثمانية خلال القرن 19م، وكانت القوى الغربية ممثلة هناك عن طريق سفرائها أو قناصلها والذين كانوا يضمنوا حماية جالية بلدانهم وحماية مصالحا التجارية أو أخرى في مختلف المناطق التابعة للدولة العثمانية، وكانت معظم الأقليات المسيحية والتجمعات الدينية الموجودة في المنطقة تضع نفسها أو تطلب حماية السفراء وقناصل الدول المسيحية[3]، وعندما تحسّنت العلاقة بين الدولة العثمانية وفرنسا، فوضعت الدولة العثمانية سفراء فرنسا في الواجهة ومنحت في عام 1856م لفرنسا حق امتلاك كنيسة سان آن (Saint-Anne) في القدس والأراضي المجاورة لها[4].

تولت فرنسا مسؤولية ترميم الكاتدرائية، وانتهت الأشغال في حوالي سنة 1875م، وبحثت عن جماعة دينية يمكن إسناد لها مهمة إدارة هذه المؤسسة، وهنا جاء اسم لافجري، والذي كان قد أسس جماعة الآباء البيض وبدءوا نشاطهم في إفريقيا جنوب

---

(1) طلال عترسي، **البعثات اليسوعية...**، مرجع سابق، ص40.

(2) نفسه.

(3) Jean-Claude Geillier: **Histoire des missionnaires**, op.cit, p153.

(4) « … Le conseil s'est réuni sous la présidence du T. R. P. Deguerry, Etaient Présents les P. P. Charbonnier, Livinhac, Toulotte, Bridoux et lévesque, Le T. R. P. à fait par au conseil de la proposition qui vient d'être faite à Monseigneur de donner au missionnaires l'Eglise de Ste Anne à Jérusalem… fait par le gouvernement Française les P. P. Charbonnier, Livinhac, Toulotte, Bridoux et Lévesque sont d'avis qu'une pareille acceptation nous détourne du bute de notre œuvre qui est exclusivement l'évangélisation de l'Afrique…», in, Jean-Claude Geillier: **Histoire des missionnaires…**, op.cit, p151.

الصحراء، اقترحت عليه الحكومة الفرنسية إدارة هذه المؤسسة، ووقعا على اتفاقية جاء فيها بند ركزت عليه فرنسا، وهو ضرورة بناء مدرسة لتعليم الرهبان ورجال الدين، ووعدت أنها ستعطي منح للطلبة، فنلاحظ هنا مدى أهمية المدرسة وتعليم وتكوين رجال الدين وفق برنامج معين، وذلك من أجل تحقيق هدف معين عن طريق نشاط هؤلاء المنصرين[1]، ووراء رغبة لافجري في الاطلاع على الأوضاع في المنطقة انطلق بنفسه، وهناك حرر وثيقة عنوانها: "تاريخ مؤسسة القديسة آن في القدس"[2].

وخصص الجزء الأول منها لتاريخ المؤسسة أو الكاتيدرالية التي تعود إلى ملايين السنين وكيف منحت للفرنسيين، ثم وصلت إدارتها للآباء البيض، كما بيّن من خلالها سبب قبوله هذه المهمة ورغبته القديمة للوصول إلى القدس والانطلاق منه إلى كامل أنحاء العالم الإسلامي، وربما استرجاع الأراضي المقدسة، ثم يتكلم على المدرسة التي ستؤسس والتي سيعلم فيها ما بين 6 إلى 12 رجل دين، كما أكد لافجري من خلال هذه الوثيقة ضرورة تعلم لغات الشرق القديمة واللغة العربية، ثم ينتقل إلى المعاملة والصورة التي يجب أن يظهرها الآباء البيض اتجاه مسيحيي المشرق، والمسلمين وضرورة ربط علاقة الصداقة مع الأئمة ورجال الدين الشرقيين[3].

أما الجزء الأخير نجده أكثر أهمية لأنه يتكلم على الجانب المعنوي للإرسالية، أنهم يقومون بدراسة وتحضير الأرضي لكل الجمعيات والإرساليات التي تتمكن من استقرارها هناك في وقت لاحق، وهنا تتضح من خلال هذا الجزء النوايا الحقيقية لفرنسا عن طريق لافجري في المنطقة[4].

«... من المستحيل القول الآن ما هو مصير ذه المؤسسة ولكن من المؤكد أنها موجودة على أراضي مقدسة، ستكون فيها العديد من الإرساليات والمؤسسات بما أنها موجودة على أرض مقدسة الكنيسة الشرقية وأمام النشاط المحمدي...»[5].

---

(1) Jean-Claude Geillier: **Histoire des missionnaires…**, op.cit, p153.

(2) نفس المرجع السابق، ص153.

(3) Historique de la fondation de l'Etablissement de Sainte-Anne de Jérusalem.

(4) Renault François: **Le Cardinal Lavigerie, (1825-1892)**, L'Eglise, La France, ed Fayard, Paris, 1992, p333.

(5) « … Il est un possible de dire des maintenant ce à quoi Dieu destine dans l'avenir la fondation de DT Anne, ce qui est évident, c'est qu'elle est placée sur un terrain ou les œuvres seront, à un jour peut être prochain, très grandes et très efficaces, puisqu'elle est établi dans le centre religieux le plus important à certains égards, de tous l'univers en présence du schisme oriental et de l'action Mohametane… ».

نفسه، ص159.

وعليه يبدو أنه لا يهم مصير الجماعة المنصرة نفسها، وما يمكن أن تقوم أو لا تقوم به، ولكن التركيز كان على أهم نقطة، وهي التواجد فوق المناطق المقدسة، ما يبيّن بوضوح أهمية هذه المناطق للغرب المسيحي، كذلك تأكدهم أنه حتى وإن لم تقم تحقق هذه الإرسالية المراد، ستبقى منطقة ستكون قبلة الجماعات والإرساليات الدينية دون انقطاع وعلى مرّ السنين، فأصبح لا يهم من هي الجماعة ولكن المهم تواجدها في المناطق المقدسة وبجوار المسلمين يراقبون المسلم ونشاطه ويحتكون به من أجل تطبيق المخططات، والدليل وصول اليسوعيين إلى القاهرة لافتتاح حلقة دراسية صغيرة للأقباط سنة 1979م[1].

فاليسوعيون كانت لهم مكانة كبيرة في الأقطار المشرق الإسلامي، وذلك بسبب تأييد الحكومة الفرنسية لهم وخاصة البابوية، فالسؤال كيف أن فرنسا عدوة اليسوعيين داخل بلادها، هي أحسن سند ومؤيدها داخل مستعمراتها أو المناطق المراد استعمارها، حيث كانوا بمثابة عمال لديها ودعامة اجتماعية لآرائها[2]، كان اليسوعيين قبل الانتداب أو الاستعمار يفتحون مدارس وعندما تنتهي مواردهم المالية يضطرون لغلقها، ولكن بعد الانتداب منحت فرنسا لهم الجيوش والرجال لخدمتهم، حتى أصبحت المدارس تعمل بتوافق مع الاستعمار، وتعمل جاهدة على تحقيق المخططات الاستعمارية في المنطقة[3]، حيث أن اليسوعيين يعتبرون أنفسهم دائمًا، ورثة الصليبيين، ويعترفون بذلك علانية أنهم عادوا تحت راية الصليب لاستئناف التسرب التنصيري والتمدين المسيحي، ولإعادة فكرة "مملكة المسيح" في ظلّ العلم الفرنسي وباسم الكنيسة[4].

وهنا يقول الأب شانتور: «... ويأتي المنصر تحت علم الصليب... يحلم بالماضي وينظر إلى المستقبل، وهو يصغي إلى الريح التي تصفر من بعيد من الشواطئ الفرنسية، ولن يتمكن أحد من منع تلك الريح التي تصفر من بعيد من الشواطئ الرومية والشواطئ الفرنسية، ولا أحد يستطيع أن يمنع تلك الريح أن تعيد على آذاننا قولها بالأمس وصرخة أسلافنا الصليبيين من قبل إن الله يريدها...»[5].

---

(1) Charles H. S. J.: **Jésuites missionnaire Syrie, proche orient**, Paris, 1929, p….

(2) مصطفى خالدي عمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص129.

(3) نفسه، ص129.

(4) **Du Mesnil Du Buisson conte: Les jésuites en Syries (1838-1931)**, in Syria Revue d'Art oriental et d'Arch, Tome 13 Fascicule, 1, librairie oriental Paul Geuthner, Paris, 1932, p105.

(5) نفسه، ص107.

ولمحاولة تحليل ما قاله، يظهر أنه يتطرق إلى قدوم المنصر ببذلة دينية، يتكلّم عن حلم الماضي أي بعبارة أوضح غاية وهدف الحروب الصليبية وهي السيطرة على المناطق المقدسة وضرب الإسلام والمسلمين ونظرته للمستقبل، يقصد بها تواصل وامتداد الفكر الصليبي الذي كان عليه الغرب ولا يزال، وهذا ما يقصد بالريح التي تأتي من الشواطئ الرومانية والفرنسية خاصة، وأن خططهم والتي تتمثل أولا وقبل كل شيء في خلق المشاكل والفتن في العالم الإسلامي، حتى وإن كانت هذه الفتن بين المسيحيين أنفسهم المهم أن تبقى هذه البؤرة من العالم في حالة عدم استقرار وعدم السلم والأمن، وإن خطر اليسوعيين معروف في العالم، حيث كانت للدول الأوروبية موعد معهم عدة مرات، لأنهم متميزين في حياكة المؤامرات، حيث أقاموا الكثير من الفساد السياسي والدسائس، وقد تفطنت الدول الغربية لكل مؤامراتهم فنجد أن البرتغال طردتهم عدة مرات من بلادها ومن مستعمراتها في حوالي سنة 1757م، نفس الشيء بالنسبة لفرنسا في سنة 1765م، وسنة 1767م، ولكن بقي القليل منهم حاملون اسم "القلب الأقدس"، فأخرجهم نابليون في سنة 1802م. ولكن القليلة الباقية والمتناثرين في كل أنحاء فرنسا وبعض دول الغرب، اجتمعوا من جديد وكونوا كتلة وزاد عددهم لتعود الحكومة الفرنسية لطردهم من جديد في سنة 1820م، ولم تتمكن من القضاء عليهم نهائيًا حتى في سنة 1835م ونفس السيناريو عاشته معظم دول أوروبا مع اليسوعيين وهذا التصميم والعمل جاهدةً من أجل القضاء عليهم في بلدانهم، فنرى مثلاً فرنسا لم تتمكن من النهوض والرقي إلاّ بعد أن وضعت اليسوعيين خارج حدودها ليس فقط بل حاربتهم، ونجدها بالموازاة في مستعمراتها والمناطق الإسلامية تشجعها وتساعدها وتمنحها المال والرجال من أجل تطبيق غايتها التنصيرية[1].

حتى أصبح يعتبر اليسوعيين في المناطق الاستعمارية والمقاطعات الإسلامية التابعة للدولة العثمانية، أن كل تعدي على فرنسا هو تعدي على البابا نفسه وهي نفس فرنسا التي حاربتهم، ولكن تغلبت المصالح للطرفين، فرنسا مصلحتها في استقرارهم في المنطقة والعمل على تحقيق مصالحها، واليسوعيين يحصلون على الحماية والمال والإعانات بأنواعها من طرف فرنسا، وكان عملهم سرّي إلى أن استقرت فرنسا في المنطقة[2] «... لقد كنا

---

(1) Gretineau Joly Jacques: **Histoire religieuse, politique et littéraire de la compagnie de Jésus**, T2, Hachette Livre, Paris, 1851, T2, p65.

(2) Conte, Du Mesnil Du Buisson: **Les jésuites en Syries**, op.cit, p106.

نعتمد على فرنسا والآن فهي هنا...»[1]. ولا يجب أن نجهل أن اليسوعيين لا يزالون في لبنان إلى اليوم قوة واحدة تقف ضد كل تغيير أو إصلاح في البرامج التعليمية، فقد فتح الكابوشيون سنة 1881م حلقة دراسية لجميع الفرق، وافتتحت حلقة سريانية كلدانية، للدومينيكان في الموصل عام 1882م، ونفس الشيء بالنسبة لهم[2].

وهذا التوسع الهائل لهذه البعثات كان بسبب حماية القوى الاستعمارية، وهذا ما ميز الحركة التنصيرية خلال هذه الفترة، والتي كانت موازية للحركة الاستعمارية الكبرى، وغالبًا ما تكون سابقة لها لتمهد الطريق، فإن التنصير والسياسة متكاملين إلى حدٍّ كبير، فالأولى تحتاج للسياسيين من أجل أن يساندوها ويحمونها، وهي في المقابل تحضر الأرضية وتهيؤها من أجل أن يتمكن السياسيون من تطبيق مخططاتهم الاستعمارية في مناطق نفوذهم، كما قامت فرنسا بحماية الإرساليات التنصيرية في الشرق، رغم اضطهادها في فرنسا نفسها، وتزايد هذا الاهتمام كلما زاد اهتمام إنجلترا بالشرق، خاصة عندما أصبح شرقي آسيا محورين رئيسيين للثروة البريطانية، وحاولت جعل من سوريا طريق رئيسي للهند، فأرسلت منصريها من أجل غرس الشقاق بين الأمة الواحدة. ولعل أول راهب إنجليزي وصل المنطقة كان في سنة 1839م وهو كاهن إيرلندي اسمه "وود"، وهي فترة متأخرة مقارنة برجال الدين الفرنسيين الذين كانوا سباقين في المنطقة، وقد ادّعى هذا الراهب أنه التحق بالمنطقة من أجل تعلم اللغة العربية[3].

كما وعد الإنجليز البطريرك بمساعدته على إقامة دولة مارونية من منطقة لبنان على أن يبقى ولاؤهم لها، كما أكدت في نفس الوقت ولاءها للدروز وتعاطفهم معهم، ولم يكن الراهب "وود" وحده الإنجليزي الذي انتقل إلى المنطقة، بل العديد استقروا بعده في المشرق وكان هدفهم الوحيد كسب ثقة الشعب وإثارة الفتن والعصبية والطائفية، وقابلهم رجال الدين الفرنسيين بنفس العمل، من أجل فتح المجال أمامهم للدخول إلى المنطقة[4].

وبذلك لو كان التنصير هو عمل خير ديني وروحي أولاً وقبل كل شيء لما ظهر الصراع بين الإرساليات والبعثات التنصيرية نفسها، وما تنافست الطوائف المسيحية تحت حماية الدول الاستعمارية، فيما بينها، ولما حاولت كل قوة استعمارية نشر عبر نشاط

---

(1) Du Mersnil du Buisson: **Les jésuites,** op.cit, p106.

(2) زين الزين: **الصراع الدولي**، مرجع سابق، ص...

(3) Hadjjar Joseph: **L'Europe et les destinées du proche orient (1815-1848)**, Belgique, 1970, p120.

(4) طلال العترسي، نفس المرجع السابق، ص41.

منصريها أفكار وتيارات سياسية تابعة لها، وتطبيق سياستها وربما هذا، ما أدّى إلى انتشار المنصرين في الدول العثمانية ما بين 1840م و 1845م، أي بمجرد ما بدأت علامات الضعف تظهر في الحكم العثماني في المناطق الإسلامية التابعة لها[1]. وكثرة تدخلاتهم من أجل تطبيق السياسة الاستعمارية، ففي عام 1858م حطت سفينة حربية قرب ميناء طرابلس وباعت السلاح لأهل طرابلس، فاشتروا حوالي خمسمائة بندقية، ولما وصل الخبر إلى بيروت، أرسلت الحكومة جيشًا لحماية المدينة من أية هجوم متوقع، بينما كانت إنجلترا تسلّح الدروز[2].

وذلك عندما تعذّر على المنصرين الوصول إلى داخل المجتمعات الإسلامية في المناطق المشرق، اهتموا بخلق الفجوة داخل المجتمع المسيحي نفسه، بهدف زرع اضطراب داخل البلاد لا غير، حيث وصل المارونيين إلى منع أي تعامل مع البروتيستان بأمر من الكنيسة المارونية، بل توصل المارونيين بحماية من فرنسا إلى مطاردة كل أهل المذاهب الأخرى، وهنا تظهر نية فرنسا في رغبتها على السيطرة على المنطقة عن طريق المارونيين[3]، وكان هناك منافسة كبيرة بين القوى الاستعمارية خاصة فرنسا وانجلترا، وكان لهما اهتمام كبير بالمناطق التابعة للدولة العثمانية، فكانت كل قوة تحمي منصريها وكانت الحماية أولاً من طرف السلك الدبلوماسي، فنلاحظ حرص دول الغرب على حماية منصريها، خاصة فرنسا، ولمسنا ذلك في العديد من الحالات والمواقف أين تدخلت لدى الحكومة من أجل حماية منصريها ونشاطهم[4].

وظهر ذلك عندما حاول بعض حكام الأقطار العربية التابعة للدولة العثمانية من غلق مدارس المنصرين، فمثلاً لما تولّى الخديوي إسماعيل باشا الحكم في مصر خلفًا للخديوي سعيد باشا والذي كان له شخصية ضعيفة، وقد حظي المنصرين في عهده بكل التسهيلات ولم يسمح لأحد أن يمسهم بسوء ولم يكتفِ بذلك بل منحهم أراضي غالية وإستراتيجية من أجل الاستقرار، بينما الخديوي إسماعيل كان ذو شخصية قوية، فضايق الخناق على المنصرين وحاول وضع حدّ للتواجد الفرنسي في مصر، وكان يرى في المدارس المسيحية والمنصرين أنهم يعملون من أجل التدخل في السياسة الداخلية للبلاد،

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص153.

(2) نفسه، ص153.

(3) نفسه.

(4) مصطفى خالدي عمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص133.

ويغذون الفتن، من خلال امتياز حماية المسيحيين[1]، ففرنسا عملت جاهدة على احتفاظ منصريها بامتيازاتهم وأهمها هو أن يقيموا أين شاءوا، وكذا حق عدم دفع الضرائب لأنهم أجانب، فكانوا معفيين من دفع الضرائب على البضائع والسلع التي يستوردونها من أجل أعمال البرّ والإحسان، إلاّ أن المنصرين أصبحوا يستوردون السلع ويعيدون بيعها إما للتجار، إما يقوم التجار ببيعها لصالحهم، ما دفع بدول الغرب إلى التدخل أكثر لحماية المنصرين الذين أصبحوا حاملين لبضائعها وتجارتها وآرائها وثقافتها[2]، كونت أشخاص يكنّون لها الولاء بعد سنين من العمل التنصيري السرّي، من تكوين الأفراد داخل مدارسها الدينية وغرس لديهم أفكارها وثقافتها، تجعلهم يخدمون مصالحها، ربما أكثر من رجل الدين نفسه، ما يحقق لها تبعية سياسية وعسكرية وفي بعض الأحيان دينية، وتتمكن من استعمالهم من أجل تسيير الشؤون الداخلية[3].

وحاولت الدول الغربية من خلال أعمال رجال الدين، توهيم هذه الشعوب أنها جاءت أو أرسلت بعثتها من اجل رسالتها التحضيرية للعالم ونشر العلم والثقافة عن طريق تعاليم المسيحية، أي كل ما سيفتح الأبواب أمامها لضرب قوة المسلمين من الداخل، بالاستعانة بالأقليات عن طريق تغذيته بكل الأفكار الانفصالية والتحررية ضد التواجد العثماني، وكل هذا من أجل ضرب الأمن والاستقرار الداخلي ما يسمح لهم بحماية المسيحيين داخل المناطق الإسلامية، ويمنحهم شرعية عالمية تمكنهم باستعمال جيوش داخل وحدة سياسية، وكل هذا من أجل السيطرة على هذه المناطق من أجل استنزافها ماديًا ومعنويًا، أي على كل الخيرات المادية التي تتمتع بها المنطقة والمعنوية هي القوة الشبابية الهائلة لدى المجتمعات الإسلامية.

ولهذا السبب كان للمنصرين عدة محاولات لتمهيد الطريق للقوى الاستعمارية، ومساعدتها على السيطرة على بعض المناطق الإستراتيجية كالإطلالات البحرية داخل الدولة العثمانية أو التابعة لها، ولكن لم تتمكن القوى الاستعمارية السيطرة الفعلية على هذه المناطق، والتدخل الفعلي في الشؤون الداخلية لها مادامت الأمور هادئة، حيث كانت

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص153.

(2) شوقي أبو خليل: **أضواء على المستشرقين والمبشرين**، طرابلس، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، 1991م، ص25.

(3) مصطفى خالدي عمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص134.

الدولة العثمانية متشددة مع المنصرين ورجال الذين وكانت تحدّد وتمنع نشاطهم في بعض الأحيان، كبيع الأناجيل في الطرقات وغلق بعض المدارس خاصة تلك التي تفتح دون ترخيص من الدولة العثمانية، وحتى إن رجعت فتحتها فبشروط، وحتى عندما بدأت تفقد أراضيها إلاّ أنها لم تغير سياستها اتجاه التنصير والمنصرين، وهي منع أطفال المنطقة من الالتحاق بالمدارس التنصيرية والإرساليات الأوروبية إلاّ بعد أن يتم تعليمهم الابتدائي في مدارس الدولة أو الوطنية حتى يضمن على الأقل 12 سنة من التعليم وفق تعاليم الدين الإسلامي، كما منعت أن يكون التعليم الديني المسيحي للمسلمين وإنما يكون مقتصرًا على الطلبة المسيحيين وحدهم[1].

ومع ضعف قوة العثمانيين المتزايد تمكنت دول الغرب من تقديم دعم أكبر لمنصريها، كما أصبح المنصرون يطالبون علانية بتدعيم حكوماتهم لهم رغم أن هذا كان ممنوعًا دوليًا وفق مبدأ منرو[2]، والذي ضُرِب عرض الحائط من أجل تحقيق مخططاتهم التنصيرية، وكانت دول الغرب في كل مرة تضغط على الدولة العثمانية، مطالبة إياها التقيد "بالخط الهاميوني"[3] أي الدستور العثماني، والذي ينص على حرية ممارسة الأديان، ولكن هذا الدستور لم يكن ينص في أية حال من الأحوال بمنح حق ممارسة التنصير أو خلق فتن بين الطوائف الدينية، ما كانت تقوم به دول الغرب مستعينة بمنصريها من أجل خلق وافتعال فتن واضطرابات في المنطقة حتى تسهل الدخول إليها والسيطرة، وهذا

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص154.

(2) هو بيان أعلنه الرئيس الأمريكي جيمس منرو في رسالته سلمها للكونغرس الأمريكي في 02 ديسمبر 1823م وهو بضمان الاستقلال كل دول نصف الكرة الغربي ضد التدخل الأوربي بغرض اضطهادهم. للمزيد أنظر: عبد العزيز نوال، عبد المجيد النعنعي: **تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية**، دار النهضة العربية، بيروت، 1973، ص130.

(3) هو قانون عثماني وضعه السلطان عبد المجيد الأول، في فبراير 1856م، الغرض منه تنظيم بناء دور العبادة في جميع الولايات التابعة للدولة العثمانية، تطبق على كل الملل والأديان غير الإسلامية، والبنود التي تهمنا في هذه الدراسة هي:

- المساواة بين كل مواطني الدولة العثمانية.
- السلطان هو الوحيد له الحق ترخيص ترميم الكنائس.
- إعفاء الكنائس من كل الضرائب والمصروفات.
- عدم إجبار أي شخص على ترك دينه.
- يكون حق التعيين في مناصب الدولة المدنية والعسكرية للكفاءة دون تمييز في الدين.

للمزيد أنظر: خليل إينالجاك مع دونالد كواترت: **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية**، مجلد 2، ترجمة قاسم عبده قاسم، المدار السلامي، طرابلس 2007، ص491.

ما فعلته فرنسا وانجلترا لما اختلقوا فتنة بين أبناء الوطن الواحد، وكان الدروز محميين من طرف الإنجليز، وفرنسا تحمي الموارنة وتسلحهم إن اقتضى الأمر لذلك، فهنا نرى أن الصراع أو التنافس أساسًا فرنسي – انجليزي في المنطقة والفرق الدينية لم تكن سوى معول لها[1].

وهذه الحرب التي اندلعت في سنة 1860م بين الموارنة والدروز في جبل لبنان وكانت حصيلتها وديان من الدماء، والتي استغلتها قوى الغرب من أجل زعزعة الحكم العثماني من الداخل والذي أصبح من الضروري القضاء عليه، لأنه عمل طيلة فترة حكمه على محاربة رجال الدين والمنصرين ووقف في وجه كل مخططات القوى الاستعمارية[2]، فهذه الأزمات جعلت الدولة العثمانية تهتم بإطفاء نيران الحرب الأهلية التي اشتعلت بداخل أقاليمها، وشغلتها عن ما يحدث في أوروبا وفتحت المجال الأوروبي أمام القوى الاستعمارية لاسترجاع الأراضي الأوروبية من الحكم العثماني بخلق حركات تحررية انفصالية تجعل العثمانيين مفتوحين على عدة جبهات، ولما انتهوا من أوروبا فتحوا أعينهم على الأقاليم التابعة للدولة العثمانية في المناطق العربية الإسلامية[3].

وكانت هذه الفتن أحسن وسيلة استطاعت الدول الأوروبية أن تحقق أهدافها بالتدخل في المنطقة وتطبيق مشروع مترنيخ الذي أتى به في سنة 1848م. ويعتبر مترنيخ من أبرز الشخصيات السياسية المنظرة في القرن التاسع عشر وهو من وضع خريطة أوروبا بعد حروب نابليون ومن هَنْدَسَ لمؤتمر فيينا، اهتم بشكل الحكم الذي يجب أن يكون في منطقة جبل لبنان التابعة للدولة العثمانية، وبطبيعة الحال قدم حل يخدم مصالح الدول الأوروبية ضد مصلحة الدولة العثمانية[4]، حيث قسم جبل لبنان إلى جنوبي إسلامي بحكم الأمير أحمد أرسلان، ومركزه بيت الدين، والشمالي مسيحي تحت حكم حيدر إسماعيل ابن اللمع، ومركزه بكفيا يفصل بينهما الطريق الممتد من بيروت إلى دمشق، أما دير القمر وهو مصدر الفتن والاضطرابات وضع تحت حماية عثمانية، واضطر العثمانيين للقبول[5].

---

(1) مصطفى خالدي عمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص129.

(2) عثمان عكاك: **التبشير والتخطيط**، مرجع سابق، ص ص76-78

(3) Schnerb Robert: **Le XIIème Siècle, l'apogée, de l'expansion européenne (1813-1914)**, 3ème éd., Paris, 1968, pp37-45

(4) كليمنس فون ميونيش (مترنيخ) (1773 – 1859م)، نمساوي، ديبلوماسي وسياسي ويعتبر من أهم شخصيات القرن 19م، وهو من وضع قواعد العمل السياسي التي سارت عليه القوى الكبرى في أوربا بعد حروب نابليون، وهو من وضع تقسيمات أوربا أو الخريطة الأوربية وكان وراء تقسيم منطقة جبل لبنان. للمزيد انظر:

(5) فيليب حتى: **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ج1، مرجع سابق، ص.

والغاية من ذلك هو خلق لبنان طائفي وسط عالم عربي إسلامي، خاصة أن كل المناطق المحاطة بهذه المنطقة تحتوي على طوائف ما يمكن أن يشكل خطر على وحدة العالم الإسلامي[1]، وبالفعل ونتيجة لهذا التقسيم اندلعت فتنة الدروز والموارنة في سنة 1860م، وهذه الفتنة التي كانت أحسن وسيلة لضغط الدول الاستعمارية على الدولة العثمانية، ومتمثلة في السياسة الإصلاحية بعبد المجيد الأول والذي حاول إصلاح الوضع في المنطقة، وإخراجها من المشاكل التي تتخبط فيها، فأقر بإقامة مصرفية لبنان في سنة 1860م مباشرة بعد الفتنة الدموية، وكان هذا القرار تتمة لمشروع مترنيخ، وسارت عليه المنطقة إلى غاية سنة 1918م، أي نهاية الحرب العالمية الأولى، وهذا النظام جعل لبنان منفصلاً من الناحية الإدارية عن باقي بلاد الشام تحت حكم متصرف أجنبي مسيحي عثماني ولكنه غير تركي وغير لبناني، تعينه الدولة العثمانية بموافقة الدول الأوروبية العظمى: فرنسا، إنجلترا، روسيا، بروسيا، وإيطاليا [2].

ومن هنا نرى أن الدول الغربية استغلت هذه الفتنة لتحقيق مصالحها الإيديولوجية والاقتصادية والسياسية، خاصة وأننا إذا تمعنا في هذه المرحلة نجد أنها تميزت بانتشار العلم والثقافة الأوروبية في لبنان أكثر من أي وقت وذلك بسبب انتشار مدارس الإرساليات في جميع القرى والمحافظات، والمدن، وافتتاح جامعتين كبيرتين لا تزال من أكبر جامعات الشرق الأوسط إلى يومنا هذا، الكلية السورية والإنجليزية، وجامعة القديس يوسف[3]، وهذا ما يؤكد فكرة أن هذه الفتنة نسجت من طرف أبرع المهندسين ومن الصعب التفطن إلى الأيادي الخارجية التي حرّكتها وقادتها للوصول إلى غاية دول الغرب المسيحي، وبذلك فإن مشروع الغرب المبني على نظرية مترنيخ لم يكن أن يتحقق لولا عمل المنصرين لمدة قرون في المنطقة، والذي حوّل الصراع في لبنان من صراع إقطاعي بإمكانه أن ينحل بمرور الزمن إلى صراع طائفي عقائدي، من الصعب حلّه، لأنه لم يصبح يخص أهل المنطقة، وإنما يتطلب تدخل الدول الأوروبية الحامية للطوائف الدينية المسيحية والكنسية الممثل والحامي الرسمي لكل المسيحيين[4].

---

(1) عثمان عكاك: **التبشير والتخطيط**، مرجع سابق، ص80.

(2) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص154.

(3) نديم هزاز: **المدارس التنصيرية**، مركز البلقان للدراسات والأبحاث العلمية، استنبول، 1963م، ص19.

(4) ممدوح نصار وأحمد وهبان: **التاريخ الدبلوماسي، العلاقات السياسية بين القوى الكبرى، 1815-1991م**، دار المعارف، القاهرة، ص33.

كما أن هذه الأزمة الدموية كانت نعمة على المسيحيين بموجبها ضمن الغرب المسيحي ممثل لهم في جبل لبنان المسيحي، وبما أن فرنسا كانت قد حصلت على امتياز حماية المسيحيين في المنطقة، فاعتبرت فرنسا منطقة جبل لبنان من نفوذها السياسي والديني، لوصول رهبانها من الجمعيات والبعثات المختلفة إلى المنطقة قبل الآخرين، فرفضت تواجد أية إرسالية أو بعثة دينية غيرها، كما أن الأرميني داود باشا متعاطفاً مع فرنسا ويعمل من أجل إرضائها، فعمل على منح الحرية الكاملة للموارنة على حساب الدروز، وهذا ما شجع فرنسا في أفكارها[1]. وعندما أحست الدولة العثمانية أن المتصرف المسيحي أصبح خطرًا على المنطقة يهدّد أمن دولته فألغته، ما حقق نوع من الهدوء النسبي من عمل المنصرين علنية ولكن تواصل عملهم سرّا، وفي هذه المرحلة جاءت عدة مشاريع من طرف رجال دين وسياسيين من أجل تهجير الموارنة إلى الجزائر التي كانت قد استقرت فيها فرنسا[2].

ثم عاد عمل المنصرين علانية بقوة أكبر ثقة أكثر بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، أي عندما احتلت فرنسا وإنجلترا المناطق العربية وقلصوا التواجد العثماني هناك في المنطقة شرقي البحر الأبيض المتوسط، لكن هذا الاستعمار الثنائي لم يدم، فانسحب الإنجليز نحو الجزء الجنوبي (فلسطين وشرق الأردن) وبقيت فرنسا في سوريا ولبنان، وفتحت الطريق من جديد في وجه المنصرين إلى سوريا واستقروا في حوران وأصبحوا مفوضون من طرف الكاثوليك[3]. ولم تصبح فرنسا الاستعمارية الوحيدة التي ساعدت المنصرين في المنطقة وإنما حتى الحكومة المنتدبة والتي كانت تخدم مصالح فرنسا[4].

وبمساعدة اليسوعيين، عملت فرنسا على تنصير منطقة العلويين، بالقرب من اللاّذقية، وذهبت لدرجة أنها اختلقت دستور، حتى يتم ذلك دون ضجة، فأصدر السيد شوفلر في 02 ماي 1931م، مرسوم تحت رقم 2908، يجعل الانتقال الكاثوليكي يقام في المحكمة بشكل عادي[5]، وكانت سياسة اليسوعيين ظاهرة من خلال مقولتهم يجب أن تكون الإدارة الفرنسية في العلويين تتمة للاحتلال الصليبي[6].

---

(1) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص154.

(2) سركيس أبو زيد: **تهجير...**، مرجع سابق، ص34.

(3) Du Mesnil Du Buisson, op.cit, p92.

(4) نفس المرجع السابق، ص100.

(5) Du Mesnil du Buisson, op.cit, p 101.

(6) طلال عترسي، **البعثات اليسوعية...**، مرجع سابق، ص38.

وهنا بعد نشاط عدة قرون للمنصرين في المنطقة، ظهرت نتائج أعمالهم، ومكنت الدول الأوروبية السيطرة على مناطق الشرق، ورغم سيطرة الغرب المسيحي على المنطقة هذا لم يبعد المنصرين من هذه المناطق ولم يوقف نشاطهم، بل اعتمدت عليهم في إخضاع الشعوب في المناطق المسيطرة عليها خاصة المجتمعات الإسلامية، وذلك لأن المنصرون عاشوا هناك وتعرفوا على سكان المنطقة وعلى عاداتهم وتقاليدهم[1].

ما يمكن استنتاجه أن الدول الأوروبية عملت جاهدة من أجل التخلص من الدولة العثمانية، وبعد إضعافها زاد اهتمام الدول الأوروبية للمناطق التابعة لها، وحاولت التغلغل فيها عن طريق التدخل السياسي في شبه الجزيرة العربية، وحتى بعد السيطرة العسكرية لهذه المناطق ومن المفروض لم يعد أهمية للمنصرين في المنطقة، لكن لم يتخلّى الغرب المسيحي على منصريه بل أصبح الجيش في خدمة المنصر.

حتى أصبح في المنطقة 106 مليون مسلم من مجموع 250 مليون، وكان 106 مليون مسلم تحت سيطرة المسيحيين، الذين وصلوا إلى قناعة، أنه حان الوقت لتغيير دين هؤلاء[2]، فتعاونوا مع كل القوى المعادية للإسلام والمسلمين، فاتحدوا مع اليهود رغم العداء الذي يكنه المسيحيين لليهود منذ البداية، ولكن من أجل القضاء على العدو المشترك وهو الإسلام والمسلمين اتحدوا، فاستعملت طلابها وجواسيسها من أجل نشر دعوة للمطالبة بتأسيس دولة مسيحية في لبنان، ويهودية في فلسطين[3]. وفي هذا السياق أصدر كتاب بعنوان: "لبنان بلد قومي للنصارى" وترجم إلى عدة لغات العالم ووزع على السياسيين اللبنانيين كما تم تقسيم فلسطين بنفس الطريقة، حيث منح الشمال والشرق للعرب، والجنوب والغرب لليهود، ووضعت القدس تحت تسيير أجنبي، وهذا التقسيم لم يكن لا حبًّا في اليهود ولا حبًّا في المسلمين بل خدمة لمصالحهم، وحتى تبقى المنطقة مكان توتر واضطراب[4].

---

(1) مصطفى خالدي عمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص123.

(2) نفسه، ص123.

(3) طلال عترسي، **البعثات اليسوعية...**، مرجع سابق، ص39.

(4) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص160.

كما يمكن أن نضيف ما قاموا به في العراق، قيام طائفة يقال لها الأشوريين والذين لم تكن لهم أية علاقة بالحضارة الآشورية بل هم عنصر دخيل غريب على العراق حاك عليه الاستعمار هذه الأسطورة من أجل استعمالهم لخدمة، مصالحهم الاستعمارية، وعندما تمرّدوا عن الدولة العثمانية أدبتهم ونفتهم من المنطقة، لكن خلال الحرب العالمية الأولى انضموا إلى الجيوش الإنجليزية وأرادوا أن يجعلوا منهم أقلية مسيحية يهددون بها الكيان العثماني، في حقيقة الأمر كان الإنجليز يريدون بالأشوريين ما أرادوا باليهود في فلسطين، وعندما لم يتمكن الإنجليز من استعمالهم، أعارتهم لفرنسا حتى تستعملهم في سوريا، والخطر الذي تشكله هذه الطوائف هو الدعوة للقومية الوطنية[1].

أما أقباط مصر فقد رفضوا التدخل في السياسة، واكتفوا بالاختلاط مع المسلمين، فأصبح هناك تقارب بين الأقلية المسيحية، والأكثرية المسلمة[2]، قد فتحت قوى الغرب بهذا التقارب الظاهر مجالاً للفتن بعيدة المدى، أي حتى تستعملها في وقت لاحق، وكأنها ورقة رابحة تنتظر الدول الغربية الوقت المناسب لإخراجها، ولم يستعملها المستعمر لأغراض سياسية، بل استغلوهم، بعد أن ائتمن المسلمين لهم، ولولائهم، وربما نتائج هذه السياسة هو الوضع الحالي في المشرق الإسلامي.

ما يمكن أن نشير إليه من خلال ما سبق، أن القوى المسيحية كانت في البداية كل واحدة تعتمد على منصريها في تطبيق خططها، ولكن تفطنت مع مرور الزمن أن هذه الخلافات بين المنصرين من مختلف المذاهب لها آثار سلبية على تطبيق مخططاتهم بل تعيق في بعض الأحيان سيرها، فحاولت التنسيق فيما بينها خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، ومن بين من دعى إلى توحيدهم جون هوط[3]، والذي كان يرى أنه يجب عليها أن تتوحد لأن هدفها واحد وهو القضاء على الإسلام والمسلمين والسيطرة على مناطق نفوذه، كما رسم الشخصية التي يجب أن تقودهم، ومن ثم وصل إلى فكرة وجوب أن تكون القيادة جماعية، لأن هناك بين رجال الدين عبقريات تتحدى الحدود القومية[4]، ثم يذهب إلى تمويل هذه الجمعيات، ويعتبر أن أمريكا هي أغنى دولة في العالم، وكأنه يريد أن تكون

---

(1) مصطفى خالدي عمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص130.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

(4) أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير**، مرجع سابق، ص161.

الزعامة الدينية لأمريكا، هو لا يقولها بصريح العبارة ولكن يلمح لها، الشيء الذي لا يمكن لفرنسا الكاثوليكية تقبّله، خاصة وأن العمل أو النشاط التنصيري لدى الفرنسيين يعد عملاً وطنيًا، ومثال على ذلك ما قام به المنصرين من عمل في لبنان من أجل تحبيب فرنسا عندهم، ولن تقبله إنجلترا البروتستانتية، أضف إلى ذلك الأنانية والنظرة الإقليمية جعلت هذه الوحدة نسبية[1]. وذلك أن الجانب الديني لم يكن الدافع الوحيد لحركة هذه الجمعيات الدينية، بل تحركها الأطماع السياسية، ولكن اشتراك العدو وغاية تحطيمه جعلتهم يتعاملون مع بعضهم للوصول إلى الهدف، وكان لهم دور مهم في انهيار الدولة العثمانية، حيث جاء في تقرير أعمال إرسالية تنصيرية في سنة 1900م على لسان رئيسها: «... إن نار الكفاح بين الصليب والهلال لا تتأجج في البلاد النائية ولا في مستعمراتها في آسيا وإفريقيا، بل ستكون في كل المناطق التي يستمد منها الإسلام قوته وينتشر، سواءً أكان إفريقيا أو آسيا، وبما أن كل الشعوب الإسلامية تولي وجهها إلى الأستانة، عاصمة الدولة العثمانية فإن كل المجهودات التي نبذلها لا تأتي بفائدة إذ لم تتوصل إلى القضاء عليها في قلب الإسلام حاليا[2].

فاستغلوا الوضع المتردّي والفساد الذي عم الدولة في أيامها الأخيرة، والتي كانت في بدايتها ذات مواقف حازمة، وكان التنصير بين المسلمين شبه مستحيل.

فأول خطوة اعتبرها المنصرين بداية لانهيار هو إعلان الحرية الدينية في الدولة العثمانية في عام 1907م وإعلان الدستور، والذي كان حدثًا مهمًا وحساسًا عند المنصرين، رأوا فيه الفرصة لنجاح نشاطهم، ويمثل هذا الانقلاب العظيم على الدين للدولة العثمانية، سيساعد على انتشار الكتب المسيحية، ويصبح الفرد حرًّا في تغيير دينه[3].

وبمجرد انهيار الدولة العثمانية، عقدت أمريكا معاهدة في فرنسا في 4 أفريل 1924م وجاءت في مادتها العاشرة[4]: «... إن إشراف الدولة المنتدبة (فرنسا) على الإرساليات الدينية في سوريا ولبنان، يجب أن يقتصر على حفظ الأمن، والإدارة الحسنة وأن أوجه

---

(1) مصطفى خالدي عمر فروخ: **التبشير والاستعمار**، مرجع سابق، ص131.

(2) نفسه، ص ص 139-142.

(3) روجي الخالدي المقدسي: **الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة**، مجلة الهلال، العدد 07، جانفي 1908، ص ص33-52.

(4) محمد سهيل طقوش: **تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة**، ط3، دار النفائس، بيروت، 2013، ص72.

نشاط هذه الإرساليات الدينية، يجب أن لا يعترض سبيله، كما أن رجال هذه الإرساليات يجب أن لا يخضعوا لتدبير يقيّدهم بسبب جنسيتهم، مادام عملهم قاصر على النشاط الديني...»[1]. ما يمكن ملاحظته أن هذه الإرساليات كانت تمارس نشاطها التنصيري دون أن تحتاج لمعاهدة مع فرنسا المنتدبة، وكأن فرنسا استغلت كل الفرص لتحويل الامتيازات الإرسالية المختلفة إلى إرساليات فرنسية.

وفي سنة 1925م استحوذت فرنسا حتى الإشراف على المؤسسات التنصيرية والتي كانت تابعة لعدة قوى استعمارية، قبل الحرب العالمية الأولى، في بيروت وسوريا، تحوّلت إلى مؤسسات تعليمة تنصيرية تحت إشراف فرنسا[2].

ولكن مع استرجاع استقلال سوريا ألغيت هذه المعاهدة، فكان رد فعل الدول المعنية عنيف، وأعلنوا بأن الحرية والديمقراطية يجب أن تكونا مكفولتين وأن للإنسان كل الحق بنشر الدين الذي يريده، وكان ردّ الرئيس السوري: محمد علي العابد (1932 – 1936م): «... إن الجمهورية السورية لا تقيد حرية أحد في الدعوة إلى مذهب ديني ولكنها ترى أن هذه الحرية يجب أن تتساوى بين الداعي والمدعو، فليناظر المنصر فقيها مسلمًا، أو أن يخاطب الرجل الكاثوليكي رجلاً مسلمًا، أما أن يترك الأطفال الأبرياء، في صفوف المدارس الابتدائية تحت رحمة المنصرين، فهذا يتنافى مع أبسط قواعد الحرية...»، لكن هذه المعاهدة مازالت قائمة في لبنان[3].

وما يمكن ملاحظته، هو أن معظم الهجومات الأوروبية على العالم الإسلامي، كانت دينية صليبية ولم تتوقف ربّما إلى عصرنا هذا، رغم كل التطورات التي شهدها العالم والفكر البشري.

---

(1) محمد سهيل طقوش: **تاريخ العثمانيين**، مرجع سابق، ص73.

(2) محمد فريد بك المحامي: **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، ط10، 2006م، ص718.

(3) نفسه، ص720.

المبحث الثالث: الفكر التنصيري في الجزائر

في بداية القرن التاسع عشر عرفت الجزائر أشد أنواع الاستعمار، وذلك أن الجزائر كانت وما زالت تشد اهتمام العديد من الأمم، والتي كانت تختلف عن الجزائر في تديّنها ومعاملاتها اليومية، وخاصة فرنسا التي درست واستبينت ثم هجمت فاحتلت.

ولم تكتف بالاحتلال المادي للبلاد، بل ركزت على الاحتلال الفكري والعقائدي، والفكر والعقيدة يتماشيان مع بعض، فإن ضربت الفكر، ستصل لا محال لضرب العقيدة، وأقصد بالضرب هو التغيير، والعكس صحيح، فإذا قضيت على العقيدة، الفكر سيتبع، فعملت على تغير دين السكان وتبديله، حيث رأى المستعمر وعلى رأسهم رجال الدين أو المنصر، أن الإسلام سلب الجزائر روحها بتغلبه على المسيحية التي كانت سائدة في عهد الجزائر الرومانية أو تحت الحكم البيزنطي، وبإمكان المسيحية أن تقيم جسر بين الجزائر وفرنسا، ويضعف انتشار الروح الإسلامية والثقافة الإسلامية العربية في الجزائر، أو ربما يقضي عليهما لوضع حاجز أمام روح المقاومة للاحتلال.

وبذلك بذلت جهودا كبيرة وضخمة من أجل اقتلاع الجزائريين من بنيتهم الدينية والثقافية وجلبهم إلى المسيحيين، وإن تعذر ذلك، سيكتفون بإبعادهم عن الديانة وجعل الإسلام مظهرًا، وتصرفاتهم غربية مسيحية.

واستعملوا من أجل ذلك كل الطرق والوسائل التنصيرية المعروفة، كالأعمال الخيرية، التعليم، التطبيب، والعنف.

1 – محاولات التنصير في الجزائر قبل 1830م:

لا يمكن تجاهل أن الدين الإسلامي أنزل على محمد صلّى الله عليه وسلّم، وتواصلت رسالته من بعده على يد الخلفاء الراشدين، فبلغ الإسلام مشارق الأرض ومغاربها، حتى وصل المغرب عامة والمغرب الأوسط خاصة، أي الجزائر حاليًا، واستقر فيها الإسلام قرونًا حيث اعتنقوه وأسلموا، فاندثرت المسيحية[1]، التي انتشرت في الجزائر في أواخر القرن الثاني الميلادي، حتى أن الكنيسة الإفريقية عرفت أسماء بارزة تركوا آثارهم في تاريخ المسيحية العالمية كتارتوليان (Tertulien) المتوفى في 240م، وسييريان

---

(1) Gilbert Meynier: **L'Algérie des origines de la préhistoire à l'avènement de l'Islam**, la découverte, Paris 2007, pp195-196.

(St Cyprien) المتوفى في 258م، وربما أشهر هؤلاء سان أوغسطين (St Augustin) المتوفى في 430م، وكان المذهب المنتشر "دونا" (Donatus) الذي دعى إليه سنة 305م كان هذا خلال الاستعمار الروماني. ورغم ذلك فإن بمجرد وصول الإسلام إلى المنطقة في 674م، اعتنق السكان الدين الجديد وزالت الديانة المسيحية كليةً في المنطقة(1).

وعليه لقب أهل الجزائر من طرف رجال الدين المسيحيين بالكفار، لأنهم تخلّو على المسيحية، فجمعوا المال وجيوش من المنصرين من أجل القضاء على الدين الإسلامي، الذي يقف أمام انتشار المسيحية في العالم وريادتها على باقي الديانات، وكان ذلك في البداية عن طريق حروب صليبية بكل أنواعها، المسلّحة وغير المسلّحة، والتي ابتلي بها المسلمين، عندما حاول ملوك أوروبا الاتحاد بطلب من كنيسة روما لمحاربة الدين الإسلامي والاستيلاء على بيت المقدس، وهذا ما دعى إليه البابا أوربان كما سبق لي أن شرحته من قبل(2)، من خلال خطبته الشهيرة التي حملت في طياتها الحقد والكره على الإسلام والمسلمين، وكانت وراء التعبئة الشعبية.

وفي عام 1219م أرسل الراهب فرانسيس مؤسس جماعة الفرنسيسكان، خمس بعثات تنصيرية، واحدة منها إلى المغرب، والتي قامت في الطعن والتشكيك في القرآن، وقامت بمحاولات التنصير علانية، فأمر الخليفة الموحدي بإعدامهم جميعا في 16 جانفي 1220م، وبعدها بعثة أخرى أرسلت إلى إفريقيا تحت قيادة جيلز الأسيزي، والتي هي الأخرى عملت ضدّهم، فخاف الأوروبيين المقيمين في المنطقة على مصالحهم فأجبروا البعثة على مغادرة البلاد(3).

عرفت الجزائر الحروب الصليبية مرتين، فالأولى عندما انتقلت الحروب من المشرق إلى المغرب، عندما حاول لويس التاسع السيطرة على تونس من خلال الحملة الصليبية الثامنة وذلك بتحريض من شارل كونت أنجو أخية(4) والذي كان ملكًا على جنوب إيطاليا وصقلية في عام 1266م(5)، والذي كانت أهدافه سياسية واقتصادية عندما حاول إقناع لويس

---

(1) Gilbert Meynier: **L'Algérie des origines**, op.cit, pp149-174.

(2) الرجوع إلى بداية هذه الرسالة، الفصل الأول، ص117.

(3) فرنسيس الأزيري، انظر: باركر أرنست: **الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية للنشر، مصر، 1997، ص109.

(4) نفسه، ص129.

(5) عبد القادر أحمد اليوسف: **العصور الوسطى الأوروبية**، المؤسسة اللبنانية للكتاب الأكاديمي، بيروت، 2014، ص ص198-287.

التاسع بتحويل الحملة نحو تونس، ولم تكن أطماعه تخص بيت المقدس، واعتمد في إقناع الملك لويس بحجة أن أمير تونس عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصي (647 – 675هـ/ 1249 – 1277م) يميل بطبعه للإفرنج وعلاقاته الودية التي تربطه بحكام أوروبا المسيحيين، فأقنعه أنه مستعد للتحول إلى المسيحية[1].

وبتنصيره سيتمكن من إضافة إقليم يقع في مكان بالغ الأهمية لكل حملة صليبية إلى العالم المسيحي، وسيتمكنون من استغلالها في الحروب الصليبية القادمة ضد مصر، التي أصبح نشاطها يهدد الصليبيين، ما سيمكن الصليبيين من السيطرة على محور مهم وهو صقلية، مالطة، تونس، يغلقون بواسطته على النصف الغربي من البحر الأبيض المتوسط أمام السفن الإسلامية، في إسبانيا، مراكش، ويمنعها من الوصول إلى المشرق الإسلامي[2].

وبذلك انتقلت الحروب من المشرق إلى المغرب، وحاصر ملك فرنسا لويس التاسع تونس، وعندها استنجد حاكم تونس المستنصر بالله الحفصي بصهره محمد بن عبد القوي الجزائري حاكم الونشريس، كما أرسل حاكم بجاية جيش من سكان المنطقة[3]، وفشل الصليبيين في هذه الحملة، ولكن حصلوا على امتياز وهو السماح للرهبان والقساوسة المسيحيين بالإقامة في المنطقة تحت حماية المسلمين[4]. ومن هنا نلمس الأهمية التي لعبتها دويلات شمال إفريقيا خلال الحروب الصليبية، وخاصة من خلال الرسائل التي أرسلها صلاح الدين الأيوبي[5]، إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن[6]، ويستنجد به

---

(1) سعيد عبد الفتاح عشور: **الحركة الصليبية**، مرجع سابق، ج2، ص1238.

(2) المرجع نفسه، ص1143.

(3) المهدي بوعبدلي: **آثار التبشير المسيحي في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي وبعده**، الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي، المجلد الثالث، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، 1975م، ص1328.

(4) عبد الرحمن بن محمد الجلالي: **تاريخ الجزائر العام**، ج2، دار الثقافة، بيروت 1980، ص33.

(5) وهناك خمس رسائل حسب ترتيبها:

- خطاب بقلم القاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى المنصور بن يعقوب بن يوسف 585هـ.
- خطاب بقلم القاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين إلى سيف الدولة إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف 586هـ.
- كتاب من القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي بشأن الرسالة إلى المغرب.
- قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل، انظر: أبو شامة شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن: **الروضتين في أخبار الدولتين**، ج2، مطبعة واد النيل، مصر، 1287هـ، ص170.

(6) خليفة الموحدين بالمغرب (580 – 595هـ/1184 – 1199م)، انظر: محمد محمد أمين: **شمال إفريقيا والحركة الصليبية (1189 – 1390م)**، مجلة الدراسات الإفريقية، العدد 3، سنة 1974، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، مصر 1975م، ص ص149-152.

ليمده بالأساطيل، ليقطع عن الصليبيين مادتهم من جهة البحر[1]، ولم يكتفِ بطلب المساعدة من خلال هذه الرسائل، بل ذهب إلى ضرورة إنشاء جيش موحد لمحاصرة أسطول صقلية ومنعه من المشاركة في الحرب الصليبية الثالثة[2].

حتى وإن لم تجد هذه الرسائل تجاوبًا من حكام الموحدين، نرى أن الحكام الحفصيين كان لهم دور هام ضد العدوان الصليبي على مصر، على يد لويس التاسع، الذي قاد الحملة السابعة ضد مصر في 647هـ/1249م، ونلمس ذلك الدور من خلال رسالة هامة أرسلها الحاكم أبو زكرياء حاكم الحفصيين[3]، إلى سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب يخبره فيها بتحركات الملك لويس التاسع ونيته في الوصول إلى الديار المصرية والاستيلاء والسيطرة عليها[4]، ولا شك أن الملك صلاح أيوب استفاد كثيرًا من هذه الرسالة[5].

أضف إلى ذلك فإن البعثات التنصيرية لم تتوقف طيلة هذه الفترة، حيث أرسلت الكنيسة في كل مرة بعثات لقيادة التنصير بين صفوف المسلمين ودعاة الحرب الصليبية، وربما أهم هؤلاء الدعاة الذين اهتموا بشمال إفريقيا، هناك ريمون لول (Raymon Lully)، رغم كل محاولته في نشر المسيحية في المنطقة إلاّ أنه فشل[6].

أما بوركارد (Buicard)[7]، فهو من دعاة الحروب الصليبية، عندما سمع بمشروع الحملة الصليبية التي كان يعدّها ملك فرنسا فيليب السادس دي فالوا (Philippe de Valois)[8] وأعدّ تقرير ليقدِّمه للملك، والذي اهتم فيه بأهمية منطقة شمال إفريقيا، وأهم الطرق المؤدية إلى المشرق وأحسنهم، ذكر منها أربع رئيسية[9]. كما لم يكن من خلال تقريره يحبذ طريق عبر شمال إفريقيا، نظرًا للصعوبات التي تتخلّله[10].

---

(1) محمد محمد أمين: **شمال إفريقيا**، المرجع السابق، ص152.

(2) سعيد عبد الفتاح عشور: **الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى**، ج1، مكتبة أنجلو مصرية، مصر، ص ص842-843.

(3) وهو يحيى بن عبد الواحد بن أبي بكر بن غمر، وحكم ما بين 625 – 647هـ/1228 – 1249م، انظر: محمد محمد أمين: المرجع السابق، ص154.

(4) نفسه.

(5) سعيد عبد الفتاح عشور: المرجع السابق، ص1054.

(6) ريمون لول، انظر بداية الرسالة، الفصل الأول، ص107.

(7) سعيد عبد الفتاح عشور: المرجع السابق، ص1195.

(8) نفسه، ص1196.

(9) محمد محمد أمين: المرجع السابق، ص166.

(10) نفسه.

وهناك كذلك فيليب دي مزير (Philippe de Mezières)[1]، والذي بدأ نشاطه في سنة 1345م، كتب تقريرًا يخص أساسًا الطرق المناسبة التي يستحسن استعمالها خلال الحروب الصليبية للوصول إلى المشرق الإسلامي. حيث يرى أنه لا يجب على الجيوش الصليبية اتخاذ نفس الطريق، بل أنه هناك عدة طرق يمكن اتخاذها، لاسيما طريق شمال إفريقيا، بل وأنه يمكن أن يكون أحسنهم، ولا بدّ على صليبيو إسبانيا وأرغونة والبرتغال ونفاري اتخاذه، وعليهم غزو مماليك غرناطة، وبني مرين، وتلمسان، ومراكش وتونس، قبل أن يتوجهوا إلى الشرق[2].

هذا ما دعى له مارينو سانرد (Marino Sando) (1274 – 1343م)، وبحكم أصله البندقي، فركز في تحليله على أهمية شمال إفريقيا التجارية، إضافة إلى مصر، تونس، وغيرها من المماليك الإسلامية[3].

كما كانت هناك بعثة أخرى لتنصير أهل إفريقية تحت رعاية العالم المسيحي الراهب أنسيلموا تورميدا، والذي بمجرد وصوله إلى تونس واتصاله بمسلميها، وسمّى نفسه عبد الله، واهتم بالترجمة وتفقه في الدين، ويعتبر إسلام هذا الراهب خسارة كبيرة للمسيحيين، والكنيسة، حيث اتصل به رجال دين وعرضوا عليه أموال وإغراءات مادية للعودة عن قراره، إلاّ أنه رفضها، وألف كتابًا بعنوان: "تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب"[4].

ويظهر لنا جليًا أهمية منطقة شمال إفريقيا للمسيحيين، في نشاطهم التنصيري، سواءً خلال الحروب الصليبية وبعدها، أي التنصير بأشكاله، حيث عندما انتقلت الحروب الصليبية من المشرق إلى المغرب خلال القرن 15 الميلادي، وتزعم الإسبان والبرتغال هذه الحركة، وركزوا جهودهم على شمال إفريقيا عامة والجزائر خاصة[5]، تحت لواء العديد من الأمراء والملوك والقراصنة، ورجال الدين، ونفوذ البابا وعادةً مباركة الكنيسة

---

(1) فيليب ميزبر (1327 – 1405م)، رجل حرب، وكاتب فرنسي في العصور الوسطى، انظر: سعيد عبد الفتاح عشور: **الحركة الصليبية**، مرجع سابق، ص1320.

(2) نفسه، ص1240.

(3) نفسه، ص1199.

(4) المهدي بوعبدلي: **آثار التبشير المسيحي**، مرجع سابق، ص1328.

(5) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية في الجزائر (1830 – 1871م)**، منشورات دحلب، الجزائر 1992م، ص10.

للعديد من الحملات الصليبية، على شواطئ شمال إفريقيا، وهذا ما يتضح في رسالة البابا نيقولا الخامس التي أرسلها إلى هنري أمير البرتغال وهي عبارة عن مرسوم يشجعه على العمل الذي يقوم به ويمنحه الحق في السيطرة على جميع البلاد التي تخضع للمسلمين، فيقول له: «... إن سرورنا لعظيم أن نعلم أن ولدنا العزيز هنري أمير البرتغال قد سار على خطى أبيه الملك جون، بوصفه جنديًا قديرًا من جنود المسيح ليقضي على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين والكفار...»[1].

ونلمس بسهولة من خلال الألفاظ والعبارات الواضحة الحقد الذي تكنّه الكنيسة للإسلام والمسلمين، الذي لا يبتعد عن حقد العصور الوسطى، وغايتها في التخلص من هذا الحاجز أو العائق أمام تنصير العالم وبالتالي السيطرة على هذه المناطق.

وجمعت هذه الهجمات الصليبية على شواطئ شمال إفريقيا بين الدافع الديني الواضح والمصالح المادية وهي الحصول على مناطق نفوذ في إفريقيا، متحججين في بداية الأمر بعد سقوط غرناطة آخر معقل المسلمين وفرار الموريسكيين والأندلسيين نحو شمال إفريقيا، وخروج أمراء وملوك مسيحيين لمطاردتهم في إطار حروب الاسترداد ومحاكم التفتيش، واقترن ذلك الخروج بمحاولة السيطرة على مناطق جديدة في شمال إفريقيا من أجل الوصول إلى أعماق إفريقيا وخيراتها، ليتخذوا فيها بعدة ذرائع أخرى، ألا وهي القضاء على القرصنة التي كان يمارسها المسلمين على حدِّ تعبيرهم في شواطئ البحر الأبيض المتوسط والأطلسي[2].

ونلاحظ مدى ارتباط حب السيطرة والريادة، بالدافع الديني فتلبسه الدول الغربية عدة بدلات من أجل تحقيق أهدافها الأساسية وهي التوسع والسيطرة، وحيث يعلن القائمون على التنصير، أن الباعث الأول لنشاطهم هو القضاء على الأديان غير النصرانية[3]، وإنقاذ الشعوب المختلفة ورفعهم إلى مستوى الشعوب الراقية والمتقدمة بإدخالهم في إطار الحضارة العالمية المسيحية، يحاولون إقناع شعوبهم والرأي العام العالمي أن هدفهم الحقيقي هو حضاري ولكن حضارتهم مرتبطة ارتباطًا وطيدًا بتعاليم المسيحية، ويتبين أن التنصير

(1) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية**، المرجع السابق، ص11.

(2) عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام**، مرجع سابق، ص ص143-145.

(3) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والإشهار**، مصدر سابق، ص45.

والاستعمار لهما نفس الأهداف بما أن كليهما يصرحان على إرادتهم في إنقاذ الأمم من حالة التخلف، ولهذا اعتمد الاستعمار على التنصير لتحقيق غايته[1].

وهذا ما صرّح به النائب الفرنسي فرناند أنجران قائلاً: «... إن المنصر يعمل من أجل تحقيق الأفكار الاستعمارية للبلاد التي ينصرها، وذلك عن طريق رفع المعنويات الروحية والأخلاقية للسكان الأصليين (الأهالي)... وأن النشاط التنصيري والنشاط الاستعماري، شيئان متلازمين، لأن الهدف الأسمى للاحتلال هو التقدم الروحي والأخلاقي للشعوب المستعمرة...»[2].

وهذا ما ألحّت عليه المواثيق، من بينها ميثاق جمعية المائة شريك أو جمعية فرنسا الجديدة[3]، والتي كانت تعتبر التنصير وسيلة مهمة وأساسية للتوسع الاستعماري.

وبذلك ومنذ البداية كان النشاط التنصيري الفرنسي والاستعماري يسيران جنبًا إلى جنب ولها نفس الهدف، فالبحث عن المراكز الإستراتيجية كانت غاية الإمبراطوريات، واستعملت التنصير كوسيلة لتحقيق ذلك والتي عادةً ما كانت وراء نجاح الحركة الاستعمارية.

فعرفت منطقة شمال إفريقيا عدة حملات عنيفة ضدّ شواطئها من طرف ملوك وأباطرة أوروبا الغربية المسيحية، كحملة الكاردينال اكسيمونس دي سيسنروس (Xeménés de Cisneros) والذي تمكن بعد احتلاله وهران تحويل مسجدين إلى كنيستين[4]. وحملة شرلكان الكبرى الفاشلة عام 1541م، والتي باركها وأيدها الباب بول الثالث واشترك فيها قرانصته، وفرسان مالطا[5]. وكذا حملة البابا بيوس الرابع الصليبية، وكل هذه الحملات جاءت تحت شعار القضاء على المسلمين في شمال غرب إفريقيا[6].

---

(1) Paul le Sord: **L'œuvre civilisatrice et scientifique des missions catholique**, éd., Desclée de Brouwer , Paris 1931, p15.

(2) Arthur le Grault: **Principes du colonialisme et de législation colonial**, éd., librairie de la société du recueil des lois et des arts, Paris 1904, p178.

(3) ضمت هذه الجمعية مئة شريك، أسسها الكاردينال ريسوليو، الوزير الأول للملك لويس الثالث عشر سنة 1627م، والتي عملت أساسًا على تطوير مستعمرات فرنسا، انظر: خديجة بقطاش: **التبشير**، مرجع سابق، ص14.

(4) Charle André Julien: **Histoire de l'Afrique du nord, Tunisie, Algérie, Maroc, de la conquête Arabes à 1830**, 2ème éd., Payote, Paris 1975, p251.

(5) Moulay Belhamissi: **Histoire de la marine Algérienne (1516 – 1830)**, 2ème éd., ENAL, Alger 1986, p38.

(6) نفسه.

وبعد فشل كل المحاولات العسكرية الصليبية من السيطرة على مناطق شمال إفريقيا وتنصيرها، أصبح من الضروري إيجاد سبل أخرى لمواصلة نشاط التنصير دون الوصول إلى السلاح، فلجئوا إلى النشاط الخفي وراء قضية افتداء الأسرى الأوروبيين.

ويعدّ الوقوع في الأسر من أهم القضايا التي فتحت مجال كبير أمام التنصير قبل 1830م في الجزائر، وربما من أجل فهم أكثر للموضوع وجب تحديد معنـــى أو مفهـــوم أو مصطلح الأسرى والافتداء.

الأسر لغة هي مشتقة من الإسار وهو عبارة عن القيد الذي يشدّ به الأسير[1].

أما اصطلاحا فهو من يقع تحت يد قوم بينهم وبينه عداوة والحرب دائرة بينهما، وقد يكون محاربًا أو غير محاربًا[2].

بينما يعرّفه رجال الدين من خلال كتابهم المقدّس هو الإنسان الذي يؤخذ أسيرًا في الحرب، وتنزع حريته ويتعرض للتعذيب[3].

لنصل إلى أن الأسر هو الشخص الذي يقع تحت يد عدوه أو المستعمر وتنزع له حريته، كما أنه لا يقتصر على المحاربين فقط، بل يمكن أن يشمل العامة من النساء وأطفال وشيوخ. بينما افتداء الأسرى يعتبر عند المسيحيين والكنيسة خاصة أنه عمل خيري، وواجب ديني على كل مسيحي[4].

ونظرًا لأن الجزائر كانت تعتبر سيدة البحر الأبيض المتوسط، وأنها تحتل الصدارة في الجهاد البحري الذي كان نتيجته العديد من الأسرى المسيحيين، والذين كانوا مجال لدخول الأموال لخزينة الجزائر، وقد استعمل هذا الافتداء سبيلاً من طرف المسيحيين لإعادة ربط العلاقات مع المسلمين، فتطورت طريقة افتداء الأسرى المسيحيين في الجزائر خاصة منذ القرن 16م، واستعملت مختلف الطرق بغض النظر عن الفرار والذي غالبًا ما كانت توصل صاحبها إلى العقاب حدّ الموت[5].

---

(1) الرازي محمد بن أبي بكر عبد القادر: **مختار الصحاح**، دائرة المعارف، مكتبة لبنان، بيروت 1986م، ص7.

(2) بلعيش فاطمة: **حماية أسرى الحرب في القانون الدولي الإنساني**، ماجستير، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، الموسم الدراسي 2008/2007م، ص11.

(3) بطرس عبد المالك وآخرون: **قاموس الكتاب المقدس**، كومبدارى للنشر، ص51.

(4) منى حماد: **الأسرى المسلمون والصليبيون وطرق معاملتهم**، مجلة الآداب، عمّان، مج2، ج2، الأردن، 2014، ص60.

(5) شريف الزهار: **نقيب أشراف الجزائر، مذكرات**، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980، ص110.

وكان هناك عدة طرق لحصول الأسرى على حريتهم، إما بتبادل الأسرى بين بلدين، أو طرفين، وإما عن طريق دفع مبلغ من المال لشراء الحرية، وتتم هذه العملية عن طريق تدخل العديد من الشخصيات في الدول، من ملوك وأمراء ورجال دين.

وهناك أنواع من الافتداء، فما معنى هذا المصطلح؟

الافتداء (Rédemptoristes) ومشتقة من كلمة (Rédempteur) والتي أطلقتها الكنيسة على المخلص المسيح عيسى عليه السلام الذي – حسب اعتقادهم – افتدى البشرية وخلصها من الخطايا والذنوب[1].

وبذلك فمعنى كلمة الافتداء هو الخلاص، أما مصطلح Rédemptoristes فتطلق على قساوسة وأساقفة الذين يقومون بهذه المهمة وينتمون لتنظيمات دينية مختلفة، تأسست معظمها في العصر الوسيط[2]. كما يطلق عليهم اسم الآباء المخلصين (Les pères Rédempteurs)[3].

وكان هناك ثلاثة أنواع من الافتداء وهي:

- الافتداء الذاتي (Auto rachat): والتي بإمكان الأسير أن يدفع من ماله الخاص لإعادة شراء حريته، وذلك لأن الأسير في الجزائر كان يعمل ويتقاضى أجرة.
- الافتداء المنصوص عليه في المعاهدات الدولية[4]:
  - الجزائر مع فرنسا؛
  - الجزائر مع إنجلترا؛
  - الجزائر مع إسبانيا؛
  - الجزائر مع البرتغال؛
  - معاهدة 14 جوان 1786م.
- الافتداء عن طريق جهود رجال الدين هو ما نريد توضيحه وخاصة الدافع الحقيقي وراء اهتمام الكنيسة بهذا المجال، وتحمّلها مسؤولية التكفل بالأسرى المتواجدين

---

(1) حفيظة خشمون: **مهام مفتدي الأسرى والتزاماتهم الاجتماعية في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية**، مذكرة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، الموسم 2007/2006م، ص311.

(2) Bono Salvator: **Les corsaire en méditerranée**, trad. Ahmed Somaï, éd. la porte, Paris 2000, p225.

(3) Ben Mensour Abd Elhadi: **Alger XVI-XVII siècle**, journal de Jean Baptiste Gramaye, évêque d'Afrique, éd., du cerf, Paris 1998, p163.

(4) حفيظة خشمون: **مهام مفتدي**، المرجع السابق، ص ص14-29.

في الجزائر وشمال إفريقيا عامة[1]، وكانت هناك عدة بعثات من رجال الدين منذ القرن 16م[2]. ومن أهم التنظيمات التي نشطت في الجزائر في هذا المجال:

– تنظيم الثالوث المقدس وافتداء الأسرى (L’ordre de la très Sainte trinité et de la rédemption des captifs)، وتتكون التسمية من جزئين، ويشير الجزء الثاني من التسمية للهدف الأساسي لتأسيس هذا التنظيم، وهو افتداء الأسرى المسيحيين، أما الجزء الأول يخص العقيدة فيركز على مصدر القوة الروحية حسب العقيدة المسيحية لهذا التنظيم وهي التثليث، أي الأب والابن وروح القدس، ويعبر عنها في الأبيض لون القميص، والأزرق والأحمر لوني الصليب[3].

– وكذا تنظيم سيدة الرحمة (L’ordre de notre dame de merci)، تأسس هذه النظام في 10 أوت 1218م من طرف القديس بيير نولاسك وريمون بينافور (S. Pierre Nolasque)، (Raymond de Panafort)، تحت رعاية ملك الأرغونة جاك، واعترف بهذا التنظيم رسميًا البابا غريغوار التاسع (Grégoire IX) في 17 جانفي 1235م، وفي تسمية هذا النظام كلمة فرنسية Merci وتعني هنا Grâce أي الشكر أو الرحمة أو الرأفة، وقد تكون مشتقة من الكلمة اللاتينية Merces والتي تعني الفدية Rançon، أما السيدة Notre Dame فيقصد بها عند المسيحيين العذراء مريم[4].

– وتنظيم العازاربين (L’ordre de Lazaristes)[5].

وكان لكل هؤلاء المسيحيين أو رجال الدين مهمة علانية تكمن في افتداء الأسرى المسيحيين، وأهميته عند المسيحيين تعادل ما يمثله الجهاد عند المسلمين، فهو يعتبر عند الكنيسة واجب مقدس[6].

---

(1) Moulay Belhamissi: **Alger, l’Europe et la genre secrète 1518**-1830, éd., Dahlab, p25.

(2) وليان سبنسر: **الجزائر في عهد رياس البحر**، تعريب عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980، ص131.

(3) Haëdo Fray Diego: **De la captivité à Alger**, trad. par Moliner Violle, Alger, 1911, p194.

(4) Dominique et Michel: **Encyclopédie**, éd., Robert Laffont, 1999, p503.

(5) Augustin Bernard: **L’Algérie**, librairie Eilix Alcan, Paris 1929, pp170-171.

(6) «L’Eglise n’a cessé de répéter les paroles de notre admirable Cyprien: Qu’un membre souffre, les autres membre doivent souffrir avec lui… les prisonniers sont les temples de Dieu… c’est je sus-christ qui est captifs dans ses membres, comment ne pas acheter à prix d’argent ce lui qui nous a achetés dans son sang ? voire: M. Paley: **La piraterie Musulmane**, revue Africaine, n°02, année 1857-1858, p342.

وعبّر الأب دان عن أهمية هذا النشاط بقوله أن «المسيح لم يفتدِ البشرية لا بالذهب ولا بالفضة، وإنما افتداها بدمه الغالي والذي انتشر في أعماق الأرض من أجل إنقاذ الأسرى المسيحيين الذين يعانون العذاب، فنحن مجبرون على إنقاذ هؤلاء الأسرى[1].

وأرسلت الكنيسة العديد من رجال الدين باختلاف تنظيماتهم للإقامة في الجزائر وشمال إفريقيا عامة، وأطلق عليهم اسم أباء الفداء (Père rédempteur)، أو مفتدي الأسرى، وتتم هذه العملية على مراحل وأولها جمع الأموال، لأن هذا النشاط يتطلب مبالغ باهظة نظرًا للضرائب التي تدفع للجزائر، والمبالغ التي تدفع من أجل شراء الأسرى، أضف إلى ذلك الهدايا المختلفة للداي وبعض ضباط الديوان[2].

ورغم صعوبة هذه المرحلة، لأنها تعتمد على الأثرياء والأغنياء وأصحاب القلوب الرحيمة من أجل التبرعات للحصول على المبالغ اللازمة، وحاولوا إدخال فيها عدة أطراف من المجتمع المسيحي، من ملوك، أمراء، أثرياء، رجال الدين وحتى الشعوب، وأصبح خطاب الكل يتلخص في دعوة واحدة: «باسم الرب ندعوكم أمراء وقادة معًا، جماعات وفرادى نمدّ الأيادي لإنقاذ هؤلاء الفقراء البؤساء»[3].

تكمن الصعوبة في عدم مشاركة كبيرة للأثرياء في دفع التبرعات اللازمة في نظر رجال الدين، ولهذا عملت الكنيسة على اتباع بعض الطرق من بينها:

- تخصيص ما بين 80% إلى 90% من الميزانية في كل من مدريد وإشبيليا وفلونسيا، وكانت ملحقة بمجموعة من المدفوعات في الجزائر في 1660م[4].

كما فرضت غرامات مالية على كل من يصل متأخرًا لأداء الصلاة، وفرض ضرائب على بعض السلع المستوردة من الخارج[5].

---

(1) Père Dan Pierre: **Histoire de la Barbarie et de ses corsaires**, op.cit, p454.

(2) Laugier de Tassy: **Histoire du Royaume d'Alger**, éd., Loysel, Paris 1992, p170.

(3) Ben Mensour Abd Elhadi: **Alger…**, op.cit, p166.

(4) Claude Larquie: **La méditerranée, l'Espagne et le Maghreb au XVII^{ème} siècle**, le rachat des chrétiens et le commerce des hommes, les cahiers de Tunisie, tome XLIV n°157-158, 3ème et 4ème trimestre, 1991, p85.

(5) جون وولف: **الجزائر وأوروبا 1500 – 1830م**، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص23.

كما أكثر رجال الدين من خطابات الوعظ والدعاية خلال صلوات القداس في كنائس أوروبا من أجل إثارة الأشخاص ودفعهم إلى التبرع وإعطاء الهبات، كما كانت الكنيسة تبعث بتسريح من الملك، رجال الدين في مختلف المناطق لجمع التبرعات[1].

أضف إلى هذه الطرق، كان هناك طريقة أو أسلوب كان له نجاحًا كبيرًا في جمع التبرعات وهو المواكب (Les processions)، والتي كانت تُقام في مختلف البلدان المسيحية، خاصة في فرنسا وإسبانيا، وكانت تُقام بعد كل عملية افتداء تحت إشراف رجال الدين الفداء، ويشارك فيها الأسرى وكانت عبارة عن تظاهرة، وقد بلغ عددهم في إحدى هذه المواكب حوالي 700 أو 800 أسير[2].

وقدم الأب دان وصف كامل لهذه المواكب التي شارك فيها سنة 1635م بفرنسا، حيث اتجه من مرسيليا نحو باريس مرورًا بعدة مدن منها أيكس (Aix)، لمبوز (Lambèse)، أفينيون (Avignon) إلى أن وصلوا إلى باب القديس أنطوان (S. Antoine)، ودامت المسيرة 14 يومًا من 6 ماي إلى 20 ماي 1635م[3].

وكانوا يركزون على أصحاب الأسرى الذين استرجعوا حريتهم لغرض ترويج فكرة ضرورة مساعدة الأسرى الباقين، وذلك عن طريق الوضع المزري الذي عاشه هؤلاء الأسرى، مظهرين وضعهم الصحي المتدهور، وذلك لإبراز المعاناة التي يعيشها هؤلاء الأسرى في الجزائر، وكانوا يبالغون في ذلك من أجل دفع كل هؤلاء المشاهدين على المشاركة بالتبرعات، ويستعملون عبارات جارحة ويروّجون للعديد من الحكايات والروايات التي تكون عادة خرافات، وأصبحت هذه المواكب تحضر بإتقان وتكون على شكل دراما حية، يقوم بها أسرى حقيقيون وفي بعض الأحيان مصطنعين حتى يكون الأثر أكبر وعميق في نفوس المجتمع[4].

وبعد مرحلة جمع الأموال تأتي مرحلة الإبحار نحو مدينة الجزائر، ويحصلون على الترخيص للإبحار من طرف الملك، نظرًا لأهمية المهمة التي سيقوم بها هؤلاء القساوسة والتي لا يمكن أن تكون تخص الأسرى فحسب.

---

(1) Ben Mensour Abd Elhadi: **Alger…**, oip.cit, p168.

(2) Laugier de Tassy: **Histoire…**, op.cit, pp169-170.

(3) Dan Pierre: **Histoire…**, op.cit, p60.

(4) Ben Mensour Abd Elhadi: **Alger…**, oip.cit, p168.

كان لهؤلاء الآباء الفداء سفن يُسافرون على متنها ورغم خطورة الرحلة نحو شمال إفريقيا والجزائر خاصة، نظرًا للجهاد البحري القائم، إلاّ أن هذه السفن لا تتعرض للهجوم من طرفهم وذلك لأنها تحمل رايات خاصة وشعارات مختلفة توضح مهمة هذه السفن، وكانت الرايات والشعارات والرسومات على سفن مكلفة جدًّا، رغم ذلك لم يكن رجال الدين يستغنون عنها نظرًا للرسالة التي تحملها عادة هذه الرايات والشعارات والرسومات، فمثلاً في إحدى هذه الرحلات نحو المغرب الأقصى في 1666م، طلب رجال الدين من أحد الرسامين المشهورين أن يرسم على السفينة صور لأسلحة ملكية معينة، وكان ذلك مقابل 182 قطعة فضية Réaux، وفي رحلة أخرى نحو الجزائر استعملوا في إحدى سفنهم رايةً كلفتهم 46 قطعة فضية[1].

فراية آباء الرحمة كانت تحمل في جهة صورة المسيح المصلوب، وأسلحة البابا والملك، وفي جهة صورة للعذراء[2].

وراية الثالوث المقدس مرسوم عليها الصليب أحمر وأزرق على نسيج أبيض مع سلاح البابا والملك[3]. وما يمكن استخلاصه من هذه الرايات، الجانب الرسمي للبعثات، كذا تمثيلهم للسلطة الدينية والدنيوية.

ثم آخر مرحلة وهي الوصول إلى الجزائر والانطلاق في عملية افتداء الأسرى، والتي تبدأ باتجاههم لتحية حاكم الجزائر الداي وتقديم له الهدايا المتمثلة في الجواهر والمبالغ المالية، ويعلنون مبالغ الافتداء والهدايا والسلع التي جلبوها، ويتأكد منها الآغا باشى، وتجلب كل هذه الثروة والهدايا إلى القصر، حيث تتقطع 3% من المال و 12,5% من قيمة السلع، وتؤخذ الضرائب التي تمثل حقوق الباب (Les droits des portes)، وبعدها يجهز لهؤلاء الآباء بيت وترجمان من أجل القيام بمهامهم[4]، ويصدر الداي أوامر لتسهيل مهام رجال الدين والحصول على المعاملة الحسنة، وكذا حق التنقل في المنطقة بكل حرية.

(1) Claude Larquie: **La méditerranée…,** op.cit, pp86-87.

(2) نفسه.

(3) Dan Pierre: **Histoire…**, op.cit, p60.

(4) Laugier de Tassy, op.cit, p168.

ثم تنطلق المفاوضات حول الافتداء، وتبدأ مع أسرى قصر الداي الذي يحصل كلما تصل سفينة أسرى إلى الجزائر على الثمن أي $\frac{1}{8}$، أي أسير واحد على كل ثمانية أسرى، ويُباع الباقي في الأسواق لامتلاكهم من طرف الخواص[1].

ولهذا تصنف الأسرى إلى ثلاثة أنواع:

– أسرى الملك (الداي) Les captifs du roi.

– أسرى الدولة البايلك Les esclaves de l'état.

– أسرى الملاك الخواص ويطلق عليهم أحيانًا أسرى الفدية (Les captifs de rachat) وهم فئتين:

- أسرى الملاك من أسياد الإيالة أصحاب المناصب؛
- أسرى الملاك من الطبقة الثانية[2].

ومن بين أهم الأعمال التي يقوم بها رجال الدين في المنطقة أثناء عملية الفداء، هي تقديم الرعاية الصحية للأسرى وللمسيحيين بمختلف مذاهبهم، وتمكّنوا من تأسيس مستشفيات صغيرة من أجل ذلك، خاصة أن الجزائر عرفت فترات لانتشار عدة أوبئة أودت بحياة العديد من سكان مدينة الجزائر، ونظرًا لعدم وجود مؤسسات استشفائية في المنطقة، انتهز رجال الدين هذه الثغرة لفتح مستشفياتهم لاستقبال الجزائريين والأتراك للعلاج في المنطقة، ونذكر أن الأعمال الخيرية تدخل أو هي من أهم معاول النشاط التنصيري.

وفي ظل سياسة التسامح الديني، كان يعيش في الجزائر مع المسلمين نصارى أو مسيحيين ويهود تحت حماية الدولة ويقومون بشعائرهم الدينية بكل حرية، وكان لديهم معابد خاصة بهم.

وبتواجد آباء الفداء في الجزائر، سمحت الدولة ببناء العديد من الكنائس أو معابد صغيرة، إما في المؤسسات الاستشفائية أو في السجون، وكانت مدينة الجزائر فيها خمس كنائس، واحدة في سجن الباشا، واثنتان في محتشد بشين، والرابعة بقنصلية فرنسا،

---

(1) De Aranda Emanuel: **Relation de la captivité et liberté du sieur d'Aranda jadis esclave à Alger**, éd., 3, Bruxelle 1662, pp32-33.

(2) Grandchamp Pierre: **L'esclaves chrétien en Barbarie au XVII^{ème} siècle**, revue Africaine, 1949, p134.

والخامسة بنيابة أسقفية الجزائر[1]، وإقامة كل هذه الكنائس وتزيينها من أجل إبقاء علاقة دائمة بين الأسرى والرب ومحاربة اعتناقهم الإسلام[2].

وكان هناك أديرة يتلخص نشاطهم في الرعاية الروحية للأسرى، ويقومون هؤلاء القساوسة كذلك بالأعمال الخيرية، من مساعدة الفقراء والبؤساء وعلاجهم، وهذا ما يفتح المجال أمام عملية التنصير.

ومن هنا تظهر لنا المهام الخفية التي كان يكلف بها رجال الدين الذين يقدمون إلى الجزائر من أجل افتداء الأسرى ومختفيين وراء هذا النشاط، تمكنوا من القيام بعملية الدعاية والترويج للمعاناة التي يعيشها الأسرى المسيحيين عند المسلمين، وهذا ما يتضح لنا من خلال كتاباتهم أين نجدهم يركزون على تصوير حياة معاناة الأسرى بمدينة الجزائر، والذي يجبر هؤلاء الأسرى على إسلامهم للتخلص من المعاناة، وفي الحقيقة كل هذا من أجل تحفيز وغرس فكرة مساعدة هؤلاء الأسرى بتبرعات في أعماق أكبر عدد ممكن من الأشخاص من جهة، وتعزيز الحقد المسيحي في قلوب الأفراد ضد الإسلام والمسلمين من جهة أخرى، فنجد المسيحيين يتسارعون بتبرعاتهم لحماية المسيحية والمسيحيين من الإسلام، وأصبحت ربما الطريقة الجديدة التي وصلت إليها الكنيسة لمحاربة الإسلام وإيقاف انتشاره في العالم.

فأسال تصوير معاناة الأسرى الكثير من الحبر لدى رجال الدين، ما عرف بأدبيات الأسرى والفداء[3].

فهايدو يقول مثلا في هذا المجال أن الأسرى في الجزائر البربرية، يعيشون حياة بائسة أقسى من أية حياة أخرى في العالم، ويُعامَلون معاملة سيئة، خالية من الإنسانية، وهذه الحياة أفقدت الأسرى فرحتهم وصحتهم وثروتهم وحتى شرفهم، واعتبر الوضع قدر صعب ومشئوم[4].

---

(1) عبد الرحمن بن محمد الجلالي: **تاريخ الجزائر العام**، ج3، مرجع سابق، ص ص361-362.

(2) Moulay Belhamissi: **Alger, l'Europe…**, op.cit, p27.

(3) Braudel Fernand: **La méditerranée, et le monde méditerranéen, à l'époque de Philippe II**, Paris 1976, p200.

(4) Haëdo Fray Diego: **De la captivité…**, op.cit, pp13-15.

وأعطوا صورة وحشة للمعيشة في الجزائر، فوصفت بالكارثة بمصيبة العالم المسيحي، مرعبة أوروبا، معلم القرصنة[1].

وكل هذه الكتابات من أجل جلب إحسان أصحاب المال، وتكريس الحقد والكره المسيحي للمسلم، خاصة وأن حقيقة معيشة الأسرى بالجزائر تختلف تمامًا عن ما وصف في كتاباتهم التي عملوا على ترويجها، بشهادة العديد من الأسرى[2].

أما الوضع من حيث الأكل واللباس والمرقد، فكانوا يعيشون حياة مريحة، والدليل أنهم كانوا يقومون بشعائرهم الدينية بكل حرية، وهذا ما أكده De Tassy الذي قال من الأفضل أن أقضي عشر سنوات سجن في الجزائر على سنة واحدة في سجن إسبانيا[3]. وكانوا يعاملون معاملة حسنة، فهناك من تمكن من افتداء نفسه بماله الخاص، وذلك من الأجر الذي كان يحصل عليه[4].

وكان لهؤلاء القساوسة ورجال الدين من خلال المهمة الموكلة لهم، هي افتداء الأسرى الذين كان لهم عدة مهمات أخرى من بينها الجوسسة والتنصير، حيث كانوا مقحمين بطريقة غير مباشرة فيما يُعرف بالحرب الخفية أو السرية (La guerre secrète)، التي تحضرها القوى المسيحية الأوروبية للقضاء على الخطر الجزائري.

ومن بين الذين لعبوا دورًا كبيرًا في الجوسسة هي فئة الأسرى، حيث تمكّن العديد منهم عن طريق أعمالهم، واحتكاكهم بالمجتمع من معرفة نقاط القوة والضعف في الحكم وفي المجتمع والتركيبة الاجتماعية، وحتى في جغرافية المنطقة وحصونها، وكان لهم تقارير مفصلة حول ذلك، من أجل الدفع وتشجيع حكوماتهم على السيطرة على المنطقة[5].

---

(1) Ben Mensour Abd Elhadi: **Alger…**, oip.cit, pp137-138.

(2) Moulay Belhamissi: **Les captifs Algérien et l'Europe chrétien 1518-1830**,

انظر كذلك: أبو العيد دودو: **الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان 1830 – 1855م**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989، ص41 وما بعدها.

(3) Laugier de Tassy: **Histoire…**, op.cit, p194.

(4) حفيظة خشمون: **مهام مفتدي**، مرجع سابق، ص ص95-102.

(5) Moulay Belhamissi: **Les captifs…**, op.cit, p205.

من بين هؤلاء مثلاً رجل من ميلانو بقي أسيرًا أكثر من 16 سنة في خدمة ملوك فاس، المغرب والجزائر، وكذا تيدينا (Thedenat) الذي كان وزيرًا لباي معسكر والذي رسم مشروعًا للدخول إلى الجزائر عبر تنس[1].

ومن هنا نرى التقاء هدف رجل الكنيسة مع هدف رجل السياسة، وهو الاستيلاء على الجزائر والسيطرة عليها.

وتمكن هؤلاء القساوسة بحكم نشاطهم والتسهيلات التي حصلوا عليها من طرف حكام الجزائر، وتعاملهم مع معظم ممثلي الطبقة الحاكمة، التطلع وبالتدقيق على نقاط القوة والضعف داخل الإيالة، التعرف على الحصون والأبواب والمنازل، وخصائص الحكم والعادات والتقاليد، وكل هذا من أجل التخطيط لحملات عسكرية على الجزائر.

فمثلاً في عام 1603م قتل الأب الفرنسيسكاني (Franzisques Ciranus) لأنه قام بتهريب خمسة أسرى، وكان يحمل تقارير مفصلة حول المنطقة موجهة للملك الإسباني[2].

والأب جينولا (Gianola)، أبدى آماله في نجاح مهمته من خلال تقريرًا مفصلاً كتبه في عام 1689م، وضح سهولة السيطرة والقضاء على الإيالة[3].

وهذا ما نلاحظه في الأعمال الأدبية للأب دان، من خلال التفاصيل التي قدمها حول المنطقة، والتي جاءت من أجل تحفيز القوى الأوروبية، على شن حملات عسكرية على الجزائر.

نفس الشيء بالنسبة لعمل غرامي (Gramay)، الذي وجه دعوى للقوى المسيحية لتحطيم الإيالات المغربية ككل[4]. حيث وصف الجزائر من الداخل والخارج، مبانيها، شوارعها، الأبواب، الحصون، المنازل، المساجد، الحمامات، العيون...[5].

وكانت لهذه الكتابات أهمية كبيرة لدى الحكومات الأوروبية والتي استثمرتها، ففرنسا بعد سقوط الأسطول الجزائري استعملت كل هذه التقارير والمشاريع وكل ما تمدّه من تفاصيل وتنبؤات لشن حملة على الجزائر، ومن بينهم ما كتبه الأسقف بوسوي

---

(1) Moulay Belhamissi: **Les captifs…**, op.cit, p205.

(2) نفسه، ص ص26-27.

(3) نفسه، ص25.

(4) نفسه، ص27-28.

(5) Ben Mensour Abd Elhadi: **Alger…**, oip.cit, pp251, 252, 260.

(Boussuet) والذي خاطب من خلال كتاباته الجزائر قائلاً: ستسقطين تحت أقدام غالبك، تقولين يا جزائر الغنية بغنائمك النصرانية، إني أسود البحر، والأمم هي فريستي، وخفة سفنك، كانت تملؤك ثقة بنفسك، ولكنك ستهاجمين في عقر دارك، مثل النسر يصطاد في عشه، من بين الصخور المستعصية، إنك مثل صيدا عاصمة الفينيقيين في لبنان، ومع ذلك فقد سكنت هي في أعماق البحار(1).

ومن هنا يتضح أن رجال الدين لم يكن عملهم يقتصر على افتداء الأسرى، وإنما كان خدمة لحكوماتهم الاستعمارية، فكانوا أيادي وعيون أوروبا عامة، وفرنسا خاصة في الجزائر. وعليه فإن المهام الأساسية للمنصرين، أن عملهم يصب في نفس غاية الحكومات الاستعمارية، حيث تمكنوا من خلال الامتيازات التي حصلوا عليها، من الاحتكاك والتعامل مع أفراد المجتمع بكل فئاته وحاولوا تنصيرهم، وصرحوا بضرورة حضور ديني مسيحي في المنطقة من أجل تحقيق السيطرة، فتظهر بوضوح نية التنصير عند هذه البعثات المتخفية وراء غطاء الاقتداء، فيمكن اعتبار هذا النشاط – افتداء الأسرى – وجه آخر للهجمات الصليبية على الإسلام والمناطق المسلمة، خاصة عندما ندقق في الشعارات والرايات والرسومات التي كانت ترفع في سفنهم خلال هذه الرحلات(2).

أضف إلى ذلك التطبيب والأعمال الخيرية، وهذا ما يؤكده إرسال رجلي دين خلال النصف الثاني من القرن 17م لافتداء أسرى إلى مدينة الجزائر وهما: كودراي (du Coudray) وبوشير (Boucher) إلى مدينة الجزائر لافتداء 80 أسرى وتمسيح آخرين، ورافقهما خلال الرحلة جراح من أجل تأسيس مستشفى صغير، يمنحهم الحق في الحصول على حق الإقامة في المنطقة، وفعلاً كان لرجال الدين عامةً عملاً جبارًا في مجال التنصير والجوسسة، وأوكلت لهم مهمات دبلوماسية وذلك لاجتماع المصلحة الدينية والسياسية، وأصبح ممثل فرنسا هو ممثل المسيحية في الجزائر(3).

---

(1) مولود قاسم نايت بلقاسم: **الشخصية الجزائرية الدولية، وهيبتها العالمية قبل 1830م**، الجزء 2، دار الأمة للطباعة، الجزائر 2007، ص ص223-224.

(2) Moulay Belhamissi: **Alger, l'Europe…**, op.cit, p30.

(3) عبد الرحمن بن محمد الجلالي: **تاريخ الجزائر العام**، مرجع سابق، ص ص162-163.

2– الفكر التنصيري الفرنسي في الجزائر من خلال الحملة العسكرية:

كان للحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر بُعد صليبي واضح المعالم، ويمكن ربما توضيحه من خلال الرجوع للوضع الديني السائد في فرنسا قبيل عام 1830م، فمن خلال ملامحه يتسنى لنا ضبط المقارنة بين الدولة ومستعمراتها.

فإذا تمعنا في الفترة الأخيرة من الحكم في فرنسا، سنلاحظ أنه أهم ما أطيح به خلال الثورة الفرنسية مع النظام الملكي هي الكنيسة كمؤسسة أو مفهوم والتي كانت لها أثر كبير على الحكم[1]، لإقامة جمهورية بعيدة عن الكنيسة ورجال الدين، الذين عرفوا أو عاشوا أيام صعبة خلال هذه الثورة، حيث طوردوا وقُتل بعضهم، وتعرضت ممتلكاتهم للحجز، ورفض المجتمع تعاليم الكنيسة[2].

ولكن هذا الوضع لم يدم طويلاً، بل عادت وتحولت الجمهورية إلى ملكية[3]، لتعود عائلة البربون وتعتلي العرش الفرنسي بموجب مؤتمر فيينا سنة 1815م[4]، بشخص الملك لويس الثامن عشر. ورغم رفض المجتمع الفرنسي عودة عائلة البربون، نظام الحكم القديم[5] إلاّ أنّ التعب الذي طبع المجتمع إثر حروب نابليون، جعلهم لا يثورون، رغم تمسكهم بأفكار الإصلاح والحرية والدستور، التي أتت بها الثورة الفرنسية، فانتهز لويس الثامن عشر هذه الفرصة من أجل العمل على حماية القوى الرجعية المطالبة بعودة الحكم الملكي وعلى رأسها مترنيخ[6]، وحاول التركيز في إصلاحاته على وضعية الكنيسة ورجال الدين في المجتمع.

---

(1) محمد قاسم وحسني حسين: **تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا منذ عهد الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العظمى**، ط6، مطبعة دار الكتاب المصرية، ص ص89-90.

(2) نفسه، ص ص92-95.

(3) عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين: **التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى**، دار الفكر الغربي، مدينة نصر، 1999، ص ص275-276.

(4) نفسه، ص ص307-315.

(5) نفسه، ص ص319-330.

(6) عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين: **التاريخ...**، مرجع سابق، ص ص327-335.

وواصل مشاريعه أخيه شارل العاشر من بعده عندما وصل الحكم في سبتمبر 1824م، والذي كان يمنح أهمية كبيرة للكنيسة ورجال الدين، وهو الذي يعتبر نفسه وريث الملك القديس لويس التاسع (Saint Louis) لأنه من سلالته[1].

فبمجرد اعتلائه الحكم ونظرًا لإيمانه بأن الركيزة الأساسية لإعادة بناء المجتمع الفرنسي هي الديانة وأن مجتمع بدون عقيدة لن يترقى إلى الصدارة، سارع بإظهار عزمه على إعادة بناء النظام القديم، وظنا منه أن الثورة هي التي ضيعت مكانة الديانة والكنيسة في المجتمع، ورأى أن الثورة أو ما تبقى منها سهلة الإخماد، فاتخذ عدة قرارات من أجل إخمادها نهائيا، وتحقيق مصالح الديانة والكنيسة، وتبنّى فكرة نصرة الدين التي كان ينادي بها حزب الملكيين، وتنصير وإعلاء الديانة المسيحية في العالم[2]، فتميز عهده بالطابع الديني الذي طغى على معظم تعاملاته اليومية، مثل بعض الاحتفالات الدينية لفرسان تنظيم القديس ميشال (Saint Michel) وروح القدس (Le saint esprit)، وكذا زيارات مختلفة للمستشفى[3]، وهذا ما تمثله صورة رسمها الفنان جوزيف بووم (Joseph Beaume)، والتي تمثل احتفال قام به الملك شارل العاشر لتدشين مقام أو نصب تذكاري للملك لويس السادس عشر الذي أعدم من طرف الثورة، وإذا تمعنا في الصورة، فإن الاحتفال والمقام وضع في نفس المكان الذي أعدم فيه الملك، كما نلاحظ على اليمين في المدرجات، الأسقف يبارك التدشين، ووراءه الإكليروس الكاثوليكي، وتتم مراسيم الاحتفال بحملهم أدوات تستعمل خلال مراسيم الدفن، كالمبخرة وصليب التنصير[4].

فهذه الصورة تظهر بوضوح رجوع الكنيسة إلى الحكم ومحاولة إرجاع نظام الحكم إلى ما كانت عليه فرنسا قبل عام 1789م، بعد أن استرجعت الكنيسة قوتها المطلقة خاصة عندما أصدر شارل 10 قوانين تمنع بموجبها أي تعدي على مقدسات الكنيسة والديانة، فتمكن من إرجاع العديد من الامتيازات إلى رجال الدين، وكان خلال تصريحاته يؤكد على ضرورة إعادة الاعتبار للدين وأن يكون له تأثير وفعالية، ويكون قوة لإدارة الدولة[5].

---

(1) José Cabanis: **Charles X roi ultra**, Paris 1972, p320.

(2) نفسه، ص ص321-325.

(3) نفسه.

(4) لوحة رسمها Joseph Beaume، انظر الملحق رقم 09.

(5) نفسه.

وهذا الرجوع إلى الدين والكنيسة لم يقتصر على الملك شارل العاشر والطبقة الحاكمة، بل تعدّاها إلى المفكرين، الذين تيقنوا بأهمية المعتقد في المجتمع صحيحا كـــان أو خاطئًا، حيث هذا المعتقد هو الذي يمكّن الدولة من التحكم في مجتمعاتها، فنجد أنه كان لكتابات شاتوبريون (Chateaubriand)[1] مثلا في كتابه عبقرية المسيحية (Le génie du christianisme) أثرًا كبيرًا في نفوس الأفراد، والذي صرّح من خلاله أنه لا يرى مستقبل للدولة إلاّ في المسيحية وفي المذهب الكاثوليكي[2].

دون أن ننسى في هذا المجال الفلسفة الدينية اللاهوتية والتي جاءت كردّ فعل للفلسفة العقلانية التي عرفها القرن 18م، وكانت لتناصر فكرة الرجوع للدين والكنيسة في المجتمع[3].

وكان لويس غابليان بونالد الرجل السياسي والفيلسوف الفرنسي والذي كان من المحافظين والمدافعين على عائلة البربون والعهد القديم والدين[4].

وفي عهده شهدت فرنسا تأسيس حزب رجال الدين (Le partie prêtre)، والذي كان ينشط من أجل العودة إلى المملكة المقدسة[5].

ولم يقتصر اهتمام شارل العاشر بالكنيسة والدين داخل فرنسا فحسب، بل تجاوز اهتمامه حدود مملكته وتعداها إلى ما وراء البحار، وأكّد على ضرورة إعادة تنشيط الإرساليات التنصيرية الأجنبية، وشجعت الجمعيات التنصيرية وحمّلتها مسؤولية التنصير، داخل فرنسا وخارجها، وهذا بغض النظر عن عمل اليسوعيين الذي انتعش بصورة كبيرة خلال هذه الفترة وكان له مساهمة فعّالة في الجانب التعليمي والتنصيري، وكانوا من المساندين للملكية المطلقة[6].

---

(1) Œuvres complètes de Chateaubriand, augmentées d'un essais sur la vie et les ouvrages de l'auteure, **Le génie de christianisme**, éd., Krabbe, libraire-éditeur, Paris 1657.

(2) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية...**، مرجع سابق، ص16.

(3) عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين: **التاريخ...**، مرجع سابق، ص ص230-235.

(4) من بين كتبه: La théorie du pouvoir politique et religieux dans la société civile، انظر:
José Cabanis: **Charles X roi ultra**, op.cit, p320.

(5) André Fortin: **Les jésuites et le parti prêtre,** revue du nord, tome 33, n°132, octobre-décembre 1951, p255.

(6) حيث بلغ عدد الإرساليات التبشيرية في فرنسا ما بين 1824م – 1830م، مئة إرسالية، وقد قال الأب غريفيل: لو استطعنا أن نرفع عددها إلى الألف لتمكنا من تمسيح فرنسا بأكملها، انظر: خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية...**، المرجع السابق، ص32.

كما يظهر لنا اهتمامه بهذا المجال من خلال تعيينه للأسقف فريسنوس (Frayssinous) على رأس وزارة الشؤون الدينية[1]، الشيء الذي أعطى رجال الدين الحق والسلطة في مراقبة التعليم بمختلف مراحله، وكان هدف هذا الأسقف إنشاء شباب فرنسا نشأة دينية خالية من كل الشوائب[2].

كما كان له دور هام في دفع الملك شارل العاشر لضرورة احتلال الجزائر، والذي حاول إقناعه بأن هذا الغزو سيقدم خدمة هامة للمسيحية، وسيكون له دور محوري في إنقاذ المسيحيين من أيدي البحارة الجزائريين[3]، ولم يكن فريسنوس الوحيد المشجع لهذه الحملة، بل هناك وزراء آخرين من بينهم كليمون تونيير (Clément Tonnerre)[4] والذي عبّر للملك عن هذه الرغبة من خلال التقرير الذي قدمه له في 14 أكتوبر 1872م، مصرحًا عن آماله في تنصير الجزائر وأن هذا العمل سيحمل لنا الكثير من السعادة، ويظهر تحفيزه للملك من خلال اختياره بعض المصطلحات في تقريره حين يخاطب الملك بقوله: «إن القدر قد قضى بأن تهان جلالتكم في شخص قنصلكم من طرف ألد الأعداء للاسم المسيحي، فهذا لا يمكن أن يكون صدفة، ربما وجب على ابن القديس لويس التاسع الثأر للدين المسيحي وللإنسانية وللإهانة التي لحقت به شخصيًا[5]، ولم يكن تونيير الوحيد، بل كان العديد من المسؤولين والسياسيين والعسكريين الفرنسيين يراهنون على تحقيق الانتصار على الجزائر عسكريًا، والذي سيلحق لا محال انتصار أكبر وهو استرجاع إفريقيا إلى العالم المسيحي، خاصة وأن صاحب الحملة هو شارل العاشر سليل الملك لويس التاسع، أي تصبح للحملة طابع صليبي[6].

---

(1) Le Baron Henrion: **Vie de M. Frayssinous**, T1, Evêque d'Hermopolis, imprimerie d'Adrien le chère et cie, Paris 1894, pp525-533.

(2) نفسه، ص ص525-523

(3) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية...**، مرجع سابق، ص16.

(4) الماركيز كليرمون تونيير (Le Marquis de Clément Tonnerre)، انظر:

Vincent Haegele: **Le Marquis de Clément Tonnerre**, Ministre de la guerre, et le renforcement de l'armée Française, sous Charles X (1825-1828), revue historique des armées, n°270/2013, éd., service de la défense, pp93-104.

(5) Mgr Grussenmeyer: **Vingt cinq année d'épiscopat en France et en Afrique,** T1, éd., maison carrée, Alger 1882, p173.

(6) إبراهيم لونيسي: **الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر والتأسيس للقضاء على الإسلام وتنصير المجتمع في بدايات الاحتلال**، الحوار المتوسطي، العدد الأول، جامعة سيدي بلعباس، 2011، ص103.

وربما هذا التقرير أهم ما يظهر البعد الديني الصليبي للحركة الاستعمارية في الجزائر، الظاهر في الطلب الملح لكليمون، أي يركز على استعمال مصطلح العناية الإلهية والتي حسب تحليله هي التي جعلت الداي حسين يتعدّى على القنصل الفرنسي، حتى تثأر فرنسا لكل المسيحيين وتنتقم للدين المسيحي وللإنسانية.

وفي نفس السياق، يأتي الخطاب الملكي لشارل العاشر، عند افتتاح الجلسات البرلمانية في 2 مارس 1830م، لتعزيز رؤية السياسيين ورجال الدين، فصرّح: أنه أثناء الأحداث الخطيرة التي انشغلت بها فرنسا مع أوروبا، أجلت القيام بعمل مهم ضدّ قوة بربرية، ولا يمكن له أن يترك هذه القوة لمدة طويلة بدون عقاب، خاصة أنها وجهت شتائمها إلى الشرق الفرنسي وما يمكن أن يجعلني أرضى هو أن أجعل المسيحية تنتصر بكل قوة[1].

وهذا ما قاله رئيس الوزراء الفرنسي، الذي اعتبر الاستيلاء على الجزائر سيكون بالمنفعة والفائدة الكبيرة على المسيحية جمعاء[2].

وبذلك اعتبرت الحملة، امتدادًا للحروب الصليبية، نظمها اليسوعي شارل العاشر وحصل على مباركة الباب وتأييد الكنيسة الفرنسية[3]، واتصف الجنرال دوبرمون قائد الحملة بالصليبي، نظرا لجلبه عدد من القساوسة، من بينهم الأب زكار السوري والأب بطريرك بيت المقدس[4]، ولم يكن تواجدهم في الحملة من باب الصدفة، والدليل أنه بمجرد سقوط مدينة الجزائر، وبدخول الجيش الفرنسي قصر الداي، هيئت ساحته بالمظاهر المسيحية، وألقى الأب زكار، بمشاركة العديد من الرهبان من بينهم كومبري (Combret)، وبيرترون (Bertrand) ودوبيجي (Dopigez)، أول قداس ديني في الجزائر[5]. وذلك أن الكنيسة عملت منذ البداية على اختراق التحصين الاجتماعي للجزائر، وذلك عن طريق

---

(1) Charles André Julien: **Histoire de l'Algérie contemporaine (1870-1871)**, T1, éd., PUF, Paris 1964, p38.

(2) عبد الجليل التميمي: **التفكير الديني والتبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر في القرن 19م**، المجلة التاريخية المغاربية، عدد 1، 1999، ص ص12-24.

(3) شاوش حباسي: **من مظاهر الروح الصليبي للاستعمار الفرنسي في الجزائر 1830 – 1962م**، دار هومة، الجزائر، ص7.

(4) Pons Mgr A.: **La nouvelle église d'Afrique ou le catholicisme en Algérie, en Tunisie et au Maroc depuis 1830**, revue d'histoire des colonies Française, tome 19, n°80, mars-avril 1931, éd., société de l'histoire de colonies Française, Paris 1931, p2.

(5) Jules Tournier: **La conquête religieuse de l'Algérie**, éd., Plon, Paris 1930, p51.

اصطحاب رهبان عرب[1]. وبعده ردّ دوبرمون قائلاً: لقد أعدتم معنى فتح المسيحية في إفريقيا وأتمنى أن تزدهر المسيحية من جديد فيها[2]، فأصبحت فكرة الدفاع عن المسيحية والكنيسة الكاثوليكية سببًا لإعلان الحرب، ومن خلالها عملوا على تحضير الرأي العام الفرنسي والعالمي، مروجين لفكرة أنهم ورثة الرومان، فوجب على الفرنسيين استرجاع هذا البلد المسيحي الذي سلب من طرف المسلمين – على حدّ تعبيرهم – فتمكنوا من إثارة حفيزة الجيش الفرنسي والروح الدينية[3]، حيث أعلن لجيوشه بعد نجاح الحملة: «ها قد عدتم مع الصليبيين...»[4]. كما حاول المفكرون الفرنسيون من خلال كتاباتهم إعطاء وصف للجزائريين على أنهم شعب متأخرًا جاهلاً[5].

أما بالنسبة للبيان الذي وزع على الجزائريين، والذي وصلهم باللغة العربية[6]، فقد كلف دي برمون في جانفي 1830م، قائد أركان الحرب كليمنت تونيير والمتضلع في اللغات الشرقية بتحضير الخطة اللازمة للحملة، فوضع دراسة عن جغرافية الجزائر وسكانها[7].

فانتدبه دي برمون في نهاية شهر ماي 1830م لكتابة بيان باللغة العربية موجه إلى الجزائريين، وحين انتهى من كتابته سلّمه إلى المستشرق دي ساسي لصياغته باللغة العربية[8].

هذا البيان الذي أحدث ضجة بالجملة وهي «ستضمن احترام أموالكم وكل أملاككم ودينكم المقدس....»، حيث رفض الفرنسيين سياسيين ومفكرين مصطلح الدين المقدس،

---

(1) عز الدين عناية: **الحضور المسيحي في المغرب الكبير**، الخبر، ع7888، 2015/08/21، ص17.

(2) Gabriel Esquer: **La prise d'Alger**, éd., Afrique latine, Paris 1929, pp378-379.

(3) Amar Hamdani: **La vérité sur l'expédition d'Alger**, éd., Balland, 1985, p82.

(4) Moustapha Lachref: **L'Algérie nation et société**, éd., Français Maspero, Paris 1969, p51.

(5) Gabriel Esquer: **La prise d'Alger**, op.cit, p378.

(6) وقع جدال كبير حول كاتب البيان ومترجمه وحول النسخة الأصلية ما إذا كتبت باللغة العربية أم بالفرنسية، المعلوم أن هذا البيان نشر لأول مرة في المجلة الإفريقية في 1862م، مرفقًا بترجمة حرفية فرنسية قام بها المستعرب بريني. انظر: أبو القاسم سعد الله: **آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر**، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص ص277-280.

(7) Charles Fraude: **Interprète de l'armée d'Afrique**, **Ajourdan,** librairie éditeur, Alger 1876, p27.

(8) نفسه، ص ص165-168.

رفضًا منهم اعتبار الإسلام مقدسًا، وأن هذه العبارة لا تخدم الهدف الديني للحملة بإعطاء الصفة قداسية، في الوقت الذي يجتمع أساقفة فرنسا من أجل تأييد حرب صليبية ضد المسلمين الكفار[1].

كما ظهر رفض شارل العاشر لهذه العبارة من خلال الرسالة التي وجهها إلى رئيس حكومته بولنياك (Palignac)، في الثامن جوان 1830م، حيث أعلن على رفضه لاعتبار الإسلام ديانة مقدسة، مؤكدًا على أن هذا المنشور يشبه منشور نابليون بونابارت خلال حملته على مصر[2].

فأصدر دي بولنياك أمرًا بوقف المنشور وإعادة تحريره بنزع وصف القداسة لأنه مسَّ شعور شارل العاشر[3].

ثم توصل لأهم خطوة قام بها الجيش الفرنسي عند انتصارهم ولاستلام مفاتيح القصبة، هي المعاهدة التي عقدها مع الجزائريين والتي من أهم بنودها[4] احترام الدين الإسلامي والمؤسسات الدينية، وبذلك حتى نتمكن من دراسة شاملة لهذا البعد الصليبي، لا بدّ أن نعود إلى مدى احتفاظ الجزائريين بمؤسساتهم الدينية 6 مساجد وزوايا. كما سبق أن ذكرت الصلاة التي أقيمت في القصبة بمجرد استلام مفاتيحها.

أقيم في 6 جويلية 1830م حفلاً كبيرًا، أين نصب الصليب على أعلى بناية في القصبة، ووصف هذا الحفل أنه رجوع المسيحية من جديد للسيطرة على بلد كان مسيحيًا من قبل[5]. كما وصفها الكاتب الخاص لدوبرمون أنها أقيمت في الساحة الرئيسية للقصبة، وأقيمت تحية العلم في وسط هذه القلعة التي بناها أبناء محمد لصد شعوب المسيح، وقد ترددت عبارات الإنجيل في هذه الأماكن التي ما زالت حافلة بذكريات الإسلام وحرف القرآن الميت...[6].

---

(1) José Cabanis: **Charles X roi ultra**, op.cit, p320.

(2) Jean Carnier: **Charles X le roi proscrit**, éd., Paris 1967, p149.

(3) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية...**، مرجع سابق، ص ص19-20.

(4) البند الخامس من المعاهدة: انظر النص الكامل منشور باللغة العربية في المجلة الإفريقية، المجلد 6، عام 1862م، ص ص153-156.

(5) Jules Tournier: **La conquête**, op.cit, p51.

(6) Ault Dumesnil: **De l'expédition d'Afrique en 1830**, éd., libraire au palais royal, Paris 1832, pp125-126.

كما شبّه البارون أكستين (d’Eckstein) الحملة الفرنسية على الجزائر بالحرب الصليبية[1]، وذكر دي لا مني (De la Mennais) أنه يجب الآن تولية الأنظار اتجاه الشرق لرؤية انهيار الإسلام... وأنه لن تتمكن فرنسا البقاء مطولاً في الجزائر إلاّ باستبدال القرآن بالإنجيل[2].

لم يكتفِ السياسيين والعسكريين بالحملة العسكرية على الجزائر، بل شعروا بضرورة القضاء على الجزائريين وإسلامهم وهويتهم ونشر المسيحية محلها، تحت راية الصليب[3].

كما أن دخول فرنسا الجزائر، أعاد فتح الملك الفرنسي أعينه الصليبية على شمال إفريقيا، وهذا ما يفسره تحويل فيلق من البحرية الفرنسية، بعد أيام فقط من احتلال الجزائر إلى تونس أين عقدت معاهدة مع حسين باشا باي والتي كانت تتضمن بند سرّي ينص على إقامة تمثال وكنيسة للملك لويس التاسع (Saint Louis) في المكان الذي مات فيه[4]. يؤكد هذا تلك الروح الانتقامية لانهزام الصليبيين في شمال إفريقيا سابقًا، رغم أن هذا البند لم يطبق حتى عهد لويس فليب في 1840م[5].

إن الحملة الفرنسية على مصر أظهرت لفرنسا مدى أهمية الدين عند المسلمين، ما جعل المستشرقين يعيدون دراسة الدين بطريقة مخالفة لما كان يدرس في الأزمنة السابقة والتي كانت تنطلق من حقد وكره لهذا الدين، تحولت لدراسة كيفية استغلاله لخدمة مصالح الإدارة الاستعمارية[6]. ومن خلال احتكاك الفرنسيين بالجزائريين والإسلام، تيقنوا أن للإسلام مهمتين أساسيتين متناقضتين، ولكن كلاهما تخدم مصالح المستعمرين:

- أنه عامل تثبيت يمكن استخدامه في إطار إخضاع الشعب للسيادة الفرنسية مرحليًا.
- وفي نفس الوقت يهدّد المصالح الفرنسية في الجزائر وذلك بسبب تعصب المسلمين.

---

(1) Ault Dumesnil: **De l’expédition…**, op.cit, pp141-142.

(2) نفسه، ص ص143-144.

(3) عبد الجليل التميمي: **التفكير الديني...**، مرجع سابق، ص15.

(4) عبد الجليل التميمي: **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، تونس، الجزائر، ليبيا من (1816-1871)**، تونس 1972، ص ص146-166.

(5) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية...**، مرجع سابق، ص20.

(6) إبراهيم لونيسي: **الإدارة الاستعمارية...**، مرجع سابق، ص104.

ومن هنا تعاملت معه الإدارة الفرنسية اعتمادًا على الأسلوبين وهما:

- استغلاله من أجل إخضاع الشعب الجزائري وتهدئته في بعض الأحيان.
- والعمل في نفس الوقت أو بالموازاة على القضاء عليه بتمسيح الجزائريين[1].

وفيما يخص الوسيلة الثانية وهي العمل على القضاء على الدين من أجل طمس الهوية، فمن بين أهم ما قام به الفرنسيين هو اختراق المعاهدة المبرمة بين دي برمون والداي حسين معاهدة استسلام أو تسليم الجزائر، وذلك عن طريق استيلائهم على المساجد والجوامع وتحويلها في أحسن الأحوال إلى كنائس أو ثكنات[2]، كما استولوا على الأوقاف والزوايا، وكل هذا من أجل تحطيم الهوية الجزائرية، حيث يعترف الفرنسيون أنفسهم. فالجنرال لامورسيار (De Lamoricière) والذي يُعرف بتمسكه بالدين، ذكر أنه بوصول الفرنسيين الجزائر اتخذوا المدارس لتحويلها إلى مخازن أو ثكنات وحتى اصطبلات، كما استحوذوا على أملاك المساجد والمدارس، وكنا نظن أننا سنعلم هذا الشعب العربي مبادئ الثورة الفرنسية، إلاّ أن المسلمين رأوا في تصرفاتهم تطاول وضرب للإسلام والمسلمين[3].

وهذه الحملة التي قامت بها فرنسا في الاستيلاء أو تحويل أو حتى تهديم المساجد، جعل مدينة الجزائر مثلاً تشهد تناقص كبير في المساجد، وهذا ما يشير إليه حمدان بن عثمان خوجة الذي عايش هذه الأوضاع ووصفها قائلاً: «... إن السلطة استولت على مساجدنا ومعابدنا ولم يبق من هذه الأماكن سوى الربع»[4].

ويتضح مما سبق، أن المعاهدة المبرمة لم تكن سوى تكتيك حربي، وهذا ما أقره كلوزيل عندما اشتكى السيد حمدان بن عثمان خوجة، ضد اختراق فرنسا لبنود المعاهدة، حيث أقرّ كلوزيل أن فرنسا غير مجبرة على احترام الاتفاق لأنه كان مجرد لعبة حرب[5].

إن تجاوز السلطات الفرنسية لبنود المعاهدة، أثار ردود أفعال حتى من بعض المسؤولين الفرنسيين أنفسهم، ومن بينهم الوكيل المدني بيشون (Pichon)[6]، وخليفته

---

(1) إبراهيم لونيسي: **الإدارة الاستعمارية...**، المرجع السابق، ص104.

(2) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية...**، مرجع سابق، ص21.

(3) Yvonne Turin: **Les affrontements culturels…**, op.cit, p119.

(4) حمدان بن عثمان خوجة: **المرآة**، مصدر سابق، ص283.

(5) أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية...**، مرجع سابق، ص26.

(6) رجل سياسي، له تجربة في المستعمرات الفرنسية، ولم يقبل منصب الجزائر إلاّ بضغوطات.

جانتي دو بيسي (Genty de Bussy)، فيقول بيشون في كتابه أن فرنسا قد وعدت الشعب الجزائري باحترام المعاهدة وضمان ممتلكات واحترام عباداتهم، فمن واجبنا أن نفي بوعودنا[1].

ويتفق معه في الرأي دو بيسي حتى وإن اختلفا في الأسلوب الذي كان يرى في دين الإسلام عقيدة وشريعة وعادات وقوانين للجزائريين، فصرح أن فرنسا وعدت السكان باحترام الديانة وانتزعت منها ما يتركها ذات سيادة... ثم تأتي لتقول لهم، أن فرنسا ستحترم ديانتكم...[2].

فأصبحت عملية تدمير وتخريب المساجد أو تحويلها إلى أملاك الإدارة الفرنسية من أهم النقاط التي مست هوية المسلم في الجزائر، لأن المسجد عند المسلم، هو المركز الأساسي الذي يمارس فيه أبرز أركان دينه هو الصلاة، كما المسجد يعد الرمز الأساسي للإسلام، لهذا عملت فرنسا بمجرد الوصول إلى الجزائر على القضاء على هذه المؤسسات[3].

بالنسبة للمساجد فقد قامت الإدارة الفرنسية في سنة 1830م، أي بعد الخامس من جويلية بغلق 13 مسجدًا كبيرًا و 108 مسجدًا صغيرًا، و 32 جامعًا و 12 زاوية، وهذا في ظرف أقل من ستة أشهر[4]، فلماذا؟ ربما دليل على خطة محكمة من أجل القضاء على كل ما يمكن أن يرمز إلى إسلام المنطقة والدليل ما قامت به في اليوم الثاني الذي تبع معاهدة الاستسلام، أي ركزت فرنسا على عامل الوقت، فأظهرت نية تحطيم الهوية الجزائرية عن طريق تحويل المساجد إلى كنائس، حيث كانت تقدر مجموع المساجد في العاصمة بـ 150 مسجدًا أثناء الأيام الأولى للاحتلال. حيث أصدر كلوزيل قرارًا في السابع من ديسمبر 1830م، يقضي بالاستيلاء على أوقاف مكة والمدينة وتحويل المساجد إلى مصالح أخرى متنوعة[5].

---

(1) Baron Pichon: **Alger sous la domination Française, son état présent et son avenir**, éd., Paris 1833, p95.

(2) Genty de Bussy: **De l'établissement des Français dans la régence d'Alger et des moyens d'en assurer la prospérité**, éd., Paris 1839, p77.

(3) إبراهيم لونيسي: **الإدارة الاستعمارية...**، مرجع سابق، ص107.

(4) أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية...**، ج1، مرجع سابق، ص69.

(5) Le Baron Berthezène: **Dix huit moi à Alger, ou récit des évènements qui s'y sont passés**, éd., Montpelier 1834, pp39-52.

كما يقول Delort الضابط المقرب من كلوزيل ورئيس أركان الجيش في الجزائر، أن برتيزين غيّر المكان الذي اختاره كلوزيل لبناء مخيم الجيش، عوض أن يكون في مكان فارغ، فضل أن يكون على أنقاض مسجد الساحة الذي هدم في عهده[1].

والهدف من هذا العمل ربما للدلالة على القوة التي وصلت الجزائر، وقضت على المسجد وأقامت مخيمها هناك، وكأنهم يعلنون للعالم أولاً وللجزائريين ثانيًا، أن فرنسا المسيحية وجيشها استطاعا الوصول إلى شمال إفريقيا لإكمال عمل الصليبيين، وهذا ما يؤكده فايوت (Veuillot) في مقدمة كتابه[2]، حيث يقول: «إن هذا القرن – ويقصد التاسع عشر – هو الذي سيشهد الأيام الأخيرة للإسلام، الذي سيرحل من أوروبا التي طالما حملت الصليب وأصبح الهلال مهاجم من كل مكان ليتحطم ويختفي، الرب يبعده ويرسله ليهلك في الصحراء من أين أتى»[3]. نلاحظ من خلال هذا القول أهمية القضاء على الإسلام والتي ربما هي المهمة الأولى للفرنسيين في الجزائر، لأن فرنسا مثلت دائمًا في أوروبا الحامية للكاثوليكية، فإنها يجب أن تكون هي من تقضي على الإسلام في شمال إفريقيا، وهذا ما يؤكده نفس الكاتب عندما يتكلم على الجزائر بعد عشرين سنة لن يكون لها ربٌّ آخر ما عدا اليسوع، وبسيطرة بريطانيا على الإسكندرية وإعادة سيطرة المسيحية على القسطنطينية وفرنسا على الجزائر، ينطلق من ثلاث محطات مهمة في العالم وهي الجزائر والإسكندرية[4].

ثم يعود ويؤكد على أن هذا المشروع، أي الاستيلاء على الجزائر فهو إرادة إلهية، فنجده يعبّر على الفكر الصليبي الذي ميّز معظم سياسيي فرنسا بالنسبة للقضية الجزائرية[5]، حيث يقول فايوت في كتابه أو مقدمة كتابه أيضًا، لا أهمية لمشاريع العباد أمام حكمة الرب[6]. ويقول كذلك: «... في الحقيقة نحن نكمل الحروب الصليبية، فجنودنا وتجارنا يكمّلون عمل صليبيي العصور الوسطى، فكل الأراضي التي سيستقرون فيها ستصبح

---

(1) Delort (R): **Notes sur l’ouvrage du générale Berthezène, intitulé: Dix huit moi à Alger**, imprimerie de J. A., 1934, p68.

(2) كتابه:
Louis Veuillot: **Les Français en Algérie, souvenir d’un voyage fait en 1841**, 2ème éd., A. Mamey Tours, 1847.

(3) نفسه، ص2.

(4) نفسه.

(5) عبد الجليل التميمي: **التفكير الديني...**، مرجع سابق، ص16.

(6)

أرض يقام فيها القديس ويعمد فيها الأطفال، ويردّد الثناء على الرب الحقيقي، فيوجد هنا حضارة لا يمكن للإسلام أن يقف ضدها[1].

إذا حاولنا تحليل هذه العبارة فنجد أن هذه المقدمة لكتابه من بداية أسطرها الأولى يظهر نية الحملة، حيث يبدأها بالتأكيد أي يجزم أن الأيام الأخيرة للإسلام قد وصلت، وكأنه هذا هو الحدث المنتظر منذ البداية، لتعود بنا هذه المقدمة التي كتبت في 1841م إلى كتابات القرون الوسطى، أين كان رجال الدين يؤكدون على أن هذا الإسلام ما هو إلاّ هرطقة وستتمكن المسيحية والكنيسة من القضاء عليها.

فنجده خلال هذه المقدمة يعود إلى اعتقادين مهمين لدى الكنيسة المسيحية منذ عصورها الأولى بعد ظهور الإسلام وهي سفر الرؤيا (L'apocalypse saint Jean) وتنبؤات دانيال (Les prophéties de Daniel)، وذلك للتأكيد أن القضية أتت بقدرة وعناية إلهية لا دخل للإنسان فيها، لأن هذين الاعتقادين يؤكدان أنه لن تمر 13 قرن من ظهور الإسلام حتى ينهار بفضل العناية الإلهية، وهذه اعتقادات الكنيسة خلال العصور الوسطى.

ويشرح ذلك من خلال فكرة استيلاء دول مسيحية على مناطق إسلامية ويتكلم على بريطانيا وفرنسا، وأنها ستعود إلى المشرق وستنطلق من هناك حملات تنصير العالم ثانية، ثم يتحدث عن الحروب الصليبية وضرورة إكمال المهمة الصليبية، والتي ستبدأ بالاستيلاء على الجزائر ومصر، لتنتهي بتنصير العالم. ويشير إلى دم القديس لويس التاسع والذي وجب على المسيحيين الثأر لدمه الذي ملأ وانتشر في البحار التونسية.

ومن هنا نفهم لماذا تم هذا الهجوم الفضيع على المؤسسات، التي تمثل الروح الإسلامية في الجزائر، منذ أن وطأت أقدام الجيش الفرنسي ميناء أو سواحل سيدي فرج.

وفي سياستها لتمسيح الوسط قبل الروح، وذلك بالمحو الكلي أو الجزئي للمظاهر الدينية للشعب، من خلال الاعتداء على المساجد والجوامع، فمجموعة منها هدمت وأقيمت مكانها مسارح وقاعات سينما وحتى منازل، وبما أن أول المساجد التي تم تهديمها في الجزائر جامع السيدة، الذي تعود أقدم وثيقة تتكلم عليه إلى العصر الحديث حوالي سنة 1561م[2]، قامت فرنسا بتهديمه بحجة توسيع الطريق، وربما لفرض سيطرتها على

---

(1)

(2) نصيرة سيد علي: **هدم من فرنسا الاستعمارية، تاريخ الجزائر يبكي مسجد السيدة**، جريدة الحوار، 14-09-2009.

المدينة[1]، من بين المساجد التي هدمت، جامع سيدي الرحبي الذي هدم في سنة 1840م، ومسجد "لالاهم" والذي هدم في سنة 1841م، ومسجد سيدي فليح الذي هدم في سنة 1842م، وقد دامت فترة التهديم مدة طويلة، حيث قال جانتي دي بوسي لأحد أعضاء البلدية أن فرنسا أخذت الجزائر فهي صاحبتها بلا منازع وستعمل فيها كل ما يحلو لها، سواء من ناحية الهدم أو غيره[2].

أما النوع الثاني هي المساجد التي حولت إلى كنائس، كمسجد كشاوة، ومسجد علي بشين، الذي أخذ من الجزائريين في سنة 1831م وسلم للجيش ليحوله إلى صيدلية إلى غاية سنة 1843م، ليحول إلى كنيسة كاثوليكية[3].

أما الجامع الكبير فأحيكت حوله قصة وهي أنه بني من طرف أسير مسيحي، ولهذا بني على شكل صليب، ولهذا السبب تركه الفرنسيين، ونجا من التهديم. وهذا ما يؤكده دي بوسي أمام الملأ «إن كل المساجد والمؤسسات الخيرية تابعة لأملاك الدولة والإدارة العامة، وهي التي تتصرف فيها وتستغلها لأشياء أخرى»[4].

كما أن من بين اهتمامات الجنرال كلوزيل، إحصاء الملكيات، ولهذا أصدر في 8 سبتمبر 1830م، أي ثلاثة أشهر من احتلال الجزائر قرارًا استهدف حجز أملاك العثمانيين وأوقاف مكة[5] والمدينة، ونظرًا لاحتجاج الجزائريين على مصادرة أوقاف مكة والمدينة، وخاصة أعيان الجزائر والمفتين[6]، تراجع كلوزيل عن القرار المتعلق بالاستيلاء على أوقاف مكة والمدينة[7].

إن الإدارة الاستعمارية استولت على المعابد ووضعتها تحت تصرف الإدارة، وربما أن يجعل اسم فرنسا بالصبغة أو الطابع الصليب[8]، وكل هذا كان من أجل خلق في

---

(1) نصيرة سيد علي: **هدم من فرنسا الاستعمارية...**، المرجع السابق.

(2) حمدان بن عثمان خوجة: **المرآة**، مصدر سابق، ص286.

(3) نفسه.

(4) حمدان بن عثمان خوجة: **المرآة**، المصدر السابق، ص281.

(5) Pélissier de Raynaud: **Les Arabes Algérienne**, tome1, Paris 1854, p120.

(6) أبو القاسم سعد الله: **المفتي الجزائري ابن العنابي، رائد التجديد الإسلامي (1775 – 1850م)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م، ص ص32-33.

(7) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية...**، مرجع سابق، ص23.

(8) حمدان بن عثمان خوجة: **المرآة**، المصدر السابق، ص287.

الجزائر وسط مسيحي، ونزع معالم الإسلام، وربما يبقى تحويل مسجد كشاوة إلى كنيسة من أهم الأحداث التي مست الجانب الروحي للجزائريين، وكان ذلك في عهد دو روفيقو الذي حكم في الفترة الممتدة من أواخر ديسمبر 1831م إلى ربيع 1833م[1]، والذي حوّل مسجد كشاوة البهيج إلى كنيسة، وحتى يتمكن من القيام بذلك، أسس لجنة يترأسها بربروجر، والتي ضمت مفتيين جزائريين وشخصيتين مسلمتين بينهما بوضربة ومصطفى الكبابطي[2]، وخلال المناقشات الحادة احتمى الجزائريين بمعاهدة 5 جويلية 1830م ورفضوا التحويل[3]، وقال ويذكر ابن مترجم الجنرال فلوريون (F. Florian) والذي قاد المحادثات باسم الحاكم العام، وكان معجبًا بدو روفيقو، قال أنه كان ينوي تحطيم كل شيء وإلقاء القبض على المفتيين والدخول بالقوة في المسجد، وقطع رؤوس كل من يعترض على إرادته[4].

ويظهر من هنا، العنف الذي شن ضد المؤسسات الدينية، بينما اقترح بيشون بناء كنيسة بدل تحويل المسجد إلى كنيسة، وخلال الجلسة الأخيرة تجمع 2000[5] متظاهر أمام قصر الحكومة، وهناك من يقول 10 آلاف متظاهر[6]. ولما علم بوضربة لخطورة الوضع سلم الفرنسيين عقد تخلّي لمسجد الحنفي في المسمكة أي المسجد الجديد بدل من كشاوة، ولكن الجنرال رفض المسجد الجديد[7]، وأعطى أمر باحتلال المسجد بالقوة[8]، وعند استعمال القوة ضد مؤسسة دينية نعتبرها روح أو حركة صليبية، وكان ذلك في 17 ديسمبر 1831م، وكان حوالي 4000 مصلي معتصمون داخل المسجد وتمكن باقتحامه بقوة السلاح، ولم يكن أي اعتراض من المسيحيين المتواجدين في الجزائر، ولقد سقط في هذه الحادثة العديد من الجزائريين، دفاعًا عن المسجد، واختار القسيس كولان ليلة عيد الميلاد لتحويله

---

(1) شاوش حباسي: **الروح الصليبية...**، مرجع سابق، ص65.

(2) Repeticci Curé de Maison Carrée: **L'Algérie chrétienne, esquisse historique (1830-1930)**, Alger, sans date, p71.

(3) شاوش حباسي: المرجع السابق، ص17.

(4) F. Florian: **Episode de la conquête, cathédrale et mosquée**, Paris 1880, p…

(5) نفسه، ص...

(6) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية...**، مرجع سابق، ص33.

(7) شاوش حباسي: المرجع السابق، ص20.

(8)

إلى كنيسة، وحصل على هدايا من طرف الملكة أملي زوجة لويس فليب متمثلة في زخاريف وأدوات للتزيين، كما أرسل الملك ستائر من القماش الرفيع، وبعث البابا غريغوار السادس عشر تماثيل للتبرك، وأعرب عن شكره للذين كانوا وراء هذا الإنجاز[1].

وبذلك شهد تاريخ 24 ديسمبر 1832م تحويل مسجد كشاوة إلى كاتدرالية القديس فليب، ولم يكن هذا التاريخ مختار عبثًا أو صدفة، وإنما للدلالة العقائدية والروحية والصليبية لدى المستعمر، أنهم بذلك توصلوا إلى نزع دين محمد واستبداله أو بالأحرى حسبي قناعتهم، استرجاع أو إحياء دين المسيح، ولهذا أظن أنهم اختاروا ليلة عيد المسيح التي ربما اعتبروها إعادة ميلاد المسيحية في المنطقة، وهذا ما نلاحظه من خلال مباركة البابا، أي روما لهذا الإنجاز، حيث اعتبروا هذا الحدث تظاهرة رسمية للمسيحية في الجزائر[2].

وبذلك ارتبط اسم دو روفيقو بهذا الإنجاز التنصيري، حتى وإن كان غير مباشر، ولكنه كان ذو أبعاد خطيرة، لأن الإداريين الفرنسيين تيقنوا أن الدين المسيحي ضروري لتحقيق أغراض الفرنسيين في الجزائر وأن فرنسا سيتقى أطول عندما تغرس صليبًا، أكثر من الذي كان يرتفع فيه علمًا فقط[3].

وزاد اهتمام العسكريين بالدين ونشره في المنطقة، وهذا ما نشهده من خلال المراسلة الموجهة إلى وزير الحربية في 11 سبتمبر 1834م، تخص بزاتريه أرادت التنصير والتي طلقها زوجها، اقتحم الجزائريين بأمر من القاضي الجزائري بيتها من أجل أخذها إلى القاضي ومعاقبتها، ولكن تدخل الإدارة الفرنسية ساعدها على التخلص والاحتماء داخل الكنيسة والتي كان يرأسها دي لارن (De Larme)، فعمدت وأصبحت مسيحية[4]. وكل هذا كان في إطار ما يعرف بسياسة التسامح الديني، وما هي إلاّ وسيلة من أجل التمسيح وخاصة خدمة للمصالح السياسية للبلاد[5]. ما تسبب في توقف المحاكم الإسلامية باستقالة القضاة المسلمين، ويعتبر حدث مهم لأنه شهد أول تخلي لمسلم عن دينه[6].

---

(1) Charles André Julien: **Histoire de l'Algérie contemporaine…**, op.cit, pp91-92.

(2) نفسه، ص91.

(3) Louis Veuillot: **Les Français en Algérie**, op.cit, p5.

(4) شاوش حباسي: **من مظاهر الروح الصليبية…**، مرجع سابق، ص ص19-20.

(5) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية…**، مرجع سابق، ص35.

(6) شاوش حباسي: المرجع السابق، ص21.

لا يجب أن ننسى الفترة التي جاء فيها هذا التقرير هي مرحلة كانت فيها المقاومة الجزائرية في أوج قوتها، فتخوفه من ردة فعل وزير الحربية الفرنسي، فكان هذا التقرير علمًا أن وزير الحربية الفرنسي كان يهتم كثيرًا بالديانة ويمنحها الأولوية للاستقرار في المستعمرات[1]. ثم عندما نتوقف ونتمعن في هذا التقرير نجد أنه محاط بالكثير من الغموض، والصدف، والتي تظهر أنها مدروسة بإحكام، أضف إلى ذلك عادة الشخص الذي يريد التنصير يتجه نحو الكنيسة ورجال الدين لا عند الحاكم العام، كما يقرّه التقرير أن هذه السيدة ذهبت عند الحاكم العام وإلى بيته، أين كان موجود الراهب والذي يدرّس ابنة الحاكم العام، فيمثل اللبس حول هذه القضية.

دو روفيقو لم يكن الوحيد في الاستيلاء على المساجد، ولكن أعطى القضية أهمية كبيرة حتى يكون لها صدى على الصعيد الداخلي والخارجي، حيث نجد أن فالي هو من حوّل مسجد البليدة إلى كنيسة، وكان هذا التحويل عزًّا ومفخرة، وهذا ما ركز عليه عندما قدم العاصمة في 4 نوفمبر 1840م.

يشرح فيها لماذا عجّل بعودته من المدية للاهتمام بمستعمرة البليدة، وأنه فكر في منح سكانها الأوروبيين الوسائل المطلوبة لتأدية شعائرهم الدينية، وهنا طبعًا يقصد الكنيسة، ولكن لا يختار أية بناية من البنايات والأملاك التي استولت عليها الإدارة الفرنسية، بل يختار مسجد يحوله إلى كنيسة حتى يركز على فكرة – تحويل وليس بناء – تحول العقيدة أو الدين الإسلامي الموجود في المجتمع الجزائري والدولة إلى الدين المسيحي[2].

فحوّل مسجد كان يقع على حدود المدينة الكاثوليكية ويعتبر من أجمل المساجد في المدينة، وأنه أعطى الأوامر برفع الصليب على الصومعة، قاصدًا بهذا الفعل تعزيزًا لفكرة سيادة الديانة المسيحية على الديانات الأخرى، وكذا إظهار الاحتلال النهائي للمدينة.

ثم يطلب منه تعيين راهب ليقوم بالاهتمام بالديانة وهذه الكنيسة الجديدة، وأنه قد حضر له مكان للاستقرار، وكذا بإمكان الراهب الحصول على بناية قريبة يحوّلها إلى مدرسة الأطفال[3].

---

(1) انظر: J. Tournier: **La conquête religieuse**, op.cit, p203.

(2) Louis Veuillot: **Les Français en Algérie**, op.cit, p293.

(3) نفسه، ص294.

أما الجنرال بيجو، فكان ذو تصريحات صليبية صريحة، فهو من استعمل عبارة "الحرب الصليبية"، ليصف ما كان يقوم به ضد المقاومة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر، كما أن الحضارة أو تحضير الشعوب عند بيجو لا يمكن أن يكون دون نشر المسيحية، أي أن الحضارة مصدرها الديانة المسيحية، حيث يؤكد على وجوب أن تكون مستعمراتنا في الجزائر حقلاً دينيًا وزراعيًا وعسكريًا واسعًا(1).

كما كان للجنرال بيجو علاقة وطيدة مع رجال الدين المنصرين في الجزائر، وقد ساند الإرساليات وخاصة اليسوعيين، حيث استقبلهم مباشرة بعد وصولهم رسميا الجزائر في 13 أوت 1843م، وقدم لهم مساعدات مالية تقارب حوالي 62.000 فرنك والأراضي حوالي 1,020 هكتار ومجموعة من الثيران والبقر والخرفان حوالي 118 رأسًا وخصص لهم خمسين جنديًا لخدمتهم(2). ما يؤكد لنا أهمية استعمال الدين والتنصير لخدمة وتحقيق مصالح الإدارة الاستعمارية، فكان يحضر حفلاتهم الدينية من أجل كسر معنويات الشعب الجزائري(3).

وفي إحدى هجماته على البليدة، أسر 250 طفلاً وقدمهم إلى الأب برومو (Brumauld) طالبا منه تربيتهم تربية مسيحية، حيث قال له أنهم يتامى وجدهم في ساحة الحرب ربوهم واجعلوهم مسيحيين(4).

فإن بيجو كان متيقنًا أنه يتم في الجزائر إنجاز خطة لويس التاسع أو القديس لويس، حيث قال إن حربنا في الجزائر إذن مواصلة للحروب الصليبية.

الجنرال دو لامورسيار فكان رجل متدين أي أن الدين له أهمية كبيرة في قراراته، وذلك يعود إلى أن تربيته الأولى كانت على يد رجال الدين والرهبان(5).

ولهذا عمل على خدمة المسيحية ورجال الدين بكل الطرق والوسائل، وحول المساجد إلى كنائس.

---

(1) H. D'Idville: **Le Maréchal Bugeaud d'après sa correspondance intime et des documents inédits 1784-1849**, TIII, éd., librairie de Firmin didot et cie, Paris 1882, pp297-298.

(2) نفسه، ص ص294، 296 و 309.

(3) عبد الجليل التميمي: **التفكير الديني...**، مرجع سابق، ص20.

(4) Père J. B. Piolet: **Les missions catholiques Française au XIXème siècle**, T1n éd0, Armand Colin, Paris, 1925, p69.

(5) حيث كان يحمل ميدالية فضية كتب عليها: "أملي في الله"، انظر:
Pottier Réné: **La croix sous le Bernou,...**, op.cit, p63.

كما أنه كتب إلى البابا قائلاً أنه أعجب كثيرًا برجال الدين وأحببتهم وتعلمت منهم أنه يوجد انتصار آخر هو ذلك الانتصار للمسيح أكثر من أي انتصار لقهر العالم. وكان رد البابا أنه أرسل إليه وسام المسيح لأنه أحسن خدمته(1)، وحتى أنه عندما عزل بعد قيام الثورة في فرنسا، عرضت عليه قيادة جيوش الفاتيكان، وهذا يدل على مدى قوة الصلة بينهما والثقة المتبادلة.

حيث أنه صرّح قائلاً أن المسيحية ليست فقط دين العالم المتحضر، ولكنها أساس وحياة الحضارة نفسها منذ أن أصبحت البابوية مركز المسيحية(2).

أما الجنرال راندو (Randon) والذي عيّن حاكمًا على الجزائر في سنة 1851م، والذي عمل على القضاء على المقاومة الجزائرية في منطقة القبائل، فمدحه كاتب التقرير إلى وزير الحربية عنوانه "الديانة المسيحية وتطور انتشارها في الجزائر"، حيث قال أنه ليس هناك أحسن منه في دعم وتطوير المؤسسات الدينية المسيحية التي أنشئت في عهد سابقيه(3).

كما أن زوجته كانت من ساعدت أخوات الرجاء الطيب للقدوم إلى الجزائر، كما أكثر من بناء الكنائس في مقاطعة الجزائر، حوالي سبع كنائس في الجزائر واثنتين في وهران وقسنطينة، وكذا عدة مشاريع أخرى بقيت دون تحقيقها، كما تقلص عدد المساجد في العاصمة(4).

وكان كلما يخرج في محاربة المقاومة كان يصطحب معه رجال الدين حتى يعطي لحركته العسكرية بعدًا دينيًا، فمثلاً عندما استطاع القضاء على مقاومة لالا نسومر ذهب رفقة الأساقفة إلى عين الحمام وكان معه الأسقف بافي، وأطلق على المنطقة اسم حصن الإمبراطور، وبارك الأسقف وحاول ربط المنطقة بماضيها المسيحي الروماني(5).

---

(1) Poittier Réné: La croix…, op.cit, p62.

(2) نفسه، ص88.

(3) عبد الحميد زوزو: **نصوص ووثائق في التاريخ المعاصر**، 1830-1900م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص ص238-240.

(4) A. Devouloux: **Les édifices religieux de l'ancien Alger**, typ. Bastide, Alger 1870, p265.

(5) شاوش حباسي: **مظاهر...**، مرجع سابق، ص29.

كما نجد نابليون الثالث لا يختلف عهده عن سابقيه، حيث شرح بعض الكتاب سوء تفاهمه مع السلطات الفرنسية في فرنسا، والتي لم تكن تعطي رجال الدين الأولوية[1].

أما الحاكم العام قايدون (De Gueydon) والذي لقب بالأميرال الكاردينال، وذلك بسبب دعمه الكامل والكبير للنشاط التنصيري والمنصرين في الجزائر ومنحهم كل التسهيلات الأمنية والعسكرية والإعانات المادية[2].

كما شدّد المراقبة على المؤسسات الدينية الإسلامية، وفي بعض الأحيان أهمل ترميمها، وهذا ما نجده في عريضتين كتبتا من طرف أعيان الجزائر يشتكون إلى السلطات الفرنسية نقص المساجد وعدم ترميمها، وفي بعض المناطق انعدامها[3].

وهو من كان وراء منع الجزائريين القيام بفريضة الحج، وهو من فتح المجال للنشاط التنصيري بقيادة لافجري، حيث كان يصرّح علناً أنه كان طول حياته في حماية البعثات الإرسالية حول العالم، وأنه لن يسمح أن تضطهد على أرض فرنسية، وأنه حان الوقت لإدخال الشعب المغلوب في الحضارة المسيحية.

وأهم ما نتوصل إليه من خلال ما سبق أن عودة أهمية الكنيسة والدين إلى الحياة السياسية في فرنسا في عهد شارل العاشر، هي التي سمحت بإعادة فتح أبواب التنصير في العالم الإسلامي، كما تمكنت من إعادة خلق ذلك الجو الديني التي تميزت به أوروبا عامة وفرنسا خاصة خلال العصور الوسطى والحديثة، والذي انعكست آثاره على احتلال الجزائر وظهرت هذه الآثار في البعد الديني الذي صبغ الحملة العسكرية، وتلك النزعة الصليبية التي رأيتها في قرارات وتصرفات المسؤولين العسكريين والإداريين الفرنسيين، وحتى بعد الاحتلال أكدوا ذلك من خلال اختراق بنود معاهدة الاستسلام، باستيلائهم على المساجد وكذا الأوقاف والزوايا، لأنهم كانوا يرون أن هذه الأوقاف محل خطر لأنه يمكنها أن تمول بكل الطرقات الحركات الانتفاضية والمقاومة ضد المستعمر[4]، وخاصة إذا علمنا بأن معظم المقاومات التي قامت في بداية الاحتلال كانت بتحريك الجمعيات الطرقية الدينية

---

(1) Marcel Emérite: **Le problème de la conversion des Musulmans d'Algérie entre Mac Mahon et Lavigerie**, in revue historique, janvier-mars 1960.

(2) Charles Robert Ageron: **Les Algériens Musulmans et la France, 1871-1919**, T1, 1ère éd., P.U.F., Paris 1968, pp301-302.

(3) نفسه.

(4) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية...**، مرجع سابق، ص23.

المختلفة، ولهذا قام كلوزيل وراء نصائح السيدين فوجرو وفونلاند[1]، إصدار قانون 7 ديسمبر 1830م، والذي شمل كل الأملاك الدينية، أوقاف مكة والمدينة والمساجد والزوايا، ووضعها تحت تصرف أملاك الدولة، وكان لهذا القرار آثار خطيرة على الحياة الدينية والاجتماعية للجزائريين[2]، لأن الأوقاف عند المسلمين هو نظام مالي تعود منفعته على الفقراء وخدمة الدين والعلم[3]. وتفطنت فرنسا للدور الهام الذي تلعبه هذه الأوقاف، لهذا عملت على الاستيلاء عليهم منذ دخولها الجزائر، كما أنها كلفت باحثين لدراسة هذه المواضيع، لأن القضاء على مؤسسة معينة يجب معرفتها وفهم طريقة سيرها، حتى يتسنى للمستعمر السيطرة عليها والدراسة تعدّ الوسيلة المُثلى لفهم المصدر الحيوي، الذي يمكنه التعرف على القدرة الاقتصادية، كما تتمكن من تحديد الفئة الاجتماعية والهيئة الإدارية التي كانت تمارس نفوذها في المجتمع الجزائري والتعرف على التغيرات والنشاط الاقتصادي للمجتمع الجزائري[4].

كما كانت الدراسة لمعرفة تشريعاته وذلك في إطار رغبتهم في نقل أملاك الدولة إلى المعمرين ما كان لا يتماشى مع قانون الأوقاف في الجزائر[5]، وهذا ما دفع أحد الباحثين إلى القول أن الأوقاف تتعارض مع السياسة الاستعمارية في الجزائر[6]، كما وصفها باحث آخر أنها تمثل أهم العوائق أمام التوسع والاستقرار الفرنسي في الجزائر[7]، فاحتوى قرار 7 ديسمبر 1830م على ثمان مواد، وربما المادة الأولى تعتبر أهمها[8]، لأنه وضعت فرنسا بموجبها كل أملاك الجزائر تحت تصرفها، وتبع هذا القرار بآخر في

---

(1) لقد كان الأول مفتشاً ماليًا والثاني مقتصدًا في الجيش الفرنسي، انظر: نفسه.

(2) Michel Habart: **Histoire d'un parjure**, op.cit, p152.

(3) أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية...**، ج1، مرجع سابق، ص ص79-85.

(4) أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج5، مرجع سابق، ص152.

(5) ناصر الدين سعيدوني: **دراسات في الملكية العقارية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.

(6) Jean Terras: **Essai sur les liens Habous en Algérie et en Tunisie**, imprimerie du Salut publique, Lyon 1899, p68.

(7) M. Blanqui l'Algérie: **Rapport sur la situation économique de nos possession dans le nord de l'Afrique**, éd., Coquebert, Paris 1840, p26.

(8) كل المنازل والمتاجر والدكاكين والبساتين والأراضي، والمحلات وأية مؤسسة مهما كانت ومهما كان عنوانها، موجهة إلى مكة أو المدينة أو المساجد أو أية جهات محددّة ستكون مستقبلاً تحت إدارة الدومين – أملاك الدولة – وهي التي تؤجرها وهي التي ستحصل منها على المداخيل وتقدم عنها الحساب، انظر: أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج5، مرجع سابق، ص161.

1 أكتوبر 1844م والذي نزع الحصانة للأوقاف وأصبحت الأوقاف تخضع لأحكام المعاملات المتعلقة بالأملاك العقارية، ما سمح للمعمرين الاستيلاء على مساحات شاسعة من الأراضي التي كانت تقع بضواحي المدن الكبرى، إضافة على هذه القرارات هناك كانت تصدر من حين لآخر لوضع الأوقاف لجهة معينة تحت تصرف أملاك الدولة، مثل قرار 4 جوان 1843م، والذي يقضي بضم أوقاف الجامع الكبير إلى مصلحة أملاك الدولة[1].

لقد نظر المستعمر لأملاك الأوقاف نظرة اقتصادية روحية وتدخّلهم في شؤون الممتلكات الدينية مسا بالديانة الإسلامية التي وعدت باحترامها واحترام كل ما يرمز إليها، ودائمًا في إطار القضاء على الهوية الجزائرية، لم تكتفِ فرنسا بالديانة أو العقيدة للجزائريين، بل رأت أنه من الضروري تأسيس أسقفية، وبالرغم من كل الخطوات التي قطعها التوسع الاستعماري ومحاولة الاستقرار، وبعد مرور ثمان سنوات من إمضاء معاهدة الاستسلام، إلاّ أن حسب رأي الإدارة الفرنسية، فإن المسيحية لم تتركز بصفة مستقرة، بسبب تأخر تأسيس الأسقفية بالجزائر[2]، ربما لعدم اتفاق البابا مع الملك لويس فليب حول من يعين رجال الدين، أضف إلى ذلك الوضع السياسي السائد في فرنسا جعل تأسيسها يتعطل[3].

كتب أحد إلى وزير الحربية يشكو إليه الوضع الديني في الجزائر قائلاً: «... منذ حوالي ثماني سنوات والعلم الفرنسي يرفرف على سواحل إفريقيا، ولم تقم حتى الآن بأي شيء من شأنه يساعد على انتشار الدين ونفوذه... إن نظرة سريعة على الوضعية المؤلمة للدين المسيحي في هذه المناطق المنكوبة الحظ، لتبرهن على ضرورة الاهتمام بتطبيق أسرع[4]، نفس الملاحظة كانت لدى أسقف مرسيليا مازينو الذي تألم هو الآخر وطلب من الملك لويس فليب بتأسيس أسقفية لوضع حدّ لهذا الوضع[5]. لأن رجال الدين كانوا يرون في تأسيس الأسقفية الأبواب التي ستفتح على مصراعيها للتنصير في المنطقة.

---

(1) أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج5، المرجع السابق، ص168.

(2) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية...**، مرجع سابق، ص50.

(3) إبراهيم لونيسي: **الإدارة الاستعمارية...**، مرجع سابق، ص110.

(4) عبد الجليل التميمي: **انطباعات حول أهمية الدين في الممتلكات الفرنسية بإفريقيا**، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 1، عام 1975، ص.

(5) Charles André Julien: **Histoire de l’Algérie contemporaine…**, op.cit, pp160.

وعلى إثر كل هذه الأحداث ، اتفق البابا غريغوار والملك لويس فليب على تأسيس الأسقفية في 8 أوت 1838م، وعين أنطوان ديبيش (Dupuch) أول أسقف لها[1].

رغم ذلك فإن تأسيس الأسقفية كان قد أثار مخاوف السياسيين الفرنسيين من الأثر الذي يمكن أن يكون على المقاومة الجزائرية ضد التواجد الفرنسي.

رغم أن الجزائر شهدت عدة محاولات فردية وفي بعض الأحيان جماعية للتنصير، كقدوم الجزويت وغيرهم من الجمعيات، وكذا أعمال إملي دوفيلار[2]، والتي وصولها إلى الجزائر كان بعد استقرار أخيها أوغسطين[3] في الجزائر، لحقت به وكان لها نشاط تنصيري كبير من خلال الأعمال الخيرية والتطبيب، حيث أنشئوا مركز طبي في مارس 1835م على حسابه الخاص، كما جلبت معها 18 راهبة بعد سفرها إلى فرنسا في نوفمبر 1835م وحصولها على تأييد وزير الحربية، وزوجة لويس فليب[4]، ثم نسجل دخول الأب بورغاد إلى الجزائر والذي اختارته إملي مرشدًا دينيًا لفرقتها[5].

ولكن هل هذه الأعمال الخيرية والتطبيب كان له نتائج داخل المجتمع الجزائري؟

إن التقرير الذي أرسلته إملي إلى البابا غريغوار السادس عشر أين تخبره يتنصر زنجيتين ولكنهما ما لبثتا حتى عادتا لديانتهما الأصلية، ثم تتكلم عن مريض كان يتحصل على العناية الطبية تمكنت من تنصيره[6].

وهنا نتأكد أنها رغم كل ما حاولت تقديمه للمجتمع الجزائري من إعانات، إلا أنها لم تتمكن من الحصول على نتائج فعلية، وهذا ما قد وضحه زويمر في مداخلته في مؤتمر القاهرة أين أعطى أمثلة للأشخاص الذين يتنصرون[7].

ولكن بتأسيس الأسقفية، فإن عملية التنصير أصبحت شبه رسمية في الجزائر، لأنه أصبح هناك تنظيم كنسي رسمي تابع لروما في المنطقة.

---

(1) Marcel Emirit: **La lutte entre ces généraux et les prêtres au début de l'Algérie Française**, revue Africaine, n°99, éd., office des publication universitaires, 1953, pp66-97.

(2) E. Dufourcq: **Les aventures de Dieu**, éd., Pévin, Paris 2009, p….

(3) Georges Goyou: **La charité Française dans l'Algérie conquise**, revue des deux mondes, septembre 1930, p93.

(4) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية...**، مرجع سابق، ص47.

(5) نفسه، ص48.

(6) نفسه.

(7) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والإشهار**، مصدر سابق، ص.

عين ديبيش (Dupuch) أسقفًا للجزائر، وصلها متحمسًا بإعادة إحياء الكنيسة الإفريقية وعبر على ذلك قائلاً: يجب أن تكون رسالتنا بين الأهالي... وينبغي علينا أن نعرّفهم بدين أجدادهم الأوليين، بالخدمات الخيرية[1]. كما أنه يتفق مع الملك لويس فليب بأن تنصير العرب خطوة لا بدّ منها حتى تتم المهمة الحضارية لفرنسا في مستعمراتها، لاسيما الجزائر[2]. وعلى هذا الأساس حاول الأسقف إيجاد وتطبيق كل الطرق الممكنة والمتصورة من أجل التنصير.

- كمنحه 20 فرنك أسبوعيًا لكل من جاء يستمع لقداس الأحد بالكنيسة ويقترح 50 فرنك لمن يقبل التعميد[3].
- كما خصص يومي الاثنين والخميس لتوزيع الخبز للمعوزين أمام الأسقفية.
- كما حاول أن يهتم بالأطفال فجمع المتشردين وحاول العمل على تنصيرهم وتعميدهم، ولقد حصل تشجيعًا من طرف البابا غريغوار 16[4].

لم يكن الأسقف يعمل وحده وإنما كان له ذراعه الأيمن، وهو الراهب سوشي (Suchet)[5] وهو الذي وصل الجزائر مباشرة بعد تأسيس الأسقفية، والذي أرسله إلى قسنطينة أين استقبل من طرف الإدارة الفرنسية بحفاوة، لأنه كما ذكر لم يدخل المنطقة قسيسًا منذ 1400 سنة، كما عمل على ربط علاقات مع رؤساء الشؤون الدينية والمدينة[6]. وتمكن من تأسيس أول معبد مسيحي، وذلك عن طريق تحويل مسجد أحمد باي إلى كنيسة، كما طالب بإحضار له منبر من إحدى المساجد القديمة[7].

فنلاحظ دائمًا فكرة تحويل الديانة، أي يركّزون على المساجد والتي تحوّل إلى كنائس، وهنا يطالب بالمنبر والذي يعتبر خاص بالمسجد والإمامة، وكل هذا من أجل جلب المسلمين بتوهيمهم أن الديانتين غير مختلفتين.

---

(1) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية...**، مرجع سابق، ص52.

(2) إبراهيم لونيسي: **الإدارة الاستعمارية...**، مرجع سابق، ص110.

(3) خديجة بقطاش: المرجع السابق، ص53.

(4) Jules Tournier: **La conquête**, op.cit, p67.

(5) نفسه.

(6) Labbe Suchet: **Le missionnaire en Algérie**, Tours, 1840, p22.

(7) Labbe Suchet: **Lettre édifiantes et curieuse sur l’Algérie**, Tours, 1840, p20.

وكل هذا جاء قبل زيارة الأسقف إلى المنطقتين قسنطينة وعنابة والتي كانت في فيفري 1839م[1].

ركّز الأسقف خلالها على التاريخ المسيحي للجزائر مشددًا بعرضه المطول على القديس أغسطين، على تواجد المسيحية في المنطقة قبل الإسلام، وهذه الظاهرة عرفها واهتم بها العديد من رجال الدين والحكام والباحثين الذين عملوا جاهدين من خلال بحوثهم، حاولوا من خلالها إبراز المعالم المسيحية الموجودة في الجزائر، والتي تعود إلى ما قبل الفتح الإسلامي[2] للمنطقة بالتنقيب على الآثار المدفونة في الأراضي الجزائرية، والتي تعود إلى العهد الروماني، وكل هذا من أجل إقناع الجزائريين أن الأصل في الجزائر هي الديانة المسيحية ولا بدّ للرجوع إليها والابتعاد وحتى نبذ الإسلام[3]، فالجنرال دوماس (Dumas) يقول أنه كلما تعمقنا في الحفر وجدنا تحت القشرة الإسلامية التي تعطي البربري رحيقا مسيحيًا، وعندما ندرك بأنه كان في القديم مسيحي لم يتحول كليةً إلى دينه الجديد[4]. أما كافينياك (Cavaignac) والذي كان حاكمًا عامًا على الجزائر من فيفري 1848م إلى أفريل من نفس السنة، وقف أمام الصليب من الآثار الرومانية على صخرة منقوشة في موزاية غرب العاصمة قائلا[5]: «بما أن روما قد حكمت هنا فما علينا إلاّ أن نواصل عملها»، كما أنه أعطى أهمية كبيرة للحفريات حتى يبرهن للجزائريين بأن للأوروبيين حقوقًا قديمة في امتلاك البلاد[6].

مكث الأسقف ديبوش في الجزائر مدة سبع سنوات 1838 – 1845م وقدم خلالها العديد من الإنجازات للكنيسة أبرزها بناء 60 كنيسة ومعبدًا و 16 مؤسسة دينية، كما جلب 91 قسيسًا و 140 إطارًا من النساء والرجال في الجانب الديني[7]. وكل ذلك كان ممكنا بحصوله على مساعدات من الإداريين والحكام والكنيسة، أي كل ممثلي الدولة الفرنسية[8]،

---

(1) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية...**، مرجع سابق، ص50.

(2) إبراهيم لونيسي: **الإدارة الاستعمارية...**، مرجع سابق، ص109.

(3) نفسه.

(4) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية...**، مرجع سابق، ص62.

(5) Le générale Ibos: **Le général Cavaignac**, Paris, 1930, p121.

(6) نفسه.

(7) أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج6، مرجع سابق، ص108.

(8) نفسه.

كان له آمالاً كبيرة في إمكانية تنصير الجزائريين، خاصة عندما رأى الجزائريين يلتحقون بالمؤسسات الطبية المسيحية ويأخذون الإعانات من الكنيسة[1]، ولكن في حقيقة الأمر فإن الفرد الجزائري كان يأخذ ما يحتاج دون المساس بدينه إلاّ نادرًا.

خلفه على الأسقفية لويس بافي (Louis Pavy) والذي استغرقت ولايته عشر سنوات من 10 جويلية 1846م إلى 16 نوفمبر 1856م، وأهم ما يميزه أنه كان دبلوماسيا وعمل على ربط علاقة حسنة مع الجيش. أبقى على فكرة توزيع الإعانات ولكن حدّد لها يوم واحد وهو الاثنين[2].

بعد انهزام الأمير عبد القادر أمام الجيوش الفرنسية، خاصة وأن هذه الحرب أو المقاومة بالنسبة للجزائريين هي جهاد ديني، ولذلك أراد الأسقف بافي اغتنام هذه الفرصة لضرب وحدة الجزائريين وزار المناطق الداخلية[3] بنية التنصير، فأول من التقى بهم هم الشيوخ وبعض الأئمة الذين التقى بهم في ديسمبر 1847 في جلسة بالمدية، أعدها له الجنرال ماري مونج قائد القطاع التطري، حاول خلال هذه الجلسة الأسقف تقريب المسيحية لهم، ولكن انتهت الجلسة بقول المفتي: «أنت على حق، اتبع دينك، ونحن لنا ديننا»[4].

وأهم ما قام به الطعن في الإسلام ومعالمه، وكان يرى أنه لتجزئة الكتلة الإسلامية، لا بد من تنظيم خاص، وجيش من الرجال، وأهم خطوة في رأيه هي تعلم اللغة العربية، عن طريق تأسيس مدرسة دينية تقوم بهذه المهمة[5]. وهو مشروع يرمي إلى تكوين سريع للمنصرين يخصصون للبلدان الناطقة بالعربية[6]، ولكن لم يتحقق هذا المشروع حتى عهد الكاردينال لافجري سنة 1868م.

اهتم بافي بالتنصير في المناطق الداخلية، مستفيدًا من تجربة من سبقه، فحول اهتمامه من المدن الكبرى نحو المناطق الداخلية، وأسند هذه المهمة إلى رهبان من جماعة

---

(1) أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج6، المرجع السابق، ص108.

(2) M. Bibolet: **Un grand évêque, ou vingt ans de l'église d'Afrique sous l'administration de M. Pavy**, Alger, 1902, p99.

(3) نفسه، ص100.

(4) Augustin Lynaud: **Les apôtres de la résurrection de l'église d'Afrique**, Alger 1930, p47.

(5) Joseph-Burmichon: **La compagnie de Jésus en France, histoire d'un siècle 1418-1914**, Paris 1916, p323.

(6) نفسه.

اليسوعيين الذين كانوا مستقرين في عدة مناطق داخلية، فوافقوا على ذلك، وكتب الأب جوردان إلى الأسقف، يخبره بإعجابه بالمشروع ويعبر عن أمله في نجاحه في مهمة التنصير[1].

ولكن التنصير بين المسلمين نشاط صعب جدًا رغم كل محاولتهم كان يحدث نادرًا، هذه النتائج السلبية جعلت الأسقف يصف المسلمين بالتعصب الديني ويشن حملة ضد الإسلام والمسلمين، حيث قال: إنه بلاهة الشعوب دون الرب[2]، وقال كذلك القرآن يا له من حماقة، والحقيقة أن محمدًا ما هو إلا منتحل للمسيح[3].

وهنا نسترجع مصطلحات رجال دين العصور الوسطى، وأن المسيحيين كلما يقفون أمام عجزهم عن إقناع المسلم، يلجئون إلى الطعن في شرعية الإسلام والقرآن والرسول من أجل زرع الشك وتشكيك المسلم في معتقداته، وأهم ما نلاحظه أن في القاعدة والأساس فإن رجال الدين المنصرين الفرنسيين لا يختلفون عن غيرهم في باقي أنحاء العالم، فربما الطريقة نوعًا ما تختلف ولكن الأصل الأساس وخاصة المنطلق لا يختلف، ومن هنا نتأكد أن كل المنصرين مشبعين بنفس الأفكار، ولهم نفس الرغبة في تصديهم للإسلام والتي انطلقت عند الكنيسة والمسيحيين منذ ظهور الإسلام.

وعندما وصل بافي إلى قناعة برفض وامتناع معظم الجزائريين للمسيحية، قام تحت إشراف الأب دوغا (Dugat) اليسوعي في سنة 1857م بتأسيس جمعية الصلاة من أجل تنصير المسلمين في العالم وإعادة إحياء الكنيسة الإفريقية، وامتدت هذه الجمعية حتى فرنسا، وارتفع عدد منخرطيها يوما بعد يوم حيث كانت في سنة 1863م مثلا ستون ألفًا ليصلوا في سنة 1867م إلى ثمانون ألفًا، وكانت تشمل مختلف الطبقات[4]، وبعد ذلك في حقيقة الأمر كانت لها مهمة بعد الصلاة الطاهرة طبعًا، ترويج فكرة ضرورة استرجاع الكنيسة الإفريقية وأنه لن يكون ذلك إلاّ عن طريق السيطرة على الجزائر وتمسيحها لأنها تعتبر بوابة إفريقيا، وبذلك نرى أنهم دائمًا يلجئون إلى معتقداتهم الأولى ومشاريع رجال

(1) المرجع السابق، ص322.

(2) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية...**، مرجع سابق، ص67.

(3) Augustin Lynaud: **Les apôtres…**, op.cit, p51.

(4) Félix Klein: **Mgr Pavy et la question Arabe le correspondant**, in revue d'histoire contemporaine, T3, n°1901, pp798-800.

دين العصور السابقة لتحقيق أهدافهم، كريمون لول وغيره الذين كانوا يرون أن الجزائر وشمال إفريقيا عامة هي المدخل لتمسيح العالم.

أضف إلى هذا تشجيع بعض المسؤولين الفرنسيين التنصير في الجزائر، وتظهر من خلال وقوفهم إلى جانب رجال الدين، وهذا يبرهن على الترابط المتين بين السياسة والدين، إلاّ أن المقاومة المسلّحة الجزائرية ورفضها للمسيحية ومقاومتها، جعلت أو بالأحرى أجبرت الحكومة الفرنسية بباريس أن تبدي تحفظها وتخوفها من النشاط التنصيري، وخوفها كان على ممتلكاتها واستقرار المنطقة لا غير، ورغم ذلك فتراها في معظم الأحيان تسكت وتتغافل على نشاطات بعض رجال الدين، تحت ستار العمل الخيري ومنحهم إعانات مادية ومعنوية وحتى بشرية في بعض الأحيان.

بعد بافي تولى رئاسة أسقفية الجزائر الكاردينال لافجري (Lavigerie)، وقد تميزت الفترة التي شهدت بدايته في هذه الوظيفة أو قبلها بقليل، أي الفترة الممتدة من سنة 1866م إلى سنة 1868م، بكوارث طبيعية من زلزال مدينة البليدة وضواحيها، وكذا هجوم الجراد، والجفاف، ووبائي الكوليرا والتيفوس، فكل هذه الأحداث نتجت مجاعة عامة في الجزائر منذ عام 1867م إلى غاية أواخر عام 1867م[1].

أقام لافجري قبل وصوله إلى الجزائر، في المشرق الإسلامي من سنة 1855م إلى غاية سنة 1862م، ما منحه دراية وإلمام بشؤون المسلمين العرب، حيث مارس هناك مهمة التدريس، واهتم بمدارس الشرق التي عملت من أجل استرجاع مسيحيي الشرق إلى كنيسة روما[2].

عيّن على أسقفية الجزائر، باقتراح من الجنرال ماكمهون على نابليون الثالث[3]، ورغم أن لافجري كان له مكانة خاصة عند نابليون، إلاّ أنه أظهر تخوفه لأنه كان عنيدًا ولا يتحلّى بالحذر مع غير المسلمين، إضافة إلى تشدّده ما سيعقّد الأمور في الجزائر، أين الوضع الديني من المسائل الحساسة والذي يجب التعامل معه بالعقل[4].

---

(1) L’abbé Burzet: **Histoire des désastres de l’Algérie 1866-1867**, éd., imprimerie centrale Algérienne, Alger, 1968, p.

(2) Charles André Julien: **Histoire de l’Algérie…**, op.cit, p440.

(3)

(4) Charles André Julien: **Histoire de l’Algérie…**, op.cit, p440.

المخطط الذي كان يدور في أذهان المنصرين هو خلق قرى عربية وبربرية مسيحية مغلقة، حيث تمثل الجزائر في منظور الكنيسة بوابة رئيسية لتنصير مئتي مليون إفريقي، وهذا ما عبر عنه لافجري بمجرد وصوله الجزائر: «تكون المبادرة مع المنصرين ولكن المهمة الثابتة والدائمة يتولاها الأهالي الأفارقة بأنفسهم من سيصيرون مسيحيين ومنصرين»[1]. وهذه الأفكار لا تبتعد عن ما كان يدرس ويلقن لجميع رجال الدين حيث تكوينهم، وهذه التجارب التي قام بها المنصرين في مناطق أخرى.

يمكن اعتبار الكاردينال لافجري من الوجوه التنصيرية التي كانت لها أثر كبير ومهم على الفكر التنصيري، وذلك نظرًا لتفكيره وسلوكه وجرأته في مختلف الميادين[2]. كما اعتبرت مرحلة توليه على الأسقفية قمة أنواع التنصير في الجزائر، وذلك نظرًا لفعالية أعماله، ومنذ وصوله إلى الجزائر وربما قبل ذلك كانت نيته واضحة في رغبته في تنصير المغرب، وهذا ما أوضحه في رسالته التي بعثها لوزير الشؤون الدينية الفرنسي بعد قرار تعيينه، وقال فيها أنه الوحيد الذي اهتم بنشر المسيحية وسط العرب، وكان له علاقة طيبة مع مسيحيي المشرق العربي، وهؤلاء يجب استدعاؤهم إلى الجزائر[3]، هذه فكرة لجلب المسيحيين العرب إلى الجزائر هي مشاريع قديمة حاولت الكنيسة تطبيقها[4]. كما أن تعيينه على الأسقفية كان له أبعادًا دينية وسياسية معًا، ومن أجل تعزيز المكاسب الفرنسية بالجزائر، خاصة وأنه معتبرًا الجزائر بوابة إفريقيا، وهذا أعلنه عبر رسالته الموجهة إلى رهبان الجزائر يوم 05 ماي 1867م عندما أعلن أنه سيأتيهم إلى الجزائر في وقت أو تاريخ سيكون مهم في تاريخ إفريقيا المسيحية، وأن كنيسة فرنسا مصرّة على إحياء الماضي[5].

---

(1) عز الدين عناية: **الحضور المسيحي**، مرجع سابق، ص17.

(2) عبد الجليل التميمي: **دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس 1830 – 1881م**، المجلة التاريخية المغربية، ع1، جانفي 1975، ص14.

(3) Xavier Demanclos: **Lavigerie et le saint siège**, Paris 1965, p325.

(4) الحبيب الجنحاني: **حركة التبشير والسياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب العربي في القرن التاسع عشر**، مجلة الأصالة، سبتمبر – أكتوبر 1973، ص29.

(5) Mgr Grussenmeyer: **Vingt-cinq années, d'épiscopat en France en Afrique**, document bibliographique, T2 sur le cardinal Lavigerie, Alger, 1882, p107.

كما يؤمن لافجري أن التنصير يكون عن طريق الإدماج وليس بالقوة، حتى وإن بقيت الدهر في الجزائر، كما أنه كان رافضًا لسياسة الإدارة الفرنسية في الجزائر التي لم تعمل على إدماج الأهالي في المجتمع والحضارة المسيحية ولن يتم ذلك إلاّ بالتنصير(1)، كما أنه كان متيقنًا أن القرآن والإسلام أشد عدوا للمسيحية وأنه واجب محاربته، بما أنه كما يرى لافجري شريعة الكذب والأخلاق(2). كما استعمل في نشاطه التنصيري طريقتين أساسيتين استعملت من طرف كل المنصرين عبر العالم، وهي الأعمال الخيرية والتعليم(3). فاغتنم فرصة الكوارث التي مرت بها الجزائر من أجل تطبيق التنصير عبر الأعمال الخيرية بين المتشردين والأيتام والمرضى والمعوزين والمجاعات، حيث تمكن من جمع حوله حوالي 1800 طفل فوزعهم على مختلف الملاجئ التي أنشأها، في بوزريعة وبولوغين وبن عكنون والأبيار والقبة وبوفاريك ومدينة الجزائر(4)، قصد – ظاهرًا – معالجتهم وتنصيرهم في الواقع.

ومن أجل الحصول على الإعانات، قام لافجري بعدة رحلات لطلب المساعدة من الحكومة الفرنسية والكنائس ورجال الدين، مؤكدًا دائمًا على مأساة الجزائر من جراء النكبات، وكذا التخلف والجهل الذي يعيشه الجزائريين، وتعود هنا وبقوة فكرة تحضير الشعوب المتخلّفة والتي تعتبرها فرنسا مهمتها، من خلال استعمارها لمناطق العالم الإسلامي، وبذلك لقي نداءه صدًى فتكونت جمعيات ولجان من أجل جمع التبرعات(5).

وكان متأكدًا أنه بإمكانه أن يترك أثرًا طيبًا في نفوس الأهالي عن طريق خدماته الخيرية، فتوصل لافجري في الإصرار لصنع نخبة كهنوتية جزائرية مسيحية، كتنصير "بن مسرة" والذي صار يسمى برتوليمي بن مسرة والذي قدم للبابا وكذا مشال العربي الذي تنصر وترقى إلى رتبة دينية للقيام بمهمة التنصير وآخر بروش الصغير، دون أن ننسى آخرون ولكن تراجعوا خلال تكوينهم الديني المسيحي، ولكن رغم كل هذا لم تكن

---

(1) Le cardinal Lavigerie: **Fondateur de la société des pères blancs**, revue des missions d'Afrique, des pères blancs, n0329, p324.

(2) Félix Klein: **Le cardinal Lavigerie**, Tours, 1897, p29.

(3) Mgr Grussenmeyer: **Vingt-cinq années…**, op.cit, p17.

(4) خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية…**، مرجع سابق، ص.

(5) J. Tiquet: **Une expérience de petite colonisation en Algérie, les colons Arabes chrétiens du cardinal Lavigerie**, Alger 1936, p26.

هناك نتائج التي كان يتوقعها، حيث كتب الراهب ديبيش أنه بعد أن عمل خمسين سنة منصرًا من سنة 1873م إلى سنة 1892م كانت حصيلة المتنصرين قليلة جدا، لهذا لافجري كان دائمًا يعلن أن عمله لن يرى نتائجه إلاّ بعد 100 أو 150 سنة، حتى تتمكن الجزائر من التنصير[1].

فبعد تمسيح المحيط ومحاولة تنصير الروح لتعزز الأفكار النصرانية، لا بد من المساس بمكونات الهوية والتي ترتكز على عدة أسس ما رأيناه، العقائدي، اللغة والتي تمثل مرآة العقل[2]، فهي تعتبر من أهم أسس الحياة الاجتماعية والشخصية، وهي وسيلة الإنسان للتعبير عن رغباته وأفكاره وإحساسه، وهي وسيلة لتطوير مواهبه وتنمية عقله وتمكنه من اكتساب خبراته ومهارته. كما أنها الوسيلة الإنسانية لنقل الحضارات والثقافات[3].

لاحظنا أن أهم ما اهتمت فرنسا عند دخولها الجزائر هي المؤسسات الدينية، لأن المسجد هو مكان للعبادة والتعلم في نفس الوقت، فانتشار اللغة العربية له علاقة وطيدة بالمؤسسات التعليمية، وهذا منذ الفتح الإسلامي للمغرب، ولهذا السبب عملت الإدارة الفرنسية على القضاء على كل المؤسسات الدينية من أجل القضاء على اللغة التي تمثل عنصر جامع وموحد للعالم الإسلامي، فهدمت كل المساجد والزوايا والكتاتيب ومراكز الثقافة أو تشديد الحراسة عليهم حتى تبقى أعينها على كل ما يلقن فيها[4].

كما أن رجال الدين لم يتمكنوا من خرق نسيج المجتمع الإسلامي، لاسيما الجزائري دون اللفة العربية واللهجة البربرية معًا، فعملت الإدارة الفرنسية على واجهتين، ضرب اللغة العربية داخل المجتمع الجزائري من سياستها في مقاومة اللغة عن طريق السيطرة على المؤسسات الدينية، وفي نفس الوقت قامت بتكليف عربًا مهمتهم تعليم المنصرين اللغة العربية، فأصروا على تعلم البربرية والعربية، وهذه كانت من أهم تكوين المنصرين عبر العالم، ليس المتوجهين للجزائر فقط، فأصبحت تعلم اللغات واللهجات ضرورة للالتحاق بمناطق التنصير.

---

(1) عز الدين عناية: **الحضور المسيحي**، مرجع سابق، ص17.

(2) فلوريان كولماس: **اللغة والاقتصاد**، ترجمة أحمد عوض، م. و. ث. ف. أ. الكويت، 2000، ص9.

(3) أحمد المعتوق: **الحصيلة اللغوية**، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1996، ص35.

(4) سعيد بوخاوش: **المقاومة الجزائرية للسياسة اللغوية الفرنسية 1830-1945**، مذكرة ماجستير للموسم الدراسي 2012/2011م، جامعة الجزائر، ص55.

ولهذا السبب تعلّق قادة الاستعمار منذ البداية، مدى انتشار اللغة الفرنسية في الجزائر والقضاء على اللغة العربية، باعتبارها روح المجتمع الحي ووعاء أنشطتها الثقافية، وهي مستودع ذاكرتها الجماعية والتاريخية، وربما أهم مقومًا لوحدتها بعد الدين، حيث أرجع بن باديس أن وحدة أي أمة هي تكلمها بلسان واحد[1]، رفضوها ونبزوها باللغة الميتة، واللغة الأجنبية، كما حاولوا التحريض عليها، حتى وصفوها بلغة قريش، وشدّدوا الخناق عليها ووضعوا شروطًا تعجيزية لافتتاح المدارس لتعليمها، وجرّموا كل من يحاول تعلّمها وتعليمها، حتى أصبح في الجزائر فتح مدرسة لتعلّم اللغة العربية من أصعب ما يكون[2]. وجسدت ذلك من خلال جملة من القوانين والمراسيم والقرارات والمناشير، أهما: قانون الأهالي 28 جويلية 1881م، مرسوم تنظيم التعليم الخاص والمهني 9 ديسمبر، مرسوم 18 أكتوبر 1891م، المؤكد للسابق قانون 27 سبتمبر 1907م، وكل ذلك من أجل تشديد الخناق على التعليم الحر واشتراطات افتتاح المدارس الخاصة[3].

كما نشط الفرنسيون بالموازاة في تعميم اللغة الفرنسية وفرضها في كافة ميادين التعليم والإدارة والاقتصاد والنشر والإعلام والقضاء والمحيط[4].

ولم يستثنوا مناهج المدارس الشرعية الثلاث: الجزائر، قسنطينة وتلمسان، المكلفة بتكوين إطارات الوظيف الديني الإسلامي، فعملوا على فرنستها في الثلث الأخير من القرن 19م خاصة سنة 1887م وسنة 1895م.

تيقنت الحكومات الاستعمارية أنه لا مجال للاستقرار في المستعمرات إلاّ عن طريق العمل التنصيري، من أجل تغيير بنية المجتمع الجزائري، وهذا التفكير لم يكن خاصا بالفرنسيين، ولكن مثل القرن 19م اعتبر من أهم العصور التنصيرية الفرنسية، حيث كانت فرنسا الدولة المثالية في هذا الميدان[5].

---

(1) مؤنس حسين: **الحضارة**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص62.

(2) فرحات عباس: **ليل الاستعمار**، ترجمة أبو بكر رحال، ANEP، الجزائر 2005، ص114.

(3) عبد الجليل التميمي: **الفكر التبشيري**، مرجع سابق، ص23.

(4) وما يظهر كذلك في تغيير أسماء معظم المدن والبلديات والطرقات والأماكن. انظر: بشير بلاح: **تاريخ الجزائر المعاصر 1830 – 1989م**، ج1، دار المعرفة، الجزائر، 2016، ص83.

(5) فرحات عباس: **ليل الاستعمار**، ترجمة أبو بكر رحال، ANEP، الجزائر 2005، ص114.

أضف إلى ذلك ما يمكن أن يبرهن على العلاقة أو الارتباط الوطيد بين السياسيين والمنصرين، وهو ذلك البند 438 من معاهدة فرساي (Versailles)، والتي أمضيت من طرف سياسيي أوروبا وأمريكا بعد الحرب العالمية الأولى، أي مؤتمر الصلح 1919م والتي نصت على حرية وجواز التنصير[1]، وهنا نسطر على الشرعية التي منحت لرجال الدين لممارسة نشاطهم في كل العالم بكل حرية.

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار...**، مرجع سابق، ص48.

الخاتمـــــة

كان الدين وسيبقى عبر العصور والأزمنة، وفي مختلف أنحاء وأرجاء المعمورة، المحور الأساسي والجوهري والمحرّك والمؤثر في الأفراد والأسر والمجتمعات، وأيا كان هذا الدين أو المعتقد، ومن ثمة كان له ولا يزال الأمر الواضح على توجهات وسياسات الشعوب والأمم والدول، وبناء عليه، وانطلاقًا منه، يمكن القول والادعاء أن هيمنة وسيطرة الفكر الديني تبدو جلية وبيّنة في المجتمعات والدول، وتكتسي أهمية بالغة ومؤثرة في الفلسفة التي تقوم عليها السياسات الداخلية والخارجية لهاته الشعوب والأمم والدول.

وهذه الفلسفة ظهرت في الحضارات القديمة التي سبقت الحضارة الإسلامية العربية، وتلك التي تمكّنت من تحجيم هذه الحضارة وتقزيمها، والحلول ميدانيًا وظاهريًا محلها وبدلاً عنها؟ وهكذا إذن يظهر لنا أن الديانات أو المعتقدات – إن صح التعبير – ركن ومحور جوهري وأساسي في الصراع الحضاري، وقد ثبت بما لا شك فيه، وعبر العصور، أن المعتقد الديني يُعتبر وسيلة ظاهرة وباطنة في هذا الصراع، وأن الساسة والعسكر ورجال الدين والثقافة اتخذوا منه وسيلة وآلية لتحقيق الأهداف والمبتغيات الكبرى لهذه الحضارة وتلك.

وعند الوقوف عند الحضارة المسيحية، التي قادتها الحضارة الرومانية قبل ظهور الإسلام في القرن 7م، ومجموعة من الدول الأوروبية بعد التراجع الحضاري للمسلمين والعرب خلال القرون الأخيرة، تبدو الأهمية التي يوليها الساسة لرجال الدين في الدول الغربية والمسيحية جلية وواضحة، خاصة في نشاطهم من أجل السيطرة على الشعوب التي لا تدين بالمسيحية، والعمل على تطويقها وتركيعها لكي تدخل وتندمج رغبة أو رهبة في الديانة المسيحية ومعتقداتها وطقوسها، ضاربين عرض الحائط مصالح هذه الشعوب والأمم وقيمها ومبادئها، وقبل ذلك وبعده الحرية في اختيار المعتقد والتمسك به، والعمل بمضامينه، والعمل فقط وبشتى السبل والوسائل على تحقيق الرغبات والحسابات الدينية والثقافية والسياسية والعسكرية والاقتصادية التي تخدم أفكارهم ومشاريعهم من أجل السيطرة والقيادة الإقليمية والدولية.

ومما سبق، وبعد دراسة البعد الديني للفكر الاستعماري وتطبيقاته وتجلياته، في القرن 19م من طرف الدولة الفرنسية المتحالفة مع الكنيسة سرا وجهرًا، خاصة بعدما سيطرت على أجزاء واسعة من إفريقيا والبلاد العربية والإسلامية، توصلت إلى مجموعة

من الاستنتاجات والخلاصات ذات الأهمية القصوى، والتي يمكن حصرها في النقاط التالية:

– قامت المؤسسة الكنسية في البداية وظاهرًا كدور للعبادة، تؤدى فيه العبادات والطقوس المسيحية التي يُشرف عليها رجال الدين من مختلف الرتب الدينية المعتمدة من طرف الكنائس المسيحية، وبعد اعتماد الامبراطورية الرومانية للمسيحية كدين رسمي للدولة، بدأت تتطور العلاقة وتترسخ بين رجال الدين ورجال السياسة، وعَمَل الطرفان معًا في إطار التكامل وتبادل الأدوار في القضايا الداخلية والخارجية معًا. ففي النقطة الأخيرة نلاحظ أنها كانت أكثر إجماعًا بين الطرفين، فكان الالتقاء والتظافر في مجالات التوسع على حساب الشعوب والدول الأخرى، كما شمل التعاون والتحالف والتقارب مجالات ومهامات عمل أخرى وذات أهمية، تتمثل خصوصًا في جمع الأموال والمدخرات والسيطرة على العقارات والممتلكات ومساندة بعضهما البعض عند كل المصالح المشتركة، الداخلية منها والخارجية، وهكذا وجدت الكنيسة نفسها بعد تحالفها مع السلطة الرومانية، قد ابتعدت عن تحقيق الدوافع الحقيقية لكل ديانة، والمتمثلة أساسًا في علاقة الفرد بربه، في حين أعطت هذه المؤسسة أهمية كبيرة لحب القوة وتسيير العالم.

– لقد أثبتت الوقائع والأحداث التاريخية التي تلت التحالف بين الكنيسة والسلطة في روما، أن البُعد الديني في فلسفة الحكم والسيطرة والتوسع والاستعمار، أصبح يحتل المكانة الأساسية لتحقيق أفكار ومفاهيم الهيمنة والتغلغل وفرض الرؤى والقيم المسيطرة بين رجال الكنيسة ورجال الحكم والساسة في الداخل عند اقتضاء الضرورة والمصلحة، وخارج الحدود كان التحالف والتنسيق على الدوام وتحت مسميات مختلفة.

– يمكن اعتبار الفكر أو التيار التنصيري في الفترة المعاصرة أقوى وأنشط حركة فكرية عاشها العالم، وتطورت منذ ظهور الإسلام، واعتبرته أهم عائق في وجه توسعها الصليبي، حيث عمل رجال الدين على تشويه الإسلام والمسلمين وإشعال نيران الحقد والكراهية بين المسيحيين والمسلمين، معتمدين من أجل ذلك على عدة كتابات ومنشورات، والتي كانت في البداية من أجل تهيئة الأفراد لقيادة حروب صليبية عسكرية، لتتواصل بعدما تيقنوا بعد الخسائر المتتالية التي تلقوها وأمام المنظر الرهيب لوفود المسلمين من كل أنحاء العالم تحت راية واحدة، لنصرة دينهم.

– لقد تبين لقادة الفكر الغربي المسيحي أنه لا جدوى من حروب مسلّحة وجيوش، وخسارة بشرية، وأن الوسيلة الأهم وقد تكون الوحيدة للوقوف في وجه التوسع الإسلامي هي السيطرة على عقل الفرد المسلم، ودغدغة مشاعره وأحاسيسه بمواقف تبدو ظاهريا مؤثرة وبالتالي محاولة التأثير على روحه ونفسيته وتشكيكه في سلامة معتقده وديانته الإسلامية، ليصبح مسلما بالاسم والظاهر، وكل تصرفاته مخالفة لدينه، وسنة رسوله، والعمل على جعله فردًا دون أخلاق، وإذا ضاعت أخلاق الفرد والأمة أصبحت الأخيرة عُرضة لكل الأطماع.

– أخذ الفكر الاستعماري طرقًا عديدة، من كشوفات جغرافية، وتحرير الأسرى، ومحاربة القرصنة وتخليص الشعوب من السيطرة العثمانية، وكلّها تتنافى مع أفكار التحرر والتنوير والتي منحت الإنسان الأوروبي حرياته وأعطت الأولوية للفرد قبل الجماعة، فنجد فرنسا ترمي عرض الحائط كل مبادئ ثورتها الفرنسية في مستعمراتها.

– من الاستنتاجات الهامة كذلك أن الاستشراق والتنصير هي أوجه أو فروع الفكر الاستعماري، وذلك أنها تلتقي كلها في نفس الأهداف والغايات وحتى المنشأ، ونتائج كليهما تصب مباشرة في أسس الفكر الاستعماري ومخططاته، فالاستشراق هو الجانب العلمي، النظري للفكر الاستعماري، والتنصير هو معول لتطبيق كل النظريات الاستشراقية. والفكر الاستعماري يصب في نفس الوعاء، مستعملاً أحيانًا المنصرين لتطبيق هذا الفكر، وجنوده في أحيان أخرى، فهو يجمع كلا الفكرين.

– تجلّى الدعم الكنسي للفكر الاستعماري في كل كتابات وأفكار رجال الدين وعلماء اللاهوت، والتي كانت بمثابة الأفكار الأساسية التي استلهمت منها الجيوش لمحاربة العالم الإسلامي، من الحروب الصليبية، حتى الحركة الاستعمارية التي عرفها القرن 19م، مرورًا بالكشوف الجغرافية وافتداء الأسرى، والتي دعّمت مضامين الفكر الاستعماري. تمكّنت الكتابات من إعطاء صورة نمطية للآخر ولعقيدته والتي كانت منذ البداية تصوّر هذا المسلم كأنه وحش، غير متحضّر سفّاح منافق، لا يهمّه سوى التوسع وجمع الأموال، لتتطور هذه الأفكار باقترانها بفكرة التفوق، وهذا راجع الى سبب هام وهو أنه في البداية كان التخويف من هذا المسلم من أجل إبعاد المسيحي منه ومن إسلامه، ثم تحوّل هذا التخويف إلى الإحساس بالتفوق والرغبة في السيطرة، واستعملت فكرة ضرورة تطوير

الشعوب المتخلفة، الإسلام والمسلمين على وجه الخصوص. فكان للكنيسة نصيبها من الحركة الاستعمارية، مستغلة الدين للسيطرة على شعوب أراضي جديدة، بحجة التنصير، فبعد كل الصراعات الدينية التي عاشتها أوروبا عامة وفرنسا خاصة وانقسامها، فالحكومات التي جاءت بعد 1815م، أعطت أهمية كبيرة للدين، وجاءت حملة لإعادة نشر المسيحية في العالم بعد مؤتمر الصلح، ولقد مهدت هذه الفترة لإعادة تأسيس بعثات تنصيرية، ومنحت القوى الاستعمارية الحجة من أجل التوسع ما وراء البحار.

– استعملت الكنيسة آليات ووسائل مختلفة ومتنوعة من أجل تحقيق مشاريعها ومخططاتها في مختلف أنحاء العالم وخاصة المسلم منه، وصنفت الفئات من أجل الحصول على نتائج لعملها التنصيري، فكانت للنخبة طرق ووسائل أهمها الكتابات والأعمال الأكاديمية الموجهة من أجل التشكيك بحجج علمية، فشككت في كل هو ما هو يقين عند المسلم، ابتداء بإسلامه وكتابه وصولاً إلى طرق الحكم وسياستهم، وصولاً إلى خلق نخبة تسير البلاد لا علاقة لها بالإسلام. أما العامة فاستعملت الإرساليات، التعليم اساسًا والأعمال الخيرية من أجل اختراق المجتمعات، فركزت على المرأة لأنها تعتبر أساس المجتمع، ثم الطفل وهو في نظرها حلقة مهمة تسيطر الكنيسة من خلاله على المجتمع.

– كما اهتمت كذلك بكل ما يمكن أن يمنع أية وحدة أو تقارب بين دول العالم الإسلامي، وربما أهمها اللغة، محاولين نشر العامية واللهجات على حساب اللغة العربية الجامعة لهذا العالم الإسلامي.

– كانت مؤتمراتهم التي عقدت في مختلف المراحل السياسية التي مر بها العالم، إلا مخابر لمناقشة نظرياتهم ومخططاتهم ونتائجهم، لرسم خريطة طريق جديدة لمواصلة العمل، ابتداء من مؤتمر القاهرة، ووصولا إلى مؤتمر كولورادو في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1978، أما المؤتمرات الاستشراقية فكانت عديدة وخرج منها العلماء بمئات، بل آلاف من الإصدارات تهتم بكل مجالات الأمة الإسلامية الشرقية.

– تشجيع كل ما يساعد على تفرقة وحدة الأمة الإسلامية، من لغات ولهجات ومذاهب وطوائف وصراعات داخلية وعرقية، خلقت حدود جغرافية جديدة وذهبت إلى خلق دويلات جديدة، ومحاولة خلق مجتمعات مسيحية داخل المجتمعات الإسلامية وذلك عن طريق توطين جماعات مسيحية فيها، كمشروع توطين الموارنة في الجزائر تحت غطاء

حماية المسيحيين، وإعطائهم فرص الاستثمار، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل لعدة أسباب، خاصة السياسية منها، وهي رفض الحكومة الفرنسية لهذا التهجير لعدم سيطرتها على المجتمع الجزائري كلية.

– حصول فرنسا على لقب حامية المسيحيين في العالم من طرف الكنيسة، هو ما ساعدها على التغلغل داخل المشرق الإسلامي، وركزت عملها على الطوائف النصرانية، واستعملتهم من أجل جعل المنطقة في أزمة مستمرة ونزاعات بين الطوائف النصرانية، ومن هنا يتجلى لنا أن القضية ليست قضية ديانة، وإنما قضية السيطرة على المنطقة.

– أما بالنسبة للجزائر، فالبدايات الأولى للتنصير كانت قبل 1830م، فبدأت بمحاربة الجهاد البحري عن طريق فكرة افتداء الأسرى، والتي كانت طريقة للاستقرار واحتكاك المنصرين بالمنطقة والتعرف عليها، ومحاولة جلب الجزائريين وتقديم المسيحية على أنها دين قيم وأخلاق ومعاملة ودين التطور والتقدم، بينما الإسلام هو العائق أمام التطور وتفتح العقل.

– لتأتي فيما بعد الحملة الفرنسية على الجزائرية، وما حملت معها من رهبان وعلماء كعنوان أساسي للبعد الديني في الفكر الاستعماري الغربي المسيحي عمومًا، والفرنسي تحديدًا، وإذا حاولنا مقارنة وصول حملة نابليون على مصر، وحملة شارل العاشر على الجزائر، فمن الناحية العلمية لا تختلفان، فكلتا الحملتين محملتان بالرهبان والعلماء، واستهدفت كليهما المجتمع والفرد.

– الدور اليهودي في استعمال المسيحية والفكر المسيحي في محاربة الإسلام والمسلمين، وعليه دور الفكر اليهودي الباطن خلال القرون الأخيرة في الفكر الاستعماري الغربي الحديث، ومنها الفكر الاستعماري الفرنسي على وجه التحديد، وأهم أقطاب الفكر التنصيري يعدون من اليهود، فالمنصر زويمر يهودي الأصل، وإن كان بعض المنصرين ليسوا يهوديي الأصل، نجدهم تحالفوا مع اليهودية، أو الصهيونية المسيحية التي ظهرت في نهاية القرن 19م.

الملاحق

ملحق رقم 1:

خطاب البابا أوربان الثاني التي ألقاها في المجمع الديني المنعقد في كليرمونت عام 488هـ/1095م

يا شعب الإفرنجة، يا شعب الله المحبوب المختار، لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة، تعلن أن جنسًا لعينًا أبعد ما يكون من الله قد طغى وبغى في تلك البلاد، بلاد المسحيين في الشرق، قلب موائد القرابين المقدسة، ونهب الكنائس وخربها وأحرقها، وساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم، وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع تعذيب، ودنسوا الأماكن المقدسة برجسهم وقطعوا أوصال الإمبراطورية البيزنطية، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها في شهرين كاملين.

على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع إن لم تقع عليكم أنتم، أنتم يا من حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد في القتال، وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم. أمجاد شارلمان وعظمته، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم، فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا، الضريح الذي تمتلكه الآن الأمم الناجسة، وغيره من الأماكن المقدسة التي لوثت ودنست، لا تدعوا شيئًا يقعد بكم من أملاككم، أو من شؤون أسركم، ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار، وتلك الجبال، ضيقة لا تتسع لسكان كثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بمن يكفيكم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضًا، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية. طهّروا قلوبكم إذن من أدران الحقد، وأقضوا على ما بينكم من نزاع واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملّكوها أنتم، إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج، إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجدًا لا يفنى في ملكوت السماء.

ملحق رقم 2:

صورة غلاف كتاب الأب دان



HISTOIRE
DE
BARBARIE
ET DE SES
CORSAIRES.

Par le R.P.F. PIERRE DAN, Ministre et Superieur du Conuent de la S.te Trinité, et Redemption des Captifs, fondé au Chasteau de Fontaine-bleau, Bachelier en Theologie, de la Faculté de Paris.

A PARIS,
Chez PIERRE ROCOLET, Libraire et Imprimeur ord.re du Roy, au Palais, aux Armes du Roy et de la Ville.
Avec Privilege de sa Majesté.
1637.

Source: Dan Pierre: **Histoire de la Barbarie et de ses corsaires**, 2ème éd., Pierre Rocolet, imprimeur et libraire du roi aux armes du roi, Paris, 1946.

ملحق رقم 3:

إحصائيات لسنتين مختلفتين:

	1926م	**1951م**
المنصرون	400	600
الكاثوليك	15.000	28.000
رجال الدين	14.800	26.800

إذا تمعنا في الجدول نلاحظ التزايد الهام للإحصائيات التي تخص الكنيسة وعملية التنصير والمقيمين عليها[1].

حصر للمؤسسات التنصيرية ما بين القرن [17م – 20م]

المؤسسة	**سنة النشأة**	**المهام**
جمعية لندن التنصرية	1765م	موجهة إلى إفريقيا
البعثات التنصرية للكنيسة	1799م	موجهة إلى الهند/الخليج العربي
جمعية طبع الإنجيل البريطانية	1804م	وتهتم بطبع الإنجيل وترجمته وتوزيعه
جمعية طبع الإنجيل الأمريكية في البلاد الإسلامية	1812م	لها مطابع ومكتبات تجارية كمطبعة النيل في الخرطوم
مجلس الكنيسة المشيخية الأمريكية	1837م	موجهة للعالم العربي
جمعية الكنيسة التنصرية	1844م	ومهمتها التعليم والخدمات العلاجية
جمعية الشباب النصاري	1855م	
إرسالية الجامعات لوسط إفريقيا	1856م	وهي التي لبت نداء المستكشفين
جمعية الشباب القوطيين		تنصير البلاد الأجنبية
كنيسة الإصلاحية الأمريكية	1863م	كاثوليكية تهتم بالعلاج والتعليم
اتحاد البعثة التنصيرية الانجليزية	1890م	مهامها في الولايات المتحدة الأمريكية
الإرساليات العربية الأمريكية	1894م	تهتم بمنطقة الخليج
جمعية اتحاد الطلبة النصاري	1895م	

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص ص35-36.

جمعية التنصير العالمية	1913م	تهتم بالتعليم والطب، والأدب والترجمة
جمعية تنصير الشباب	1956م	
الامتداد النصراني في الشرق الأوسط	1976م	تهتم بالمطبوعات
إرسالية الكنيسة الحرة الاسكتلندية		تهتم بالصناعات اليدوية الزراعية
جمعية التنصير في أرض التوراة العثمانية		
جمعية التنصير في شمال إفريقيا		
لجنة التنصير الأمريكية		
إرسالية كنيسة اسكتلندا الرسمية		جاءت لتلبية ديفيجستون المستكشف
إضافة إلى جمعيات محلية في المناطق		

مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار في البلاد العربية، عرض لجهود المبشرين التي ترمي لإخضاع الشرق للاستعمار الغربي**، بيروت، المكتبة العربية، ص ص201-205.

ملحق رقم 4:

برنامج مؤتمر لانكو 1911

أ. ل. لوشاتلي، الغارة على العالم الإسلامي، ص ص146-147

1) درس الوضع الراهن.

2) استنهاض الهمم لتوسيع نطاق تعليم المنصرين والتعليم النسائي.

3) إعداد القوات اللازمة ورفع شأنها.

أما البرنامج الذي وزع على المؤتمرون هو:

1) النظر في حركة الجامعة الإسلامية ومقاصدها وطرفها والتأليف بينها وبين تنصير المسلمين.

2) النظر في الانقلابات السياسية في العالم الإسلامي وعلاقاتها بالإسلام ومركز المبشرين.

3) موقف الحكومات إزاء إرساليات تنصير المسلمين.

4) الإسلام ووسائل منع اتساع نطاقه بين الشعوب الوثنية.

5) تربية المنصرين على ممارسة تنصير المسلمين والعوامل النفسية اللازمة لذلك، والبحث في الدروس الإعدادية ودروس التنصير وتأليف كتب للمنصرين وللقراء المسلمين.

6) حركات الإصلاح الديني والاجتماعي.

7) الارتقاء **الاجتماعي** والنفسي بين نساء المسلمين.

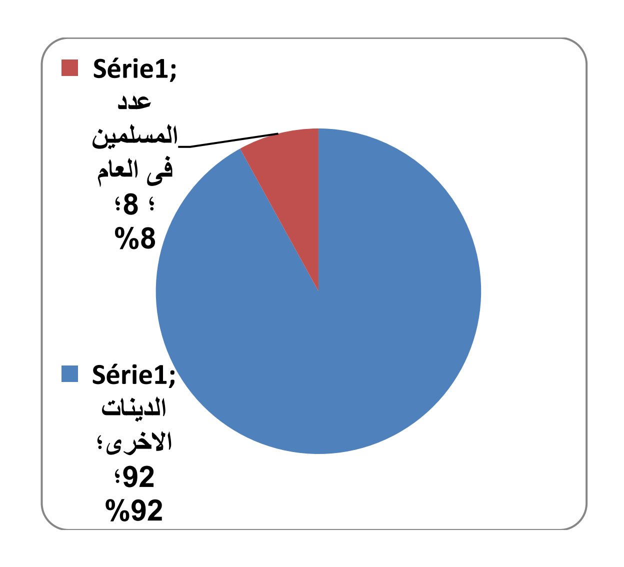
8) الأعمال النسائية.

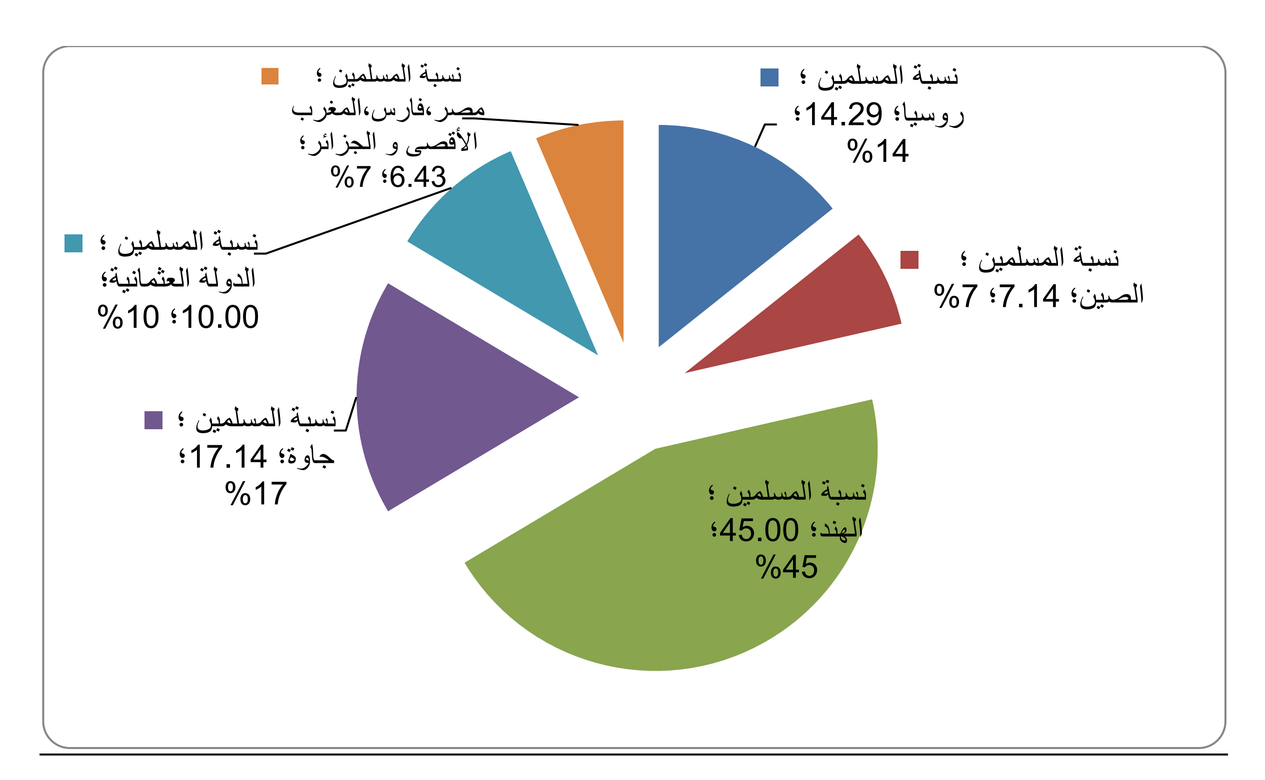
9) القرارات العلمية وتقارير اللجان المالية، للمطبوعات والمنشورات.

ملحق رقم 5:

عدد المسلمين في العالم حسب إحصائيات 1906م

المنطقة	عدد المسلمين
روسيا	20 مليون
الصين	10 مليون
الهند	63 مليون
جاوة	24 مليون
الدولة العثمانية	14 مليون
مصر، فارس، المغرب الأقصى و الجزائر	9 مليون





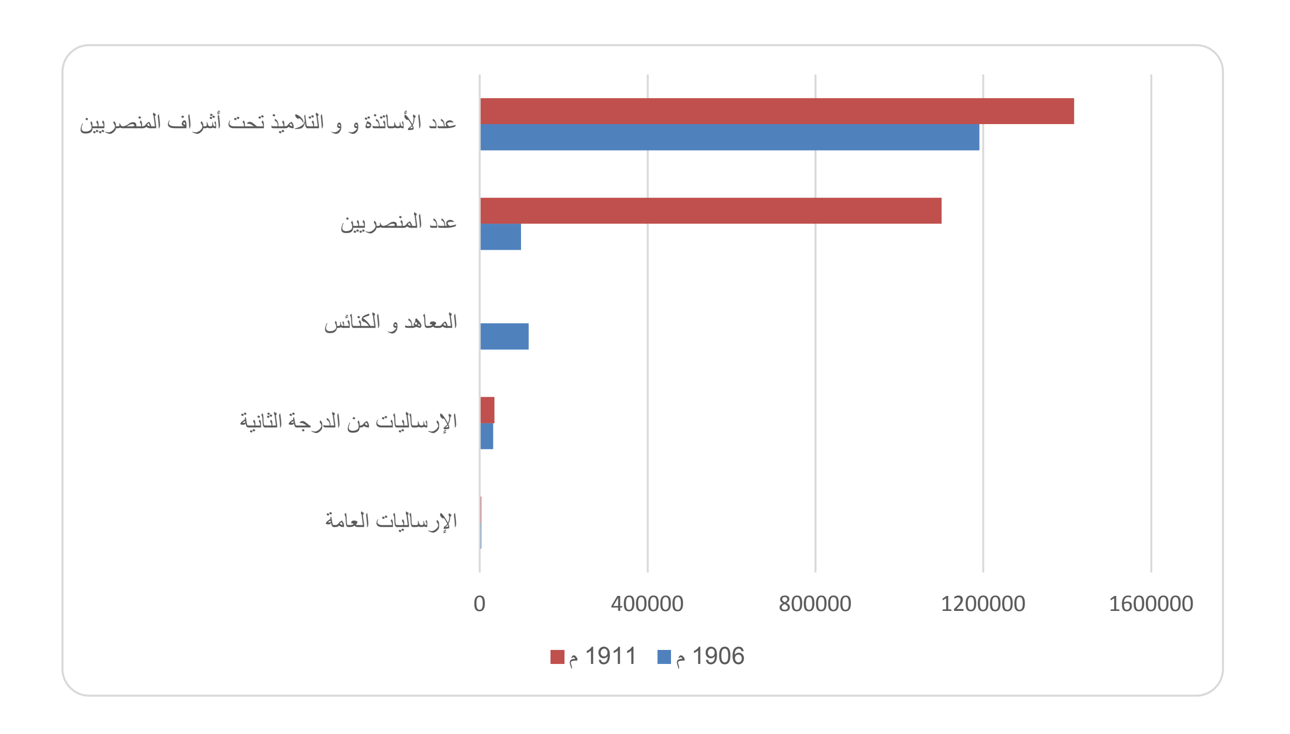
دائرة نسبية توضح عدد المسلمين في العالم من خلال إحصائيات 1906م

ملحق رقم 6:

إحصائيات حول المؤسسات لتكوين المنصرين في العالم

ما بين سنتين 1906م و 1911م

المنصرون والمؤسسات التنصيرية	1906م	1911م
عدد المنصرين	98388	1100210
المعاهد و الكنائس	116671	
الإرساليات العامة	3478	3838
الإرساليات من الدرجة الثانية	32009	34719
مدارس تعليم اللاهوت	81	88
عدد طلابها	12543	8268

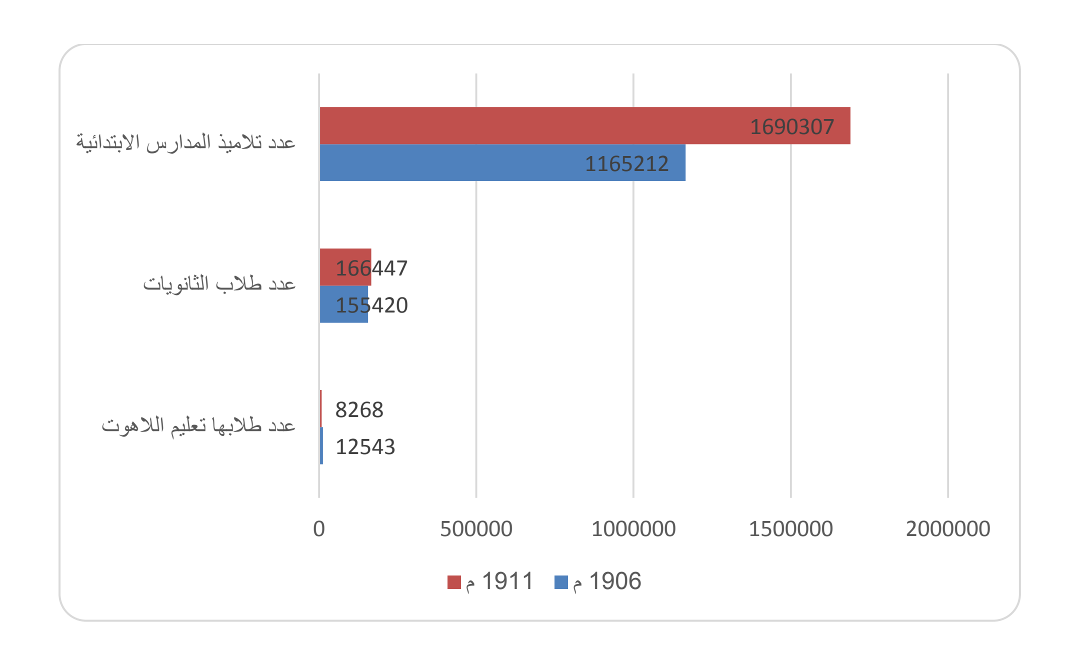


المصدر: أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، تلخيص وترجمة مساعد اليافي، ومحب الدين الخطيب، منشورات العصر الحديث، ط2، جدة 1387هـ، ص..

ملحق رقم 7:

إحصائيات تلاميذ المؤسسات التنصرية في العالم ما بين سنتين 1906م و 1911م

المدارس و التلاميذ و الأساتذة	1906م	1911م
عدد الأساتذة و التلاميذ تحت إشراف المنصريين	119000602	1416033
الثانويات	1594	1714
عدد طلابها	155420	166447
المدارس الابتدائية	28901	30175
عدد تلاميذها	1165212	1690307

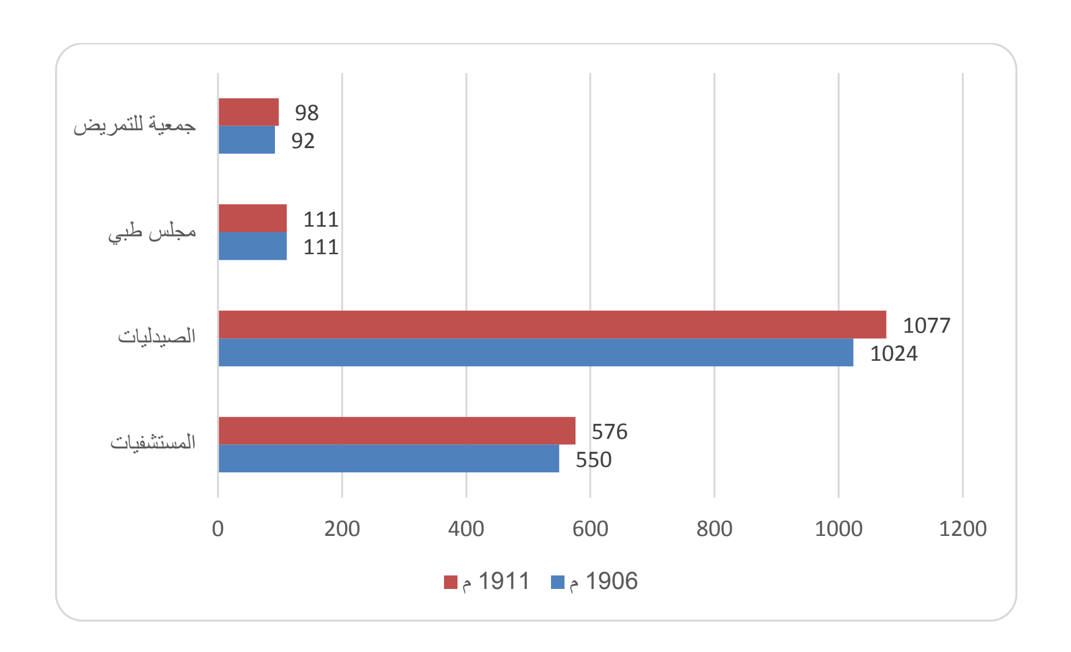


المصدر: أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، تلخيص وترجمة مساعد اليافي، ومحب الدين الخطيب، منشورات العصر الحديث، ط2، جدة 1387ه، ص..

ملحق رقم 8:

إحصائيات حول التنصير في المجال الطبي ما بين سنتي 1906م و 1911م

المجال الطبي	1906م	1911م
المستشفيات	550	576
الصيدليات	1024	1077
مجلس طبي	111	111
جمعية للتمريض	92	98

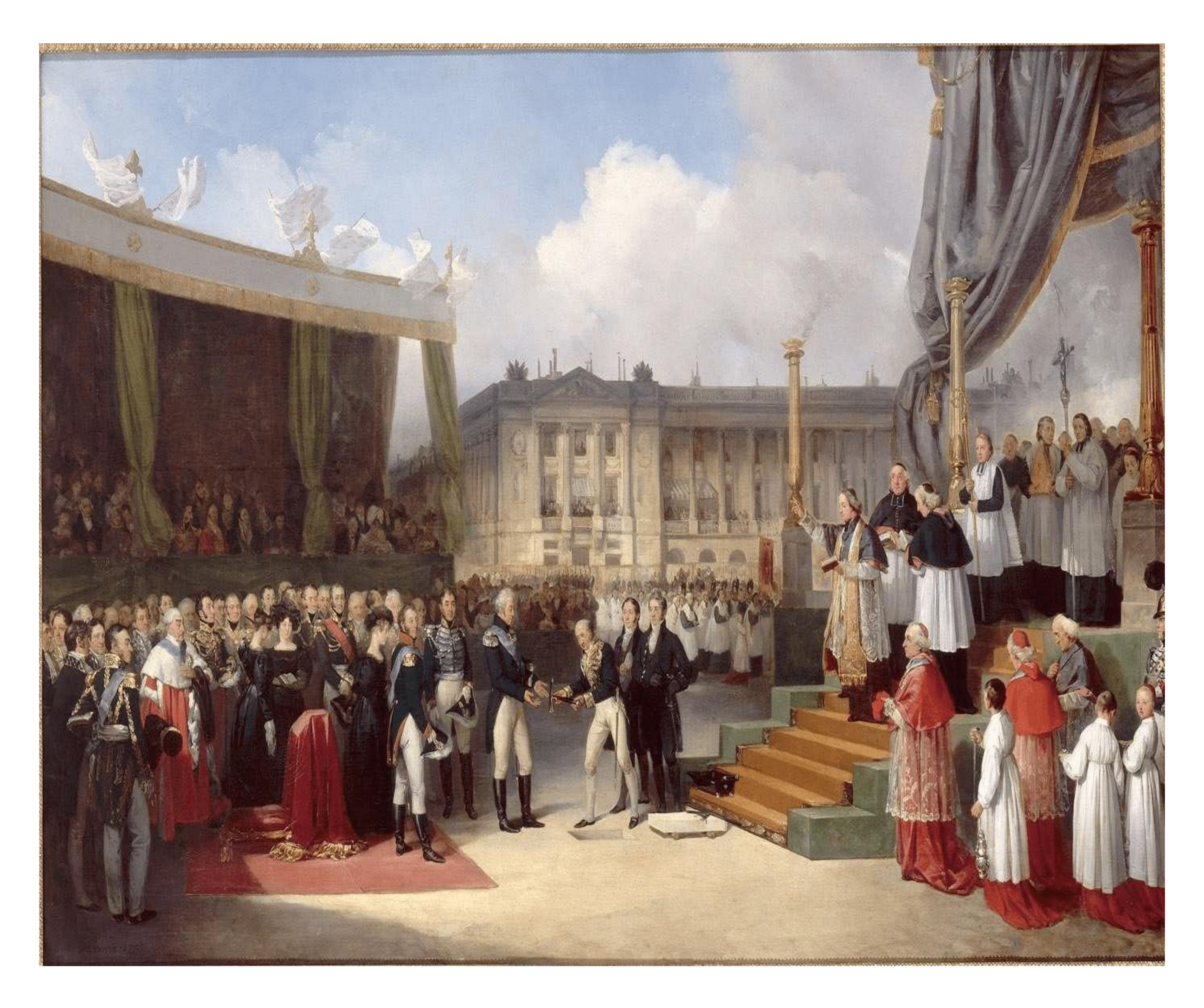


المصدر: أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، تلخيص وترجمة مساعد اليافي، ومحب الدين الخطيب، منشورات العصر الحديث، ط2، جدة 1387هـ، ص..

ملحق رقم 9:

صورة رسمها جوزيف بووم (Joseph Beaume)

لتدشين مقام تذكاري للويس 16 في 03 ماي 1826



Source: Mathide Larrère: **Charles X, continuation de l'ancien régime, histoire par l'image,** en ligne consulté le 04 avril 2019, URL:http://www.histoire-image.org/fr/etudes/charles-X-continuation-ancien-regime

البيبليوغرافيا

I- المصادر:

1- العربية:

- ابن علي بن محمد الجزري عز الدين أبي الحسن: **أسس الغابة في معرفة الصحابة**، مجIII، دار الفكر.
- أبو العباس، أحمد بن يحيى الونشريسي: **المعيار المعرب والجامع المغرّب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981، ج11.
- أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن خلدون: **مقدمة بن خلدون**، كتاب العبر لديوان المبتدأ والخبر، أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق الجويدي، ط2، المكتبة العصرية، بيروت، 1995.
- أبو شامة شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن: **الروضتين في أخبار الدولتين**، ج2، مطبعة واد النيل، مصر، 1287هـ.
- الجبرتي عبد الرحمن بن حسن: **مظهر التقديس**، تحقيق عبد الرزاق عيسى، ط1، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م.
- الرازي محمد بن أبي بكر عبد القادر: **مختار الصحاح**، دائرة المعارف، مكتبة لبنان، بيروت 1986م.
- جمال الدين الأفغاني: **الرد على الدهريين**، تقديم الإمام محمد عبدو، تحقيق محمد حامد، دار الإبداع، 1983م.
- شريف الزهار: **نقيب أشراف الجزائر، مذكرات**، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980.
- عبد الرحمان الجبرني: **ظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، تحقيق عبد الرزاق عيسى وآخرون، ج1، ط1، العربي للنشر، القاهرة، 1988.
- محمود عبد الرحمان: **التنصير والاستغلال السياسي**، دار النفائس، لبنان، 2009.

2- الفرنسية:

- A. Devouloux: **Les édifices religieux de l’ancien Alger**, typ. Bastide, Alger 1870.
- Alexandre Brou, **Les jésuites de la légende**, éd., Retoux, 1906.
- Alfred Le Chatelier: **La conquête du monde Musulmanes, les missions évangéliques anglo-saxonnes et germaniques**, éd. Leroux, Paris 1911.
- ANF/17/3092/2, congrès d’Alger 1905, lettre de R. Basset au Ministère de l’éducation publique, Alger 31 janvier 194.
- ANF/17/3092/2, congrès de Londre 1891, dossier confidentiel, lettre de W. Leitner au ministre de l’instruction publique, Woking, 25 mars 1891.
- ANF/17/3092/2, congrès de Rome 1899, prospectus du 10 mars 1898.

− A.O.M. dossier 1I 144, instruction publique, décret du 13 février 1883, article 31.

− Arthur le Grault: **Principes du colonialisme et de législation colonial**, éd., librairie de la société du recueil des lois et des arts, Paris 1904.

− Ault Dumesnil: **De l'expédition d'Afrique en 1830**, éd., libraire au palais royal, Paris 1832.

− Baron Pichon: **Alger sous la domination Française, son état présent et son avenir**, éd.,………., Paris 1833.

− Ernest Reman: L'Islam et la science, éd., Calmann Levry, Paris, 1883.

− Etienne Thuau: **Raison d'état et pensée politique à l'époque de Richelieu**, éd., Albin Michel, Paris, 2000.

− F. Florian: **Episode de la conquête, cathédrale et mosquée**, Paris 1880.

− Félix Klein: **Le cardinal Lavigerie**, Tours, 1897.

− Gabriel Charmes: **L'avenir de la Turquie, le panislamisme**, Paris, 1883.

− Gabriel Esquer: **La prise d'Alger**, éd., Afrique latine, Paris 1929.

− Genty de Bussy: **De l'établissement des Français dans la régence d'Alger et des moyens d'en assurer la prospérité**, éd.,……, Paris 1839.

− George Harris: **Notice sur la vie et les ouvrages de Max Müller**, éd. Durand et Pédone, 1867.

− Guedon (A): **L'assimilation des indigènes Musulmans, extrait de l'avenir d'Algérie**, imp. Coloniale, 1er édition, Paris 1890.

− Gustave Fagniez: **Le Père Joseph et Richelieu (1577-1688)**, T2, ed Hachette, Paris, 1894.

− H. D'Idville: **Le Maréchal Bugeaud d'après sa correspondance intime et des documents inédits 1784-1849**, TIII, éd., librairie de Firmin didot et cie, Paris 1882.

− Henri Lordier: **Rapport à Mr le gouverneur général sur les travaux de l'école Françaises d'extrême orient, pendant l'année 1902**, bulletin de l'école Française d'extrême orient, vol 3, n°3, 1903.

− **Histoire de la compagnie des jésuites**, TU, éd.,……., Paris 1859.

− J. Gay: **Bibliographie des ouvrages relatifs à l'Afrique et à l'Arabie**, éd. Jean Gay et fils, San Remo, Paris 1875.

− Jean Terras: **Essai sur les liens Habous en Algérie et en Tunisie**, imprimerie du Salut publique, Lyon 1899.

− Labbe Suchet: **Le missionnaire en Algérie**, Tours, 1840.

− Labbe Suchet: **Lettre édifiantes et curieuse sur l'Algérie**, Tours, 1840.

− Le Baron Henri: **Au capitaine, les Kabyles et la colonisation de l'Algérie**, éd., Bastide, Alger, 1864.

− Le Baron Henrion: **Vie de M. Frayssinous**, T1, Evêque d'Hermopolis, imprimerie d'Adrien le chère et cie, Paris 1894.

- Le P. Joseph Besson: **La Syrie et la terre Sainte, au XVII^ème^ Siècle**, N éd., Victor Palmé, 1862.
- Les actes du 16ème congrès international des orientalistes , session d'Athène, du 6-14 avril 1912, imp. Hestia, Athène, 1912.
- Les actes du XIIème congrès international des orientalistes, Rome 1899, tome premier société typographique Florentine, Florence, Rome 1899,
- Les actes du XIVe congrès international des orientalistes, Alger 1905, premier partie, procès verbaux, section 1, éd. Erneste Leroux, Paris 1906.
- Louis de Baudicour: **La colonisation de l'Algérie, ses cléments,** éd. Jacque le coffre, Paris, 1856.
- Louis Figuier: **Vies et savants illustre,** éd., Hachette, Paris, 1870.
- Louis Veuillot: **Les Français en Algérie, souvenir d'un voyage fait en 1841**, 2ème éd., A. Mamey Tours, 1847.
- M. Bibolet: **Un grand évêque, ou vingt ans de l'église d'Afrique sous l'administration de M. Pavy**, Alger, 1902.
- M. Blanqui l'Algérie: **Rapport sur la situation économique de nos possession dans le nord de l'Afrique**, éd., Coquebert, Paris 1840.
- M. Ghizot: **Des mémoires à l'histoire de France**, éd., chez J-L-J Brière, Paris, 1825.
- M. Paley: **La piraterie Musulmane**, revue Africaine, n°02, année 1857-1858.
- Marie-Nicolas Bouillet et Alexis Chassang (dir): **Danté Alighieri, dans dictionnaire universel d'histoire et de géographie**, 1878.
- Mgr Grussenmeyer: **Vingt cinq année d'épiscopat en France et en Afrique,** T1, éd., maison carrée, Alger 1882.
- Mgr Grussenmeyer: **Vingt-cinq années, d'épiscopat en France en Afrique**, document bibliographique, T2 sur le cardinal Lavigerie, Alger, 1882.
- Michel Baudier: Histoire générale de la religion des Turc avec la naissance et la mort de leur prophète Mohamet et les actions des quatre premiers califes, celles du prince Mahaunias et les nuages des sarrasins en Europe au trois premiers siècles de leur loy. Ensemble le tableau de toute la chrétienté à la venue de Mohamed, Paris 1625.
- **Mission d'Afrique des pères blancs**, bulletin bimensuel n°175, janvier-février, éd. par la procure de Paris des missions d'Afrique, Paris 1903.
- Paul Huvelin: **Congrès Français sur la Syrie**, fascicule III, chambre de commerce de Marseille, 1919.
- Paul le Sord: **L'œuvre civilisatrice et scientifique des missions catholique**, éd., Desclée de Brouwer , Paris 1931.
- Pélissier de Raynaud: **Les Arabes Algérienne**, tome1, Paris 1854.
- Père J. B. Piolet: **Les missions catholiques Française au XIXème siècle**, T1n éd0, Armand Colin, Paris, 1925.

- R. P. Jacque Goujon: **Histoire et voyage de la terre Sainte, chez Pierre compagnon, et Robert Taillandier, 1671**, Paris.
- Rambaud Alfred: **L'enseignement primaire chez les indigènes d'Algérie et notamment en grande Kabylie**, imp. Delagrave, Paris 1892.
- Robert Estoublan, Adolphe Lefeleure: **De l'Algérie annote**, recueil chronologique, lois, ordonnance, décret, arrêtés, circulaire, etc…, éd. Adolph Jordane, librairie éditemme, Alger 1896, T1.
- Thomassy M. R.: **Les papes et la géographie du Vatican**, Paris, 1852.

II- المراجع:

1- العربية:

- إبراهيم خليل أحمد: **محاضرات في مقارنة الأديان**، ط2، دار المنار، القاهرة، 1992.
- إبراهيم سليمان الجبهان: **معاول الهدم والتدمير في النصرانية والتبشير**، ط4، عالم الكتب، الرياض، 1981م.
- إبراهيم عكاشة: **ملامح عن النشاط التبشيري في الوطن العربي**، جامعة بن سعود، الرياض، 1987.
- أبو العيد دودو: **الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان 1830 - 1855م**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989.
- أبو القاسم سعد الله: **آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر**، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
- أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية 1900م - 1930م**، ج2، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983م.
- أبو القاسم سعد الله: **المفتي الجزائري ابن العنابي، رائد التجديد الإسلامي (1775 - 1850م)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.
- أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م.
- أبو خلدون ساطع الحصري: **أحاديث في التربية والاجتماع**، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت 1985م.
- أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.**
- إحسان إلهي ظهير: **البريولية عقائد وتاريخ**، ط1، إدارة ترجمان السنة، باكستان، 1983م.
- إحسان إلهي ظهير: **البهائية نقد وتحليل**، ط2، إدارة ترجمان السنة، باكستان، 1981م.
- إحسان إلهي ظهير: **الفرق، القاديانية**، دراسات وتحليل، ط4، إدارة ترجمان السنة، باكستان، 1404هـ، 1984م.
- أحمد الشامي: **تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في القرون الوسطى**، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1962.
- أحمد المعتوق: **الحصيلة اللغوية**، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1996.

- أحمد أمين: **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، دار الكتاب العربي، بيروت، 2012.
- أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، حققه علي بن حسن بن ناصر، دار العاصمة للنشر، القاهرة، 1999، ج1.
- أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي: **دعوة التقريب بين الأديان، دراسة نقدية في ضوء العقيدة**، دار ين الجوزي، الرياض، 1421هـ/2008م.
- أحمد بن نعمان: **فرنسا والأطروحة البربرية، خلفيات، الأهداف، الوسائل والبدائل**، شركة دار الأمة، 2011م، ط2.
- أحمد عبد الوهاب: **التغريب طوفان الغرب**، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، 1990م.
- أحمد عبد الوهاب: **حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر**، ط1، مكتبة الوهبة، القاهرة 1981م.
- أحمد عزت عبد الكريم: **التعليم في مصر في عصر عباس وسعيد**، ج1، مطبعة الفجر، مصر 1945.
- أحمد علي بن حجر العسقلاني: **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مج 13، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه، محمود فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار المعارف.
- إدوارد ميل أيرل: **رواد الإستراتيجية الحديثة**، مكتبة النهضة المصرية، ج2، ط1، مصر 1961م.
- أديب مروة: **الصحافة الغربية، نشأتها وتطورها**، ط1، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، 1961.
- الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود: **انحراف الشباب عن الدين والتحاقهم بالمرتدين**، ط2، المجلد الثالث، قضايا معاصرة، ص217.
- الطيب بن براهيم: **الاستشراق الفرنسي، وتعدد مهامه (خاصة في الجزائر)**، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2009م.
- المجموعة العربية العالمية: ج10، ط2، مؤسسة أعمال النشر والتوزيع، الرياض، 1999م.
- **الموسوعة العربية الميسرة**، إشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين، القاهرة، ص1361.
- أنور الجندي: **الاستعمار والإسلام**، دار الأنصار للطباعة والنشر، القاهرة.
- أنور الجندي: **الإسلام في عين الخطر**، ط1، مركز الإعلام العربي، مصر، 2013م.
- أنور الجندي: **الإسلام في وجه التغريب**، دار الاعتصام، القاهرة.
- أنور الجندي: **سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية**، دار الشهاب، الجزائر، 1987.
- أنور عبد المالك: **نهضة مصر**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.
- أنيس فريحة: **تبسيط قواعد اللغة العربية وتبويبها على أسس منطقية جديدة**، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1959م.
- أنيس فريحة: **محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها**، ط1، دار الجبل، بيروت، لبنان، 1989م.

- أنيس فريحة: **نحو عربية ميسرة**، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1955م.
- توفيق محمد محمد: **كمال أتاتورك**، دار الهلال، مصر، 1939.
- جبران شامية: **الإسلام هل يقدم للعالم نظرية للحكم**، دار الأبحاث والنشر، دمشق، 2004م.
- جرجس سلامة: **تاريخ التعليم الأجنبي في مصر في القرنين 19م و 20م**، المجلس الأعلى للرعاية، الفنون والآداب، القاهرة، 1963.
- جرجي زيدان: **تاريخ آداب اللغة العربية**، دار الكتاب، بيروت.
- جلال العالم: **قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام، أبيدوا أهله**، ط2، دار الغرب للنشر، طرابلس الشام، 1975.
- حازم محفوظ: **ازدهار الإسلام في شبه القارة الهندية**، ط1، دار الثقافة للنشر، مصر، 2004م.
- حسان حقي: **المغرب العربي**، دار اليقظة، بيروت، لبنان.
- حليم بركات: **المجتمع في القرن 20، بحث في تغيير الأحوال والعلاقات**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000.
- حمزة عبد الرحمن عميش: **المفاوضات والمعاهدات، دراسة مقارنة بين التشريع الإسلامي والقانون الدولي**، منشورات مركز أبحاث فقه المعاملات الإسلامية، 2016.
- خالد محمد منعم: **الجذور التاريخية للإرساليات التنصيرية الأجنبية في مصر، دراسة وثائقية (1756-1986)**، كتاب المختار، القاهرة، 1988.
- خديجة بقطاش: **الحركة التبشيرية في الجزائر (1830 – 1871م)**، منشورات دحلب، الجزائر 1992م.
- خليل إبراهيم السامرائي وآخرون: **تاريخ العرب وحضاراتهم في الأندلس**، ط1، المؤسسة اللبنانية للكتاب الأكاديمي، بيروت، 2014م.
- دياب أحمد إبراهيم: **لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث**، ط1، دار المريخ للنشر، الرياض، 1981م.
- رابح تركي: **التعليم القومي والشخصية الجزائرية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981م.
- رأفت العتيمي الشيخ: **حملات التنصير تجتاح البلدان العربية الإسلامية**، مصر، دار القلم، مصر.
- روبرت ماكس وعبد الودود شبلي: **الزحف إلى مكة، حقائق ووثائق عن مؤامرة التنصير في العالم الإسلامي**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1989م.
- زقزوق محمود حمدي: **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**، كتاب الأمة، قطر، 1984م.
- زكي الميلاد: **ماجد فخري ومنهج دراسة تاريخ الفلسفة الإسلامية**، نظرات نقدية، التجديد، المجلد 15، العدد 29، 2011.
- زهير إحدادن: **الصحافة المكتوبة في الجزائر**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012.

- زين زين: **الصراع الدولي على المشرق العربي، ولادة دولتي سوريا ولبنان**، دار النهار للنشر، بيروت 1978م.
- زينب عبد العزيز: **الحرب الصليبية بكل المقاييس**، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، 2009م.
- زينب عبد العزيز: **حملة المنافقين الفرنسيس**، دار النهار، مصر، 1998.
- زينب عبد العزيز: **محاصرة وإبادة، موقف الغرب من الإسلام**، دار الكتاب العربية، القاهرة، 2003.
- زينب عبد العزيز: **مؤامرة الفاتيكان على الإسلام**، دار الحرية، مصر، ص35.
- زينب عبد العزيز، **تنصير العالم**، دار الوفاء، المنصورة، مصر 1965م.
- ساسي سالم الحاج: **نقد الخطاب الاستشراقي، الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية،** ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2002م.
- سركيس أبو زيد: **تهجير الموارنة إلى الجزائر**، ط1، دار أبعاد للطباعة والنشر، بيروت، 1994.
- سعد يوسف أبو عزيز: **صحيح وصايا الرسول**، دار التوافقية للنشر، ط1، 1900، ج1.
- سعيد عبد الرحمان العظمة وآخرون: **الإسلام والمستشرقين**، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدّة، 1985.
- سعيد عبد الفتاح عشور: **الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى**، ج1، مكتبة أنجلو مصرية، مصر، 1976.
- سعيد عبد الفتاح عشور: **بحوث في تاريخ الإسلام وحضاراته**، القاهرة، 1987م.
- سعيد مراد: **المدخل في تاريخ الأديان**، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2000.
- سعيدي مزيان: **النشاط التنصيري للكاردينال لافجري في الجزائر 1867م – 1892م**، دار الشروق للطباعة والنشر، الجزائر، 2005.
- سلامة موسى: **تربية سلامة موسى**، دار الجيل، القاهرة، 1947م.
- سلوى بلحاج صالح: **المسيحية العربية وتطوراتها من نشأتها إلى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي**، ط2، دار الطليعة، بيروت، 1998.
- سليمان مظهر: **قصة الديانات**، مكتبة المدبولي، القاهرة، 1995.
- سيد أحمد علي الناصري: **تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري**، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1991.
- شاوش حباسي: **من مظاهر الروح الصليبي للاستعمار الفرنسي في الجزائر 1830 – 1962م**، دار هومة، الجزائر.
- شوقي أبو خليل: **أضواء على المستشرقين والمبشرين**، طرابلس، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، 1991م.

- صالح عبد الله الكامل: **أضواء على البهائية، الادعاءات ودحضها في الفكر والعقيدة: حوار بين مسلم وبهائي**، دار القبلة للثقافة الإسلامية، الرياض، 1985م.
- صالح مسعود أبو بصير: **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**، دار الفتح للطباعة والنشر، لبنان.
- ط. ب. مقرج وآخرون: **موسوعة عالم الأديان والمذاهب والبدع في العالم**، الجزء 3، الكنيسة البيزنطية، الأرثوذكسية، نوبليسا، بيروت، ط3، 2005.
- ط. ب. مقرج وآخرون: **موسوعة عالم الأديان، كنيسة روما**، ج10، دار النشر نوبيليسا، بيروت، لبنان، 1995.
- طلال عترسي: **البعثات اليسوعية، مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان**، ط1، الوكالة العالمية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987م.
- عامر عبد زيد الوائلي: **تأصيل مفهوم "الاستشراق"**، موسوعة الاستشراق، إشراف عامر عبد زيد الوائلي وطالب محيبس الوائلي، دار الروافد الثقافية، ابن نديم للنشر والتوزيع، لبنان، 2015.
- عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): **قراءة في وثائق البهائية**، ط1، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1986م.
- عائشة عبد الرحمن: **لغتنا والحياة**، دار المعارف، مصر، 1991م.
- عبد الجليل التميمي: **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، تونس، الجزائر، ليبيا من (1816-1871)**، تونس 1972.
- عبد الجليل شلبي: **الإرساليات التبشيرية، بحث في نشأة التبشير وتطوره وأشهر الإرساليات التبشيرية ومناهجها**، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- عبد الجليل شلبي: **الإرساليات التبشيرية، كتاب يبحث في نشأة التبشير وتطوره، وأشهر الإرساليات التبشيرية**، دار المعارف، الإسكندرية.
- عبد الجليل شلبي: **معركة التبشير والإسلام، حركات التبشير في آسيا وإفريقيا وأوربا**، مؤسسة الخليل العربي للنشر والإشهار، القاهرة، 1989م.
- عبد الحميد زوزو: **نصوص ووثائق في التاريخ المعاصر، 1830-1900م**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- عبد الحميد عبد الغني: **أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة**، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
- عبد الرحمان حسن حنبكة: **أجنحة المكر الثلاث وخوافيها، التبشير، الاستعمار، الاستشراق، وموقفها من الإسلام والمسلمين**، ط2، دار العلم، دمشق، 1980م.
- عبد الرحمن الرافعي: **عصر محمد علي باشا**، دار المعارف، ط3، القاهرة، 1989.
- عبد الرحمن الرافعي: **عصر محمد علي**، دار المعارف، مصر، 1987م.

- عبد الرحمن الوكيل: **البهائية، تاريخها، عقيدتها وصلتها بالباطنية والصهيونية**، تحقيق عبد الغني المصري، دراسات المؤمنين للنشر والتوزيع، د. ت.
- عبد الرحمن الوكيل: **مجموعة مقالات**، تحقيق محمد عوض بن عبد الغني المصري، ط1، دار سبيل الرشاد للنشر والتوزيع، أغادير، المغرب، 2011م.
- عبد الرحمن بن محمد الجلالي: **تاريخ الجزائر العام**، ج2، دار الثقافة، بيروت 1980.
- عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني: **الغزو في الصميم**، دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والخلقي والسلوكي، دار القلم، بيروت، 1982م.
- عبد الرحمن حمبكة: **أجنحة المكر الثلاث وخوافيها: التبشير، الاستشراق، الاستعمار**، دراسة وتحليل وتوجيه، ط8، دار القلم، دمشق، 2000م.
- عبد الرزاق ديار بكرلي: **تنصير المسلمين "أخطر إستراتيجية طرحها مؤتمر الكولورادو للتنصير**، ط1، دار النفائس، بيروت، 1989م.
- عبد العزيز بن إبراهيم العسكر: **التنصير ومحاولاته في بلاد الخليج العربي**، مكتبة العبكان، الرياض 1993.
- عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين: **التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى**، دار الفكر الغربي، مدينة نصر، 1999.
- عبد العزيز عسكر: **التنصير ومحاولاته في بلاد الخليج العربي**، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1414هـ.
- عبد العزيز كحلوت: **التنصير والاستعمار في إفريقيا السوداء**، ط2، طرابلس العرب، كلية الدعوة الإسلامية، 1962.
- عبد العزيز نوار محمود محمد جمال الدين: **التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى**، دار الفكر العربي، مصر 1999م.
- عبد العزيز نوال، عبد المجيد النعنعي: **تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية**، دار النهضة العربية، بيروت، 1973.
- عبد القادر أحمد اليوسف: **العصور الوسطى الأوروبية**، المؤسسة اللبنانية للكتاب الأكاديمي، بيروت، 2014.
- عبد القديم زلوم: **كيف هدمت الخلافة**، ط3، دار الأمة للطباعة والنشر، 1997.
- عبد الله التل: **جذور البلاء**، دار الإرشاد، بيروت، لبنان، 1971.
- عبد الله العروي: **من ديوان السياسة**، المركز العربي الثقافي، 2013.
- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وشوقي الجمل: **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، ط2، دار الزهراء، الرياض، 2002.

- عبد الله محمد جمال الدين: **المسلمون والمنصرون أو المرسكيون الأندلسيون، صفحة مهملة من تاريخ المسلمين في الأندلس**، دار الصحوة، القاهرة، 1991م.
- عبد المالك خلف التميمي: **التبشير في منطقة الخليج العربي، دراسة في التاريخ الاجتماعي والسياسي**، ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، 2000.
- عبد المنعم سيد عبد العال: **معجم الألفاظ العامية ذات الحقيقة في الأصول العربية**، الطبعة 2، مكتبة الخانجي، مصر، 2000.
- عبد الواحد علواني: **تنشئة الأطفال وثقافة التنشئة**، دار الفكر العربي، دمشق، 1997.
- عجاج نويهض: **بروتوكولات حكماء صهيون: نصوصها، رموزها، أصولها التلمودية**، ط3، دار الاستقلال، بيروت، 1990.
- علوي بن عبد القادر السقاق: **موسوعة الأديان، النصرانية وما تفرع عنها**،
- علي بن إبراهيم الحمد النملة: **التنصير، مفهومه، أهدافه، وسائله وسبل مواجهاته**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1419هـ.
- علي بن إبراهيم الحمد النملة، **الاستشراق في الأدبيات العربية، عرض لنظريات وحصر وراقي**، مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية، الرياض، 1992م.
- علي عبد المعطي محمد: **الفكر السياسي العربي**، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1992.
- علي عبد الهادي المرهج: **العلاقة بين الشرق والغرب... حوار أم صراع**، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1999.
- علي عبد الواحد وافي: **الأسفار المقدسة في الأديان السباقة للإسلام**، ط1، مكتبة نهضة مصر، 1964م.
- علي محمد طاهر حمزة شلش: **الأدب الإفريقي**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، 1993.
- عمار النجار: **القاديانية**، ط1، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، 2005.
- عمر عبد العزيز عمر: **تاريخ مصر الحديث والمعاصر (1517-1956م)**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989.
- غوستاف لويون: **حضارة العرب.**
- فؤاد كاظم المقدادي: **الإسلام وشبهات المستشرقين**، مجمع الثقلين العلمي، بغداد، 1425هـ.
- فيصل الشيخ محمد: **وصية لويس التاسع لأتباعه بعد افتكاكه من الأسر ووصوله إلى فرنسا**، رابطة أدباء الشام، دمشق 2009م.
- فيليب حتى: **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ج2، ط2، دار الثقافة، بيروت 1972م.
- كرم شلبي: **الإذاعات التنصيرية**، ط1، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة 1412هـ.
- كمال الصليبي: **تاريخ لبنان الحديث**، ط7، دار النهار للنشر والتوزيع، بيروت، 1999م.

- كنعان جورجي: **العنصرية اليهودية**، دار النهار، بيروت، 1983م.
- كنعان جورجي: **أمجاد إسرائيل في أرض فلسطين**، دار الطليعة، بيروت، 1978.
- لطفي عبد الوهاب يحيى: **الكيان العربي، بين المقومات والإمكانيات**، مطبعة الأنصاف، بيروت، لبنان، 1965م.
- لويس كامل: **قراءات في علم النفس الاجتماعي في البلاد العربية**، المجلد الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1970.
- مازن صلاح، مطبقاتي: **المغرب العربي الحديث بين الاستعمار والاستشراق**، دار الريشة، جدة، 1409هـ.
- متى موسى: **الموارنة في التاريخ**، دار قدمس للنشر، دمشق، 2004م.
- محب الدين الخطيب وآخرون: **دراسات عن البهائية والبابية**، مطابع رابطة العالم الإسلامي، دون تاريخ.
- محمد أبو زهرة: **محاضرات في النصرانية**، شركة الشهاب، الجزائر، 1989.
- محمد أحمد عوف: **خفايا الطائفة البهائية**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1972م.
- محمد أحمد عوف: **خفايا الطائفة البهائية**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1972م.
- محمد أسد: **الإسلام على مفترق الطرق**، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 1976م.
- محمد البهي: **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**، مطبعة الأزهر، القاهرة.
- محمد الدعمي: **الاستشراق الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي**، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، بيروت، 2008.
- محمد الدين الخطيب، مساعد الباقي: **الغارة على العالم الإسلامي**، ط1، دار العلمية، بيروت، 1424هـ.
- محمد السيد الجليند: **الاستشراق والتبشير، قراءة تاريخية موجزة، سلسلة تصحيح المفاهيم**، 3، ص، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1999م.
- محمد الطاهر وعلي: **التعليم التبشيري في الجزائر من 1830م إلى 1904م، دراسة تاريخية تحليلية**، منشورات دحلب، الجزائر، 1997.
- محمد الظاهر التنير: **العقائد الوثنية في الديانة النصرانية**، دار الشواق، الرياض، 1995.
- محمد العربي معريش: **الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق من خلال المجلة الآسيوية (1822 – 1872م)**، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2009.
- محمد الغزالي: **ظلام من الغرب**، ط1، دار الكتاب العربي، مصر، 1956م.
- محمد المكي: **الأحباس الإسلامية للمملكة المغربية**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، المغرب، 1992م.

- محمد بن الحسن الحجوري الثعالبي الفاسي: **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2.
- محمد بن شريفة: **تراجم مغربية من مصادر مشرقية**، ط1، المملكة المغربية، 1996م.
- محمد بن ناصر الشترى: **التنصير في البلاد الإسلامية، أهدافه، ميادينه، آثاره**، ط1، دار الحبيب، الرياض، 1998.
- محمد حسين علي المغير: **المستشرقون والدراسات القرآنية**، دار المؤرخ، بيروت، لبنان.
- محمد سهيل طقوش: **تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة**، ط3، دار النفائس، بيروت، 2013.
- محمد ضياء الرحمن الأعظمي: **اليهودية والمسيحية وأديان الهند**، مكتبة الرشد، الرياض، 2001.
- محمد عاطف غيث: **دراسات في علم الاجتماع، نظريات وتطبيقات**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1985.
- محمد عبد القوزي: **في تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2006.
- محمد عبد الله دراز: **الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان**، مطبعة السعادة، القاهرة، 1929.
- محمد عبد الله عنان: **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين**، ط1، مطبعة مصر، القاهرة، 1949م.
- محمد عبده وطارق عبد الحليم: **دراسات في الفرق الصوفية، نشأتها وتطورها**، ط4، مصر، 2001.
- محمد عثمان صالح: **النصرانية والتنصير أم المسيحية والتبشير**، دراسة مقارنة حول المصطلحات والدلالات، ط1، مكتبة القيم للنشر، المدينة المنورة، 1989م.
- محمد عمارة: **الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كمال**، دار الشرق، القاهرة، 1994.
- محمد عمارة: **الغارة الجديدة على العالم الإسلامي**، دار النهضة، مصر، 2007.
- محمد فريد بك المحامي: **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، ط10، 2006م.
- محمد قاسم وحسني حسين: **تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا منذ عهد الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العظمى**، ط6، مطبعة دار الكتاب المصرية.
- محمد لعروسي المطوي: **السلطة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي.**
- محمد محمد الصواف: **المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام**، دار الثقافة والنشر، مصر، 1965م.
- محمد محمد حسين: **الإسلام والحضارة الغربية**، مؤسسة الرسالة، ط4، 1981.
- محمد محمود الصياد: **أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970.

- محمد مؤنس عوض: **الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1995م.
- محمود شاكر: **الكشوفات الجغرافية دوافعها وحقائقها**، ط1، المكتب الإسلامي للنشر، بيروت، 1393هـ.
- محمود شاكر: **موسوعة الحضارات القديمة والحديثة وتاريخ الأمم**، دار السلامة للنشر والتوزيع، ج1، ط2، عمان، الأردن، 2011.
- محمود محمد شاكر أبو فهر: **أباطيل وأسمار**، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1385هـ.
- مصطفى السباعي: **الاستشراق والمستشرقون**، الطبعة 2، مكتب الإسلاميين، القاهرة، 1979م.
- مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار في البلاد العربية عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار العربي**، دار النشر، المكتبة العصرية، بيروت، 1986م.
- مصطفى طوران: **أسرار الانقلاب العثماني**، ترجمة كمال خوجة، ط1، دار السلام، القاهرة، 1977م.
- مصطفى فوزي غزال: **الحيل والأساليب في الدعوة إلى التبشير.**
- ممدوح حسين: **مدخل إلى تاريخ حركة التنصير**، دار عمان للنشر، عمان، 1995.
- ممدوح نصار وأحمد وهبان: **التاريخ الدبلوماسي، العلاقات السياسية بين القوى الكبرى، 1991-1815م**، دار المعارف، القاهرة.
- منى ناظم: **المسيح واليهودية**، الاتحاد للصحافة والنشر، أبو ظبي، 1986.
- مهدي محفوظ: **اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث**، ط1، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، لبنان، 1990.
- مولود قاسم نايت بلقاسم: **الشخصية الجزائرية الدولية، وهيبتها العالمية قبل 1830م**، الجزء 2، دار الأمة للطباعة، الجزائر 2007.
- مؤنس حسين: **الحضارة**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998.
- ميخائيل زابوروف: **الصليبيون في الشرق**، دار التقدم، موسكو، 1986.
- ناصر الدين سعيدوني: **دراسات في الملكية العقارية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.
- نجيب العقيقي: **المستشرقون**، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1980.
- نديم هزاز: **المدارس التنصيرية**، مركز البلقان للدراسات والأبحاث العلمية، استنبول، 1963م.
- نذير محمد مكتبي: **الفصحى في مواجهة التحديات**، دار البشائر الإسلامية، 1991م.
- نفوسة زكريا سعيد: **الدعوة إلى العامية وآثارها على مصر**، الإسكندرية، 1964م.
- نور الدين حاطوم حاطوم: **خرائط الشرق الأوسط الاستعمارية ترسم حدود التقسيم منذ العام 1907م.**
- هشام جعيط: **أوروبا والإسلام**، صدام الثقافة والحداثة، دار الطليعة، بيروت، 1995.

- وفاء عبد الله المزروع: **جهاد المسلمين خلف جبال البرتات من القرن الأول إلى القرن الخامس الهجري**، ط1، دار القاهرة، مصر، 2009.
- يسرى عبد الرزاق الجوهري: **الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية**، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1975.
- يمبا آدم: **روايات الغرب لإفريقيا الغربية الفرنكوفونية، دراسة في الأبعاد الإسلامية**، مركز الجامعة الإسلامية للنشر، ماليزيا، 2013.
- يوسف طويل: **كتاب الحملة الصليبية على العالم الإسلامي، الجذور، الممارسة، سبل المواجهة**، ط2، صوت القلم العربي، مصر، 2010، ج1.
- يوهان فوك: **تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين**، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2001.

الكتب المترجمة:

- ج. ويلر: **الهرطقة في المسيحية، تاريخ البدع والفرق الدينية المسيحية**، ترجمة جمال سالم، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 2007.
- أ. ج. أريري: **المستشرقون البريطانيون**، تعريب محمد دسوقي النويهي، وليام كولينز، لندن، 1946،
- أ. ل. لوشاتلي: **الغارة على العالم الإسلامي**، تلخيص وترجمة مساعد اليافي، ومحب الدين الخطيب، منشورات العصر الحديث، ط2، جدة 1387هـ.
- إدوارد سعيد: **الاستشراق**، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 2009.
- أرنولد توماس: **الدعوة إلى الإسلام**، ط3.
- ألكسي جورافسكي: **الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم**، ترجمة خلف الجراد، العدد 215، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996.
- أنتوني غدنز: **علم الاجتماع**، ترجمة الدكتور فايز صياغ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005.
- آنيا لومبا: **نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار**، ترجمة محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، 2007.
- باركر أرنست: **الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية للنشر، مصر، 1997.
- بخنر علي: **مذهب داروين**، ترجمة شبلي، فلسفة النشوء والارتقاء، دار مارون عبود، لبنان، 1983م.
- بشارة خضر: **أوروبا والوطن العربي، القرابة والجوار**، ترجمة جوزيف عبد الله، مركز الوحدة العربية، بيروت، 1993.

- بول هاريسون: **رحلة طبيب في الجزيرة العربية**، ترجمة محمد أمين عبد الله، ط2، وزارة التراث القومي والثقافة، الرياض، 1981.
- جان موريون: **لويس ماسينيون**، ترجمة منى النجار، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981م.
- جورج ساطور: **الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط**، ترجمة عمر فروخ، ط1، منشورات المكتبة المعارف، بيروت، 1956.
- جورج مبنوا: **الكنيسة والعلم**، ط1، ترجمة مويمر جلال، دار الأهالي، دمشق، 2005.
- جوزيفين كام: **المستكشفون في إفريقيا**، ترجمة السيد يوسف نصر ومحمد على الوقاد، دار المعارف، القاهرة، 1973.
- جون غانم: **الاستشراق والعصور الوسطى، ترجمة عبلة عودة**، هيئة أبو ظبي للثقافة والسياحة.
- جون وولف: **الجزائر وأوروبا 1500 – 1830م**، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.
- جيفري براون: **تاريخ أوروبا الحديث**، ترجمة علي المرزوقي، الأردن، 2006.
- خليل إينال حك مع دونالد كواترت: **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية**، مجلد 2، ترجمة قاسم عبده قاسم، المدار السلامي، طرابلس 2007.
- دانتي ألجيري: **الكوميديا الإلهية – الجحيم**، ترجمة حسن عثمان، دار المعارف، القاهرة، 1995.
- روجيه جارودي، **الخرافات المؤسسة للسياسة الإسرائيلية**، ترجمة محمد علي الكيلاني، دار الكتاب، دمشق، 1996م.
- ستيفنس رنسيمان: **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة السيد العريني، دار الثقافة، بيروت، سنة......
- سدني لانجو فورد هايند، **سقوط غرب الكونغو**، ترجمة أحمد العبدلي، ط1، هيئة أبو ظبي الثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، 2010.
- سيف الله آرباجي: **السلطان عبد الحميد الثاني، مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية**، ترجمة عبير سليمان، ط1، دار النيل، مصر، 2011.
- شارل جنيبر: **المسيحية: نشأتها وتطورها**، تحقيق عبد الحليم عبد الله، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1988.
- طمسون، توماس: **الماضي الخرافي للثورة والتاريخ**، ترجمة عدنان حسين، دار القدس، دمشق، 2001م.
- عبد الرحمن البدوي: **الدفاع عن محمد صلى الله عليه وسلم، ضد المنتقصين من قدره**، ترجمة كمال جاد الله، دار العالمية للكتب والنشر.
- فرحات عباس: **ليل الاستعمار**، ترجمة أبو بكر رحال، ANEP، الجزائر 2005.
- فريد أكوورد: **الإرسال الإذاعي الحالي الموجه للمسلمين.**

- فلوريان كولماس: **اللغة والاقتصاد**، ترجمة أحمد عوض، م. و. ث. ف. أ. الكويت، 2000.
- كارل بروكلمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة، نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 2005.
- كارل ماركس، فريديريك أنجل: **حول الدين**، ترجمة ياسين حافظ، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1984.
- كمال أتاتورك: **الرجل الصنم، حياة رجل ودولة**، ترجمة عبد الله عبد الرحمن، الأهلية للنشر، الأردن، 2013.
- كوليين ماكيفيدي: **أطلس التاريخ الإفريقي**، ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1987.
- مكسيم رودنسون: **الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية في تراث الإسلام**، ترجمة محمد زهير السمهوري، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1978.
- هـ. س. أرمسترونج: **الذئب الأغبر**، ترجمة دار الهلال، العدد 12، مصر، 1956.
- هايم ماكيي: **بولس وتحريفه للمسيحية**، ترجمة سمير عزمي الزين، المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، القاهرة، 1991م.
- هنري لوفافر: **كارل ماركس**، ترجمة محمد عياش، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1972.
- هيجل: **موسوعة العلوم الفلسفية**، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت، 1983.
- وات منغمري: **فضل الإسلام على الحضارة الغربية**، ترجمة حسين أحمد أمين، ط1، دار المعارف، مصر، 1983.
- ولثير رودني: **أوروبا والتخلف في إفريقيا**، تر: أحمد قيصر، عالم المعرفة، الكويت، 1988.
- وليام الصوري: **الحروب الصليبية، تاريخ وقائع حدثت وراء البحر**، الجزء 2، ترجمة حسين حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م.
- وليان سبنسر: **الجزائر في عهد رياس البحر**، تعريب عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980.

2- الفرنسية:

- A. T. Khoury: **Les théologiens Bysantins et l'Islam, textes et auteurs (VIII – XIII$_s$)**, cel Louvain, Paris, 1969.
- Adam Hochschild: **Les Fantômes du roi Léopold : La terreur dans l'Etat du Congo (1884-1908),** éd. Taillandier.
- Adel Ismail: **Document diplomatique et consulaire les services Française**, éd., des œuvres politique et historique, Beyrouth, 1976.
- Agéron (G.R): **Les Algériens Musulmans et la France**, T1, éd. P.U.F., Paris 1968.

− Alain de Ribera: **Penser au moyen-âge**, le Seuil, Paris, 1991.

− Alain Ducellier, Chrétiens d'orient et Islam au moyen-âge, éd., Armand Colin, Paris.

− Aldine Rucquoi, l'homme nouveau, CNRS, 2008.

− Alexandre Brou: **Cent ans de missions [1815-1934], les jésuites Missionnaire au XIX et XX Siècle**, éd., Spes, 1935.

− Alphonse Dupront, **le Mythe de la croisade**, éd., Gallimand, Paris, 1997.

− Amar Hamdani: **La vérité sur l'expédition d'Alger**, éd., Balland, 1985.

− Amrouche Fathma: **Histoire de ma vie**, éd. Maspero, Paris 1970.

− André Clément : **La sagesse de Thomas d'Aquin**, nouvelle éditions latines, Paris, 1983.

− André Ravier: **Ignace de Loyola, fon de la compagnie de Jésus**, Paris, DDB - Bellarmin, 1974.

− Antony Philippe: **Mission d'Afrique des pères blancs Tunisie – Algérie – Kabylie, Sahara**, éd. Dillen, Paris 193.

− Arnoux Alexandre Père: **Les pères blancs au sources du Nil (Rounda)**, librairie Missionnaire, Paris, 1950.

− Augustin Bernard: **L'Algérie**, librairie Eilix Alcan, Paris 1929.

− Augustin Lynaud: **Les apôtres de la résurrection de l'église d'Afrique**, Alger 1930.

− Ben Mensour Abd Elhadi: **Alger XVI-XVII siècle**, journal de Jean Baptiste Gramaye, évêque d'Afrique, éd., du cerf, Paris 1998.

− Bermoville Geatan: **Les jésuites**, Paris 1934.

− Bombassei Giorgior: **) (Bombassei Giorgior: L'empire d'occident veut remodeler le moyen orient à son image et ressemblance,** Paris, 2003.

− Bonner-Maury (G): **L'Islamisme et le christianisme en Afrique**, éd. Hachette, Paris 1906.

− Bono Salvator: **Les corsaire en méditerranée**, trad. Ahmed Somaï, éd. la porte, Paris 2000.

− Boucher de la Richaderie: **Bibliographie universelle des voyages**, V3, Paris, 1808.

− Boutin A.: **Anciennes relation commerciales et diplomatique de la France avec la Barbarie (1516-1830)**, éd., Pedone, Paris, 1902.

− Braudel Fernand: **La méditerranée, et le monde méditerranéen, à l'époque de Philippe II**, Paris 1976.

− Bruno Semplicio: **De Marion Bresillac (1813-1859)**, éd. SMA, Rome 2005.

− Bulletin d'œuvres des écoles d'orients 1874-1876.

− Cahier du centenaire de l'Algérie, T2, publication du comité du centenaire de l'Algérie, éd. Dégelait, Orléans 1935, mémoire présenté par le général O. Moynier.

- Carl Hernrich Becker: **L'Islam et la colonisation de l'Afrique**, conférence faite sous le patronage de l'union colonial Française, 22 janvier 1910, éd., Hachette livre, B.N.F, Paris, 2003.
- Catherine Coquery Vidrovith: **L'Afrique noir de 1800 à nos jours**, éd. PEF, Paris 1984.
- Charle André Julien: **Histoire de l'Afrique du nord, Tunisie, Algérie, Maroc, de la conquête Arabes à 1830**, 2ème éd., Payote, Paris 1975.
- Charle Chauvin : **Renan (1823-1892)**, éd., Desclée de Brouwer, 2000.
- Charle Robert Ageron: **France colonial ou partie colonial**, éd. PUF, Paris.
- Charles André Julien: **Histoire de l'Algérie contemporaine (1870-1871)**, T1, éd., PUF, Paris 1964.
- Charles Fraude: **Interprète de l'armée d'Afrique**, **Ajourdan,** librairie éditeur, Alger 1876, p27.
- Charles H. S. J.: **Jésuites missionnaire Syrie, proche orient**, Paris, 1929.
- Charles Robert Ageron: **Les Algériens Musulmans et la France, 1871-1919**, T1, 1ère éd., P.U.F., Paris 1968.
- Charmot F.: **La pédagogie des Jésuites**, éd. Paris 1951.
- Claude Larquie: **La méditerranée, l'Espagne et le Maghreb au XVIIème siècle**, le rachat des chrétiens et le commerce des hommes, les cahiers de Tunisie, tome XLIV n°157-158, 3ème et 4ème trimestre, 1991.
- Claude Prudhomme: **Cinquante ans d'histoire des missions catholiques en France: L'âge universitaire**, in histoire des missions chrétiennes, n°1, 2007.
- Colette et Francis Jeanson: **L'Algérie hors la loi**, le seuil, Paris 1986.
- Comby Jean: **Deux mille ans d'évangélisation**, Desclée, Bibliothèque d'histoire du christianisme, Paris, 1992.
- Coulon et Paul Brasseur: **Liebermann 1802-1848 une pensée un mystique missionnaire**, Paris, éd. du cerf, 1988.
- Dan Pierre: **Histoire de la Barbarie et de ses corsaires**, 2ème éd., Pierre Rocolet, imprimeur et libraire du roi aux armes du roi, Paris, 1946.
- De Aranda Emanuel: **Relation de la captivité et liberté du sieur d'Aranda jadis esclave à Alger**, éd., 3, Bruxelle 1662.
- Delort (R): **Notes sur l'ouvrage du générale Berthezène, intitulé: Dix huit moi à Alger**, imprimerie de J. A., 1934.
- Desiré Marceron: **Pensées de Léon de Rosny**, éd. Alliance scientifique universelle, Paris, 1987.
- Dominique Carnoy: **Représentation de l'Islam dans la France du 17ème XVII siècle**, éd., l'Hamatton, 1998.
- Dominique et Michel: **Encyclopédie**, éd., Robert Laffont, 1999.

- Doudban Jean, P.: **Voyage de la terre Sainte ou contenant l'état de la ville de Jérusalem**, éd., Clouzier, Paris, 1675.
- Dulimeau, Jean: **Histoire du christianisme**, éd., universalis/Albin Michel, 2000.
- Durkeim: **Evolution de la pensée pédagogique en France**, P.U.F.
- E. Dufourcq: **Les aventures de Dieu**, éd., Pévin, Paris 2009.
- E. Dufourcq: **Les Aventurières de Dieu**, éd., J. C. Taltes, 1994.
- E. Dufourcq: **Les congrégations religieuses Hor d'Europe**, **de Richelieu à nos jour**, éd., l'Inde éditeur, 1994.
- Edmond Juvien la Gravier: **La guerre de chypre et la bataille de Lépante**, 2ème éd., Daville, Paris, 2011.
- Edward. W. Saïd: **Culture et Impérialisme**, éd., Fayard, Paris, 2000.
- Edward W. Said, **L'orientalisme, l'orient crée par l'oxident**, éd., de Seuil, Paris, 1980.
- Emmanuel de Waresquiel: **Le prince immobile**, Fayard, Paris, 2003.
- Ernoult Jean: **Les Spirilaines au congo, de 1865 à nos jours, Matériaux pour une histoire de l'église au Congo, collection mémoire**, éd., Spiritains étude et congrégation du Saint-Esprit, 1995.
- Etienne Chastel: **Histoire du Christianisme depuis son origine à nos jours**, édition G. Eischbacker, T1, Paris, 1881.
- Eugène Vayssettes: **Sauvons les maronites par l'Algérie et pour l'Algérie, solution provisoire de la question d'orient**, éd., LEN, 2017.
- Fathma Aith Mansour Amrouche: **Histoire de ma vie**, éd. la découverte, Paris 2005.
- Ferro Marc: **Histoire des colonisations, des conquêtes au indépendances XII-XX**, éd., du Seuil, Paris 1994.
- François le Brun Dic, **Les grandes dates du christianisme**, éd., Larousse, 1989.
- François Lebrum: **Les grande dates du christianisme**, éd., Larousse, Paris, 1989.
- François Rnault: **le Cardinal Lavigerie, 1825-1892.**
- François Rousseau: **Moines Bénédictins, Martyrs et confesseurs de la foi pendant la révolution**, éd., Desclée de Brouwer, 1926.
- Fréderic Manns: **Qu'est ce que la nouvelle évangélisation**? Montrouge, Bayard 2012.
- Gaston Beanouille: **Anne-Marie Javouchey, fondatrice des sœurs de St Joseph de Cluny une gloire de la France Missionnaire**, éd. Bernard Grasset, Paris, 1942.
- Gaston Duchet-Suchaux: **Les ordres religieux**, éd., Flammarion , Paris, 1993.
- Georges Jehel: **Questions d'Histoire, orient et occident du IXème au XVème siècle**, éd., du temps, Paris 2000.
- Gérard Pelissié du Rausas: **Le régime des capitulations dans l'empire Ottoman**, éd., Rousseau, Paris 1928.

− Gérard. J. et Margolin J. C.: **Voyager à la renaissance Maisonneuve et Larose**, 1986.

− Gilbert Meynier: **L'Algérie des origines de la préhistoire à l'avènement de l'Islam**, la découverte, Paris 2007.

− Gilles Manceron: **Le tournant colonial de la république**, éd., la découverte, Paris 2006.

− Gilson Etienne: **La philosophie au Moyen âge**, vol. 1, éd., Paris, 1922.

− Googan Michael. D.: **Les grandes religions**, éd. La Rousse-Bordas, Paris 1999.

− Goyau. G.: **La France missionnaire dans les cinq partie du monde**, T2, Paris, 1904.

− Goyau. G.: **La France missionnaire dans les cinq partie du monde**, T2, Paris, 1904.

− Gratien de Paris: **Les Bénédictines du calvaire, le Père Joseph du Trembley et le veu de Louis XIII**, d'après des documents inédits, Paris, 1938.

− Gretineau Joly Jacques: **Histoire religieuse, politique et littéraire de la compagnie de Jésus**, T2, Hachette Livre, Paris, 1851, T2.

− Guillaume de Vaumas: **Lettres et documents du Père Joseph de Paris, concernant les missions étrangères, (1619-1639)**, éd., imprimerie Expresse, Lyon, 1942.

− Guillaume Jedrzczak : **Règle de Saint Benoit**, éd., Petite bibliothèque monastique.

− Guillemain H. et Lester F.: **Histoire de France**, du cours moyen au certificat d'études, éd. les éditions des écoles, Paris.

− Hadjjar Joseph: **L'Europe et les destinées du proche orient (1815-1848)**, Belgique, 1970.

− Haëdo Fray Diego: **De la captivité à Alger**, trad. par Moliner Violle, Alger, 1911.

− Henri Maurier: **Les missions, religions et civilisation, confrontées à l'universalisme**, éd. du cerf, Paris 1999.

− Henri Wesseling: **Les empires coloniaux européens (1815-1919),** Collection Folio Histoire, éd. Gallimard, Paris 2004.

− Henri-Charles Puech (direc): **Histoire des Religions**, ed. Gallimard, Paris, 1976.

− Hisoire et considération de l'origine, costumes des Tatares, Persiens, Arabes, Turcs, et tous autre Ismailistes, ou Mouhamedique ou Sarrazins.

− Ivan, Gobry: **Les Moines en occident, du Saint Benoit, d'Aniane à Saint Bruno (750-1100)**, éd., Guibert, 2005.

− J. Comby: **Deux mille ans d'évangélisation**, éd., Desclée, Paris 1992.

− J. Gerard- Libois et Benoit Kerhaegen: **Congo 1960**, Bruxelles, centre de recherche et d'information socio-politique. C.R.T.S.P 1961, T1.

− J. Hayjar: **L'Europe et les destinées du Proche-Orient [1815-1848]**, éd., Bloud et Gay, Belgique, 1970.

− J. J. Roy: **Histoire Abrégée des mission catholique dans les divers partie du monde, depuis la fin du XV^ème^ siècle, jusqu'à nos jours**, 6ème éd., tours Alfred Mame et fils, Paris, 1990.

- J. Nasrllah: **Saint Jean de Damas, Son époque d'orient, son œuvre**, offdes éd., univ., Paris, 1950.
- J. Tiquet: **Une expérience de petite colonisation en Algérie, les colons Arabes chrétiens du cardinal Lavigerie**, Alger 1936.
- Jacque Frémeaux : **La France et l'Islam depuis 1789**, éd. PUF, Paris 1991.
- Jacque le Gofb: **Saint Louis, collec follio histoire**, éd., Gallimand, 2013.
- Jacque, Certineau-Joly: **Histoire religieuse politique et littéraire de la compagnie de Jésus [1845-1846]**, T3.
- Jacques Dalloz, Georges Bidault: **Biographie politique**, l'Harmattan, Paris 1993.
- Jacques Dubois: **Les ordres monastiques**, éd., PUT, Coll., que sais-je? 1985.
- Jacques Humbert: **Charles de et la milice chrétienne, 1598-1625**, in Histoire Militaire, n°68, année 1987.
- Jacques le Goff: **Les intellectuels au moyen âge**, éd., le Seuil, Paris, 1962.
- Janin R.: **Les Eglises Orientales et les rites Orientaux**, Letouzey et Ané, Paris 1970.
- Jean Baptiste Glaire: **Encyclopédie catholique répertoire universel et raisonné des sciences, des lettres des Arts et des Métiers**, Tome 14, parent Desbarres éditeur, Paris.
- Jean-Claude Geillier: **Histoire des missionnaires d'Afrique (père blancs) de la fondation par Mgr Lavigerie à la mort du fondateur (1868-1892)**, éd., Karthala, Paris, 2008.
- Jean Carnier: **Charles X le roi proscrit**, éd., ……..., Paris 1967.
- Jean Claude Ceillier: **Histoire des missionnaires d'Afrique, Père Blanc, de la fondation par Mgr Lavigerie à la mort du fondateur (1868-1892)**, éd., Karthala, Paris, 2008.
- Jean Comby: **Deux mille ans d'évangélisation**, bibliothèque d'histoire du christianisme, Desclée, Paris, 1992.
- Jean Delumeau: **Histoire du Christianisme**, éd. Universalis, Alben Michel, Paris, 2000.
- Jean Gaulmier: L'idéologue Volney, éd., imprimerie catholique, Bayrouth, 1951.
- Jean Lecerf: **Littérature Dialectale et renaissance arabe moderne**, in bulletin d'études orientales, T2, n°2, institue Français du Proche-Orient, Liban, 1932.
- Jean Sprecher: **A contre courant étudiants et progressistes à Alger 1954-1962**, éditions Bouchene, Paris 2000.
- Jean-Ive Lacoste Divc: **Dictionnaire Théologie**, éd., PUF, 1998.
- Jean-Michel Vasquez: **La cartographie missionnaire en Afrique**, **science, religion et conquête (1870-1930)**, éd., Karthala, Paris, 2011.
- Joseph Kelly: **Dictionnaire Christianisme ancien**, Tr: Jean Denis Berger, ed. originale, The concise dictionary of early Christianity the liturgical press, 1993.
- Joseph Ki-Zerbo: **Histoire de l'Afrique noir**, éd. Hatier 1978, chapitre 10, p326.

- Joseph-Burmichon: **La compagnie de Jésus en France, histoire d'un siècle 1418-1914**, Paris 1916.
- Josèphe-Royer: **Colonisation et évangélisations, des père jésuite**, édition et publication, Caire, 1985.
- Joseph-Ki-Zerbo: **Histoire de l'Afrique noire de 1800 à nos jours**, éd., PUF, Paris, 1989.
- Jules Tournier: **La conquête religieuse de l'Algérie**, éd., Plon, Paris 1930.
- Julien Duchâteau: **Une création scientifique**, éd. Dentu - Bouchard – Huzard, Paris, 1874.
- Karle Marx: **Pour une critique de la philosophie du droit de Hegel**, trd, de Jules Molitor, éd., Allia, Paris 1998.
- Klein (N): **Feuillets d'el-Djazair, l'enseignement à Alger depuis la conquête**, éd. Fontana, Paris 1920.
- L'abbé Burzet: **Histoire des désastres de l'Algérie 1866-1867**, éd., imprimerie centrale Algérienne, Alger, 1968.
- L'Eglise, **La France**, éd., Fayard, Paris, 1992.
- **La flagellation chez les jésuites (mémoire historique)**, éditeur H. Daragon, Paris 1912.
- Laugier de Tassy: **Histoire du Royaume d'Alger**, éd., Loysel, Paris 1992.
- Le Baron Berthezène: **Dix huit moi à Alger, ou récit des évènements qui s'y sont passés**, éd., Montpelier 1834.
- Le cardinal Lavigerie: **Œuvres pastoral**, 3ème vol, imp. Joudan, Alger 1878, contre rendu au pape.
- Le Sourd Paul: **L'œuvre civilisatrice des pères blancs**, Paris 1931.
- Leburn François: **Les grandes dates du christianisme**, éd., Larousse, Paris, 1989.
- Les actes du XIV congrès international des orientalistes, Alger 1905, éd. Erneste Leroux, Paris, 1907.
- Les ordres bénédictins, toute l'histoire des bénédictins, éd., MSM, Paris 2007.
- Lesourd (Paul): **L'œuvres civilisatrice des pères** blancs, éd., Desclée de Brouwer, Paris 1931.
- Lesourd Paul: **Histoire des missions catholique Françaises**, imp. de l'Arc, Paris 1937.
- Louis Dedouvres: **Le père Joseph de Paris, capucin l'éminence grise**, in revue d'histoire de l'église de France, T19, année 1933, n°84.
- M. S. Delacroix. D.,: **Histoire Universelle des missions catholiques**, **des origines au 18ème siècle**, T1, éd., librairie grund, Paris 1956.
- Malek Bennabi : **L'œuvre des orientalistes son influence sur la pensée islamique modernes**, conférence donnée à la Mosquée des étudiants de l'université d'Alger, 1968.
- Marçais Philippe: **Esquisse grammaire de l'Arabe Maghrébin**, librairie d'Amérique et d'Orient, Paris, 1977.

− Marcel Emérite: **Le problème de la conversion des Musulmans d'Algérie entre Mac Mahon et Lavigerie**, in revue historique, janvier-mars 1960.

− Marie-Thèrèse d'Alverny: **Deux traduction latines du coran au moyen âge**, vol 22-23, Paris.

− Maurice Bucaille, **La bible, le Coran, et la science,** les écritures Saintes examinées à la lumière des con-naissance modernes, éd., Seghess, Paris, 1976.

− Maurier H.: **Les missions, religions et civilisation confrontées à l'universalisme**, éd., du Serf, Paris, 1955.

− Mgr A. Boucher: **Au Congo Français les missions catholique**, T3, librairie Pierre TEQUI, Paris, 1928.

− Mgr Baunard: **Le cardinal Lavigerie**, Tome I, éd. Paris 1922, préface.

− Mgr Baunard: **Le cardinal Lavigerie**, Tome II, éd. J. De Gigord, Paris 1922.

− Michel Baudier, histoire générale de la religion des Turc avec la naissance et la mort de leur prophète Mohamet et les actions des quatre premiers califs qu'il l'ont suivie chez Iean Berthelin, dans la cour du palais.

− Michel Mourre (sir): **Dictionnaire encyclopédique d'histoire**, vol 8, T3, Bordas, Paris, 1986, p204.

− Millman Richard: **Les croix de feu et l'antisémitisme**, in vingtième siècle, revue d'histoire n°38 avril-juin 1993.

− Moreri, Louis: **Le grand dictionnaire historique**, Girin et Rivière, Lyon, 1674.

− Moulay Belhamissi: **Alger, l'Europe et la genre secrète 1518-**1830, éd., Dahlab.

− Moulay Belhamissi: **Histoire de la marine Algérienne (1516 – 1830)**, 2ème éd., ENAL, Alger 1986.

− Moulay Belhamissi: **Les captifs Algérien et l'Europe chrétien 1518-1830**,

− Moustapha Lachref: **L'Algérie nation et société**, éd., Français Maspero, Paris 1969.

− Musset H.: **Histoire du Christianisme spécialement en Orient**, Harissa, Liban, imp. S. Paul, 1948-1949, vol 3.

− Nau Michel, S. J.: **Voyage nouveau de la terre Sainte enrichi de plusieurs remarques qui servent à l'intelligence de la Sainte écriture,** éd., limin et pralard, Paris, 1979.

− Œuvres complètes de Chateaubriand, augmentées d'un essais sur la vie et les ouvrages de l'auteure, **Le génie de christianisme**, éd., Krabbe, libraire-éditeur, Paris 1657.

− Olivier le Cour grand maison: **La République impérial, politique et racisme d'état**, éd. Fayard, Paris 2009.

− Palicot Reynaud: **La république racial et idéologie républicaine 1860-1930**, éd., PUF, Paris 2006.

− Pascale Rabault-Feuerhahn: **Les grandes assises de l'orientalisme**, la question interculturelle dans les congrès internationaux des orientalistes (1873-1912), revue germanique international, éd. CN.R.S., 8 novembre 2010.

− Paul Claval: **La géographie culturelle**, une approche des sociétés et des milieux, éd. Nathan, Paris 1995.

− Paul-Hubert Poitier: **Une première étude de contra Manichoos de Titus de Bostra**, Paval théologique et philosophique, vol 61, n°02, 2005.

− Philipe Le Vilaine, Direc: **Dictionnaire historique de la papauté**, éd., Vaiare, Paris, 1994.

− Philippe Maury: **Evangélisation et politique**, éd., Labor et Fides, Genève 1957.

− Pirotte Jean: **Périodique missionnaire belges d'expression Française**: reflets de cinquante année d'évolution d'une mentalisé, 1899-1940, Louvain, P.U. de Louvain, 1973.

− Pouillon François: **Les deux vie d'Etienne Dinet, peintre en Islam, l'Algérie et l'héritage colonial**, éd., Bolland, Paris.

− Prevost et Roman d'Amat: **Dictionnaire de Biography Française**, T5, Paris 1951.

− Primo J. L. François: **Histoire universelle des missions catholique**, Tom 2, Paris, 1958, éd., Libraire Grun.

− R. Amerio, Lota Unum: **Etude des variations de l'Eglise catholique au XX siècle**, éd., 1987.

− Raoul Girardet: **La Société Militaire de 1815 à nos jour**, éd. Perrin, 1998.

− Raymond Boudon, Philippe Besnard: **Dictionnaire de la Sociologie**, 2ème éd La Rousse, 2012.

− Remond Lulle: **Le livre du gentil et des trois sages**, traduit par Armand Linarès, éd., Cerf, Paris 1993.

− Renault François: **Le Cardinal Lavigerie, (1825-1892),** L'Eglise, La France, éd., Fayard, Paris, 1992.

− René Guennou: **Les missions catholiques**, in histoire des religions, éd., Gallimard, Paris 1972.

− René Guennou: **Les missions étrangères**, Paris 1963.

− Repeticci Chamoine: **L'Algérie chrétienne 1830-1930**, esquisse historique, éd. notre dam, Alger.

− Repeticci Curé de Maison Carrée: **L'Algérie chrétienne, esquisse historique (1830-1930)**, Alger, sans date.

− Roger Gerber: **Le mouvement adventiste**, éd., signes des temps, Paris 1950.

− Roger Luc Mary: **Les grandes Religions, Mystères, Magie, Philosophie, Histoire**, éd. Vecchnie, Paris, 1996.

− Rustichello de Prise: **Les voyages de Marco Polo**, trad., Henry Yule, Paris 1903.

− Schnerb Robert: **Le XIIème Siècle, l'apogée, de l'expansion européenne (1813-1914)**, 3ème éd., Paris, 1968.

− Sebastien Boussois, Maxime Rodinson : **Un intellectuel, du XXème siècle**, éd. Riveneuve, Paris, 2008.

− Sieur Du Ryer: **L’Alcoran de Mahomet, chez Antoine de Somma ville**, Paris, 1647.

− Simon Jargy: **Islam et Chrétienté, Labor et Fide**, publication orientalistes de France, Paris, 1981.

− Société des missionnaires d’Afrique (pères blancs) les ordres religieux, 6ème éd. Letouzey et Ané, Paris 1924.

− Sommervogel C. S. J.: **Bibliothèque de la compagnie de Jésus**, Vol 1, éd., S.U. et Omort, 1960, Bruxelles.

− Steve Vomini, Cultures historiques dans la France a XVIIème siècle, Paris, l’Harmatton, 2000.

− Storme Marcel: **Rapports du Père planque de Mgr Lavigerie et de Mgr Comboni sur l’association international Africaine**, Bruxelles, 1957.

− Surius Bermardin, P.: Le pieux pèlerin, ou voyage de Jérusalem, divisé en trois livres contenants la description topographique de plusieurs royaumes, pays, villes, nations étrangère, nommément des quatorze religions orientales, leurs mœurs et humeurs. Joint un discours de l’Alcoran et un traité de la cité de Jérusalem et de tous les Saint lieux de la Palestine, le tout remarqué et recueilli, éd., François Foppens, Bruxelles, 1666.

− T. Viliano: Le coran des latins, un impossible décentrement? les deux cas exemplaire de Robert de Ketton et Jean de Segovie, in RHR N°78, Juin 2014.

− Thierry Lentz: **Savary le séide de Napoléon**, éd. Fayard, Paris, 2001.

− Tiquet Jules: **Les colons Arabes chrétiens du Cardinal Lavigerie**: éd., maison carré, imp. des pères blancs, Alger 1936.

− Tiquet Jules: **Les colons arabes chrétiens du cardinal Lavigerie**, imp. Des pères blancs, maison carrée, 1936.

− Torchon de Lorier. R.: **Episode d’un pèlerinage en terre Sainte, 1644**, acte du 2ème congrès des société d’histoire et d’archéologue de l’Aisne 15 mai 1966, Tome 12, éd., imprimerie Chauny, 1966.

− Wesseling Henri: **Les empires coloniaux européens [1815-1919]**, éd., Gallimard, Paris 2009.

− Xavier Demanclos: **Lavigerie et le saint siège**, Paris 1965.

− Yvonne Turin: **Les affrontements culturels dans l’Algérie coloniale, école, médecines, religions (1830-1880)**, éd. Enal, Alger 1983.

III− دراسات، رسائل جامعية:

1− العربية:

− بلعيش فاطمة: **حماية أسرى الحرب في القانون الدولي الإنساني**، ماجستير، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، الموسم الدراسي 2008/2007م.

- حفيظة خشمون: **مهام مفتدي الأسرى والتزاماتهم الاجتماعية في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية**، مذكرة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، الموسم 2007/2006م.
- دليلة بوجناح: **الفكر الاستعماري الفرنسي وتطوره خلال القرن التاسع عشر من خلال النظريات والممارسات**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، 2011-2012م، جامعة الجزائر.
- سجية مخلوف بن تونس: **التنصير في منطقة القبائل، أسبابه وعوامله**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر 2، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم النفس، الجزائر، 2014.
- سعيد بوخاوش: **المقاومة الجزائرية للسياسة اللغوية الفرنسية 1830-1945**، مذكرة ماجستير للموسم الدراسي 2012/2011م، جامعة الجزائر.
- عبد الرؤوف قرناب: **علماء الجزائر في الرد على التنصير إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1962م)**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، علوم شرعية، مقارنة الأديان، الجزائر، 2014-2015م.
- علي بن محمد العواجي: **جهاد المسلمين ضد الصليبيين في المغربين الأدنى والأوسط في القرن 8هـ/14م**، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1990م.
- محسن بن علي بن صالح سويسي: **مؤتمرات المستشرقين، نشأتها، تكوينها، أهدافها**، رسالة دكتوراه، الموسم الجامعي 1998م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

2- الفرنسية:

- Chandal Verdeil: **Les jésuites en Syrie (1831-1864) une mission au près des chrétiens d'orients du temps des reformes ottomanes**, thèse de doctorat soutenue à l'université Paris IV sous la direction de J. Frémeaux, septembre 2009.
- Chandal Verdeil: **Les jésuites en Syrie (1831-1864) une mission au près des chrétiens d'orients du temps des reformes ottomanes**, thèse de doctorat soutenue à l'université Paris IV sous la direction de J. Frémeaux, septembre 2009.
- Jean-Luc Burlaits: **Les missions catholiques (1868-1914)**, in Hebdomadaire au service de la propagation de la fois, mémoire de maitrise, université Lyon III, 2001-2002, p120.
- Richard Drevet: **Laïques de France et mission catholique au XIX:** L'œuvre de la propagation de la fois, origine et développement Lyonnais (1822-1922), thèse université Lyon II, février 2002,
- Richard Drevet: **Laïques de France et missions catholiques du 19: L'œuvre de la propagation de la foi, origine et développement lyonnais (1822-1922)**, thèse université Lyon II, février 2002.

IV- الدوريات والملتقيات:

1- العربية:

- علي بن محمد عودة الغامدي: **الراهب الفرنسيسكاني ريموند لولو محاولاته نشر النصرانية في شمال إفريقيا**، مجلة المؤرخ العربي، المجلد 1، العدد 6، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، مارس 1998.
- إبراهيم الزين صغيرون: **لمحات تاريخية عن انتشار الإسلام في أوغندا**، مجلة كلية العلوم الإنسانية، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، عدد 6، 1986م.
- إبراهيم لونيسي: **الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر والتأسيس للقضاء على الإسلام وتنصير المجتمع في بدايات الاحتلال**، الحوار المتوسطي، العدد الأول، جامعة سيدي بلعباس، 2011.
- إبراهيم محمد أحمد بلولة: **البعد الديني للكشوف الجغرافية**، مجلة الشريعة للدراسات الإسلامية، العدد السادس، مركز التنمية المجتمع، جامعة إفريقيا العالمية، السودان، 2005.
- أحمد إدريس الطعان: **تاريخ الدين والوحي في الإسقاطية العلمانية**، مجلة الحياة، ع13، 2009م.
- أحمد الدايم محمد حسين: **الاقتصاد الإفريقي في كتبات الرحالة الأوروبيين في القرن 19**، مجلة قراءات إفريقية، العدد 21، جويلية – سبتمبر، القاهرة، 2014م.
- بيان حسن صالح: **تبديد الأوهام: الأهداف الحقيقية للتداعي على إفريقيا**، مجلة القراءات، العدد 9، جويلية 2011.
- الحبيب الجنحاني: **حركة التبشير والسياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب العربي في القرن التاسع عشر**، مجلة الأصالة، سبتمبر – أكتوبر 1973.
- السيد محمد الشاهد: **الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين في مجال الاجتهاد**، العدد 22، السنة السادسة، 1994م.
- المهدي رزق الله أحمد: **أساليب المنصر للوصول إلى أهدافهم في المجتمعات الإسلامية المعاصرة**، مجلة البحوث الإسلامية، عدد 22، سنة 1408هـ.
- بوجمعة وعلي: **الدعوة إلى العامية في الوطن العربي، ثبات الأهداف وتحول الأساليب**، المنهل.
- جواد كاظم نصر الله، شهيد كريم الكعبي: **الاستشراق الفرنسي والبعثات اليسوعية، لقاء الاستشراق والتبشير**، دراسات استشراقية، العدد الرابع، ربيع 2015م.
- حسين بوزينب: **أمثال عامية بالمغرب**، منشورات أكاديمية المغرب، الدار البيضاء، 2001م.
- روجي الخالدي المقدسي: **الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة**، مجلة الهلال، العدد 07، جانفي 1908.
- صالح محمد الصقري: **مركز دراسات الشرق الأوسط في الغرب واهتمامها بالمسلمين**، الشرق الأوسط، العدد 5448، 28 أكتوبر 1993.
- عبد الجليل التميمي: **التفكير الديني والتبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر في القرن 19م**، المجلة التاريخية المغاربية، عدد 1، 1999.

- عبد الجليل التميمي: **انطباعات حول أهمية الدين في الممتلكات الفرنسية بإفريقيا،** المجلة التاريخية المغاربية، العدد 1، عام 1975.
- عبد الجليل التميمي: **دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس 1830 – 1881م،** المجلة التاريخية المغربية، ع1، جانفي 1975.
- عبد الحميد بن باديس: **جاء الحق وزهق الباطل،** البصائر، ع1، سنة 1935.
- عبد الفتاح أحمد أبو زايدة: **التبشير الصليبي والغزو الاستعماري،** منشورات رسالة الجهاد، مالطا، 1988.
- عبد الله يوسف سهر محمد: **المؤسسات الاستشراقية والسياسة الغربية اتجاه العرب والمسلمين،** مركز الدراسات والبحوث الاستشراقية، عدد 57، الإمارات، 2001.
- عز الدين العراقي: **التبشير أخطر أسلحة الاستعمار،** مجلة البيئة، الهلال، مج71، ع10، أكتوبر 1973.
- عمار هلال: **التنافس التبشيري الحديث في إفريقيا السوداء،** مجلة الثقافة، العدد 78، السنة 13 نوفمبر – ديسمبر، وزارة الثقافة، 1983.
- غروست روبيرث: **العلم في منظوره الجديد،** ترجمة كمال خلايلي، عالم المعرفة، الكويت، ع10.
- فهد السامري: **الاستشراق الأكاديمي،** المسلمون، العدد "4"، الرياض، 1410هـ.
- ليلى حمدون: **الصحافة المصرية بين عهد الانتداب البريطاني وقيام الثورة المصرية في 1952م،** مجلة الصحافة الإلكترونية، العدد 11، 2000.
- مازن صلاح مطبقاتي: **المؤتمرات الاستشراقية الحديثة، حول الإسلام والمسلمين،** مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، 2007م.
- مجلة العالم الإسلامي التنصيرية، عدد جوان، 1930م.
- محمد الرشيدي بك، آل الحجازي: **بعثة تنصير المحمديين، برنامجها، كبدها للإسلام والمسلمين،** مجلة المنار، المجلد25.
- محمد محمد أمين: **شمال إفريقيا والحركة الصليبية (1189 – 1390م)،** مجلة الدراسات الإفريقية، العدد 3، سنة 1974، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، مصر 1975م.
- محمد محمد حسين: **حصوننا مهددة من داخلها، دعوة الاستعمار إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام،** ط5، مجلة الأزهر، المجلد 29 العدد 3، مشيخة الأزهر، مصر، 1957م.
- محمد هاشم عوض: **مراحل وأساليب انتشار الإسلام والمسيحية في إفريقيا،** مجلة دراسات إفريقية، العدد 15، درا جامعة إفريقيا العالمية للطباعة والنشر، السودان، 1996.
- محمد وحيدي: **بين الفصحى والعامية، أغاليط الخطاب التلهيجي،** اللسان العربي، العدد 71، 2013م.

- منى حماد: **الأسرى المسلمون والصليبيون وطرق معاملتهم**، مجلة الآداب، عمّان، مج2، ج2، الأردن، 2014.
- وليد قصاب: **الدعوة إلى العامية من يوقظها**، مجلة فيصل، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، العدد 224، الرياض، 1995م.

2- الفرنسية:

- A. M. Henry, A. Yannoulatos, J. Bauberot: **Histoire des missions**, in Encyclopedia Universalis, 2001.
- Benoist Pierre: **Le Père Joseph, l'empire ottoman et la méditerranée au début de XVII^{ème} siècle**, in cahier de la Méditerranée 71, 2005.
- Cardinal Lavigerie: **Première instruction aux pères blanc de l'Afrique équatorial**, in écrits d'Afrique, éd. Bernard Grasset, Paris 1966.
- Elia Qoudsi: **Notice sur les corporation de Damas**, in Actes du sixième congrès international des orientalistes en 1883, à Leyde, II^{ème}……, section 1, sémitique, éd. Brille, Leyde, 1885.
- André Fortin: **Les jésuites et le parti prêtre,** revue du nord, tome 33, n°132, octobre-décembre 1951.
- Arboit Gerald: **De l'immigration des maronites: un aspect de la politique Française à l'égard des communautés chrétiennes de Syrie entre 1848 – 1870**, in revue Française d'histoire d'outre-mer, tome 87, n°328-329, 2ème trimestre.
- **Du Mesnil Du Buisson conte: Les jésuites en Syries (1838-1931)**, in Syria Revue d'Art oriental et d'Arch, Tome 13 Fascicule, 1, librairie oriental Paul Geuthner, Paris, 1932.
- Félix Klein: **Mgr Pavy et la question Arabe le correspondant**, in revue d'histoire contemporaine, T3, n°1901,
- Forey Joseph: **Du système des patronats à la congrégation 1949 de la propagande**, revue Rythme du monde 1949, Paris 1949.
- Georges Goyou: **La charité Française dans l'Algérie conquise**, revue des deux mondes, septembre 1930.
- Georges Yver: **Les Maronites et l'Algérie**, revue Africaine, vol. 61, n°304-34/1920, 3ème et 4ème trimestre de 1920.
- Grandchamp Pierre: **L'esclaves chrétien en Barbarie au XVII^{ème} siècle**, revue Africaine, 1949.
- Le cardinal Lavigerie: **Fondateur de la société des pères blancs**, revue des missions d'Afrique, des pères blancs, n0329,

- Louis Jalabert: **La conquête missionnaire par l'influence intellectuelle**, in revue d'histoire des missions n°1, 1939.
- Marcel Emirit: **La lutte entre ces généraux et les prêtres au début de l'Algérie Française**, revue Africaine, n°99, éd., office des publication universitaires, 1953.
- Pons Mgr A.: **La nouvelle église d'Afrique ou le catholicisme en Algérie, en Tunisie et au Maroc depuis 1830**, revue d'histoire des colonies Française, tome 19, n°80, mars-avril 1931, éd., société de l'histoire de colonies Française, Paris 1931.
- Vincent Haegele: **Le Marquis de Clément Tonnerre**, Ministre de la guerre, et le renforcement de l'armée Française, sous Charles X (1825-1828), revue historique des armées, n°270/2013, éd., service de la défense.
- Yvonne Turin: **Instituteur et colonisation en Algérie au 19ème** siècle, extrait du fascicule n°476, oct-nov 1965, revue historique, trimestriel, éd., PUF, Paris 1970.
- Yvonne Turin: **La commune d'Alger et ses écoles en 1871**, revue historique n°496 oct-nov, éd. P.U.F., Paris 1970.

الجرائد:

- جريدة المدينة، الأحد 23 سبتمبر 1979م، ع297.
- عز الدين عناية: **الحضور المسيحي في المغرب الكبير**، الخبر، ع7888، 2015/08/21.
- عز الدين عناية: **الحضور المسيحي في المغرب الكبير**، جريدة الخبر، العدد 7888، ليوم 21 أوت 2018م.
- مصطفى نويصر: **الدعوة إلى البربرية والدارجة صناعة استعمارية فرنسية**، الشروق العربي، 2018-04-20.
- نصيرة سيد علي: **هدم من فرنسا الاستعمارية، تاريخ الجزائر يبكي مسجد السيدة**، جريدة الحوار، 2009-09-14.

الملتقيات:

- المهدي بوعبدلي: **آثار التبشير المسيحي في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي وبعده**، محاضرات الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي، منشورات التعليم الأصلي والشؤون الدينية، المجلد الرابع، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1975.
- عثمان عكاك: **التبشير والتخطيط التبشيري**، الملتقى السابع للتعريف على الفكر الإسلامي، المجلد الثالث، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، 1975.
- محمد عمارة: **إستراتيجية التنصير في العالم الإسلامي**، دراسة في أعمال مؤتمر كولورادو لتنصير المسلمين، أو بروتوكولات قساوسة التنصير ومركز دراسات العالم الإسلامي، مالطة، 1992م.

V- المعاجم:

1- العربية:

- بطرس عبد المالك وآخرون: **قاموس الكتاب المقدس،** كومبدارى للنشر.
- جميل صليبا: **المعجم الفلسفي،** ج1، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، 1993م.
- جميل مدبك، المشرف العام: **موسوعة الأديان في العالم، المسيحية، الكنائس الشرقية،** ج1، ط أصلية "Grepoint"، بيروت، 2001-2001.
- عبد الرحمن البدوي: **موسوعة المستشرقين،** دار العلم للملايين، بيروت، 1993.
- عبد المنعم حفنة: **المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة،** مكتبة المذبولي، مصر 2003.
- معجم اللغة العربية، **معجم الوسيط،** مكتبة السرور الدولة، 2004.
- الفيروز أبادي، مجد محمد بن يعقوب: **القاموس المحيط،** ط1، مكتبة تحقيق التراث، بيروت، 1987.

2- الفرنسية:

- Adolphe Robert et Gaston Cougny: **Dictionnaire des parlementaires Français**, éd., Edgar Bourloton, Paris, 1889-1891.
- Dictionnaire du moyen âge, Histoire et société, Encyclopedia Universalis, 2015.
- Le grand Larousse Universel. T6, éd. I.N.C, Paris 1997.

فهرس الأعلام والأماكن والمفاهيم

1- فهرس الأعلام:

2- الأماكن:

3- المفاهيم:

فهرس الموضوعات